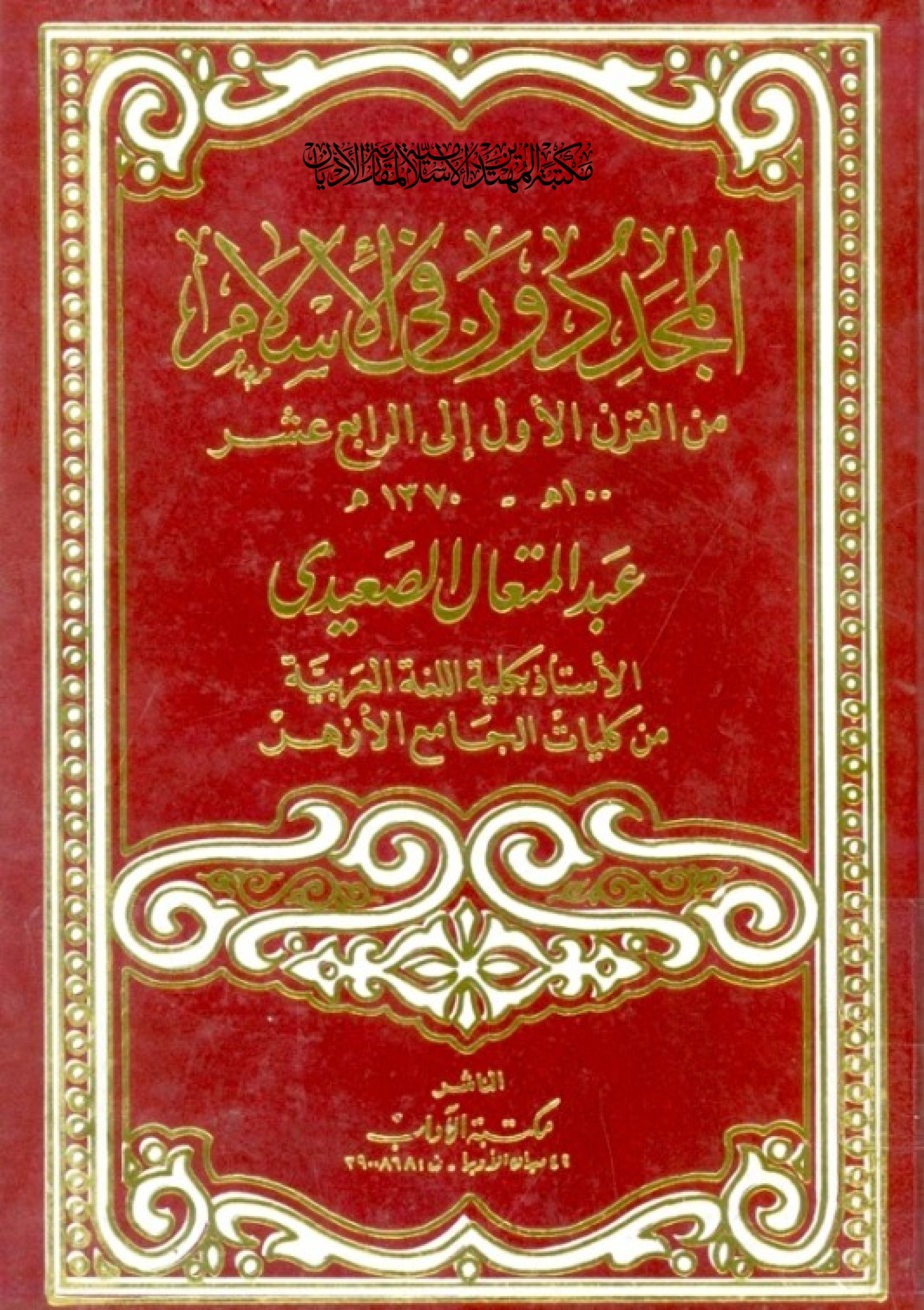

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان
المجددون في الإسلام
من القرن الأول إلى الرابع عشر
١٠٠ هـ - ١٣٧٠ هـ
عبد المتعال الصعيدي
الأستاذ بكلية اللغة العربية
من كليات الجامع الأزهر
الناشر
مكتبة الآداب
١٩ ميدان الأوبرا - ت ٣٩٠٨٦٨١



١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

المجدِّدون فى الإسلام

من القرن الأول إلى الرابع عشر

١٠٠ هـ - ١٣٧٠ هـ

« إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس
كل مائة سنة مَن يجدِّد لها دينَها »
حديث شريف

عبد المتعال الصَّعيدى
الأستاذ بكلية اللغة العربية
من كليات الجامع الأزهر

١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م

ملتزم النشر والطبع
مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الاوبرا القاهرة
ت: ٣٩٠٠٨٦٨



بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء الكتاب

هذا كتاب عزيز علىَّ ؛ لأنه يؤرخ حركةَ التجديد فى الإسلام ، وهى أرقى الحركات التى حدثت فيه ·

وإنى أهديه إلى صديق عزيز علىَّ ، وجدتُ من نبله وفضله ما لم أجده من غيره ؛ فله وحده فضل البدء فى مساعدتى فى جهادى فى سبيل الإصلاح والتجديد ، وبذل ماله فى نشر ما يراه نافعا لوطنه ودينه من مؤلفاتى ·

وهذا الصديق العزيز علىَّ ، هو الأستاذ على حسن ، صاحب مكتبة الآداب والمطبعة النموذجية بالقاهرة ، وإنى ليسرنى أن يُذكر اسمه بجانب اسمى فى هذا الكتاب ؛ تقديراً لفضله ، وتخليداً لذكره ·

عبد المتعال الصعيدى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بعث رسله بالتجديد والإصلاح فقال على لسان أحدهم وهو شعيب عليه السلام : ﴿ إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلاَحَ مَا استَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِى إلاَّ بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[١] والصلاة والسلام على محمد المبعوث رحمة للعالمين ، بشريعة تكفل لأصحابها النهوض إذا كبوا ، وتجدد ما يبلَى فيهم إذا بلوا ؛ فلا يحتاجون إلى شئ بعدها ينهض بهم كما احتاجت الأمم قبلهم لعجزها عن تجديدهم ؛ لأنها أتت صالحة لكل زمان ومكان ، غنية بعوامل التجديد فى كل الظروف والأحوال ، فلا يقف أصحابها عن النهوض لشىء منها يحول دون اطِّراد نهوضهم ؛ وإنما يقفون عن النهوض بانحرافهم عنها ، وفهمهم لها فهما سيئا .

وبعد فهذا كتاب - المجـددون فى الإسلام من القـرن الأول إلى الرابع عشر الهجرى - يشرح أدق ناحية فى تاريخ الأمة الإسلامية ويبين العوامل التى أثرت فى نهوضها وانحطاطها ، ويدرس الرجال الذين ظهروا فى كل قرن من القرون التى مرت عليها فكان لهم شىء من الإصلاح فى حياتها ، أو أثر من الآثار فى توجيهها ، ليُنتفع بدرسهم فى زمنٍ عقمت فيه عن تخريج أمثالهم ، ويفتح الطريق لمجدِّد ينهض بنا فى هذا العصر ، وإنى أضيف بهـذا إلى جهادى فى الإصلاح جهادا جديداً ، وأبنى به فى هذا الجهاد صرحا مشيداً .

* * *



---

(١) هود : آية ٨٨ .

الإسلام والتجديد

كثير من المسلمين يقرؤون قول النبى ﷺ « بُنى الإسلام على خمس : شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجٍّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا » ، فيفهمون أن الإسلام دين عبادة فقط كغيره من الأديان ، وأنه لا يقوم إلا على هذه الأركان الخمس ، ولا يطلب فيه منهم إلا أداؤها والتصديق بها ، ثم يبنون على هذا الفهم الخاطىء أن نجاحهم فى دنياهم وأخراهم لا يكون إلا بأداء هذه العبادات ، وأن عدم نجاحهم فيها لا يكون إلا بعدم أدائها ، لأنه يكون بها رضا الله تعالى ، ورضاه هو سبب النجاح فى الدنيا والأخرى ، ولا حاجة معه إلى اتخاذ أسباب أخرى لهذا النجاح ؛ لأن كل شىء بيد الله ، فإذا أراد نجاح عبده فى دنياه أو أخراه حصل ذلك بمجرد رضاه ، ولم يحتج إلى أسباب أخرى تؤدى إليه .

وقد صار هذا الفهم الخاطىء بالمسلمين إلى التغالى فى أمر هذه العبادات ، حتى ابتدعوا فى الإسلام رَهبانِية كما ابتدعها أهل الأديان قبلهم ، وبنوا فيه ما يشبه الأديرة والصوامع من الخوانقاه ونحوها ، لينقطع فيها للعبادة من المسلمين من يريد الانقطاع إليها ، فيقضوا حياتهم فى الذكر بتكرير النطق بالشهادتين ، وفى قيام الليل وصوم النهار ، حتى إذا جاء موسم الحج هرعوا إليه كل سنة ، وكان هذا هو كل الدين عندهم ، فلا شىء فيه من عمل الدنيا ، ولا شىء فيه مما ينهض بالمسلمين فى دنياهم من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة ، وما إلى هذا مما يحفظ عليهم دنياهم ، ولا يجعلهم فيها أقل نجاحا من غيرهم ، حتى لا يطمع فيهم طامع ، ولا يستبيح حماهم عدو ، فيملك عليهم أمرهم ، ويُضيع عليهم دينهم ودنياهم .

ولو صح هذا الفهم الخاطىء لم يكن هناك فى الإسلام شىء من التجديد ، لأن أمور العبادة فى الإسلام لا تقبل التغيير ، فالصلاة هى الصلاة لا تغيير فيها ، وكذلك الزكاة والصوم والحج والنطق بالشهادتين ، فلا يمكن أن نزيد فى الصلاة أو ننقص فيها أو ندخل فيها شيئا من التغيير ، ولا يمكن أن نقدم أو نؤخر فى الصوم ، ولا يمكن أن نغير أو نبدل فى الزكاة ، وكذلك أمر الحج .

ولكن هذا الفهم غير صحيح ؛ لأن الإسلام دينٌ جامع لصلاح الدنيا والآخرة ، فلا

إلى آخر هذه الحياة ، كما قال تعالى فى الآية : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] ليفتح باب الارتقاء والتجديد فى العلم على مصراعيه ، ولا يجعل للغرور بالعلم سبيلا إلى نفوسنا ، لأنه هو الذى يقف دون الارتقاء والتجديد فى العلم ، ويؤدى إلى الجمود المذموم فيه .

وعلى هذا الأساس نبحث تاريخ المجددين فى الإسلام ، وندرسه على أنه تاريخ نهوض المسلمين فى أمور دنياهم قبل أن يكون تاريخ نهوضهم فى أمور أخراهم ، ولا نذكر فيه من المجددين إلا من يعمل لهذه الغاية ، ولا نكتفى فيهم بما اكتفوا به فيهم من مجرد الشهرة فى العلم .

* * *

(١) الإسراء : آية ٨٥ .

يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا ، وقد يدخل فيما يقصد به صلاح الدنيا عباداته السابقة لأن العبادات الإسلامية تمتاز على غيرها من العبادات بأنها لا يُقصد منها مجرد التعبد ، ولا مجرد إظهار الخضوع لله تعالى ؛ لأن الله تعالى غني عن عبادتنا وليس فى حاجة إلى إظهارنا الخضوع له ، وإنما يُقصد منها فى الأكثر أمورٌ تعود علينا بالمصلحة فى دنيانا ، قبل أن تعود علينا بشىء فى أخرانا ، والحقيقة أنه فضل من الله تعالى أن يُشرع لنا هذه العبادات لمصالحنا الدنيوية ، ثم يثيبنا عليها فى الآخرة ، لتزداد بهذا الثواب رغبتنا فى أدائها ، ويكون لنا فيها رغبتان : رغبة لنفعها لنا فى دنيانا ، ورغبة لنفعها لنا فى أخرانا .

فالإسلام ليس دين عبادة فقط ، وإنما هو نهضة دينية ومدنية معا ، قُصد بها النهوض بالعرب الذي اختير الرسول منهم أولا ، لينهضوا بسائر البشر ثانيا ، وقد كان العرب فى ذلك الوقت أمة أمية أقرب إلى الصلاح من غيرها ؛ لأن الأمم التى تفسد على جهل أقرب إلى الصلاح من الأمم التى تفسد على علم ، وقد صرَّح بهذا القصد من الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] فهو فى هذا يؤثر الأمين على لفظ العرب ، ليدل على أن القصد من هذا الدين محوُ أميتهم ، والنهوض بهم فى الدين والعلم ، وهذه هى وظيفة الإسلام الكبرى ، وغايته العظمى فى هذه الحياة الدنيا ، وبها كان خاتمةَ الأديان ، وكان الرسول الذى بُعث به خاتمَ الرسل ، لأنه كفل بهذه الغاية مصلحة الدنيا والآخرة ، ولم ترجح فيها كفة مصلحة منهما على الأخرى ، كما كان ذلك فى الشرائع القديمة ، فصلح لكل زمان ومكان ، ولاءم كلَّ الظروف والأحوال ، وناسب كل الشعوب والأجناس من العرب وغيرهم من الشعوب السامية ، إلى الفُرس وغيرهم من الشعوب الآرية ، إلى البربر وغيرهم من الشعوب الحامية ، لأنه نظر إليهم جميعاً على سواء ، وأتى إليهم بشرائع عامة عادلة ، لا إيثار فيها لشعب على شعب ، ولا تمييز فيها لجنس على جنس .

والإسلام من جهة هذه الغاية يتسع للتجديد فى كل زمان ؛ لأنه إذا كانت غايته النهوض العام بالإنسانية ، فوسائل هذا النهوض تسير فى طريق الارتقاء ، ولا تقف عند حد محدود لا تتعدّاه ، وأمرها فى هذا يخالف أمر العبادات ، لأنها تعتمد على الارتقاء فى العلم والعرفان ، والإنسان لا يمكن أن يبلغ الكمال فى العلم وإن امتد به الزمان ، ووصل

---

(١) سورة الجمعة : آية ٢ .

أبى الربيع سليمان بن داود المَهْرِىِّ . وأخرجه الحسنَ بن سفيان فى المسند عن حرملة بن يحيى وعن عمرو بن سَوَّاد جميعاً ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك عن الأصم عن الربيع بن سليمان المؤذن ، وأخرجه ابن عدى فى مقدمة الكامل من رواية عمرو بن سواد وحرملة وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب بن أخى ابن وهب ؛ كلهم عن عبد الله بن وهب بهذا الإسناد ، قال ابن عـدى : لا أعلم رواه عن ابن وهب عن سعيد بن أبى أيوب ولا عن ابن يزيد غير هؤلاء الثلاثة ، قال الحافظ : ورواية عثمان بن صالح المذكورة سابقاً ورواية الأصم وأبى الربيع ترد عليه ، فهم ستة أنفس رووه عن ابن وهب .

وقد قيل فى شرح هذا الحديث : إن المراد من الأمــة فيه أمة الإجابة ، وهم المسلمون ، ويجوز أن يراد أمة الدعوة ، وإرادة هذا ظاهرة على الأساس الذى قدمته فى فهم التجديد فى الإسلام ؛ لأنه كما سبق يراد منه النهوض الدينى والمدنى ، وهو يتعدى من المسلمين إلى من يعاصرهم ، كما حصل من قيام النهضة الأوربية بتأثير النهضة الإسلامية .

واختُلف فى اعتبار المئين التى يُبعث فيها أولئك المجدِّدون : هل تعتبر من المولد النبوى ، أو من البعثة ، أو من الهجرة ، أو من الوفاة ؟ واستظهر بعضهم اعتبار الثانى ، واستظهر بعضهم اعتبار الثالث ، وكلٌّ عندى محتمل .

واختُلف أيضاً فى المراد من رأس المائة: فقيل المراد آخرها لا أولها . فالمراد من البعث من انقضت المائة وهو حى عالم، يشار بالعلم إلى مقامه ، وينصر السُّنة فى كلامه ، حتى قيل إن من كان على آخر المائة ولم يبق بعد انقضائها ، بل مات قبل المائة الجديدة بخمسة أيام مثلا، لا يكون مجدداً . وقد اعتُرض على هذا بأن رأس المائة من حيث اللغة: أولها لا آخرها ، وأجيب بأنه جاء فى اللغة رأسُ الشىء بمعنى آخره ، قال فى تاج العروس : رأسُ الشىء طرفه وقيل آخره ، وقيل إن البعث وهو الإرسال إنما يكون على رأس القرن بمعنى أوله ؛ لأن معنى إرسال العالم تأهُّله للتصدى لنفع الأنام ، وانتصابه لنشر الأحكام ، وموته فى آخر القرن أخذٌ لا بعث . وقيل إن قيد الرأس اتفاقى ، والمراد أن الله تعالى يبعث فى كل مائة سنة هذا المجدد ، سواء أكان فى أول المائة أم فى وسطها أم فى آخرها ، لأنه قد يكون فى وسط المائة من هو أفضل من المبعوث على رأسها ، وإنما خُصِّص الرأس بالذكر لكونه مظنةَ انخرام علمـاء القرن غالبا ، وظهور البدع ، وخروج الدجالين ، وهذا هو المختار عندى ؛ لأن التقييد بالرأس لا داعى إليه ، وقد جرت الحوادث التاريخية على عدم التقيد بزمن ، فليكن على منوالها بعثُ هذا المجدد .

واختلف أيضاً هل من يبعث فى المائة يكون واحداً أو أكثر ؟ فقيل إنه لا يكون إلا واحـــداً لأنه جاء فى بعض روايات الحديث التصريح بأن الله يبعث على رأس كل مائة رجلا ، وقيل إنه قد يكون أكثر من واحد ، لأن الرواية المشهورة « إن الله يبعث على رأس كل مائة من يجدد الخ » ولفظ (من) يطلق على الواحد وغيره ، وقد اختار هذا ابن حجر ؛ لأن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر فى نوع من أنواع الخير ، ولا يلزم أن تجتمع خصال الخير كلها فى شخص واحد .

* * *



حديث مجددى المئين

جاء فى سُنن أبى داود سليمان بن الأشعث السِّجستانى فى أول كتاب الملاحم - باب ما يذكر فى قرن المائة - : حدثنا سليمان بن داود المهرِىّ ، أخبرنا ابن وهب[1] أخبرنى سعيد بن أبى أيوب ، عن شراحيلَ بن يزيد المعافرى ، عن أبى علقمة ، عن أبى هريرة - فيما أعلم - عن رسول الله ﷺ ، قال « إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها » .

وقد قال أبو داود بعد هذا : رواه عبد الرحمن بن شُرَيح الإسكندرانى ، لم يَجزْ به شراحيل ، يعنى شراحيل بن زيد المعافرى ، فأعضل عبد الرحمن هذا الحديث ولم يأت به متصلا كما فى الطريق الأول ، إذ أسقط أبا علقمة وأبا هريرة ، والحديث المعضل هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالى . قال المنذرى : وعبد الرحمن بن شريح الإسكندرانى ثقة ، اتفق البخارى ومسلم على الاحتجاج به ، وقد عضله .

وعلى هذا يكون الحديث مرويا من طريقين : طريق متصل وطريق معضل ، وقول أبى علقمة فى الطريق الأول « فيما أعلم » يعنى فى علمى أن أبا هريرة حدثنى هذا الحديث مرفوعاً لا موقوفاً عليه ، وقد ذكر المنذرى أن هذا ظاهر فى عدم جزمه برفعه ، فاستدرك عليه صاحب « عون المعبود شرح سنن أبى داود » بقوله : « قلت نعم ، لكن مثل ذلك لا يقال من قبل الراوى ، إنما هو من شأن النبوة ، فتعين كونه مرفوعاً إلى النبى ﷺ .

وقد قال السيوطى فى « مرقاة الصعود » : اتفق الحفاظ على تصحيحه ، منهم الحاكم فى « المستدرك » والبيهقى فى « المدخل » ، وممن نَصَّ على صحته من المتأخرين الحافظ ابن حجر ، وقال العلقمى فى شرح الجامع : قال شيخنا : اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح ، وممن نص على صحته من المتأخرين أبو الفضل العراقى وابن حجر ، ومن المتقدمين الحاكم فى « المستدرك » والبيهقى فى « المدخل » ، وقال المناوى فى فتح القدير : أخرجه أبو داود فى الملاحم ، والحاكم فى الفتن ، وصححه ، والبيهقى فى كتاب المعرفة كلهم عن أبى هريرة ، قال الزين العراقى وغيره : سنده صحيح . وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى فى - توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس - أخرجه أبو داود فى السنن عن

---

(١) هو عبد الله بن وهب .

الاختلاف فى المجددين

قال الحافظ عماد الدين بن كثير : قد ادَّعى كل قوم فى إمامهم أنه المراد بهذا الحديث ، والظاهر أنه يعم حملة العلم من كل طائفة وكل صنف من أصناف العلماء مفسرين ومحدِّثين وفقهاء ونحاة ولغويين ، وقال فى جامع الأصول : « تكلموا فى تأويل هذا الحديث ، وكلٌّ أشار إلى القائم الذى هو من مذهبه ، وحمل الحديث عليه ، والأوْلى العموم ،فإن - مَنْ - تقع على الواحد والجمع ، ولا يختص أيضا بالفقهاء ؛ فإن انتفاع الأمة يكون أيضاً بأولى الأمر وأصحاب الحديث والقرَّاء والْوُعاظ ، لكن المبعوث ينبغى كونه مشاراً إليه فى كل من هذه الفنون،ففى رأس الأولى من أولى الأمر: عمر بن عبد العزيز ، ومن الفقهاء محمد بن الباقر والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله والحسن وابن سيرينَ وغيرهم من طبقتهم ، ومن القُرَّاء : ابن كثير ، ومن المحدِّثين الزهرى . وفى رأس الثانية من أولى الأمر : المأمون،ومن الفقهاء: الشافعى واللُّؤلُؤى من أصحاب أبى حنيفة ، وأشهب من أصحاب مالك ، ومن الإمامية : على بن موسى الرِّضا ، ومن القُرَّاء : الحضْرَمىّ ، ومن المحدِّثين : ابن معين ، ومن الزهاد: الكرخى . وفى الثالثة من أولى الأمر : المقتدر ، ومن الفقهاء : ابن سرَيج الشافعى ، والطحاوى الحنفى ، والخَلال الحنبلى ، ومن المتكلمين : الأشعرى ، ومن المحدثين : النَّسائى . وفى الرابعة من أولى الأمر : القادر بالله ، ومن الفقهاء : الاسْفرايينى الشافعى ، والخوارزمى الحنفى، وعبد الوهاب المالكى والحسين الحنبلى ،ومن المتكلمين: الباقلانى ، وابن فورك ، ومن المحدِّثين : الحاكم ، ومن الزهاد : الثورى ، وهكذا يقال فى بقية القرون .

وقد ذكر الحافظ السيوطى المجدِّدين إلى القرن التاسع فى أرجوزة سماها - تحفة المهتدين بأخبار المجدِّدين - قال فيها :

الحمد لله العظيم المِنَّهْ — المانح الفضل لأهل السُّنَّهْ
ثم الصلاة والسلام نلتمس — على نبيٍّ دينه لا يندرسْ
لقد أتى فى خبرٍ مشتهر — رواه كلٌّ حافظ معتبر
بأن فى رأس كل مائة — يبعث ربُّنا لهذى الأمة
مَنَّاً عليها عالماً يجدِّدُ — دين الهدى لأنه مجدَّدُ
فكان عند المائة الأولى عُمَرْ — خليفة العدل بإجماع وقَر
والشافعى كان عند الثانيه — لما له من العلوم الساريه

وابن سُرَيج ثالثُ الأئمـــه والأشعـــرى عدَّهُ مَن أمَّهْ

والباقلاَنى رابعٌ أو سهـــل أوْ الاسفراايينى خلف قد حكوْا

والخامس الحبر هـــو الغزالى وعدُّه ما فيـــه من جدال

والسادس الفخر الإمام الرَّازِى والرافعـــــى مثله يوازى

والســـابع الراقى إلى المراقى ابن دقيق العيـــد باتفاق

والثـــامنُ الحبر هـــو البلقينى أو حافظ الأنام زين الدين

والشرط فى ذلك أن تمضى المائهْ وهُو على حياته بين الفئهْ

يُشـــار بالعلم إلى مقامه وينصر السُّنة فى كـــلامه

وأن يكون جامعـــاً لكل فنَ وأن يعمَّ علمه أهـــل الزمنَ

وأن يكون فى حديثٍ قد رُوِى مِن آل بيت المصطفى وهْو قَوِى

وكونه فرداً هو المشــــهورُ قد نطق الحديث والجمهــورُ

وهذه تاســـــعة المئين قَدْ أتتْ ولا يخلف ما الهادى وَعَدْ

وقد رجوتُ أننى المجـــدِّدُ فيها ففضلِ الله ليس يُجحَدُ

وآخر المئين فيهـــــا يأتى عيسى نبىُّ الله ذو الآيات

يجدّد الدين لهـــذى الأمَّهْ وفى الصلاة بعضنا قد أَمَّهْ

مقرّراً لشرعنا ويحـــــكم بحكمنا وفى السماء يعلم

وبعـــده لم يبق مِنْ مجدَد ويُرفَعُ القرآن مثل ما بُدِى

وتكثر الأشـــرار والإضاعَهْ مِنْ رَفعِه إلى قيام الساعهْ

وأحمد اللهَ على ما عَلَّما وما جلاَ من الخفا وأنعَما

مصلياً على نبى الرحمهْ والآلِ مَعْ أصحابه المكرَّمَهْ

وذكر صاحب كتاب - عون المعبود ، شرح سنن أبى داود - أن المجدد على رأس القرن العاشر الهجرى هو شمس الدين الرملى ، كما ذكره صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . ثم ذكر أن المجدد على رأس القرن الحادى عشر هو إبراهيم بن حسن الكردى الكورانى خاتمة المحققين وعمدة المسندين ونزيل المدينة المنورة . وأن المجدد على رأس القرن الثانى عشر هو صالح بن محمد بن نوح الفلانى نزيل المدينة ، والسيد مرتضى الحسينى الزَّبيدى . وأن المجدد على رأس القرن الثالث عشر هو السيد نذير حسين ، والقاضى حسين بن محسن الأنصارى اليمانى ، والنواب صديق حسن خان البوفالى القنوجى .

وقد ذكر السيد رشيد رضا أسماء بعض المجدِّدين فى تصدير كتابه - تاريخ الأستاذ

الإمام الشيخ محمد عبده - فقال : « إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ؛ فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجدداً فى القرن الثانى لما أبلى قومه بنو أمية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفَرَّقوا ، وكان الإمام أحمد بن حنبل مجدداً فى القرن الثالث لمَا أخلق بعض بنى العباس من لباس السُّنَّة، ورشاد سلف الأمة،باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية فى صفات الله وما ورد فى عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض فى عالم الشهادة ، وكان الشيخ أبو الحسن الأشعرى مجدداً فى القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى مجدداً فى أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزعات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والإمام أبو محمد على بن حزم الظاهرى فى القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية ، وشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ وتلميذه ابن القيِّم مجددين فى آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والإلحادية من حُلل الكتاب والسُّنَّة السنية، فى جميع العلوم الدينية ، وحسبنا هؤلاء الأمثال فى التجديد الدينى العام » .

ثم قال : « وظهر مجددون آخرون فى كل قرن ، كان تجديدهم خاصًا انحصر فى قطر أو شعب أو موضع كبير أو صغير ، كأبى إسحاق الشاطبى صاحب الموافقات والاعتصام فى الأندلس ، وولى الله الدهلوى والسيد محمد صديق خان فى الهند ، والمولى محمد بن بير على البركوى فى الترك ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد ، والمقبلى والشوكانى وابن الوزير فى اليمن » ثم قال : «وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربى بالدفاع عن الإسلام ، أو تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون فى الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين والأمويين ، ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد ، كالسلطان صلاح الدين الأيوبى الذى كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الإسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة مَلاحدة العُبَيديين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك أوربا عرف فيها مجد الإسلام ، ثم ذكر أنه اتسع ملك الإسلام وزالت وحدة أحكامه وكثرت دوله ، فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة فى الأجناس والأوطان ، ووحدة ملته الدينية إلى مذاهب مختلفة فى الأصول والفروع ، وكان يظهر فى هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون فى العلم كما تقدم ، وفى الإدارة والعمران كمحمد على باشا بمصر ، وفى الحرب كالأمير عبد القادر فى الجزائر ، ويعقوب بك فى تركستان الصينية ، وفى السياسة كمصطفى رشيد باشا وعلى باشا وفؤاد باشا فى الترك ، وخير

الدين باشا فى تونس ، وفى إرشاد العامة والبدو كالسيد السنوسى » إلى أن ذكر حال الأمة الإسلامية فى عصرنا وحاجتها إلى مجددين من نوع آخر غير المجددين السابقين يعرفون م وصلت إليه أوربا فى مدنيتها، ومقدار حاجة المسلمين إلى اللحاق بها بعد اتساع الفرق بينهم وبينها ، وقد بعث الله إليهم من أجل هذا جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده المصرى .

ولنقتصر الآن على هذا فى بيان خلافهم فى أسماء المجددين ، ولكنا نضيف إلى هذا الخلاف مثلاً مما يدعو إليه تعصب بعض الفرق على بعض ، فقد ذكر صاحب - عون المعبود شرح سنن أبى داود - أن شرط المجدد أن يبين السنَّة من البدعة ، ويُكثر العلم ويُعز أهله ، ويقمع البدعة ويكسر أهلها ، ومن لا يكون كذلك لا يكون مجدداً البتة وإن كان عالماً بالعلوم ، مشهوراً بين الناس مرجعاً لهم ، وأنكر ما نصَّ عليه جامع الأصول من عَدّ أبى جعفر الإمامى الشيعى من المجددين ، وكذلك المرتضى أخو الرضا الإمامى الشيعى ، وهذا نصه : « الحديث إشارة إلى جماعة من الأكابر على رأس كل مائة سنة ، ففى رأس الأولى عمر بن عبد العزيز » إلى أن قال « وعلى الثالثة المقتدر وأبو جعفر الطحاوى الحنفى ، وأبو جعفر الإمامى وأبو الحسن الأشعرى والنسائى ، وعلى الرابعة القادر بالله وأبو حامد الأسفراييني وأبو بكر محمد الخوارزمى الحنفى والمرتضى أخو الرضا الإمامى الخ ، فهذا عنده خطأ فاحش ، وغلط بيِّن ؛ لأن علماء الشيعة لا يستحقون هذه الرتبة وإن وصلوا إلى الاجتهاد ، وبلغوا أقصى العلوم ، واشتهروا غاية الاشتهار ، كيف وهم يخربون الدين ، فكيف يجدِّدونه ؟ ويميتون السنن فكيف يحيونها ؟ ويروّجون البدع فكيف يمحونها ؟ وليسوا إلا من الغالين المبطلين ، هداهم الله تعالى سواء السبيل اهـ .

وهذا عندى غلو فى التعصب ، وقد ذكرت فيما سبق أساس التجديد فمن تحقق فيه فهو مجدد ، سواء أكان سنياً أم كان شيعياً أم كان غيرهما من الفرق الإسلامية ، ولا شك أن هذا أثر من آثار التعصب الممقوت بين الفرق الإسلامية ، وأنه يجب القضاء عليه الآن لتعود للمسلمين وحدتهم وألفتهم ، على أنه لا محل لهذا التعصب فى باب التجديد والمجددين ؛ لأن فكرة التجديد أسمى من أن ينظر فيها إليه ، وأكبر من أن يكون له أدنى أثر فيها ؛ لأن المجدد يجب أن يتعالى على ذلك التعصب الممقوت ، فلا يصح أن يكون لمذهبه فى الدين أثر فى غايته من التجديد ولا فيما يرمى إليه من النهوض بالمسلمين ، بل يجب أن ينظر فى دعوته إلى المسلمين جميعاً ، فلا يميز فريقا على فريق ، ولا يقصد بالتجديد فرقة دون فرقة بل يسعى فى خير المسلمين جميعاً ؛ ويقصد أن ينهض بهم جميعاً وأن يجدد فيهم جميعاً ؛ ليجمع بينهم على غايته من التجديد ، ويجعل كلمتهم واحدة فيما يقصده من النهوض .

ولا يخفى أن من تجرد من المجددين عن ذلك التعصب الممقوت ، ويصير إلى تلك الغاية السامية من التجديد ، لا يضره بعد هذا أن يكون سنيًا أو شيعيًا أو غير ذلك من فرق المسلمين ؛ لأنه فى دعوته إلى التجديد ينسى مذهبه الدينى ، ولا ينظر إلا إلى أنه مسلم لا غير ، فيجب أن ننظر إليه من هذه الناحية السامية ، وأن نتعالى معه على ذلك التعصب الممقوت كما تعالى عليه ، وأن نتركه ومذهبه الدينى لنفسه وربه ؛ فإن كان مصيباً فيه فله أجره وثوابه ، وإن كان مخطئا فيه فقد يسعه عفو ربه ، إن لم يكن له ثوابه على اجتهاده وحسن قصده .





حال العالم فى القرن الأول الهجرى

ولد النبى[1] ﷺ فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول فى عام الفيل ، ولأربعين سنة خلت من حكم كسرى أنو شِروان ، وهذا يوافق ٢٠ من أغسطس سنة ٥٧٠ م ، وكانت بعثته حين أتم أربعين سنة هلالية وستة أشهر وثمانية أيام ، وهذا يوافق ٦ من أغسطس سنة ٦١٠ م ، وكانت هجرته من مكة إلى المدينة يوم الخميس أول يوم من شهر ربيع الأول ، فوصل المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، وقد مضى على مولده ثلاث وخمسون سنة ، فتكون إقامته بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ، وتوافق هجرته ٢٨ من يونيه سنة ٦٢٢ م ، وكانت وفاته يوم الاثنين لليلتين أو لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة ، وهذا يوافق سنة ٦٣٢م . فإذا جعلنا ابتداء التأريخ القرنَ الأول من الهجرة ، يكون ابتداؤه سنة ٦٢٢م ، ويكون انتهاؤه سنة ٧١٨م .

وقد ظهر الإسلام ودولتا الروم والفُرس يتنازعان حكم العالم بالقوة والاستبداد ، وكانت دولة الروم تدين بالنصرانية ، ولكن نشأة هذه الدولة فى الوثنية كان لها أثرها فى نصرانيتها ، فلم تأخذ فيها بالنصرانية التى تدعو إلى التوحيد الخالص ، بل اضطهدت المتمسكين بها ، وناصرت الذين يذهبون فيها إلى عقيدة التثليث ، وهم الذين يقولون بتركب الإله من الأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القدس. وكانت هذه الدولة قد ورثت الفلسفة اليونانية فيما ورثته عن دولة اليونان قبلها ، فأخذت تنحرف بهذه الفلسفة نحو تأييد عقيدتها فى النصرانية حتى آثرت فى ذلك فلسفة أفلاطون على فلسفة أرسطو ، لأن فلسفة أرسطو واقعية لا تؤيد انحرافها فى العقيدة ، وإنما تتسع له فلسفة أفلاطون صاحبة المثل العقلية ، لأنها فلسفة خيالية يمكن التوفيق بينها وبين ذلك الانحراف فى النصرانية . وقد بقيت فى أثينا عاصمة اليونان القديمة مدارس مخلصة لفلسفة اليونان الأصلية ، فلم تندفع فى تيار ذلك التحريف ، ولم تخلط ذلك الخلط المشوَّه بين الفلسفة والدين ، فناصبتها دولة الروم العداء ، ولم تزل تناهضها وتناوئها إلى أن أغلقها جستنيان ملك الروم سنة ٥٢٩ م ،

وشرَّد فلاسفتها في البلاد ، فهرب بعض منهم إلى بلاد الفرس في عهد كسرى أنو شِرْوَانَ ، فأكرم وفادتهم ، وأنشأ لهم مدرسة في مدينة جنديسابور ببلاد الفرس .

وبهذا ساء حال العلم والدين في دولة الروم ، واضطهد فيها أقسى اضطهاد رجال العلم والدين المخالفون لها في العقيدة ؛ حتى إن وظائف الدولة كانت مقصورة على عقيدة الروم الملكية ، وقد حُرم منها المصريون وغيرهم من النصارى الذين يخالفونهم في عقيدتهم وإن كانت النصرانية تجمعهم جميعا . وقد استفحلت عوامل الفساد في هذه الدولة ابتداء من القرن السادس الميلادي ، وظهرت فيها الثورات بسبب الخلافات الدينية والأطماع السياسية ، وفي أول القرن السابع الميلادي تولى فوكاس ملك دولة الروم بعد أن قتل سلفه عليهم ، فثار عليه هِرَقل حاكمُ أفريقية وقتله وملكَ الرومَ بعده ، وكان الفرس قد غلبوا دولة الروم واستولوا على كثير من ممتلكاتهم ، فحاربهم هرقل وظفر بهم واسترد هذه الممتلكات ، ولكنه لم يلبث أن أضعف دولته بإثارة الفتن الدينية فيها ؛ لأنه أراد أن يحمل بالقوة جميع النصارى فيها على عقيدة الروم الملكية ، فثار عليه المخالفون له في العقيدة الدينية في مصر وغيرها من ممتلكاتهم ، إلى أن جاء الإسلام فخلصهم من هذه الاضطهادات الدينية ، وجعل الناس أحراراً في العقائد ، وسوَّى بين أهل دولته في حقوقهم السياسية ، ولم يفرق في هذا بين مسلم وغيره .

وكذلك كان الحال في دولة الفرس ؛ فقد اضطرب أمرها بعد وفاة كسرى أنوشروان واستفحلت عوامل الفساد فيها ابتداء من القرن السادس الميلادي أيضاً ، فانتشرت فيها الدسائس والفتن ، وكثر النزاع على الملك فيها ، حتى ادعى عرشَها في أربع سنين تسعةٌ من الأمراء ، كانوا يقتتلون عليه ، فيقتل بعضهم بعضا ، وكان ملوكها يدينون بنظرية الحق المقدَّس(١) فقسموا الرعية إلى طبقات ، وحكموها حكما استبدادياً ، لا يعنى بشيء

---

(١) قد تغالى الأكاسرة في هذه النظرية إلى أن وصلوا إلى دعوى الألوهية ، وقد أرسل كسرى حين استولى جيشه سنة - ٦١٤ م - على بيت المقدس وأخذ خشب الصليب الذي يقدسه المسيحيون إلى هرقل ملك الروم ما يأتي :

« من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله ، إلى هرقل عبده ، ألم أقض على الإغريق، إنك تقول إنك تثق في إلهك ، فلماذا لم يخلِّص من يدى قيسرية وبيت المقدس والإسكندرية ؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا ؟ على أنني سأغفر لك جميع ذنوبك؛ إذا قدمتَ إليَّ معك زوجتك وأطفالك ، وسأمنحك الأراضي والكروم وعروش الزيتون ، وسأنظر إليك نظرة رحيمة ، لا تغش نفسك بأملك الخائب في ذلك المسيح الذي لم يستطع أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه » .

من أمر الرعية ، ولا يعمل للنهوض بها فى علم أو نحوه ، لأن الرعية يجب أن تبقى فى مركزها من الملك المقدس ، ولا يصح أن تتسامى إليه بعلم أو نحوه ، ولهذا كان القائم بالحركة العلمية فى هذا العهد من دولة الفرس عناصر أجنبية من اليونان والسريان ، وكانوا يدينون بالنصرانية على خلاف ديانة الفرس المجوس ، فهم الذين كانوا يتولون أمر مدرسة جنديسابور وغيرها من المدارس العلمية فى هذه البلاد ، وقد صاروا فيها أيضا إلى ذلك الخلط المشوه بين الفلسفة والدين؛ فلم يكن العلم فى دولة الفرس على ذلك العهد بأحسن حظا منه فى دولة الروم ·

فرجع العلم القهقرى فى ذلك العهد ، وصار إلى أشد ما يكون من الجمود ، وطغى عليه استبداد الملوك فى الدولتين ، حتى سار فى ركاب ذلك الاستبداد ، يخدم أغراضه ، ويساعد مآربه، ولا يحاول فيه إصلاحَ فاسد أو تقويمَ معوج ·

وكذلك كان حالُ رجال الدين فى ذلك العهد ، فقد استبدوا فيه بأمور الدين ، واحتكروا فيه لأنفسهم العلم ، حتى جعلوا أنفسهم باسم الدين أربابا من دون الله يحلّون ويحرِّمون بشهواتهم ، وتطيعهم الرعية طاعة عمياء فى تحليلهم وتحريمهم فصار الدين بذلك تقليدا وجمودا ، ولم ير الناس فيه اجتهادا أو تجديدا ، وقد جمد العلم باحتكارهم له ، إذ تعدَّى جمودهم فى الدين إلى العلم ، فجمد بجمود الدين ، وسار فى ركابه يخدمه ويفسر نصوصه ويقلده ، ولا يجرؤ على الاجتهاد والتجديد فيه ·

فلما جاء الإسلام أصلح طريق الحكم فى الناس ، وسلك فيه طريقا جديدا لم يعرفوه من قبل ، ولم يجعله استئثارا قيْصريًا أو كسْرَويًا ، ولم ير أن يكون حقا مقَدَّسا فى فريق من الأمة دون فريق ، بل جعله حقا عامًا فى الأمة كلها ، تختار له من ولَّته منها ، فإن حكم فيها بالشُّورى والعدل أبقته فى الحكم ، وإن استبدَّ وجار عزلته كما ولَّته ، لأنه لم يتولَّ الحكم بحق مقدس لا يصح معه العزل ، وإنما استمد حكمه من الأمة ، فلها الحق فى عزله كما لها الحق فى ولايته ·

وكذلك استقام فيه أمر الدين والعلم لما استقام أمر الحكم ، فلم يجعل الدين جمودًا أو تقليدًا ، بل فتح فيه باب الاجتهاد والتجديد ، وقضى على ما كان فيه من تحريف أو تشويه ، فقرب بهذا بينه وبين العلم ، لأنه خلَّصَ الدين مما كان يبعده عن الحقيقة ، فاتفق هو والعلم فيها ، لأنها الغاية المقصودة من كل منهما ، واستقام بهذا أمر العلم كما استقام أمر الدين ، وفتح فيه أيضا باب الاجتهاد والتجديد ، ولم يبق محتكرًا بين رجال الدين ، بل فتح بابه لكل الناس واشترك فيه رواده من سائر الأجناس ، لا يفرق بينهم فيه دين ولا

غيره مما كان يفرق بينهم لأن له سبيلا آخر غير سبيل الدين ، وإن كانت الغاية منهما واحدة ، وهى سعادة الدنيا والآخرة .

وقد ضرب النبى ﷺ فى هذا مثلاً عظيمًا فى غزوة بدر ، إذ جعل فداه الأسير من المشركين تعليم الخط والكتابة لعشرة من فتيان المسلمين ، فأفاد بهذا أن العلم يؤخذ من المشرك كما يؤخذ من المسلم ، لأنه لا يخص المسلمين وحدهم ، ولأن الدين لا يصح أن يقف حجر عثرة فى سبيل العلم ، بل يجب أن يكون عونا له ومساعدا ، ومثل هذا ما فعله مع الحارث بن كلدة فيلسوف العرب وطبيبها ، فقد كان يأمر أصحابه بالرجوع إلى علمه وطبه ، وقد قيل إنه أسلم ، وقيل لا يصح إسلامه .

وكذلك استقام فيه أمر التدين ، فكان المسلمون يأخذونه باعتدال ، وقد أراد بعضهم أن يأخذه بالغلو ، فقال له النبى ﷺ « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ؛ فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى » وقد أنكر عمر فى خلافته على نفر بدا عليهم شىء من التصوف ، فقال لهم : لا تميتوا علينا ديننا .

فلما مات النبى ﷺ سار المسلمون بعده فى الحكم والدين والعلم على ما سنه الإسلام لهم ، ومضوا فى أوائل القرن الأول الهجرى يجددون فى الحكم والدين والعلم ، وظهر فيهم من المجددين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والحسين بن على وخالد ابن يزيد .

ثم استبد فيهم بنو مروان ورجعوا بهم إلى أحوال من الجاهلية ، فصاروا إلى الجمود فى الدين والعلم ، ولم يظهر بينهم من المجددين إلا عمر بن عبد العزيز فى ختام ذلك القرن .

والمتقدمون لا يعدون ممن ذكرت من مجددى هذا القرن إلا عمر بن عبد العزيز ، وقد أضاف إليه بعضهم من الفقهاء القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله والحسن وابن سيرين وغيرهم من طبقتهم ، ومن القراء : ابن كثير ، ومن المحدثين الزهرى ، وهذا على أصلهم فى التجديد من أنه الشهرة فى العلم والنفع به ، وليس هذا هو التجديد المعتد به ، كما سبق بيان هذا فى الكلام على الإسلام والتجديد .



أبو بكر الصديق

ولد أبو بكر الصديق بعد النبى ﷺ بسنتين وأشهر ،وتوفى سنة ١٣هـ - ٦٣٤م ، وهو فى الثالثة والستين من عمره ·

وقد نشأ أبو بكر بمكة قبل الإسلام ، وكان رجلا فاضلا عالما تاجراً محبَّباً فى قومه ، ولكنه كان لا يشاركهم فى كثير من عقائدهم وعاداتهم الفاسدة ، فلم يكن يشرب الخمر مثلهم على ما كان من حبهم وإدمانهم لها ، وكذلك ما كان نحو هذا من عقائدهم وعاداتهم · فلما بعث النبى ﷺ يدعو إلى التوحيد ، ويأمر بالفضيلة ، وينهى عن الرذيلة ، كان أبو بكر أول من أجاب وآمن ، لأن هذه الدعوة صادفت من نفسه حسن استعداد لها ، بما كان من أمره السابق قبل الإسلام ، ولما آمن بها لم يكتف بمجرد الايمان بها ، بل أخذ يشارك فى الدعوة إليها ، ويستخدم ما كان من إلف قومه له فى دعوتهم ، فأجابه إليها بعض من عقلاء فتيانهم ، مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وأبى عُبَيدة بن الجراح،ثم مكث بعد هذا صاحب رأى النبى ﷺ ، وأقرب أصحابه إليه ، لما كان يمتاز به من حسن الرأى ، ورجاحة العقل ، ولهذا كان أكثر فهمًا للإسلام وغايته الجديدة من غيره ، لأنه صاحبه من أول ظهوره ، وشارك فيه بالعقل الراجح ، والرأى الحسن ·

وقد ظهر أثر ذلك فيه بعد وفاة النبى ﷺ ، وحين صار خليفةً للمسلمين بعده،فكان أكثر الصحابة فهمًا للتجديد الذى دعا إليه الإسلام ، وأقواهم فى مناهضة النزاعات التى تحاول أن تغطى على هذا التجديد ، وتريد الرجوع بالإسلام إلى الوراء،وتقف بالمسلمين دون التقدم والنهوض ، فكان بهذا أول المجددين فى القرن الأول الهجرى ، بل كان أجدرهم بهذا اللقب لو ذهبنا مذهب من يحصر مَن يُبعث فى كل قرن فى مجدد واحد ·

فظهر أثر هذا أولاً حين أخذ المسلمون بوفاته ﷺ ، وبلغت دهشتهم مبلغها ، فكادوا لا يصدقون بموته ، ليغلوا فى أمره كما غلا أهل الأديان قبلهم فى رسلهم ، ويرجعوا بالإسلام القهقرى بعد أن نجح فى تجديد العقيدة الدينية وتهذيبها ، ومحا منها ذلك الغلوّ الذى يصل ببعض الخلق إلى مرتبة الألوهية أو قريب منها ، وكان ممن أخذ بذلك عمر ابن الخطاب ، وهو من هو فى تقدمه بين الصحابة ، فما ظنك بغيره ممن كان دونه ، فقد استولى عليه الذهول حين بلغته الوفاة ، وقام فى النـاس خطيباً ينفى خبرها ، ويذكر أن

رسول الله لم يمت ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، ثم انطلق عمر يهدد القائلين بذلك ، ويذكر أن رسول الله سيرجع إليهم فيقطع أيديهم وأرجلهم ، وهذا من عقيدة الرجعة التى وقع فيها بعض أهل الأديان ، بتأثير أهل الجهل من رجال الدين ، ولو تم لكان له أسوأ أثر فى الإسلام ، وتتابع بعد هذا فيه ما لا يحصى من البدع والأوهام ، وكان أبو بكر فى داره بالسُّنح من ضواحى المدينة ، فلما علم بوفاة النبى ﷺ أسرع إليها، فوجد المسلمين مجتمِعين وعمر يخطبهم بما سبق ، فلم يقف إليهم بل ذهب إلى بيت ابنته عائشة ، فوجد النبى ﷺ مسجًّى فى ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه وجعل يقبله ويقول : ما أطيبك حيًّا ! وما أطيبك ميتًا ! ثم خرج إلى الناس فقام فيهم فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (1) ، فلما سمع عمر هذه الآية خر على الأرض ما تحمله رجلاه ، وأيقن أن رسول الله قد مات ، وأيقن معه المسلمون الذين يستمعون لما يقول · ولا شك أنهم كانوا يعرفون هذه الآية من القرآن ، ولكنها كانت قد نزلت فى المسلمين بغزوة أُحد حينما أشيع أن النبى قد قتل ، فانهزموا حين سمعوا ذلك إلى المدينة ، فلم يفهم منها عمر ومن كان يستمع إليه إلا هذا العتاب الذى نزلت فيه ، ولم يأخذوا منها ما أخذه أبو بكر من أن النبى ﷺ يجوز عليه الموت كما يجوز على غيره من البشر لأنها لم تنزل من أجل إثبات هذا المعنى ، وإن كان يفهم منها بطريق الإشارة ، وما كان أروع موقف أبى بكر حين فهم ذلك منها ، ودل على أنه كان أقدر الصحابة على فهم رسالة الإسلام ، وأنه دين حقائق لا دين أوهام ، وأنه دين تجديد لا دين تقليد وجمود ·

ثم ظهر أثر ذلك ثانيا فى موقفه من الأنصار حين بلغه أنهم اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا واحداً منهم ، وكان مشتغلا بتجهيز النبى ﷺ ، والناس يفهمون أن ما حصل من ذلك كان خلافاً بين المهاجرين والأنصار على ولاية أمر الإسلام ، ولا يُدخلون فى ذلك أن الأنصار فهموا أنهم أهل المدينة ، وأنهم كانوا أصحاب إمارتها قبل الإسلام ، وقد سكتوا عنها فى حياة النبى ﷺ ، فلا بد أن يعود إليهم أمرها بعد وفاته ، وهذه نزعة رجعية ظاهرة ، فقضى أبو بكر عليها بحسن سياسته ، وبحسن فهمه لرسالة الإسلام الجديدة ·

(1) آل عمران : آية 144 ·

لأن الأمر فيه لم يعد أمر المدينة وإمارتها قبله ، بل صار إلى أكثر من هذا الأمر الرجعى ، وإلى أوسع من هذا الحد الضيق ، فقد تغيرت أحوال المدينة بعد الهجرة إليها ، فلم تبق لأهلها الأولين وحدهم ، بل صارت لهم ولمن هاجر إليها من المسلمين ، بل لأهل الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، لأنهم دانوا جميعاً بالإسلام ، ولابد أن يراعى أمرهم جميعاً فيمن يكون واليا عليهم ، وقد كان أبو بكر مجدداً حين راعى هذه الأحوال الجديدة للمدينة ، ولم ينظر إلى الوراء كما نظر أهلها الأولون ، وحين وضع لولاية الإسلام أساساً لا يراعى فيه عصبية دار ، ولا عصبية قبيلة ، ولا غير هذا من أنواع الاستئثار ، بل يكون الأمر فيه للمسلمين جميعاً ، يذهبون فيه أىَّ مذهب يناسب أحوال زمانهم ومكانهم ، ويرون فيه صلاحاً لأمورهم ، وبهذا يكون قابلا للإصلاح والتجديد ، ولا يقف جامداً عند حد محدود .

ثم ظهر أثر ذلك ثالثاً بعد أن بويع بالخلافة ، فلم ير أنه تولاها عن حق له فيها دينى أو دنيوى ، فيجرُّه هذا إلى أن يستأثر فيها بشىء لنفسه أو أهله ، أو يرى أنه صار فى منزلة فوق غيره ، فلا يكون لأحد معه رأى ، بل يحكمهم كما يحكم الملوك المعاصرون له ، فيجعلها استبداداً كسروياً أو قيصريا ، ويستحل أموالهم لنفسه وشهواته ، ويقيم فيهم حكما يرجع بهم إلى الماضى ، ويكون تقليداً لما مضى من الحكم ، ولا ينشىء فيهم حكمًا جديداً صالحا ، يضع فيه مصلحة الرعية فوق مصلحته ، بل لا يرى له فيه مصلحة ما ، وإنما هو خادم الرعية وأجيرها ، ليحكمها بالعدل ، ويسوسها بالشورى ، ويقضى على عهد الاستبداد فى العالم ، وذلك هو التجديد كل التجديد فى الحكم ، وذلك هو الذى نادى به حين تمت بيعته .

فقال : « أما بعد . . أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يَدَعُ قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

فهذا تجديد فى الحكم لم يعرفه الناس فى الدولتين اللتين كانتا تحكمان العالم فى ذلك الوقت ، وهما دولة الفرس فى الشرق ، ودولة الروم فى الغرب ، وقد وفى أبو بكر لهذا العهد الذى أخذه على نفسه للرعية ، فسار فيهم كأنه واحد منهم ، ولم يرض منهم أن يرفعوه فى شىء عليهم ، حتى إنه لما بويع خاطبه رجل من المسلمين بقوله : يا خليفة الله -

فلم يدعه يمضى فى حديثه ، بل قال له : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله ، لينفى بهذا أن يكون له أدنى حق من الله فى الخلافة ، ويثبت أنه خليفة عن رسول الله باختيار المسلمين ، لا لقرابة بينهما ، ولا لصلة بينهما تجعل له حقا فيما دون غيره ، فلما أدركه مرض الوفـاة لم يغير مكثـه فى الحكـم شيئاً من أمـره ، ولم يجعـله كسروياً أو قيصريا يورث أو يؤخذ بالقوة ، بل أخذ يختار للمسلمين من يلى بعده أمرهم ، ويستشيرهم فى ذلك ويأخذ رأيهم، ليمضى فى تجديد حكمه إلى آخره ، ويضرب للملوك المستبدين فى عصره أعلى مثل فى التجديد ، ويوقظ رعاياهم مما وقعوا فيه من الغفلة والجمود ، وينبههم إلى ما فى حكمهم من الظلم والاستبداد .

ثم ظهر أثر ذلك رابعاً حين طغت الرجعية على الإسلام بعد وفاة النبى ﷺ ، فارتد أكثر العرب عن الإسلام ، وكره بعضهم أن يدين للخليفة الذى قام فى المسلمين ، فمنع الزكاة التى هى ضريبة الدولة فى الإسلام ، وقد اختلف المسلمون فى ذلك الأمر ، ورأوا جميعاً - إلا أبا بكر - ألاَّ يقيموا حربا فى فرض هذه الدولة الجديدة على الناس ، لأن الإسلام فى نظرهم لا شأن له بالدولة ، وإنما هو عبادة وعقيدة فقط ، والدولة أمر دنيوى ليس فى شىء من الإسلام ، وقد خالفهم أبو بكر وحده فى هذا الفهم الخاطىء ، وكان أعرف منهم برسالة الإسلام الجديدة لأنه لا يراد منه مجرد تعليم الناس العقيدة الصحيحة ، بل يراد منه مع هذا إقامة حكم جديد صالح فى الناس ، وقد وعد الله المسلمين بهذا فى محكم كتابه ، فقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالِحَات لَيَسْتَخلفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلهمْ وَلَيُمكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهم مِّنْ بَعْد خَوْفِهمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الفَاسقُونَ ﴾ [1] ولم يمت النبى ﷺ إلا بعـد أن حقق الله له هذا الوعد ، وقامت للمسلمين دولة فى جزيرة العرب ، وقـد قام أبو بكر خليفة فى هذه الدولة ، فمن حقه محاربة من خرج عليها من أهلها كما هو حق كل دولة فى هذه الدنيا ، ليعيد لها سلطانها ، ويقضى على دعاة الفساد والرجعية فيها ويمكن للنهضة الدينية والمدنية التى أتى الإسلام بها ، وقد أصر أبو بكر على رأيه فى محاربة دعاة الرجعية والفساد ، حتى رأى من خالفه أن الحق معه ، وبهرتهم تلك الشجاعة التى بدت منه، فسرت من نفسه إلى نفوسهم ، وقاموا على قلتهم يحاربون الخارجين على دولتهم ، حتى قضوا على دعاة الرجعية والفساد ، وأعادوا سلطـان الإسلام بعد أن كاد يختفى من جديد ، والفضل فى

---

(١) النور : آية ٥٥ .

هذا لفهم أبى بكر رسالة الإسلام فهمًا صحيحا ، وعلمه بأنه دين ودولة ، وتجديد فى العقيدة الدينية والسياسة الدنيوية معا .

ثم ظهر أثر ذلك خامساً فى جمع القرآن ، فإن عمر بن الخطاب أشار على أبى بكر بجمع القرآن فى مصحف عقب وقعة اليمامة ، لكثرة من قتل بها من الحفاظ ، فلما شرع أبو بكر فى ذلك اختار له شاباً كان أكثر الصحابة ثقافة بالنسبة إلى ذلك القرن، لأنه كان يجيد القراءة والكتابة ، ويعرف العبرية مع العربية ، ولم تكن العربية قد وصلت فى ذلك القرن إلى أن تكون لغة علمية كالعبرية ، فزادت معرفته بهذه اللغة من ثقافته ، وجعلته يجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأجنبية ، ذلك الشاب هو زيد بن ثابت الأنصارى، وكان جالسا حين كان عمر يشير على أبى بكر بذلك ، فقال له أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فلم يؤثر أبو بكر هذا الشاب على غيره ممن كان أكبر منه سناً وأسبق إسلاما إلا مراعاةً لثقافته الإسلامية والعلمية ، وهذا تفكير مجدِّد يقدِّر ثقافة العلم مع ثقافة الدين ، ولا يهمه أمر التدين البحت كما يهم الرجعيين والجامدين ، لأن جمع القرآن من المسائل الدينية الفنية ، فالواجب أن يختار له من يجمع بين الدين والفن ، وتقدير الفن إلى هذا الحد من أبى بكر يدل على أنه كان ذا حظ كبير من الميل إلى التجديد ، ولم يكن رجعيا لا يقدر الفن وأهله ، وإنما يقدر ناحية الدين فقط .

ثم أثر ذلك سادسًا فى محاولته بعد أن استقرت خلافته أن يعمم حكم الشورى فى المسلمين ، فيدخل فيها غير أهل المدينة بعد أن كان الأمر فيها مقصورا عليهم ، لأنهم كانوا من مهاجرين وأنصار أهل السبق فى الإسلام ، وأولى بأن يرجع إليهم فى أمور المسلمين ، فلم ير أبو بكر أن يستمر استئثارهم بالشورى دون غيرهم لأن الإسلام دين عام لا يفرق بين الناس ، ولا يؤثر فريقا منهم على فريق بشىء من أمور الحكم .

فحين رأى أبو بكر أن يرسل الجيوش إلى فتح الشام أراد أن يرسل إلى أهل مكة يشاورهم فى ذلك ، ويستمدهم إليه ، فاعترض عليه فى ذلك عمر بن الخطاب ورأى أن يكون حق الشورى فى الحكم لأهل المدينة وحدهم ، وقد أنكر هذا عليه عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو من أهل مكة ، فقال سهيل لعمر : ألسنا إخوانكم فى الإسلام ، وبنى أبيكم فى النسب ؟ أفإنكم إن كان الله قدم لكم فى هذا الأمر قدماً صالحاً قاطعوا أرحامنا ، ومستهينون بحقنا ؟ فقال له عمر : إنى والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام ، وتحريا للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين .

وكان الحق فى هذا مع أبى بكر ، لأنه يجب أن يكون للمسلمين جميعاً حق الشورى فى الحكم ، وإذا كانت ظروف المسلمين قد اقتضت فى أول خلافة أبى بكر استئثار أهل المدينة بهذا الحق ، ثم اقتضت بعد هذا أن يشاركهم فيه أهل مكة ، فإنه كان يجب أن يتدرج فى

تعميم هذا الحق حتى يشمل المسلمين جميعاً ، ولو أنه مضى فى هذا التدرج كما مضى فيه أبو بكر ، لما خضع المسلمون لمن سلب منهم جميعاً هذا الحق بعد حكم الخلفاء الراشدين ، حتى صاروا ألعوبة بيد الحكام المستبدين ، يرضخون لاستبدادهم فيهم ، ولا ينكرون شيئاً من ظلمهم ، بل يحاولون جعل ظلمهم عدلا ، وجعل استبدادهم حزماً ، حتى ساءت الأمور وتبدلت الأحوال ، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ، بل صار الأمر إلى جاهلية كالجاهلية الأولى : جاهلية فى الدين ، وجاهلية فى الحكم ، وكل هذا بعدم التدرج فى سنة التجديد فى الحكم التى سنها لنا أبو بكر .

ثم ظهر أثر ذلك سابعاً فى تسويته بين الناس فى العطاء ، حتى لا تتعاظم بينهم الفروق،ولا تظهر بينهم طبقة ممتازة على غيرها من الطبقات ، وقد أتى يومًا مال من البحرين فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار وقالوا له : فضِّلنا ، فقال : صدقتم ، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا ، وإن صبرتم كان لله عز وجل . فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى . ثم انصرفوا ، فرقى أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم فى ظلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، لقلتم ، وإن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد ، وإن طال به الأمد ، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنـــا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يَمَلّونا ولو أن أمنـــا ... تلاقى الذى يلقـــون منا لملت

هم أسكنونا فى ظـــلال بيوتهم ... ظلال بيـــوت أدفأت وأظلت

وقد أسس أبو بكر بهذه النزعة التجديدية للمسلمين دولة عظيمة ، استخلص فيها العراق لهم من دولة الفرس ، واستخلص الشام من دولة الروم ، وقد رضى منهم فى ذلك بما يكفى نفسه وعياله ، ولا يزيد شيئا عن حاجته الضرورية ، فلما رأى أنه مشفٍ على الموت لم تطب نفسه بما أخذ من بيت المال ، بل قـال : ردوا ما عندنا من مال المسلمين ، فإنى لم أصب من هذا المال شيئاً ، وإنّ أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم . فاستخلص عمر ثمن هذه الأرض وردَّه على بيت المال تنفيذاً لأمره، وجعل يقول : يرحم الله أبا بكر ، لقد أحب ألاّ يدع لأحد بعده مقالا .

* * *

عمر بن الخطاب

ولد عمر بن الخطاب بعد النبى ﷺ بنحو ثلاث عشرة سنة وتوفى لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ - ٦٤٣ م ، وكان عمره حين توفى ثلاثاً وستين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، وقيل أكثر .

وقد نشأ عمر بمكة قبل الإسلام ، وتعلم فيها القراءة والكتابة ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة من قريش قبل الإسلام إلا سبعة عشر رجلا ، وقد حذق فى شبابه أنواعاً من الرياضة البدنية ، كالمصارعة وركوب الخيل والفروسية ، وتذوق الشعر ورواه ، وبرز فى معرفة أنساب العرب ، وكان جيد البيان حسن الكلام فاختارته قريش فى سفاراتها إلى غيرها من القبائل ، وكانت حكومته تُرضى فى المنافرة ، وقد ورث ذلك عن أبيه وقومه بنى عدى ، وهو فى هذا كان يشبه أبا بكر كل الشبه ، ولكنه كان كغيره من شبان مكة محبا للخمر ولَوعًا بها ، شغوفا بالنساء والجلوس إليهن ، وكان لهذا أثره فى تأخر إسلامه قليلا عن إسلام أبى بكر .

وقد أفادته هذه الثقافة حين أسلم ، فعرف رسالة الإسلام على حقيقتها ، وأدرك ما تنطوى عليه من عوامل التجديد والإصلاح فى أمور الدين والدنيا ، فجعل هذه الغاية نصب عينيه حين آلت إليه الخلافة بعد أبى بكر ، ولم ينظر إلى الإسلام على أنه دين تقليد وجمود على الدلالة الحرفية للنصوص ، بل نظر إليه على أنه دين تقدم ونهوض ، وعلى أن نصوصه لها مقاصد وأغراض ، فيجب أن تؤخذ بمقاصدها وأغراضها ، ولا يصح الجمود على دلالتها الحرفية .

وكانت سنته فى ذلك الاجتهاد والتجديد أشبه بسنة أبى بكر من قبله ، ولا تكاد تخرج فى شىء عنها، ولهذا تقرن سنته إلى سنة أبى بكر ، فيقال - سنة الشيخين أو سنة الخليفتين الأولين - وكان له (كأبى بكر) تجديدات فى السياسة ، وتجديدات فى بعض أمور الدين .

فمن تجديداته فى سياسة الدولة إنشاء الدواوين ، وفصل سلطة القضاء عن سلطة الإدارة ، فثبّت بالأول معنى الدولة الذى عمل أبو بكر على توجيه المسلمين إليه وأظهر شعارها بذلك ظهوراً واضحاً حتى لا يرتاب أحد فى أن الإسلام دين ودولة وأن رسالته إصلاح وتجديد فى أمور الدنيا والدين وسبق فى الثانى مدينة أوربا الحديثة فى الفصل بين السلطة الإدارية والقضائية ، حتى يتمكن القضاء من الحكم بالعدل بين الناس ، ويستوى

أمامه الحاكم والمحكوم ، ولا تطغى على سلطته غيرها من السلطات الحكومية ، وقد بدأ فى هذا بنفسه ، ففصل قضاء المدينة عن سلطته وأقام أبا الدرداء قاضيا على المدينة ، ثم جعل قضاء الكوفة لشريح ، وقضاء البصرة لأبى موسى الأشعرى ، وقضاء مصر لقيس ابن أبى العاص السهمى ، فكان القاضى يقوم فى ذلك بجانب الوالى ، وللقاضى سلطته القضائية لا يتعداها إلى السلطة التنفيذية ، وللوالى سلطته الإدارية لا يتعداها إلى السلطة القضائية .

ومن تجديداته في الدين ما فعله فى أرض السواد بالعراق ، فقد كانت الغنائم تقسم قبله أخماساً ، فخُمسٌ منها لولي الأمر يصرفه في مصارفه العامة ، وأربعة منها للجند الغانمين ، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (١) فلما فتحوا أرض السواد بالعراق أرادوا قسمتها على مقتضى هذه الآية ، فيكون خمسها لبيت المال ، وأربعة أخماسها للجند الذين فتحوها ، وقد كان الجند يأخذون كل شىء قبل الإسلام فى دولتى الفرس والروم ، ولا يتركون لأهل البلاد إلا الفتات الذى يفيض عنهم ، كما كان يفعل دهاقين الفرس مع الفلاحين الذين يعملون فى أرضهم ، ولكن عمر لم يرض أن يجرى مع ظاهر تلك الآية ، لأنه لم يكن ممن يجمد على ظواهر النصوص ، ولا يراعى فيها ما يَجِدُّ من ظروف وأحوال ، ولم يرض أن يجرى مع جنده كما كانت تجرى دولتا الفرس والروم ، فقال لهم حينما أرادوا ذلك : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وَوُرِثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم - يعنى الجند - فقال له عمر: ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كَلاًّ على المسلمين ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فماذا تُسَدُّ به الثغور ؟ وما يكون للذُّرِّية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ فقال له الجند : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ؟ فقال لهم : هذا رأيى ، فقالوا له : فاستشر ، فجمع المهاجرين الأولين فاختلفوا ، وذهب فريق على رأسهم ابن الرحمن ابن عوف إلى رأى الجند ، وذهب فريق على رأسهم عثمان بن عفان وعلىٌّ بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله إلى رأى عمر ثم أرسل عمر إلى عشرة من رؤساء الأنصار : خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم : إنى لم أزعجكم لتشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرُّون بالحق ، خالفنى من

(١) الأنفال : آية ٤١ .

خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الرأى الذى هوَ هواى ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريـــده ما أريـد به إلا الحق . فقالوا له : قل نسمع يا أمير المؤمنين ، فقال لهم : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيتُ ، لكنى رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنَّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم ، أرأيتم هذه الثغور ؟ لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام ؟ لا بدَّ لها من أن تشحن بالجيوش ولا بد من إدراك العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ فقالوا جميعاً له : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيتَ ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

فلما وافقوه على رأيه سأل عن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون ، فاجتمع رأيهم على عثمان بن حنيف ، وكان له بصر وعقل وتجربة .

وكذلك فعل عمر فى أرض الشام ، لم يقسمها بين فاتحيها ، بل تركها لعمالها ليكون خراجها فى أعطيات المسلمين ، وهذا اجتهاد وتجديد رائع فى الدين ، لا يعتمد إلا على محض الرأى والمصلحة ، ولا يبحث عن نص من كتاب أو سنة يقيس عليه كما فعل من أتى بعد الصحابة من الفقهاء ، لأنه كان أمام نص ظاهر فى قسمة الأرض على الفاتحين ، وقد استمر العمل به إلى وقوع هذا الفتح ، فلا سبيل إلى الاجتهاد فيه إلا محض الرأى ، ومراعاة ما جدّ من الظروف والأحـوال ومن استحداث الديوان وفرض العطاء للجند وغيرهم ، وملاحظة مقاصد الإسلام العامة قبل نصوصه الخاصة ، وهذه مرونة فى الدين لا يجرؤ عليها إلا من يعرف حقيقة رسالة الإسلام ، وأنها رسالة إصلاح وتجديد لا رسالة جمود ومحض تقليد .

ومن اجتهاده وتجديده فى الدين ما فعله مع المؤلَّفة قلوبهم ، وكانوا جماعة من سادة العرب أظهروا الإسلام ، فجعل الله لهم سهماً من الزكاة تأليفاً لهم ، كمـا قال تعـــالى: ﴿ إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمسَاكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [1] وكان النبى ﷺ

(١) التوبة : آية ٦٠ .

يعطيهم من الغنائم أيضاً ، وكان أبو بكر يعطيهم من ذلك فى خلافته ، وقد جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس منهم يطلبان أرضا فكتب لهما بها ، ثم مات قبل أن يستوفياها ، فأتيا إلى عمر بعده يستوفيانها منه ، فمزق الكتاب الذى أعطاه أبو بكر لهما بها، وقال لهما : إن الله أعزّ الإسلام وأغنى عنكما؛ فإن تبتم وإلا بيننا وبينكم السيف ، ولم يكتف بهذا ، بل منعهما نصيبهما فى الزكاة ، وكذلك غيرهما من المؤلفة قلوبهم · وقد راعى فى هذا تجدد الظروف والأحوال ، ولم يجمد على ذلك النص السابق ، ولم يجعل الأمر فى ذلك تقليداً محضا لا يتغير ولا يتبدل ، وإنما راعى مقصد الإسلام من إعطائهما ، فلما ذهب القصد تغير الحكم تبعاً له ·

ومن اجتهاده وتجديده فى الدين ما فعله مع نصارى بنى تغلبَ ، فقد أنفوا من اسم الجزية التى تؤخذ منهم ، وطلبوا من عمر أن يأخذ منهم زكاةً كالمسلمين على أن يضاعفها عليهم ، فقبل منهم ذلك ، وجعل عليهم الزكاة كالمسلمين، مع أن النص صريح فى أن الذى يؤخذ منهم هو الجزية ، ولكنهـــا مرونة عمر فى الدين وفهمه أن الإسلام دين مصلحة ، فيجب أن تقدم فيه المصلحة على غيرها من الاعتبارات ولا يصح أن يحول دونها جمود أو محض تقليد ، وعندى أنه ما دام الأمر قد وصل فى هذه الجزية إلى هذا الحد ، فإنه لا يلزم أن تضاعف فيه الزكاة ، وإنما أخذ عمر بنى تغلب بما رضوا به ·

وكان حكم عمر فى خلافته جديداً كحكم أبى بكر ، لا كسروية فيه ولا قيصرية ولا طغيـــــان فيه ولا استبداد ، ولا امتياز فيه بشىء على الرعية ، بل كان عمر فى أمور دنياه أقل حظاً من غيره من المسلمين ، وقد سئل يوماً عما يحل له من مال الله فقال ، أنا أخبركم بما أستحل منه ، يحل لى حلتان : حلة فى الشتاء ، وحلة فى الصيف ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما يصيبهم ·

وكذلك كان حكمه يقوم على الشورى مثل حكم أبى بكر ، فكان يخضع فيه لكل رأى يراه صواباً ،لا يضيق بالنقد يوجَّه إليه من أى فرد من الناس كبيراً كان أو صغيراً ، وقد خطب يومًا فقال: من رأى منكم فىَّ اعوجاجا فليقومه، فقام رجل فقال: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا · فقال عمر: الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه ، ثم خطب يوما فنهى عن التغالى فى المهور، فقامت امرأة فقالت : أنصدقك يا عمر أم نصدق قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾[1]فقال: صدق الله وكذب عمر، أو أصابت امرأة وأخطأ عمر ·

---

(١) النساء : آية ٢٠ ·

وبهذا وَفَّى عمر برسالة الإسلام الجديدة فى الحكم من أول خلافته إلى آخرها ، وقد عرض عليه بعض الصحابة أن يولى ابنه عبد الله الخلافة بعده ، فقال له : بحسب آل عمر أن يتولاها منهم واحد . ثم جعل الأمر شورى بعده فى ستة ، مات النبى ﷺ وهو عنهم راض : عثمان وعلى والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف .

ولم يختلف حكم عمر عن حكم أبى بكر إلا فى أشياء يسيرة : منها تفضيله بين الناس فى العطاء ، وكان يراعى فى هذا التفضيل السبق فى الإسلام ، وقد قيل إن هذا كان له أثره فيما كان بعد من نظام الطبقات بين المسلمين ، وفى هذا مغالاة ظاهرة ، لأن الغنى لا يمتاز عن الفقير بشىء فى الإسلام ، والامتياز بينهما هو أساس نظام الطبقات ، وإنما أخذ المسلمون نظام الطبقات عن غيرهم من الشعوب ، على أن عمر عزم فى آخر خلافته أن يأخذ فضول الأغنياء فيردها على الفقراء ، ولكن الموت أدركه قبل أن يُمضى هذا العزم .

وكان عمر يصون نفسه عن دماء الناس من مسلمين وغيرهم ، وقد بلغ من أمره فيه أن آثر دمه على دم أبى لؤلؤة الفارسى ، وكان قد ذهب إليه يشكو ما عليه من خراج لسيده ، فرأى أنه ليس بكثير على ما يعرف من صناعات ، ثم طلب منه أن يصنع له رحاً تطحن بالريح ، فقال له : لأصنعنّ لك رحاً يتحدث بها الناس ، ثم انصرف غاضباً . فقال عمر لمن حوله : لقد أوعدنى العبد آنفا . ولكنها كانت ظِنة لا يبيح له دينه أن يأخذه بها ، فتركه ليطعنه تلك الطعنة التى ذهبت فيها نفسه ، وآثر أن يتركه ليتحمل إثم قتله على أن يتحمل شيئاً من إثمه .





عثمان بن عفان

ولد عثمان بن عفان بعد النبى ﷺ بنحو سبع سنين ، وقد تُوفىَ سنة ٣٥ هـ - ٦٥٦ م ، وكان قد نيَّف على الثمانين .

وقد نشأ عثمان بمكة قبل الإسلام ، وكان من بنى أمية رؤساء قريش وثراتهم فتربى فى أحضان النعمة واليسار ، وتعلم القراءة والكتابة ، على ندرة من كان يعرف ذلك بمكة قبل الإسلام ، وكان ممن بادر إلى الإسلام فى أول ظهوره ، ولم يتأثر بما كان من إعراض قومه عنه ، لأن ذوى اليسار يغلب فيهم المحافظة على القديم ، وكراهة التجديد والمجددين ، وهذا يدل على مبلغ حب التجديد فى نفس عثمان ، ولكن أخذه بهذا الدين الجديد لم يغير فى نفسه ما ورثه عن قومه من الميل إلى زينة الدنيا ، والأخذ بأسباب الغنى ومظاهره ، لأن الإسلام جعل الزهد فى زينة الدنيا والميل إليها من المباحات التى يأخذ فيها كل شخص بفطرته ، وبما تقتضيه ظروف زمانه ومكانه ، وحتى يكون الدين ملائما لكل فطرة ، وصالحا لكل زمان ومكان ، ولهذا أتى فيه مدح الزهد فى الدنيا ، كما أتى فيه مدح الأخذ بزينتها وذم من يذهب إلى تحريمها ، كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِد وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِه وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقد أخذ الإسلام بمظهر الزهد فى الدنيا على عهد النبى ﷺ ، وعلى عهد أبى بكر وعمر ، فكان مظهر الزهد فى ذلك هو المظهر الغالب ، وهو الشعار الظاهر ، لأن أحوال المسلمين فى نشأتهم وغلبة الفقر عليهم كانت تدعو إلى هذا المظهر ، ليستوى الناس فيه ، ولا يكون هناك فقر مدقع وغنى ظاهر .

ثم أتت خلافة عثمان وقد انثالت الدنيا على المسلمين ، وآلت إليهم ثروة الفرس والروم ، فكان عثمان هو الخليفة المناسب لتلك الظروف ، حتى يأخذ بالمسلمين فى طريق جديد يظهر صلاحية الإسلام للدولة الغنية الجديدة ، ولمظاهر الغنى الذى ساقه الله إلى أهلها ، وللأخذ بأسباب الحضارة التى سيرثها المسلمون ، ليخلصوا الإسلام من بعض آثار البداوة التى نشأ فيها ، ودعته ظروف نشأته إلى الأخذ بها ؛ فلعثمان فضل هذا التجديد فى

---

(١) الأعراف : آية ٣١ ، ٣٢ .

الإسلام ، لأنه هو الذى فتح هذا للمسلمين ، وأظهر فيه كثيراً من سماحة الإسلام الجديدة ، لأنه كان غنيا ينعم بما ينعم به الأغنياء ، ويحب التوسعة على الناس ، ليتمتعوا بالغنى الذى ساقه الله إليهم .

وقد بدأ عثمان بنفسه فاتخذ له داراً بالمدينة بناها بالحجر والكلس[1] وجعل أبوابها من الساج والعرعر[2] ، واقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها ، وكان يأكل ألين الطعام ، ويلبس أفخر الثياب ، ويشدُّ أسنانه بالذهب ، كما كان نهاية فى الجود والكرم والسماحة والبذل فى القريب والبعيد .

ثم سلك مسلك عثمان فى ذلك كثير من كبار الصحابة ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داراً عظيمة بالبصرة ، وكان ينزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أنها كانت قائمة بالبصرة فى زمنه ٣٣٢ هـ وكذلك ابتنى مثلها بمصر والكوفة والإسكندرية ،وبلغ ماله بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وألف فرس ، وخططًا بما سبق من الأمصار .

ومنهم طلحة بن عبيد الله ، بنى داراً عظيمة بالكوفة ، بقيت شهرتها بعده زمانا طويلا ، ثم شيد داراً مثلها بالمدينة بناها بالآجر والجص والساج ، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وكان له بناحية سراة[3] أكثر من ذلك .

ومنهم عبد الرحمن بن عوف ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ؛ وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته رُبعُ ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً .

ومنهم سعد بن أبى وقاص ، ابتنى داره بالعقيق ، فرفع سمكها ووسعها ، وجعل أعلاها شرفات ، وبنى وهو أمير بالكوفة قصراً عظيما جعله مقر الولاية .

ومنهم المقداد بن الأسود ، ابتنى داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجَصصة الظاهر والباطن .

وقد اتسع بذلك عمران المدينة ، وانتقل مظهرها إلى مظهر جديد يليق بهذه الدولة الجديدة ، ولكن بعض سكانها تغالى فى هذا الباب ، حتى انتشر فى المدينة بعض أنواع من اللهو ، مثل طيران الحمام والرمى على الجلاهقات[4] ، فاستعمل عثمان عليها رجلا من

---

(١) هو ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما،ويتخذ منها بإحراقها .

(٢) هو شجر السرو .

(٣) سلسلة جبال تمتد من عرفة إلى صنعاء وتتخللها أخاديد تنبت فيها الكروم وقصب السكر والقرظ .

(٤) جمع جلهق : وهو البندق الذى يرمى به الطير .

بنى ليث فقصها ورمى الجلاهقات ، ثم أخذ عثمان مَن تغالى فى مثل هذا اللهو بالشدة ، فكان يضرب بعضهم ، وكان ينفى بعضهم إلى الشام أو غيره ·

ولكن هذا التجديد الذى كان لازما لإظهار سماحة الإسلام لم يُرض من استمر على الأخذ بالزهد من الصحابة ، مثل أبى ذرٍّ الغفارى ، وكان أشد الصحابة أخذاً بالزهد ، ولعل لنشأته بين قومه بالبادية أثراً فى مبالغته فيه ، وكذلك قوم من البادية عُرفوا فيما بعد باسم الخوارج ، كانوا يبالغون فى الزهد ، ويظهرون بالنسك، ويثيرون الناس على عثمان ، فأخذوا عليه إحداث هذا التجديد فى الإسلام ، إلى أمور أخرى أضافوها إليه ، وكان مبعثها نقمتهم عليه من أجل هذا التجديد · وممن ذهب مذهبهم فى إنكار ذلك أبو الفتح على بن محمد البسْتى فى رسالته التى أنشأها فى الترجيح بين الصحابة ، وقد نقل عنه العُتبىُّ ذلك فى كتابه - اليمنى - فقد قال فى عثمان : ولما أتت الخلافة عثمان بن عفان ، كان منه ما كان ، من تبديل زىِّ النسك ، بزينة الملك ، وتغيير سيرة الأئمة ، حين توسع فى النعمة ، حتى اجتنى ثمرة ما جنى ، وتيَّهَ به سوء ما أتى ·

ولم يكن أبو بكر وعمر وغيرهما من الصحابة على مذهب أولئك النساك المتنطعين فى دينهم ، بل إن عمر أُتى برجل مُظهر للنسك متماوت ، فخفقه بالدِّرة وقال : « لا تُمت علينا ديننا ، أماتك الله » ·

وقد طلب أبو ذر من عثمان أن يأخذ الناس بالزهد ، فقال له عثمان : علىَّ أن أقضى ما علىَّ وآخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد ·

وكان عثمان فى حكمه ليناً عادلا ، إذ كان الإسلام لا يزال غضا طرياً ، ولكن الناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، فجرَّأهم عليه هذا اللين ، وأغراهم بدمه إذ صانه عن دمائهم ، فذهب ضحية جمود الخارجين عليه ،ونقمتهم على ذلك التجديد الذى يجب أن يعدَّ من أعظم حسناته ·

وقد مضى عثمان فى خلافته يأخذ فيها بالشورى كما كان يأخذ أبو بكر وعمر ، ولكنه حين آثر ذلك التجديد فى زى الخلافة اضطر أن يركن فيه إلى رجال يوافقونه عليه ، ولا تضيق نفوسهم به ، فقرَّب إليه مَرْوان بن الحكَم ، وهو ابن عمه الحكَم بن العاص ، واتخذ عمالاً يرون ما يراه من تجديد مظهر الدولة الإسلامية ، ومراعاة الظروف التى صارت إليها ، لتكون لها مكانتها بين الدول ، ولا ينظر إليها أعداؤها بعين الازدراء والاحتقار ، وقد أقر عمر بن الخطاب معاوية بن أبى سفيان على مثل هذا ، وكان عاملا له على الشام ، وقد اعتذر لعمر حين أنكره عليه بأنه يقوم بالشام بين كثير من الروم

المتحضرين ، فإذا لم يظهر بينهم بهذا المظهر نظروا إليه بعين الازدراء والاحتقار ، ولم تستقم له سياستهم ، فقبل عمر منه هذا العذر، لأنه من حسن السياسة التى لا يسع الإسلام إلا أن يقرها ·

وكان كثير من العمال الذين اختارهم عثمان لذلك الغرض من بنى أمية ، فقام أولئك المتنطعون فى الدين وقعدوا لاختيار عثمان أولئك العمال ، لأنهم خافوا أن يؤدى هذا إلى استئثار بنى أمية بالحكم فى المسلمين ، وأن يصير الأمر بعثمان إلى أن يعهد بالخلافة إليهم ، ويعلم الله أن عثمان لم يكن فى نفسه شىء من ذلك ، وإنما هى ظنون وأوهام قامت بنفوس أولئك المتنطعين ، ويعلم الله أن قتلهم لعثمان هو الذى مكن لبنى أمية مما أرادوا إبعادهم عنه ، وهذا شأن الجاهل بعواقب ما يفعل ، ولله فى خلقه شؤون ·

وإننى أرى أن خير ما يختتم به الكلام فى عثمان كتابه إلى أم سلمة أم المؤمنين ، فهو يرينا كيف كان يعالج أمره مع هؤلاء الخارجين عليه بالروح الإسلامية الجديدة وكيف كانوا يقابلونها بروح جاهلية رجعية متمرِّدة ، وقد كتبتُ إليه فى أمره وأمرهم ، فكتب إليها :

« يا أمنا ، إن هؤلاء النفر رعَاع غثَرة[1] ، تطأطأتُ لهم تطأطؤ الماتح للدلاء[2] ، وتلدَّدت لهم تلدُّد المضطر ، فأراهمنى الباطل شيطاناً ، وأرانيهم الحق إخواناً ، عذيرى الله ، ألا ينهى منهم حليم سفيهاً ، وعالم جاهلا ، والله حسبى وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذَن لهم فيعتذرون » ·



(١) الرعاع : سفلة الناس وكذلك الغثرة ·

(٢) الماتح : المستخرج ، والدلاء : جمع دلو ·

على بن أبى طالب

ولد علىٌ بن أبى طالب قبل الهجـــرة إلى المدينة بنحو عشرين سنة ، وتوفِّىَ سنة ٤٠ هـ - ٦٦١ م ، وقد نيَّفَ على الستين سنة .

وقد نشأ على بمكة قبل الإسلام فى بيت النبى ﷺ ، لأن أباه كان كثير العيال ، فلما أصاب مكة جدب أخذ منه علياً تخفيفاً عليه ، فربّاه فى بيته تربية حسنة ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، وقد بعث النبى ﷺ وهو فى نحو العشر من عمره ، فبادر إلى الإيمان به ، حتى قيل إنه كان أسبق من أبى بكر إليه ، وبهذا رافق الدعوة الإسلامية من أول ظهورها إلى نهايتها ، وكان من أعرف الناس برسالتها الجديدة ، ومِن أدراهم بما تقصد إليه من الإصلاح فى أمر الدين والدنيا .

فكان لهذا أثره فى نفس على حين لزم رأى الجمــاعة ، وآثر الطــاعة فى خـــلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، مع أنه كان يرى أنه أحق منهم بالخلافة ، ولكنه عرف مع هذا أن الفرق بين تجديد الإســلام ورجعية الجاهلية هو حسن الطاعة ولزوم الجماعة ، ليستقر أمر المسلمين ، ويسود النظام بينهم ، ولا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الفوضى فى جاهليتهم ، فتتغلب رجعيتها على تجديد الإسلام ، ويطغى قديمها على ذلك الدين الجديد ، وقد خاطر فيه بنفسه ، وقدَّم أروع جهاد فى تأييده ، فلا يصح أن يثير فيه الفتنة إذا فاته ذلك الأمر ، وآثر الناس بالخلافة غيره عليه لأنها نزعة جاهلية رجعية تضر المسلمين ، وتؤدى إلى إضعاف الإسلام وضياع جهاده فى تأييده .

كما كان له أثره فيه حين اضطرب الأمر بعد قتل عثمان ، فلم ينتهزه فرصة لتحقيق ما يراه من أحقيته بالخـلافة ، فيجمع الناس عليه بالقوة ، ويأخذهم إليه بالسيف ، ويسبق غيره فى وسط هذا الخلاف ، ولكنه تردد وأحجم وأظهر التعفف عن الحكم ، لأن الولاية فى الإسلام يجب أن تكون عن طواعية واختيار ، ليكون الحكم شعبياً شورياً ، لا طغيان فيه ولا استبداد ، ولا رجوع فيه إلى الوراء ، بل مضياً فى النهوض والتجديد ، فلما طلبوه إلى الخلافة أجابهم إليها بعد التردد ، ولم يمنعه من إجابتهم ما يراه أمامه من الأشواك ، لأنه كان شجاعاً لا تثنيه العقبات ، ولأنه رأى الإسلام فى خطر الفتنة ، فلابد أن يتقدم الصفوف ليقيه الرجعية والانتكاس ، كما كان يتقدم الصفوف فى عهد البناء والإنشاء ، ليفوز بالأجرين ، وينال شرف الجهادين ، وليس هناك غيره أولى منه بتقدم الصفوف فى

هذه الفوضى ، لينتشل الإسلام من هذه النكسة الجاهلية ، ويعيد النظام إلى ما كان عليه قبل اختلاله .

ولكن عليّاً كان له منافسون يرون أنه إذا تولى الخلافة وهو يرى أنه أحق بها من غيره ، فسيجعلها ميراثاً فى ذريته من بعده ، وكان حين قام بالخلافة بعد عثمان ترك التحقيق فى قتله ، وشرع فى عزل عماله على الأمصار ، لأنه آثر أن يعود إلى سيرة أبى بكر وعمر فى اتخاذ الزهد شعاراً للدولة ، بعد أن أدى تساهل عثمان للناس فى أمر الدنيا إلى التنازع عليها ، والوقوع فى تلك الفتنة التى ذهب دمه فيها ، فليس أصلح لعلاجها عنده من القضاء على أسبابها ، والتغاضى عما حدث فيها من قتله وغيره ، أو إرجاء التحقيق فيه إلى أن يستقر النظام ، وتزول آثار هذه الفتنة ، فينساه الناس بالتغاضى عنه ، وتذهب أحقاده بالتغطية عليها ، فانتهز المنافسون له هذه الفرصة للتشنيع عليه ، ولرميه بأن له ضلعا فى تحريض الناس على عثمان ، ولمطالبته بالأخذ بثأره من الذين ثاروا عليه ، وللخروج عليه ليحقق لهم هذا المطلب .

فوقع الإسلام فى نكسة رجعية أشد من تلك النكسة السابقة ، وأخذت عصبية الجاهلية تطل فيه برأسها ، وتحاول أن تقضى على ما أقامه من النظام والطاعة للدولة ، ليأخذ كل واحد حقه بالقوة ، ولا يرى للدولة حقا عليه فى الطاعة ، وهنا رأى علىٌّ أن يقضى بالسيف على هذه الرجعية، بعد أن أدى تساهل عثمان فى علاجها إلى تفاقم أمرها ، وإذا لم ينفع اللين فى إقرار النظام فى الدولة لم يكن بد من الشدة ، فمضت بهذا خلافة علىّ فى حرب داخلية لإقرار النظام ، وكان من ذلك وقعة الجمل بينه وبين عائشة أم المؤمنين والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، ثم وقعة صِفِّين بينه وبين معاوية ابن أبى سفيان وعمرو بن العاص .

وقد هان هؤلاء الزعماء على الناس بعد وقوعهم فى ذلك الخلاف ، وكان خلافهم سبباً فى قيام رجعيات كثيرة بين المسلمين ، لا ترى لأولئك الزعماء حرمة فى الإسلام ، أو حقا فى الطاعة ، بل يغالى بعضها حتى يؤثر فوضى الجاهلية على نظام الحكم ، كما ذهب إلى ذلك بعض الخوارج .

وهنا كان ذلك الائتمار من أنصار الفوضى على الفريقين المتحاربين من علىٍّ ومعاوية ؛ وكان ما كان من قتل على وحده ، وانقضاء عهد الخلافة القائمة على البيعة والشورى ، وانقضاء حكمها الذى كان القائم به يرى أنه خادم الشعب لا سيده ، وأجيره لا مالكه .

وقد نجا معاوية من ذلك الائتمار، فقام بالحكم بعد علىّ بالسيف الذى اعتمد عليه ،

لا ببيعة وشورى كما قام حكم الخلفاء الأربعة قبله ، فوقع المسلمون بهذا فى حكم رجعى لا يعتمد على الشورى ، ولا ينظر إلى مصلحتهم كما كان ينظر الخلفاء الراشدون إليها ، حين كانوا ينكرون أنفسهم فى الحكم ، ولا يرون لهم مصلحة خاصة فيه .

ولكن قيام معاوية بالحكم مع هذا كان له نفع من جهة أخرى ، لأنه قضى على الفوضى التى أراد الخوارج وقوع الناس فيها ، وهى رجعية أسوأ أثراً من رجعية الحكم الاستبدادى ، لأن الحكم فيه من النظام ما فيه ، والنظام خير من الفوضى ، ولهذا شرع فى الإسلام الطاعة للحاكم الجائر إذا كان الخروج عليه لا يؤدى إلى حكم عادل ، بل يوقع الناس فى الفوضى ، ولإيثار الحكم الجائر فى الإسلام على الفوضى حكمةٌ ظاهرة ، لأن بعض الشر أهون من بعض ، وما لا يُدرَك كله لا يترك كله .

على أن معاوية مع هذا كان أصلح للحكم من أولئك الخوارج المتنطعين فى الدين ، لأنه كان على كل حال سمحا فى دينه ، لينا فى سياسته ، وقد مكث حكمه نحو عشرين سنة جمع جمهور المسلمين فيها حوله ، وأعاد الفتح الإسلامى إلى مثل ما كان عليه أو أكثر ، فعادت للإسلام قوته بعد ضعفه بتلك الفتن ، وله فى هذا ثوابه عند ربه ، ولو أن أولئك الخوارج من البدو المتنطعين فى الدين قاموا فى الحكم مقامه لساروا فى تنطعهم الدينى ، ولم يكن للإسلام تلك الحضارة التى نفاخر بها غيرنا فى عصرنا ، وتبعث فينا الأمل فى تجديد حضارة مثلها ، إن لم تكن أرقى منها .

ولقد كان الذين خافوا من على أن يجعل الخلافة إرثًا فى ذريته مخطئين فى خوفهم ، لأن علياً كان يرى له حقا فى ذلك بلا شك ، ولكنه كان يرى أن يكون حكما إسلامياً لا كسروياً ولا قيصرياً ، يقوم برضا المسلمين واختيارهم ، ويوافق التقليد الجديد الذى أتى به الإسلام لنظام الحكم ، فلا يستبد فيه الحاكم بأمور الناس ، وإنما يكون الأمر فيه شورى بينه وبينهم ، وهذا حكم لا يكاد يخالف فى شىء حكم الخلافة الذى اختاره المسلمون عقب وفاة النبى ﷺ ، ولا يشبه فى شىء حكم القوة والاستبداد الذى حكم به المسلمون بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين .

ولهذا سكت على راضيا حين تخطاه المسلمون إلى أبى بكر وعمر وعثمان ، ولم يحاول أن يأخذ الحكم بالقوة فى تلك الفتنة التى اضطرب فيها المسلمون ، بل سكت إلى أن صار إليه بيعتهم له ، فصار بهذا خليفة كالخلفاء قبله ، وقد وفى لهذا التقليد الجديد الذى أتى به الإسلام فى حكمه ، ومكث على وفائه إلى أن وافاه الأجل ، فعرضوا عليه أن يلى ابنه الحسن أمورهم ، وهذا يوافق رأيه فى أنهم أولى بهذا الأمر من غيرهم ، فقال

لهم : لا آمركم ولا أنهاكم . لأنه لم يكن يرى أن يفرض حقهم هذا بالقوة على المســـلمين ، بل كان يرى أن لهم حقا فى قبوله أو رفضه ، فيجب أن يقوم برضاهم ، وأن يتم ببيعة تشبه بيعة الخلافة .

ولا يفوتنى بعد الكلام على عثمان وعلى أن أقرر أن ثورة الخوارج عليهما لم تكن كما يُظهرون خالصة للدين ، وإنما حملهم عليها منافسة قريش فى الحكم ، لأنهم كانوا يرون أن الحكم حق المسلمين جميعا ، ونحن لا نخالفهم فى هذا الرأى ، ولكنا نرى أن ظرفه لم يكن مناسباً ، لأن السابقين فى الإسلام كانوا من قريش ، وكانوا أعرف من غيرهم برسالته الجديدة ،فكان من الواجب أن يكون الحكم لهم عقب وفاة النبى ﷺ ، لأن الإسلام كان لا يزال غضا طرياً ، فلا بد له من حاكم يمضى به فى وجهته الصحيحة ، ويجنبه النكسة الرجعية بعد وفاة النبى ﷺ ، وقد عرف الأنصار من أهل المدينة لمهاجرى قريش هذا الفضل ، فسلَّموا لهم الأمر بالحسنى بعد أن ظنوا أنهم أولى به ، لأن لهم من الفضل ما يدانى فضل المهاجرين ، ولكنهم سلَّموا لهم خوفاً من الفرقة على الإسلام ، ولو كان عند أولئك الخوارج من الإخلاص للإسلام مثل الأنصار لما قاموا بفتنتهم التى يجنى الإسلام آثارها إلى اليوم .

* * *



الحسين بن على

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ ، ولد سنة أربع وقيل سنة ست وقيل سنة سبع من الهجرة ، وتوفى سنة ٦٠ هـ - ٦٧٩ م ، وقد نشأ مع أبيه بالمدينة ، ثم خرج معه إلى الكوفة بعد أن بويع بالخلافة ، وشهد معه وقعة الجمل وصفّين وقتال الخوارج ، وبقى معه إلى أن قتل ، ثم بقى مع أخيه الحسن إلى أن سلم الأمر لمعاوية ، فتحول معه إلى المدينة ، وأقام بها مدةَ مُلْكِ معاوية .

فدخل فيما دخل فيه الجماعة من تسليم الأمر لمعاوية ، وإن كان قد شابه ما شابه من استعمال القوة ، لأن الحسن سلم له الأمر باختيار إيثارًا لاتفاق كلمة المسلمين ، وحقناً لدمائهم ، فكان من المصلحة التسليم له ، والرضا بما قضت به الظروف من ظهور أمره على غيره ، وإن كان فى المسلمين من كان أولى بذلك الأمر منه . وكان معاوية من بنى أمية الذين كانوا يمثلون طبقة الأشراف بين قريش فى الجاهلية ، وقد حملهم هذا على مناوأة الإسلام ، لأنه كان من أغراضه التسوية بين الطبقات ، ورفع العامة إلى منزلة الخاصة ، وجعل العمل الصالح معيار الشرف فى الدنيا والآخرة ، فلما ولى معاوية أمر المسلمين غلبت عليه طبيعته الأموية ، ولم يَسِرْ فى حكمه كما سار الخلفاء الراشدون قبله ، بل جعل فى حكمه شبهًا من حكم الأكاسرة والقياصرة ، لا اعتداد فيه برأى الرعية ، ولا تسوية فيه بين طبقاتها ، ولا تعفف عن إيثار قومه بالحكم بعده ، وحرمان سائر المسلمين منه .

وكان من أثر ذلك ما لجأ إليه من إيثار ابنه يزيد بولاية العهد بعده ، وسلوكه فى ذلك طريق القوة الذى صار به الأمر إليه ، فكان بهذا أول من سنّ هذه السنة الرجعية فى الإسلام . وكان أول من حمله على ذلك المغيرة بن شعبة حينما أراد عزله عن الكوفة سنة ٥٦ هـ - ٦٧٥ م ، فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وقال له : إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى ﷺ وآله وكبراء قريشٍ وذَوُو أسنانهم ، وإنما بقى أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا ، وأعلمهم بالسُّنة والسياسة ، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ فقال له يزيد : أوَ ترى ذلك يتم ؟ قال: نعم .

فأخبر يزيد أباه بذلك ، فأحضر المغيرة وقال له : ما يقول يزيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأيتَ ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خَلَف ، فاعْقدْ له ، فإن حدث بك حادث كان كهفًا للناس وخلفا منك ، ولا تُسفك دماء ،

ولا تكون فتنة ، فقال معاوية : ومن لى بهذا ؟ فقال : أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

وقد وصل المغيرة من هذا إلى غرضه من بقائه واليا على الكوفة ، وإن ألبسه ما ألبسه من إرادة المصلحة العامة ، فرده معاوية إلى الكوفة وطلب منه أن يمهد لذلك الأمر ، فأخذ يحبب الناس فيه ، حتى أجابه إليه بعض أنصار بنى أمية ، فأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية فزينوا له البيعة ليزيد ، حتى قوى عزمه عليها ، وأرسل إلى زياد أن يقوم بذلك فى البصرة ، فأرسل إليه زياد ينصحه أن يتريَّث فى هذا الأمر لعدم استكمال شروطه فى يزيد ، وكان مما قال له : « ... ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .. » فعمل معاوية بنصيحة زياد ، وكفَّ عن هذا الأمر ، لأن زيادا كان ساعده الأيمن ، فلم ير أن يخالفه فيه لئلا يكون سبب خلاف بينهما .

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة كتابا يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد ، فقرأه مروان على الناس فى المسجد ، فهاج القوم وماجوا ، وقام عبد الرحمنَ بن أبى بكر فقال : ما الخيارَ أردتم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هِرْقَلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ، وقام الْحُسين بن علىٍّ فأنكر ، وفَعل مثله عبد الله ابن الزُّبير .

فلما بلغ معاوية ذلك سار إلى المدينة ، فلقى الحسين بن على وعبد الله بن الزُّبير وعبد الله بن عمر ، وكلمهم فى البيعة ليزيد ، فقال له عبد الله بن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال : تصنع كما صنع رسول الله ﷺ ،أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر ، قُبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدا ، فارتضى الناس أبا بكر . فقال معاوية لهم : ليس فيكم مثل أبى بكر ، وأخاف الاختلاف ، فقالوا له : صدقتَ ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ،جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه ، فقال معاوية لهم : هل عندكم غير هذا ؟ قالوا : لا ، فقال لهم : فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر . ثم أخبرهم بأنه سيجمع الناس لهذا الأمر ، وهددهم بالقتل إن أظهروا خلافًا له ، ثم جمع الناس فقال لهم : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يُبتَزُّ أمر دونهم ، ولا يُقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله . فبايع الناس ، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ، فلقوهم فقالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلِمَ رضيتم وأعطيتم وبايعتم ؟ فقالوا : والله ما فعلنا،فقالوا لهم : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟ فقالوا ، كادنا وخفنا القتل .

وكان لهؤلاء النفر عذرهم فى هذا السكوت ، لاجتماع كلمة المسلمين على معاوية فى ذلك الوقت ، وهم ثلاثة لا يصح لهم الخروج على ذلك الإجماع ، وقد أضاف بهذا معاوية إلى رجعيته فى تحكيم السيف فى خلافة علىّ رجعية أخرى فى أخذ الناس بالقوة فى هذه البيعة ، وقد خضع الناس له فى ظاهر الأمر لقيام سلطانه ، وكراهتهم شقّ عصا الطاعة .

فرأى الحسين أن ينتظر إلى أن يذهب ما يخشاه الناس من ذلك ، لعلمه أنهم عند موت معاوية لا يدينون ليزيد ، ولا يفون بهذه البيعة التى أخذت منهم بسلطان أبيه ، لأنها بيعة باطلة .

وقد مات معاوية سنة ٦٠ هـ - ٦٧٩ م ، وكان الوالى على المدينة الوليد بن عتبة ، فأرسل إليه يزيد أن يأخذ البيعة له من الحسين ، فلما طلب الوليد منه البيعة قال له : أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سِراً ، ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على الناس علانيةً ، فإذا خرجت إلى النـــاس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس،فكان أمرًا واحدًا .

ولم يكن الحسين يريد البيعة ليزيد ، ولكنها حيلة لجأ إليها ليتمكن من القيام بما عزم عليه من العمل للقضاء على هذه الرجعية ، وتخليص الناس من استبداد بنى أمية ، وإقامة حكم شورى تراعى فيه مصلحة الرعية قبل مصلحة الراعى ، ويسير على العهد الذى كان عليه فى أيام الخلفاء الراشدين .

فخرج الحسين من المدينة إلى مكة وكاتب شيعته بالكوفة ،فكتبوا إليه كتابا جاء فيه : إنه ليس علينا إمام ، فاقدمْ علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى ، فإن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ، ولسنا نجتمع معه فى جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام .

فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عَقيل ليأخذ له بيعتهم ، فلما قدم عليهم اجتمعوا عليه وبايعه منهم اثنا عشر ألفاً ، فقام رجل ممن يهوى يزيد إلى النعمان بن بشير فقال له : إنك ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد . فقال له النعمان : لأن أكونَ ضعيفا فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون قوياً فى معصيته ، ما كنتُ لأهتك ستراً .

فكتب الرجل بهذا إلى يزيد فعزل النعمان بن بشير عن الكوفة وأضافها إلى عُبيدَ الله ابن زياد واليه على البصرة ، وأمره أن يطلب مسلم بن عقيل ، فإن ظفر به قتله . فأقبل عُبَيْد الله فى بعض أهل البصرة إلى الكوفة حتى دخلها متلثّما ، فكان لا يمر على أحد فيسلم إلا قال له أهل المجلس « عليك السلام يا ابن رســول الله » يظنونه الحسين قدم عليهم ، فنزل عبيد الله القصر ، وجعـل يبحث عن مسلم بن عقيل حتى وجده فقتله .

وكان مسلم بن عقيل قبل قتله قد أرسل إلى الحسين يطلب منه القدوم إلى الكوفة ، فتجهَّز الحسين فى نحو ثمانين رجلا من أهله وشيعته ، وسار يقصد الكوفة بهم ، وهو لا يعلم قتل مسلم بن عقيل ، فجهز عُبيد الله بن زياد له جيشا على رأسه عمر بن سعد بن أبى وقاص ، فالتقى هو والحسين بِكربَلاء ، ولم يكن مع الحسين إلا أربعون فارساً ونحو مائة رجل ، وكان جيش عبيد الله بن زياد يبلغ أضعاف هذا العدد ، فقاتلهم الحسين بمن معه على قلتهم ، وكان فيهم سبعة عشر شابًا من أهل بيته ،ولم يزل يقاتلهم إلى أن قُتِل ، فأتى برأسه إلى عبيد الله بن زياد ، فأرسله ومن بقى من أهل بيته إلى يزيد ، ومنهم علىٌّ ابن الحسين وكان مريضاً ، ومنهم عمته زينب بنت على ، فلما قدموا على يزيد أرسلهم إلى المدينة .

فذهب الحسين شهيداً فى سبيل القضاء على الرجعية السياسية التى أحدثها بنو أمية فى الإسلام ، وله فى ذلك أجر الشهداء الذين استشهدوا فى سبيل الخير للناس ، وفى سبيل المصلحة العامة ، ولا ينقص من أجره فى ذلك قعود من استشهد فى سبيلهم عن نصرته ، لأن الحق لا يُنقص من قدره تهاون الناس فى نصر القائمين به .

ومن أنصار الرجعية والجمود من يرى أن الحسين قُتِلَ بسيف جَدِّه ، لأنه خرج على إمام من أئمة المسلمين ، وهذا مردود من وجوه :

أولها : أن البيعة ليزيد كانت باطلة كما سبق .

وثانيها : أن يزيد لم يجمع الناس على البيعة بعد موت أبيه ، بل كان ممن خرج عليه أهل المدينة وقد طردوا عامله ، فبعث إليهم مسلم بن عُقْبَة الْمُرِّىَّ سنة ٦٣ هـ - ٦٨٢ م ، فحاصر المدينة حتى سلمت له،فأباحها لجيشه ثلاثة أيام قضاها فى القتل والسلب والنهب ، وكان ممن خرج عليه أهل مكة ، إذ دعا فيها عبد الله بن الزُّبير لنفسه ، فسار إليه مسلم بن عقبة من المدينة ، وقد مات فى الطريق فقام مكانه الْحصَين بن نُمَير ، وسار بالجيش إلى مكة فحاصرها ،ودار القتال بينه وبين عبد الله بن الزبير إلى أن ورد إليهم خبر موت يزيد ، وكان هذا سنة ٦٣ هـ - ٦٨٢ م ، فلم يتم أمره كما تم أمر أبيه قبله ، بل انفرط عقد بنى أمية بموته ولم يبق لهم إلا الشام وحده ، إلى أن قام فيهم مروان بن الْحكم وابنه عبد الملك فعاد أمرهم كما كان فى عهد معاوية .

وثالثها : أن الحسين لم يقم بعمله مجازفة وحده ، بل أرسل أولاً مسلم بن عقيل إلى أهل العراق ، فقام بالبيعة له قبل أن يسير إليهم ، ثم أرسل إليه أن بالعراق قوة يمكنه أن يصل بها إلى غايته من القضاء على تلك الرجعية الجاهلية ، فسار إليهم على هذا الأساس ، ولو أنهم قاموا معه لوصل إلى غرضه ، وذهب أمر يزيد الذى يحتج به عليه ،

فلا يكون عليه فى ذلك أية شائبة ، وإنما دمه فى عنق يزيد أولا ، وفى عنق من دعاه من أهل العراق ثم نكل عنه ثانيا .

وإذا كان بعض الفقهاء قد منع من الخروج على الظلمة ، فقد استثنوا من ذلك من فحش ظلمه ، وعظمت المفسدة بولايته ، وممن ذكر هذا من الفقهاء الإمام الجُوَيتى فى كتاب الغياثى ، فقد ذكر أن الإمام لا ينعزل بذلك ، ثم قال : « وهذا فى نادر الفسق ، فإذا ما تواصل منه العصيان ، وفشا منه العدوان ، وزال السداد ، وتعطلت الحقوق ووضحت الخيانة ، فلا بد من استدراك هذا الأمر المتفاقم ، فإن أمكن كفٍّ يده وتولية غيره بالصفات المعتبرة فالبدار البدار ، وإن لم يمكن ذلك لاستظهاره بالشوكة إلا بإراقة الدماء ومصادمة الأهوال ، فالوجه أن يقاس ما الناس مدفوعون إليه مبتلون به بما يفرض وقوعه ، فإن كان الواقع الناجز أكثر مما يتوقع فالواجب احتمال المتوقع ، وإلا فلا يسوغ التشاغل بالدفع ؛ بل يتعين الصبر ، والابتهال إلى الله تعالى » .

ولا شك أن الحسين كان فى مثل هذا الموقف من يزيد ، كما يؤخذ من خطبته حين أحيط به ، فقد قام فى أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« قد نزل بى ما ترون من الأمر ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت ، وأدبر معروفها واستمرت ، حين لم يبق منها إلا كصبابة الإناء الأخس ، وعيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يُعمل به ، والباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن فى لقاء الله عز وجل ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياةِ مع الظالمين إِلاَّ برمًا » .



خالد بن يزيد

هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان : تولى جده معاوية الحكم بعد أن نازع فيه علياً بالسيف ، وسنّ فى الإسلام هذه السُّنّة الرجعية ، وقد مكث فى الحكم نحو عشرين سنة ، وكان فيه خيراً ممن أتى بعده على ما كان فيه من هنات ، ثم خلفه ابنه يزيد بعد أن جعله ولىَّ عهده ، وسنَّ فى الإسلام إرث الحكم بالقوة ، وقد جرى فى عهد يزيد أحداث شديدة فى الإسلام ، مِن قتل الحسين بن على بن أبى طالب ، إلى وقعة الحرَّة واستباحة المدينة ، إلى غير هذا من الأحداث .

ولم يمكث يزيد فى الحكم إلا نحو ثلاث سنين ، فقام بعده ابنه معاوية وكان مريضاً ، فلم يكد يتولى الملك حتى زهد فيه ، ونظر إلى ما تحمله أبوه وجدُّه فيه فازداد فيه كرها ، فجمع الناس ليردَّ أمرهم إليهم ، ويعتزل الحكم ليجعله شورى فيهم ، فطلبوا منه أن يولِّى عليهم أخاه خالداً ، فقال لهم : والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فلا أتقلد وزرها . فعقد أنصار بنى أمية مؤتمراً بالجابية بايعوا فيه مروان بن الْحكَم ، ثم خالد بن يزيد من بعده ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد ، فلما تمَّ الأمر لمروان بن الحكم نقض هذا العهد ، وبايع ابنيه : عبد الملك ، ثم عبد العزيز .

وكان فى معاوية بن أبى سفيان ميل إلى معارف الشعوب التى سبقت المسلمين إلى الاشتغال بالعلم ، ولكنه اتجه فى ذلك إلى ناحية ضيقة جداً ، فلم تتطلع نفسه إلا إلى معرفة علم التاريخ ، وقد استقدم لأجله عبيد بن شَرْيَة من صنعاء ، وأمره بوضع كتاب فى هذا العلم ، فوضع له كتاب « الملوك وأخبار الماضين » .

فورث خالد ذلك عن جده ، وأربى عليه بالميل إلى علوم الحكمة ، لأنه لم يجد من أمور الملك ما يشغله مثله ، أو يصرفه عن التوسع فى هذه الناحية ، فسبق المسلمين جميعا إلى أهم ناحية من التجديد ، ولفتهم إلى العناية بعلوم الحكمة التى سبقتهم الأمم القديمة إليها ، لتقوم حضارتهم على العلم والدين ، ولا يكونوا فى العلوم الحكمية عالة على الأمم السابقين .

وقد كان الإسلام لا يزال غضا طريا ، ولم تكن النزعة الرجعية قد جاوزت فيه حد الحكم إلى العلم ، فلم ير خالد شيئا من دينه يمنعه من الاشتغال بالعلوم الحكمية ، ولم ير معاصروه من العلماء شيئا يؤخذ عليه فى ذلك من جهة الدين ، فقضى حياته فى الاشتغال بهذا التجديد فى معارف المسلمين ، وسنَّ لهم به سنة عظيمة فى باب التجديد ، كما نزع

أخوه معاوية من قبله إلى إصلاح الحكم الإسلامى ، بإعادته إلى الشورى التى كان يقوم عليها أيام الخلفاء الراشدين ، ولكن معاوية لم يجد من القوة ما يساعده على القيام بهذا الإصلاح ، لأن المرض لم يمهله إلا أياما بعد اعتزال الحكم .

وقد اقتصر خالد فى الاشتغال بالعلوم الحكمية على العلوم النافعة للمسلمين فى دنياهم ، فلم تتوجه نفسه إلا إلى العلوم الطبيعية من العلوم الحكمية ، ولم يشتغل بغيرها من الإلهيات ، لأن الإسلام كان إلى هذا الوقت دينا عمليا ، فلم يكن فى حاجة إلى تلك النظريات الفلسفية العويصة فى باب الإلهيات ، ولم يكن فى حاجة إلى علم المنطق ونحوه من العلوم التى رأى المسلمون فيما بعد أن دينهم فى حاجة إليها .

وقد بدأ خالد فجمع حوله المشتغلين بهذه العلوم من اليونان وغيرهم ، مثل إصْطفَن الإسكندرى ، ورجل من الرهبان يقال له مريانس ، فأمرهم بترجمة كتب الطبِّ والنجوم والكيمياء من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية ، ثم أخذ يشتغل بهذه العلوم حتى كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صناعة الطب والكيمياء وكان بصيرا بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل تدل على معرفته وبراعته ، وقد أخذ صنعة الكيمياء عن مريانس الراهب السابق ، وله فيها ثلاث رسائل : تضمنت إحداهن ما جرى له مع هذا الراهب ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التى أشار إليها ، وله فيها أشعار كثيرة مطوَّلات ومقطوعات ، تدلُّ على حسن تصرفه وسعة علمه ، وقد ذكر ابن النديم فى كتاب - الفِهْرِست - أنه رأى له شعراً كثيرا فى هذا المعنى يبلغ نحو خمسمائة ورقة ، وأنه رأى من كتبه : كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبيرة ، وكتاب الصحيفة الصغيرة ، وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة ، إلى غير هذا من آثاره فى هذه الناحية من التجديد ، وهى ناحية انفرد بها خالد فى ذلك القرن ، ولم يقدِّر أحد غيره حاجة المسلمين إليها كما قدرها ، بل كان علماء المسلمين فى ذلك القرن منصرفين إلى غير هذه الناحية من النواحى الدينية والأدبية ، فلم يظهر بينهم فى هذه العلوم حكيم ممتاز كما ظهر بعد هذا القرن ، مما يدل على تقصيرهم فى هذه الناحية .

وقد مكث خالد مشتغلا بهذه الناحية الجديدة فى الإسلام ، إلى أن توفى سنة ٨٥ هـ - ٧٠٤ م .

* * *

عمر بن عبد العزيز

هو عمر بن عبد العزيز بن مَرْوان ، وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقد تولى الحكم بعد سليمان بن عبد الملك بن مروان بعهد منه ، وذلك أن سليمان لما حضرته الوفاة بمرج دابق دعا رجاء بن حَيْوة ومحمد بن شهاب الزهرى ومكحولا وغيرهم من العلماء ممن كان في عسكره غازيا ونافراً ، فكتب وصيته ، وأشهدهم عليها ؛ وقال : إذا أنا متُّ فأذِّنوا بالصلاة جامعة ، ثم اقرؤوا هذا الكتاب على الناس ، فلما فرغوا من دفنه نادوا - الصلاة جامعة - فاجتمع الناس وحضر بنو مروان واشرأبُّوا للملك ، وتشوَّفُوا نحوه ، فقام الزهرى فقال : أيها الناس ، أرضيتم من سمّاه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته ؟ فقالوا : نعم . فقرأ الكتاب ، فإذا اسم عمر بن عبد العزيز ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فقام مكحول فقال : أين عمر ؟ وكان فى أواخر الناس ، فاسترجع حين دعىَ باسمه مرتين أو ثلاثا ، فأتاه قوم فأخذوا بيده وعضديه ، فأقاموه وذهبوا به إلى المنبر ، فصعد وجلس على المرقاة الثانية - وللمنبر خمس مراق - فكان أول من بايعه من الناس يزيد بن عبد الملك ، وقام سعيد وهشام فانصرفا ولم يبايعا ، وبايع الناس جميعاً ، ثم بايع سعيد وهشام بعد ذلك بيومين[1] .

وقد كان عمر قبل الملك مع صلاحه وعفته يبالغ فى التنعم ، حتى قيل إنه كان يشترى الحلة بألف دينار ؛ فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ولكنه رأى سليمان يؤثره بالملك على إخوته ، ورأى أولئك العلماء يحسنون الظن به ويجتهدون فى توثيق الأمر له ، لعله يصلح ما فسد فى المسلمين ، ويسير بهم فى طريق النهوض والتجديد ، فلم ير أن يخيب ظنهم فيه ، بل رأى أن يحقق هذا الأمل الذى يتطلع الناس إليه ، منذ صار الحكم فيهم جوراً واستبدادا ، وكان لِماَ ورثه عن عمر بن الخطاب من جهة أمه أثر فى تغيير حاله بعد أن صار إليه الملك ، فختم ذلك القرن بإصلاح ما فسد من الحكم،وتجديد ما بلى من الدين ، والنهوض بالعلم بعد جموده ، والعمل على إصلاحه ونشره فى الناس .

---

(١) وقيل إنه لما ولى رد الأمر إلى الأمة ، فصعد المنبر فقال : أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم . فقال الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك ، قل الأمر باليمن والبركة .

وقد كان لعمر إصلاحات كثيرة فى هذه المدة القصيرة :

منها إعادة العمل بالشورى ، فقرَّب إليه أهلها من العلماء الصالحين ، وأخذ يستشيرهم فى أمور الملك ، ويعمل بمشورتهم فى هذه الأمور ، فاستقام له أمر الناس بالشورى ، وكسب رضاهم بإزالة ما أرهقهم قبله من استبداد الملوك فيهم ، واستباحتهم أموالهم ، وإراقتهم دماءهم .

ومنها إنصاف طوائف الأمة على اختـلاف أجناسها وآرائها وعقائدها ، فأرضى بهذا المخالفين فيها قبل الموافقين ، وقضى على الفتن والثورات الداخلية،وكان من أشد المخالفين فى الدولة طائفتا الشيعة والخوارج ، فأرضى الشيعة بإبطال ما كان يأخذ به بنو أمية من ذم على ﷺ على المنابر ، ورد حقوق ذُريته إليهم كفدكَ وغيرها مما أخذ منهم ، وأرضى الخوارج بأخذهم بالحجة والإقناع ، وإبطال ما كانوا يؤخذون به قبل من استعمال السيف ، وعدم الإصغاء لما يشكون منه من فساد أمور الدنيا والدين ، واستبداد الملوك فى الحكم .

وقد كان قبل الملك ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الخوارج ، ويقول له : ضَمِّنهم الحبس حتى يحدثوا توبة . فأُتى سليمان بخارجى فقال له : هيه ، فقال الخارجى له : وماذا أقول يا فاسق ابن الفاسق ؟ ، فدعا سليمان بعمر بن عبد العزيز وقال له : اسمع مقـالة هذا ، فأعادها الخارجى ، فقـال سليمان لعمـر : ماذا ترى عليه ؟ فسـكت ،فقال له سليمان : عزمت عليك لتخبرنى بماذا ترى عليه ؟ فقال : أرى أن تشتمه كما شتمك .

فلما ملك جاء له بعض الخوارج فى أمر ملوك بنى مروان قبله ، فقال له : رأيناك خالفتَ أعمال أهل بيتك وسميتها المظالم ، وسلكتَ غير سبيلهم ، فإن زعمتَ أنك على هدى وهم على ضـلال فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق ، فأجابه عمر بأنَّ لعن أهل الذنوب ليس فريضة مفروضة لا بدَّ منها ، ولم يزلْ به حتى أرضاه وأقنعه ، وقد كان إقناع الخوارج من أصعب الأمور ، لبداوتهم وتنطعهم فى الدين ، والحقيقة أنه أرضاهم بإخلاصه وعدله .

ومنها تخفيفه الضرائب عن الناس ، لأن الحكومة يجب أن تهتم بإصلاح حال الناس وإرشادهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم ، ولا يصح أن يكون عملها مقصورا على جباية الضرائب، وقد كان مَن قبله يجعل جباية الضرائب أهم عمل فى الدولة ،حتى حمله هذا على إبقاء الجزية على من كان يُسلم من أهلها ، فأبطل عمر ذلك وشدد فى إبطاله ، حتى إن واليه على مصر شكا أن الإسلام أضرَّ بالجزية ، واستأذن فى أن يفرضها على من أسلم ، فأرسل إليه كتابا يقول فيه : « . . . فضع الجزية عمن أسلم قبَّح الله رأيك ، فإن

الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعَمْرى لَعُمَرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه » .

ومنها اهتمامه بتدوين العلوم ونشرها ، وعدم تفرقته فى ذلك بين العلوم الشرعية وغيرها ، لأنه يرى أن العلم بكل أنواعه ضرورى لنهوض المسلمين وتقدمهم ، وصلاح حال دنياهم وأخراهم .

ومما اهتم بتدوينه من العلوم الشرعية علم الحديث ، وكان الناس قبله لا يكتبون أقوال النبى ﷺ وفتاوى الصحابة ، لأنهم كانوا يؤثرون الحفظ على الكتابة ، ويخافون أن يجرهم الاعتماد على الكتب إلى إهمال حفظ القرآن والسنة ، والكتبُ عرضة للضياع والتصحيف والتحريف ، ولو عرض لها عارض فات معه علم الدين ، فرأى عمر أن هذه نزعة من نزعات الجمود ، وأثر من آثار الجاهلية التى كانوا يعتمدون فيها على الرواية والحفظ ، لندرة الكتابة بينهم ، ولا يصح أن يبقى هذا فيهم بعد أن قضى الإسلام على أميتهم ، وأشاع الكتابة والقراءة فيهم ، وبدَّلهم من البداوة حضارة ، ومن الفوضى ملكًا ودولة ، فبدأ بتدوين ذلك العلم الذى ظهر فيه أثر تلك الرجعية ، ليفتح باب هذا التجديد للمسلمين ويمضوا فى تدوين غيره من العلوم ، وكان منه فى هذا أن أذن لأبى بكر محمد ابن عمر بن حزم فى تدوين ما حفظ من حديث النبى ﷺ فدونه فى كتاب وأرسله إليه ، فبعث بنسخة منه فى كل مصر من الأمصار ، وكان له بهذا فضل تدوين السنة ، كما كان لعثمان بن عفان فضل تدوين القرآن فى مصحف ، وهو فضل عظيم عند الله ، وقد كان الواجب تدوين الحديث قبله ، فقيامه به أدى هذا الواجب عنهم .

ومما اهتم بنشره من العلوم علوم الحكمة من الطب وغيره ، فقد عنى بنقلها إلى اللغة العربية ، وكان يقرِّب إليه بعض المشتغلين بها ، مثل عبد الملك بن أبجر الكنانى وماسرجيس البصرى ، وقد تولى ماسرجيس له ترجمة كتاب أهرن القس فى الطب ، وقيل إنه تولى ذلك فى أيام مروان بن الحكم ، فلما جاء عمر وجده فى خزائن الكتب فأمر بإخراجه ، وكان ماسرجيس ينقل من السريانية إلى العربية وله من الكتب كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها ، وكتاب قوى العقاقير[1] ومنافعها ومضارها ، ومعرفة عمر بفضل علوم الحكمة يشهد بفضلها فى الدين ، وفيه أعظم رد على من يعاديها من الجامدين الذين أتوا بعده .

وقد يؤخذ على عمر أنه لم يعمل على إصلاح الحكم بعده ولم يحاول ذلك كما حاول معاوية بن يزيد فيما سبق فى الكلام على خالد بن يزيد ، وكذلك ذكر المقريزى أن

---

(١) جمع عقار ، وهو ما يتداوى به من النباتات أو أصولها .

أبا جعفر المنصور كان إذا ذكر ملوك بنى أمية قال : كان عبد الملك جبَاراً ، وكان الوليد[١] مجنونا ، وكان سليمان[٢] هَمُّه بطنه وفرجه ، وكان عمر[٣] أعور بين عميان ، فإذا قيل عدل ، قال : إن من عدله ألاَّ يقبلها ممن لم يكن لها أهلا ، ويتولها بغير استحقاق[٤] !! ؟ فهذا قد يؤخذ عليه أيضاً .

وقد يعتذر عن عمر فى هذا بأن العهد له من سليمان كان بمشورة من سبق من العلماء الصالحين ، وقد آثره سليمان بمشورتهم على إخوته وغيرهم ممن كانوا أقرب منه إليه ، وبهذا لا يكون عهداً صادراً عن هوى ، بل يكون صادراً عن إرادة الخير والمصلحة للمسلمين ، وهو فى هذا مثل عهد أبى بكر لعمر ، وعهد عمر لمن يتولى بعده ، وهذا يكفى فى إبطال ما أخذه عليه المنصور من أنه قبلها ممن لم يكن لها أهلا ، وتولاها بغير استحقاق ، على أنه روى فيما سبق أنه رد الأمر إلى المسلمين فأعادوا بيعته باختيارهم ، وما كان أجدر بالمنصور أن ينظر إلى نفسه قبل أن يوجه هذا النقد لغيره ، لأنه كان جباراً فى حكمه مثل عبد الملك بن مروان ، وأما أنه لم يحاول إصلاح الحكم بعده بجعله شورى بين المسلمين فقد يعتذر عنه أيضاً بأنه تولى بعهد جمع بينه وبين يزيد بن عبد الملك ، فرأى أنه لا حق له فى تغيير عهد تولى به ، ولهذا روى عنه أبو عبيد البكرى فى كتابه « معجم ما استعجم » أنه قال : لو كان لى أن أعهد لم أعد أحد رجلين : صاحب الأعوص[٥] . أو أعمش بنى تيم ، يعنى إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص، وكان له فضل ، لم يتلبس بشىء من سلطان بنى أمية ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وكان من سادات التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة .

على أن عمر قد تولى الحكم سنة ٩٩ هـ - ٧١٧ م ، فمكث فيه مدة قصيرة ، إذ توفى سنة ١٠١هـ - ٧٢٠ م ، ولكنها كانت درة لامعة فى أواخر ذلك القرن ، بعد أن ظهر فيها ما ظهر من الفساد ، وتلطخت بما تلطخت به من الاستبداد وسفك دماء العباد .

ويكفيه أنه ضرب بعدله مثلاً لمن أتى بعده ، فإذا لم ينفع هذا المثل فيمن أتى بعده من الملوك الظالمين ، إذ عاد الأمر إلى مثل ما كان عليه قبله ، فإنه لا ذنب فى ذلك عليه ،

---

(١) يعنى الوليد بن عبد الملك . (٢) يعنى سليمان بن عبد الملك .

(٣) يعنى عمر بن عبد العزيز .

(٤) النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى ص ١٦ - المطبعة الإبراهيمية .

(٥) موضع شرقى المدينة كان ينزل به .

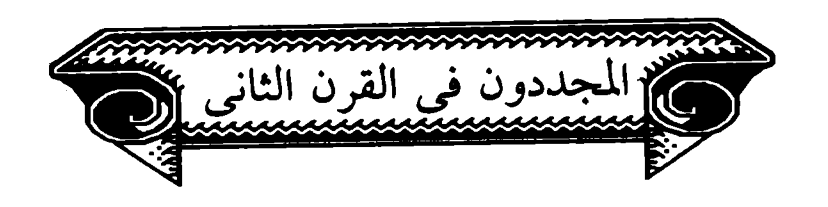
وقد مضى فى الإصلاح بقدر ما أمكنه فى ذلك الوقت القصير ، ولو أراد الله بالمسلمين خيرًا لأطال حكمه بينهم ، ولكنهم كانوا قد أمعنوا فى الفساد ، ولم يلتزموا حدود الإسلام إلا مدة قصيرة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فأراد أن يطيل عقابهم بالمضىّ فى ذلك الفساد ، ولله فى خلقه شؤون .

ولقد مضوا فى ذلك الفساد حتى أفتى العلماء الرجعيون بعده لبعض ملوك بنى أمية حين ولى بأنه لا عقاب عليه، لأنه نائب عن الله فى حكمه ، ليذنب ما يشاء ، ويستبد فى الرعية ما يشاء ، وقد دخل على سيد التابعين الحسن البصرى جماعةٌ منهم - وكانوا عربا - يستشيرونه ، فلما أشار عليهم بما لا تهوى أنفسهم قالوا : أنطيع هذا العلج[1] ؟ لأنه كان مولى ، ففخروا عليه بنسبهم ، وعادوا إلى أسوإ أنواع رجعية الجاهلية ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا .



---

(١) العلج فى أصله : الرجل من كفار العجم .



حال العالم فى القرن الثانى الهجرى

يمتد القرن الثانى الهجرى من سنة ٧١٩ إلى سنة ٨١٥ م ، وكان المسلمون فى هذا القرن أقوى أمم العالم ، وإن كانوا قد أثر فيهم ما أصاب الإسلام من النكسة فى رسالته التجديدية ، لأن الدولة فيهم حادت عن رسالة الإسلام فى قيام الحكم على أساس الشورى ، وعدم التفرقة فيه بين الشعوب والأديان ، بالمساواة بينهم فى الحكم الدنيوى ، والقضاء على العصبيات التى تثير الرعية بعضها على بعض ، وتقيم بينها العداوات الجنسية والدينية ، ولكن الملوك فى هذه الدولة كانوا أقوياء عظماء ، على ما كان يؤخذ عليهم ، فأمكنهم فى عهد الدولة الأموية أن يحافظوا على البلاد التى دخلت فى حكم الإسلام من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن الهند جنوباً إلى فرنسا شمالاً ، وكذلك كان ملوك بنى العباس فى هذا القرن ، بل كانوا أعظم من ملوك بنى أمية قوة ، وأبعد منهم همةً ، ويمتازون عليهم بأنهم لم يكن فيهم عُنجهية عربية جاهلية تجافى بهم عن الاستفادة من غيرهم ، وتجعلهم يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم .

وقد قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ - ٧٤٩ م ، فلم تكد تظهر حتى أخذت تعمل على أن يكون للدولة الإسلامية عظمة علمية تضاهى عظمتها السياسية ، ففتحت باب التجديد فى العلم على مصراعيه ، ونظرت بعين التقدير إلى ما كان عند الشعوب غير العربية من علوم وفلسفات ، فبذلت كل نفيس فى نقلها إلى اللغة العربية ،وقد ابتدأ هذا فى عهد ثاني ملوكها أبى جعفر المنصور ، وكان ابتداء ملكه سنة ١٣٧ هـ - ٧٥٤ م ، فَعُنِىَ بنشر العلوم الفلسفية ، لأنه كان مع براعته فى العلوم الدينية متقدما فى علوم الفلسفة ، ولا سيما صناعة النجوم ، وقد كانت هذه العلوم قد فقدت من يرعاها من الملوك منذ أغلق جستنيان ملك الروم مدارسها بأثينا قُبيل الإسلام ففر بعض من فلاسفتها إلى الدولة الفارسية فى عهد كِسرى أنوشِروان ، فأنشأ لهم مدرسة بجنديسابور لتدريس العلوم الفلسفية والطبية ، ولكنهم لم يجدوا بعده من ملوك فارس من يقوم برعايتهم مثله ، فقاموا هم بوظائفهم فيها ، واستمروا فيها إلى أن قامت الدولة الإسلامية محل الدولة

الفارسية ، وكانوا نصارى من السُّرْيان النُسطوريين واليعقوبيين ، وهذا إلى مدارس آخرى للعلوم الفلسفية كانت قائمة بمدينة نَصيبين ومدينة حران ، فاتصل المنصور أولا بأساتذة مدرسة جنديسابور واتخذ جورجيس بن بختيشوع رئيس أطبائها طبيبًا له ، وقد تم فى عهده نقل بعض العلوم الفلسفية إلى اللغة العربية ، وكان علم المنطق والنجوم أول ما ترجم من هذه العلوم ؛ لأن الحاجة كانت شديدة إليهما ، فترجم عبد الله بن المقفع كتب أرسطو الثلاثة فى المنطق ، وهى : قاطيغور ياس ، وبارى أرمنياس ، وأنا ليطيقا[1] ، وترجم محمد بن إبراهيم الفزارى الحساب المعروف بالسِّندهند إلى اللغة العربية ، وكان رجل من الهند قد أتى به ، فأمر المنصور محمد بن إبراهيم بترجمته ، ليتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب .

ولما ملك هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ - ٧٨٦ م ، اتخذ بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع طبيباً له ، وأمره أن ينشىء ببغداد بيمارستانا - مدرسة طب - كمدرسة جنديسابور ، فقام بإنشائه،واستحضر له أساتذة من أساتذة مدرسة جنديسابور وتلاميذهم ، فحل محل هذه المدرسة ، وصارت به بغداد أهم مركز لعلوم الطب والفلسفة فى العالم كله .

ثم ملك المأمون سنة ١٩٨ هـ - ٨١٣ م ، فأربى فى ذلك على من سبقه ، وأقبل على طلب علوم الفلسفة من مواضعها ، وأتحف فى سبيلها ملوك القسطنطينية بالهدايا النفيسة ، وكانوا قد زهدوا فى هذه العلوم فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان ، فاختار لها أشهر المترجمين ، وأمرهم بنقلها إلى العربية ،ثم رغَّب الناس فى قراءتها ، حتى انتشرت علوم الفلسفة فى عصره بين المسلمين ، وصاروا أساتذة العالم فى هذه العلوم .

وقد وصلت الحضارة الإسلامية بهذا إلى درجة الكمال فى هذا القرن ، لأنه كان الغالب عليها فى القرن الأول الصبغة الدينية والأدبية ، فاستكملت فى القرن الثانى ما ينقصها من العلوم الفلسفية ، وظهر فيها المشتغلون بهذه العلوم بجانب المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية ، وصار لهم منزلة فى الدولة لا تقل عن منزلة غيرهم .

وكانت دولة الروم الشرقية فى هذا القرن قد انكمشت فى مدينة القسطنطينية وما حولها من بلاد الأناضول بآسيا ، وبعض بلاد البلقان وما يجاورها بأوروبا ، فضعف شأنها ، وانحط شأن العلم فيها ، فلم تعرف قيمة لما كان فيها من آثار الفلاسفة

---

(١) معنى الأول: المقولات ، والثانى : العبارة : أى القضية ، والثالث : تحليل القياس : أى أشكاله .

الأقدمين، حتى استولى على أكثرها فى هذا القرن طلابها من ملوك المسلمين، وعرفوا لها ، قيمتها دونها ، أما دولة الروم الغربية فكانت قد سقطت قبل الإسلام بغارة القبائل البربرية من شمال أوربا وشرقها عليها ، ووقعت بلادها فى قبضة تلك القبائل ، فتقاسمتها بينها ، إلى أن قامت فيها بفرنسا الدولة الكارلوفنجية ، وظهر فيها الإمبراطور شارلمان ، فاستولى على معظم بلاد أوربا الغربية ، وعمل على تجديد مملكة الروم الغربية كما كانت قبل سقوطها ، وقد كان معاصراً لهارون الرشيد ، فرغب مثله فى ترقية العلوم والفنون فى دولته ، وأنشأ مدرسة فى باريس جامعة لسائر المعارف ، ولكنه لم يصل فى هذا إلى ما وصل إليه هارون الرشيد ، على أن ما وصل إليه فيه لم يبق بعده ، ولم يجد من اجتهد فيه مثله ، لأن من قام بعده من الملوك كان ضعيف العزيمة، فلم يقدر على تدبير هذه المملكة الواسعة ، ولم يمكنه أن ينهض بما نهض به شارلمان قبله .

ومن هذا نأخذ أن أوربا كانت فى هذا القرن تتعثر فى أمرها ، وتحاول أن تنهض كما ينهض المسلمون فتخفق فى نهوضها ، وقد حاول ليو الثالث ملك القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن الميلادى أن يبطل عبادة الصور والتماثيل فى النصرانية ، وقد تأثر فى هذا بمجاورته للمسلمين واتصاله بهم فى الحروب وغيرها ، فأراد أن يقوم بهذا الإصلاح فى النصرانية ، لما رأى من زعزعة الإسلام لها ، فلم يوافقه على هذا بابا الكنيسة الغربية ، واشتدت به العداوة بينها وبين الكنيسة الشرقية ، وقامت بسببه ثورات عنيفة على البابا لجأ بسببها إلى ملوك فرنسا ، فساعده الملك شارلمان وأعاد إليه ما كان يملكه من البلاد وزاده عليها ، حتى عظم نفوذ البابا فى أوربا ، وصار رئيساً دينيا وملكًا دنيوياً ، بل صار له حق تولية ملوك أوربا وعزلهم ، وقد انتهى النزاع بين الكنيستين على عبادة الصور والتماثيل بإعادة إيرينا زوج ليو الرابع لها حين تملكت على القسطنطينية بعد موته ، فلم يستقر هذا الإصلاح فى النصرانية ، وغلب الجامدون فيها على القديم من تأثر فى هذا الإصلاح بالتجديد الإسلامى .

ومما يدل على أن أوربا كانت فى هذا القرن متأخرة عن المسلمين من الناحية العلمية وما إليها أن هارون الرشيد أهدى إلى الملك شارلمان هدية فيها شطرنج ثمين ، وفيل عظيم ، وكثير من البذور التى لا توجد فى البلاد الأوربية ، وساعة شمسية دقاقة من المخترعات التى وصل إليها المسلمون فى هذا القرن ، فأثارت هذه الساعة من الدهشة فى نفس شارلمان وحاشيته ما أثارت ، حتى ظنوا أنها تدار بالشياطين والسحر .

ولكن النكسة الرجعية التى أصيب بها المسلمون منذ قيام الدولة الأموية كان لها أثرها فيما وصلوا إليه من تلك العظمة فى هذا القرن ، لأن هذه النكسة فرقت كلمتهم ، ولم

تجعلهم يشتركون جميعاً فى بناء تلك العظمة ، بل كان الملوك وحدهم هم الذين يجاهدون فيها ، ولا يشاركهم إلا فريق من الأمة وجد المصلحة فى مشاركتهم ، إذ رأى أن من مصلحة الأمة أن يفرق بين حسناتهم وسيئاتهم ، فيشاركهم فيما يعود على الأمة بالمصلحة ، ويغضى عن تلك النكسة الرجعية التى أساءوا بها إلى الأمة .

وقد انقسمت الأمة فى إصلاح هذه النكسة إلى فرق اختلفت فى طريق إصلاحها ، فمنهم فرقة الجماعة ، وهى التى عرفت بعد هذا بفرقة أهل السُّنَّة، وقد ظاهرت هذه الفرقة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً بإخلاص ، لأن حكومتهم كانت باختيار من الأمة ، وكانت تتحرى العدل فى حكمها بين طوائف الأمة على اختلاف أجناسها وأديانها ، وتستعين بذى الرأى فيها ، لأنها لم تكن ترى أنها حكومة مقدَّسة ، كما رأى من أتى بعدها من الحكومات .

فلما قامت حكومة بنى أمية وبنى العباس بعد هذا على غير هذه الأسس ، رأت هذه الفرقة أن تسالمها حذرا من التفرق ، وخوفا من الخروج على جماعة المسلمين، ولكنها لم تكن توافق ملوكها على تقديس أنفسهم ، إلا فريقا منها لا يُتعدّ به ، وكان كثير منها يأخذهم بالنصح الرفيق ، ويعظهم بالتى هى أحسن .

وكان عبد الملك بن مروان - من ملـوك بنى أمية - أول من زعم لنفسه هذا التقديس ، وتعالى عن الموعظة والنصح ، فهدد من وجَّه إليه وهو على المنبر كلمة نقد بالقتل إن عاد إلى مثلها ، وجاراه عماله وولاته ، حتى إن الحجاج بن يوسف خطب يوما فقال :

« أما بعد ، فإن الإمام ظِلُّ الله فى الأرض ، وأنا امتداد هذا الظل إليكم ، فمن نازعنا هذا الأمر فقد جعل نفسه نِداً وشريكا ، ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

ولكن هذا لم يمنع الحسن البصرى أن يقول فى الحجاج ومن ولاَّه حين شكا إليه رجل ظلمه له : « ما لهم - قاتلهم الله ! - اتخذوا عباد الله خولا ، ومال الله دُولا ، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم » .

فبلغ الحجاجَ قوله فأرسل فأتاه فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ليبيِّنُنَّه للناس ، ولا يكتمونه ، فقال له الحجاج : لا أبا لك ، تحرض علينا الناس ، أما إنَّا على ذلك لا نتهم نصيحتك ، فأقصِرْ عليك من لسانك .

وكان أبو جعفر المنصور أول من زعم لنفسه هذا التقديس من ملوك بنى العباس وقد خطب يومًا فقال :

« أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فَيْئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسِّم بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلنى الله عليهُ قُفلا ، إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم وقسْم فَيْئكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلنى أقفلنى » .

فلم يمنع هذا التقديس عبد الرحمن بن زياد أن يجابهه بالنصيحة ، وكان يطلب معه العلم قبل أن يصير إليهم الأمر ، فلما تولى الملك وفد عليه فقال له : كيف سلطانى من سلطان بنى أمية؟ فقال له عبد الرحمن : ما رأيت فى سلطانهم من الجور شيئاً إلا رأيته فى سلطانك ، فقال له المنصور : إنا لا نجد الأعوان ، فقال له عبد الرحمن : قال عمر بن عبد العزيز : إن السلطان بمنزلة السوق ، يُجلب إليها ما ينفق فيها ، فإن كان بَرّاً أتوه ببرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم . فأطرق المنصور ولم يتكلم .

وإنما سلك أهل السنة مع أولئك الملوك هذا المسلك لأنهم كانوا مع سوء اعتقادهم فيهم لا يكفِّرونهم بظلمهم وذنوبهم كما كفرهم غيرهم ، بل كانوا يرونهم مؤمنين مذنبين ، وكانوا يرون أن الملك يقوم بالغلبة كما يقوم بالبيعة ، فتجب طاعة المتغلب كما تجب طاعة المبايع ، ومع هذا كانوا يرون الخروج عليه لمن تجتمع عنده قوة يمكنه بها التغلب عليه ، فإذا لم توجد عنده تلك القوة لم يجز له الخروج ، ولهذا أفتى مالك بجواز الخروج مع محمد ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب على المنصور ، فقيل له : إن فى أعناقنا بيعة للمنصور ، فقال : إنما بايعتم مكرَهين ، وليس على مكرَه يمين . . .

وهذا إلى أن أهل السنة كانوا يرون أن ذلك الحق ثابت لكل قرشى ، ولم يخرج بنو أمية وبنو العباس عن كونهم من قريش ، فلم ير أهل السنة أن يغلوا فى أمرهم كما غلا من لم ير لهم هذا الحق فى الشيعة والخوارج .

ومن هذه الفرق التى كان لها رأى فى إصلاح تلك النكسة الرجعية فرقة المرجئة ، وهى أقرب إلى أهل السنة فى هذا الإصلاح من غيرهم من الفرق ، لأنها كانت تؤثر مسألة أولئك الملوك أيضاً ، ولا تذهب إلى القطع بكفرهم كما ذهب غيرها ، بل ترى أنهم مُرْجَوْن إلى يوم البعث كسائر المذنبين ، وهى فى هذا تخالف أهل السنة ، لأنهم يقطعون فى الدنيا بإيمانهم مع عصيانهم ، فتكون أشد شيئاً من أهل السنة فى نظرها إلى أولئك الملوك .

وقد صار هذا بأحد زعمائها إلى الخروج على بنى أمية فى آخر أمرهم ، حين اضطرب أمرهم وتفاقم شرهم ، وهو الحارث بن سُريج الأزدى ، وكان عظيم الأزد بخراسان ، فخرج بخراسان يدعو إلى الكتاب والسنة والشورى ، ليقضى على استبداد

بنى أمية ، واتخذ الجهمَ بن صفوان رئيس الجهمية من الفرق الدينية وزيراً له فى بث الدعوة كتابةً وخطابةً ، وقد خرج أولاً فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١١٦هـ - ٧٣٤ م يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله والبيعة للرِّضا ، فتبعه جمعٌ كثير من الأزد وتميم ودهاقين بلاد العجم ، ولكن جند هشام تغلبوا عليهم ، ففر الحارث إلى بلاد الترك وأقام بها اثنتى عشرة سنة ، ثم روسل بالعود إلى خراسان فأخذ الأمان وعاد سنة ١٢٦ هـ - ٧٤٣ م ، وقد خرج بعد هذا فى عهد مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية ، فَغُلبَ على أمره أيضاً ، وقتل سنة ١٢٨ هـ - ٧٤٥ م .

ومن الفرق التى كان لها رأى فى إصلاح تلك النكسة الرجعية **فرقة الخوارج** ، وكانت أشد الفرق على أولئك الملوك ؛ لأنها كانت تكفِّرهم بذنوبهم كما ترى كفر غيرهم من العصاة ، وكانت ترى أن الخلافة حق لجميع المسلمين ، لا لقريش وحدهم ، فلم تر مسالمة أولئك الملوك ، ولا مسالمة من يخالفهم فى ذلك من غيرهم ، وقد ابتدأت خروجها فى عهد عثمان حينما رأته يخرج على سنة أبى بكر وعمر فى أخذ الناس بمظهر النُّسك ، ورأت أن قريشاً فى عهده قد زاد نفوذها فى الدولة ، ولا سيما بنى أمية ، ثم خرجت فى عهد على حينما رأته قبلَ التحكيم بينه وبين معاوية ، وآثره على المضى فى قتاله . ثم خرجت من بعده على ملوك بنى أمية ، ولم تلق السيف إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، لمَا كان من عدله وزهده ، فلما مات عادت بعده إلى حمل السيف وواصلت الخروج على من بعده من ملوك بنى أمية وبنى العباس ، ولكن أنصارها كانوا من القلة بحيث لم يمكنهم تحقيق منهجهم فى إصلاح تلك النكسة الرجعية ، لأن جمهور المسلمين كانوا لا يوافقونهم على خروج ذلك الأمر من قريش إليهم ؛ ولأنهم كانوا يغلب عليهم البداوة والعنجهية والتشدد فى الدين ، وكانت الحضارة قد استقر أمرها بين المسلمين ، فلم يكن من الممكن أن يصرفهم أحد عنها إلى تلك الخشونة الدينية والاجتماعية ، ولم يكن من الإصلاح فى شىء أن يتبدَّلوا بتلك النكسة الرجعية رجعية أسوأ عاقبة منها .

ومن تلك الفرق التى كان لها رأى فى إصلاح تلك النكسة الرجعية **فرقة المعتزلة** وهى تلى الخوارج فى الشدة على أولئك الملوك ، لأنها وافقت الخوارج فى نفى الإيمان عنهم كسائر المذنبين ، ولكنها لم تحكم بكفرهم مثلهم ، بل قالت : إنهم موحِّدون ليسوا بمؤمنين ولا كافرين بل بين المنزلتين ؛ ومع هذا رأت أنهم يخلدون فى النار مثلهم ، ولهذا قيل للمعتزلة : مخانيث الخوارج ، لأنها رأت الخلود فى النار لهؤلاء الملوك وأمثالهم من العصاة ، ولم تجسر على تسميتهم كفاراً ، ولا على قتال مخالفيهم منهم ومن غيرهم ، كما

جسرت الخوارج ، وإن كان من أهم أصول الاعتزال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان هذا مما يحمل قليلا منهم على الخروج على أولئك الملوك .

وكان من أوائل المعتزلة معبد الجهنى ، وقد قيل إنه أول من أحدث القول بالقدر وهو أهمُّ أصولهم ، وقد قتله الحجاج بن يوسف صبراً لخروجه مع ابن الأشعث .

وقيل إن أول من تكلم فى القدر غيلان بن أبى غيلان الدمشقى ، وكان مولى عثمان بن عفان ، وقد لامه عمر بن عبد العزيز على هذا فكف عنه حتى مات عمر ثم سال فيه سيل الماء ، وكان رجلا مفوَّها ، فسعى الناس فيه عند هشام بن عبد الملك ، فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه .

ثم ظهر للمعتزلة شأن فى آخر دولة بنى أمية ، حتى ذكر المسعودى فى - مروج الذهب - أن خروج يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد كان مع سابقة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمِزَّة من غوطة دمشق ، فقتل يزيدُ الوليدَ وتولى مكانه ، ولهذا كانت المعتزلة تفضله فى الديانة على عمر بن عبد العزيز ، ولكنه لم يمكث فى الملك أكثر من خمسة أشهر ثم مات ، ولم يجتمع عليه بنو أمية كما اجتمعوا على ملوكهم قبله ، لأنه خرج بالاعتزال عن سنة سلفه من الملوك ، وعن مذهب عامة المسلمين .

وقد ولى بعده مروان بن محمد ، وهو آخر ملوك بنى أمية ، وكان قدريا أيضاً ، ولهذا يقال له مروان الجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم ، وكان من أوائل المعتزلة أيضا ، فاضطرب أمر مروان أكثر من أمر يزيد ، وانصرف عنه عامة المسلمين لخروجه عن مذهبهم ، وكان هذا من العوامل التى سهلت لبنى العباس القضاء على دولته .

وقد ضعف أمر المعتزلة بعد هذا فى أوائل دولة بنى العباس ؛ لأنهم آثروا التقرب إلى عامة المسلمين ، وقد أظهر بشر بن المعتمر فى عهد الرشيد القول بالاعتزال ، وكان قد ذهب إلى البصرة فلقى بشر بن سعيد وأبا عثمان الزعفرانى صاحبى واصل بن عطاء وأخذ عنهما ، ثم رجع إلى بغداد فدعا الناس إلى الاعتزال حتى فشا فيهم ، فأخذه الرشيد فحبسه ، فجعل يقول فى السجن رجزاً مزاوجاً فى العدل والتوحيد والوعيد وغيرها من أصولهم ، حتى قال أربعين ألف بيت لم يسمع الناس مثلها ، فألهجوا بإنشادها فى كل مجلس ومحفل ، فقيل للرشيد : ما يقوله فى السجن أضرُّ على الناس من الكلام الذى بينه وبينهم[1] .

فلما كان عهد المأمون بن الرشيد ظهر القول بالاعتزال ، لأن المأمون كان فيه شىء من الميل إلى مذهب المعتزلة ، فلما ظهروا فى عهده أخذوا يكيلون لغيرهم بمثل ما كانوا

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبى الحسين الملطى ص ٤٣ .

يكيلون به لهم ، فكانوا يحبسونهم ويعذبونهم ليصرفوهم عن مذاهبهم ، وقد صرفهم هذا عن إصلاح تلك النكسة الرجعية التى كانوا ينكرونها قبل أن يظهر أمرهم ، فمكث الحكم فى عهد المأمون على ما كان عليه قبله ، ولم يدخله من الإصلاح ما يعود به إلى مثل ما كان عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، مع أن المعتزلة كانوا أقرب إلى الإصلاح من غيرهم ، ولكن ظهورهم بهذا فى عهد المأمون خيب الظن فيهم .

ومن تلك الفرق التى كان لها رأى فى إصلاح تلك النكسة الرجعية فرقة الشيعة ، وكانت ترى أن علياً بن أبى طالب وأولاده أصحاب الحق فى الخلافة دون بنى أمية وغيرهم ، وأن إصلاح تلك النكسة الرجعية لا يكون إلا بتمكينهم من ذلك الحق ، ليسيروا فى حكم الناس بالعدل ، ويساووا فى الحكم بين العرب وغيرهم ، ويقضوا على العنجهية العربية التى حكم بها بنو أمية ، ولهذا كان أكثر هذه الفرقة من غير العرب ، وهى مثل الخوارج فى شدتها على أولئك الملوك ، فكانت ترى تكفيرهم أيضاً لاغتصابهم ذلك الحق من أهله ، وتعمد إلى الخروج عليهم كلما سنحت لها فرصة ، ولكنها كانت تأخذ بالتقية على خلاف الخوارج ، وتؤثر العمل فى السر دون الجهر ، حتى تحين الفرصة ، ويكون هناك أمل فى النصر .

وكان هناك فرقة من الشيعة يقال لها الكيسانية تقول بإمامة محمد بن الحنيفة ، وهو من أبناء على بن أبى طالب ، ولكنه اشتهر بنسبته إلى أمه ، وقد انتقلت الإمامة بعده إلى ابنه أبى هاشم بوصاية منه ، وفى سنة ٩٨ هـ - ٧١٦ م وفد أبو هاشم على سليمان بن عبد الملك بن مروان فى دمشق ، ويقال إن سليمان خاف منه على دولته لِمَا رآه من ذلاقة لسانه وقوة نفسه، فلما رجع من عنده دس له من قعد فى طريقه بلبن مسموم ، فتلطف له حتى سقاه منه ، وكان فى طريقه إلى إقليم الشراة ،حيث كان يقيم محمد بن عبد الله بن عباس فى الحميمة ، وهى قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة ، فلما وصل إليها وأحس بدنو أجله نزل لمحمد بن على عن حقه فى الإمامة ، وأفضى إليه بالدعوة وأسرارها،وأعطاه كتباً يسلمها إلى داعى دعاته فى الكوفة وغيره من الدعاة .

وبهذا صار للعباسيين شيعة يقال لها الرَّاوَندية ، ترى أن لهم حقاً فى الإمامة أيضاً ، بل ترى أنهم أحق بها من أولاد على ، لأن العباس ، كان أحق منه بإرث ذلك عن النبى ﷺ ، لأن العم أحق بالإرث من ابن العم .

ولكن بنى العباس كانوا يرون أن جمهور الشيعة يخالفونهم فى ذلك ، فأمروا دعاتهم أن يظهروا بين الشيعة بالرضا من آل محمد ؛ وبهذا وغيره من حسن تلطفهم أمكنهم دون العلويين أن يظهروا على الأمويين ؛ مع أن العلويين كانوا أشد منهم فى مناوأة

بنى أمية : وقد قتل منهم فى ذلك من قتل من الحسين بن على ومَن بعده ، ولم يُقتل من بنى العباس مثل من قتل منهم .

فلما قام بنو العباس لم يصلحوا شيئاً من تلك النكسة الرجعية ، بل زادوا فى الاستبداد على بنى أمية ، لاعتقادهم أنهم أخذوا الخلافة بما لهم فيها من حق دينى ، فزادوا بهذا تعالياً على الرعية .

وكان أبو جعفر المنصور أول من أحدث منهم تقبيل الأرض بين يديه والتعجب عن الرعية والترفع عليها ، وحتى إن الربيع حاجبه ضرب رجلا شَمَّته عند العطسة ، فلما شكا ذلك إلى المنصور قال : أصاب الرجل السنة ، وأخطأ الأدب . وكان الفضل بن الربيع يمنع عائد الخليفة أن يسأل عن شىء يقتضى جواباً ، ويقول : اجعلوا عيادتكم دعاء ، فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : أصبح الله الأمير بالكرامة ، وإن أردت السؤال عن حاله فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة فإن المسألة توجب الجواب ، وإن لم يجبك اشتد عليك ، وإن أجابك اشتد عليه . إلى غير هذا من سنن الأكاسرة التى أحياها بنو العباس فى دولتهم .

وكذلك استبدلوا الشعوبية الفارسية بما كان فى عهد بنى أمية من العنجهية العربية ، فاستبدلوا فساداً بفساد ، ورجعية فارســية برجعية عربية ، وتحكم على عهدهم الفرس فى العرب ، كما تحكم العرب على عهد بنى أمية فى الفرس ، فذلَّ العرب فى عهد بنى العباس ذلا شديداً ، ولحقهم كثير من المهانة ، وبهذا استمر انقسام الرعية على نفسها ، ولم تَصِرْ إلى أمة واحدة يؤلف بينها العدل والإنصاف وتجمعها المساواة فى الحكم ، ليخلصوا جميعاً للدولة ، ولا يفرق بينهم فيها تعصب قومى أو دينى .

ولم يفعل بنو العباس شيئاً فى التقرب إلى الجمهور ؛ إلا أنهم خففوا من تشيعهم لأنهم رأوا أنهم دخلاء بين الشيعة ، ورأوا هــوى الشيعة إلى العلويين أكثر من هواهم إليهم ، فتقربوا إلى الجمهور من أهل السنة ، ووافقوهم فى كثير من عقائدهم ولم يشذّ عنهم فى ذلك إلا المأمون والمعتصم والواثق ، إذ توالى الثلاثة على مناوأة أهل السنة ، ثم رجع الأمر بعدهم إلى ما كان عليه قبلهم .

وكان جمهور الرعية على مذهب أهل السنة ، فرأى بنو العباس أن الأمر لا يستقيم لهم إلا بالتقرب إليهم ، ولكن هذا لم يكن له إلا أثر قليل فى نفوس الناس ؛ لأن بقاء تلك النكسة الرجعية كان له أكبر الأثر فى نفوسهم ، فلم يغطِّ عليه ذلك التقرب إلى المذهب الغالب فى العامَّة ؛ لأنه لا قيمة له مع ما يرى الناس من الفساد فى الحكم .

وقد كان لهذا الانقطاع بين الرعية والملوك العباسيين أثره فى نفوس العامة من ذلك

التجديد العلمى الذى قاموا به ، ولجؤوا فيه إلى الثقافات الأجنبية : من الثقافة اليونانية والفارسية والهندية وغيرها من الثقافات القديمة ، لأن ثقافة أهل السنة كانت ثقافة إسلامية خالصة ، وكان علماؤهم محل ثقة العامة واطمئنانهم ، فلما نفروا من هذه الثقافات الأجنبية تبعهم العامة فى النفور منها ، فلم يقبلوا عليها كما أقبل أولئك الملوك ، ولم يطمئنوا إليها لعدم اطمئنانهم إلى حكمهم ، ولم يفرقوا فى هذا بين ما فيها من النافع ، وغير النافع ، بل نظروا إليهما معًا بعين البغض ، لا لشىء إلا لأن هذه الثقافات دخيلة فى الإسلام، وأنه لا قيمة إلا لثقافتهم الإسلامية الخالصة، فيجب أن يقتصر المسلمون عليها ، ويجب أن يرفضوا النظر فيما عداها من الثقافات .

ولو كان هناك صلة حسنة بين أولئك العلماء والملوك لأمكنهم أن يتفقوا على شىء فى ذلك التجديد ، حتى تثق العامة به ، وتنظر فيه نظرة علمية بريئة ، لينتفع المسلمون بما فيه من علم نافع لا غنى لهم عنه ، ولا يمكنهم أن يحافظوا على ملكهم إلا به ، ويُنْقَدَ منه ما يستحق النقد فى غير تعنت ولا تحامل .

ولكن انقطاع تلك الصلة بين أولئك العلماء والملوك لم يمكنهم من الاتفاق على شىء فى ذلك التجديد ، حتى زادت به الجفوة بين الفريقين ، وآل الأمر فيه إلى أن يقف منه أولئك العلماء موقفاً رجعيا متعنتا ، وإلى أن ينصرف عنهم أولئك الملوك فى أواخر هذا القرن إلى خصومهم من المعتزلة ، لأنهم كانوا ألين منهم جانباً ، وكانوا ينظرون إلى تلك الثقافات الأجنبية نظرة إنصاف ، ولا يَغلون فى أمرها كما يغلو أهل السنة ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم أتباع بين العامة ، فلم يؤثِّر انضمامهم إلى أولئك الملوك فى أواخر هذا القرن شيئا فى إقبال الناس على تلك العلوم الجديدة ، بل زاد فى نفرتهم منها ، لِمَا كان من الخصومة الدينية بينهم وبين المعتزلة .

ولا يفوتنا بعد أن ذكرنا وقوع أهل السنة فى هذا الموقف الرجعى من تلك العلوم الجديدة أن نذكر أن سبب الإخفاق فى إصلاح الحكم فى هذا القرن هو خلط أهل السنة وغيرهم من الفرق السابقة بين السياسة والدين ، لأن هذه الفرق لم تكن تقتصر على محاولة إصلاح تلك النكسة الرجعية ، وهى فى الحقيقة ترجع إلى السياسة والحكم ، بل كانت تضم إلى رأيها فى تلك النكسة آراء أخرى فى القدر وصفات الله تعالى وغير ذلك من الأمور الدينية ، فخلطت فى هذا بين الدين والسياسة ، والتبس بهذا الخلط إصلاح تلك النكسة الرجعية ، لأنها وقعت بهذه الخلافات الدينية فى متاهات لا أول لها ولا آخر ، فضلَّت عن طريق إصلاح تلك النكسة الرجعية بين هذه المتاهات ، مع أن محاولة إصلاح هذه النكسة كانت السبب الأول فى ظهورها ، وكان الواجب أن تبقى فرقاً سياسية خالصة

تقصر أمرها على هذا الإصلاح السياسى ولا تخلط فيه بين الدين والسياسة ، ولاسيما أن المسلمين كانوا قبل ظهور هذه الفرق على وفاق فى أمر دينهم ، ولم يظهر بينهم فساد دينى يقتضى ظهور فرق لإصلاحه ·

ولو أنهم اقتصروا على تلك الغاية السياسية لأمكنهم أن يصلوا فيها إلى رأى نافع ، ولم يتشعب بهم الخلاف الدينى إلى خلافات لا تحصى ولا تُعَدّ ، ولم يوقعهم فى عداوات دينية كفَّر بعضهم فيها بعضا ، مع أن الخلاف بينهم كان فى أصله خلافا سياسياً ، لا يقتضى تكفيراً ولا عداوة دينية ·

وقد زادوا بهذا الانحراف عن غايتهم الطين بلة ، وأكثروا من عدد النكسات الرجعية ، فوقع المسلمون فى نكسات رجعية ثلاث : نكسة رجعية سياسية فى انقلاب حكمهم إلى حكم استبدادى ، ونكسة رجعية اجتماعية فى انقلاب وحدتهم الاجتماعية إلى عصبيات جنسية ودينية ، ونكسة رجعية دينية فى انقلاب وحدتهم الدينية إلى فرق يعادى بعضها بعضا ، وقد أضاعوا بهذه النكسة الأخيرة تجديداً من أهم تجديدات الإسلام ، وهو التسامح فى الرأى ، وعدم اتخاذه سببا فى العداوة عند الاختلاف ؛ لأن الرأى إقناع واقتناع ، والعداوة تثير فيه التعصب ، فلا يكون فيه إقناع واقتناع ، وإنما يكون فيه التعنت والجمود ، وفى ذلك تضيع الحقيقة ، ولا يصل المختلفون إلى الصواب ·

وكان هناك نكستان رجعيتان ظهرتا أيضاً فى هذا القرن :

أولاهما : ظهور نظام الطبقات بين المسلمين ، لأن استبداد الملوك فى الرعية وتعاليهم فيه عليها تبعه تعالى بعضها على بعض ، واستبداد الأقوياء فيها بالضعفاء ، وبهذا ظهرت هناك طبقة مسرفة فى الغنى والتعاظم من الأمراء والعظماء وأصحاب السيادة فى الدولة ، وطبقة قد لصقت بالتراب من الفقر ، فلا تكاد تجد ما تشبع به بطونها ، ولا تكاد تجد ما تستر به أجسامها ، وقد بلغ من تعالى الطبقة الأولى على الثانية أنها صارت لا تشعر بها ، ولا ترى أن لها حقاً فى مالها من الزكاة ونحوها ، وإنما تنفق أموالها فى شهواتها وملذاتها ، وتسرف فى ذلك إسرافًا لا يقف عند حد ، ويدخل فى هذا ما كانت تجود به فى كسب الشهرة والمجد على من يمدحها من الشعراء ، ومن يرضى كبرياءها من المتملقين ، كانت تجود عليهم بالألوف من الدنانير والدراهم ، بل كانت تجود بالضياع الواسعة التى كانت تملك منها ما لا يحصى ولا يعدّ ، ومن ذلك ما حصل فى زواج المأمون بخديجة بنت الحسن بن سهل التى تسمى بوران ، فقد نثر الحسن فى ذلك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا

وقعت فى يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضى إلى الوكيل الذى نُصب لذلك فيقول له : ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا من رستاق كذا ، وجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده ، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده ، وعلى المكارين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسـكر من تابع ومتبوع ومرتزق وغيره ، فلم يكن أحد من الناس يشترى شيئاً فى عسكر المأمون مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم .

والثانية : ظهور جماعة مسرفة فى التدين تسمى باسم الصوفية ، وكان ظهورها نتيجة لإسراف الملوك والأمراء والعظماء فى مظاهر الغنى على النحو السابق ، فأراد هؤلاء الصوفية أن يقابلوا إسرافهم فى حب الدنيا بإسرافهم فى الزهد فيها ، وفى شغل أوقاتهم بالنسك والتعبد ، وقد سبق فى الكلام على القرن الأول أن الإسلام يكره الإسراف فى الزهد والنسك ، كما يكره الإسراف فى حب الدنيا ، ولهذا كان عمر يكره من يظهر بذلك المظهر ، ويرى أنه يؤدى إلى إماتة الدين ، وقد ظهر بعد عمر فى أواخر القرن الأول نفر ظهروا بلبس الصوف ، ولكنهم لم يُعرفوا باسم الصوفية ، بل قيل لهم أصحاب الصوف ، وكان الحسن البصرى يسميهم أصحاب الأكسية ، وكان يكره لباسهم لأن فيه إعلانا عن الزهـد والتقـوى ، لأنه يمثل نوعـاً من الرهبنة ، حتى كانوا يقـولون لفرقـد السنجى أو السبخى[1] : ضع نصرانيتك هذه عنك .

فلما جاء القرن الثانى كثر عدد المبالغين فى الزهد ، وسُموا باسم الصوفية أخذًا من لبسهم الصوف ، وفُتن الناس بهم بعد أن كانوا يرونهم مبتدعين ، لأن إسراف الملوك والأمراء والعظماء فى مظاهر الغنى جعلهم يؤثرون عليهم هؤلاء المتصوفة الذين يظهرون بمظاهر الفقر ، ومن هذا ما حصل لعبد الله بن المبارك من العلمـاء الزهاد مع هارون الرشيد ، فإنه لما قدم هارون الرَّقة ورد ابن المبارك ، فاحتفـل الناس إليـه ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، فأشرفت أم ولد هارون من برج قصر الخشب ، فلمـا رأت الناس ، وكثرتهم قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالِمُ خراسان ، فقالت : والله هذا هو الملك ، لا ملك هارون الرشيد الذى يجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشُّرط والأَعوان .

على أن عبد الله بن المبارك كان من أمثل زهاد هذا القرن ، فكان يطعم أصحابه الفالوْذج والخبيص ، ويظل هو نهاره صائماً ، وكان إذا اشتهـى شيئاً لا يأكله إلا مع ضيف ، ويقول : بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه ، وكانت سفرته تحمل على عجلة

---

(١) جاء فى القاموس أن السبخة : موضع بالبصرة منه فرقد بن يعقوب .

أو عجلتين ، وقال أبو إسحاق الطالقانى : رأيت بعيرين حاملين دجاجاً مشويا لسفرة ابن المبارك : وقيل له مرة : قد قلَّ المال ، فقلِّل من صلة الناس . فقال : إن كان المال قد قل ، فإن العمر قد نفد . وكان يقول: ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط ، وكان أيضاً يقول : لا يُخرج العبد عن الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس . وقد ذكر له ما كان عليه يوسف بن أسباط من العبادة ، فقال : لقد ذكرتم قوما يُستشفى بذكرهم ، ولكن إن فعل الناس جميعهم ذلك فمن لسنن رسول الله ﷺ ؟ ومن لعيادة المرضى وشهود الجنائز ؟ وعدَّ أنواعاً من القُرَب .

وقد يكون إبراهيم بن أدهم أشدَّ من تغالى مَن متصوفة هذا القرن فى الزهد والنسك ، وكان من كورة بلخ من أولاد الملوك ، فتفقه ودخل إلى بغداد ، وأخذ عن كثير من العلماء ، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن ، ويشترك مع الغزاة فى قتال الروم ، وقد جاءه إلى المَصيصة - من أرض كيليكيا - عبد لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم ، ويخبره أن أباه قد مات فى بلخ ، وخلف مالاً عظيمًا ، فأعتق العبد ، ووهبه الدراهم ، ولم يعبأ بمال أبيه . وكان يلبس فى الشتاء فروًا لا قميص تحته ، ولا يتعمم فى الصيف ولا يحتذى ، وكان إذا لم يجد الطعام الحلال يأكل التراب ؛ وقد مكث شهراً يأكل الطين ، وقال : لولا أخاف أن أعين على نفسى ما كان لى طعام إلا الطين حتى أجد الحلال إلى أن أموت . وكان يقلل الأكل والطعام ما استطاع ، ويقول : لا يحتمل الحلال الصِّرف ، حتى كان يُرى وكأنه ليس فيه روح ، ولو نفخته الريح لوقع . وكان يكره الاختلاط بالناس ، ويقول : إنى لأتمنى المرض حتى لا تجب علىَّ الصلاة فى جماعة ، ولا أرى الناس ولا يرونى . وكان يغلق بابه من خارج ، فيجىء الناس فيجدونه مغلقاً فيذهبون .

ولا شك أن هؤلاء الزهاد المتصوفين قد وقعوا فى نكسة رجعية كالتى فروا منها ، ولم يكن ما فعلوه هو العلاج الصحيح لرجعية الملوك والأمراء والعظماء فى استئثارهم بالأموال ، وتعاليهم على طبقة الفقراء ، لأنهم لم يعملوا بهذا على محو نظام الطبقات ، وإنما ضموا أنفسهم إلى طبقة الفقراء ، ورأوا أن يقابل تعاليهم على الفقراء بتعالى الفقراء عليهم . وقد سئل ابن المبارك : ما التواضع ؟ ، فقال : التكبر على الأغنياء . ومثل هذا لا يصلح حلاً لهذه النكسة الرجعية ، وإنى أراهم أساءوا بهذا إلى الفقراء وجعلوهم يفهمون أن مظهر الفقر هو المثل الأعلى فى الدين ، فركنوا إلى فقرهم ورضوا به ، وظنوا أنه مظهر قناعة وتواضع يثابون عليه ، وكان لهذا أثره فى حب الفقر بين المسلمين ، حتى صاروا دون غيرهم فقراء فى الدنيا ، وضاع عليهم بفقرهم ما كان لهم من دول

عظيمة ، وحضارات باهرة ، وكان هــذا جزاء من نسى أن أهم شىء فى دينه هو محاربة الفقر بما فرضه من الزكاة ونحوها ، فلا يمكن أن يكون الفقر فيه شيئا مقدسًا كما يزعم أولئك المتصوفة ، ولكنهم كانوا مع هذا أحسن حالا فى هذا القرن من المتصوفة الذين أتوا بعدهم ٠

وقد كان المسلمون فى هذا القرن محتاجين إلى مجدد يصلح هذه النكسات الرجعية التى حدثت فيه ، ليزيل ما بين الرعية وحكامها من نفور سياسى ، ويزيل ما بين شعوب الدولة من نفور اجتماعى ، ويزيل ما بين الفرق الدينية من نفور دينى ، ويزيل ما بين طبقاتها من تفاوت دنيوى ، ويمنع المسلمين من الوقوع فى الوهدة التى سيوقعهم فيها أولئك المتصــوفة ، ويجمع المسلمين على إصلاح شامل فى أمور الدين والسياسة والاجتماع والعلم ، حتى تطَّرد تلك النهضة العلمية التى وصلوا إليها فى هذا القرن ، ولا تنتكس بسبب نفرة عامتهم منهــا ، وقد ذكر المتقــدمون من مجــددى هذا القــرن المأمون من أولى الأمر ، والشافعى واللؤلؤى وأشهب من الفقهاء ، وعلى بن موسى الرضا من الإمامية ، والحضرمى من القراء ، وابن معين من المحدِّثين ، والكرخى من الزهاد ، وفى رأيى أن المأمون كان أقربهم إلى المجدد الذى يحتاج إليه المســلمون فى هذا القرن ، فلنهتم بدراسته من بينهم ، على أن نضيف إليه دراسة الشافعى والكرخى لأنها تغنى عن دراسة غيرهما ممن ذكروهم ٠



المأمون العباسى

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ، سابعُ ملوك بنى العباس ، ولد سنة ١٧٠ هـ - ٧٨٦ م ، وكانت أمه أم ولد فارسية تسمى مراجل ماتت فى نفاسها به ، وقد قرأ العلم فى صغره ، وسمع الحـديث من أبيه وهشيم وَعبّاد بن العوّام وغيرهم ، وأخذ علوم الأدب عن اليزيدى ، وبرع فى الفقه والعربية وأيام الناس ، ولما كبر عُنِىَ بالفلسفة وعلومها ومهر فيها ، وكان أبوه هارون الرشيد قد عهد بالأمر من بعده لابنه الأمين ثم من بعده للمأمون ، وكانت أم الأمين زبيدة بنت جعفر بن المنصـور ، فلمـا ولى بعد أبيه زين له وزيره الفضـل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن كيسان مولى عثمان بن عفان أن يعهـد من بعده لابنه موسى ويخلع أخاه المأمون ، وكان الفضل بن الربيع وإن لم يكن خالص العروبة يتزعم المقاومين للنفوذ الفارسى فى الدولة العباسية ، ويعمل على تقوية نفوذ العرب فيها ، وكان يغلب عليهم مذهب أهل السنة ، كما كان يغلب على الفرس مذهب الشيعة ، فلما سمع الأمين للفضل انضم الفرس للمأمون ، وكان الأمين دونه حزماً وعلمًا وفضلا ، فلم يلبث أن تراجع أمره وظهر ضعفه أمام أخيه ، فتمت له الغلبة عليه ، وتولى الملك بعد قتله سنة ١٩٨ هـ - ٨١٣ م ، وقد مكث فيه إلى أن توفى سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م .

وكان المأمون أفضل رجال بنى العباس حزمًا وعزمًا وحلمًا وعلمًا ورأيًا ودهاءً وهيبة وشجاعة وسؤددا وسماحة ، محبا للعفو ، كارها للانتقام ، وكان أبوه هارون الرشيد يعرف له هذا الفضل ، وقد روى عنه أنه قال : « إنى لأعرف فى عبد الله - يعنى المأمون - حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعزة الهادى ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع - يعنى نفسه - لنسبته ، وقد قدَّمت محمدا - يعنى الأمين - عليه ، وإنى لأعلم أنه منقاد إلى هواه ، مبذِّر لما حوته يده ، يشاركه فى رأيه الإماء والنساء ، ولولا أم جعفر - يعنى زبيدة - وميل بنى هاشم لقدمت عبد الله عليه » وكان المأمون يعرف ذلك لنفسه فيقول : « معاوية بِعَمْرِه - يعنى عمرو بن العاص - وعبد الملك بحجَّاجه - يعنى الحجاج بن يوسف - وأنا بنفسى » .

وقد سار المأمون حين آل الملك إليه فى النهضة العلمية التى سار فيها سلفه قبله ، حتى وصلت إلى ذروتها فى عهده ، وظهر بين المسلمين أعاظم العلماء من فلاسفة وفقهاء ومحدثين وأدباء ومؤرخين ، وغير هذا من طوائف العلماء فكانوا أئمة الدنيا فى العلوم ، وكانت الدولة العباسية بهذه النهضة العلمية العظيمة أعظم دولة فى العالم .

وقد نزع المأمون نزعةً جديدة فى ملكه أراد بها أن يجمع المسلمين على أمر جامع فى الدين والعلم والحكم ، ليقضى على تلك الجفوة التى كانت قائمة بينهم بسبب اختلافهم فى الدين إلى فرق متعادية ، وفى العلم إلى طوائف تتعصب كل طائفة منها لعلمها لأن كل طائفة منها تجهل ما عند الأخرى ، والناس أعداء ما جهلوا ، وكذلك بسبب اختلافهم فى الحكم إلى عباسيين وعَلويين وغيرهم ، وقد كان سلفه من الملوك يعملون على التقرب من أهل السنّة ، لأن مذهبهم كان هو المذهب الغالب فى العامة ، وكان أهل السنة يتجافونهم لاستبدادهم وحكمهم الرعية بهواهم ، وإن كان كثير منهم قد مال إليهم طمعًا فيما عندهم ، أو ارتكابا لأخف الضررين من مقاطعتهم ومعاونتهم على العدل بقدر ما يمكن ، فلم يرض المأمون عن هذه الذبذبة الاجتماعية ، وأراد أن يجعلها علاقة خالصة بين الحاكم والرعية .

والمعروف بين الناس أن المأمون كان على عقائد المعتزلة ، ولكن الحقيقة أنه كان له رأى فى الدين والعلم ينفرد به وحده ، وإن كان أكثر ميلاً إلى المعتزلة من غيرهم لأنه كان يؤمن إيمانا خالصا بالفلسفة وعلومها ، حتى كان عصره هو العصر الزاهر للفلسفة الإسلامية ، والمعتزلة كانوا يقتصدون فى أمر الفلسفة،وإن كانوا قد تأثروا بها إلى حد ما ، فكانوا أقرب الفرق الإسلامية إلى الاستفادة منها ، وقد كان المأمون يخالف المعتزلة فى القدَر وهو أهم عقائدهم ، ولهذا قال ثمامة بن أشرس من زعماء المعتزلة : « إن المأمون عامى - يعنى أنه سُنى » لتركه القول بالقدر[1] ، والظاهر أن المأمون لم يوافق المعتزلة إلا فى القول بخلق القرآن ونفى الرؤية عن الله تعالى .

وقد مضى المأمون فى نزعته الجديدة غير متأثر فيها برأيٍ غير رأيه ، فرأى أن خير وسيلة للجمع بين الفرق الدينية أن يعقد لهم مجالس مناظرة ، ليدور فيها البحث فيما بينهم من خلاف ، ويعرف كل منهم ما عند الآخر من دعوى ودليل ،ويزول الخلاف بينهم بالإقناع والاقتناع ، فأمر يحيى بن أكثم قاضى قضاته - وكان من أهل السنّة - أن يجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاختار له من أعلامهم أربعين رجلا ، فلما حضروا جلس المأمون لهم ، وسأل عن مسائل ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انفضَّ ذلك المجلس قال ليحيى بن أكثم : « يا أبا محمد ، إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه سببًا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إما شاكٌ فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها » .

ولا شك أن هذه نزعة محمودة من المأمون ، وغاية إصلاحية نبيلة ، ولكنها لم تكن

---

(١) كتاب بغداد لابن طيفور - ص ٤٠ .

الوسيلة الناجحة لجمع كلمة المسلمين فى ذلك الخلاف الذى نشأ بين تلك الفرق ، لأن مجالس المناظرة لا يكون الظفر فيها لصاحب الحق دائما ، بل كثيرا ما يكون الظفر فيها لمن يكون أفصح كلاما وإن لم يكن الحق معه ، على أن مثل هذا الخلاف أمر طبيعى بين الناس ، فلا يمكن إزالته بوسيلة من الوسائل ، وإنما يمكن تقويم انحرافه إذا صار سببا فى الفرقة بين الأمة ، وأثار بينها العداوة والبغضاء ، فيصير بعضها حربًا على بعض ، ويستحل القوى فيها دم الضعيف، وقد يكون القوى هو المبطل ، والضعيف هو المحق .

وقد كان القدرية من المعتزلة يُضطهَدون فى عهد بنى أمية ، ويتقرب أهل الطغيان من حكامها إلى العامة بقتل من يُظهر القول بالقدر أو خلق القرآن ، كما قتل خالد القسرى الجعد بن درهم فى أيام هشام بن عبد الملك ، وكان الجعد أول من قال بخلق القرآن ، فأخذه خالد من حبسه فى يوم أضحى وقال للناس فى آخر خطبته : انصرفوا وضحُّوا تقبَّل الله منكم ، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم، ثم نزل فذبحه ليتقرب بهذا إلى العامة، ويلهيهم به عن الفساد الذى شمل الدولة،ويشغلهم عن الظلم الذى أرهق الرعية ، فلما ظهر المعتزلة بعد ذلك كالوا لأهل السنة الصاع صاعين ، وليس هذا فى شىء من الإسلام ، لأنه لا يقرُّ مثل هذا فى الخلاف فى الدين أو السياسة أو العلم ، ولا يبيح أن يكون هذا الخلاف سببًا للعداوة بين الناس ؛ لأنه يرى أن المصيب فى الخلاف مأجور ، والمخطىء فيه معذور ، ليعيش أبناء الدين الواحد أو الوطن الواحد إخواناً فى دنياهم ، ولا تقوم بينهم عداوة تفسد أحوالهم .

على أن المأمون قد وضع فى الوسيلة التى رآها لإزالة الخلاف بين تلك الفرق أصلا خطيراً ، وهو رد من يراه معانداً بالكره ، لأن كل واحد من المختلفين كثيراً ما يرى أن الآخر معاند ، فيستحل لنفسه حمله على رأيه بوسائل الكره من سجن أو تعذيب أو نحوهما من الوسائل ، ومثل هذا يزيد الخلاف حدَّة ، ويؤدى إلى عكس المقصود منه ، وقد استحل المأمون لنفسه بهذا الأصل أن يحمل أهل السنة بوسائل الكره على القول بخلق القرآن ، فزاد الخلاف حدةً بين المسلمين ، وجعل أكبر همٍّ الدولة فى عهده وفى عهد المعتصم والواثق من بعده حمل الناس على هذا الرأى ، فانصرفت به عن كثير من الشؤون النافعة ، وضيعت زمنا لا يستهان به فى فتنة تضر ولا تنفع .

وقد توجه المأمون أيضاً إلى نزعة جديدة فى مسألة الحكم بين المسلمين ، أراد بها أيضا أن يجمع بين كلمتهم فيه ، ليزول ما بينهم من ذلك الخلاف السياسى الذى قام من عهد عثمان بن عفان ، وفرق كلمتهم على الحكم ، ونشر بينهم العداوة والبغضاء ، وقد

نظر المأمون فى إصلاح هذه النكسة بإخلاص أيضا ، ولا أدلَّ على هذا من هـذه القصة التى نسوقها :

روى يحيى بن أكثم أن المأمون جلس يومًا للمناظرة فدخل عليه على بن صالح الحاجب ، فقال : يا أمير المؤمنين : رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ، ويطلب الدخول للمناظرة . فقال المأمون : ائذن له . فدخل عليه رجل عليه ثياب قد شمرها ، ونعله فى يده ، فوقف على طرف البساط ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقـال المأمون : وعليك السلام ، فقال : أتأذن فى الدنو منك ؟ قال : ادنُ ، فدنا ، ثم قال : اجلس ، فجلس ، ثم قال : أتأذن فى كلامك ، فقال : تكلم بما تعلم أن الله فيه رضا ، قال : أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته ، أباجتماع من المسلمين عليك ورضا منك أم بالمغالبة لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ .. قال : لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى حمده المسلمون : إما على رضا وإما على كره ، فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الأمر بعده فى أعناق من حضره من المسلمـين ، فأخــذ على من حضر بيت الله الحرام من الحجاج العهد لى ولآخر معى ، فأعطوا ذلك : إما طائعين وإما كارهين ، فمضى الذى عقد له معى على هذا السبيل التى مضى عليها ، فلما صار إلىَّ علمت أنى أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام ، وانتقصت أطرافه ، وغلب الهرج والفتنة ، ووقع التنازع ، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحجّ أحدٌ بيته ، ولم يجاهد فى سبيله ، ولم يكن له سلطان يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهدًا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم ، وآخذا على أيديهم ، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه على الرضا به ، فأسلم الأمر إليه ، وأكون كرجل من المسلمين ، وأنت أيها الرجل رسولى إلى جماعة المسلمين ، فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت إليه من هذا الأمر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، وقام ، فأمر المأمون على ابن صالح بأن ينفذ فى طلبه من يعرف مقصده ، ففعل ذلك ثم رجـع وقال : وجّهت يا أمير المؤمنين إلى مسجد فيه خمســة عشر رجـلا فقالوا له : لقيت الرجل ؟ .. فقــال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ .. قال : ما قال إلا خيرا ، ذكر أنه ناظر فى أمر المسلمين إلى أن تأمن سبلهم ، ويقوم بالحج والجهاد فى سبيل الله ، ويأخذ للمظلوم من الظالم ، ولا يعطل الأحكام ، فإذا رضى المسلمون برجل سلم الأمر إليه ، وخرج إليه منه ، قالوا : ما نرى بهذا بأسا ، وافترقوا .

وقد كان يكفى المأمون هذه النية الصالحة فى حكمه ، ولكنه لم يقتصر على هذه النية الصالحة ، بل مضى فى تنفيذها ، وأراد أن يختار هو للمسلمين رجلا من غير أهل بيته

من العباسيين تجتمع كلمتهم عليه ويلى الأمر بعده ، وقد كان المسلمون منقسمين إلى هذا العهد فيمن له حق الولاية عليهم ، فأهل السنة كانوا يرون أنه يجب أن يكون قرشيا ، من أى قريش كان ، والشيعة يرون أنه يجب أن يكون علويا ، والخوارج والمعتزلة يرون أنه لا يجب أن يكون قرشيا ولا علويا ، لأن هذا الحق ثابت لجميع المسلمين .

فلما كانت سنة - ٢٠١ هـ - ٨١٦ م - جمع المأمون خواصَّ أوليائه ، وكان بمدينة مَرْو ، فأخبرهم أنه نظر فى ولد العباس وولد على ﷺ ، فلم يجد فى وقته أحد أفضل ولا أحقَّ بالأمر من عليٍ بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد وضرب اسمه على الدنانير والدراهم ، وزوج ابنه محمداً بابنته أم الفضل ، وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ، وهو شعار العباسيين ، ووضع بدله الخضرة ، وهى شعار العلويين .

وقد ولد على الرضا سنة ١٥٠ هـ - ٧٦٧ م ، وكان على جانب عظيم من العلم والورع ، وقد قيل لأبى نواس : علام تركت مدح على بن موسى والخصال التى تجمعن فيه ؟ فقال : لا يستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه ، واللهِ ما تركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله :

قيلَ لى أنت أحسنُ الناس طرا	فى فنونٍ من الكـلام النبيـهِ
لك جيِّد القريض مديــــح	يثمر الدرَّ فى يدى مجتــنيه
فعلام تركتَ مدح ابن موسـى	والخصـال التى تجمعن فيـه ؟
قلتُ : لا أستطـيع مدح إمام	كان جبريــل خادماً لأبيــه

فاختيار المأمون له كان لما امتاز به من هذه الخصال ، قبل أن يكون لكـونه علويا أو لكونه إماما معصوما كما تعتقد الشيعة ، فلم يكن اختياره له عن اعتقاد شيعى كما يزعم من يأخذ الأمور بظاهرها من المؤرخين ، وإنما اختاره ليجعل الأمر شورى بين المسلمين ، ولا يستأثر به العباسيون وحدهم ، وقد روى الصولى أن بعض آل بيت المأمون قالت له : إنك على برِّ أولاد على بن أبى طالب والأمر فيك أقـدرُ منك على برِّهم والأمر فيهم ، فقال : إنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكرٍ لما ولى لم يول أحداً من بنى هاشم شيئا ، ثم عمر ، ثم عثمان كذلك ، ثم ولى على فولَّى عبدَ الله بن عباس البصرة ، وعبيدَ الله اليمن ، ومعبداً مكة ، وقثم البحرين ، وما ترك أحداً منهم حتى ولاه شيئا ، فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت ، فكان أيضا من باعثه على فعله هذه المكافأة ، لا عقيدة شيعية ترى لعلى الرضا حقًا فيه كما تعتقد الشيعة .

والحقيقة أن المأمون كان يميل إلى المرجئة أكثر من غيرهم ، وقد نقل عنه أنه كان يقول : الإرجاء دين الملوك(١) ولا ينافى هذا رأيه فى تفضيل علىّ على غيره من الصحابة ، وقد قال فى ذلك ليحيى بن أكثم من كلام طويل فى كتاب بغداد لابن طيفور - ص ٤٥ -

(١) كتاب بغداد لابن طيفور - ص ٥١ .

« فطائفةٌ عابوا علينا ما نقوله فى تفضيل على بن أبى طالب رضي الله عنه ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف ، واللهِ ما أستحلُّ أن أنتقص الحجاج ، فكيف السلف الطيب ، وإن الرجل ليأتينَّ بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه ، فيقول : إن هذا كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ، فكيف لا أرعى حق أصحابه ، وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة ، يا سبحان الله ! . . والله ولو لم يكن هذا فى الدين معروفا لكان فى الأخلاق جميلا » ومثل هذا لا يعتقده جمهور الشيعة فى الصحابة لسوء اعتقادهم فيه ، بسبب تقديمهم أبا بكر وعمر وعثمان وتأخيرهم عليّاً ، فالمأمون بهذا أقرب إلى المرجئة وأهل السنة من الشيعة ، وإن كان يوافق الشيعة فى تفضيل على .

وقد ثار أهل بغداد حينما بلغهم ما فعله المأمون من بيعة علىّ الرضا ، فثار عامتهم لأنهم من أهل السنة ، وقد رأوا فيما فعله إيثارًا للتشيع ، ولم يفهموا باعثه عليه مما سبق، وثار العباسيون لأنهم رأوا الأمر يخرج من بيت العباس إلى بيت على ، فاجتمعوا على خلع المأمون وتولية إبراهيم بن المهدى ، ولقبوه الخليفة السُّنى ، ولم يكن إبراهيم من طراز المأمون وعلىٍّ الرضا فى العلم والفضل ، ولكن التعصب المذهبى هو الذى قضى بإيثاره ، مع أن أظهر أمره كان إجادة الغناء ، ولهذا قال فيه دعبل الخزاعى حين بايعه أهل بغداد :

نعر ابنُ شكلة بالعــراق وأهله ... فهفا إليــه كل أطلس مائق[1]

إنْ كان إبراهيم مضطلعًــا بهـا ... فلتصلحنْ من بعده لمخارق[2]

وقد وقع المأمون من ذلك فى حرج شديد ، ومكث بعيدا عن بغداد لا يمكنه أن يدنو منها إلى أن مات علىّ الرضا سنة ٢٠٣ هـ - ٨١٨ م ، فكتب إلى أهل بغداد يُعلمهم أنهم ما نقموا عليه إلا ببيعته لعلى ، وقد مات ، فردّوا جوابه أغلظ جواب ، فسار إليهم بجيشه من مَرْو ، فلما قرب من بغداد تسلل الناس إليه ، واختفى إبراهيم بن المهدى إلى أن عفا عنه .

فأخفق المأمون فيما أراده من هذا الإصلاح السياسى أيضا ، وترك الأمر فى حكم المسلمين يجرى فى طريقه الفاسد ، ولم يحاول إصلاحه بعد ذلك ، وكان هناك طريق أسهل من هذا الطريق فى إصلاح الحكم ، وأقرب منه إلى النجاح ، وهو أن يبقى الحكم فى العباسيين الذين كان العامة يؤثرونهم على غيرهم مع سوء رأيهم فيهم ، ثم يجعله حكمًا

---

(١) نسبه إلى أمه شكلة ، وكانت جارية سوداء .

(٢) مخارق : مُغَنٍّ معروف .

شورياً لا ينفرد فيه الملك بالحكم وحده ، بل يقوم بجانبه مجلس أهل الحل والعقد في الأمة ، لينوبوا عنها في رعاية مصالحها ، ولا يجعلوا مصلحة الملك فوق مصلحتها ، وهذا هو الإصلاح الحقيقي ، ولا يهم بعده أن يكون الملك عباسيًا أو علوياً أو غيرهما .

ولكن التفكير في الإصلاح بذلك الشكل السابق يدل على ما كان يتمتع به المأمون من عقلية ممتازة لا توجد في غيره من رجال هذا القرن ، وهذا في رأيي يكفي لجعله هو المجدد الوحيد فيه ، وإذا كان قد أخفق فيما قصده من إصلاح فإن ذلك يرجع إلى ظروف عصره أكثر مما يرجع إليه ، لأنه قصد في ذلك إلى خير المسلمين ، ولكنهم كانوا قد انقسموا إلى فرق أعماها التعصب عن الإصلاح ، فأخذت تناوئه وتعاديه ، وتشوه أغراضه في الإصلاح والتجديد ، وتؤلب عليه العامة وأشباه العامة من العلماء الجامدين ، والطوائف المتنطعة في الدين .

وكانت طائفة المعتزلة أقرب من غيرها إلى مناصرة المأمون في نزعته إلى التجديد ، وكانت طائفة أهل السنة أشد الطوائف نقمة عليه ، لأنها كانت ذات ثقافة محدودة لا تتعدى علم الفقه والحديث ، وصاحب هذه الثقافة يضيق بغيرها من الثقافات ، وينظر بعين البغض إلى كل ثقافة أجنبية ، وقد حملها هذا على النقمة على المأمون حين رأته يهتم بنقل الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، ويحبب المسلمين في دراستها لينتفعوا بها في دينهم ودنياهم ، ومن تعصبها الأعمى في ذلك ما كان من إثارتها عليه أهل بغداد حين بايع لعلي الرضا فيما سبق ، ففضلت عليه إبراهيم بن المهدي لأنه من أهل السنة ، وهذا مما لا تحمد عليه هذه الطائفة ؛ لأن إبراهيم لم يكن صالحا لمثل هذا ، ولم يكن بحيث يصلح له دون علي الرضا ، وقد ضاق المأمون أخيرًا بهذه الطائفة ، فصبَّ عليها جام غضبه في مسألة خلق القرآن ، وإن كان لم يحسن اختيار الميدان الذي خاصمها فيه ، وتغالى في خصامها بتأثير خصومها من المعتزلة ، وما كان له أن يغالي في هذه المسألة التي كانت تهم المعتزلة وحدهم ، لأنها تدخل في نطاق مذهبهم ، وقد سبق أن مذهبه كان أقرب إلى الفلاسفة من المعتزلة وغيرهم .

وقد فات المأمون إصلاح النكسة الاجتماعية ، بإزالة ما كان في دولته من الخلافات الجنسية ، ومن الفارق الكبير بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ، وكان عليه أن يحاول إصلاح ذلك أيضا ، وبهذا مضى عهده دون أن يفعل شيئا ، إلا ما كان من تلك النهضة العلمية .

* * *

الإمام الشافعى

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، ولد سنة ١٥٠ هـ - ٧٦٧ م ، وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة ، وقد طلب العلم بمكة على من كان بها من الفقهاء والمحدثين ، فبلغ شأنا عظيما فى الفقه ، وهو لا يزال فى سن الطلب ، حتى أذن له بالفُتيا شيخه مسلم بن خالد الزنجى · ولكنه لم يقنع بما حصله من الفقه ، فرحل من مكة إلى المدينة ليدرس الفقه والحديث على الإمام مالك ، فمكث عنده إلى أن توفى سنة ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م ، وحينئذ اتجهت نفسه إلى عمل من أعمال الدولة يكتسب منه ، فتولى عملا بنجران من اليمن ، وكان فيه عادلا لا يقبل الملق والمصانعة ، فأفسد هذا بينه وبين والى اليمن فى ذلك الوقت ، وحمله على أن يكيد له فى بغداد ، ويتهمه بالميل إلى العلويين ، فأمر الرشيد بإحضاره إلى بغداد مع تسعة اتهموا أيضا بهذه التهمة ، وكان هذا سنة ١٨٤ هـ - ٨٠٠ م ، فتبرأً الشافعى عند الرشيد مما اتهم به ، وذكر له أنه رجل فقيه ، وأن قاضيه محمد بن الحسن يعرف ذلك ، فسأل الرشيدُ عنه محمدَ بن الحسن ، وهو من أصحاب أبى حنيفة ، فقال : له من العلم حظ كبير ، وليس الذى رُفع عليه من شأنه ، فقال له الرشيد : فخذه إليك حتى أنظر فى أمره · ونجا بهذا من تلك التهمة ·

وكان محمد بن الحسن حامل فقه العراقيين ، وهم يُعرفون بأصحاب الرأى ، كما كان فقهاء الحجاز يعرفون بأصحاب الحديث ، فأخذ الشافعى يدرس فقه أهل العراق على محمد بن الحسن ، حتى اجتمع له فقه أهل الرأى وفقه أهل الحديث ، وقد أقام ببغداد فى ذلك نحو سنتين ، ثم انتقل منها إلى مكة بفقه جديد يجمع بين هذين الفقهين ، فأقام بها نحو تسع سنين يدرس فقهه الجديد ، وقد بدا له فيها أنه يجب وضع أصول للفقه يرجع إليها فى معرفة الحق من الباطل بين ما تشعَّب فيه من الآراء ، فوضع فى ذلك رسالته التى كان له بها فضل اختراع علم أصول الفقه ، وجعل بها علم الفقه علمًا كليّا له أصول يجرى عليها ، وكان قبلها علم فتاوى وأقضية جزئية ، وقد أمكنه أن يصل بهذا إلى أساس جديد لدراسة الفقه ، ولكنه رأى أن بيئة الحجاز لا تحتمل مذهبه الجديد ، لأنها كانت لا تعدل بفقه مالك غيره ، وقد بلغ من تعصب بعض البلاد لفقه مالك أنها كانت تعارض به الحديث · فرحل ثانيا إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ - ٨١٠ م ، ليضع فيها ذلك الفقه الجديد ·

وقد كان الناس قبل الشافعى إمَّا أصحاب حديث يحفظونه ويعجزون عن النظر

والجدل ، وإما أصحاب الرأى يجيدون النظر والجدل ويعجزون عن الآثار والسنن ، فجمع الشافعى بين الأمرين ، ونصر الحديث بالرأى ، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأى على أهل الحديث ، وقد بلغ من انتصاره للحديث أنه كان يقول : « ما من أحد إلا وتذهب عنه سنةٌ لرسول الله ﷺ وتعزُب ، فمهما قلتُ من قول أو أصَّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله ﷺ ، وهو قولى »

والفرق بينه فى هذا وبين الفقهاء قبله أن أصحاب الحديث كانوا يقدِّمون الحديث الضعيف على الرأى ، وكان أهل الرأى يقدمون الرأى على الحديث الضعيف ، فلم يقدم هو الحديث على إطلاقه ، ولم يقدم الرأى على إطلاقه ، بل شرط فيه موافقته للحديث الصحيح ، وانحصر عنده الرأى بهذا فى قاعدة القياس ، وهو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمرٍ معلومٍ حكمه لاشتراكه معه فى علة الحكم ، كقياس النبيذ على الخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى علة الإسكار ، وقد كان الرأى قبل هذا أعم من قاعدة القياس ، وقد عرّف ابن القيم الرأى المأثور عن الصحابة والتابعين بأنه ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات ، فهو يعتمد فى الحكم على ما عرف من الدين بأصوله العامة ، ولا يجب فيه الاعتماد على نص معين كما فى القياس ، والشافعى بهذا لا يخرج على قاعدة أهل الحديث من الاعتماد على الظاهر الذى تدل عليه النصوص ، ويرفض ما عدا هذا مما يسمى فى عصرنا روح الشريعة أو روح القانون .

ولكن الشافعى لم يجد مجالاً لهذا الفقه الجديد فى بغداد أيضا ، لأنه كان يغلب عليها طريقة أهل الرأى ، ولا سيما فى عصر المأمون الذى ظهر فيه أمر الفلاسفة والمعتزلة ، وهم أكثر غلواً فى الاعتماد على الرأى من أبى حنيفة وأصحابه ، فارتحل الشافعى من بغداد إلى مصر سنة ١٩٩ هـ - ٨١٤ م ؛ وفيها وجد المجال لنشر مذهبه فى الفقه ، فأقام بها حتى توفى سنة ٢٠٣ هـ - ٨١٨ م .

وهذا هو كل ما جدده الشافعى فى الإسلام ، وهو تجديد ضيق لا يتجاوز حدود الفقه ، على أنه ضيَّق فيه الاعتماد على الرأى بعد أن كان واسعا ، وآثر الاعتماد على ظاهر النصوص دون روح الشريعة ، فضيق بهذا باب الاجتهاد فى الفقه ، ومهَّد الطريق لإيثار التقليد عليه وإن لم يقصد ذلك ، لأنه كان ينهى عن تقليده ويأمر باتباع الحديث إذا خالف قوله .

وقد جارى الشافعى غيره من أهل السنة فى الجمود على ظواهر النصوص فى الأصول والفروع ، فكان يذم التأويل فيها ، ويذم الاعتماد على دليل العقل كما جرى عليه علماء الكلام فى عصره من المعتزلة ، حتى إنه لم يحمد منهم فى هذا ما اعتمدوا عليه من

الاستعانة بالعقل والمنطق فى الرد على الزنادقة ، بل كان يرى فى الاشتغال بالرد عليهم إشاعةً لزندقتهم ، فلم تتجه نفسه للسمو عن ذلك التفرق الدينى الذى أشاع بين المسلمين التعادى والتباغض ، ولم يعمل لنشر التسامح بين الفرق الدينية بعذر المخالفة فى الرأى ، بل كان فى الجانب المتزمِّت الذى لا يقبل تأويلا فى النصوص ، ولا يرى أن يستفيد المسلمون فى الدفاع عن دينهم بالمنطق أو نحوه من الوسائل التى توجد عند غيرهم ، وقد كان لهذا أثره فى جمود المسلمين ، وفى تحرجهم من الاستفادة بالعلوم النافعة التى ترْجِمَت لهم .

ولقد كان لأولئك الذين اعتمدوا على العقل والرأى فى أصول الدين وفروعه عذرهم فيما شاع من الكذب على النبى ﷺ ، وأن الخطأ فى الرأى كان عندهم أهون من الوقوع فى ذلك الإثم ، وقد كان هذا يقع تارةً عن عمد ، ويقع تارة من غير قصد ، كما روى عن عمران بن حصين أنه كان يقول : « والله إنْ كنت لأرى أنى لو شئت لحدَّثت عن رسول الله ﷺ يومين متتابعين ، ولكن أبطأنى عن ذلك أن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ سمعوا كما سمعت ، وشهدوا كما شهدت ، ويتحدثون أحاديث ما هى كما يقولون ، وأخاف أن يُشَبَّه لى كما شُبِّه لهم » . وقال أبو عمرو والشيبانى : كنت أجلس إلى ابن مسعود حولا ، لا يقول : قال رسول الله ﷺ ، فإذا قال : قال رسول الله ﷺ استقلَّته رعدة ، وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا ، ولهذا كان ابن مسعود يؤثر الفتوى برأيه ويقول : أقول هذا برأيى ، فإن كان صوابًا فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان ، ولقد كان يطير فرحًا إذا وافق رأيه حديثًا نقله بعض الصحابة ، كما قضى فى المفوضة بمهر مثلها ، فشهد بعض الصحابة بأن رسول الله ﷺ قضى بمثل ما قضى به ، فإذا كان هذا شأنُ بعض فضلاء الصحابة فإنه يكون عذرًا قويًا لمن يسلك من الفرق الإسلامية فى ذلك مسلكهم ، ولا يجمد على النصوص وظواهرها كما يجمد غيرهم .

ومن هذا يمكننا أن نحكم بأن الشافعى لم يكن مجدِّدا فيما يتعلق بالرجعية التى وقعت فيها الفرق الإسلامية ، وكذلك لم يكن مجددا فيما يتعلق بالرجعية التى وقعت فى الحكم الإسلامى ؛ لأنه كان يرى مثل أهل السنة أن الإمامة فى قريش ، وأنها قد تكون من غير بيعة إن كان ثَمَّت ضرورة ، بل قد روى حرملة عنه أنه قال : « كل قرشى غلب على الخلافة بالسيف واجتمع عليه الناس فهو خليفة » ، فهذا منه إقرار لتلك الرجعية ، وقد جعل الإسلام الأمة صاحبة الحق فى تولية من يُولَّى عليها ، فمن يأخذه بالسيف يكون غاصبا ، واجتماع الناس عليه بعد ذلك لا يصح أن يسوغ ما وقع منه ، لأنه يكون فى الغالب ناشئا عن عجزهم ، ولأن المعصية لا يسوغها اجتماع الناس عليها ، وإنما يسوغها

التوبة منها ، ولعل الشافعى يقصد من ذلك تحريم الخروج عليه إذا كان فيه ضرر أكثر من بقائه .

وكذلك لم يكن الشافعى مجددا فيما يتعلق بالرجعية الاجتماعية التى قامت على التفريق بين الشعوب الإسلامية ، ورفع بعضها فوق بعض ، فقد انقسم الفقهاء فى مقياس الكفاءة فى النكاح بين تلك الشعوب ، فذهب الجمهور إلى اعتبار النسب فى الكفاءة ، وكان أبو حنيفة - وهو غير عربى - من أشدهم مغالاة فى ذلك ، وقد روى عنه أنه قال : قريش أكفاء بعضهم بعضا ، والعرب كذلك ، وليس أحد من العرب كفؤا لقريش ، كما ليس أحد من غير العرب كفؤا للعرب ، وقال الثورى : إذا نكح المولى العربية يفسخ النكاح ، وبذلك قال أحمد بن حنبل فى بعض الروايات ، وذهب بعض الفقهاء كالإمام مالك إلى اعتبار الدين فى الكفاءة فلا اعتبار عنده للنسب فيها ، وهذا هو ما نطق به القرآن فى قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(1) ولا شك أن هذا الرأى كان فيه قضاء على تلك الرجعية الاجتماعية التى أصيب الإسلام بها قبل أن يتمكن من إزالة الفوارق بين شعوبه ، ليجعل منها شعبا واحدا لا يعلو فيه جنس على جنس ، ولا توجد فى جنس منه نزعة إلى الاستئثار بشىء فى الدولة دون غيره ، وقد توسط الشافعى بين الرأيين فقال : « ليس نكاح غير الأكفاء حراما فأردَّ به النكاح ، وإنما هو تقصير بالمرأة والأولياء ، فإذا رضوا صح ويكون حقا لهم تركوه ، فلو رضوا إلا واحدا فله فسخه » وروى أيضا أنه قال : « لم يثبت فى اعتبار الكفاءة بالنسب من حديث » ، فلم يقض الشافعى بهذا على تلك الرجعية الاجتماعية التى قامت فى الإسلام ، ولم يكن مجددا من هذه الناحية أيضاً ، وإن كان مذهبه فى ذلك بين بين .

وأين الشافعى فى هذا كله من الآفاق الواسعة التى حلَّق فيها المأمون ، لأن ثقافته كانت ثقافة فقهية ضيقة ، ولم تكن مثل ثقافة المأمون التى أَلَمَّ فيها بالثقافة الإسلامية والثقافات الأجنبية على اختلاف أنواعها، فكان أكثر سماحةً فى دينه من الشافعى ، ولم يَضق بكل تجديد نافع ولو كان مأخوذاً من مصدر أجنبى ، لأن الإسلام ينظر إلى كل ما ينفع فى ذاته ، ولا يهمه بعد هذا شخص صاحبه ، ولهذا قيل : الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنَّى وَجدها .

بل أين الشافعى الفقيه السُّنى من فقيه سنى آخر عاصره وكان أكثر ثقافة منه فلم يضق بتلك الثقافات الأجنبية كما ضاق الشافعى بها ، ولم يضق بعلم الكلام المتأثر بتلك الثقافات كما ضاق الشافعى به ، وهذا الفقيه السنى هو القاضى يحيىَ بن أكثم المولود سنة

١٦٠هـ - ٧٧٦م ، والمتوفى سنة ٢٤٣ هـ - ٨٥٧ م ، فقد كان فقيها عالما بالفقه بصيرا بالأحكام ، ذكره الدارقطنى فى أصحاب الشافعى ، وكان مع هذا أحد أعلام الدنيا ، وقد اشتهر أمره ، وعرف خبره ، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الملوك وغيرهم ، حتى غلب على المأمون ولم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعا ، ولم ينزو عن الدنيا وأهلها كما انزوى غيره من المتزمّتين والرجعيين ، ولم يوصله إلى هذا إلا سعة ثقافته وضيق ثقافتهم ، لأنه كان متفننا فى كل العلوم ، وكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث ، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو ، وإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام ، ليقطعه ويخجله ، إلى غير هذا من العلوم التى تفنن فيها ، وجعلته مرنا فى علمه ودينه ، فوضع يده فى يد المأمون ليساعده فى النهضة العلمية التى قام بها ، ولم يضق بها كما ضاق إخوانه من أهل السنة ، ولو أنهم كانوا مثله لكان للإسلام شأن غير شأنه الآن .



---

(١) الحجرات : آية ١٣ .

معروف الكرخي

هو أبو محفوظ معروف بن فيروز، وقيل الفيروزان ، وقيل عليٌّ ، ولُقِّب بالكرخي نسبة إلى كرخ بغداد ، وكان أبواه نصرانيين ، فأسلماه إلى مؤدِّب نصراني وهو صبي ، وكان مؤدبه يقول له : قل - ثالث ثلاثة - فيقول : بل هو الواحد - فيضربه على ذلك ضربا مبرحا ، فهرب منه ولم يرجع إلى أبويه ، فآلمهما هربه منهما ، وكانا يقولان : ليته يرجع إلينا على أى دين شاء فنوافقه عليه .

وقد لجأ معروف حين هرب إلى على بن موسى الرِّضا فأسلم على يديه ، ثم رجع إلى أبويه حين بلغه قولهما فدقَّ الباب ، فقيل له : من بالباب ؟ .. فقال : معروف . فقيل له : على أى دين ؟ .. فقال : على الإسلام. فأسلم أبواه حين أخبرهما بإسلامه .

ثم لزم بعد هذا عليَّ بن موسى الرِّضا ، وكان إماما فى الزهد ، فأخذ معروف عنه الزهد ، ولكنه بالغ فيه ولم يلزم حد الاعتدال ، وقد تأثر فى هذا بابن السماك وغيره من الزهاد ، وقد روى أنه كان ماراً بالكوفة ، فوقف على رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس ، فقال فى خلال وعظه : « مَن أعرض عن الله بكليته أعرض عنه جملةً ، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله برحمته عليه ، وأقبل بوجوه الخلق إليه ، ومن كان مرة ومرة فالله تعالى يرحمه وقتًا ما » فوقع هذا الكلام فى قلب معروف ، وأقبل على الله تعالى ، وكانت طريقة أولئك الزهاد مداومة العبادة والطاعة لله تعالى ، ولزوم الفقر ومحبة الفقراء ، وقد بلغ من أمر معروف فى ذلك أنه قيل له فى مرض موته : أوْص ، فقال : إذا متُّ فتصدَّقوا بقميصى ، فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا ، وكانت وفاته سنة ٢٠٠هـ - ٨١٥م ، وقيل سنة إحدى ومائتين ،وقيل سنة أربع ومائتين .

وكأنى بهؤلاء الزهاد رأوا الإسلام قد أدركه البلى بتنازع المسلمين على الدنيا ،فأرادوا أن يجددوه بإعراضهم عنها ، وإيثارهم الفقر على الغنى ، ومبالغتهم فى ذلك إلى حد تقديس الفقر ،وهذا ما يمكن أن يوجه به عَدُّ معروف فى مجددى القرن الثانى من الزهَّاد ، وهو توجيه قد يكون له وجه من الصحة ، لأن وجود مثل هؤلاء الزهاد قد يؤثر فى أولئك المتنازعين على الدنيا ، ويصلح من أمرهم ما أفسد على الناس دينهم ودنياهم .

ولكن مبالغة أولئك الزهاد فى أمرهم إلى حد تقديس الفقر كان له أسوأ أثر بين المسلمين ، وكأنى بهم أرادوا أن يصلحوا فساد الناس فى الغلوِّ فى أمر الدنيا بالغلو فى أمر الآخرة ، فداووْا غلواً بغلو ، والإسلام ليس بدين الغلو فى أمر الدنيا أو الآخرة ، وإنما

هو دين الاعتدال فى أمرهما ، فلا يمدح فيه من يفرِّط فى أمر دنياه ، كما لا يمدح فيه من يفرِّط فى أمر أخراه .

ولم يظهر ذلك الأثر السيء بين المسلمين فى هذا القرن ، لأن الدنيا كانت لا تزال مقبلة عليهم ، وكانت آثار القوة التى أودعها الإسلام فى نفوسهم لا يزال لها سلطان بينهم ، فلم يسمعوا كثيرا لدعوة التفريط فى الدنيا من أولئك الزهاد ، لأنهم عدوها دعوة ضعف ، فلم يقدسوا الفقر كما قدسه أولئك الزهاد ، لأن هذا معناه أن يصير المسلمون فقراء وغيرهم أغنياء ، ولا مصيبة أكبر من هذا على الإسلام .

وعندى أن هذا الزهد مباح فى الإسلام ، وليس هو المثل الأعلى فيه كما يرى أولئك الزهاد ، وعندى أيضا أن إباحته مشروطة بعدم الغلو فى أمره إلى حد تقديس الفقر ، وقد يجمل الزهد من على بن موسى الرضا وغيره من العلويين ، لأنه يُرى به الناس حقارة الدنيا التى آثروا بها غيرهم عليهم ، ويرى أولئك الملوك أن دنياهم لا تساوى عندهم شيئا ، ولكنه لا يجمل من غيرهم من المسلمين ، لأن ظروفهم لا تجعله جميلا منهم كما تجعله جميلا من الرضا وغيره من العلويين ، ولكن المبالغة فيه مذمومة من العلويين وغيرهم ، والاعتدال فى أمر الدنيا هو الممدوح فى الإسلام .

والحق أن أولئك المتصوفة على الخصوص لا يصح أن يعدَّ واحد منهم فى المجددين فى الإسلام ، لأن مذهبهم فى التصوف إماتة للدين كما سبق من عمر وغيره ، والإماتة للدين لا تكون تجديداً له ، ولا يصح أن يُذكر من يدعو إليها بين من يدعو إلى التجديد ، وإذا كنت قد ذكرت فيما سبق أنهم لما رأوا أن الإسلام بلى بتنازع المسلمين على الدنيا أرادوا أن يجددوه بإعراضهم عنها ، فقد ذكرت هذا على أنه احتمال لتوجيه من عَدَّ معروفا الكرخى بين مجددى هذا القرن ، وذكرت أنه توجيه قد يكون له وجه من الصحة ، وهذا فيه ما فيه من تضعيف هذا الاحتمال ، ومن الإشارة إلى أنه توجيه غير مقبول .

وإنى أرى أن الزهد لا يُقبل إلا من شخص يميل إليه بفطرته ، فيقبل منه على أنه مما أباحه الإسلام ، لا مما ندبه أو فرضه على المسلمين ، وإنما أباحه الإسلام لمن يميل إليه بفطرته مع الاعتدال فيه ؛ لأنه دين يسر لا عسر ، وقد أتى ملائما لكل شخص فى الحدود التى لا تكون فيها معصية ، وإذا كان هذا شأن الزهد فى الإسلام - لا يزيد أمره على أن يكون مباحا - فلا يصح أن يُتخذ دعوةً يُحمل الناس عليها ، كما هو شأن دعوة التجديد ، لأنه يكون فى هذا تصنُّعا وتكلفا ، كما يتصنعه أولئك المتصوفة ليعرفوا به بين الناس ، وليكونوا طائفة لها طابع مخصوص بينهم ، وليس هذا هو الزهد الذى أباحه الإسلام . لأنه أباحه على أنه رخصة لمن يميل إليه بفطرته ، ولم يبحه ليتكلفه الشخص

أو يتصنعه ، لما فى هذا من الخطر على الدين إذا صار إليه الناس بالدعوة والتكلف ، لأن إعراضهم عن الدنيا بهذا الشكل يؤدى إلى نفرتهم منها ، ويحملهم على عدم العمل لها وإضاعتها ، وفى ضياع الدنيا ضياع الدين ، وهذا هو الذى حصل بعد هذا القرن ·

وأعود إلى الكلام على معروف الكرخى لأبحث عن السر فى إيثارهم له بعدِّه من المجددين فى المتصوفة دون غيره منهم ، ولعلها الشهرة التى كانوا يعتمدون عليها فيما يعتمدون عليه فيمن يعدونه مجددا ، ولكنى لا أراه يمتاز عليهم بشىء فى أقواله أو أفعاله ، فقد ذكروا له أقوالا منها : إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل، وفتح له باب الجدل ، ومنها قوله : ما أكثر الصالحين ، وما أقل الصادقين منهم · ومنها قوله : لولا إخراج حب الدنيا من قلوب العارفين ما قدروا على فعل الطاعات ، ولو كان من حب الدنيا ذَرَّة فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة واحدة ، ومنها قوله : العارف يرجع إلى الدنيا اضطرارًا ، والمفتون يرجع إليها اختيارا · ومنها قوله : إذا أراد الله بعبد خيراً زوى عنه الخذلان ، وأسكنه بين الفقراء الصادقين ، وإذا أراد الله بعبد شرا عطله عن الأعمال الصالحة ، حتى تكون على قلبه أثقل من الجبال ، وأسكنه بين الأغنياء ، ومنها قوله : إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين ، وكرهه كل من فى قلبه مرض ·

وهذه الأقوال المنسـوبة إلى معروف الكرخى تجد لها نظائر من أقوال غيره من المتصوفة ، وكلها تدخل فى باب المبالغة فى الزهد ، وقد سبق بيان الرأى الصواب فيه ، ولكن يهمنا قوله الأخير « إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين ، وكرهه كل من فى قلبه مرض » فإنه يدلنا على أن أولئك المتصوفة فى هذا القرن كانوا مع مبالغتهم فى العبادة والزهد لا يرون أنهم فى غنى عن العلم ، ولا يرون أن مجرد العبادة والزهد يكفى فى نيل رضا الله تعالى ، بل لا بد معهما من العلم ، ليقوم العمل به على أساس صحيح ، وينال بالعلم والعمل رضا الله كاملا غير منقوص ·

وقد يقال إن معروفا الكرخى يستحق ان يكون مجدد هذا القرن فى التصوف لأن أقدم نوع من أنواع التصوف كان تصوف زهد وورع ، لا تصوف فلسفة ونظر ، وقد استعملت كلمة الصوفى أول ما استعملت فى الكتابات الأدبية اسما لطائفة معينة من الزهاد الذين سماهم الجاحظ « الصوفية من النساك » وقد عمت حركة الزهد وانتشرت فى كل مكان عندما ظهر فى هذا القرن الميل إلى مجانبة الدنيا ، فإن آلافا من رجال المسلمين ونسائهم اعتزلوا الناس إلى حياة دينية هادئة ، إما فرادى وإما مع نفر قليل من أصحابهم ، وقد فر بعضهم إلى الخانقاهات التى ابتدأت تظهر قبل نهاية هذا القرن ، وإن لم تأخذ هذا

الاسم ، عندما رسخ فى نفوسهم اليقين من عذاب الآخرة وأهوال القيامة ، فبالغوا فى الشعور بالمعصية ، وكفّروا عن كل مخالفة للشرع مهما صغرت بمختلف أساليب التوبة والندم ، كما اصطنعوا أساليب الذكر والتوكل ، وربما تأثر بعضهم فى هذا بما رآه من زهاد المسيحيين ، وقد كان الذكر فى أول الأمر نوعًا من التأمل ، مصحوبا بترديد كلمة « الله » أو نحوها ، أما التوكل فقد أخذ به بعضهم إلى حد التجرد عن كل عمل لهم فيه إرادة ، وامتنعوا حتى عن السعى فى طلب الرزق ·

فجاء معروف الكرخى فسلك مسلكا جديدا فى التصوف ، وعرّفه بأنه الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق،ثم يقول: إن محبة الله شىء لا يكتسب بالتعليم ، وإنما هى هبة من الله وفضل ، ثم يعرِّف أولياء الله بأمور ثلاثة : أن يكون فكرهم فى الله ، وأن يقوموا بالله ، وأن يكون شغلهم بالله ، وإذا لم يكن للعارف من غير نفسه أى نوع من أنواع السعادة ، فإنه فى نفسه متقلب فى جميع أنواع السعادة ، وإن من يتتبع أقواله وأقوال غيره يدرك أن أقواله من طراز آخر يخالف طراز أقوالهم كل المخالفة ، لأن تصوفهم يتجه نحو غاية عملية ، هى : النجاة بالنفس من عذاب الآخرة ، أما تصوفه فقد كان فى جوهره وسيلة للمعرفة ، بمعنى قصد الوصول إلى الذات العلية، لأن العارف عندهم هو الواصل ، فوضع بهذا أساس التصوف النظرى لمن أتى بعده ·

وهذا الاتجاه الجديد فى التصوف يوجد شىء منه عند بعض معاصرى الكرخى من المتصوفة ، فقد ورد أن بعضهم سأل داود الطائى وقد رآه مرة مبتسما : من أين لك هذا الانشراح ؟ · · فقال : أعطونى الصباح شرابا يقال له شراب الأنس ، فاليوم يوم عيد ، أسلمت نفسى للابتهاج فيه · وكذلك تجد لغة هذا الحب فى أقوال رابعة العدوية وأبى سليمان الدارانى[1] ·

ومن قول رابعة فى الحب الإلهى :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدِّثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسمُ منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى للفؤاد أنيسى

والجواب عن هذا كله أن التصوف والمبالغة فى الزهد نزعة رجعية كما سبق ، فإذا جاء معروف الكرخى وزاد فيه ما زاده ، ونزع فيه تلك النزعة الجديدة ، فقد زاد الطين بلة ، وجعل الغاية من التصوف الوصول إلى مقام المعرفة ، ليتدرج من أتى بعده إلى دعوى الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وكلها نزعات رجعية قديمة ليست من الإسلام فى

(١) كتاب : « فى التصوف الإسلامى وتاريخه » ص ٣ ، ٢١ ، ٧٠، ١١٤ ، وقد توفى الدارانى سنة ٢١٥ هـ، وتوفيت رابعة سنة٢٣٥ ، أو ١٨٠ ، أو ١٨٥ هـ ·

شيء ، وإنما هي نزعات هندية أو فارسية أو يونانية ، لأن الإسلام فى أصله دين عملى ، ولا يراد من العمل به إلا الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة ، أما الوصول إلى مقام المعرفة أو غيرها من المقامات فهو شيء غريب عن الإسلام ، ولا يمكن أن يعد من التجديد فيه ، لأنه يرجع بنا إلى الوراء ، ويذهب بنا إلى نزعات رجعية قديمة ، ومعرفة الله فى الإسلام إنما يراد منها الاعتقاد بوجوده ، وهذا هو ما عُنِىَ القرآن الكريم بإقامة الأدلة عليه ، وهى أدلة ترجع إلى النظر فى خلق السماوات والأرض بالعلوم المعروفة لنا ، وبالوسائل التى سنها العلم للوصول إلى الاعتقاد ، وقد قنع الإسلام من المسلم بهذه الغاية ووسائلها ، وما يتكلفه المتصوفة بعد هذا تصنع قد يضر ولا ينفع ، وعناء لا يرضاه الإسلام للمسلمين ، وقد أورث ذلك معروفًا الكرخى دعوى الحظوة عند الله واستمداد السلطان منه ، حتى قال لتلميذ له : إذا كانت لك إلى الله حاجة فأقسم عليه بى .

وكان هذا سبباً فى فتنة الناس بمعروف فى حياته وبعد مماته ؛ لأنه اشتهر بينهم بإجابة الدعوة ، فكانوا يطلبون منه الدعوة فى حياته ، فلما مات كان أهل بغداد يستسقون بقبره ، ويقولون : قبر معروف ترياق مجرَّب ، وقال تلميذه سرىٌّ السقطى : رأيت معروفا الكرخى فى النوم وكأنه تحت العرش ، والبارى جلت قدرته يقول لملائكته : من هذا ؟ وهم يقولون : أنت أعلم يا ربنا منا . فقال : هذا معروف الكرخى ، سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى . وقال محمد بن الحسن : سمعت أبى يقول : رأيتِ معروفا الكرخى فى النوم بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، فقلت : بزهدك وورعك ؟ فقال : لا ، بل بقبول موعظة ابن السماك ، ولزومى الفقر ، ومحبة الفقراء . ويعنى بموعظة ابن السماك الموعظة السابقة التى كانت سببا فى إقباله على الله تعالى ، وإعراضه عن كل ما كان عليه ، إلا خدمة مولاه على بن موسى الرضا .

ولو أن معروفا الكرخى وغيره من أولئك الزهاد سلكوا فى زهدهم مسلك الاعتدال لما لفتوا الناس إلى زهدهم ، ولما فتنوهم بهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، لأن كل أمر غريب بين الناس يلفتهم إليه ، ولا سيما إذا كان فى زهد الدنيا التى فُتنوا بحبها ، وأقبلوا كل الإقبال عليها ، ومن يغالى فى حب الدنيا يلفته من يغالى فى الزهد فيها ، وربما يفتتن بمغالاته فى زهدها ، فيغالى مثله فى الزهد ، ويفر من غلو إلى غلو ، ودين الله وسط بين هذا وذاك ، ولكن أنَّى للعامة وأشباه العامة أن يقفوا فى أمورهم عند حد الاعتدال ، وهم إذا أحبوا فَرَّطوا ، وإذا عادَوْا أفرطوا ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

* * *



المجددون فى القرن الثالث

حال العالم فى القرن الثالث الهجرى

يمتد القرن الثالث الهجرى من سنة ٨١٦ هـ إلى سنة ٩١٢ م ، وقد كان المسلمون فيه أقوى أمم العالم أيضا ، وإن كانوا قد اعتراهم شىء من الضعف بسبب تأثير النكسات الرجعية السابقة فيهم ، فقد ضعفت فيه الدولة العباسية التى كانت أقوى الدول الإسلامية ، ولكن هذا الضعف قد غطّى عليه ما ظهر فيها من الدول القوية التى كانت تدين لها بالطاعة ، كدولة بنى طاهر بخراسان ، ودولة بنى طُولونَ بمصر ؛ فقد حمت الدولة الأولى أطراف المسلمين من جهة الشرق ، كما حمت الدولة الثانية أطراف المسلمين من جهة دولة الروم الشرقية ، وكانت قد أخذت تغير على بعض بلاد المسلمين ، فردّتها هذه الدولة على أعقابها ، وكان بنو أمية قد تمكنوا من إنشاء دولة قوية لهم فى بلاد الأندلس ، فتوغلت فى أوربا الغربية ، وظهرت على الدول المجاورة لها فيها .

وقد حافظ المسلمون فى هذا القرن على نهضتهم العلمية ، وظهر فيه ملوك كان لهم أثر فى المحافظة على هذه النهضة ، كالواثق بن المعتصم بن هارون الرشيد (١٢٧ - ١٣٢ هـ = ٨٤٢ - ٨٤٧ م) وكان مثل عمه المأمون فى علمه وفضله ، حتى كان يسمى المأمون الأصغر ، لأنه كان شغوفا بالوقوف على آراء العلماء والحكماء ، وكان يعقد فى قصره مجلسا للمناظرة فى المسائل العلمية مثل عمه المأمون ، وقد انتهى بموته العصر الذهبى للدولة العباسية ، لأنه لم يظهر بعده من ملوكهم ملوك أقوياء مثله ومثل من سبقه من ملوكهم ، ويمكن أن يستثنى منهم المعتضد بن الموفّق بن المتوكل بن المعتصم (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) فقد تجدد ملك بنى العباس شيئا فى عهده ، وكان فيه ميل لنشر العلوم والنهوض بها بين المسلمين ، وقد جاء فى كتاب - حسن المحاضرة - للسيوطى[1] أنه لما بنى قصره ببغداد استزاد فى الذرع ، فسئل فى ذلك ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دورا ومساكن ومقاصر يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من

---

(١) جـ ٢ ص ١٥٦ .

مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجرى عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيسا فيأخذ عنه .

وهذا إلى ما كان من رغبة كثير من أفراد الرعية على اختلاف أجناسهم وأديانهم فى الاستزادة من العلوم على اختلاف أنواعها ، وكانت الرغبة فى العلوم الحكمية لا تزال قائمة بكثير من الأفراد ، على ما كان من مناهضـة بعض الملـوك لها ، كالمتوكـل بن المعتصـم (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م) وينسب إلى المعتضد السابق أنه كان يمنع الوراقين من بيع كتب الفلسفة وما شاكلها ، فلعل هذا كان لنوع خاص منهـا ؛ كقسم الإلهيات ونحوه ، لأنه ينافى ما سبق من تخصيصه بقصره موضعا لكل رئيس من رؤساء الصناعة ومذاهب العلوم النظرية والعملية .

فهذا هو مبلغ نهضة المسلمين فى هذا القرن ، لم تضعف إلا قليلا عنها فى القرن السابق ، أما أوربا فإنها ازدادت ضعفا فى هذا القرن ، وكانت امبراطوريتها الشرقية تمزقها الفتن الداخلية ، ولم تقو شيئا إلا فى عهد باسيل المكدونى ، وهو أول ملوك الدولة المكدونية التى قامت بعد الدولة الهرقلية ، وكان معروفا بالفطنة والذكاء ، محبا لانتشار العلوم ، وقد استطاع أن يقاوم هجوم المسلمين وغيرهم على دولته ، فلما مات قام بعده ملوك ضعفاء لا قيمة لهم .

وكذلك كان حال إمبراطورية شارلمان الغربية ، فقد انقسمت بعده وضعف أمرها ، ولكن إنجلترا بدأت تظهر فى هذا القرن بقيام ملكها « ألفرد » فقد سعى فى نشر العلوم والصناعات فيها ، وقام بتأليف بعض الكتب ، كما ترجم بعض الكتب إلى اللغة الإنجليزية ، وكانت وفاته سنة ٢٧٧ هـ - ٩٠٠ م ، وقد وجدت فى وصيته هذه العبارة - يجب أن يكون الإنكليز أحرارا كأفكارهم - فكان لها أثرها فى الإنكليز بعده ، وصاروا يتمثلون بها فى أحاديثهم .

على أن الحركة العلمية التى قام بها الإمبراطور شارلمان فى القرن السابق لم تخل من أثر بعدها ، فبقى فى القرن التاسع الميلادى أثر منها ، وكان أكبر رجالها فيه جون سـكوت أريجينا ، وهو أول فيلسـوف مدرسى عاصر الكندى أول فلاسفة المسلمين ، ولكن فلسفته كانت دينية محضـة ، وكان غرضه منها التوفيق بين الدين والفلسفـة ، وقد توفى سنة ٢٦٤ هـ - ٨٧٧ م ، ومثل هذا لا يذكر بجانب ما كانت تزخر به البلاد الإسلامية فى هذا القرن من الحكماء والعلماء ، من كل جنس ودين ، وفى كل علم من العلوم .

ولكن المسلمين بقوا مع هذا فى نكساتهم الرجعية السابقة ، فوقفت نهضتهم العلمية عند الحد الذى وصلت إليه فى عهد المأمون ، بل تراجعت قليلا عنه ، بينما زاد أمر هذه

النكسات ، فاشتد النزاع الدينى بسبب مضىّ المعتصم والواثق فى حمل الناس بالقوة - بعد المأمون - على القول بخلق القرآن ، وكان أشد من وقف لهم فيه الإمام أحمد بن حنبل ، فلم يذعن لهذه القوة ، وكان من ورائه جمهور أهل السنة يؤيدونه فى موقفه ، وقد لقى فيه ما لقى من الجلد والسِّجن ، فلما ولى المتوكل بعد الواثق مال إلى أهل السنة ، ونهى الناس عن القول بخلق القرآن ، ولكنه تغالى فى ذلك فنهاهم عن البحث ، وأمرهم بترك النظر والمباحثة فى الآراء ، ليكفُّوا عما كانوا عليه فى عهد الملوك قبله ، ويأخذوا بالتسليم والتقليد ، بل تغالى أكثر من ذلك فانتقص من شأن على بن أبى طالب وذريته ، ومنع الناس من زيارة قبر الحسين والغرىِّ بأرض الكوفة ، ثم أمر بهدم قبر الحسين فهدم ولم يبق له أثر ، ومثل هذا ليس فى شىء من مذهب أهل السنة ، لأنهم يعظمون شأن على وذريته ، كما يعظمون شأن أبى بكر وعمر وعثمان ، وقد يكون فيهم على ذلك العهد من كان يوافق المتوكل فى ذلك الغلو ،لأنه كان فيمن قرَّبهم إليه بعد رفع محنة القول بخلق القرآن بعضٌ من الحشوية الذين يقولون بالتجسيم ونحوه[1] فلا يبعد أن يكون فيهم من وافقه على هذا الغلو فى علىّ وذريته ، وقد جاء المنتصر بعد المتوكل فأمر بالكف عن آل أبى طالب ، وأباح للناس زيارة قبر الحسين وغيره من قبورهم ، وأمر برد فدك إليهم ، وأطلق لهم أوقافهم وترك التعرض لشيعتهم .

وكذلك زاد أمر النكسة الرجعية الاجتماعية ، فدخل فيها عنصر ثالث هو عنصر الترك ، وذلك أن المعتصم كانت أمه أَمَة تركية ، وقد رأى أن جمهور العرب من السُّنَّة الذين تفاقم الأمر بينهم وبين العباسيين بسبب القول بخلق القرآن ، وأن جمهور الفرس من شيعة على بن أبى طالب ؛ لأن أصل تشيعهم كان للعلويين ، وقد أخذه العباسيون منهم بطريقة الحيلة كما سبق ، فرأى أن يعتمد على عنصر غير العرب والفُرْس ، واختار عنصر الترك لكون أمه منهم ، وكانوا يجلبون إليه من أسواق الرقيق فى بلاد ما وراء النهر ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وتبعه فى هذا وجوه دولته ، لما كان من شجاعتهم وجمال منظرهم ، حتى زاد عددهم على خمسين ألفا ، وكانوا يُعنون بتثقيفهم قبل أن يصلوا إلى هذه المناصب ، فيعلِّمونهم العربية وأحكام الإسلام ، ويدرِّسون لهم العلوم الدينية وغيرها ، ليمكنهم الدخول فى زمرة الأمراء المثقفين وتزول عنهم آثار البداوة التى نُشئوا عليها فى بلادهم .

ولكن المعتصم لم يصل إلى غرضه منهم ، ولم يمكنه أن يصل بهم إلى مرتبة مَن ظهر قبلهم من الفُرْس ، وقد جلس إليه يوما إسحاق بن إبراهيم فقال له : فى قلبى أمر أنا

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبى الحسين الملطى - ص ٩٨ .

أفكر فيه منذ مدة طويلة : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعتُ أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ! فقال له إسحاق : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر ابن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهـو الرجل الذى لم يُرَ مثله، وأنت، فأنت والله الـذى لا يعتاض السلطان منك أبدا ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره - يعنى قتله له - وأشناس ، ففشل أيُّه ، وإيتاخ ، فلا شىء ، ووصيف فلا مغنى فيه . فقال له إسحاق : يا أمير المؤمنين ، أعزَّك الله ، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب ، إذ لا أصول لها ، فقال : يا إسحاق ، لَمُقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل علىَّ من هذا الجواب . ولكن الأمر كان قد خرج من يد المعتصم ، فلم يمكنه أن يفعل شيئا مع هؤلاء الترك ، ولم يلبثوا أن تغلبوا على العرب والفرس ، بل تغلبوا على ملوك العباسيين أنفسهم، حتى صار بيدهم أمر توليتهم وعزلهم ، ولم يتورعوا عن دماء كثير منهم .

فكان فى هذا القرن ثلاثة عناصر يتنازعون فى الدولة ، بعد أن كان الذين يتنازعون قبله عنصرين فقط ، وكانت غلبة عنصر الترك نكبة على النهضة العلمية فى الدولة ، لما كان يغلب عليهم من خشونة الطبع بسبب نشأتهم البدوية ، ولأنهم لم يكن لهم تاريخ قديم فى العلم والحضارة مثل الفرس ، فلم تجد النهضـة العلمية منهم مشجعا بعد تغلبهم على الدولة ، وهذا إلى أنهم كانوا يميلون إلى مذهب أهل السنة ، ويكرهون البحث والنظر فى العلوم النظرية ، وكانوا فى هذا أقرب إلى العرب منهم إلى الفرس وغيرهم من شعوب الدولة .

وكذلك كان الأمر فى النكسة الرجعية السياسية ، فقد زادت فسادا عنها فى القرن السابق ، لأنه كان فى القرن السابق ملوك أقوياء يستبدون فى الرعية ، أما فى هذا القرن فكانت تلك الطائفة التركية تستبد بالملوك والرعية معا ، فنشأ فيه استبداد جديد لم يعرفه الإسـلام من قبل ، وقد اكتوى بناره الملوك قبل الرعية ، لأنهم كانوا ألعوبة بيد تلك الطائفة ، تولِّى من تشاء منهم ، وتعزل من تشاء أو تقتل من تشاء ، والرعية عاجزة لا يمكنهـا أن تقاوم استبدادها فى الملوك ، ولا أن تمنع عن نفسها ما تقاسيه من ذلك الاستبداد ، ولم ينج من استبداد تلك الطائفة إلا المعتصم والواثق فى أوائل هذا القرن ، وقد جاء بعدهما المتوكل فانتهى أمره بقتلها له ، وكذلك انتهى أمر المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى بعده ، وقد ولى المعتمد بعدهم (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ - ٨٩٢ م) فاستبد به أخوه الموفق ، وكان أحمد بن طولون من تلك الطائفة قد أقام ملكا فى مصر والشام ،

وانحصرت علاقته بالعباسيين فى الخطبة باسمهم على المنابر ، وفى خراج يؤديه إليهم كل سنة . فقام نزاع طويل بينه وبين الموفق فى الاستئثار بالسلطة على المعتمد ، ولما مات الموفق خلفه ابنه المعتضد فاستبد مثله بالمعتمد ، وجعل لنفسه ولاية العهد بعده ، فلم يلبث المعتمد بعده إلا أشهرا ومات فجأة ، حتى تواترت الإشاعات بأنه سُمَّ ، فقام بعده المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠٢ م) وكان قويا فى ملكه ، فضعف فى عهده نفوذ أولئك الأتراك ، وقد انتهى أمره بموت طبيعى على عكس من كان قبله ، فآل الأمر من بعده لابنه المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ = ٩٠٢ - ٩٠٨ م) وقد عاد نفوذ الأتراك فى عهده إلى مثل ما كان عليه ، ولكن أمره انتهى بموت طبيعى مثل أبيه ، فبايع أولئك الأتراك بعده لأخيه المقتدر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، ليكون ألعوبة فى أيديهم ، ولكن بعضهم خالف فى توليته لأنه صبى ، وآثر عليه عبد الله بن المعتز ، واجتهد فى ذلك حتى تمت البيعة له سنة ٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م .

وقد ذكر السيوطى فى كتابه : تاريخ الخلفاء[1] أن محمد بن جرير الطَّبَرِىّ لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال : ما الخبر ؟ .. قيل : بويع ابن المعتز ، قال : فمن رُشح للوزارة ؟ .. قيل : محمد بن داود ، قال : فمن ذكر للقضاء ؟ .. قيل : أبو المثنى . فأطرق ثم قال : هذا الأمر لا يتم ، فقيل له : وكيف ؟ قال : كل واحد ممن سميتهم متقدم فى معناه عالى الرتبة ، والزمان مدبر ، والدنيا مولِّية ، وما رأى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمدته طولا .

وقد صدقت هذه النبوءة من الطبرى ، فإن ابن المعتز لما تم له الأمر أرسل إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار محمد بن طاهر ، حتى يتيسر له الانتقال إلى دار المُلك ، فاجتمع أنصار المقتدر واتجهوا إلى المخرَّم - حيث كان يقيم ابن المعتز ، فلما رآهم هرب منهم ، فعاد الأمر إلى المقتدر كما كان ، وقد حُبس ابن المعتز إلى أن مات فى حبسه ، ثم انتهت ولاية المقتدر بقتله سنة ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م .

ولكن هذه النبوءة من ابن جرير تستحق وقفة طويلة لا يتسع لها هذا المقام ، لأنها تدل على أنه لم يكن غافلا كغيره عن مصير المسلمين مع ما كان لهم من القوة فى هذا القرن ، بل كان يرى مع هذا أن زمانهم مدبر ، ودنياهم مولية ، وليس هذا بكثير على ذلك المؤرخ الكبير ، بل هذا أقل ما ينتظر من مؤرخ يدرس التاريخ للاعتبار ، ولا يدرسه لمجرد الحوادث والأخبار .

وقد زالت هيبة العباسيين بتجرُّؤ أولئك الأتراك عليهم ، فكثرت الفتن والاضطرابات

---

(١) ص ١٥٢ .

فى الدولة ، وقام بداخلها دول لبعض ولاتها ، فكانت تبعيتها لها صورية فقط ، لا تتعدى الخطبة للعباسيين على المنابر وقليلا من الخوارج يؤدى أحياناً لهم ، ومن هذه الدول الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ = ٨٦٧ = ٩٠٣ م) وقد قامت بخراسان بعد بنى طاهر ، وامتد نفوذها إلى فارس وبلاد السند ، وكادت تستولى على بغداد فى عهد المعتمد ، ومنها الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٩٩ م) وقد نشأت ببلاد ما وراء النهر،وآل إليها إرث الدولة الصفارية ، ومنها الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م) وقد قامت بمصر والشام ، ومنها الدولة الفاطمية(٢٩٧-٥٦٧ هـ = ٩٠٩-١١٧١ م) وقد قامت ببلاد المغرب ومصر والشام ، وكانت دولة علوية لا تقر بسيادة العباسيين مثل الدول السابقة، وهذا إلى بعض دول قامت قبل هذا القرن ، كدولة الأغالبة بتونس ، ودولة الأدارسة بمراكش وكانت دولة علوية اقتطعت هذه البلاد من العباسيين مثل الدولة الفاطمية .

وكانت هذه الدول تتنازع وتتحارب على الملك ، فانقسم المسلمون بها على أنفسهم من هذه الجهة أيضا ، وقد كانت لهم فى القرن السابق دولة واحدة تجمع جمهورهم ، ولم يكن هناك دولة غيرها إلا دولة بنى أمية بالأندلس ، وقد أغضى العباسيون النظر عنها فلم يقم حرب بينهم وبينها ، فاشتد أثر النكسة الرجعية السياسية فى القرن الثالث الهجرى بتلك الدول التى فرّقت كلمة المسلمين ، وأضافت إلى مكان الجفوة بين الملك والرعية هذه الجفوة بين رعايا تلك الدول ؛ لأن الأمة انقسمت إلى رعايا متعددة ، ولم تبق رعية واحدة ، فاتسع تباعدها السياسى ، وتفرقت إلى دول متعادية ، لا تهمها المصلحة الدينية بقدر ما تهمها المصلحة السياسية .

أما نظام الطبقات فقد ازداد سوءاً فى هذا القرن ، لأن الصوفية كانوا هم الذين تولوا علاجه فيه أيضا ، فلم يتوجهوا إلى علاجه الصحيح بتقريب الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، بل مضوا فى علاجهم الخاطىء ، وهو تحبيب الفقر للمسلمين ، حتى سموا أنفسهم فقراء بجانب اسم الصوفية ، وكان هناك خلاف حول المفاضلة بين الفقر والغنى ، ففريق ذهب إلى تفضيل الغنىّ الشاكر، وفريق ذهب إلى تفضيل الفقير الصابر ، وقد ذهب جمهور الصوفية إلى تفضيل الفقر على الغنى،تمشيا مع نزعتهم فى المبالغة فى الزهد ، وكان مثلهم الأعلى فى الفقر قول سرى السقطى المتوفى سنة ٢٥٣ = ٨٦٧ م : « لا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا تسل أحداً شيئاً ، ولا يكن معك ما تعطى منه أحداً شيئاً » . وقد حملهم هذا على إيثار الجوع على الشبع ، حتى تضاءلت أجسامهم ، وصاروا إلى نظريات فى

التصوف تؤدى إلى إماتة الأجسام والنفوس ، وجعلوا هـــذا سبيل الوصول إلى مقام المعرفة ، بل إلى أبعد منه من المقامات التى اخترعوها فى هذا القرن .

وكان ذو النون المصرى المتوفى سنة - ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م - هو الذى خطا هذا الخطوة فى التصوف النظرى بعد معروف الكرخى ، حتى قيل إنه أحق رجال التصوف على الإطلاق بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف ، وكان أول من تكلم فى الأحـــوال ومقامات أهل الولاية فى مصر ، وكذلك كان أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأول من عرَّف التوحيد بالتعريف الصوفى ، وكان سبيل الوصول عنده إلى هذه المقامات إنكار العبد لنفسه ، ومن المأثور عنه قوله : « إنه بمقدار ما يعرف العبد من ربه يكون إنكاره لنفسه » . وهو فى هذا لم يصل إلا إلى هضم النفس بإنكارها فقط .

ثم ترقى أبو يزيد البسطامى المتوفى سنة - ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م - فى ذلك ، فلم يرض بما رضى به ذو النون من حمل المسلمين على إنكار نفوسهم ، بل دعاهم إلى إماتتها لتفنى فى ذات الله تعالى باتصالها بها ، حتى لا يكون فى الوجود سواه جل شأنه ، وقد وصل به هذا إلى أقوال تدخل فى دعوى وحدة الوجود ، ومن أخفها قوله : « للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه محيت رسومه ، وفنيت هُويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره » ، ومن أشدها قوله : « خرجت من الحق إلى الحق ، حتى صاحوا منى فىَّ - « يا من أنا أنت » » ، وبعضهم ينكر نسبة مثل هذا إليه .

وكان الحسين بن منصور الحلاج أشد جراءة فى ذلك من أبى يزيد البسطامى وغيره من متصوفة هذا القرن ، فقد جاهر بهذه الدعاوى ولم يستتر بها ، ومن ذلك قوله : أنا الحق ، وقوله :

أنا من أهوى ، ومن أهـوى أنا   نحن روحـــان حللنــــا بدنـــا
فإذ أبصـــــرتَنى أبصرتَه   وإذا أبصرتَه أبصرتنــــا

وقد قتل الحلاج فى ذلك سنة ٣٠٠ هـ - ٩٢١ م .

ولكن جمهور صوفية هذا القرن لم يعتادوا الكلام بلغة وحدة الوجود ، ومن كان يستعملها منهم لم يصرِّح بها علانية ، بل عدوها عقيدة باطنية خاصة بأصحاب الأذواق والمعرفة منهم ، لأنهم رأوا أن من واجبهم أن تكون نظرياتهم الصوفية على صلة وثيقة بالعقيدة الدينية ، ولهذا اتخذوا القرآن والسنة أساسا يعتمدون عليه فى نظرياتهم وفى أحوالهم ، ولكنهم كانوا يذهبون فى هذا إلى تأويلات تلائم أغراضهم ، ويرون أن لكل كلمة فى القرآن باطنا لا يكشفه الله إلا للخاصة من عباده الذين تشرق هذه المعانى فى قلوبهم فى أوقات وجدهم ، وقد كانوا يعتقدون أن جميع ما يصدر منهم من قول أو عمل

موافق كل الموافقة لروح الشرع ، وإن ظهر فى ذلك ما ظهر من التعارض بينه وبين ظاهر الشريعة ، ولهذا قال أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ - ٨٩٠ م : « إن رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين » .

وهكذا وصل هؤلاء المتصوفة بما زعموه من إماتة النفس إلى أقبح أنواع الغرور بها ، لأنه لا غرور بها أقبح من جعلها فى مرتبة الألوهية ، بدعوى الحلول والاتحاد ودعوى وحدة الوجود ، ومن دعوى أن كل ما يصدر عنها موافق لروح الشرع ، ولهذا وضعوا أنفسهم وسطاء بين العبد والرب ، وجعلوا لهم مدرسة يخرِّجون فيها الأولياء ، وكان لها قواعد ورسوم يتلقاها تلامذتها على أساتذتهم ، وكانوا يسمون تلامذتها مريدين ، ومن آدابها أن يخضع المريد لأستاذه خضوعا أعمى،ولا بد للمريد عندهم من أستاذ يتخذه مرشدا وهاديا ، ويصل به إلى المقامات التى يريد الوصول إليها ،ولهذا قال يزيد البسطامى : « من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان » ، وصرح ذو النون المصرى بما هو أكثر من ذلك ، فذكر أن طاعة المريد لأستاذه أوْلى به من طاعته لربه .

فأضافت متصوفة هذا القرن بذلك إلى نظام الطبقات بين الأغنياء والفقراء نظام طبقات آخر أسوأ منه ، إذ جعلوا من أنفسهم طبقة دينية ممتازة لها حظوة عند الله تعالى ، ولها وساطة عنده فيمن يريد الوصول إليه ، وفيمن يريد قضاء حاجاته الدنيوية من عامة الناس ، وهذا أسوأ نظام للطبقات بين الناس ، وهو نظام رجعى يشبه نظام الكهنوت فى المسيحية الكاثوليكية ، لأنهم فيهــا وسطاء بين العبد والرب ، فيكون هذا النظام أشد فساداً وأدخل فى الرجعية من نظام الطبقات بين الأغنياء والفقراء .

وقد كان هذا سبباً فى وقوع أولئك المتصوفة فى رجعيات كثيرة :

منها رجعية الجمع بين الذكر والسماع ، ليطربوا عند الذكر بسماع القصائد والأشعار والغناء ، ويرجعوا بالعبادة الإسلامية إلى ما كان يتبع فى غيرها من العبادات ، وقد سئل أبو القاسم الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م ، وهو سيد المتصوفة وشيخها : ما بال أصحابك إذا سمعــوا القرآن لا يطربون ؟ فقـــال : وأىُّ شىء فى القرآن يطـرب فى الدنيا ؟ . . القرآن حق نزل من عند حق ، لا يليق بصفات الخلق ، عند كل حرف منـه على الخلق واجب لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله عز وجل ، فإذا سمعوه فى الآخرة من قائله أطربهم . . . فقيل له : فما بالهم يسمعون القصـائد والأشعار والغناء فيطربون ؟ فقال : لأنها مما عملته أيديهم ، ولأنه كلام المحبين . وقد سئل أيضاً عن الإنسان يكون هادئا فإذا سمع السماع اضطرب ، فقال : « إن الله تعالى لما خاطب الذرية فى الميثاق الأول بقوله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ استقرعت عذوبة سماع الكلام الأرواح ، فإذا سمعوا السماع

حرَّكهم ذكر ذلك » والسبب فى هذا عندى غير ما ذكره الجنيد ، وإنما هو الكبت النفسى الذى يأخذ به المتصوفة ، لأنه لما أرهقهم طلبوا ما يروِّحون به أنفسهم من السماع ، وما كان أغناهم عن هذا الكبت النفسى ، وما كان أغناهم عن الترويح عن أنفسهم من أجله بالسماع ، والوقوع فى هذه النكسة الرجعية .

ومنها إمعانهم فى التشاؤم ، لأنهم كانوا يرون أن العالم شر لا خير ، ولذلك أوجبوا على أنفسهم التزام الحزن والكمد ورؤية التقصير فى جميع الأفعال ، وإذا كانت الدنيا شرا محضا فإنه يجب التخلص منها بالزهد ، ولذلك كان أبو عثمان الحيرى المتوفى سنة - ٢٩٨ هـ - ٩١٠ م - يرى وجوب الزهد المطلق فى كل شىء ، ويُعدّ الزهد فى الحرام فريضة ، وفى المباح فضيلة ، وفى الحلال قربة إلى الله ، وقد حملهم هذا على إباحة العزوبة لجميع المسلمين بعد المائتين من الهجرة ، ورووا فى هذا أحاديث يظهر عليها الوضع ، مثل حديث « إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتى ، ولأن يربى أحدكم جَرْوَ كلب خير من أن يربى ولدا » وحديث « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ[1] الذى لا أهل له ولا ولد » وهذا كله أثر من الزرادشتية الفارسية ، ومن الرهبنة المسيحية ، فهو أيضا من النكسات الرجعية .

ومنها مذهبهم فى المحبة والوجد والسكر ، وقد كتب يحيى بن معاذ الرازى المتوفى سنة - ٢٥٨ هـ - ٧٨١ م - إلى أبى يزيد البسطامى يقول : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته » ، فكتب إليه أبو يزيد : « غيرك شرب بحور السماوات والأرض وما روى بعد ، ولسانه خارج . ويقول :« هل من مزيد » . وكل هذا من البدع والأوهام ، وقد جاء الإسلام لتنبيه العقول الراقدة ، ولم يجىء ليسكرها بكأس المحبة ، وإنما هذه نزعة رجعية أيضا ، وقد اتخذوها ليداروا بها ما يصدر عنهم من الشطح فى الأقوال والأفعال ، ويعتذروا بها عند مؤاخذتهم عليها ، ولهذا كان الجنيد وجمهور الصوفية فى هذا القرن يفضِّلون السير فى طريق الصحو ، ولم يشذ عنهم إلا أبو يزيد ومن نحا نحوه .

ومنها تفضيلهم طريقهم فى العبادة والزهد على العلم ، وفى هذا يقول شيخهم الجنيد : « المريد الصادق غَنىٌ عن علم العلماء ، وإذا أراد الله بالمريد خيرا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القرَّاء » وهذه نزعة رجعية إلى حال الأمية التى كان عليها العرب قبل الإسلام ، وكان من أهم أغراضه العمل على محوها ، ونشر العلم وغيره من وسائل الحضارة بين المسلمين ، وقد حملت هذه النزعة الرجعية بعض أولئك المتصوفة على الاشتغال ببعض العلوم التى لا فائدة فيها كالسحر وغيره ، وإلى توجيه بعضها توجيها أضرَّ

---

(١) الحاذ : الظهر ، والخفيف الحاذ : القليل المال والعيال .

بها ، كتوجيه علم الكيمياء بوسائل السحر إلى تحويل النحاس إلى ذهب ، وتحويل الحصى ونحوه إلى أحجار كريمة ، وممن اشتغل بهذا من المتصوفة فى هذا القرن ذو النون المصرى ، فقد ذكروا أنه من أصحاب الكيمياء والسحر ، وقد كانت الكيمياء قديما تعد فرعا من العلوم السحرية ، وقد اتصل هذان العلمان منذ عهد بعيد صلةً وثيقة بعلم الطلسمات والثيوسوفيا[1] وهـــذه الصـــلة تبدو واضحـــة فى المذهب الأفلاطونى الجديد ، كما تظهر فى المذهب الغنوسى اليونانى[2] وفى مذهب الصابئة من أهل بابل وحرّان ، وبهذا وصل أولئك المتصوفة فى الرجعية إلى أبعد حدودها ، وأدخلوا فى تصوفهم كثيرا من الخرافات السحرية التى أبعدتهم عن العلوم النافعة ، وقد زار رجل يوما ذا النون المصرى فرأى بين يديه طستا من ذهب وحوله الندّ والعنبر يسجر ، فصاح به ذو النون قائلا : « هل أنت ممن يدخل على الملوك فى حال بسطهم ؟ » . وفى هذا ما فيه من الدلالة على مقدار الوهدة السحيقة التى وقع فيها أولئك المتصوفة حين اشتغلوا بتلك الخرافات ، وانصرفوا عن الوجهة الصحيحة التى وجه الإسلام العلم إليها ، ليكون نافعا للمسلمين فى دنياهم وأخراهم ، ولا يكون خرافات تضرهم ولا تنفعهم . وقد وصل انحراف المتصوفة فى هذا القرن عن وجهة العلم الصحيحة ببعضهم إلى أبعد مدى فى الجهـل ، حتى حكى أن بعضهم دخل على الحلاج وهو يكتب شيئا ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : هو ذا أعارض القرآن . وكذلك رأى بعضهم أبا الحسن سمنون بن حمزة الخواص من متصوفة هذا القرن جالسا على شاطىء دجلة ، وبيده قضيب يضرب به ساقه وفخذه حتى تبدد لحمه وتناثر ، وهو ينشد ويقول :

كان لى قلب أعيش به	ضـــاع منى فى تقلبه
ربِّ فاردُدْهُ علىّ فقد	عِيلَ صبرى فى تطلبه
وأغِث ما دام لى رمق	يا غياث المستغيث به

وكان سمنون هذا يلقّب نفسه الكذاب ، ويرضى لنفسه هذا اللقب القبيح هضمًا لها فى زعمه .

وإذا كان انحراف المتصوفة عن ذلك التوجيه الصحيح للعلم قد **أوقع** بعضهم فى

---

(١) هى النزعة نحو المعرفة الإلهية ، وهذا من خصائص التفكير اليونانى .

(٢) الغنوسى نسبة إلى غنوسيس ، وهى كلمة يونانية بمعنى معرفة ، وأساسها **أن** العرفان الحق ليس العلم النظرى ، وإنما هو العرفان الحاصل من اتحاد العالم بالمعلوم .

الاشتغال بمثل علوم السحر والكيمياء والطلسمات ، فإن جمهورهم وقع به فى علوم غريبة يسمونها العلوم الباطنية ، وهى قائمة على ما يزعمونه من أن للشريعة ظاهراً وباطنا ، وفى هذا يقول أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م : « العارفون خزائن الله ، أودع الله تعالى فيها علوماً غريبة ، وأخباراً عجيبة ، يتكلمون فيها بلسان الأبدية ، ويخبرون عنها بعبارات أزلية » ، ويقول أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الآدمى المتوفى سنة ٣٠٩ هـ = ٩٢١ م - فى تفسير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [1] : أى الظواهر من الأخلاق الشريفة ، والعبادات المرضية ، دون البواطن والأسرار والإشارات ، ويقول أيضاً : قوام الإسلام وشرائعه بالمنافقين ، وقوام الإيمان وشرائعه بالعارفين بالله عز وجل ، ولا شك أنهم لم يدعوا هذه العلوم إلا ليبرروا بها ما سبق لهم من دعوى أنهم وسطاء بين الله وعباده على نحو ما كان موجوداً فى الديانات القديمة ، بل ليصلوا بها إلى دعوى الربوبية على نحو ما كان موجوداً فى الوثنية الأولى .

ولا شك أن ما وصل إليه الصوفية فى هذا القرن من تلك النكسات الرجعية كان له آثاره فى أحوال المسلمين فيه ، ولكنهم كانوا لا يزالون أصحاب القوة فى العالم ، فكانت قوتهم تغطى على آثار تلك النكسات الرجعية فيهم، على أن أولئك المتصوفة كانوا يسيرون فى ذلك على حذر ، ولم يجرؤوا على الجهر به إلا قليل منهم لأن جمهور المسلمين فى هذا القرن كانوا لا يزالون منصرفين إلى العلوم النافعة التى قامت عليها حضارتهم ، وكانت تنهض بهم فى دنياهم ، وتجعلهم سادة العالم فى هذا القرن ، فكانوا ينفرون من اتجاهات الصوفية الغريبة عليهم ، ولهذا كان الجنيد - وهو من أمثل أولئك المتصوفة - يعلّم التصوف لمريديه سراً ، ويقوم بتعليمهم فى بيوت خاصة ، وفى سراديب لا يراهم فيها أحد ، ومع هذا اتهم بالزندقة مراراً ، وكذلك أتهم عدد كبير من الصوفية بهذه التهمة فيما يعرف بمحنة الصوفية ببغداد ، وهى المحنة التى فر على أثرها أبو سعيد الخراز إلى مصر .

وقد كان أهل السنة الذين أعاد إليهم المتوكل العباسى (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٦ - ٨٦١ م) نفوذهم أكثر تسامحاً وأقل اضطهاداً لأولئك المتصوفة ، بعكس حالهم مع المعتزلة ، وقد أرسل ذو النون المصرى إلى بغداد بتهمة الزندقة ، فلما مثل أمام المتوكل وعظه ، فعفا عنه وردّه إلى مصر ، وكان أحمد بن حنبل إذا جرى فى مجلسه شىء من كلام المتصوفة يقول لأبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٨٩ هـ - ٩٠١ م : ما تقول فى هذا يا صديقى[2] ؟ وقد كان هذا سبباً فى مضى أولئك المتصوفة فى طريقتهم ، وفى تغاليهم

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١ .

(٢) قد نسب إليه أيضا ما يخالفه من الإنكار على الصوفية .

فيها بعد هذا القرن ، وكان قتل الحلاج سنة - ٣٠٩ هـ - ٩٢١ م - أشد ما وقع فيه لأولئك المتصوفة ، ومع هذا كان له أنصار من رؤساء الدولة ، ومن خاصة الناس وعامتهم من أهل السنة .

وقد قامت فى هذا القرن فرقة من المتصوفة تسمى **الملامتية** - نسبة غير عربية إلى الملامة - تحاول إصلاح التصوف فى هذا القرن ، وترجع إلى بساطته الأولى قبل أن يصير تصوفاً نظرياً ، وكان حمدون بن أحمد القصار المتوفى سنة - ٢٧١ هـ - ٨٨٤ م - شيخ هذه الطائفة ، وكان من نيسابور ببلاد فارس ، ومنها انتشر مذهب الملامتية ، وكان أشد ما يحرصون عليه كتمان أحوالهم ، فكانوا يكرهون كل من يُظهر فيهم هذه الأحوال من السماع والتواجد والذكر والصياح ، وقد سئل بعضهم : ما لكم لا تحضرون مجالس السماع ؟ ... فقال : « ليس تركنا مجلس السماع كراهية وإنكاراً ، ولكن خشية أن يظهر علينا من أحوالنا ما نُسِرُّه ، وذلك عزيز علينا » وبهذا يكون الفرق بينهم وبين غيرهم من المتصوفة قليلا ، لأنهم لا يرون فى السماع إلا أنَّ تركه أولى ، ولا يحرمونه على مريديهم تحريماً مطلقاً .

على أن مذهب الملامتية فى أساسه كان سبباً لنكسات شديدة وقع فيها من أتى بعد هذا القرن ، لأن مذهبهم يقوم على أساس لوم النفس ، ولا يقتصر هذا عندهم على لومهم لأنفسهم ، بل يضيفون إليه لوم الناس لهم ، فكانوا لا يظهرون بين الناس بما يوجب مدحهم ، لئلا يتسرَّب الغرور إلى أنفسهم ، بل كانوا يتعمدون فعل ما يجلب من الناس السخط والازدراء ، ويرسل ألسنتهم عليهم بالذم والتأنيب ، ولهذا قال بعضهم : « الملامة ألاّ تظهرَ خيرا ، ولا تضمر شراً » . وقال آخر : أهل الملامة أظهروا للخلق ما يليق بهم من أنواع المعاملات والأخلاق وما هو نتائج الطباع ، وصانوا ما للحق عندهم من ودائعه المكنونة » ، وقال آخر : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه ، وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم » .

وهذا كله ليس من الإسلام فى شىء ، لأنه أتى بتحسين الظاهر والباطن ، وعوَّل فى معاملته للناس على ظواهرهم ، ولهذا قال النبى ﷺ « أمرت أن أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » ولا يصح لأحد فى الإسلام أن يظهر للناس قبائح ما فيه ، بل يجب عليه أن يصلحها أو يسترها على الأقل ، لئلا تشيع الفاحشة فى الناس ، وقد قصَّر النبى ﷺ بالعباس بن مرداس عما أعطاهُ عيَينة بن حصن والأقرع بن حابس فقال :

أتجعـل نهبى ونهب العُبَيـ ـد بين عيينـة والأقرع[1]
وما كان حصن ولا حابس يفـوقان مرداسَ فى المجمع

فقال النبى ﷺ « اقطعوا عنى لسانه » فزادوا فى عطائه ليقطعوا لسانه عنه . ولا شك أن الملامتية يخالفون هذا بإظهار قبائحهم ليرسلوا ألسنة الناس فيهم ، وهذه نزعة رجعية وقع فيها قبلهم الكلبيون من فلاسفة اليونان ، وقد وقع متأخروهم فيما وقع فيه متأخرو الكلبيين قبلهم ، وسيأتى بيانه بعد هذا القرن .

فإذا كان المسلمون فى القرن السابق فى حاجة إلى مجدد يسمو على هذه الخلافات الدينية والجنسية والسياسية ، فإن حاجتهم إليه فى هذا القرن أشد ، لما وصلت إليه النكسات الرجعية فيه من ذلك الحد .

وقد ذكر المتقدمون من مجددى هذا القرن المقتدر مِن أولى الأمر ، وابن سريج الشافعى والطحاوى الحنفى والخلاَّل الحنبلى من الفقهاء ، والأشعرى من المتكلمين والنسائى من المحدثين .

وذكر السيد رشيد رضا أن أحمد بن حنبل كان مجدداً فى القرن الثالث لما أخلق بعض بنى العباس من لباس السنة ، وهو أولى عندى بالذكر من المقتدر وابن سريج والشافعى والطحاوى والخلال والنسائى ، وكذلك الأشعرى أولى بالذكر منهم ، وقد وازن ابن عساكر فى كتابه « تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى »[2] بين الأشعرى وابن سريج فقال : وأقول من قال إنه - أى مجدد الثالثة - أبو الحسن الأشعرى أصـوب ، لأن قيامه بنصر السنة إلى تجديد الدين أقرب ، فهو الذى انتدب للرد على المعتزلة ، وسائر أصناف المبتدعة المضللة ، وحالتهُ فى ذلك مشتهرة ، وكتبه فى الرد عليهم منتشرة ، فأما أبو العباس بن سريج فكان فقيها ، مضطلعاً بعلم أصـول الفقه وفروعه نبيهـا ، ولكن الأشعرى قضى فى القرن الرابع الهجرى ثلاثين سنة كانت أظهر حياته : فالأولى عندى تأخيره إلى هذا القرن .

فلا يبقى ممن ذكره المتقدمون إلا ابن حنبل من علماء الدين ، فهو الذى سنتكلم عليه فى هذا القرن ، ويجب أن يضاف إليه الواثق من العباسيين ، لأنه كان كعمه المأمون ؛ وكذلك المهتدى من العباسيين ، لأنه أراد فى هذا القرن أن يحيى بين العباسيين سنة عمر ابن عبد العزيز فى بنى أمية ، ولم يكن المقتدر بشىء فى بنى العباس ، ولا يصح أن يذكر بإزاء الواثق والمهتدى .

---

(١) العبيد : فرس العباس بن مرداس .

(٢) ص ٥٣ ، ٥٤ .

ولم يذكر المتقدمون مع من ذكروهم فيلسوفا من فلاسفة هذا القرن ، وهم أولى بالذكر من غيرهم ، لأن العلوم الفلسفية هى التى تنهض بالمسلمين فى دنياهم ، ومتى نهض المسلمون فى دنياهم نهضوا فى دينهم ، لأن الدنيا قنطرة الآخرة ، ومن أضاع دنياه أضاع أخراه ، وإنما لم يذكر المتقدمون مجددا منهم بعد المأمون ، لأن أهل السُّنة غالبًا كانوا هم الذين يعينون هؤلاء المجددين ، وعداؤهم للفلسفة وعلومها وأصحابها معلوم ، فلم يكن من المستساغ عندهم أن يُعَدّ من يشتغل بها بين المجددين ؛ لأن الدين فى نظرهم عدو للفلسفة ، والمجدد بمقتضى حديث المجددين السابق مجدد فى الدين ، ونحن نرى أن الدين والفلسفة أخوان ، وما كنا نحب للسيد رشيد رضا أن يذكر أن ابن حنبل كان مجددا فى القرن الثالث لما أخلق بعض بنى العباس من لباس السنة ؛ لأنه يعنى ببعضهم المأمون ومن حذا حذوه فى نصر علوم الفلسفة .

ولكن حاجة المسلمين فى التجديد لم تتحقق فى هذا القرن أيضا بهؤلاء المجدِّدين ، كما سيظهر من دراسة من نختاره منهم ، وهم الواثق من الملوك ، وابن حنبل من الفقهاء ، والمهتدى من الملوك ، والكندى والرازى من الفلاسفة .

* * *



الواثق العباسى

هــو هارون بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، تولى الملك سنة ٢٢٧ هـ - ٨٤١ م ، وتوفى سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦ م ، فمكث فى الملك خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما .

وقد سلك فى التجديد العلمى مسلك عمه المأمون ، وسار فى طريقته فى نشر العلوم على اختلاف أنواعها ، ولا سيمــا العلوم الفلسفية ، حتى كان يلقَّب المأمون الأصغر ، وكان محبا للنظر ، مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد ، مبعداً لأهله من مجلسه ، راغبا فى الإشراف على علوم الناس وآرائهم ، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين وغيرهم ، وكان يجمعهم ويناظرهم فى علوم الطبيعيات وما بعد ذلك من الإلهيات .

وقد جمعهم يومًا فقال لهم : « أحببتُ أن أعلم كيفية إدراك معرفة الطب ومأخذ أصوله ، أذلك من الحس أم من القياس والسنة ؟ أم يُدرَك من جهة العقل ؟ أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع كما يذهب إليه جماعة من أهل الشريعة ؟ » . وقد كان ابن يختيشوع وابن ماسَوَيْه وميخائيل فيمن حضر ؛ وقيل إن حنين بن إسحاق وسلمويه كانا فيمن حضر فى هذا المجلس .

فقال منهم قائل : زعم طوائف من الأطباء أن الطريق الذى يدرك به الطب هو التجربة فقط ، وحدُّوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد فى أحوال متغايرة ، فيوجد بالحس فى آخر الأحوال كما يوجد فى أولها ، والحافظ لذلك المجرِّب ، وزعموا أن التجربة ترجع إلى مبادىء أربعة هن لها أوائل ومقدمات ، وبها علمت وصحت ، وإليها تنقسم التجربة ، فصارت بذلك أجزاء لها . . . الخ الخ .

وذهبت طائفة أخرى منهم إلى أن الحيلة فى تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن تُرَدَّ أشخاص من العلل ومولداتها إلى الأصول الحاضرة الجامعة لهـا ، إذ كان لا غاية لتولدها ، وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود فى الحال والوقت ، دون الأسباب الفاعلة التى عدمت ، ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها ، وألزموا التحفظ بكل ما يكون فى كل علة وجدت أو لم توجد ، وبرهنوا بأن زعموا أن من المعلومات الظاهرة التى لا ريب فيها أن الضدين لا يجـوز اجتماعهما فى حال ، وأنَّ وجود أحدهما ينفى الآخر فى الحال لا محــالة ، قالوا : وليس هذا كشىء ظاهر يستدل به على كل شىء خفى ، والشىء الظاهر

يحتمل الوجوه ، فيختلف الاستدلال ، فيكون القطع على ما يوجبه غير بيِّن ، وهذا قول جماعة من حذاق المتطببين وأهل التقدم فى اليونانيين ، وهم قوم يعرفون بأصحاب الطب الجِبلى ، مثل ماموس وغيره .

فقال الواثق لهم جميعا : فأخبرونى عن جمهورهم الأعظم : إلامَ يذهبون فى ذلك ؟

فقالوا : إلى القياس .

فقال : وكيف ذلك ؟

فقالوا جميعا : زعمت هذه الطائفة أن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية ، فمنها معرفة طبائع الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان فى الصحة والمرض ؛ ومعرفة الأهوية واختلافها والأعمال والصنائع والعادات والأطعمة والأشربة والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض ، إلى أن قالوا : فالواجب على الطبيب لا محالة من هذه المقدمات التى قد صحت إذا أراد علاج المريض النظر فى طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب، ليستدل بجميع ذلك ، وهذا - يا أمير المؤمنين - قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم ... الخ الخ .

فقال الواثق لحنين من بين الجماعة : ما أول آلات الغذاء من الإنسان ؟

فقال : أول آلات الغذاء الفم ، وفيه الأسنان ، والأسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منها فى اللحى الأعلى ستة عشر سنا ... الخ الخ .

فقال الواثق لحنين : أحسنتَ فيما ذكرت من هذه الآلات ، فصنِّفْ لى كتابا تذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته من ذلك . فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات : يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء المسهل وآلات الجسد .

وقد ذكروا أن الواثق سأل حُنينا فى هذا المجلس وفى غيره عن مسائل كثيرة ؛ وأن حنينا أجاب عن ذلك ، ثم صنف فيه كتابا ترجمه بكتاب المسائل الطبيعية ، يذكر فيه أنواعا من العلوم . وقيل : إن الذى كان يسأل حنينا نديم من ندماء الواثق ؛ فكان يسأله والواثق يسمع ويتعجب مما يورده السائل ، فلما كثر هذا الكلام من السائل والمجيب أضجر الواثق ، فقطع ذلك وأجاز كل واحد ممن حضر .

ثم أمرهم أن يخبر كل واحد منهم عمّا حضره فى الزهد فى هذا العالم الذى هو عالم الدثور والفناء والغرور ، فذكر كل واحد منهم ما سنح له من الأخبار عن زهد الفلاسفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين ، مثل سقراط ودوجانس .

فقال الواثق : قد أكثرتم فيما وصفتم ، وقد أحسنتم الحكاية فيما ذكرتم ، فليخبرنى

كل واحد عن أحسن ما سمع من نُطْق الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر ، وقد جُعل فى التابوت الأحمر ·

فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين · كل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء دوجانس - وقد قيل إنه لبعض حكماء الهند - فقال : إن الإسكندرَ أمس أنطقُ منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس » وأخذ هذا المعنى من قول الحكيم أبى العتاهية حيث قال :

كفى حزنا بدفنـــك ثم أنى نفضت تراب دفنك من يديًّا
وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فاشتد بكاء الواثق وعلا نحيبه ، وبكى معه كل من حضر من الناس ، ثم قام من فَوْره ذلك وهو يقول :

وصروف الدهر فى تقديره خُلِقت فيها انخفاض وانحدارْ
بينما المرء على إعـــلائها إذ هوى فى هُوَّة منهـــا فخار
إنمـــا متعةُ قوم ساعـــــة وحياة المرءِ شىء مستـــــعار

وقد ذكر المسعودى كل هذا من أخبار الواثق ، ثم قال : وللواثق أخبار حسان مما كان فى أيامه من الأحداث ، وما كان يجرى من المباحثة فى مجلسه الذى عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول[1] .

ولا شك أن الواثق فى هذه الناحية - دون ما عداها من نواحى التجديد - مجدد إلى أقصى حدود التجديد فيها ، سَمِحٌ فى دينه إلى أقصى الحدود ، لأن مجلسه كان يجمع بين العلماء على اختلاف أديانهم ، من مسلم إلى نصرانى إلى غيرهما من أهل الأديان ، فلا يرى فى هذا حرجاً عليه فى دينه ، لأن العلم فى الإسلام لا يعرف ديناً من الأديان ، وإنما يجب طلبه من صاحبه مسلماً كان أو غير مسلم ·

ولو أن من أتى بعد الواثق من ملوك العباسيين سار فى هذا الطريق لوصل العلم فى الإسلام إلى ما وصل إليه فى نهضته الحديثة قبل أوربا ، لأن الواثق ومن قبله من ملوك العباسيين كانوا يسيرون بالعلم فى الطريق الصحيح الذى يوصل إلى هذه الغاية ، وقد كانت أوربا فى عصرهم غارقة فى بحار الجهل ، ولم يكن لها مثل حضارة العباسيين فى ذلك العهد ، فلم تشتغل بما كان يشتغل به أولئك الملوك العباسيون إلا فى زمن متأخر ·

ولكن المتشددين من أهل السنة كابن حنبل وغيره كانوا يضيقون بهذه العلوم الطارئة على الإسلام ، فكانوا يحاربونها سِراً وجهرًا ، ويثيرون العامة عليها فى كل البلاد ، حتى

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى ج ٤ ص ٣٠ - ٣٦ ·

تم لهم القضاءُ على هذه الحركة العلمية الجديدة ، وقصروا الناس على الاشتغال بالعلوم الدينية وما إليها من العلوم الأدبية ، ليصيروا بهم إلى الجمود بعد النهوض ، ويصلوا بهم إلى الضعف بعد تلك القوة الرائعة ·

وقد سلك الواثق مع أولئك المتشددين فى الدين مسلك عمه وأبيه ، وتشدد فى مسألة خلق القرآن كما تشدد مخالفوه من أهل السنة ، وقد جرى لابن حنبل فى عهد أبيه المعتصم ما جرى مما سيأتى فى الكلام عليه ، فلما ولى الواثق بعد أبيه لم يعرض له بسجن أو نحوه ، وإنما أرسل إليه : لا تساكنِّى بأرض · فاختفى وأخذ يتنقل فى الأماكن إلى أن مات الواثق ، وفى هذا شىء من اللين مع ابن حنبل ·

والظاهر أنه فى آخر أمره لان فى هذه المسألة أكثر من ذلك ، ورأى ألا يشددَ فيها كما كان يشدد أبوه وعمه ، ومما يؤيد هذا أنه أتى بشيخ من أهل الفقه والحديث من أهل « أذنة » من الثغر الشامى ، مقيد طوال حسن الهيئة ، فسلم عليه غير هائب ، ودعا فأوجز ، فقال له الواثق : يا شيخ ، أجب أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد فيما يسألك عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يقل ويضعف عن المناظرة ، فقال له : أبو عبد الله يضعف عن المناظرة ؟ ·

فقال له : هوِّن عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن فى كلامه ؟

فقال له : قد أذنتُ له ·

فأقبل الشيخ على أحمد فقال له : يا أحمد ، ما دعوتَ الناس إليه ؟

فقال أحمد : إلى القول بخلق القرآن ·

فقال الشيخ : مقالتك هذه التى دعوت الناس إليها داخلة فى الدين ، فلا يكون الدين تاما إلا بالقول بها ؟

فقال أحمد : نعم ·

فقال الشيخ : رسول الله ﷺ دعا الناس إليها أو تركهم ؟

فقال أحمد : تركهم ·

فقال الشيخ : فعلمها رسول الله ﷺ أو لم يعلمها ؟

فقال أحمد : علمها ·

فقال الشيخ : فَلِمَ دعوتَ الناس إلى ما لم يَدْعُهم إليه رسول الله ﷺ وتركهم منه ؟

فسكت أحمد ·

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، هذه واحدة ·

ثم قال لأحمد بعد ساعة : يا أحمد ، قال الله فى كتابه العزيز : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١) فقلت أنت : لا يكون الدين تاما إلا بمقالتكم بخلق القرآن ، فالله أصدق فى إكماله وإتمامه أو أنت فى نقصانك ؟

فأمسك أحمد .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثانية .

ثم قال لأحمد بعد ساعة : أخبرنى يا أحمد عن قول الله عز وجل فى كتابه ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٢) فمقالتك هذه التى دعوت الناس إليها مما بلَّغه الرسول ﷺ للأمة أم لا ؟

فأمسك أحمد .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثالثة .

ثم قال لأحمد بعد ساعة : أخبرنى يا أحمد ، ما علم رسول الله ﷺ من مقالتك هذه التى دعوت الناس إليها وإلى القول بها أوسعه أن أمسك عنهم أم لا ؟

فقال أحمد : بل اتسع له ذلك .

فقال الشيخ : وكذلك لأبى بكر وعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلى رضي الله عنهم ،

فقال أحمد : نعم .

فصرف الشيخ وجهه إلى الواثق وقال : يا أمير المؤمنين ، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه ، فلا وسَّع الله علينا .

فقال الواثق : نعم ، ولا وسع الله علينا إن لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه ، ثم قال : اقطعوا قيده ، فلما فكوا قيده جاذب عليه ، فقال الواثق : دعوه ، ثم قال له : لم جاذبتَ عليه ؟ فقال : لأنى عقدت فى نيتى أن أجاذب عليه ، فإذا أخذته أوصيت أن يجعل بين كفنى وبدنى حتى أقول : يا رب ، سل عبدك هذا لِمَ قيدنى ظلمًا وأراع فىَّ أهلى ؟

فبكى الواثق ، وبكى الشيخ وكل من حضر ، ثم قال الواثق : يا شيخ ، اجعلنى فى حل .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خرجتُ من منزلى حتى جعلتُك فى حل إعظامًا لرسول الله ﷺ لقرابتك منه .

فليت كل أهل السنة فى ذلك العهد كانوا مثل ذلك الشيخ الذى عُرف بلباقته وعدم

---

(١) المائدة : آية ٣ . (٢) المائدة : آية ٦٧ .

تنطعه كيف يقطع الكلام فى هذه المسألة بالتى هى أحسن ، مع احتفاظ كل فيها برأيه ، فلم يركب رأسه كما ركب فيها رأسه من تشددوا فيها من أهل السنة وخصومهم ، ثم تعصبوا لرأيهم فيها إلى حد التكفير به .

ولا شك أن موقف « الواثق » مع ذلك الشيخ مما يحمد له ، وهو موقف يليق بموقفه السابق فى الناحية العلمية من حركة التجديد فى الإسلام ، ولكن اقتصاره على هذه الناحية لم يكن ليكفى فى انتشال المسلمين من النكسات الرجعية التى وقعوا فيها ، لأن التجديد يجب أن يشملها كلها ، لتصلح به كل أحوال المسلمين ، وقد يذكر له مع ذلك موقفه حين سئل فى مرض موته أن يوصى لابنه من بعده ، فقال : لا يرانى الله أتقلدها حيا وميتا ، فرحمه الله رحمة واسعة .



أحمد بن حنبل

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني ، نشأت أسرته بالبصرة ، ثم انتقل جده إلى خراسان ، وكان واليا على سَرَخْس فى عهد بنى أمية ، وقد حملت به أمه بمرو ، ثم انتقلت إلى بغداد فولدته بها سنة ١٦٤ هـ - ٧٨٠ م ، وقد مات أبوه وهو طفل ، فقامت أمه بتربيته ، وكانت بغداد فى ذلك العهد حاضرة الدنيا ، وقد زخرت بأئمة العلم من قراء ومحدِّثين وفقهاء ومتصوفة وأدباء وفلاسفة ، فاتجهت نفسه إلى دراسة علوم الشريعة ، وكان في العراق على عهده مسلكان لدراسة هذه العلوم : مسلك الفقهاء من أهل الرأى الذين يُعنون باستخراج الفتاوى والأقضية أكثر من رواية الحديث ، ومسلك المحدِّثين الذين يعنون برواية الحديث وحفظه أكثر من استخراج الفتاوى والأقضية ، فاختار المسلك الثانى ، وطلب الحديث عن علمائه فى العراق ، وكان اتجاهه إلى ذلك فى سنة ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م .

فمكث فى بغداد سبع سنوات يطلب الحديث على هشيم بن بشير الواسطى ، ثم رحل بعد ذلك فى طلب الحديث ، فرحل إلى البصرة والحجاز واليمن والكوفة والشام ، وقد التقى بالشافعى فى الحجاز فأخذ عنه فقهه وأصوله الجديدة التى بناه عليها ، ثم التقى به بعد هذا فى بغداد ، فأخذ عنه فيها أيضا ، ولكنه كان قد اكتمل علمه ، حتى كان الشافعى يعوِّل عليه أحيانا فى معرفة صحة الأحاديث ، وكان مع جودة حفظه يدوِّن كل ما يرويه عن المحدثين .

ثم جلس للتحديث والفتوى بعد أن بلغ الأربعين ، فطار صيته فى بغداد وغيرها من البلاد ، وقصده طلاب الحديث والفقه من سائر النواحى ، حتى ذكر بعض الرواة أن درسه كان يبلغ نحو خمسة آلاف ، وأنه كان يكتب منهم نحو خمسمائة ، على أنه لم يكن يسمح لهم إلا بتدوين الحديث ، أما فتاويه الفقهية فلم يكن يسمح لهم أن يدونوها أو ينقلوها عنه ؛ لأنه كان يرى من البدع تدوين آراء الناس فى الدين بجوار القرآن والحديث ، وقد بلغه أن بعض تلاميذه روى عنه مسائل ونشرها بخراسان، فقال لأصحابه : اشهدوا أنى رجعتُ عن ذلك كله . وكذلك كان ينهى عن كتابة فتاوى غيره من الفقهاء .

وقد كان بهذا يعيش فى غير عصره من عصر الصحابة والتابعين ، يتأثر بأقوالهم وأفعالهم ، ويرى من البدعة إحداث شيء لم يكن فى عصرهم ، وقد غالى بهذا فى مذهب أهل السنَّة ، وتشدد فيه كل التشدد ، حتى وصفه بعض معاصريه بأنه تابعى كبير تخلف به الزمن ، وقد حمله هذا على الإعراض عن كل ما خاض فيه أهل عصره مما لم يؤثر عن ذلك السلف ، بل لم يكن يستجيز لنفسه الرد عليهم ، فكان ينهى الناس عن علم الكلام ؛

لأنه يتكلم فى العقائد بطرق فلسفية لم تكن معروفة للسلف ، وهو فى هذا يتأثر بالمتشددين فى دينهم من الصحابة والتابعين ؛ ولا يتأثر بمن كان منهم لا يتحرج هذا التحرج من التجديد فى الإسلام .

ولا شك أن مثل هذا يؤخذ على ابن حنبل ، ويبعد به عن أن يكون المجدد المطلوب للمسلمين فى هذا القرن ، لأنه يبعد به عن التسامح اللازم فى ذلك المجدد ، ليمكنه إزالة العداوة الدينية بين الفرق الإسلامية ؛ ولا يجعل من الخلاف فى الرأى سبباً للعداوة بينهم ، كما يحمله على كراهة كل جديد وإن لم يكن مخالفا للدين ، لأنه يرى أنه لا شىء غير ما كان فى عهد أولئك السلف .

وقد كان هذا سببا لموقفه المعروف فى فتنة القول بخلق القرآن ، فقد جهر فيه برأى أهل السنة ، وأصر على القول بأن القرآن غير مخلوق ، وصبر على ما أصابه من الحبس والجلد ، وقاوم فى ذلك أقوى ملوك الأرض من المأمون والمعتصم والواثق ، وكان ما أصابه من الحبس والجلد فى عهد المعتصم .

وهذه شجاعة فى الرأى يحمد عليها ، وقد دونت له فى التاريخ صفحة من المجد ، ولكن يؤخذ عليه فى هذا أنه كان يكفِّر مخالفيه فى القول بخلق القرآن وفى غيره من أصول المعتزلة ، كما كان مخالفوه يكفرونه هو وأهل السنة ، فتغالى كل من الفريقين فى التعصب لرأيه ، حتى جعلوها فتنة شديدة شغلت المسلمين زمنا طويلا ، ولو أن كلا من الفريقين راعى ما جاء به الإسلام من التسامح فى الرأى لترك للآخر رأيه من غير أن يكفره فيه، أو يحاول صرفه بالقوة عنه ، على أن الذين قالوا بخلق القرآن من المعتزلة يقصدون به هذه الألفاظ المركبة من الحروف والأصوات ، لأنهم لا يقولون بصفة الكلام الزائدة على ذاته تعالى كما قال أهل السنة ، والذين قالوا بعدم خلق القرآن قصدوا به هذه الصفة ، فلم يكن بينهم خلاف حقيقى فى مسألة خلق القرآن،ولم يكن هناك معنى للتشبث بالخلاف فيها من الفريقين، وقد كان المسلمون محتاجين فى هذه الفتنة إلى مجدد يرفع فيها راية السلام ، ويطفئها برأى يهدىء بين أهل السنة والمعتزلة ، ليعلموا أنهم جميعا إخوان فى الإسلام ، ولا يصح أن يفرق الخلاف بينهم فى هذه المسألة إلى ذلك الحد ، وقد كان موقف الواثق والشيخ السنى فيما سبق فى الكلام على الواثق خيراً من موقف المعتصم وابن حنبل .

وبهذا يقتصر التجديد الذى قام به ابن حنبل على إحياء ما كان عليه السلف من الشجاعة فى قول ما يرون أنه الحق ، وإن كان قد أسرف فيه بتكفير المخالف ، كما أسرف مخالفه أيضا بتكفيره ، وقد أخذ نفسه بهذا من أول حياته إلى وفاته ، لا يلين فى قوله ولا يخشى لومة لائم ، وقد ورث عنه هذا أتباعه من بعده ، بل غالى بعضهم فيه أكثر منه ، وكانت وفاته سنة ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م .

* * *

المهتدى العباسى

هو محمد المهتدى بن هارون الواثق بن المعتصم ، كان أبوه الواثق ملكا عظيما ، حتى كان يلقب المأمون الأصغر ، وقد مات أبوه ولم يعهد له ، وقد سئل فى مرضه الذى مات منه أن يوصى له من بعده ، فقال : لا يرانى الله أتقلدها حيا وميتا ، فورث ابنه عنه هذا الفضل ، وأخذ عنه الزهد فى الملك ٠

وقد ولى بعد أبيه الواثق أخوه المتوكل بن المعتصم ، ثم المنتصر بن المتوكل ، ثم المستعين بن محمد بن المعتصم ، ثم المعتز بن المتوكل ، فاعتقل المهتدى وحبسه ، وقد عزل الأتراك المعتز سنة ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م ، وبايعوا للمهتدى بن الواثق ، وقد حاول قبل أن يبايعوا له أن يُصلح بينهم وبين المعتز ، فأبَى قبول البيعة حتى يراه ويسمع كلامه ، فأتى به وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل ، فوثب إليه وعانقه وقال له : يا أخى ، ما هذا الأمر ؟ ٠٠٠ فقال المعتز : أمرٌ لا أطيقه ولا أصلح له ، فعرض عليه أن يصلح بينه وبينهم ، فقال : لا حاجة لى فيها ، ولا يَرضوننى لهـا ، فقال له : فأنا فى حل من بيعتك ، فقال : أنت فى حل وسعة ٠ فحوّل المهتدى وجهه عنه ، فأقاموه عن حضرته وردوه إلى محبسه ، وقتلوه بعد ستة أيام من خلعه ٠

وكانت حال الدولة قد ساءت بسوء تصرف أولئك الأتراك فيها ، وكان المسلمون قد ساءت حالهم بتنازعهم على الدنيا ، فآثر المهتدى أن يصلح هذه الحال بالزهد ، وأن يقوم فى بنى العباس بما قام به عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية ٠

وقد قال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى : كنت عند المهتدى بعض عشايا رمضان ، فقمتُ لأنصرف ، فأمرنى بالجلوس ؛ فجلست حتى صلَّى بنا المغرب ، وأمر بالطعام فأحضر ، وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان ، وفى إناء ملح ، وفى آخر خَلٌّ ، فدعانى إلى الأكل فأكلتُ مقتصراً ، ظناً منى أنه يحضر طعاما جيدا ، فلما رأى أكلى كذلك قال : أما كنت صائما ؟ ٠٠ قلت : بلى ، قال : أفلست تريد الصوم غدا ؟ ٠٠ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان ؟ ٠٠ قال : كلْ واستوف عشاءك ، فليس ههنا غير ما ترى ٠ فعجبت من قوله وقلت : ولِمَ يا أمير المؤمنين وقد أسبـغ الله عليك النعمة ووسع رزقه ؟ فقال : إن الأمر على ما وصفت ، والحمد لله ، ولكن فكـرتُ فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، فغرتُ لبنى هاشم ألا يكون فى خلفائهم مثله ، وأخذتُ نفسى بما رأيت ٠

فلما آثر هذا دعا بنى هاشم وقال لهم : يا بنى هاشم ، دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية .

ثم ذهب فى أمره إلى القصد فى الدين ، فقرب العلماء ، ورفع منازل الفقهاء ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن ، فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الملوك ، والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته ، وكانت الملوك قبله تنفق على موائدها فى كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه فى كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، فإذا دخل الليل أخرج من سفطٍ له جبة صوف وغل ، فلبس الجبة وغلّ نفسه ، وجعل يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح ، ولم يكن ينام من الليل إلا ساعة بعد العشاء الآخرة .

ثم بنى قبةً لها أربعة أبواب ، وسمّاها قبة المظالم ، وجلس فيها للعامّ والخاص للمظالم ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحرّم الشراب ، ونهى عن القِيان ، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، ويخطب الناس ويؤم بهم .

ولكن الفساد كان قد استحكم فى الرعية ، فثقلت وطأة هذه الإصلاحات على العامة والخاصة ، وكان أولئك الأتراك المتغلبون على الدولة أكثر من غيرهم تبرُّمًا بها ، فلم يمهلوا المهتدى إلا أحد عشر شهرًا ونصفا ، وكان بايكيال وموسى بن بغا يتزعمانهم ، فصرفهما المهتدى إلى حرب بعض الخوارج اتقاءً لشرهما ، وخرج معهما فشيعهما ، ولكنهما لم يلبثا أن قفلا من غير أن يلقيا شرا ؛ فلما استشعر برجوعهما خرج فعسكر بجسر سامرًا ، فتحرَّج موسى من قتاله وحاربه بايكيال حتى هزمه ، فدخل سامرًا مستغيثا بالعامة مستنصراً بالناس ، فلم ينصره أحد منهم .

ثم قبض عليه أولئك الأتراك وقالوا له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقالوا له : الرسول ﷺ كان مع قوم زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة ، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وإنما أنت رجالك تُرْكى وجَزَرِى ومغربى وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة ؟ وهذا يدل على مقدار ما بلغ الفساد من نفوس أولئك الأتراك ، لأنهم فى هذا يعرفون الحق ، ومع هذا يؤثرون عليه الباطل .

فكثر منهم ومنه الكلام والمراجعة فى هذا المعنى وأشباهه ، وكان المهتدى صاحب حيلة ، وقد جرى فى مدة ولايته على أن يستعين ببعضهم على بعض ، فأمكنه أن يؤثر فيهم ويهدئهم ، حتى كاد الأمر يتم بينه وبينهم ، ولكن سليمان بن وهب الكاتب قام فيهم فقال : هذا سوء رأى منكم ، وخطأ فى تدبيركم ، أعطاكم بلسانه ، فنيته فيكم غير هذا ، وسيأتى عليكم جميعا، ويفرق جمعكم . فلما سمعوا هذا منه استرجعوا وجاءوا بالخناجر ، وكان أول من قام على المهتدى بخنجره ابن عم لبايكيال ، فجرحه بخنجره فى أوداجه ، ثم انكب عليه والدم يفور منه فأخذ يمصه حتى روى منه ، وكان سكران ، ثم أقبل على أصحابه فقال : يا أصحابنا قد رويت من المهتدى كما رويت فى هذا اليوم من الخمر .

فقضى أولئك القساة على ذلك الملك المصلح قبل أن يصل إلى غرضه ، ومن عجيب أمرهم أنهم بعد أن قتلوه داروا به فى بغداد ينوحون ويبكون عليه ، وندموا على ما كان منهم من قتله ، فما كان أقساهم ، وأجهلهم ، وكان قتل المهتدى سنة ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م .

على أن الإصلاح الذى أراده المهتدى لم يكن كل الإصلاح المطلوب فى هذا القرن للمسلمين ، وقد بالغ فى الزهد الذى أراد أن يحمل الناس عليه ، كما يؤخذ من حاله عندما انتهى صومه فى رمضان ، فأمر بإحضار الطعام ، فجاءوا بطبق خلاف عليه رغيفان ، وبإناء فيه ملح ، وبإناء فيه خل ؛ فالزهد إلى هذا الحد ليس هو المثل الأعلى فى المسلمين ، ولا يصح حمل جمهور الناس عليه ؛ لأنه ينهك قواهم ويضعف أجسامهم ، والمسلمون فى حاجة إلى أجسام قوية ليمكنهم أن يقوموا بالجهاد فى سبيل الله ، وأن يقووا على تحمل أعباء الحياة .

ولقد كان المسلمون محتاجين أشد حاجة فى هذا القرن إلى تقوية الحركة العلمية التى أخذت فى التدهور بعد المأمون والواثق ولم تجد من ملوك بنى العباس بعدهما من ينهض بها ، بل وجدت مَن يناوئها ويحاول قصرها على العلوم الدينية وما إليها ، ولم تجد نصيراً فى هذا القرن إلا من بعض الممالك المتفرعة من دولة العباسيين : ففيها ظهر بعض عظماء الفلاسفة من المسلمين ، كالرازى وغيره من الفلاسفة الذين ظهروا فى هذه الممالك ، ولم يظهروا فى البلاد التى بقيت للعباسيين ، لأن أهل السنة كانوا قد استحوذوا على عقولهم ، فرأوا أن المثل الأعلى فى الدين هو الزهد الذى أراد المهتدى أن يصلح به حال المسلمين ، ولم يروه فى العلم الذى اجتهد فى نشره ملوكهم الأولون ، وكان عصرهم هو العصر الزاهر للعباسيين .

* * *

الدواء حاراً بدرجة ٢ فلا بد أن يكون له من الحرارة أربعة أمثال حرارة المزيج المعتدل ، وهكذا ، وهذه نظرية من نظريات الكندى المبتكرة ، وقد أعجب بها كردان من فلاسفة أوربا فى عصر النهضة[١] حتى عدَّ الكندى بها واحداً من اثنى عشر مفكراً هم أقوى المفكرين فى العالم .

وقد اقتصر تجديد الكندى على فتح باب الاشتغال بالفلسفة للمسلمين ، وعلى نبوغه فيها إلى أن كان أول من استحق فى المسلمين لقب فيلسوف ، فلم يشغل نفسه بالبحث عن طريقة صالحة للحكم أو غيره من الإصلاحات التى عُنىَ بها الفلاسفة بعده ، وقد عاصر نفوذ الأتراك فى الحكم العباسى ، وناله بعض الاضطهاد فى عهد المتوكل فانصرف إلى الاشتغال بالفلسفة التى كان أصحاب النفوذ فى عصره لا يضيقون بها ولا يحتملون منه أن يفكر فى إصلاح الحكم أو غيره .

وقد أدرك عهدَ المتوكل فناله كثير من أذاه ، لأنه كان يضطهد المعتزلة والفلاسفة ، ومن الغريب أنه وُشِيَ به عند المتوكل من محمد وأحمد ابنى موسى بن شاكر ، وكان لأبناء موسى بن شاكر فضل عظيم على الفلسفة والمشتغلين بها ، ولكنه كان يغلب عليهم الاشتغال بالعلوم الرياضية ، وكان الكندى يشتغل بالعلوم الإلهية ، ويوافق الفلاسفة القدماء فيما ذهبوا إليه فى حقيقة واجب الوجود ، فوشى به محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر عند المتوكل حتى ضربه وآذاه ، ثم وجههما إلى داره فأخذا كتبه كلها ، وأودعاها عندهما فى خزانة خاصة بها .

ولكن الله أراد أن يثأر للكندى منهما عند المتوكل ، وكان قد أراد حفر النهر المعروف بالجعفرى ، فاختارا له مهندساً قام بحفره ، ولكنه غلط فى بناء فوهته ، فبلغ هذا المتوكل ، فأحضرهما وأقسم أن يصلبهما على شاطىء هذا النهر إن كان ما بلغه عن الغلط حقاً ، وكان سند بن على مقدَّمًا فى حاشية المتوكل ، فتوسلا إليه أن ينقذهما مما وقعا فيه ، فأبى أن يجيبهما حتى يردَّا على الكندى كتبه ، فقام محمد بن موسى بحملها إليه ، وأخذ خطه باستيفائها كلها إلى سند بن على ، فذهب إلى المتوكل وأخبره بأنهما لم يغلطا ، وقد مات المتوكل بعد هذا بشهرين قبل أن يظهر ذلك الغلط .

وقد كان لهذا الاضطهاد أثره فى نفس الكندى ، فآثر العزلة عن الناس ، وأدركه اليأس من إصلاحهم ، حتى يروى عنه فى ذلك هذه الأبيات :

---

(١) سيأتى بيان هذا العصر فى الكلام على بدء نهضة أوربا .

أناف الذُّنابى علـــى الأرؤس — فغمِّض جفــونك أو نكِّس

وضائلْ سوادك واقبض يديك — وفى عُقر بيتك فاستـجلس

وعند مليكك فابـغِ العلُّ — وّ وبالوحدة اليوم فاستأنس

فإنَّ الغنَى فى قلــوب الرجال — وإن الــتعزُّزَ بالأنفـــس

وكائنٌ ترى من أخى عسرةٍ — غَنِيٌّ وذى ثروة مفـــلس

ومِن قائم شخصُه ميتَ — على أنه بعدِ لم يُرْمَـــس

فإنْ تُطعم النفسَ ما تشتهى — تقيك جميعَ الذى تحتسى

ولكن موقفه فى هذه الناحية من التجديد موقف سلبى ، لا يتعدى أنه عرف فيها الداء ، فلم يحاول أن يقوم فيه بإصلاح إيجابى ، ولم يقم بما يجب عليه من تنبيه الأمة إلى ذلك الفساد السياسى والاجتماعى ، بل عكف على فلسفته ينظر فيها ويبحث ، ويعتزل الناس حين أدركه اليأس منهم ، وهذا موقف عجز يؤخذ عليه ولا يحسب له ، وإن كان حاله فيه أخف من حال غيره ، ممن لم يدرك هذا الفساد ، وممن وقع فيه من عامة الناس وخاصتهم .



الكِنْدى الفيلسوف

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصبَّاح الكندى ، ولد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وتوفى سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م ، وقد بلغ سبعين سنة ، وهو ينتهى فى نسبه إلى الأشعث بن قيس الكندى ، وكان ملكًا على كندة كلـها فى الجاهلية ، ثم دان بالإسلام ، ووفد على النبى ﷺ .

ولا يذكره المتقدمون بين مجددى القرن الثالث الهجرى ، وهو جدير بالذكر بينهم ، لأنه أول من استحق من المسلمين لقب فيلسوف ، فتآخى فيه الإسلام والفلسفة ، وهذا حدث عظيم فى الإسلام ، وفتحٌ لباب عظيم من التجديد بين المسلمين ، وقد عِرف بعده كثير من المسلمين أن الإسلام لا يعادى الفلسفة ، فأقبلوا على علومها حتى نبغوا فيها ، وكان منهم فلاسفة نفخر الآن بهم .

وقد بدأ الكندى طلب العلم بالبصرة ، ثم انتقل إلى بغداد فأتم تعليمه فيها ، ودرس علوم الطب والفلك والموسيقى وغيرها من العلوم الفلسفية ، وكان شديد الشغف بالفلسفة اليونانية ، وقد درس معها الفلسفة الفارسية والهندية ، فاجتمع له بهذا من العلوم والمعارف ما لم يجتمع لأحد قبله فى الإسلام .

وهو أول من أخذ فى الإسلام بمذهب المشَّائين من فلاسفة اليونان ، وكان يحذو فى تأليفه حذو أرسطو رئيسهم ، وقد ترجم كثيراً من كتبه إلى العربية ، ودرس ما ترجم قبله منهـا ، وحاول شرحه وإصلاح ترجمته ، وله كتب ورسائل فى الفلسفة تبلغ نحـو خمسة عشر وثلاثمائة كتاب ورسالة .

وكان الكندى فيلسوفا رياضيا طبيعيا أكثر منه فيلسوفا إلهياً ، وقد بلغ من اهتمامه بالرياضيَّات أنه كان يرى أن الإنسان لا يكون فيلسوفا حتى يجيد درسها ، ولهذا كان يرسل العنان لخياله فيما يتعلق بالحروف والأعداد ، ويدخل الرياضيات أحياناً فى نظرياته الطبية ، كما فى نظريته المتعلقة بالأدوية المركبة ، فقد بنى فعل هذه الأدوية على تناسب هندسى ، كما بنى فعل الموسيقى عليه ، فجعل الأمر فى هذه الأدوية أمر تناسب هندسى فى الكيفيات المحسوسة ، وهـى الحار والبارد والرطب واليابس ، فإذا أريد أن يكـون الدواء حاراً بدرجة ١ فلا بد أن يكون له من الحرارة ضعف حرارة المزيج المعتدل ، وإذا أريد أن يكون

الرازى الفيلسوف

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، ولد سنة ٢٣٦ هـ - ٨٥٠ م ، وكان فى شبيبته يضرب بالعود ويغنى ، فلما التحى وجهه قال : « كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يُستظرف » فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة ، فقرأهما قراءة رجل متعقب على مؤلفيها ، فبلغ من معرفة غوابرها الغاية ، واعتقد الصحيح منها وعلل السقيم ، حتى كان إمام وقته فى علوم الفلسفة ، ولا سيما علم الطب ، فقد صار هو المشار إليه بين أطباء هذا العصر ، وقد دبّر بيمارستان الرّىّ ، ثم بيمارستان بغداد ، ولما عهد إليه فى اختيار أفضل مكان فى بغداد لإقامة بيمارستان عليه التجأ إلى طريقة لا ينكرها عليه أصحاب نظرية المكروب الحديثة ، فعلّق قطعة لحم فى كل ناحية من نواحى بغداد ، وأعلن أن أصلح ناحية يقام عليها البيمارستان هى الناحية التى يتأخر فيها فساد قطعة اللحم عن النواحى الأخرى .

وقد ألف الرازى كتبا كثيرة فى علوم الفلسفة ، وأشهرها كتبه فى علم الطب ، وكانت نزعة التجديد تغلب عليه فيها ، فلا يأخذ بالتقليد مذاهب الأطباء قبله ، بل يتناولها بالنقد الشديد ، ومن هذا ما ذكره فى مقدمة كتابه « شكوك الرازى على كلام جالينوس فاضل الأطباء فى الكتب التى نسبت إليه » فقد قال فيها : « إنى لأعلم أن كثيراً من الناس يستجهلوننى فى تأليف هذا الكتاب ، وكثيراً منهم يلوموننى على مناقضة رجل مثل جالينوس فى جلاله وتقدمه فى جميع أجزاء الفلسفة ومكانه منها ، وأجد أنا لذلك مضضا فى نفسى،إذ كنت قد بُليت بمقابلة من هو أعظم الخلق علىّ منّةً - يعنى جالينوس - وأكثرهم لى منفعة ، به اهتديت ، وأثره اقتفيت ، مما لا ينبغى أن يقابل به العبد سيده ، والتلميذ أستاذه ، وبودى يشهد الله أن هذه الشكوك التى أنا ذاكرها فى هذا الكتاب لم تكن فى كتب هذا الرجل الخيّر الفاضل العظيم قدره ، الجليل خطره ، لكن صناعة الفلسفة لا تحتمل التسليم للرؤساء والقبول منهم ، ولا مساهلتهم وترك الاستقصاء عليهم ، ولا الفيلسوف يحب ذلك من تلاميذه والمتعلمين منه ، كما قد ذكر ذلك جالينوس فى كتابه فى منافع الأعضاء حيث وبخ الذين يكلفون أتباعهم القبول منهم بلا برهان ، وأما من لامنى فى استخراج هذه الشكوك فإنى لا أعُده فيلسوفا ، إذ كان قد نبذ سنة الفلاسفة وراء ظهره ، وتمسك بسنة الرعاع من تقليد الرؤساء وترك الاعتراض عليهم » .

وهذه نزعة فى تجديد الفلسفة اليونانية وإصلاحها سبق بها الرازى فلاسفة الإسلام

جميعا ، وتدل على أن نزعة التجديد فى الفلسفة لم تتأخر كثيراً عن بدء الاشتغال بها فى الإسلام ، والله يعلم ماذا كان يُقَدَّر لها من النجاح لو لم تحارَب الفلسفة من بعض الجامدين من علماء المسلمين ، فقد قضوا عليها بعد الاشتغال بها بأزمان قصيرة ، ولم يتركوها تسير فى طريق التجديد حتى يتم إصلاحها على أيدى فلاسفة الإسلام ، ويكون لهم فضل السبق به على فلاسفة أوربا فى العصر الحديث .

ومن كتب الرازى فى الطب كتاب الحاوى ، وهو من الكتب الكبار : يدخل فى مقدار ثلاثين مجلدا ، وكان عمدة الأطباء فى النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف ، ومنها كتاب الجامع ، وهو أيضا من الكتب الكبار النافعة ، ومنها كتاب الأعصاب وهو أيضا كبير ، ومنها كتاب المنصورى ، وهو على صغره من الكتب المختارة ، جمع فيه بين العلم والعمل ، ويحتاج إليه كل أحد ، وقد صنفه لأبى صالح منصور بن نوح بن نصر بن إسماعيل بن أحمد بن سامان ، أحد الملوك السامانية ، وكان قد ألفه له فى حال صغره قبل أن يصير إليه الملك ، ثم ألَّف له بعد أن انتقل إلى بغداد كتابا فى إثبات صناعة الكيمياء وقصده به من بغداد فدفعه له ، فأعجبه وشكره عليه ، وحباه بألف دينار ، وقال له : أردت أن تخرج هذا الذى ذكرت فى الكتاب إلى الفعل ، فقال له الرازى : إن ذلك مما يحتاج إلى آلات وعقاقير صحيحة ، وإلى إحكام صنعة ذلك كله ، وكل ذلك كلفة ، فقال له : كل ما احتجت إليه أحضره لك كاملا حتى تخرج ما ضمنته كتابك إلى العمل ، ثم أحضر له تلك العقاقير والآلات فعجز عما أراده منه ، فقال له : قد كافأناك على قصدك وتعبك بالألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد هذا الكذب فى كتابك . ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى ينقطع ، ثم جهزه وسير به إلى بغداد ، فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء فى عينيه ، ولم يسمح بقدحهما حتى عمى ، وقال : « قد أبصرتُ من الدنيا حتى مللت منها ، فلا حاجة لى إلى عينين » وما كان يليق أن تكون هذه خاتمة ذلك الفيلسوف العظيم ، بل كان الواجب أن يغتفر له خطؤه فى نظير ما قدَّمه للعلم والفلسفة من ذلك التراث العظيم .

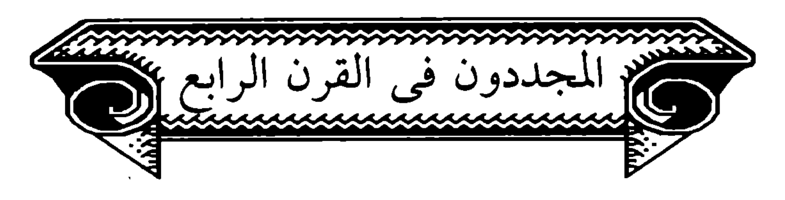
على أن الظاهر أن ذلك الملك لم يعرف قدر ذلك الكتاب ، وقد ظهر الآن فضل الرازى على علم الكيمياء ، وذكر علماء أوربا أنه ألف فيه كتابا سماه سر الأسرار - لعله هو ذلك الكتاب الذى مزقه ذلك الملك على رأس الرازى - سار فيه على منهج علمى تجريبى كالذى يسير عليه علماء عصرنا الحديث ، وقد ذكروا أيضا أن الرازى كان من أوائل من طبق علم الكيمياء على علم الطب « حتى إنه كان ينسب شفاء المريض إلى تفاعل كيميائى فى جسمه ، ويجعل مزاج الجسم تابعا لأخلاق النفس » ، حتى إنه أوجب على

الطبيب أن يوهم المريض الصحة ويرجّيه بها وإن لم يثق فيها ، وكل هذه نظريات جديدة فى علم الطب وعلم الكيمياء ، وابتكارات لها قيمتها فى هذين العلمين ، وما وقع للرازى من ذلك الإخفاق يقع الآن كثيرا مثله وأكثر منه لعلماء أوربا فى العصر الحديث ، فإنهم لم يصلوا إلى النجاح فى ابتكاراتهم العلمية إلا بعد تجارب كثيرة ، وكانوا قبل الوصول إلى النجاح يخفقون فى التجربة ، فلا يوقعهم الإخفاق فى اليأس ، بل يكررون التجربة مرة بعد مرة ، ولا تضن عليهم دولهم بأموالها فى هذه التجارب ، ولا يدركها اليأس عند إخفاقهم فتقطعها عنهم أو تعاقبهم بمثل ما عاقب به ذلك الملك الرازى ، بل تشجعهم على المضى فى البحث والتجارب ، وتعذرهم إذا أخطؤوا فيها ، لأنهم بشر يصيبون ويخطئون ، ولكنه استبداد أولئك الملوك وطغيانهم واستهانتهم بقدر أولئك العلماء العاملين ، وقد دفعوا ثمن ذلك غاليا حين تأخروا وتقدم غيرهم ، فضاعت ممالكهم وذهب عزهم ومجدهم ، وورثهم من عرف للعلم منزلته وللعلماء قدرهم .

وقد عرفت أوربا فى عصر النهضة للرازى فضله فترجمت كتبه فيها إلى اللاتينية ، وطبعتها عدة مرات ، وظلت جامعات الطب فيها تعتمد عليها زمنا طويلا ، وكانت كتبه مع كتب ابن سينا أساسا للتدريس فى جامعة لوفان إلى القرن السابع عشر الميلادى ، ولم تنل مؤلفات فلاسفة اليونان الطبية ما نالته كتبه من الحظوة إلا قليلا ، إذ اقتصر أمرها على بعض جوامع الكلم لبقراط ، وبعض الخلاصات لجالينوس .

وكانت وفاة الرازى سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م .





المجددون فى القرن الرابع

حال العالم فى القرن الرابع الهجرى

يمتد القرن الرابع الهجرى من سنة ٩١٣ م إلى سنة ١٠٠٩ م ، وفى هذا القرن أخذت الدولة العباسية فى الانحلال ، وزالت هيبتها من نفوس شعوبها بسبب تسلط العنصر التركى على ملوكها، حتى صاروا ألعوبة بيد أولئك الترك، إذ كان بيدهم توليتهم وعزلهم ، وكثيراً ما كانوا يصحبـون عزلهم بقتلهم ، وقد ظهر ضعف هذه الدولة فى عهـد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ - ٩٣٢ م) وصار ملوكها ينقصهم كثير من الصفات اللازمة للملك ، وكان الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ - ٩٤٠ م) آخر ملك منهم له شِعر مدوّن، وآخر ملك منهم انفرد بتدبير الجند، وآخر ملك منهم خطب على منبر يوم الجمعة .

فبدأ الشعب الفارسى بالثورة للتخلص من أولئك الأتراك ، واستعادة نفوذهم فى الدولة التى قامت على أكتافهم ، فقاموا بإنشاء دول لهم تدين ظاهراً بالطاعة للعباسيين ، وتعمل على التسلط عليهم بدل أولئك الأتراك .

ومن هذه الدول الفارسية الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٩٩ م) وهى من أسرة فارسية يرجع أصلها إلى بهرام جور ، وقد اعتنق جدهم سامان الإسلام فى آخر الدولة الأموية ، وكان له ابنٌ سماه أسدا ، وقد ظهر له ثلاثة أولاد فى عهد المأمون ، فولأَّهم بلاد ما وراء النهر ، وقد تمكنوا بعد ظهور ضعف الدولة العباسية من إنشاء دولة لهم بهذه البلاد ، ثم أخذوا يناهضون الدولة الصفارية بخراسان حتى قضوا عليها ، وظهرت لهم دولة قوية مكثت تلك المدة السابقة ، وكانت بخارى عاصمة دولتهم من أهم مراكز الثقافة فى هذا القرن ، وكان بها على عهد نوح بن نصر السامانى مكتبة لا يوجد لها نظير فى عصرها ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولا سمع باسمه ، فضلاً عن معرفته ، وهى المكتبة التى كان لها أكبر فضل فى تكوين فلسفة ابن سينا ، وكان للأدب والعلم والفلسفة سوق رائجة فى عهد هذه الدولة ، ولكنها كانت تُعنىَ بتشجيع الأدب الفارسى ، أما العلم والفلسفة من الفلك والطب وغيرهما فكان التأليف فيها بالعربية .

ومنها دولة بنى بويه ، وقد قامت سنة (٣١٠ هـ - ٩٣٢ م) ثم تفرعت إلى دول بعضها فى فارس ، وبعضها فى العراق والأهواز وكرمان ، وبعضها فى الرى وهمدان وإصبهان ، واستمرت إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وينتهى نسب ملوكها فيما يقال إلى بهرام جور أيضاً ، وقد شمل ملكهم هذه البلاد كلها ، وكانوا من شيعة العلويين المغالين فى التشيع ، وقد استولوا فى عهد معز الدولة بن بويه (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ = ٩٤٥ - ٩٦٦ م) على بغداد ، وكان هذا فى عهد المستكفى من بنى العباس ، وقد أراد معز الدولة إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، ولكنه رأى أن بقاء الخلافة العباسية الضعيفة فى مصلحة ملكه ، فاكتفى بعزل المستكفى وسَمْل عينيه وتولية المطيع مكانه سنة (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ = ٩٤٥ - ٩٧٣ م) فصار المطيع ألعوبة بيد بنى بويه كما كان من قبله ألعوبة بيد الأتراك ، وكذلك كان أمر الطائع بعده ، وقد عظم شأن بنى بويه فى عهد عضد الدولة ، إذ امتد سلطانه على بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخورستان والموصل وديار بكر وحرّان ومنبج ، ودان له أمراء بنى بويه وكثير من أمراء المسلمين ، وكان يُخطب له على المنابر بشاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وكان قصره مقصد رجال العلم والأدب والفلسفة ، وقد أنشأ ببغداد البيمارستان العضدى وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه ، حتى إنه لم يكن فى الدنيا مثل ترتيبه ، وكانت وفاته سنة ٣٧٢ هـ - ٩٨٢ م ، وفى عهد بهاء الدولة خلع الطائع وتولى بدله القادر (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) وقد بقى القادر فى الحكم نحو إحدى وأربعين سنة وكان على شىء من القـوة ، وإن استبد بهاء الدولة دونه بالسلطة ، وقد عمل على محو المذاهب المخالفة لأهل السنة من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم ، مع أن بهاء الدولة كان كسائر بنى بويه من الشيعة ، وكذلك عمل العرب على التخلص من أولئك الأتراك المستبدين بالدولة العباسية ، فقامت فى الموصل وحلب دولة الحمدانيين من بنى تغلب(٣١٧هـ - ٩٢٩ م) ومن أعظم ملوكها سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ = ٩٤٤ - ٩٦٦ م) وكانت له حروب كثيرة مع دولة الروم الشرقية ، وكان قصره مقصد العلماء والفلاسفة والشعراء والكتاب ، وقد قصده أبو نصر الفارابى الفيلسوف ، فلقى منه ما لقى من العطف ، وكانت دولة الحمدانيين تدين بالطاعة للدولة العباسية أيضاً ، ولكن ملوكها كانوا شيعيين مثل ملوك دولة بنى بويه .

وقد قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة (٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م) وتنسب إلى فاطمة ﵂ ، لأن ملوكها من أبناء على بن أبى طالب منهـا ، وقد زاحمت الدولة العباسية ، واستولت على مصر والشـام ، وقد أنكر بنـو العباس انتسـابَهم إلى على وفاطمة ، وأرجعوا نسبهم إلى رجل فارسى يقال له عبد الله بن ميمون القدَّاح الأهوازى ،

ولكن ابن خلدون كان يرى أن هذا من تعصبهم عليهم ، ويثبت نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقد وصلت هذه الدولة إلى أوج عظمتها فى هذا القرن ، وكان من أشهر ملوكها فيه العزيز والحاكم ، فنبغ فيه بينها كثير من العلماء والفلاسفة والكتّاب والشعراء ، وقد أنشأ الحاكم بالقاهرة سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م داراً أسماها دار الحكمة لدراسة العلوم الفلسفية على اختلاف أنواعها ، وألحق بها مكتبة جمعت من الكتب ما لم يجتمع مثله فى مكتبات العالم ، وسماها دار العلم ، ولكن الحاكم كان مع هذا مضطربا فى أموره ، وما يحفظه التاريخ من مساوئه أكثر مما يحفظه من محاسنه .

وكانت دولة بنى أمية بالأندلس لا تزال قائمة فى هذا القرن ، ومن أعظم ملوكها فيه عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثانى المستنصر ، وقد نهض الحكم بالعلم والفلسفة والأدب فى الأندلس نهضة عظيمة ، وأنشأ بقرطبة مكتبة تضارع مكتبات بغداد والقاهرة وغيرهما من مراكز الثقافة الإسلامية فى هذا القرن ، ولكن المنصور بن عامر تغلب فى آخر هذا القرن على هشام الثانى المؤيَّد ، وتولى تدبير الحكم دونه ، فتقرَّب إلى العامة وأهل السُّنة بحرق كتب الفلسفة .

وقد تمكن بعض أولئك الأتراك من إنشاء دول لهم فى هذا القرن ، ومنها دولة الإخْشيديين التى أنشأها بمصر بعد الدولة الطولونية الإخشيد محمد بن طُغْج من أولاد ملوك فرغانة ، وكان ملكها يلقب بالإخشيد ، وقد قامت سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م ، ومكثت إلى سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م ، وكانت تدين بالطاعة للدولة العباسية .

ومنها الدولة الغزنوية التى قامت على أنقاض الدولة السَّامَانية ببلاد ما وراء النهر سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م ، وكانت تدين بالطاعة للدولة العباسية أيضا ، ومن أعظم ملوكها فى هذا القرن محمود بن سُبُكْتُكِين ، وكانت له فتوحات عظيمة فى بلاد الهند والغور ، وقد كتب إليه القادر العباسى بمحاربة مخالفى أهل السُّنة من المعتزلة والفلاسفة والشيعة وغيرهم ، فاجتهد فى قتلهم واضطهادهم ، وأمر بلعنهم على المنابر وشرَّدهم من ديارهم ، وقد نال مَن كان بدولته مِن الأشعرية بعض ذلك الاضطهاد ، لأنهم عوملوا فى أول ظهورهم على أن مذهبهم مخالف لأهل السنة .

ولكن هذه الدول على ما كان بينها من الخلاف والتقاتل كانت أعظم دول الأرض فى هذا القرن ، فحفظت فيه للمسلمين ما كان لهم من السبق السياسى على دول العالم ، وكذلك حفظت فيه ما كان لهم من السبق العلمى ، لأن ملوك كل دولة منها كانوا ينافسون غيرهم فى النهوض بالعلم والأدب ، لتزدان به دولتهم ، وتسمو به مكانتها على غيرها من الدول .

أما أوربا فكانت مملكةُ الروم الشرقية فيها محكومة فى هذا القرن بالدولة المكدونية ، ولم يظهر فيها إلا ملكان كان لهما شىء من القوة ، ثم توالى عليها ملوك ضعاف سقطت فى عهدهم هذه الدولة ، وقامت دولة أخرى غيرها حكمت هذه المملكة ، وكذلك كان حال دولة الروم الغربية التى أنشأها شارلمان ، وقد سقطت سنة ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ م ، وقامت مكانها الدولة الكابيتانية ، وتنتسب إلى أول ملوكها هوك كابيت ، وقد قضى عهده فى تأسيس هذه الدولة ، وكذلك كان الحال فى إنجلترا فإن من حكم بعد ألفريد الكبير نهض بها مثله ، ولكن الدنيمركيين أغاروا عليها فى أواخر هذا القرن وأسقطوا دولتها .

ولم يكن حال العلم بأوربا فى هذا القرن بأحسن حظاً من حالها السياسى ، لأن القرن العاشر الميلادى يمتاز بما كان فيه من ركود الحركة العلمية فى أوربا .

ولكن المسلمين على ما كان لهم من السبق السياسى والعلمى فى القرن الرابع الهجرى كانت النكسات الرجعية السابقة لا تزال تعمل على إضعافهم ، فكانت دولهم تتطاحن على الملك ، وتسوق رعاياها سَوْق الأنعام فى هذا التطاحن ، فتقوم دولة وتسقط دولة بحكم القوة ، لا بإرادة الشعوب واختيارها ، فيمضى الزمن فى قيام دولةٌ وسقوط دولة ، ولا تستقر فيه دولة باختيار شعبها لها ، وقطع أطماع أصحاب القوة فيها ، ليستقر الأمن فى البلاد ، وتتوافر جهود أهلها على الأخذ بأسباب التقدم والنهوض .

وكذلك كانت فرقهم الدينية تتنازع وتتطاحن ، ولا سيما بعد أن ظهر للشيعة العلويَّة دولة بمصر والشام وبلاد المغرب ، فاستقر الأمر فى الدولة العباسية لأهل السنة ، وأخذت تضطهد فى بلادها كل الفرق المخالفة لهم ، وكان اضطهاد المخالفين لأهل السنة ظاهراً فى الدول التركية العباسية كالدولة الغزنوية ، أما الدول الفارسية العباسية فلم تكن مثلها فى ذلك ، بل كانت توالى المخالفين لأهل السنة أكثر منهم ، كالدولة السامانية التى كان كثير من وزرائها من المعتزلة ، وكذلك الدولة البويهية .

وبهذا كانت النكسات الرجعية فى هذا القرن أسوأ منها فى القرن السابق ؛ لأنه فيما يتعلق بالنكسة الرجعية السياسية كانت الدولة العباسية فى القرن السابق لا تزال على شىء من القوة ، وكانت الشعوب الإسلامية ملتفة حولها وإن كانت قد أصابها ما أصابها من تغلب العنصر التركى على ملوكها ، وتدخلهم فى توليتهم وعزلهم ، أما هذا القرن فقد ظهر ضعفها فيه بتغلب تلك الدول على بلادها ، حتى إن بعضها شاركها فى مقر سلطانها ، فأقام ملوكها ببغداد بجانب ملوك بنى العباس ، وكانوا هم الذين يولّونهم ويعزلونهم ، فانفصمت عرى الوحدة السياسية فى الدولة العباسية ، وازداد العداء بين هذه الدول الطامعة فى ملكها ، وانقسمت شعوبُها تبعًا لانقسام هذه الدول .

وكذلك فيما يتعلق بالنكسة الرجعية الدينية ؛ لأن التنازع بين الفرق الدينية لم يصل فى القرن السابق إلى حد التقاتل والتحارب ، وقد كان أشد ما فيه فتنةَ القول بخلق القرآن ، ولكن الأمر فيها لم يجاوز محاولة دولةٍ حمل رعيتها بوسائل الشدة على هذا القول ، أما هذا القرن فقد وصل التنازع فيه بين الفرق الدينية إلى حد التقاتل والتحارب ، كما حصل بين أهل السنة والشيعة ، لأنه صار فيه لكل منهما دولتان تتنازعان على الدين والحكم ، وهما دولة العباسيين التى أخلصت فى هذا القرن لمذهب أهل السنة ، وتناست ماضيها القائم على أساس التشيع ، ودولة الفاطميين التى قامت على أساس التشيع الْعَلوى ، فرجع بها التشيع إلى أصله الأول ، ولم يجد العباسيون إلا أن يحتضنوا بإزائه مذهب أهل السنة ؛ فدخلت السياسة بينهما فى ذلك الخلاف الذى كان يلبس ثوب الدين ، وتفاقم الأمر بها فيه إلى حد التقاتل .

وكذلك كانت النكسة الرجعية الاجتماعية أسوأ أثراً فى هذا القرن منها فى القرن السابق ، لأن التنازع بين العناصر فى القرن السابق كان على الاستئثار بالنفوذ فى الدولة العباسية ، أما هذا القرن فقد صار لكل عنصر فيه دولة خاصة به ، فهذه دولة فارسية لها صبغتها الفارسية ، وهذه دولة تركية لها صبغتها التركية ، وهذه دولة عربية لها صبغتها العربية ، فوصل الانقسام بين هذه العناصر إلى غايته ، وصار كل عنصر منها يهمه أمر دولته أكثر مما يهمه أمر دينه ، فصارت دولها تتقاتل على الملك ، وتنسى أنه يجمعها دين واحد يحرم التقاتل والتحارب بينها ، وقد ضاعت فى هذا فكرة الدولة الواحدة للمسلمين جميعا ، وحل محلها تلك الدول القومية المتعددة المتباغضة ، والإسلام لا ينكر تعدد الدول القومية فيه ، وإنما ينكر أن يكون بين دوله أو أفراده مثل هذا التباغض .

ويجب أن يضاف إلى هذه النكسات الرجعية نكسة التصوف التى استمرت أيضا فى هذا القرن ، وزادت فيه سوءًا وفسادًا ، وأخذت تجذب إليها عامة المسلمين وخاصتهم ، وقد كان أبو القاسم الجنيد فى القرن السابق يعلم الناس أصل التصوف سراً فى سراديب فى بغداد ، فصار أبو بكر جعفر بن يونس الشبلى المتوفى سنة - ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م - يعلم الناس مسائل التصوف فى بغداد جهرًا ، وقد كان الشبلى متغاليا فى تصوفه ، ولم يكن معتدلا فيه مثل الجنيد ، ومن مغالاته فيه أنه كان فى ابتداء أمره ينزل كل يوم سَرَبا[1] ويحمل معه حزمة من القضبان ، فكان إذا دخل قلبه غفلة ضرب نفسه بتلك الخُشب حتى يكسرها على نفسه ، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسى ، وكان يضرب بيديه ورجليه على الحائط ، وقد لبس يوم عيد ثوبين جديدين ، فرأى الناس يسلم بعضهم على بعض

(١) السرب : الحفير تحت الأرض .

لأجل ثيابهم ، فطرح ثيابه فى تَنُّور ، فقيل له : لم فعلت ذلك ؟ . . . فقال : أردت أن أحرق ما يعبد هؤلاء ، ثم لبس ثيابا رزقا وسودا ، وكان بعد هذا إذا أقبل العيد مزق جميع ملبوسه ، فقيل له : مزقت جميع ملبوسك والعيد قد أقبل ، والناس يتزينون وأنت هكـذا ؟! فقال : زينة الفقير فقره وصبره على فقره . وكان إذا أعجبه صوف أو قلنسوة أو عمامة لفها فأدخلها النار فأحرقها ، ويقول : كل شىء مالت إليه النفس دون الله تعالى وجب إتلافه ، فقيل له : لم لا تتصدق به ؟ فقال : صورته باقية ، فربما تتبعه النفس إذا رأته على الغير ، فكان الإحراق أسرع فى إتلافه مبادرةً للإقبال على الله عز وجل . وقد صلى مرة خلف إمام فقرأ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (١) فزعق الشبلى زعقةً كادت روحه تخرج ، وقال : هذا خطابه لأحبابه ، فكيف خطابه لأمثالنا ؟ : . . . وقد أخَّر مرة العصر حتى دنت الشمس إلى الغروب ، فقام وصلى وأنشد مداعبا :

نسيتُ اليومَ مِن عشقى صلاتى ... فلا أدرى عَشَـائى من غدائى

ثم ختم هذه الدواهى التى وقع فيها عند مغالاته فى التصوف بالداهية الدهياء التى وقع فيها الحلاج قبله ، فدخل فى دعوى الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وجعل إمامه فى ذلك مجنون بنى عامر مع محبوبته ليلى ، وهذا حين حكى أنه قيل لمجنون بنى عامر : أتحب ليلى ؟ . . . فقال : لا ، فقيل له : ولِمَ ؟ . . . فقال : لأن المحبـة ذريعةٌ للوصلة ، وقد سقطتْ الذريعة ، فليلى أنا ، وأنا ليلى . ولا يريد الشبلى من هذه الحكاية إلا تمثيل حاله مع معشوقه من الذات العلية .

ولم يكن الشبلى وحده هو الذى وقع فى هذه الدعوى ، وإنما كان التصوف من نهاية القرن الثالث وبداية هذا القرن مصطبغا بصبغة وحدة الوجود ، ثم تغلغلت فيه بعد هذا القرن حتى صارت أعظم مقوماته ، كما سيأتى بيان هذا فى القرون الآتية ، ولا غرابة فى أن يكون هذا حال التصوف فى هذا القرن ، فقد سئل عبد الله بن محمد المرتعش المتوفى سنة ٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م عن تعريفه فقال : « التصوف إشكال وتلبيس وكتمان » وإنما يصل المتصوف إلى حال الإشكال والتلبيس والكتمان إذا وصل إلى تلك الدعاوى الغريبة ، فلا يظهر بها المتصوفة إلا فى ثوب التلبيس ؛ ليمكنهم إنكارها أو تأويلها إذا أخذوا بها ، وقد كثر الشطح بهذه الدعاوى ونحوها بين صوفية بغداد والعراق ، ولم يكن هذا الشطح إلا دعوى أيضا من تلك الدعاوى ، وتلبيسا صوفيا يركنون إليه فى الاعتذار عما يشطحون به من تلك الأحوال الغريبة ، وهم لم يقعوا فيها إلا حينما غلب الجهل فيهم على العلم ،

---

(١) الإسراء : آية ٨٦ .

وصار العلم عندهم شيئا لا يعتدُّ به ، حتى قال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد السلمى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م : كل حال يكون نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه، وقد بلغ من أمرهم فى مجافاة العلم أنه نشأت فرقة منهم ببلاد فارس فى هذا القرن كانت ترفض التطبُّب بالدواء أيّاً كان ، وكان على رأسها شيخ يدعى أبا الخير بن بابا ، كان طبيبا مسيحيا فأسلم ، ثم تصوف وزهد فى الطب والدواء ، فإذا أتى إليه مريض نصحه بالصبر على المرض ، لأن التطبب فى زعمه ينافى التوكل ، وقد اتخذوا هذا التوكل ذريعة للعيش عن طريق الصدقات التى كان الناس يتصدقون بها عليهم ، حتى كان منهم من لم يتعفف عن سؤال الناس ، ومنهم من عد السؤال من أصول التصوف ، مثل أبى عبد الله محمد بن منازل النيسابورى المتوفى سنة ٣٢٩ هـ - ٩٤٠ م ، وكان شيخ الملامتية بنيسابور ، وقد قال فى ذلك : « لا خير فى فقير لم يذق ذل المكاسب ، وذل الردّ » وكان بعضهم يطعم الفقراء الحلوى ، فاتخذ مرة أحمالا من السكر الأبيض ، ودعا جماعة ممن يصنع الحلوى فعملوا من ذلك السكر جداراً وعليه شرفات ومحاريب على أعمدة كلها من السكر ، ثم دعا الصوفية فهدموها وكسروها وانتهبوها وهو يبتسم .

ولما بلغ التصوف فى هذا القرن ذلك الرواج ، وصار شيئا مألوفا عند الناس ، ظهرت فيه مؤلفات كثيرة تشرح أصوله ، وتبين أحواله ومقاماته ، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب - قوت القلوب - لأبى طالب المكى المتوفى سنة ٣٨١ هـ = ٩٩٦ م ، ثم بلغ من رواج التصوف فى هذا القرن أن صارت له دولة فيها أقطاب ونقباء ونجباء وأبدال وغيرهم ، وقد ذكر أبو بكر بن محمد الكتانى المتوفى سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٣م عددهم ووظائفهم فقال : النقباء ثلثمائة ، والنجباء سبعون ، والأبدال أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمد أربعة ، والغوث واحد ، فمسكن النقباء المغرب ، والنجباء مصر ، والأبدال الشام ، والأخيار سيّاحون فى الأرض ، والعمد فى زوايا الأرض ، والغوث مسكنهُ بمكة ، فإذا عرضت حاجة من أمر العامة ابتهل فيهـا النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد ثم الغوث ، فلا يُتم الغوث مسألته حتى تجاب دعوته . وقد نظموا فى هذا القرن وساطتهم بين الناس والرب بهذه الحكومة التى اخترعوها ،ورتبوا وظائفها وأمكنتها ، وهى مثل حكومة البابا فى روما ، لأنها تقوم مثلها على دعوى الوساطة بين العبد والرب ، ولا فرق بينهما إلا أن حكومة البابا حكومة ظاهرية ، وحكومة أولئك المتصوفة حكومة باطنية .

وبهذا كان لذلك التصوف سلطته وسطوته فى هذا القرن ، فظهرت دعوته بين الناس بالدعاة إليها والمؤلفين فيها ، ولم يمتحنوا فيها كما امتحنوا فى القرن السابق ، وقد كان هناك من أنكر عليهم فيه ، ولكنه كان إنكاراً ضعيفاً هزيلا ، ومن ذلك أن ابن بشّار كان ينهى

الناس عن الاجتماع بالشبلى والاستماع لكلامه ، ثم جاءه يوماً يمتحنه ، فقال له : كم فى خمس من الإبل ؟ - يعنى زكاتها - فسكت الشبلى ، فأكثر ابن بشار عليه ، فقال له الشبلى : فى واجب الشرع شاة ، وفيما يلزم أمثالنا كلها ، فقال له ابن بشار : هل لك فى ذلك إمام ؟ ... قال : نعم ، فقال له : من ؟ ، قال : أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث أخرج ماله كله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفتَ لعيالك ؟ ... قال : الله ورسوله ، فرجع ابن بشار ولم ينه بعد ذلك أحداً عن الاجتماع بالشبلى .

ومن أنكر عليهم أبو الخير الأقطع التِّيناتى المتوفى سنة نيف وأربعين وثلثمائة ، وقد نشأ بالمغرب ثم سكن مصر ومات بها ، ويقال : إن السباع والهوام كانت تأنس به ، وقد دخل عليه جماعة من البغداديين يتكلمون بشطحهم ، فضاق صدره من كلامهم ، فخرج عنهم ، فجاء السبع فدخل البيت فانضم بعضهم إلى البعض ، وسكتوا وتغيرت أحوالهم وألوانهم ، وخافوا منه خوفاً شديداً ، فدخل أبو الخير عليهم وقال : يا إخوانى ، أين تلك الدعاوى ؟ ثم طرد السبعَ عنهم ، ولا شك أن أبا الخير كان فى هذا أحسن حالا منهم ، ولكنه كان واقعاً فى دعاوى أخرى من دعاوى الصوفية فى هذا القرن .

ومن أنكر عليهم أبو العباس أحمد بن محمد الدِّينورى ، وكان من الملامتية ، مات بعد الأربعين وثلثمائة ، وكان يقول عن صوفية زمانه : « نقضوا أركان التصوف ، وهدموا سبيلها ، وغيَّروا معانيها بأسماء أحدثوها ، سموا الطمع زيادة ، وسوء الأدب إخلاصا ، والخروج عن الحق شطحا ، والتلذذ بالمذموم طيبة ، واتباع الهوى ابتلاء ، والرجوع إلى الدنيا وصولا ، وسوء الخلق صولةً ، والبخل حلاوةً ، والسؤال عملا ، وبذاءة اللسان سلامة ، وما كان هذا طريقَ القوم ، إنما درجوا على الحياء والأدب والزهد فى الحظوظ » .

ولكن أولئك الملامتية لم يكونوا فى هذا القرن أحسن حالا من غيرهم ، لأنهم غيروا فى التقاليد التى قام عليها مذهبهم ، إذ كان فى أصله مذهبا سلبيا صرفا يدعو إلى إخفاء الحسنات ، وقد سبق بيان ما على هذا من المؤاخذة فى القرن السابق ، فغالى أتباعه فى هذا القرن ، مثل محمد بن أحمد بن حمدون الفرّاء المتوفى سنة ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ؛ وكذلك غيره منهم ، فإنهم اتجهوا به اتجاها إيجابيا ، فطالبوا مريدهم بتعمُّد المخالفة والظهور فى الناس بالمظاهر التى تثير لومهم ، وتجلب عليهم سخطهم وازدراءهم ، وصار هذا عند الملامتية طريقا من طرق تقويم النفس وتأديبها ، وما أسوأ هذا التأديب الذى يأتى من ارتكاب ما نهى الله عنه .

وبهذا كان المسلمون فى هذا القرن كالقرن السابق فى حاجة إلى مجدد يصلح تلك

النكسات الرجعية فيه ، بل كانت الحاجة إليه فى هذا القرن أشد منها فى القرن السابق ، لأن هذه النكسات كانت فى هذا القرن أسوأ أثراً ، وأشد ضرراً .

وقد ذكر المتقدمون من مجددى هذا القرن « القادر » من أولى الأمر ، والأسفراييني الشافعى والخوارزمى الحنفى وعبد الوهاب المالكى والحسين الحنبلى من الفقهاء ، والباقلانى وابن فورك من المتكلمين ، والحاكم من المحدِّثين ، والثورى من الزهاد[1] ومنهم من يذكر أبا الطيب سهل بن محمد الصعلوكى ، وقد رجَّح ابن عساكر عليه فى كتاب « تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى »[2] أبا بكر محمد بن الطيِّب الباقلانى ، لأنه أشهر منه مكانا ، وأعلى فى رتب القوم شأنا ، وذكره أكبر من أن ينكر ، وقدْره أظهر من أن يُستر ، وتصانيفه أشهر من أن تشهر .

وقد ذكر السيد رشيد رضا أبا الحسن الأشعرى فى مجددى القرن الرابع ، وخالف بهذا مَن ذكره فى مجددى القرن الثالث ، وقد رجَّحت هذا فيما سبق فى مجددى القرن الثالث ، وإذا ذكر الأشعرى فى القرن الرابع لم يصح أن يذكر معه الباقلانى ولا ابن فورَك ، لأنهما كانا مقلدين له فى مذهبه الكلامى ، وليس لهما فيه إلا حسن الدفاع عنه ، وإلا السعى فى نشره ، وكذلك أولئك الفقهاء الأربعة من الأسفراييني ومَن ذكر معه ، لما سبق عن ابن عساكر فى ترجيح الأشعرى على ابن سُرَيج الشافعى فى الكلام على مجددى القرن الثالث ، فقد ذكر أن ابن سريج لم يكن إلا فقيها مضطلعا بعلم أصول الفقه وفروعه ، وهذا صريح فى أن الاشتهار بعلم الفقه لا يكفى فى استحقاق لقب التجديد ، لا سيما من مقلِّد مثل ابن سريج والأسفراييني وغيرهما ، ولا يمتاز عن أولئك الفقهاء مَن ذكر معهم من أولى الأمر والمحدِّثين والزهاد .

فلا يبقى ممن سبق ذكره من المجددين فى القرن الرابع الهجرى مستحقا للدراسة إلا أبو الحسن الأشعرى ، ويجب أن يضاف إليه بعض الفلاسفة الذين كانت لهم محاولات تجديدية فى هذا القرن ، وإن أهمل المتقدمون ذكرهم ، مع أنهم أجدر بالذكر من غيرهم ، وسنذكر منهم الفارابى ، وأصحاب رسائل إخوان الصفا .



---

(١) الثورى المعروف : هو : سفيان الثورى ، ولكنه من القرن الثانى .

(٢) ص ٥٤ .

أبو الحسن الأشعرى

هو أبو الحسن علىُّ بن إسماعيل الأشعرىُّ ، ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى صاحب النبى ﷺ ، ولد سنة سبعين وقيل ستين ومائتين من الهجرة بالبصرة ، ثم سكن بغداد إلى أن توفى بها سنة نيف وثلاثين وثلثمائة من الهجرة . وكان يجلس أيام الجمع فى حلقة أبى إسحاق المرْوزى الشافعى فى جامع المنصور ببغداد ، وقد لزم المعتزلةَ فى علم الكلام يأخذ عنهم نحو أربعين سنة ، إلى أن تبحر فى مذهب الاعتزال ، ولكنه لم يكن يتعصب له كغيره من المعتزلة ، بل كان يتحرَّى فيه الحق والصواب ، وكان كثيراً ما يورد على أساتذته منهم الأسئلة فى الدرس فلا يجد منهم جوابا شافيا ، فيتحير فى أمره ، ويعتريه الشك فى صحة مذهبه .

ثم أراد أن يقطع هذه الحيرة ، فغاب عن الناس فى بيته خمسة عشر يوما ، وخرج بعد هذا إلى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ، فصعد المنبر وقال : « معاشر الناس ، إنما تغيبتُ عنكم فى هذه المدة لأنى نظرت فتكافأتْ عندى الأدلة ، ولم يترجح عندى حقٌّ على باطل ، ولا باطلٌ على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى ، فهدانى إلى ما أودعته فى كتبى هذه وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعتُ من ثوبى هذا » وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ، ودفع الكتب إلى الناس ، فمنها كتب اللُّمَع ، وكتاب أظهر فيه عَوار المعتزلة ، سمّاه « كشف الأسرار وهتك الأستار » ، وغير هذا من كتبه : والظاهر أنه مضت عليه مدة طويلة ألَّف فيها هذه الكتب قبل هذه المدة التى غاب فيها عن الناس ، وفى رواية أنه رقى كرسيا فى الجامع ونادى بأعلى صوته : « مَن عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرِّفه بنفسى : أنا فلان ابن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم » .

وكان فى أهل السنة قبل الأشعرى جمود شديد ، كانوا يرون فيه أن علم الكلام بدعة مذمومة ، وأنه لا يصح الاشتغال بالرد على الزنادقة ونحوهم ؛ لأن الرد عليهم إذاعة لشبههم بين الناس ، وكانوا يرون أنه يجب الوقوف عند دليل النقل ، وأنه لا يصح التأويل فيه ، ولا العدول عنه إلى الأدلة العقلية المنطقية، فلم يشاركهم الأشعرى فى هذا الجمود ، ورأى أنه يجب مع الأخذ بعقائد أهل السنة أن يستعان فى إثباتها بأساليب علم الكلام ،

وأن تقام عليها الأدلة العقلية المنطقية مع الأدلة النقلية ، وكذلك رأى أنه لا يصح أن يحجم عن الرد عن المخالف بزعم أن فيه إذاعة لشبهته ، وقد ألجأه هذا إلى ارتكاب بعض التأويل فى دليل النقل ، ولكنه كان يقتصد فيه ولا يسرف كالمعتزلة .

فجاء مذهب الأشعرى فى ذلك مذهباً جديداً وسطاً بين إفراط المعتزلة وتفريط القدامى من أهل السنة ، فنفر منه الفريقان ، بل كان القدامى من أهل السنة وأشباههم فى الجمود أشد عليه من المعتزلة ، ولكنه انتصر أخيراً على الفريقين ، حتى صار مذهبه مذهب جمهور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يبق لمذهب القدامى من أهل السنة أثر إلا بين بعض المتشددين من الحنابلة،ولم يبق لمذهب المعتزلة أثر إلا بين بعض فرق الشيعة .

وهذا هو مبلغ تجديد الأشعرى بين المسلمين ، لم يتعدَّ فيه دائرة الفِرَق الدينية ، ولم يحاول فيه إصلاحا فيما يتعلق بالنكسة الرجعية السياسية والاجتماعية ، ومع هذا لم يصل إصلاحه فى تلك الناحية إلى الإصلاح المطلوب ، لأنه كان شديداً على مخالفيه من المعتزلة وغيرهم ، فلم يحسم إصلاحه النزاع بين الفرق الدينية ولم يحصل به التسامح بينهما بدل التخاصم ، وكيف يحصل هذا به وهو يعلن فى رجوعه عن الاعتزال أنه تائب مقلع عنه ، أى أنه كان آثما عاصيا به وحينئذ يكون المعتزلة فى نظره آثمين عاصين ، بل جاء فى بعض الروايات عنه أنه حين صعد المنبر قطع شريطا كان قد شده على وسطه ثم قال : « اشهدوا علىَّ أنى كنت على غير دين الإسلام ، وأنى قد أسلمت الساعة ، وأنى تائب مما كنت فيه من القول بالاعتزال » وحينئذ يكون المعتزلة فى نظره كُفَّارا لا مسلمين مذنبين ، ولكن الذى استقر بين الأشعرية أنهم فساق مسلمون .

وكان الأجدر بالأشعرى ألاَّ يتنكرَ لمذهب مكث معتقداً صوابه أربعين سنة كل هذا التنكر ، لأنه بلا شك كان مخلصا فى اعتقاده له كل هذه المدة ، ولم يكن فيه من المعاندين الذين يعرفون الخطأ ويصرّون عليه ، بل كان له وجوه من النظر يعتمد عليها فيه ، ويرى معها أنه لا ينافى الإسلام إن لم يكن هو الإسلام ، ومثل هذا كان شأن غيره من المعتزلة ، فلا يصح أن يُنفى الإسلام عنهم أو يقال : إنهم فُسَّاقٌ مسلمون ، وإنما هم مجتهدون يُثابون على صوابهم ، ويُعذرون فى خطئهم ، وقد انتفع الأشعرى بهم كثيراً فى مذهبه ، لأن ما يمتاز به من المرونة على مذهب القدامى من أهل السنة إنما استفاده من أساتذته المعتزلة ، ولولا هذه المرونة لم يكن هناك قيمة لمذهبه ، فلم يكن من اللائق أن يبالغ فى خصومتهم بعد مخالفته لهم ، لأنهم كانوا أساتذته ، وللأستاذ حقه على تلميذه ، ولا يضيِّع هذا الحق مخالفتُه فى الرأى له .

* * *

المعلم الثانى : الفارابى

هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابىُّ ، وُلد بفاراب فى أطراف فارس مما يلى بلاد الترك حوالى سنة ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م ، فنشأ بها وتعلّم التركية والفارسية والعربية واليونانية والسريانية ، ثم انتقل إلى بغداد فدرس علوم الفلسفة على أبى بشر متّى بن يونس ، وكان يمتاز على غيره بحسن العبارة ، ووضوح الفكرة ، والخلوص من التعقيد المؤدى إلى الغموض ، فتأثر به الفارابى فى تأليفه ، ولهذا يمتاز على تأليف الكندى بجزالة الألفاظ ، ووضوح المعانى ، وقد رحل من بغداد إلى حرّان ، فتلقى على يوحنّا بن حيلان طرفا من المنطق ، ثم رجع إلى بغداد فأعاد بنفسه دراسة علوم الفلسفة ، وتناول كتب أرسطو بالدرس ، حتى نبغ فى استخراج معانيها والوقوف على أغراضها ، ولم يصل إلى هذا إلا بعد دراسة طويلة فيها ، وتكرار لقراءتها ، حتى يقال إنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائة مرة ، ونقل عنه أنه قال : « قرأتُ السماع الطبيعى لأرسطو الحكيم أربعين مرة ، وأرى أنى محتاج إلى معاودة قراءته »[1] .

ثم رحل الفارابى فى آخر حياته إلى حلب قاصداً سيف الدولة الحمدانى ، فدخل عليه فى مجلسه وهو حافل بالعلماء والشعراء والأدباء ، فأخذ يكلمهم فى كل فن حتى سكتوا عن الكلام ، وأخذوا يكتبون ما يقول ، فعظم فى عين سيف الدولة ، وأراد أن يجرى عليه رزقا كبيرا من بيت المال ، فاكتفى منه بأربعة دراهم فى اليوم ، لأنه كان يؤثر عيشة التقشف والزهد ، ثم قصد إلى دمشق فأقام بها مكتفيا بذلك الراتب ، وكان لا يُرى فيها إلا عند مجتمَع ماء أو مشتبك رياض، فيتناوبه فيها المشتغلون عليه ، ويؤلف فيها كتبه ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م .

والفارابى صاحب الفضل الأول على الفلسفة الإسلامية ، لأنه هو الذى وضع أساسها ، ورتب مسائلها ، ولهذا يُعَدُّ أول فلاسفة الإسلام على الحقيقة ، وكان يلقّب المعلم الثانى ، كما كان أرسطو يلقب المعلم الأول ، لأنه كان فى الإسلام يشبه أرسطو فى اليونان ، وذلك أن أرسطو هو الذى جمع ما تفرق من مسائل المنطق وهذبه ، وجعله أول العلوم الفلسفية وفاتحتها ، ثم قسّمها إلى أقسامها المعروفة ، وقد صنع الفارابى مثل هذا فى

---

(١) يبحث كتاب السماع الطبيعى فى الموجودات الطبيعية بالإجمال ، وسمى بهذا لأن أرسطو ألقاه دروسا فدونه تلاميذه ، أو لأنه يتعذر فهمه من غير الاستماع إلى معلم ، ويسمى أيضا سمع الكيان .

الفلسفة الإسلامية ، فجمع ما ترجم قبله إلى العربية من علوم الفلسفة وهذبه ورتبه ، وبهذا كان له فضلٌ فى هذا التجديد الفلسفى فى هذا القرن ، وإن كان لم يأت بجديد يُذكر فى علوم الفلسفة ، ولكنه كان ينظر فيها نظر المجتهد ، ويدعو إلى الحقيقة ولو خالفت مذهب أرسطو .

وكان الفارابى أول من عُنِىَ من فلاسفة المسلمين بإصلاح طريقة الحكم فى كتابه - آراء أهل المدينة الفاضلة - فدخل بهذا فيمن عنى بإصلاح الحكم فى الإسلام ، وكان له به حظ من محاولة التجديد فى هذا القرن، وإن كان قد تأثر فى كتابه بجمهورية أفلاطون ، فأتى مجافيا للبيئة الإسلامية ، ولم يكن له أثر بين المسلمين .

وقد ذكر الفارابى فى هذا الكتاب أن المثل الأعلى للحكومة هو الذى يكون الحاكم فيه فيلسوفا ، وأن الناس اجتمعوا بالضرورة ، وهم الذين يضعون أنفسهم تحت إرادة فرد يمثل الحكومة ، وأفضل الحكومات ما كان متصلا بهيئة دينية ، لتكون الحكومة مسيطرة على الأمور الدينية والدنيوية للأمة ، والمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تُنال بها السعادة فى الحقيقة هى المدينة الفاضلة ، والأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هى الأمة الفاضلة ، والمدينة الفاضلة تشبه البدن التامّ الصحيح الذى تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياته ، وعلى حفظها عليه ، والبدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ، فمنها عضو واحد رئيس وهو القلب ، ومنها أعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس ، ومنها أعضاء أخرى فيها قوى تفعل فعلها على حسب أغراض هذه الأعضاء التى ليس بينها وبين العضو الرئيس واسطة ، وهذه هى الرتبة الثانية فى الأعضاء ، ومنها أعضاء أخرى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه الأعضاء التى فى المرتبة الثانية ، وهكذا إلى أن ينتهى إلى أعضاء تكون خادمة غير مخدومة ، وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرات متفاضلة الهيئات ، ففيها إنسان رئيس ، وقوم تقرب مراتبهم من الرئيس يفعلون ما هو مقصوده ، وهم أهل المرتبة الأولى ، ودونهم أهل المرتبة الثانية ، وهكذا إلى أن تنتهى إلى قوم يَخدمُون ولا يُخدَمون ، ويكونون فى أدنى المراتب ، وهم الأسفلون .

والإسلام لا تهمه هذه الفلسفة فى إثبات الحاجة إلى رئيس للمدينة الفاضلة ، ولا يلزم فيه أن يكون رئيسها فيلسوفًا أو أفضل إنسان فيها ، ولا يلزم فيه تقسيم أهلها إلى هذه المراتب الآلية ، بل رئيس المدينة فيه من يرضاه أهلها وإن لم يكن فيلسوفا ، وإن كان يوجد فيها من هو أفضل منه ؛ لأن المفضول قد يصلح للرياسة دون الفاضل ، ولكل فرد

من المدينة فيه أن يفعل ما يناسبه ، ولا يصح أن يلزم مع الفارق ، على أن الإسلام لا يقرّ تقسيم الناس إلى طبقات كطبقات تلك المدينة الفاضلة ، وإنما الناس فيه سواسية كأسنان المشط .

وبهذا يكون للفارابى تجديدان فى هذا القرن : هذا التجديد فى إصلاح الحكم على حسب تأثره بالفلسفة ، والتجديد السابق فى تهذيب ما ترجم قبله من علوم الفلسفة وترتيبه ، ويقال إن الذى طلب هذا منه منصور بن نوح السامانى ، وإنه وضع فيه كتابا سماه « التعليم الثانى » وقد ظل مسودًّا بخط الفارابى فى خزانة منصور بن نوح حتى اطلع عليه ابن سينا ، فلخّص منه كتاب الشفاء .

وقد وضع الفارابى أيضًا كتابا فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، وهو كتاب عظيم لم يسبق إليه ، ولم يذهب أحد مذهبه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به ، وتقديم النظر فيه ، وهذا تجديد آخر يذكر أيضا للفارابى .

على أن المهم فى باب التجديد ما سبق من أنه لم يكن ينظر فى الفلسفة نظر المقلد ، بل كان ينظر فيها نظر المجتهد ، وأنه كان يدعو إلى الحقيقة ولو خالفت مذهب أرسطو ، وهو أعظم فلاسفة اليونان جميعا ، لأنه كان بهذا أول من فتح باب الاجتهاد فى الفلسفة ، ومهّد لمن بعده طريق الابتكار فيها ، وأشعره بإمكان التجديد فى علومها .



إخوان الصفا

ظهرت فى القرن الرابع الهجرى رسائل فلسفية باسم « إخوان الصفا وخلاّن الوفا » وهى دائرة معارف فلسفية تجمع ما وصل إليه المسلمون إلى هذا القرن فى الفلسفة على اختلاف أقسامها من إلهيات إلى طبيعيات إلى رياضيات إلى عمليات ، وكان ظهورها فى العراق معسكر أهل السُّنة ، فدعا هذا إلى أن تظهر من غير أن يكون عليها اسم من ألَّفها ، لأن العالم الإسلامى انقسم فى هذا القرن إلى معسكرين : معسكر أهل السُّنة وعلى رأسه العباسيون فى العراق وما إليه من بعض بلاد الشرق ، ومعسكر الشيعة وعلى رأسه الفاطميون فى مصر والشام وبلاد المغرب ، وكان معسكر أهل السنة يحارب الفلسفة وأهلهـا ، وكان معسكر الشيعة يناصر الفلسفة ويحاول التقريب بينها وبين الإسلام بالتأويل ونحوه ، وكان لكلٍ من المعسكرين دعاة يعملون سراً فى المعسكر الآخر ، ولا سيَّما معسكر الفاطميين ، فقد كان له كثير من الدعاة فى بلاد العباسيين ، فدعاهم هذا إلى التشديد على الفلسفة وأهلها ، لأنهم كانوا يظنون أن كل من يظهر بهـا من دعاة الفاطميين ·

وقد اختُلف فيمن ألّف هذه الرسائل ، فقيل إنها من وضع بعض أئمة أهل البيت ، واختلف من ذهب إلى هذا فى اسمه اختلافًا لا يثبت على حقيقة ، وقيل إنها من وضع بعض متكلمى المعتزلة ، وقيل إنها من وضع جماعة ألّفت بالبصرة باسم « إخوان الصفا وخلاّن الوفا » وعلى رأسهم زيد بن رفاعة ، وكان له ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسَّع فى قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصُّر فى الآراء والديانات ، وتصرُّف فى كل فن ، فصادف بالبصرة جماعة على شكله ألّف منهم تلك الجماعة ، منهم أبو سليمان محمد بن نصر البُستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد النهرجورى ، وغيرهم ، وكان لجماعتهم فروع ببغداد وغيرها من المدن ·

وإنما دخلت هذه الجماعة فى مجددى هذا القرن لأنها كانت لهـا غاية تجديدية تعمل لها ، فإنها على ما جاء فى تلك الرسائل رأت الشريعة قد دُنِّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، وأنه لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، ومتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ·

وقد رأت هذه الجماعة من أجل هذه الغاية أن تقرِّب الفلسفة لجمهور الناس ،

ليفهموها على حقيقتها ، وتزول نفرتهم منها ، ويعلموا أنه لا خلاف بينها وبين الشريعة ، فعدلت فى تلك الرسائل عن الأسلوب الفلسفى الجافّ الغامض ، وسلكت أسلوبا أدبيا يُسهل الفلسفة على جمهور الناس ، ويشوّقهم إلى الاشتغال بها ، فعُنيت باختيار ألفاظها وأساليبها ، ليكون أسلوبها أدبيا سهلا ، فجاء فيها خيال كثير ، وتشبيه متقن ، وألفاظ متخيَّرة ، ومعان ميسَّرة ، لتصل بها إلى ذلك الغرض الجديد من تطهير الدين بالفلسفة .

ومع هذا لم تكن هذه الرسائل مباحة عند هذه الجماعة لكل الناس ، بل جاء فى التمهيد إليها أنه ينبغى لمن حصلت عنده ألاّ يضيِّعها بوضعها فى غير أهلها ، وبذلها لمن لا يرغب فيها ، وألاّ يظلمها بمنعها عن مستحقها ، وصرفها عن مستوجبها ؛ لأنها للأول داء ، وللثانى دواء ، كالترياق الكبير الذى لا يختلف فى نفسه ، ومع هذا يفعل الشىء وضده بحسب اختلاف القوابل .

وهذه الرسائل تنقسم إلى أربعة أقسام :

أولها - يشتمل على أربع عشرة رسالة فى الرياضيات على اختلافها فى العدد والهندسة والفلك ، ثم فى الفنون العملية ، ثم فى المنطق ، وهذا القسم يتأثر فى أوله بفلسفة فيثاغورث وأفلاطون ، وفى آخره بفلسفة أرسطو ، لأن منطقه لا يختلف عن منطقه .

وثانيها - يشتمل على سبع عشرة رسالة ، وهو فى الطبيعيات كلها يبدأ بالهَيُولى والصورة والزمان والمكان والحركة ، ثم ينتقل إلى الآثار العلوية ، ثم يتدرج حتى يصل إلى المعادن ، ثم إلى النبات ، ثم إلى الحيوان ، ثم إلى الإنسان ، ثم ينتهى بعلم النفس ، وهذا القسم يتأثر من أوله إلى آخره بفلسفة أرسطو .

وثالثها - يشتمل على الرسائل النفسانية العقلية ، وهى عشر رسائل ، تبحث فى المبادىء العقلية على رأى فيثاغورث ، ثم فى المبادىء العقلية على رأى « إخوان الصفا وخلاَّن الوفا » ثم فى معنى قول الحكماء « إن العالم إنسان كبير » ثم فى العقل والمعقول ، ثم فى الأكوار والأدوار واختلاف القرون والأعصار والزمان والدهور ، ثم فى ماهية العشق ، ثم فى ماهية البعث وما إليه من أحوال القيامة ، ثم فى كمية أجناس الحركات وكيفية اختلافها ومبادئها وغاياتها ، ثم فى العلل والمعلولات ، ثم فى الحدود والرسوم ، وهذا القسم يتأثر بفلسفة فيثاغورث وأرسطو والأفلاطونية الحديثة .

ورابعها - يشتمل على الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية ، وهى إحدى عشرة رسالة ، تبحث فى الآراء والمذاهب فى الديانات الشرعية الناموسية والفلسفية ، ثم فى ماهية الطريق إلى الله تعالى ، ثم فى بيان اعتقاد « إخوان الصفا وخلاَّن الوفا » ،

ومذاهب الربّانيين الإلهيين ، ثم فى كيفية عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا ، ثم فى ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحقِّين ، ثم فى ماهية الناموس الإلهىِّ والوضع الشرعى ، ثم فى كيفية الدعوة إلى الله تعالى ، ثم فى كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة والمردة والشياطين ، ثم فى كمية أنواع السياسات وكيفيتها ، ثم فى كيفية نضد العالم بأسره ، ثم فى ماهية السحر والعزائم ونحوهما ، وهذا القسم تجتمع فيه كل العناصر المؤثرة فى الفلسفة الإسلامية ، من الهندى والفارسي واليونانى وغيرها ·

ولكن هذا الرسائل لم تؤدِّ الغرض المقصود منها ، وهو تطهير الشريعة التى دُنِّسَتْ بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ؛ لأن الفلسفة التى قصد تطهير الشريعة بها كانت مدنَّسة أيضاً بالجهالات ، مختلطة بالضلالات ، وهى فلسفة قديمة مضت عليها مئات السنين ، ترقَّتْ فيها العقول وتدرجت فى الكمال ، فيجب أن يكون لهذا نصيب فى هذه الفلسفة ، ولكن أصحاب هذه الرسائل وغيرها من الفلاسفة أرادوا أن يطهِّروا الشريعة بالفلسفة القديمة مع جمودهم عليها ؛ وعدم قيامهم بالإصلاح المطلوب فيها ، فكان منهم جمود فلسفى ، كما كان من غيرهم جمود دينى ، ولا يمكن أن يُدَاوى الجمود بالجمود ، وإنما يداوى الجمود بالإصلاح والتجديد ، ولو أن أصحاب تلك الرسائل قصدوا إلى إصلاح الفلسفة أيضاً لسبقوا أهل أوربا فيما قاموا به من إصلاحها فى العصر الحديث ، ولَوصلوا إلى غرضهم من التقريب بين الفلسفة والدين ؛ إذ يجتمعان فى ذلك على الإصلاح ، ولا يكون فيهما من الجمود والتعصب ما يباعد بينهما ويناوىء رسالة المجددين فيهما ·

ومع هذا لا ننكر ما قام به فلاسفة **الإسلام** فى تهذيب الفلسفة القديمة ، ولكن أثرهم فيها لا يُذكر بإزاء فلاسفة العصر الحديث ·

* * *



المجددون فى القرن الخامس

حال العالم فى القرن الخامس الهجرى

يمتد القرن الخامس الهجرى من سنة ١٠١٠ م ، إلى سنة ١١٠٦ م ، وفى هذا القرن ذهبت دول إسلامية وقامت دول إسلامية أخرى بدلها بحكم القوة ؛ فقامت الدولة السلجوقية بالمشرق سنة ٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م ، إذ توطد فيها ملك طغريل بك وأخيه داود ابنى ميكائيل بن سلجوق بخراسان ، وقامت بين الدولة الغزنوية وهذه الدولة الناشئة حروب انتهت بفوزها عليها ، ثم أخذ ملكها يمتد إلى العراق إلى أن استولى طغريل بك على بغداد سنة ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م ، وأزال منها دولة بنى بُوَيه ، وكان هذا فى عهد القائم بالله العباسى ، وقد بلغت هذه الدولة غاية عظمتها فى عهد ملك شاه بن ألب أرسلان ، فبلغت من حدود الصين إلى آخر الشام ، ومن أقاصى بلاد الإسلام فى الشمال إلى آخر بلاد اليمن ، وكان له إتاوة على دولة الروم الشرقية ، وقد توفى سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م ، ولكن حصل بعد وفاته انقسام بين ابنيه محمود وبركيارق على الملك ، وقامت بينهما حروب كان لها أثر سيء فى هذه الدولة ، فلم يأت آخر هذا القرن إلا وكانت دولا منقسمة على نفسها ، حتى أمكن الصليبيين المستعمرين من أمم الفرنجة أن ينتزعوا منها كثيراً من بلاد الشام ، ويستولوا على بيت المقدس[1] وكان مسيرهم إلى الشام سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م .

وكان السلجوقيون أتراكا يأخذون بمذهب أهل السُّنة على عادة غيرهم من الأتراك ، وكانوا يدينون بالطاعة لبنى العباس ، وإن لم يتركوا لهم شيئاً من السلطة الفعلية ، ولكن علاقاتهم بهم كانت أحسن من علاقتهم ببنى بُوَيه ، لاتفاق العباسيين والسلجوقيين فى الأخذ بمذهب أهل السنة .

ومن الدول الإسلامية التى قامت بالمشرق فى هذا القرن الدولة الخوارزمية ، وهى دولة تركية كالدولة السلجوقية ، وكان بدء ظهورها سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م ، وهى تنسب إلى مدينة خوارزم ، لأنها كانت قاعدة ملكها ، وكانت أول أمرها تابعة لدولة بركيارق من

(١) كانت الدولة الفاطمية قد استولت على بيت المقدس قبل استيلاء الصليبيين عليه .

ملوك السلجوقيين ، ثم انفصلت عنها بعد ذلك ، وأخذت تقوى بالتدريج إلى أن استولت على بلاد خراسان وما وراء النهر .

وكذلك اضطرب أمر المسلمين بالمغرب فى هذا القرن ، فانتهت دولة بنى أمية بالأندلس سنة ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م ، وقامت فيه دول متفرقة يسمى ملوكها « ملوك الطوائف » وكان بعضها يحارب بعضا ، حتى ضعف أمر المسلمين فى الأندلس بهذه الحروب ، وطمع فيهم أعداؤهم من الفرنجة بعد ضعفهم .

وقامت فى الغرب الأقصى دولة المرابطين سنة ٤٤٨هـ = ١٠٥٦م ، ويقال للمرابطين الملثَّمون أيضا ، وهم من قبائل البربر المغربية ، ومن أقوى ملوكهم يوسف بن تاشفين ، وقد تولى الملك سنة ٤٦٢ هـ = ١٠٦٩ م ، وهو الذى بنى مدينة مراكش واتخذها مقراً لملكه ، ثم أخذ يستولى على ما جاوره من بلاد المغرب حتى دان له أكثرها ، وفى سنة ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م استنجد به أهل الأندلس بسبب تغلب الفرنجة عليهم ، فسار إليهم بجيش كبير أنقذ الأندلس منهم ، ثم رأى أن يضمه إلى ملكه ، ليقضى على حكم ملوك الطوائف الذين فرقوا كلمة المسلمين فيه ، وكان فيه ميل لجمع كلمة المسلمين فى هذا القرن ، ولهذا دعا للملوك العباسيين فى دولته على المنابر ، وكان يأخذ مثلهم بمذهب أهل السنة ، ولا شك أن هذه نية صالحة تذكر له فى هذا القرن ، وتدخل إلى حدٍّ ما فى دعوة التجديد فيه .

وبهذا كان المسلمون فى هذا القرن أسوأ حالا منهم فى القرن السابق ، حتى أمكن الفرنجة أن يهاجموهم فى عُقْر دارهم بالمشرق ، ويستولوا على بيت المقدس وكثير من بلاد الشام ، وحتى أخذوا يهاجمون الأندلس بالمغرب ، ولولا يوسف بن تاشفين ملك المرابطين لضاع هذا القطر من المسلمين فى هذا القرن ، وإذا كان الفرنجة لم يمكنهم الاستيلاء فى المغرب على الأندلس ، فقد أمكنهم أن يستولوا على جزيرة صقلية ، فدخلوها سنة ٣٤٤هـ = ١٠٥٢ م ، وتم لهم الاستيلاء عليها كلها سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ، وبقى بها كثير من المسلمين بعد استيلائهم عليها ، وكانوا أرقى من الفرنجة ثقافةً ومدنية ، فكانوا يرجعون فى ذلك إليهم .

ولكن المسلمين مع ما وصلوا إليه فى هذا القرن كانوا لا يزالون بهم قوة تضاهى قوة الطامعين فيهم ، وبها أمكنهم أن يصمدوا فى المشرق للفرنجة فى الشام ، وأن يصمدوا فى المغرب للفرنجة بالأندلس ، وأن يقابلوا هذا الهجوم عليهم بالهجوم على أعدائهم فى نواحى ضعفهم .

وكانت أوربا فى هذا القرن تعانى من الضعف والتفرق مثل ما يعانى المسلمون فيه ،

وكان لهذا أثره فى عدم تمكن أهلها من أغراضهم فى القضاء على المسلمين ، فأمكن المسلمين أن يصدّوا هجماتهم عليهم فى المشرق والمغرب ، وأمكنهم أن يهجموا عليهم فى نواحيهم الضعيفة كما هجموا عليهم ، وكانت دولة الروم الشرقية هى الناحية الضعيفة فى أوربا فى هذا القرن ، فهجم عليها السلجوقيون حتى استولوا على كثير من بلادها ، وجعلوها تستنجد بأولئك الفرنجة عليهم ، فهبّوا لنجدتها من أوربا الغربية ، وقد أمكنها بهذا أن تشغل المسلمين عنها بهم ، وأن تسترد بعض بلادها منهم ، وكان المقصد الأهم لأولئك الفرنجة بلاد الشام للاستيلاء على بيت المقدس ، وقد أمكن المسلمين أن يقضوا على أول حملة منهم فى آسيا الصغرى ، ولما جاءت الحملة الثانية لم تستول على ما استولت عليه من بلاد الشام إلاّ بعد أن كبدها المسلمون خسائر فادحة ·

وإذا كانت أوربا الغربية فى هذا القرن أحسن حالاً من دولة الروم الشرقية ، فإنها كانت مع هذا منقسمة على نفسها فيه ، ولم يكن ملوكها هم الذين قاموا بتلك الحملات على بلاد الشام ، وإنما كان قيامها بتأثير رجال الدين المسيحى ، فهم الذين جمعوهم من هنا وهناك من شعوب أوربا ، واستغلوا فى هذا شعورهم من ناحية الدين ، لينتزعوا مقدّساتهم ببلاد الشام من أيدى المسلمين ·

فزاد بهذا نفوذ رجال الدين المسيحى فى أوربا فى هذا القرن ، حتى كانوا أصحاب الحل والعقد فى دولها ، يمسكون زمام السياسة فيها بأيديهم ، ويخضع العلم فيها للاهوتهم ، ولكن الحال فيها تغير شيئاً فشيئاً بعد أن اتصل أهلها بالمسلمين فى الشام وصقلية ، فرأوهم أرقى منهم فى الحضارة والعلم ، وأخذوا يعملون على الاستفادة منهم ، وشرعوا فى القرن الحادى عشر الميلادى يقومون ببعض من النشاط العلمى ، فعنى رهبان « مونتى كاسينو » الإيطالية بترجمة بعض الكتب الطبية والفلكية عن العربية ، ولكن هذا لم يكن له إلا أثر ضئيل فى ظهور بعض جدليين - مناطقة - تنحصر بضاعتهم فى بعض الآراء الأفلاطونية ، وفى الإلمام بكتاب إيساغوجى فى المنطق ، وكتب المقولات والعبارة والتحليلات الأولى لأرسطو ، وكانت كل غايتهم محاولة الاستفادة بقواعد المنطق فى معالجة المسائل اللاهوتية ·

وبهذا كانت أوربا فى هذا القرن دون المسلمين من الناحية العلمية ، وكان أقصى غايتها فيها محاولة الاستفادة منهم ، حتى أن روجر الأول ملك صقلية المتوفى سنة (٤٩٥هـ = ١١٠١ م) وجد نفسه بعد استيلائه على هذه الجزيرة فى حاجة إلى الاستعانة بالمسلمين من أهلها ؛ وكانوا هم السواد الأعظم فيها ، فتعلم العربية منهم وسلك طريقتهم فى الحكم ، وقرّب منه أطباءهم ومنجميهم وفلاسفتهم ، وأبقى كبار الموظفين من المسلمين

فى وظائفهم ، وبهذا كان مظهر ملكه فى صقلية يبدو وكأنه مظهر ملك شرقى لا أوربى ، وقد مكثت صقلية على هذا المظهر الغريب - مظهر مملكة مسيحية يشغل المسلمون بعض وظائفها العالية - أكثر من قرن ، حتى شاهدت صقلية فى عهد روجر الأول ومن أتى بعده من الملوك النورمانديين ازدهارًا عظيما للثقافة الإسلامية النورماندية ، وكان لأولئك النورمانديين دولة قوية أسسوها فى جنوب إيطاليا ، فلما استولوا على صقلية جعلوها مقراً لملكهم .

ولكن احتفاظ المسلمين بسبقهم العلمى فى هذا القرن لا ينسينا ما ظهر منهم من الضعف السابق فيه ، ولا ينسينا ما كان من أثر هـــذا الضعف فى ضياع ما ضاع من بلادهم ، حتى أنهم كادوا يفقدون الأندلس فى هذا القرن ، لولا أن قيض الله لهم ملك المرابطين يوسف بن تاشفين ، وقد كان فى هذا ما يكفى لتنبيههم للخطر الذى سيصيبهم بسبب تلك النكسات الرجعية التى بقيت إلى هذا القرن من غير إصلاح ، ولكنهم ظلوا فى غفلتهم عن إصلاحها .

وكان لتغلب العنصر التركى بالقوة على العنصر العربى والفارسى فى المشرق أثره أيضا فى ضياع ما ضاع فيه من البلاد الإسلامية ، لأن كلا العنصرين - العربى والفارسى - كان يؤلف السواد الأعظم من الرعية فى الدولة السلجوقية التركية ، فلم يقابلوا ما أصيبت به من استيلاء الفرنجة على بعض بلادها بالشام بما يستحقه من الاهتمام ، لأنهم كانوا يرون أنها ليست دولة شرعية فيهم ، لاغتصابها الحكم بالقوة منهم ، واستبدادها فيهم وفى العباسيين الذين تحكم باسمهم ، فلم يكن هناك اتفاق بين الدولة والرعية بسبب ما بقى بينهما من أثر النكسة الرجعية السياسية ، ولم يكن هناك اتفاق بين الشعوب التى تحكمها بسبب ما بقى بينهما من أثر النكسة الرجعية الاجتماعية ، فكان لهذا كله أثره فى عدم اكتراث هذه الشعوب بما أصاب هذه الدولة من ضياع تلك البلاد ، مع أنه كان يجب أن يهم المسلمين جميعا .

فمضى هذا القرن من غير أن يفكر أحد فيه فى إصلاح تلك النكسات الرجعية ، ولا سيما النكسة السياسية والنكسة الاجتماعية ؛ إذ باعدتا بين الحاكمين والمحكومين ، وجعلتا الرعية طبقات يتعالى بعضها على بعض ، اللهم إلا ما كان من أبى الحزم جَهورَ بن محمد أمير قرطبة بالأندلس ، وكانت وفاته سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م ، فإنه فيما يقال لم يسَمَّ بالملك وقال : « أنا أدبر الناس إلى أن يقوم لهم من يصلح » فجعل ارتفاع الأموال بأيدى الأكابر وديعة ، وصير العوامَّ جندا ، وأعطاهم أموالا مضاربة ، وقرر عليهم السلاح والعُدَّة ، وكان يشهد الجنائز ، ويعود المرضى وهو بزى الصالحين ، ولم يتحول من داره

إلى دار السلطنة ، وهذه نزعة تجديدية لابن جَهور تستحق التقدير فى هذا القرن الذى طغت فيه الخاصة على العامة طغيانا كبيرا ، ولكن الفساد كان قد استولى على عقول المسلمين فى الأندلس وفى غيرها من البلاد الإسلامية ، فلم يقدّر أحد هذه النزعة التجديدية فى هذا القرن ، ولم يعمل فيه أحد للنهوض بطبقة العوام ، ولعل ابن جهور أقلع أيضا عن هذه النزعة ، ومضى فيما كان يمضى فيه غيره من الأمراء ، وهو الذى سجن ابنَ زيدون ، وقصته معه معروفة ، وليس هنا مقام ذكرها ، ولكنها تدل على أنه انقلب حاكما مستبدا .

ولم تكن النكسة الرجعية الدينية فى هذا القرن بأقل أثرا فى ذلك من النكستين السياسية والاجتماعية ؛ لأن المسلمين بقوا منقسمين فى هذا القرن إلى مُعَسكرين دينيين : معسكر أهل السنة فى الدولة العباسية ، ومعسكر الشيعة فى الدولة الفاطمية ، فبقى كل واحد من المعسكرين يتربص الدوائر بالآخر ، ولا يهمه ما يصيبه من الكوارث ، ولم يخفِّف من حدة الخلاف بينهما ما أصاب المسلمين فى هذا القرن ، ومما زاد فى النكسة الرجعية الدينية ما حدث فى معسكر أهل السنة ، فقد وقع فيه انقسام خطير بسبب ظهور فرقة الأشعرية ، وكان طغريل بك السلجوقى متأثرًا بآراء بعض القدامى من أهل السنة وبعض الكرامية المشبِّهة ، فزعما عنده أن الأشعرية يزعمون أن القرآن ليس بين دفتى المصحف ، إلى غير هـذا من مزاعمهم ، فأمر فى سنـة ٤٤٥ هـ = ١٠٥٣ م بلعنهم على المنابر ، وعزلهم عن الخطابة فى المساجد ، ومنعهم من القيام بالوعظ والتدريس ، ثم سعى فى تشريدهم ونفيهم ، وقد أتى بعده ملك شاه السلجوقى ووزيره نظام الملك فرفعا ذلك الحيف عن الأشعرية ، وأنشأ المدارس الدينية وغيرها لنشر مذهبهم ، فظهر على غيره من المذاهب ، وأخذ يعاملها بالعسف الذى كانت تعامله به ، وما كان أجدره أن يكون رسول سلام بين الفرق الدينية بعد أن تمت الغلبة له ، وبعد أن ذاق من العسف فى أول أمره ما ذاقه .

ولا ننسى بعد هذا كله نكسة التصوف فى هذا القرن ، فقد استفحل فيه شأنه ، ومضى فى طريقه يستهوى قلوب العامة والخاصة ، حتى استهوى ألمع شخصية علميـة فى هذا القرن ، وهى شخصية الغزالى العالم الواسع العلم ، فختم حياته العلمية الحافلة بالركون إلى التصوف ، وقد ألف فيه كتابه « الإحياء » وهو الكتاب الذى افتتن به المتصوفة ، وكان له أعظم أثر فيهم ، بل افتتن المسلمون به جميعهم ، إلا ما يحكى عن بعض علماء المغرب عند أول ظهوره بينهم من إحراقهم له .

وقد ذكر المقريزى فى خططه أن الخانقاهات الصوفية وُجدت فى هذا القرن ، والحقيقة أنها وجدت قبله ، ولعله يريد أنها لم تكثر وتنتشر إلا فيه ، وكان الفضل فى

انتشارها فيه لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤١ هـ = ١٠٤٩ م ، لأنه يعدُّ مؤسس نظام الرهبنة فى التصوف الإسلامى ، وأول واضع لقواعده وأصوله ، فشاع بذلك هذا النظام فى التصوف ، وأنشئت له الخانقاهات على نظام الأديرة فى المسيحية ، لينقطع فيها المتصوفة عن الناس ، كما ينقطع الرهبان عنهم فى أديرتهم ، وكانت هذه هى النتيجة المحتومة للمغالاة فى الزهد ، وهى من أسوأ النكسات الرجعية التى وقع فيها المتصوفة ، وكان لها أسوأ أثر فى المسلمين ، لأنها أباحت التعطل عن العمل فى الدنيا باسم الدين ، وجعلت هذا التعطل الدينى هو المثل الأعلى فى الإسلام ، فزاد المسلمون به نفوراً فى الدنيا ، ومالوا إلى الكسل الذى مال إليه أولئك المتصوفة .

ولم يكن أحد يجرؤ أن ينكر على أولئك المتصوفة فى هذا القرن ، ولا سيما بعد أن انضم إلى صفوفهم أكبر علماء هذا القرن وأعظمهم نفوذاً لدى ملوكه وأمرائه ، وهو الغزالى الذى بلغ من إعجاب المسلمين به أن منحوه لقب « حجة الإسلام » ويمكن أن يستثنى من ذلك صوفى فارسى من رجال هذا القرن ، كان يأخذ على متصوفة عصره تسميتهم شهواتهم شرعًا ، وأوهامهم الكاذبة علمًا إلهيا ، ونزوات قلوبهم ورغبات نفوسهم حباً إلهيا ، وتسميتهم الزندقة فقراً ، والشك صفاء ، وإنكار الدين فناء للنفس ، إهمال شرع النبى ﷺ طريقاً فى التصوف[1] .

ويمكن أن يستثنى من ذلك أيضاً ما كان من إنكار فقيهين على أبى يعقوب يوسف بن أيوب الهمذانى المولود سنة ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ، والمتوفى سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م ، وهو الذى انتهى إليه تربية المريدين بخراسان ، وكان له خانقاه اجتمع فيها كثير من المتصوفة والعلماء والصلحاء ، ومن كلامه : « السماع سَفَر إلى الحق، ورسول من الحق ، وهو لطائف الحق وزوائده ، وفوائد الغيب وموارده ، وبوادى الفتح وعوائده ، ومعانى الكشف وبشاراته ، فهو للأرواح قوتها ، وللأشباح غذاؤها ، وللقلوب حياتها ، وللأسرار بقاؤها . . . » إلخ إلخ ، وهذا هو السماع الذى سبق أنه نكسة رجعية ، تجمع بين العبادة وسماع الأغانى والأناشيد ، وترجع بالعبادة الإسلامية الخالصة إلى مثل ما كانت عليه العبادات فى الأديان السابقة .

وكان الهمذانى يتكلم بمثل هـذا على الناس ، فيأخذهم الوجـد ، ويصـدر منهم ما يصدر فى حال الشطح ؛ فأنكر عليه ذانك الفقيهان - وكانا فى مجلسه - وقالا له حين كان يتكلم على الناس بمثل ما يتكلم به : اسكت فإنما أنت مبتدع ، فقال لهمـا : « اسكتا لا عشتما » وهنا يدَّعى المتصرون له أنهما ماتا مكانهما ، وقد يكون موتهما من أنصاره ،

---

(١) كشف المحجوب للجحويرى ص ٨ .

ومما يذكرون له من نحو هذا أن أمرأة من همذان جاءته باكية فقالت له : إن ابنى أسره الإفرنج . فصبَّرها فلم تصبر ، فقال : اللهم فكَّ أسره ، وعجِّل فرجه ، ثم قال لها : اذهبى إلى دارك تجديه بها ، فذهبت المرأة فإذا ولدها فى الدار ، فتعجبت وسألته ، فقال لها : كنتُ الساعة فى القسطنطينية العظمى[1] والقيود فى رجلى ، والحرس علىّ ، فأتانى شخص فاحتملنى وأتى بى إلى هنا كلمح البصر .

وقد كثر من المتصوفة مثل ذلك فى هذا القرن ، فانتشر به صيتهم بين الناس ، وكثرت به أتباعهم ومريدوهم ، حتى صار الإنكار عليهم يحتاج إلى كثير من الجرأة ، بعد أن كانوا فى أول ظهورهم يتسترون خوفًا من الإنكار عليهم .

ولكن التصوف فى هذا القرن لم يكن فى الأندلس والمغرب قد بلغ مبلغه فى المشرق ، لأنه بلغ من أمره فى المشرق أن استهوى ألمع شخصية علمية فيه ، وهى شخصية الغزالى ، على ما سبق ، ولكنه فى الأندلس والمغرب لم يمكنه أن يستهوى ألمع شخصية فيهما ، وهى شخصية ابن حزم ، فقد كان أشد علماء عصره على أولئك الصوفية ، حتى حكم بكفر أبى سعيد أبى الخير وأشباهه من صوفية هذا القرن ، ومما قاله فى ذلك : « إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع » ، وزاد بعضهم : « واتصل بالله تعالى » . وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرَّم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال .

وإن ابن حزم ليسمو بهذا على الغزالى الذى كان يحسن الظن بأمثال هؤلاء المتصوفة ، ويجهد نفسه فى تأويل ما يخالف الشريعة من أقوالهم وأفعالهم ، ويمكننا أن نضيف من علماء المشرق إلى ابن حزم فى المغرب أبا العلاء المعرىِّ ، فقد أنكر أيضاً على صوفية هذا القرن إنكاراً شديداً ، كما أنكر على غيرهم من الطوائف المنحرفة فى هذا القرن ، ومن شعره فى الإنكار على الصوفية :

أرى جيل التصوف شرَّ جيل ... فقل لهمُ وأهونْ بالحلول :
أقالَ الله حين عبدتموه : ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لى

لقد دق إذن ناقوس الخطر على المسلمين فى هذا القرن ، فكانت الحاجة فيه إلى المصلح الدينى الاجتماعى السياسى أشد من القرون السابقة ، ليرأب الصدع ، ويجمع الشمل ، ويزيل الحزازات ، ويجعل المسلمين يدا واحدة أمام ذلك الخطر الذى حل بهم ،

---

(١) هى عاصمة دولة الروم الشرقية فى ذلك الوقت .

ويعود بهم إلى مثل ما كانوا عليه من حكومات شورية تطمئن إليها الرعية ، ومن اتحاد بين شعوبها يجعلهم إخوانا فى الدولة ، ومن اتحاد بين فرقها الدينية يرجع ما بينها إلى الخلاف فى الاجتهاد ، ويجعل المجتهد فيها كالمجتهد فى المسائل الفرعية ، يُثاب إذا أصاب ، ويُعْذَر إذا أخطأ .

وقد اتفق المتقدمون على أن الغزالى كان مجدد القرن الخامس ، حتى قال السيوطى فى أرجوزته السابقة عند ذكر مجدد هذا القرن :

والخامس الحَبْرُ هو الغزالى وعَدُّه ما فيه من جـــدال

ونقل ابن عساكر فى كتاب « تبيين كذب المفترى فيما نسبَ إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى[1] » عن بعضهم أن الذى كان على رأس المائة الخامســة أمير المؤمنين المسترشد بالله ، ثم قال : وعندى أن الذى كان على رأس الخمسمائة الإمام « أبو حامد محمد بن محمد بن محمد[2] الغزالى » الطوسى الفقيه ، لأنه كان عالما عاملا فقيها فاضلا أصولياً كاملا مصنِّفا عاقلا ، انتشر ذكره بالعلم فى الآفاق ، وبرَّز على من عاصره بخراسان والشام والعراق .

وقد ولد المسترشد سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م ، وبويع له الملك سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م ، وذكر السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » أنه كان ذا همـــة عالية وشهامة زائدة ، ضبط أمور الخلافة ورتَّبها أحسن ترتيب ، وباشر الحروب بنفسه ، وكان السلطان مسعود السلجوقى هو المتغلب على بغداد فى عهده ، فوقع قتال بينهما أسِرَ فيه المسترشد ، وقتل فى أسره سنة ٥٣٩هـ = ١١٣٤م ، وليس فى هذا ما يجعله من مجددى هذا القرن ، فلا يبقى بعد هذا ممن ذكره المتقدمون من مجدِّدى القرن الخامس إلا الغزالى ، وبهذا نقوم بدراسته دون المسترشد ، ثم نضيف إليه دراسة ابن سينا وابن حزم وأبى العلاء المعرىّ ، لأنهم أحق بهذا من الغزالى ، كما سيتبين هذا بعد دراسة كل منهم .

ومع هذا لم يظفر المسلمون أيضاً فى هذا القرن بالمجدد الذى يحتاجون أشد حاجة إليه ، وهو المجدد الذى يشمل تجديده كل نكساتهم الرجعية ، فيقوم بإصلاحها جميعها ، ولا يقع فى نكسة منها تفسد ما يحاول إصلاحه فى غيرها ، ولا تجعله ينهض بالمسلمين فى دينهم ودنياهم ، ليحتلوا المكان اللائق بهم بين الأمم ، فلم يكن الغزالى هو ذلك المجدد ، وكذلك لم يكن ابن سينا وابن حزم وأبو العلاء المعرى .

* * *

(١) ص ٥٣ .

(٢) سيأتى أن اسم جده الثانى أحمد لا محمد .

حجة الإسلام الغزالى

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، بتخفيف الزاى أو تشديدها ، على الخلاف فى ذلك ، ولد بمدينة طوس سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، وكان أبوه رجلا فقيراً يغزل الصوف ويبيعه فى دكان له بطوس ، فمات وتركه صغيراً هو وأخ له يسمى أحمد ، وأوصى بهما صاحبًا له متصوفًا ، وطلب إليه أن يعلِّمهما الخط ، فقام بوصيته إلى أن نفد ما تركه لهما ، فنصحهما بأن يلتحقا بمدرسة ليستعينا بوقفها على وقتهما .

وقد أخذ الغزالى فى مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكانى ، ثم انتقل إلى نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، وأخذ عنه مذهب الأشعرى ، ثم جدَّ فى الاشتغال حتى تخرج فى مدة قريبة ، وصار من الأعيان المشار إليهم فى زمن أستاذه ، ولكنه لم يزل ملازما له إلى أن مات سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م

فخرج من نيسابور إلى العسكر ، ولقى نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى ، فأكرمه وعظّمه وبالغ فى الإقبال عليه ، ثم فوض إليه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ، فأعجب به أهل العراق ، وارتفعت منزلته بينهم ، حتى صار عظيم الجاه ، زائد الحشمة ، عالى الرتبة ، مسموع الاسم .

وكان مع هذا شغوفاً بالاطلاع والبحث ، لا يرى باطنيا إلا أحب أن يطَّلع على نحلته ، ولا ظاهريا إلا أراد أن يعرف ما عنده، ولا فيلسوفا إلا أراد أن يعلم كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا أراد أن يصل إلى غاية كلامه ، ولا صوفيا إلا أراد أن يعرف سر صفوته ، حتى أحاط بعلم ذلك كله ، وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد فى عصره ، ووضع فيها من الكتب ما صار شغل الناس من بعده .

ولكن البيئة الصوفية التى نشأ فيها أخذت تتغلب عليه شيئا فشيئا ، وتكرهه فى البيئة التى اتصل بها من الملوك والوزراء ومن إليهم، لأنهم لم يكونوا على سنة السلف الصالح ، وإن كانوا أحسن من غيرهم ، وأين أولئك السلجوقيون الذين يقوم حكمهم بالتغلب وعلى أساس العنصرية التركية من الحكم الإسلامى الذى يقوم على أساس الشورى ولا يفرق بين عنصر وعنصر ؟

وفى هذا الحال الذى صار إليه الغزالى أخذت دواعى الدنيا ودواعى الآخرة تتجاذبه ، وهو بينها فى حيرة لا يدرى ما يفعل ، حتى قضى فى ذلك ستة أشهر من سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م ووقع من ذلك فى غم وهم شديدين ، فتأثرت صحته به ، وأصيب

بحبسة فى لسانه[1] فكان يجاهد نفسه أن يدرِّس يوما واحداً تطييبا لقلوب من يختلف إليه ، فلا يمكنه النطق ، حتى زادت حاله سوءًا وبطلت فيه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فاجتهد الأطباء فى علاجه واختلفوا فى حقيقة مرضه ، فزعم بعضهم أنه أصيب بالجنون ، وكان يهزأ فى سره بما يقولون ، لأنه يعلم أن سبب مرضه هو ذلك الحال الذى استولى عليه ولم يعرف كيف يتخلص منه .

وقد عزم بعد تلك الستة الأشهر من تلك السنة أن يقطع ذلك التردد ويؤثر داعى التصوف الذى نشأ فيه ، فخرج من بغداد مظهِرًا أنه يقصد الحج ، وكان له مال ففرَّقه فى بغداد ولم يدخر منه إلا قدر الكفاف ، وانتهت به هذه الرحلة إلى دمشق سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م ، فأقام بها مدةً معتكفًا بالمنارة الغربية من مسجدها مشتغلا بالرياضة والتعبد ومجاهدة النفس ، مؤثراً التقشف ولبس الخشن من الثياب على طريق الصوفية ، ثم ترك دمشق إلى الأسكندرية فأقام بها مدةً من الزمن ، وكان يريد أن يسافر منها إلى السلطان يوسف بن تاشفِين بالمغرب لما بلغه عنه من الصلاح والتقوى ، ولكنه بلغه أنه مات فعدل عن ذلك السفر ، ثم عاد بعد هذا إلى بلده طوس فأقام بداره فيها ، واتخذ إلى جانبها مدرسةً للفقهاء ، وخانقاه للصوفية ، ووزع وقته على العبادة ومجالسة أرباب القلوب ، إلى أن توفى سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م .

والغزالى فى هذا لا يزيد عن كونه أدرك فساد الحال فى عصره ، ولكن ضعفه الذى بدا فى ذلك التردد الذى أسقمه لم يمكنه من القيام بالإصلاح الصحيح لذلك الفساد ، ولا من مواجهة أولئك الملوك والوزراء الذين ركن إليهم فى أول حياته بفساد حكمهم ، وبيان طرق إصلاحه ، وغاية ما فعله أن هرب منهم ومن دنياهم ، ولجأ إلى ذلك التصوف الذى لا علاج فيه لذلك الفساد ، ولا يراد منه إلا صرف المسلمين عن الدنيا إلى الآخرة ، مع أن هذا من الفساد الذى وقعوا فيه أيضا .

وكان لإيثار الغزالى طريق التصوف أسوأ أثر فى المسلمين بعده ؛ إذ قلدوه فى ذلك التصوف ، وفضلوه على كل علم ، ولا سيما أن الغزالى كان أشعريا ، فلما صار جمهور المسلمين على هذا المذهب كان الغزالى قدوتهم فى ميلهم إلى التصوف ، فأخذت الدنيا تضيع منهم شيئاً فشيئا ، وأخذت الآخرة تضيع منهم بقدر ما يضيع من دنياهم ، لأن الدنيا قنطرة الآخرة ، وقد أتى الإسلام بمراعاة مطالبها ، كما أتى بمراعاة مطالب الآخرة ، ليصبح للمسلمين أمر دنياهم وأخراهم ولا يفوتهم شىء منهما ، وبهذا كله صار الإسلام بعد الغزالى دينًا صوفيا إلى حد كبير ، بعد أن كان التصوف قبله تقليدًا لطائفة من أهله ، ولكن

---

(١) الحبسة : تعذر الكلام عند إرادته .

الغزالى كان مع هذا يأخذ بالتصوف أخذ عالم ، فلم يقع فيما وقع فيه غيره من المتصوفة من دعوى وحدة الوجود ونحوها من الدعاوى ، لأنه كان عالما كبيراً قبل أن يكــون صوفيا ، وإن كان قد عُنى بتأويل تلك الدعاوى من أصحابها ، حتى أوسع المجال فى الإسلام لقبولهم فيه ، بعد أن كان العلماء قبله يُخرجونهم منه .

وزاد الطين بلة أن الغزالى حين آثر التصوف أقام حربا شعواء على غيره من العلوم ، حتى إنه لم يسلم منه علم الكلام ، مع أنه كان فى عصره يناصر عقيدة الأشعرى ويعد من الأشعرية ، وهى لا تجافى علم الكلام مثله ، وكان نصيب الفلسفة وعلومهـا من حربه أوفى نَصيب ، وقد ألف فى هـذا كتابه « تهافت الفلاسفة » فشنَّع فيه على الفلسفة وعلومها أشد تشنيع ، وحكم فيه بكفر الفلاسفة مع أنهم كانوا يرون أن الفلسفة لا تنافى الإسلام ، وكان لهم اجتهادهم فى التوفيق بينهما ، والمجتهد إن أصاب فمأجور ، وإن أخطأ فمعذور .

ومثل هذا من الغزالى يدخل إلى حد ما فى باب التجديد ، لأنه عرف به نواحي الضعف فى الفلسفة ، ولكنه تغالى فيه حتى قضى به على الفلسفة فى المشرق ، إذ كرَّه أهله فى علوم الفلسفة ، حتى عجز بعد هذا أن يظهر فيلسوفا مثل من أظهره من الفارابى وغيره ، مع أن علوم الفلسفة ألزم من غيرها للمسلمين ، ولا يمكنهم الاستغناء عنها فى أمر دنياهم ، ولا نزاع فى أن الفلسفة القديمة كانت تحتاج إلى إصلاح ، وإن للغزالى فضله فى معرفة بعض ما فيها من الفساد ، ولكنه بعد أن عرفه لم يحاول إصلاحه ، وإنما حاول هدم الفلسفة بتلك الحرب التى شنها عليها ، ولو أنه حاول إصلاحها لحاز به قصب السبق على فلاسفة أوربا فى العصر الحديث ، وقد كان جديراً بهذا السبق ، لأنه درس الفلسفة قبل أن يحاربها حتى استوعبها ، ولم يحاربها عن جهل بها كما حاربها غيره من أعدائها ، ولكن مغالاته فى التصوف جعلته يرى أنه الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة ، وأنه لا يمكن الوصول إليها ، بالفلسفة أو غيرها ، فساء ظنه بالفلسفة ، ووقف منها موقف المحارب لا المصلح ، ولو أنه وقف منها هذا الموقف لسار بها فى طريقها الصحيح ، وأحدث فيها من التجديد ما أحدثه بعده فلاسفة أوربا ، وقد كان أجدر بهذا ممن تغالى فيها من فلاسفتنا ، فأصيب جمهورهم بالجمود فى الفلسفة ، كما أصيب غيرهم بالجمود فى الدين ، وضاع المسلمون بين هذين الجمودين .



الشيخ الرئيس ابن سينا

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن على بن سينَا ، وُلد بقرية خَرْميثنا من قرى بخارى سنة ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ، وكان أبوه يتولى عمل هذه القرية لنوح بن منصور السامانى ، وقد انتقل أبوه منها إلى بخارى وهو لا يزال صغيراً ، وكان من الشيعة الإسماعيلية ، وله نظر فى الفلسفة ، فأحضر لابنه المعلمين فى داره ببخارى ، فحفظ القرآن وهو دون العاشرة ، كما حفظ بعضًا من الأدب وأصول الدين والحساب والجبر ، ثم قرأ على أبى عبد الله الناتلى كتاب إيساغوجى ، وأحكم عليه علم المنطق وأقليدس والمجسطى ، ولم يلبث أن فاقه فى هذه العلوم ، وكان يختلف إلى إسماعيل الزاهد فيقرأ عليه الفقه ويباحث ويناظر فيه .

ولما ترك أبو عبد الله الناتلى بخارى أخذ ابن سينا يشتغل بدراسة العلوم الفلسفية بنفسه حتى أتمها ، ثم تفرغ لدراسة الطب حتى نبغ فيه وفاق أطباء عصره ، كل هذا وهو لم يجاوز ست عشرة سنة ، ثم رجع إلى دراسة المنطق والفلسفة وكان يقضى نهاره وليله فى دراستها ، فإذا تعسرت عليه مسألة توضأ وصلى ودعا الله حتى تتضح له ، ولكنه لما وصل إلى كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو لم يجد سبيلا إلى فهمه ، فقرأه أربعين مرة ، فلم يظفر منه بطائل ، فتركه إلى أن أتاه ورَّاق فعرض عليه كتابًا فاشتراه بثلاثة دراهم وهو زاهد فيه ، فلما قرأه وجده كتاب « أغراض ما بعد الطبيعة » لأبى نصر الفارابى ، ووصل به إلى فهم ما أغلق عليه من ذلك الكتاب ؛ وكان هذا سبباً فى دراسته لغيره من كتب الفارابى ، وتأثره بفلسفته أكثر من غيره .

وكان لنوح بن منصور السامانى مكتبة فيها من كل فن ، فطلب منه ابن سينا حين دعاه لمعالجته من مرض نزل به أن يأذن له فى النظر فيها ، فظفر فيها بكتب من علم الأوائل ، فاستوعب قراءتها حتى علم كل ما فيها ، وكان قد بلغ ثمانى عشرة سنة .

ثم أخذ يشتغل بالتعليم والتأليف إلى أن مات أبوه وهو لا يتجاوز اثنتين وعشرين سنة ، فتولى بعض الأعمال فى بخارى ، ثم أخذ يتنقل فى المدن ويتصل بملوك بنى بويه وغيرهم ، فيتولى الوزارة لهم أحياناً ، ويشتغل بالتعليم والتأليف أحياناً ، وكان إذا تولى الوزارة يشغل نهاره بها ، ويشغل ليله بالتعليم والتأليف ، وقد أدركه فى آخر حياته مرض القولنج ، فكان يعالجه فيبرأ منه ، ثم يعود إليه ، إلى أن يئس من علاجه ، فقال : « المدبر الذى كان يدبر بدنى قد عجز عن التدبير ، فلا تنفع المعالجة » ثم اغتسل وتاب

وتصدق بما معه على الفقراء ، وأعتق أرقّاءه ، وأقبل على قراءة القرآن ، فكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام ، ومات بعد هذا سنة ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م .

وكانت الفلسفة تحارَبُ فى هذا القرن من العباسيين ، لأنهم آثروا فيه أن يأخذوا بمذهب أهل السُّنة ، وكانوا يتوجسون الشر فيمن يشتغل بالفلسفة ، ويتهمونه بالميل إلى أعدائهم الفاطميين ، ويطعنـون فى دينه ويرمونه بالكفر ، فأوغلوا بهذا فى الرجعية والجمود ، ومنعوا الرعية من البحث والنظر ، فخرج ابن سينا على هذه الرجعية ، ولم يرض لنفسه أن يقع فيما وقع فيه غيره من الجمود ، ودرس علوم الفلسفة تلك الدراسة التى لم تتهيأ لغيره فى عصره ، حتى وصل فيها إلى رتبة الاجتهاد والتجديد ، وخرج فيها من دائرة التقليد ، وكان يقول : « حسبنا ما كُتِبَ من شروح لمذاهب القدماء ، فقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصَّة بنا » .

ومما يذكر له أيضاً فى نزعته إلى التجديد فى الفلسفة ما جاء فى مقدمة كتابه « منطق المشرقيين » فقد قال فيها : « وبعد . . فقد نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه ، لا نلتفت فيه لفتة عصبيةٍ أو هوى أو عادةٍ أو إلفٍ ، ولا نبالى مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فَهم ، ولَما سُمع منا من كتب ألَّفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين[1] الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم يُنل رحمةً سواهم ، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم - يعنى أرسطو - فى تنبهه لما نام عنه ذووه ، وفى ترتيبه العلوم خيرًا مما رتَّبوه ، وفى إدراكه الحق فى كثير من الأشياء ، وفى تفطنه لأصول صحيحة فى أكثر العلوم ، وفى إطلاعه الناسَ على ما بيَّنه فيها السلف وأهل بلاده ، وهذا أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مَدَّ يده إلى تمييز مخلوط ، وتهذيب مفسد ، ويحق على مَن بعده أن يلمُّوا شعثه ، ويرمُّوا ثُلما يجدونه فيما بناه ، ويفرعوا أصولا أعطاها ، فما قدر من بعده على أن يفرغ نفسه من عهدة ما ورثه منه ، فذهب عمره فى تفهم ما أحسن فيه ، والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلة يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى مزيد عليه ، أو إصلاح له ، أو تنقيح إياه[2] ، وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ، ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم ، وكان الزمان الذى اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه ، ثم قابلنا جميع ذلك بالنمط من العلم الذى

(١) هم أتباع أرسطو ؛ لأنه كان يعلمهم وهو يمشى فى حديقة مدرسته .

(٢) لعله يعرض فى هذا بالفارابى .

يسميه اليونانيون المنطق - ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره - حرفًا حرفًا ، فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى ، وطلبنا لكل شيء وجهه ، فحقَّ ما حق ، وزاف ما زاف ، ولما كان المشتغلون بالعلم شديدى الاعتزاء إلى المشائين من اليونان ، كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور ، فانحزنا إليهم ، وتعصَّبنا للمشائين ، إذ كانوا أوْلى فرقهم بالتعصب لهم ، وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ، ولم يبلغــوا أربهـم منه ، وأغضينا عما تخبطوا فيه ، وجعلنا له وجهًا ومخرجا ، ونحن بدخلته شاعرون ، وعلى باطله واقفون ، فإن جهرنا بمخالفتهم فعن الشيء الذى لم يمكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطَّيناه بأغطية التغافل » .

ولا شك أن هذا من ابن سينا كان بدء السير فى إصلاح الفلسفة اليونانية ؛ ولو لم يقض بعده على الفلسفة فى المشرق لسارت فى هذا الطريق ، ولنهض بها المسلمون قبل أن تنهض بها أورُبا فى العصر الحديث ، ولم يقعوا بإهمالها فى التأخر الذى وقعوا فيه .

وقد استحق ابن سينا بهذا أن يكون شيخ الفلاسفة فى الإسلام ، فأُعطى فى الفلسفة لقب الشيخ الرئيس ، ويمتاز ابن سينا على غيره من فلاسفة الإسلام بأنه عرف كيف يجمع ما حصله من علوم الفلسفة فى صورة سهلة الفهم ، وإن كانت لا تسلم أحيانا من تدقيق متكلف ، ومن أشهر ما وضعه فى ذلك كتاب الشفاء وهو موسوعة كبيرة فى الفلسفة ، ومنه كتاب القانون فى الطب ، وهو أعظم كتاب ألف فى الطب إلى عصره ، وبه ذاعت شهرة ابن سينا فى الطب أكثر مما ذاعت فى الفلسفة ، وقد اعتمد الناس على كتب ابن سينا فى الفلسفة لما امتازت به من ذلك ، وآثروها على ما وضعه الفلاسفة من الكتب قبله ، وقد اهتم بها فلاسفة أورُبا فى بدء نهضتها الحاضرة ، فترجموا كتاب الشفاء إلى اللغة اللاتينية فى أوائل هذه النهضة ، وكان فلاسفتها فى ذلك العهد يعتمدون عليه فى فهم فلسفة أرسطو ، حتى ذكر روجر بيكون[1] أن ابن سينا هـو مقلد أرسطو ومفسر تعاليمه ، ومتمم الفلسفة بقدر ما فى وسعه .

ولم يسلم ابن سينا مع هذا من الطعن عليه فى دينه من أعداء الفلسفة فى عصره ، ومن الحكم عليه بالكفر من أصحاب الجمود وأعداء التجديد ، فلم يعبأ بتكفيرهم له ، وأخلص للفلسفة والدين إلى آخر يوم من حياته ، لأنه كان يؤمن بأنه لا خلاف بينهما ، وقد رد على من كان يطعن عليه فى دينه برباعية من شعر بالفارسية يقول فيها :

ليس سهلاً عليك أن تجعلنى طريد الدِّين
إذْ ليس هناك إيمانٌ أحكَمُ من إيمانى

---

(١) هو فيلسوف انجليزى ولد سنة ١٢١٤ م ، ومات سنة ١٢٩٤ م .

إذا كنتُ أعَدُّ فى الدهر كافراً متبرِّما

إذن فلن يكون طولَ الدهر من تجده مسلما

على أن التجديد الذى قام به ابن سينا لا يتجاوز أخذه بالفلسفة التى حاربها الجامدون فى هذا القرن ، ولا يعدو بلوغه بها حد الكمال الذى قدِّر لها فى الإسلام ، لأنه لم يكن له عمل بعد هذا فى إصلاح النكسة الرجعية الدينية ، ولا فى إصلاح النكسة الرجعية السياسية ، ولا فى إصلاح النكسة الرجعية الاجتماعية ، بل الذى كان منه أنه اشتغل بالوزارة للدول الفارسية التى قامت فى هذا القرن على أساس العنصرية الجنسية ، وعلى أساس القوة من غير مراعاة لاختيار الرعية ، فخضع لملوكها كل الخضوع ، ولم يحاول القيام بإصلاح فى الدين أو السياسة أو الاجتماع ، لأنه كان طالب حكم فى هذه الدول ، وطلبُ الحكم والوظيفة غير مقصد الإصلاح ، فمن يهتم بالحكم والوظيفة فى حياته ، لا يمكنه أن يجمع بينه وبين الاهتمام بالإصلاح فيها .



ابن حزم الأندلسى

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى ، ينتهى نسبه إلى يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب الأموى ، وكان يزيد الذى ينتهى إليه نسب ابن حزم من الفُرْس ، وقد ولد ابن حزم بمدينة قرطبة سنة ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م ، وكان أبوه وزيراً للمنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر ولابنه المظفر من بعده ، فنشأ ابن حزم فى بيت نباهة وجاه وعلم ، وعُنى أبوه بتربيته وتثقيفه ثقافة واسعة تُعدُّه لشغل مركزه من بعده ، فدرس علوم الدين والأدب والفلسفة ، وكان شيخه فى المنطق محمد بن الحسن المذحجى المعروف بابن الكنانى ، وكان أديبا شاعراً طبيباً ، فكان ابن حزم بهذا أجمعه أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسُّعه فى علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار ، وقد ذكر الذهبى أنه كان إليه المنتهى فى الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسُّنة والمذاهب والملل والنحل والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب ، وقد ذكروا أن الباجى أبا الوليد سليمان شارح الموطأ ناظره يومًا فقال : أنا أعظم منك همةً فى طلب العلم ، لأنك طلبتَه وأنت معانٌ عليه تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل . فقال له ابن حزم : هذا كلامٌ عليك لا لك ، لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالى ، ولكنى طلبتُه لا أرجو إلا نفعه دنيا وأخرى .

ونشأ ابن حزم شافعى المذهب ، وكان جمهور أهل الأندلس على مذهب مالك ، فنشأ مخالفًا لهم فى ذلك ، وقد أغراه هذا على التوسع فى علوم الحديث وفقهه ، فكان سببا فى تركه تقليد الشافعى ، واشتغاله باستنباط الأحكام من الكتاب والسنة ، حتى استقر به الأمر إلى اختيار مذهب أهل الظاهر ، فزاد بهذا شذوذا على مذهب أهل الأندلس ، لأن جمهور المسلمين فى هذا القرن قد أخذوا بتقليد المذاهب الأربعة المعروفة ، وكانوا لا يرون حرجا فى الانتقال من بعضها إلى بعض ، لتقاربها فى المآخذ وأصول الأحكام ، بخلاف مذهب أهل الظاهر ، لأنه ينكر الأخذ بالقياس ، وهو من الأصول الأربعة التى اتفقت عليها المذاهب السابقة .

وكان ابن حزم قد آثر بعد انتهائه من مرحلة الطلب أن يشتغل بأمور الحكم كما كان أبوه من قبل ، فتقلد الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن ، ثم للمعتمد بالله ، ولكن ما كان عليه من ذلك الذكاء الحاد وتلك الثقافة الواسعة ومخالفته فى المذهب لجمهور أهل

عصره أكثر من حساده ، وجعلهم يسعون فى الكيد له بكل ما فى وسعهم ، فآثر أن يترك الاشتغال بالحكم ، لينقطع إلى الاشتغال بالعلم ، فاشتغل بالدرس ، والتأليف ، وكان له فى هذا آثار لا تكاد توجد لغيره ، حتى ذكر ابنه أبو رافع الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

ومن تآليفه كتاب « الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام فى الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع » أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين فى مسائل الفقه ، والحجة لكل طائفة عليها ، ومنها كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » فى غاية التقصى وإيراد الحجج ، ومنها كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وكتاب فى الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ، وكتاب فى مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض ، وكتاب « إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل » وهذا معنى لم يُسبق إليه ، ومنها كتاب « التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العلمية والأمثلة الفقهية » سلك فى نيابة وإزالة سوء الظن عنه وتشذيب الممخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله ، ومنها كتاب « النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع الأربع : المعتزلة ، والمرجئة ، والخوارج ، والشيع » .

ولكن ابن حزم كان كثير الوقوع فى العلماء المتقدمين ، لا يكاد يَسْلَم أحد من لسانه ، حتى قال فيه أبو العباس بن العريف : كان لسانُ ابن حزم وسيفُ الحجاج بن يوسف الثقفى شقيقين ، فنفرت عنه القلوب ، واستهدف لفقهاء وقته ، فتمالؤوا على بغضه ، وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فأقصته الملوك وشردته عن بلاده ، وامتدت أيدى العامة إلى كتبه حرقًا وتمزيقاً ، وقد قال فى ذلك :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى ... تضمنه القرطاس، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلَّتْ ركائبى ... وينزل إن أنزِل ويُدفن فى قبرى
دعونى من إحراق رقٍّ وكاغد ... وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى[1]
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر

ومما قاله فى ذلك أيضا :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغروبُ
وإنَّ رجالاً ضيعونى لضُيَّعٌ ... وإن زمانا لم أنل خصبَه جدب

(١) الرق : جلد رقيق يكتب فيه ، والصحيفة البيضاء ، والكاغد : القرطاس .

ولم يزل ابن حزم مشرَّداً يتنقل من مكان إلى مكان إلى أن انتهى إلى لبْلَةَ ، فتوفى بها سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٣ م ٠

ولا يسع منصفا إلا أن يقدِّر لابن حزم تلك الثقافة الواسعة التى تثقف بها فى هذا القرن ، وتحرره من الجمود على تقليد المذاهب الأربعة المشهورة ، ومن الخنوع لذلك التصوف الذى سيردى المسلمين فى هوة سحيقة ، وإن كان لم ينكره إلا من ناحية دينية صرفة كما سبق ، ولكنه إذا كان قد قام فى هذا ببعض من التجديد فى هذا القرن ، فإن ما تناوله من هذا لا يذكر بجانب ما سبق من التجديد الذى كان المسلمون فى حاجة إليه ، على أنه قد تناوله على وجه ضيَّع فائدته ، وجَعله إلى الجمود أقرب منه إلى التجديد ٠

فإنه حين ترك الجمود على تقليد المذاهب الأربعة المشهورة آثر عليها مذهباً جامداً يقف عند ظواهر نصوص الكتاب والسنة ، ولا يأخذ إلا الكتاب والسنة من الأصول الفقهية ، ويرفض الأخذ بالقياس لأنه يعده من القول بالرأى فى أحكام الله تعالى ، ومن أشد المنكرات عنده القول بالرأى فى هذه الأحكام ، وبهذا يكون مذهباً ضيقاً جامداً ، ولا يدخل تقليده فى هذا القرن فى دائرة التجديد ، وإن خرج من دائرة الجمود على تقليد المذاهب الأربعة المشهورة ٠

وقد كان لإيثار ابن حزم ذلك المذهب المتشدِّد أثره فيما أخذ عليه من الوقوع فى العلماء المتقدمين ، فجعله يضيق بكل مذهب خالف هذا المذهب ، ويخرج بالخلاف بين الفقهاء من التسامح الدينى الذى جرى عليه ، وامتاز به على الخلاف بين المتكلمين ، إلى مثل ما جرى عليه الخلاف بين المتكلمين من إثارة العداوة بين المسلمين لما يجرى بينهم فيه من الطعن فى الدين ، والحكم بالفسق والضلال ، وما إلى هذا مما فرق كلمة المسلمين ٠

فمرة يقول فى الإنكار على من يخالف الظاهرية فى مذهبهم فى وقوع شىء من النجاسات فى البئر: ولكن ما رأينا سُنة مضاعة ، إلا ومعها بدعة مذاعة ، وهذه أقوال لو تتبع ما فيها من التخليط لقام فى بيان ذلك سفر ضخم ، إذ كل قول منها مصيبة فى التحكم والفساد والتناقض ٠٠٠ إلخ إلخ[1] ،ومرة يقول فيمن خالفهم فى هذا الموضوع أيضاً : وإن فرَّقوا بين كل ذلك سألناهم تفصيل ذلك ، ليكون ذلك زيادة فى السخرياء[2] والتخليط ، ومرة يقول فيمن خالفهم فيه أيضاً : وهذا كله ليس من سؤال العقلاء المسلمين ، ولا يشبه اعتراضات العلماء المؤمنين ، بل هو سؤال نوكى الملحدين ، وحمقى الدهريين المتحيرين الجهال ، ومرة يقول فيه أيضاً : فإن أقدموا على تحديد ذلك زادوا فى

---

(١) انظر كتاب - المحلى - لابن حزم فى هذا الموضوع ٠

(٢) هى السخرية والمد فيها غير معروف ٠

الضلال والهوس ، وإن لم يقدموا على ذلك تركوا قولهم كالميتة فسادا ومجهولا لا يحل القول به فى الدين ومرة يقول فيه أيضاً : وهذه أقوال هى إلى الهوس أقرب منها إلى ما يعقل ، ومرة يقول فيه أيضاً : وليس فى شىء من هذين الأثرين نهى عنه ، ونعوذ بالله من الضلال وتحريف الكلم عن مواضعه .

ولا شك أن جمود جمهور المسلمين على المذاهب الأربعة المشهورة مع تسامحهم فيه كان خيراً من تحرُّر ابن حزم منها مع ذلك الأسلوب الذى يقضى على هذا التسامح ، ويضيف إلى تفرق المسلمين فى العقائد وتباغضهم فيه تفرقًا آخر فى الفروع يكون أسوأ أثراً فى التباغض ، ويزيدهم فُرْقة إلى فرقة ، ويثير بينهم فتنة إلى فتنة ، مع أنه فى هذا يخالف ما ذهب إليه فى كتابه « الفصل » من أن المجتهد فيما لم يُعرف فيه وجه الحق مخطىء معذور مأجور .

وكان شأن ابن حزم فى الأصول كشأنه فى الفروع ، فكان يرى التقيد فيها بظواهر النصوص ، ولا يسوِّغ تعدى ذلك إلا بنص أو إجماع أو ضرورة حس يدل على أن شيئاً فيها ليس على ظاهره ، وكان يكفِّر فى ذلك ويفسِّق كما فعل فى الفروع ويكفى فى هذا اسم كتابه السابق « النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع الأربع : المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيع » .

ولا شك أن من يكون هذا غاية تجديده لا يصح أن يكون المجدد الذى يحتاج إليه المسلمون لجمع كلمتهم ، وإزالة أسباب الجفاء بينهم ، لا فى الفروع التى حاول ابن حزم أن ينشر بينهم أسباب الجفاء فيها ، وكانوا قبله متسامحين فيما بينهم ، ولا فى الأصول التى يجب أن يكون الخلاف فيها كالخلاف فى الفروع ، حتى يكون المختلفون فيها إخوانا فى الإسلام ؛ ولا يكون الخلاف بينهم فيها سبباً من أسباب الخصام ؛ بل يكون وسيلة إلى زيادة المودة والوئام .



أبو العلاء المعرى

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّى التنوخى ، ولد سنة ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م ، ونشأ ببلدة معرّة النعمان بالشام ، وكفّ من الجدرى وهو فى السنة الثالثة من عمره ، ولما وصل إلى سن الطلب أخذ العربية عن بعض علماء بلده ، ثم رحل إلى طرابلس الشام وكانت بها دار علم بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها(١) فاجتاز باللاذقية ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئا من علوم الأوائل ، فسمع منه كلامًا من أوائل أقوال الفلاسفة ، ثم استقر فى طرابلس وأخذ يذهب إلى دور العلم فيها ، وكان نسيجًا وحده فى الذكاء والفهم وقوة الحافظة ، فحصل على علم غزير ، وتثقف بثقافة واسعة ، حتى اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة فى الأدب ، حاذقاً بالنحو والصرف ، أعجوبة العجائب فى اللغة وحفظ شواهدها ومعرفة غريبها وأسرارها ودقائقها ، وهذا إلى براعته فى فنّى الشعر والنثر .

وكان أبو العلاء من بيت ثراء وغنى ، ولكنه لم يكن من ذوى الثراء من أهل بيته ، إنما خلّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، ومع هذا عورض فى ذلك الوقف بيد بعض نواب حلب ، فسافر إلى بغداد شاكيا ذلك سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م ، واجتمع فيها بالشريف الرضى والمرتضى وقد شهدا بفضله وفطنته وفرط ذكائه ، ثم قصد من أكابرها الإعانة بجاههم على بلوغ أغراضه ، مِن كفٍّ من تطرق أذاه إليه فى أمر وقفه ، فلم يجد منهم إنصافاً ، وقيل إنه سافر إلى بغداد ليستزيد من علمه فلم يجد بها مثله ، وقد أقام ببغداد سنة وسبعة أشهر يتفقد خزائن الكتب بها ، ثم رجع إلى المعرة فأقام بها ، ولزم منزلة لا يفارقه ، وسمى نفسه رهين المحبسين : العمى والمنزل ، وكانت له نفس تشرف عن تحمّل المنن ، فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذلك خشن الملبوس والمأكل ، والزهد فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين دينارا ، قدّر منها لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمؤنته ، فكان أكله العدس إذا أكل مطبوخا ، وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن ، وفرشه من لبّاد فى الشتاء ، وحصيره من البردىّ فى الصيف ، وترك ما سوى ذلك ، وقد ذكروا أنه كان لا يأكل اللحم تدينًا ؛ لأنه كان يرى رأى الحكماء المتقدمين ، وهم لا يأكلونه كى لا يذبحوا الحيوان ، لأن فيه تعذيبا له ، وهم لا يرون الإيلام مطلقا فى جميع الحيوان .

---

(١) ذكر ابن العديم أن طرابلس لم يكن بها دار علم فى زمن أبى العلاء لأنها جددت بعده .

ولما لزم منزله شرع فى التصنيف وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، فاستفاد منه خلق كثير ، وترك من التآليف عدداً ضخما فى كل علم ، ومن أهم آثاره فى النثر والشعر : رسالة الغفران ، وديوان لزوم ما لا يلزم ، لأنهما يحويان أهم آرائه فى نقد مجتمع هذا القرن ، وهو نقد واسع شامل لم يتهيأ لغيره ممن عُنى بالإصلاح مثله ، وقد هيأه له تلك الثقافة الواسعة ، وتلك النفس الشريفة الأبية ؛ وما لاقاه من ذلك الجحود حين لم يلق إنصافا من أهل عصره ، وتُرك مع فضله ونبوغه وعلمه يعيش على ذلك الكفاف ويحيا تلك الحياة القاسية فى بيته ، وحوله تلاميذه من كل بلد ، فلا يجد ما يقدمه لهم من مأكل وغيره ، وهو على ذلك جواد كريم بطبعه ، وبذلك البيت الكريم الذى نشأ فيه ، حتى إنه كان لا يجد ما يعطيه أجرا لمن يتولى نسخ ما يمليه من تآليفه ، وقد قال فى ذلك : « لزمتُ مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلى أن أضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى بيضاء ؛ لأنه أفنى فى زمنه ، ولم يأخذ على ما صنع ثمنه ؛ والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » . وكانت وفاة أبى العلاء سنة ٤٤٩هـ = ١٠٥٨ م

ولقد هيأت تلك العزلة لأبى العلاء أن يرى فساد هذا القرن ، فلا يحابى فيه أحداً يرجو منه شيئاً ، فأنكر ما كان من استبداد ملوك عصره وأمرائه وظلمهم للرعية ، مع أنهم ليسوا إلا أجراء لها ليقوموا بمصالحها ، لا ليظلموها ويستبدوا فيها ، وهذه هى النكسة الرجعية فى الحكم ، وهى سبب بلاء المسلمين وشقائهم ، وفيها يقول أبو العلاء :

مُل المقام ، فكم أعاشر أمةً أمرتْ بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيةَ واستجازوا كيدها وعدَوْا مصالحها ، وهم أجراؤها

وهو فى هذا ينكر على الأمة رضاها بهذا الحال ، قبل أن ينكر على أمرائها ذلك الظلم والاستبداد .

ويقول فى ذلك أيضاً :

أرى أمراءَ الناس يُمسون شرَّهم إذا خطفوا خطف البزاة اللوامع
وفى كل مصر حاكمٌ فموفق وطاغٍ يحابى فى أخسّ المطامع
يجور فينفى الملكَ عن مستحقه فتكسب أسراب العيون الدوامع
ومِن حوله قومٌ كأن وجوههم صفا لم يليَّن بالغيوث الهوامع

ويقول :

إذا ما تَبَيَّنَّا الأمورَ تكشفتْ لنا وأميرُ القوم للقوم خادم

ويقول :

وأرى ملوكًا لا تحوط رعيةً فعلام تؤخذُ جزيةٌ ومكوس ؟

ويقول :

ومِن شر البرية ربُّ ملك يريد رعيةً أنْ يسـجدوا لَهْ

ويقول :

أيا والى المصر لا تظلمنْ فكم جاء مثلكَ ثم انصرفْ

ويقول :

يقولون فى المصر العدولُ وإنما حقيقةُ ما قالوا العدولُ عن الحقِّ

ويقول :

يسوسون الأمور بغير عقلٍ فينفذ حكمهُم ويقال : ساسهْ

فأفٍّ من الحياة وأفٍّ منهم ومِن زمنٍ رياسَـتُه خَساسَهْ

وبلغ الأمر بأبى العلاء فى ذلك إلى أن أنكر حق الملكية فى الحكم، فقال فى ذلك :

تسمَّت رجالٌ بالملوك سفاهةً ولا مُلْكَ إلا للذى خلق الملكا

وقال :

تسامتْ قريش إلى ما علمـ ـت واستأثر الترك والديلمُ

وهل ينكر العقـل أن تستبدَّ بالملـك غانيـةٌ غَيْلَمُ(١)

وكذلك تناول أبو العلاء فى نظراته الإصلاحية ما كان من النكسة الرجعية الدينية ؛ فنقد علماء المسلمين ولا سيما المتصوفة منهم ؛ ثم أضاف إليهم رجال الدين من سائر الأديان ، فكانت نظرته فى ذلك أوسع ممن نظر فى التجديد والإصلاح قبله وبعده ، وقد قال فى ذلك :

روَيدكَ قد غُررتَ وأنت حُرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساء

يحرِّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمدٍ مساء

وقال :

وليس عندهُم دينٌ ولا نسك فلا تغرنك أيد تحمل السُّبحا

وكم شيوخ غدوا بيضًا مفارقهـم يسبِّحون وباتوا فى الخنا سُبُحا(٢)

(١) شابة كثيرة الشعر ·

(٢) جمع سابح ·

وقال :

لعمرك ما فى عالم الأرض زاهد   يقينًا ولا الرهبان أهل الصوامع

وقال :

وإنما حَمَّل التــــوراةَ قارئهـــا   كسبُ الفوائد لا حب التلاوات

وقال فى الصوفية :

لو كنتمُ أهلَ صَفْوٍ قال ناسبكم   صفـــوية فأتى باللفظ ما قُلبا
جندٌ لإبليـس فى بدليـــس آونة   وتارة يجلبون العيش فى حلبا[1]

وقال فى الفقهاء والقراء :

والنسك لا نسك موجود فنتبعه   فَعَدِّ عن فقـــهاء اللفظ مُرَّاق

وقال فيهم أيضا :

وتجالدتْ فقهاؤها فى حبها   وتقرَّأتْ لتنالـــها قراؤها

وقال :

صار الكتاب أغانى الغواة لهم   به أغانىٌّ من حمٌ والزُّمَر[2]

وقال فى ذم تقليدهم :

وينفر عقلي مغضبــا إنْ تركته   سُدى واتبعتُ الشافعيَّ ومالكا

وقال فى الوعاظ منهم :

لا يخدعنَّك داعٍ قام فى ملإٍ   بخطبة زانَ معنـاها وطولّها
فما العظاتُ وإنْ راعت سوى حيل   مِن ذى مقال على ناس تقوّلها

وقال فى الأدباء :

وما أدَّب الأقوام فى كل موطن   إلى المَيْن إلا معـــشرٌ أدباء

وقال فى الشعراء :

فرقاً شعرت بأنـــها لا تقتنى   خيراً وأن شرارها شعراؤها

وكذلك كان شأن أبى العلاء فى النكسة الاجتماعية ، فكان يدعو إلى المساواة الاجتماعية بين الناس بأوسع معانيها ، وفى هذا يقول :

لا يفخرنَّ الهاشـــــمىٌّ   على امرىءٍ من آل بربرْ
فالحقُّ يحلف ما علىٌّ   عـــنده إلا كقـــنبر[3]

---

(١) بدليس وحلب : بلدان . (٢) الكتاب: القرآن وحم والزمر: سورتان من القرآن .
(٣) يعنى على بن أبى طالب ومولاه قنبرا .

وكان يرى أنه يجب أن يكون المال مشتركا بين الناس على سواء ، وفى هذا يقول :

لو كان لى أو لغيرى قدرُ أنملةٍ   من البسيطة خِلْتُ الأمر مشتركا

ويقول :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته   فقير معرّىً أو أميـــر مدوَّج

وقد دعاه هذا إلى إيثار عيشة الزهد ، وإلى أن يقع فيما وقع فيه الصوفية من مدح الفقر ، ليخفف على الفقراء آلامهم ، ويحملهم على القناعة التى ترضيهم ، ومما قاله فى إيثار الفقر على الغنى :

والفقر أحمد مِن مالٍ تبذره   إنَّ افتقارك مأمونٌ به السرف

بل دعاه ذلك إلى أن يسلك مسلكهم فى ذم السعى فى طلب الرزق ، فيقول :

يسعى الفتى لابتغاء الرزق مجتهدا   بالسيف والرمح فوق الطِّرف والجمل[1]

ولو أقام لوافاه الذى سمحتْ   به المقاديرُ من نَقْــصٍ ومَن كمل

ثم يقول :

كم أحرز المالَ المقيمُ بجَدِّه   وسعى الحريصُ فعاد غير مموّل[2]

فأفسد أبو العلاء بذلك ما حاول إصلاحه ، لأن الاشتراكية فى المال لا تكون إلا بعد جمعه ، فإذا لم يُجمع المال عاش الناس كلهم فقراء ، فيحل الشتاء عليهم وهم جميعاً عراة ، وهذا أسوأ من أن يحل عليهم وفيهم عراة وكساة ، لأن الأمة يمكن أن تنهض مع وجود الغنى والفقر ، ولا يمكن أن تنهض إذا عمها الفقر ولم يكن فيها غِنَى .

وهذا كما أنكر على الملوك والأمراء ظلمهم ثم عاد فقال :

واخش الملوكَ وياسِرْها بطاعتــها   فالملكُ للأرض مثل الماطر السانى

إنْ يظلموا فلهم نفعٌ يعـــاش به   وكم حـموك برَجل أو بفرســـان

وهل خلتْ قبل مِن جورٍ ومظلمةٍ   أربابُ فارس أو أربابُ غســـــان

ثم قال :

أعاذلُ إنْ ظلـــــمتْنا الملو   كُ فنحن على ضعـفنا أظلم

وقد يكون هذا مما حُمِل عليه كما سيأتى ، وقد يكون هذا لضعف فيه وخوف من أذاهم له ، ولهذا كان يأخذ بالتقية ، ومما قاله فى أخذه بها :

لا تخبرنَّ بكنه دينك معـشراً   شطراً وإن تفعل فأنت مغرِّر

واصمت فإن الصمت يكفى أهله   والنطق يُظـــــهر كامناً ويقرر

---

(١) الطرف : الفرس الكريم .

(٢) الجد : الحظ .

وكان لهذه التقية منه ولكونه رهين محبسيه ولزهده وضعف حاله أثرها فى نجاته من أذى أولئك الملوك والأمراء ، بل كان بعضهم يقدره ويعظمه ويقبل شفاعته ، كما حصل من أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب ، وكان قد غضب على أهل المعرة فسار إليها واعتقل من أعيانها سبعين رجلا ، ففزع أهلها إلى أبى العلاء ليشفع لهم عنده ، فخرج من أحد أبواب المدينة ويده فى يد قائده ، وأبصره صالح فرأى شيخاً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء ، جيئونى به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ، ثم قال : الأمير - أطال الله بقاءه - كالنهار الماتع ، قاظ وسطُه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع ، لان مَتْنُه وخشن حَدَّاه ﴿ خُذِ العفوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ [1] فقال صالح : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ﴾ [2] قد وهبت لك المعرة وأهلها ، فرجع أبو العلاء وهو يقول :

نَجَّى المعرةَ من براثن صالــح ... رب يعافى كل داء مُعْضِلِ

ما كان لى فيها جناح بعوضة ... الله ألحفهم جناح تفضُّلِ

وقد حمل هذا من كان يطعن عليهم من رجال الدين ونحوهم على التغالى فى أمره ، إلى أن استباحوا وضع أشعار على لسانه تثبت إلحاده وزندقته ، ولم يتورع عن هذا بعض تلامذته ، ليحملوا الملوك والأمراء على استباحة دمه ، ولكنهم لم يصلوا إلى غرضهم منه عند هؤلاء الملوك والأمراء . وقد حدَّث المنازى الشاعر أنه اجتمع بأبى العلاء فقال له : ما هذا الذى يروى عنك ويحكى ؟ فقال : حسدنى قومى فكذبوا علىَّ وأساءوا إلىَّ . فقال المنازى له : على ماذا حسدوك وقد تركتَ لهم الدنيا والآخرة ؟ فقال : والآخرة أيها الشيخ ؟ ! فقال : إى والله ، ثم قال له : لِمَ تمتنع من أكل اللحم ؟ ولِمَ تلوم من يأكله ؟ . . . فقال : رحمةً للحيوان ، فقال له : لا لعمرى ، بل تقول إنه من شره الناس ، إنهم يجدون ما يأكلون ، ويتجزَّون به عن اللحمان ويتعوضون ، فما تقول فى السباع والجوارح التى خلقت لا غذاء لها غير اللحوم من الناس والبهائم والطير ، ودمائها وعظامها ، ولا طعام تعتاض به عنها ولا تتجزى به ، حتى لم يخلص من ذاك حشرات الأرض ، فإن كان الخالق لها الذى نقوله نحن فما أنت بأرأف منه بخلقه ، ولا أحكم منه فى تدبيره ، وإن كانت الطبائع المحدثة لذاك - على مذهبك - فما أنت بأحذق منها ، ولا أتقن صنعةً ، ولا أحكم عملاً ، حتى تعطلها ، ويكون رأيك وعملك وعقلك أوفى منها وأرجح ، وأنت من إيجادها[3] غير محسوس عندها . قال المنازى : فأمسك .

---

(١) الأعراف : آية ١٩٩ . (٢) يوسف : آية ٩٢ .

(٣) أى مما أوجدته الطبائع .

وإنما يهمنا من هذه الحكاية قول أبى العلاء « حسدنى قومى فكذبوا على وأساءوا إلى » لنرفض به كل ما ينسب إليه من شعر ونثر يثبت إلحاده وزندقته ، حتى ما نسبه إليه المنازى فى هذه الحكاية ، من أنه امتنع عن أكل اللحم رحمة بالحيوان ، وإن كان هذا هو الشائع عنه ، فقد يكون هذا مما اختلقه عليه أعداؤه أيضا ، وإنى أرى أنه كان يمتنع عن أكل اللحم زهداً لا رحمةً بالحيوان ، ولا شىء فى هذا شرعًا ، وهذا هو الذى صرح به تلميذه أبو الحسن على بن همام ، وهو من أعرف الناس به ، وقد جاء هذا فى رثائه له ، فقال :

إنْ كنتَ لم تُرِقِ الدماء زهادةً فلقد أرقت اليومِ مِن جفنى دما

وقد قال ابن العديم فى رسالة له : إنى اعتبرت مَن ذمَّ أبا العلاء ومن مدحه ، فوجدتُ كل من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجدتُ كل من لقيه هو المادح له .

ومن الناس من يتعصب لأبى العلاء إلى حد إثبات الولاية والكرامة له ، ومما يحكون فى ذلك أن حسّاده أغروا به وزير حلب ، فجهز لإحضاره خمسين فارسًا ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلسٍ له بالمعرة ، فاجتمع بنو عمه إليه وتألموا لذلك ، فقال : إنَّ لى ربا يمنعنى ، ثم قام فصلّى ودعا الله تعالى ، فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ، ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات .

والحق أن أبا العلاء كان وسطا بين من يتعصب له إلى ذلك الحد ، ومن يتعصب عليه إلى رميه بالإلحاد ، فلم يكن إلا مصلحًا مجددا ، على ما سبق من المؤاخذات فى ذلك عليه ، ولكن أهل عصره كانوا قد غلب الجمود عليهم ، فشوّهوا أمره على العامة وأشباههم ، وانقادت العامة فى ذلك لهم ، ليسيروا إلى آخر الشوط فى رجعيتهم وجمودهم .

وكان فى أبى العلاء نواحى جمود غير ما سبق تؤخذ عليه أيضا ، ومنها نهيه فى غير موضع من لزومياته عن تعليم النساء الكتابة والقراءة ، ومنها إسقاطه الحج عنهن فى غير موضع من لزومياته لسوء حال أهل مكة فى عصره ، وقد سبقته عائشة ﵂ إلى منعهن من الصلاة فى المساجد لما أحدثنه من الزينة ، فرد ابن حزم عليها هذا ، كما جاء فى كتابى - فى ميدان الاجتهاد - فجاء أبو العلاء يمنعهن الحج أيضا لذلك الفساد ، حتى يُحرمن فوائده الاجتماعية كما حُرمن فوائد الصلاة فى المساجد ، ليتدهورن أكثر مما تدهورن بسبب ذلك ، وكان أبو العلاء يرى مثل رأى عائشة فى منع النساء من الصلاة فى المساجد ، ويأمر بحجبهن عن الصلاة فيها ، وينهى عن خروجهن لذلك ونحوه مما يخرجن إليه ، وهذا هو الحجاب الذى ضرب عليهن بأضيق معانيه .

ومما قاله فى ذلك :

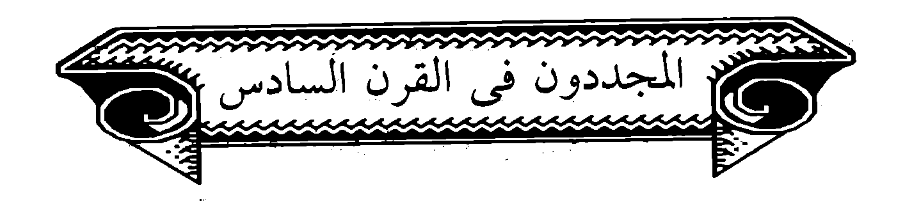
أتت خنساء مكـــة كالثريا ... وخلّت فى المواطن فرقديها
ولو صلّت بمنزلها وصامت ... لألفتْ ما تحاوله لديهـــا
ولكن جاءت الجمرات ترمى ... وأبصـــار الغواة إلى يديها
وليس محمدٌ فيـما أتته ... ولا الله القدير بمُحْمِدَيْها
إذا ما رامتْ الصلوات خودٌ ... فكنّ البيت أفضل مسجديها
فلا يفتأ مُصَـــلاّها خفيا ... يظن هناك أفضل ملحديها

وقال أيضا :

لا تجلسنْ حرةٌ موفقـــةٌ ... مع ابن زوجٍ لها ولا ختن
فذلك خيرٌ لها وأسلم للإ ... نسان إنَّ الفـتى مع الفتن

ولم يقتصر تشديد أبى العلاء فى هذا على نساء المسلمين ، بل كان يذم فى لزومياته اجتماع غوانى النصارى بفتيانهم فى كنائسهم ، وهو فى هذا متأثر بما أخذ به نفسه من حياة الزهد .

* * *



حال العالم فى القرن السادس الهجرى

يمتد القرن السادس الهجرى من سنة ١١٠٧ م إلى سنة ١٢٠٣ م ، وقد ابتدأ هذا القرن والإسلام جريح بضياع ما ضاع من بلاده فى أواخر القرن السابق ، والدول الإسلامية لا تشعر بهذا الجرح الذى أصاب الإسلام والمسلمين ، لأن ملوكها منقسمون على أنفسهم ، وكل واحد منهم يهمه مصلحة نفسه وملكه أكثر مما يهمه مصلحة رعيته ودينه ، وهى فى هذا بين دول منتهية تلفظ نفسها الأخير ، فلا يرجى منها خير ، وبين دول ناشئة يهمها قبل كل شىء تثبيت ملكها ، ولا تلتفت إلى شىء آخر من دين أو غيره .

فالدولة السلجوقية لم تكن فى هذا القرن دولة واحدة كالقرن السابق ، بل انفصلت منها الإمارات هنا وهناك ، كإمارة عماد الدين زنكى بالمَوْصل ، وقد أخذت هذه الدولة فى الضعف بعد انفصال هذه الإمارات عنها ، إلى أن انقرضت سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٣ م ، وكان هذا فى عهد الناصر العباسى .

وأرادت الدولة الخوارزمية أن تقوم مقام الدولة السلجوقية فى بغداد ، وكان ملكها خوارزم شاه قد عظم سلطانه بخراسان وما وراء النهر ، فقصد بغداد ليستولى عليها ، وأرسل إلى الناصر يطلب السلطنة وإعادة دارها ببغداد إلى ما كانت عليه فى عهد السلجوقيين ، فهدم الناصر هذه الدار وردَّ رسول خوارزم بلا جواب ، وكان من حظ الناصر أن بلغ خوارزم شاه أن أمم الترك قد تألبوا عليه وطمعوا فى بلاده لبعده عنها ، فرجع إلى بلاده وانصرف عن الاستيلاء على بغداد ، وقطع خطبة العباسيين من بلاده .

وانتهت فى هذا القرن أيضا الدولة الغزنوية ، وكان هذا سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م ، فقامت مكانها الدولة الغورية ، وكانت دولة قوية ابتدت سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م ، ثم اتسع ملكها بفتوحاتها فى بلاد الهند ، وبلغت فتوحاتها فى هذه البلاد ما لم تبلغه دولة إسلامية قبلها .

وكذلك انتهت فى هذا القرن دولة المرابطين بالمغرب ، وكان انتهاؤها سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م ، فخلفتها فى المغرب والأندلس دولة الموحِّدين ، ويقال لها أيضا دولة

بنى عبد المؤمن ، وهى الدولة التى أنشأها محمد بن تومَرْت الملقب بالمهدى سنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م ، وكانت دولة قوية أحيتْ علوم الفلسفة بالمغرب بعد أن حوربت بالمشرق ، وأنجبت من الفلاسفة ما عجز المشرق أن ينجبه فى عهدها ، مثل ابن رشد الحفيد وغيره من فلاسفتها ، ومن أشهر ملوكها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وكان فى دولة الموحدين يشبه المأمون فى دولة العباسيين .

وكذلك انتهت فى هذا القرن دولة الفاطميين بمصر ،وكان انتهاؤها سنة (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) على يد صلاح الدين الأيوبى ، وكان الصليبيون بالشام قد طمعوا فى أخذ مصر منها ، فأرسل العاضد آخر ملوكها إلى السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى يستنجد به عليهم ، وكان قد خلف أباه بعد موته ، واتسع ملكه أكثر من أبيه ، وأخذ يناوىء الصليبيين ويغزوهم ، ويضيِّق الخنّاق عليهم ، فأرسل إلى العاضد أسد الدين شيركوه فى عسكر من عساكره ، وأرسل معه عدة أمراء فيهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فلما قارب شيركوه مصر رحل الصليبيون عنها ، فكافأه العاضد على هذا بأن جعله وزيراً له ، ولما مات ولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة مكانه ولقَّبه الملك الناصر ، فلما كانت سنة (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) أرسل نور الدين محمود إلى صلاح الدين أن يقطع خطبة الفاطميين بمصر ويخطب للعباسيين ، فانتهى بهذا أمر الدولة الفاطمية ، وكانت معسكراً للشيعة بإزاء معسكر أهل السنة فى الدولة العباسية ، وزالت به صفحة من الحروب الدينية فى الإسلام بسبب الخلافات المذهبية ، واقتصر الأمر على العداء الدينى بين أصحاب هذه المذاهب .

ومكث صلاح الدين بمصر مُظهراً الطاعة لنور الدين ، وهو يعمل فى الباطن لإنشاء دولة له بمصر ، ثم استولى على طرابلس الغرب سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م ، وكذلك استولى على كثير من بلاد أفريقية (تونس) وعلى بلاد اليمن ، ولم يلبث نور الدين أن مات سنة ٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م ، فسار صلاح الدين إلى دمشق فاستولى على حِمص وحماة وغيرهما من البلاد التى كانت داخلة فى مملكة نور الدين ، فقامت بهذا الدولة الأيوبية مكان هذه الدولة ، وكان صلاح الدين أول ملوكها من الكرد ، وهم عنصر من العناصر المسلمة التى بدأت تظهر على مسرح السياسة الإسلامية بالدولة الأيوبية ، وقد أخذ صلاح الدين على عاتقه إخراج الصليبيين من الشام بعد أن صارت له هذه الدولة الواسعة ، فقامت بينه وبينهم حروب كثيرة ، وقد اشترك فى هذه الحروب بعض ملوك أوربا ، فأبدى صلاح الدين من ضروب البطولة ما خلد له ذكرًا حسنا ، وجعله موضع إعجاب الصليبيين والمسلمين ، وقد انتهت هذه الحروب بانتصاره عليهم ، وافتتاحه بيت

المقدس سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م ، فالتأم بهذا جرح الإسلام ، واستردَّ المسلمون بعض ما ضاع من هيبتهم .

ولكن المسلمين فى المشرق أخذوا فى هذا القرن يفقدون مكانتهم العلمية ، بسبب معاداتهم للعلوم الفلسفية وتأثرهم بالحملة التى حملها عليها الغزالى فى القرن السابق ، وكانت أشد حملة عليها فى دولة نور الدين ودولة صلاح الدين ، لأنهما كانا يتقربان للعامة وكان فى دولتيهما سلطان قوى لرجال الدين من الفقهاء والأشعرية ، وهم معروفون بعدائهم الشديد لعلوم الفلسفة ، فاستباحوا دم كل من يشتغل بالفلسفة فى هذا القرن ، كما استباحوا دم أبى الفتح يحيى بن حبش المعروف بشهاب الدين السهروْردى ، وأغروا به الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين ، فحبسه فى قلعة حلب ، ثم أخبر والده بأنه يعتقد مذهب الفلاسفة ، فأمره بقتله بعد أن أفتى العلماء بإباحة دمه .

فحلَّ المغرب فى هذا القرن محل المشرق فى نصرة علوم الفلسفة ، وذلك فى عهد دولة الموحِّدين التى دان لها جميع بلاد المغرب ، من البحر المحيط إلى برقة ، إلى غير هذا من جزيرة الأندلس ، وقد سبق أن الملك أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان فى هذه الدولة مثل المأمون من بنى العباس ، وكان يحفظ القرآن الكريم ، ويعرف علوم الأدب والحديث ، ثم طمح إلى علوم الحكمة ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً ، فازدهرت علوم الفلسفة فى عهده ، وظهر فيه من الفلاسفة مثل ابن رُشد وغيره ، وقد تُوُفى سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م ، فقام بالملك بعده ابنه أبو يوسف يعقوب الملقَّب بالمنصور ، فكان من إصلاحاته أن أمر برفض فروع الفقه ، ونهى الفقهاء أن يُعنوا إلا بالكتاب والسُّنة النبوية ، وحرَّم عليهم أن يقلدوا أحداً من المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من غير تقليد لغيرهم، وقد نال مذهب الظاهرية كثيراً من التقدير فى هذه الدولة،وسيأتى بيان مقدار ما وصلت إليه الفلسفة فى عهدهم عند الكلام على ابن رُشد ، وكانت فلسفته أرقى ما وصلت إليه الفلسفة الإسلامية ، وكان لها الفضل أكثر من غيرها فى نهضة الفلسفة فى أوربا، ولكن تقدير الفلسفة فى دولة الموحدين كان قصير العهد ،لأنه لم يوجد من ملوكها من قدرها بعد يوسف بن عبد المؤمن .

وكانت نكسة التصوف فى هذا القرن أشد النكسات الرجعية التى أصيبوا بها ، لأن شأنه استفحل فى هذا القرن ، فانتشرت فيه الخانقاهات الصوفية أكثر من القرن السابق ، وصار الناس يقصدون أصحابها بالزيارات والنذور ، ويزورون قبور الصوفية السابقين للتبرك بها ، ولطلب قضاء الحاجات من أصحابها .

ومما ساعد على استفحال شأن التصوف فى هذا القرن ظهور قطبين من أقطابه الأربعة

الذين افتتن المسلمون بهم بعد ظهورهم ، وهما الشيخ عبد القادر بن موسى الجيلى العلوى الطالبى المتوفى سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م ، والشيخ أحمد بن أبى الحسين الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م ، وينسب إلى قبيلة عربية تسمى بنى رفاعة .

فأما الجيلي فقد بلغ من عظمة شأنه فى هذا القرن أن الملك العباسى فى عهده أتاه يريد الاجتماع به ليلاً ، وكان يدخل خلوته ولا يمكن أحداً أن يدخلها معه ، ولا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر ، فلم يتيسر له الاجتماع به إلى هذا الوقت ، وكان لا يقوم لأحد قطٌ من العظماء وأعيان الدولة ، ولم يلمّ قط بباب وزير ولا سلطان ، لأنه كان يرى الجلوس على بساط الملوك ومن داناهم من العقوبات المعجلة للفقير ، فإذا جاءه ملك أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له ، إعزازاً للطريق فى أعين الفقراء ، فأين هذا من حال الصوفية حين كانوا يتسترون بتصوفهم خوفاً من الإنكار عليهم ؟ .

وقد أخذ الجيلى نفسه فى بدء أمره بالمجاهدات الشديدة ، ولم يترك هولاً إلا ركبه ، وكان يلبس جبة صوف ، ويضع على رأسه خُريقة ، ويمشى حافياً فى الشوك وغيره ، ويقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخسّ ، ولم يزل على هذا حتى طرقه الحال وأخذ يهيم على وجهه ، ويتظاهر بالخرس والجنون ، حتى حمل إلى البيمارستان ، ودنا من الموت ؛ ولكنه كان مع هذه الأمور التى تأباها سماحة الإسلام يعرف ثلاثة عشر علمًا ، وكانوا يقرؤون عليه فى مدرسته درساً من التفسير ، ودرساً من الحديث ، ودرساً من المذهب ، ودرساً من الخلاف ، وكانوا يقرؤون عليه طرفى النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو ، وكان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر ، ويفتى على مذهب الشافعى وابن حنبل ، ولكن هذا لم يمنعه من التغالى فى دعاوى الصوفية ، ومما كان يقوله فيها : « عثر الحسين الحلاج ، فلم يكن فى زمنه من يأخذ بيده ، وأنا لكل من عثر مركوبه من أصحابى ومريدىّ ومحبىّ إلى يوم القيامة ، آخذ بيده ، يا هذا فرسى مسرج ، ورمحى منصوب ... إلخ إلخ » فلم ينكر على الحلاج دعواه فيما سبق ، وإنما أخذ عليه عثرته بالجهر بها ، وهى دعوى الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

وأما الرفاعى فقد بلغ أيضًا مثل هذه المنزلة عند الناس ، وكان له مثل تلك الدعاوى السابقة ، ومن ذلك قوله : « إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى ، وصارت همته خارقة للسماوات السبع ، وصارت الأرضون كالخلخال برجله ، وصار صفةً من صفات الحق جلّ وعلا ، لا يعجزه شىء ، وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ، ويسخط لسخطه » ، ومنها أيضًا قوله فى المريد الذى يصل إلى أعلى المقامات :

« .. وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا يسعه عقول الخلائق ، لأنه بحر عميق غرق فى ساحله خلق كثير ، وذهب به إيمان جماعة من العلماء والصلحاء ، فضلاً عن غيرهم » . وكان إذا جلس على جسمه بعوضة لا يطيرها ، ولا يدع أحد يطيرها عنه ، ويقول : « دعوها تشرب من الدم الذى قسمه الحق تعالى لها » وكان يبتدىء كل من لقيه بالسلام ؛ حتى الكلاب والأنعام ، وإذا رأى خنزيرا يقول له : أنعم صباحا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « أعوِّد نفسى الجميل » إلى غير هذا من أفعاله وأقواله .

ولما بلغ التصوف هذا المبلغ فى هذا القرن تهيَّب الناس الإنكار على أصحابه ، وقد حكوا حكايات كثيرة عمن تجرأ على الإنكار عليهم ، فكان لها أثرها فى تهيب الإنكار عليهم من الناس ، وفى التغاضى عن كل ما يصدر منهم ، ولو بلغ فى مخالفة الشرع ما بلغ ، فمن حكاياتهم فى ذلك أنه لما اشتهر الجيلى فى الآفاق اجتمع مائة فقيه من أذكياء بغداد ، وذهبوا إليه ليمتحنوه فى العلم ، وقد جمع كل واحد منهم مسائل ليمتحنه فيها ، فلما استقر بهم المجلس أطرق الجيلى ، فظهرت من صدره بارقة من نور ، فمرت على صدورهم فمحت ما فى قلوبهم ، فبهتوا واضطربوا وصاحوا صيحة واحدة ، ومزقوا ثيابهم ، وكشفوا أجسامهم ، ثم صعد الجيلى على الكرسى فأجاب عما كان عندهم ، فاعترفوا بفضله . ومن حكاياتهم فى ذلك أن الشيخ إبراهيم البستى كتب إلى الرفاعى كتابا جاء فيه : أىْ أعور ، أىْ دجال ، أى مبتدع ، يا من جمع بين الرجال والنساء ... الخ الخ ، فلما قرأه قال : صدق فيما قال ، جزاه الله عنى خيرا ، ثم أنشد :

فلستُ أبالى من زمانى بريبةٍ إذا كنتُ عند الله غير مريب

وكتب إلى البستى جوابا فى هذا المعنى ، فلما قرأه هام على وجهه ، فلم يعرفوا أين ذهب !! .

وهكذا شغل أولئك الصوفية المسلمين فى هذا القرن بما لا يفيد من أحوالهم فى دفع الخطر المحدق بهم ، فانصرفوا إلى ما يدّعونهم إليه من إهمال أمر الدنيا ، ليهيئوا لأعدائهم الاستئثار بها دونهم ، ويسهِّلوا لهم أمر الاستيلاء على بلادهم فى تلك الغفلة التى ضربها ذلك التصوف عليهم ، ومع هذا لم يتنبه أحد من المسلمين فى هذا القرن لخطر ذلك التصوف ، بعد أن راج أمره ذلك الرواج بينهم ، اللهم إلا جمال الدين أبا الفرج الجوزى ، فقد ألف فى هذا القرن كتابه « تلبيس إبليس » فى الإنكار على التصوف وأصحابه ، ولكنها كانت كأنها صرخة فى واد ، فلم تصرف المسلمين عن اندفاعهم فى ذلك التيه ، لأن التصوف بعد الغزالى قد التبس بالإسلام أيما التباس ، حتى صار الإسلام به دينًا صوفيًا ، مع أنه فى أصله دين مدنى ، وقد كان الغزالى أشعرى العقيدة ، فلما

انتصرت عقيدة الأشعرى وأخذ بها جمهور المسلمين ، نظروا إلى التصوف نظرة الغزالى إليه ، ولم يسمعوا لأبى الفرج الجوزى وغيره من الحنابلة ؛ لأنهم كانوا فى الغالب يعادون مذهب الأشعرى ،ويأخذون فى العقائد بمذهب السلف من أهل السنة .

أما أوربا فى هذا القرن فإن ما قامت به شعوبها الغربية من الحروب الصليبية نفَّس شيئا عن دولة الروم الشرقية فيها ؛ لأنه شغل المسلمين عنها ، فأمكنها أن تسترد بعض قوتها ، وتستعيد بعض البلاد التى أخذها المسلمون منها ، وكان فى هذا القرن دول قوية بأوربا الغربية فى جرمانيا وفرنسا وانجلترا ، فلما قام صلاح الدين بفتح الشام من الصليبيين والاستيلاء على بيت المقدس سار ملوك هذه الدول لحربه ، فوقعت بينهم وبينه حروب شديدة بالشام ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة، ولكن صلاح الدين ثبت لهم كالطود الراسخ ، إلى أن اضطرهم أن يصالحوه ويعودوا إلى بلادهم ، ويتركوا بقاياهم بالشام للمسلمين يقضون عليهم ، وقد سبق أن هذه الحروب قامت بتأثير رجال الكنيسة فى أوربا ، لما كان لهم من السيطرة على شعوبها ، وقد أوقعوهم فى هذه الحروب الاستعمارية التى شنُّوها على المسلمين باسم الدين ، ففازوا فيها على المسلمين أولاً، ثم فار المسلمون عليهم ثانيًا .

وكانت حال أوربا العلمية فى هذا القرن أحسن منها فى القرن السابق ، ولكنها كانت لا تزال تسير وراء الحركة العلمية الإسلامية ، وكان الفضل فى هذا لاتصال أمم أوربا بالمسلمين فى الحروب الصليبية وغيرها ، ومن هذا ما حصل من روجر الثانى ملك صقلية ؛ فإنه سار على طريق أبيه روجر الأول فى تقريب علماء المسلمين وفلاسفتهم منه ، وهو الذى استقدم الشريف الإدريسى من بلاد المغرب إلى صقلية ، وكان أعظم جغرافيِّى العالم فى هذا القرن ، لينتفع به فى هذا الفن .

فنهضت الحركة الأدبية والعلمية فى أوربا بعض النهوض ، ونقلت كتب كثيرة فى الفلسفة من العربية إلى اللاتينية ، وقد ابتدأت هذه النهضة بحركة النقل والترجمة ، فظهر فيها مترجمون لا يصلون إلى درجة الفلاسفة ، مثل أديلارد أوف بث الانجليزى ، وجنديسالفى الأسبانى ، وجيراردو دى كريمونا الإيطالى ، وهنرى أرستيب الصقلى ، ثم ظهر فيها فلاسفة مثل برناردى شارتر وأخيه تييرى الفرنسيين ، وكان برنار يفسر الموجودات بأصول ثلاثة : الله ، والمادة المخلوقة من العدم ، والمثُل القديمة ، وقد خلق الله على مثالها صورا اتحدت بالمادة الأولى التى كانت كتلةً مضطربة ، وهو يوفِّق بين أفلاطون وأرسطو بوضعه الصور فى الجزيئات ، وكان تييرى يشرح سفر التكوين من التوراة بالمعانى الأفلاطونية الأربعة : الصانع والمثل والنفس الكلية والعناصر ، ويرد المعانى الثلاثة الأولى إلى الأقاليم الثلاثة ، فالله الأب هو العلة الفاعلية ، والله الابن هو العلة الصورية ،

والروح القدس هو العلة الغائية ، أما العناصر الأربعة فهى العلة المادية ، ولكنه يجعل من الروح القدس النفس الكلية أو قوة الصانع التى تصورً بها المادة ·

ومن هؤلاء الفلاسفة أبيلار الفرنسى ، وكان من أعظم المشتغلين بالأخلاق فى عهده ، وقد ذهب إلى أن الأخلاق المسيحية تُعرف بالعقل ، وأرجع المسألة الخلقية إلى الضمير والنية ، ورتب على هذا أن الخطيئة شخصية ، وأنكر أن يكون هناك خطيئة موروثة عن آدم كما ترى الكنيسة ·

ومنهم الان دى ليل الفرنسى ، وكان يرى أن الحجة النقلية ليست قاطعة ملزمة ، فلا بد من التعويل على الحجة العقلية ، وقد ذهب إلى أن الدليل العقلى فى أكمل صورة هو الدليل الرياضى ، وكل هذا ليس فيه جديد فى الفلسفة ، وهو يدل على أن غاية أولئك الفلاسفة كانت دينية ، لأنهم كانوا يعملون على التوفيق بين الفلسفة والدين ·

ولكن أوربا قد امتازت على البلاد الإسلامية فى هذا القرن بظهور طائفة بين شعوبها ألفَّت طبقة جديدة إلى جانب طبقات الأشراف ورجال الدين والفلاحين ، وهى طبقة البرجوازية - الطبقة الوسطى - إذ حصلت على امتيازات من ملوك أوربا ، وبعثت فى شعوبها نزوعا إلى الحرية الشخصية ، وأذاعت الترف فى البلاد ، وتنافس أفرادها فى تنشيط الفنون ·

أما المسلمون فلم يكن فيهم إلا طبقة الحكام المستبدين ومَن إليهم ، وطبقة الرعية التى خضعت لهذا الاستبداد ، ولم تنزع إلى شىء من الحرية ، ولم يكن فيها مثل تلك الطبقة فى أوربا ·

وإذا وازنَّا بين البلاد الإسلامية والبلاد الأوربية فى الحركة العلمية نجد أن الشرق الإسلامى قد عادى الفلسفة إلى حد استباحة دم من يشتغل بها ، وأن بلاد المغرب خلفت الشرق الإسلامى فى تقدير الفلسفة على عهد الموحِّدين ، ولكن هذا لم يكن إلا فى عهد الملك أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ثم حوربت الفلسفة بعده فى بلاد المغرب كما حوربت فى بلاد المشرق ، فبدأت العلوم فى الجمود ، وظهر فى بعض العلماء الميل إلى الاختصار ، كما سيأتى فى الكلام على الفخر الرازى ، أما البلاد الأوربية فقد أخذت تعرف فضل الفلسفة ، وتسعى فى ترجمة كتب فلسفة اليونان والإسلام إلى اللاتينية ، وهذا أمر ستكون له نتائج خطيرة فى البلاد الإسلامية والبلاد الأوربية ·

فكان المسلمون فى هذا القرن محتاجين إلى مجدِّد يقدر تلك النتائج الخطيرة ، ويعرف ما سيترتب على معاداة المسلمين للفلسفة وشعور الأوربيين بفضلها ، ويهتم كل الاهتمام بعلاج النكسات الرجعية الدينية والسياسية والاجتماعية ، بعد أن لم تجد من يعالجها

فى القرون السابقة ، ليأخذ المسلمون فى النهوض ، ويتخلصوا من الجمود الذى وقعوا فيه قبل أن يزمن فيهم ، ويصعب علاجه بعد أخذه بخناقهم ، فلا يَدَعون الأمم الأوربية تسبقهم فى ميدان النهوض ، وتقوى عليهم بعد أن عجزت فى القرون السابقة عن تحقيق أطماعها فيهم ·

وإذا بحثنا عن هذا المجدد الذى كان المسلمون يحتاجون إليه فى هذا القرن وجدنا أن الأقرب إليه هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من أولى الأمر ؛ وابن رُشْد الحفيد من الفلاسفة ، وقد ذكر المتقدمون أن الفخر الرازى كان مجدد هذا القرن ، كما قال السيوطى فى أرجوزته :

والسادس الفخر الإمام الرازى والرافعـــى مثلـه يوازى

وكان الرافعى فقيهًا شافعيا ، فلا يضاهى الرازى الذى كان يضرب بسهم فى علوم كثيرة ، وكان واسعَ الاطِّلاع إلى حد كبير ولكنه لم يكن فى منزلة ابن رشد ·

ومن المتقدمين مَن يَعُدُّ من مجدِّدى هذا القرن الحافظ عبد الغنى ، وهو مثل الرافعى فى عدم مضاهاته للرازى ؛ لأن شهرته لم تكن إلا فى علم الحديث ، كما أن شهرة الرافعى لم تكن إلا فى علم الفقه ·

وذكر السيد رشيد رضا أن مجدد القرن السادس من العلماء ابن حزم ، ومن أولى الأمر صلاح الدين الأيوبى ، فأما صلاح الدين فقد كان من أبطال الحرب ، ولم يكن من أنصار التجديد على ما سبق ، وأما ابن حزم فقد كان من القرن الخامس لا السادس ، وكان التقليد فى العقائد والفروع قد غلب على أهل عصره فخرج على ما آثروه من التقليد ، ولكنه كان يميل إلى مذهب أهل الظاهر ، ويغالى فى التعصب لهم ، ويقدح فى مخالفيهم من المتقدمين ، والقدح ليس من شيمة المجددين ، مع أن غاية أمره أنه خرج من تقليد إلى تقليد ، وقد سبق بيان هذا فى الكلام عليه فى القرن الخامس ·

وبهذا لا يصلح للدراسة من مجددى القرن السادس إلا يوسف بن عبد المؤمن ، وابن رشد الحفيد ، والفخر الرازى ، والشريف الإدريسى ، وأبو الفرج الجوزى ، وكان الفخر الرازى الذى ذكر المتقدمون أنه مجدد هذا القرن أبعدَهم عن فهم رسالة التجديد فيه ، ولكنه كان أظهر أئمة الأشعرية الذين غلبوا فيه غيرهم ، فليكن مجدده عندهم منهم ·

* * *

يوسف بن عبد المؤمن

هو أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على من ملوك الموحِّدين ، عُنىَ أبوه بتهذيبه عناية عظيمة ، فقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والعلم ، حتى نشأ فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء، وكان فقيها حافظا متفننا ، ولكن كان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم .

وقد وصفه بعضهم بأنه كان جَمَّاعا منّاعاً ، ضابطاً لخراج مملكته ، عارفا بسياسة رعيته ، وكان ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ، ويغيب حتى لا يكاد يحضر ، وله فى غيبته نواب وخلفاء وحكام قد فوَّض الأمور إليهم ، لما علم من صلاحهم لذلك .

ووصفه آخر بأنه كان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أفوَه أعين ، فى صوته جهارة ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرفَ الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظَهم لأيامها فى الجاهلية والإسلام ، صرف عنايته إلى ذلك ، ولقى فضلاء أشبيلية أيام ولايته لها فى حياة أبيه ، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخارىِّ ، وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخياً جواداً ، استغنى الناس فى أيامه ، وكان يحفظ من الحكمة شيئا كثيرا .

وكان أبوه قد استخلف بعده على الملك ابنه محمدا ، فظهر منه اشتغال بالراحة ، وانهماك فى البطالة ، فاختلف الناس عليه فخلع ، وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوما ، فبايع الناس بالملك بعد أخاه يوسف ، واتفقت عليه الكلمة ، وكان هذا سنة ٥٥٨هـ = ١١٦٢ م ، فلما استوثق له الأمر وملك بلاد مردنيس من الأندلس خرج من أشبيلية قاصدا بلاد الأذفونش من الأندلس أيضا ، فنزل على مدينة له تسمى وبذة ، فأقام محاصرا لها شهورا ثم انصرف عنها ، وفى سنة ٥٧٩ هـ = ١١٧٣ م تجهز للغزو فى جيش عظيم ، وعبر إلى جزيرة الأندلس ونزل أشبيلية ، ثم رحل إلى شنترين فى غرب الأندلس، فحاصرها وضيَّق عليها إلى أن هجم الشتاء وخاف المسلمون من البرد ، فطلبوا منه أن يرجع عنها إلى أشبيلية حتى إذا طاب الزمان عادوا إليها ، فقبل ذلك منهم وقال : نحن راحلون غدا إن شاء الله تعالى . ولكن الناس تعجلوا الرحيل فى الليل وعبروا النهر وتركوه فى فئة قليلة ، فخرج الفرنجة إليه منتهزين فرصة عبور أكثر المسلمين ، فدافعهم من بقى معه مَن أعيان الجند ، ولكنهم تغلبوا عليهم ووصلوا إليه ، فطعنوه تحت سُرَّته طعنةً كانت سبب موته ، وكان هذا فى سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م .

وهذا الملك العظيم هو الذى عرف للفلسفة قدرها فى هذا القرن ، ولم يؤثر فيه تألب ملوك عصره وعلمائه عليها ، بل خرج على جمودهم ، وأعاد للفلسفة مكانتها فى دولته ، وجدد ما بلى من معالمها فى مملكته ، ووصل فى تجديدها إلى ما لم يصل إليه مَن قبله ، لأنه هو الذى أنار الطريق لابن رشد الحفيد ، ووجّهه نحو الغاية التى رفعت من شأن فلسفته ، وكان ابن طفيل قد أوصل ابن رشد بمجلسه قبل أن يتولى الملك ، فسأله عند اتصاله به : هل للسماء مبدأ أو هى أزلية ؟ . فتهيب ابن رشد أن يصرح له برأيه فى ذلك ، لأنه لم يكن يعرف أنه على خلاف أمراء عصره فى النظر إلى الفلسفة ، فلما تهيَّب ابن رشد تولى هو الجواب عن سؤاله ، وشرح فيه رأى أفلاطون وأرسطو فى ذلك ، فاطمأن إليه ابن رشد ، وأدلى برأيه فى ذلك أيضا .

فلما تولى الملك أخبر ابن طفيل بأنه فى حاجة إلى فيلسوف ذكى يشرح كتب أرسطو ، فدله على ابن رشد ، فأحضره وطلب منه أن يقوم بشرح جديد لهذه الكتب ، فقام بشرحها على ما طلب ، وكانت شروحه لها أقرب إلى فهمها من شروح من سبقه ، ولا شك أن هذا الملك لم يطلب منه هذا إلا لنقص رآه فى تلك الكتب القديمة ، فأنار بهذا طريق الإصلاح لابن رشد ، ووضّح له الغرض الذى قصده من الشروح الجديدة ، وبهذا كانت فلسفة ابن رشد أقرب إلى فلسفة أرسطو من غيرها ، ولولا إرشاده لابن رشد لم يكن لها هذه الميزة العظيمة .

والحق أن هذا الملك كان أقرب من غيره إلى أن يكون مجدد هذا القرن ، ولكن الفلسفة الإسلامية كانت مكروهة فيه ، فلم ينظر أهله إلى هذا الملك من هذه الناحية التى يستحق من أجلها رتبة التجديد ، وإنما نظروا إلى جهاده فى الأندلس ، فرفعوا مكانه من أجله ، وتغاضوا عما كان منه من الاشتغال بالفلسفة ، وعما كان من إحيائه لها فى بلاد المغرب ، بعد أن انتهى أمرها فى بلاد المشرق ، وقد مضى عهد التعصب على الفلسفة ، وصار المجددون فيها أجدر بلقب التجديد من غيرهم .

ولو أن هذا الملك الفيلسوف عدل عن الجهاد بنفسه ، وترك قيادة الجيوش لغيره ، وعاش أكثر مما عاش فى هذا الملك الواسع ، لربحت منه الفلسفة أكثر مما ربحت ، وارتفعت فى عهده أكثر مما ارتفعت ، وثبتت أركانها فى مملكته ، فسارت فى طريق التقدم والنهوض ، وانتفع بها المسلمون قبل أن ينتفع بها غيرهم .

* * *

ابن رشد الحفيد

هو الفيلسوف الفقيه أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، ويلقب بالحفيد تمييزاً له عن ابن رشد الجدّ صاحب كتاب المقدمات فى الفقه ، وقد ولد ابن رشد الحفيد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م ، وكان أبوه قاضياً لها ، وكذلك كان جده ، ونشأ فى عهد الموحدين الذين لم ينظروا إلى الفلسفة كما كان المرابطون ينظرون إليها قبلهم ، ويؤخذون أصحابهـا بالسِّجن والقتل ، فدرس العلوم الدينية والعربية والفلسفة دراسة دقيقة ، حتى امتاز على من كان قبله من الفلاسفة بجمعه بين العلوم الدينية والفلسفية ، واستحق أن يعدّ من أئمة الفقه ، كما يعد من أئمة الفلسفة ، وقد تعمق فى دراسة الفلسفة اليونانية حتى كان أكثر فهماً لها ممن سبقه من الفلاسفة ، ولا سيما فلسفة أرسطو ، فقد كان فى شرحها أكثر توفيقاً من غيره ، حتى أطلق عليه فلاسفة أوربا فى أوائل عصر النهضة لقب الشارح[1] وقال بعضهم : ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ، ثم ألقى ابن رشد على كتب أرسطو نظرة صائبة ففسرها وشرح غامضها ، وكان ابن رشد يرمى ابن سينا وهو الشيخ الرئيس بأنه غيَّر مذهب الفلاسفة فى الإلهيات ، حتى صار ظنيا لا يقينيا ، كما كان يرى أنه متكلم لا فيلسوف .

وقد عرف أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من ملوك الموحدين له هذا الفضل فقرّبه من مجلسه ، واتخذه طبيباً له بدل أبى بكر بن طفيل حينما أدركه عجز الشيخوخة ، ثم ولاه قضاء قرطبة ، فكان الفيلسوف المسلم الذى ولى هذه الوظيفة الدينية ، وصار حجة فعلية على أنه لا عــداء بين الفلسفــة والدين ، فلمــا توفى ذلك الملك وقام بعــده ابنه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور لم ينظر إلى الفلسفة نظرة أبيه ، لتغلُّب الجامدين الذين يكرهون الفلسفة وعلومها عليه ، وهم رجال الدين ومن ينقاد إليهم ، فأوغروا صدره على ابن رشد لاشتغاله بالفلسفة ، وساعدهم على هذا أن ابن رشد كان يرعى منزلة الفيلسوف فى معاشرته لهؤلاء الملوك ، فلا يضع نفسه فى منزلة دونهم ، بل كان إذا حضر مجلس أبى يوسف المنصور وكلمه أو باحثه فى شىء من العلم قال له : تسمع يا أخى ، وقد ألف كتابا فى الحيوان فذكر فيه الزرافة وأوصافها ، ثم قال : وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر - يعنى المنصور - لأنه من قبائل البربر المغربية ، ويقال إن المنصور لما غضب على ابن رشد من أجل هذا اعتذر إليه بأنه إنما قال - ملك البرّين - فتصحف على القارىء بملك البربر ،

(١) سيأتى بيان هذا العصر فى الكلام على بدء نهضة أوربا .

إلى غير هذا مما ساعد الجامدين من رجال الدين على إثارة المنصور عليه لاشتغاله بالفلسفة .

وهذا إلى تهمة أخرى دُبِّرَتْ لابن رشد تدل على أن أولئك الجامدين لم يكن عندهم سببٌ صحيح لمعاقبته على الاشتغال بالفلسفة ، فقد نظروا فى تلخيصه لبعض كلام القدماء ، فرأوه يحكى قولهم - فقد ظهر أنِ الزُّهرة أحد الآلهة - فأخذوا هذه الجملة من تلخيصه وقَدَّموها للمنصور على أنها من كلام ابن رشد ، مع أنه ناقل لها عن غيره ، وناقل الكفر ليس بكافر .

فسمع المنصور لهم ، وعاقبه بالنفى إلى أليسَانة ، وهى بلدة قريبة من قرْطبة يسكنها اليهود ، ثم نفى أصحابه وفرَّقهم فى البلاد ، وأمر بإحراق كتب الفلسفة إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وسَمْتِ القبلة ، ولكن المنصور لم يلبث أن ظهر له براءة ابن رشد مما نسب إليه ،فعفا عنه وأكرمه ، وإن كان لم يغير موقفه من الفلسفة ، حتى أدركها الركود فى المغرب ، كما أدركها الركود قبله فى المشرق ، وكانت وفاة ابن رشد بعد هذا سنة ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م .

وقد أتى ابن رشد بعد أن قضى الغزالى على الفلسفة فى المشرق بكتابه « تهافت الفلاسفة » وجعل الجمود يخيم فيه على عقول أهله ، فألف كتابا فى الرد عليه سماه « تهافت التهافت » انتصر فيه للتجديد الفلسفى فى الإسلام ، وأبطل ما ذهب إليه الغزالى من تكفير الفلاسفة ، وحكم بأنهم مجتهدون يثابون إنْ أصابوا ويعذرون إن أخطئوا ، ثم أيد هذا بكتاب آخر سماه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » فذكر فيه أنه لا خلاف بين الفلسفة والشريعة ، لأنه لا خلاف بين الدين والعقل ، وقد وقف بهذا كله موقفا عظيما أمام أولئك الجامدين ، قارع فيه حجتهم بأقوى منها ، وأثبت لهم بالدليل القوى أن الإسلام برىء مما ينسبونه إليه من معاداة الفلسفة .

ولكن ابن رشد لم يجد نصيرا له فى هذا الموقف العظيم بين المسلمين ، فاستمروا على عدائهم للفلسفة فى المشرق والمغرب ، ولم يعرف لهذا الفيلسوف فضله على الفلسفة إلا فلاسفة أوربا فى عصر النهضة ، فانتفعوا به أكثر من غيره من فلاسفة الإسلام ، ونال من تقديرهم ما لم ينله غيره منهم .

ولم يقم ابن رشد بغير هذا من نواحى التجديد التى كان المسلمون يحتاجون إليها فى هذا القرن ، فلم يحاول إصلاح الحكم فيهم ، ولَم يحاول أن يزيل العصبية الجاهلية بين الشعوب الإسلامية ، ولم يحاول أن ينشر التسامح فى اختلاف الفرق الدينية ، بل كان هو نفسه ينقصه هذا التسامح ، لأنه كان شديدا على هذه الفرق الدينية كما كانت شديدة على

الفلسفة ، فكان لا يتورّع عن رميها بالضلال ، بل كان لا يتورع عن رميها بالكفر كما تُرمَى الفلاسفة ، مع أنه كان أكبر من أن يقف هذا الموقف فى التكفير ، لأن الفيلسوف يجب أن يكون واسع الأفق ، رحبْ الصدر ، ولا سيّما بعد أن ذهب إلى جواز الاجتهاد فى الأصول ، ولم يقصره على الفروع كما تقصره تلك الفرق الدينية ·

وقد نسب إليه الشعرانى فى الطبقات الكبرى[1] أنه كان من المفتين فى المغرب بحرق كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، فإذا صح هذا كان مما يؤخذ عليه أيضاً ، لأنه تشدّد فى الإنكار يليق بطائفة الفقهاء ، ولا يليق بطائفة الفلاسفة · ولكن هذا كله لا ينسينا فضل ابن رشد فى تجديد الفلسفة فى المغرب بعد ذهابها فى المشرق ولا فى براعته فى التوفيق بين الفلسفة والإسلام ، لأنه سلك فى هذا طريقاً لم يسلكه قبله فيلسوف من المتقدمين ، ولا شك أن امتيازه بهذا يرجع إلى امتيازه عليهم بدراسته الواسعة فى علوم الدين ، وإن كتابه - بداية المجتهد ونهاية المقتصد - ليدل على أنه بلغ فى هذه الدراسة مبلغا عظيما ، جعل الفقهاء بعده يعترفون بمنزلته فيها ، ويشهدون بفضله فيها على ما كان من سخطهم عليه لاشتغاله بعلوم الفلسفة ·

ولا يفوتنا أن نضيف إلى هذا ما كان له من تجديدات فى الفلسفة العملية شهد له بها فلاسفة أوربا ، فذكروا أنه أشار فى كتابه - الكليات فى الطب - إلى الدورة الدموية ، وهذا قبل أن يكشفها فى العصر الحديث بعض فلاسفة أوربا ، كما ذكروا أن كولمبوس حدث عن نفسه أنه انبعث إلى السفر قاصداً الهند من طريق الأطلنطى بمطالعة كتب ابن رشد ، فكان هذا سببا فى وصوله إلى كشف أمريكا ، إلى غير هذا من تجديدات هذا الفيلسوف الفقيه ·



(١) ج ١ ص ١٥ ·

فخر الدين الرازى

هو أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التيمى البكرى الرازى ، ولد بالرِّى سنة أربع أو ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وتعلم العربية والفارسية ، وأخذ على والده بالرى إلى أن مات ، ثم قصد الكمال السمعانى واشتغل عليه مدة ، ثم عاد إلى الرى وأخذ على المجد الجيلى ، وصحبه إلى مراغة حين طلب إليها ليدرس بها ، وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة ، ثم قصد خوارزم بعد أن تمهر فى العلوم ، فجرى بينه وبين أهلها كلام فيما يرجع إلى المذهب والاعتقاد ، وكان أشعريا شافعيا ، فأخرجوه من البلد بسبب اعتقاده ، ثم قصد ما وراء النهر فجرى له فيها مثل ذلك ، فعاد إلى الرِّى ، وكان بها طبيبٌ حاذق له ثروة ونعمة ، وكان له ابنتان ولفخر الدين ابنان فزوجهما منهما ، فلما مات الطبيب استولى فخر الدين على أمواله ، واتسعت بهذا ثروته ، فلازم الأسفار ، وعامل شهاب الدين الغورى صاحب غزنة فى جملة من المال ، ثم مضى إليه لاستيفاء حقه منه فبالغ فى إكرامه والإنعام عليه ، وحصل له من جهته مال كثير ، ثم عاد إلى خراسان واتصل بالسلطان محمـــد بن تكش المعروف بخوارزم شاه ، فحظى عنده ونال أسنى المراتب ، وكانت وفاته بمدينة هراة سنة ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م .

وقد ذكر ابن خلكان أن فخر الدين الرازى فاق أهل زمانه فى علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل ، وأن له تصانيف مفيدة فى فنون عديدة ، منها تفسير القرآن الكريم ، جمع فيه كل غريب وغريبة ، ومنها فى علم الكلام : المطالب العالية ، ونهاية العقول ، والمحصل وغيرها ، ومنها فى علم أصول الفقه : المحصول ، والمعالم ، ومنها فى الحكمة : الملخص وشرح الإشارات وشرح عيون الحكمة، وغيرها ، ومنها فى الطب : شرح الكليات للقانون ، ومنها فى الفقه : شرح الوجيز ، إلى غير هذا من كتبه فى الفنون المختلفة ، وكلها ممتعة منتشرة رزق فيها سعادة عظيمة ، لأن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وهو أول من اخترع هذا الترتيب فى كتبه ،وأتى فيها بما لم يُسبق إليه[1] .

وذكر ابن العبرى أن فخر الدين الرازى بزَّ القدماء فى الفقه وعلم الأصول والكلام والحكمة ، وأنه رد على ابن سينا فى شرح الإشارات وغيرها واستدرك عليه ، ثم عنّ له أن تهوَّس بعمل الكيمياء ، وضيع فى ذلك مالا كثيرا ولم يحصل على طائل ، وأنه كان يخشى أن العوام تمثل بجثته لمَا كان يظن به من انحلال العقيدة ، ثم ذكر أنه كان فى زمانه

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٤ .

جماعة من تلامذته سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة فى المنطق والحكمة : كزين الدين الكشى وقطب الدين المصرى بخراسان ، وأفضل الدين الخونجى بمصر ، وشمس الدين الخسروشاهى بدمشق ، وأثير الدين الأبهرى بالروم ، وتاج الدين الأرموى وسراج الدين الأمورى بقونية[1] .

والحق أن فخر الدين الرازى لم يكن فى هذا مجددا ، لأنه كان فى العقائد مقلدا للأشعرى ، وفى الفقه مقلدا للشافعى ، ولكنه كان يخالف أشعرية زمانه فى تحاميهم النظر فى الفلسفة ، وعدم تأثرهم بأسلوبها فى التقرير والبحث ، فجمع بين الفلسفة وعلم الكلام ، ولعله كان أول من استعار فى علم الكلام كثيرا من مسائل الفلسفة ، كالكلام فى الجواهر والأعراض وغير هذا من مسائلها ، فأخضع بهذا مسائل الفلسفة لعلم الكلام ، حتى صارت من لواحق هذا العلم الدينى ، ولم تعد تدرس دراسة خاصة بها كما كانت قبل ذلك ، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن المتكلمين الذين جاءوا بعد الغزالى خلطوا مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة ، فصارت كأنها فن واحد ، كما فعله الفخر الرازى فى كتابه - الحكم المشرقية - وجميع من بعده من علماء الكلام ، وبهذا يكون الفخر الرازى أول من عُنِىَ بجمع معارف المتقدمين وتلخيصها ، وأول من أذاع الطريقة التقريرية الفلسفية فى سائر العلوم ، من تفسير إلى نحو إلى بلاغة إلى غير هذا من العلوم المختلفة ، وقد اختصر كتابى عبد القاهر فى البلاغة - دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة - فى كتاب سماه - دراية الإعجاز - عنى فيه بالطريقة التقريرية دون الطريقة الأدبية على عكس كتابى عبد القاهر ، فكان بهذا أول من أظهر الطريقة التقريرية فى علوم البلاغة .

ولكن كانت هذه الطريقة التقريرية فى كتب فخر الدين الرازى على خلاف ما صارت إليه بعدها ، لأنها كانت فى أول نشأتها ، وكان الأسلوب العربى لا يزال له قوته وسلطانه ، فلم يكن فيها من الحشو والتعقيد وسوء التأليف ما صارت إليه بعد ذلك ، ومع هذا لم يكن من فخر الدين الرازى إلا أن ندم على هذه الطريقة فى آخر أمره ، فنقل عنه صاحب طبقات الشافعية أنه اختبر الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فلم ير فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدها فى القرآن ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات ، ولهذا كان يقول فى آخر أمره :

نهاية إقدام العقول عقالُ ... وأكثر سعى العالمين ضلالُ
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(1) تاريخ ابن العبرى ص ٤١٨ ، ٤٤٥ .

ولكن هذا لم يمنع من أتى بعد فخر الدين الرازى من المضى فى هذه الطريقة التقريرية فى التعليم والتأليف ، حتى غزت الفلسفة النظرية سائر علومنا ، وقلبت أوضاع سائر العلوم عندنا ، وضاعت بها ثمرة كثيرة من هذه العلوم ، كعلم النحو وعلوم البلاغة ، فرجعت بعلومنا إلى الوراء ، وكان الفخر الرازى أول من سنّ هذه السنة الرجعية ، فلا يصح أن يعد بها مجددا .

وكان فخر الدين الرازى إلى هذا أشعريا متعصبا يرى أن الأشعرية هى الفرقة الناجية دون سائر الفرق الدينية ، فلم يصلح شيئاً من النكسة الرجعية الدينية ، كما لم يصلح شيئاً من النكسة الرجعية الاجتماعية ، ولا شيئاً من النكسة الرجعية السياسية ، بل وضع يده فى يد الجبابرة من ملوك زمانه ، وآثر أن يعقد معهم معاملات تجارية لتزيد فى ثروته على أن يصلح شيئا من أحوال ملكهم .

وذكر ابن خلكان أنه كان له فى الوعظ يد بيضاء ، وأنه كان يعظ بالعربية والفارسية ، وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء ، وكان مجلسه بمدينة هراة يحضره أرباب المذاهب والمقالات ، فيسألونه وهو يجيب كل سائل بأحسن إجابة ، وقد رجع بسببه كثير من الطوائف التى كانت تتحامى التأويل كالكرامية وغيرهم إلى مذهب الأشعرية ، ولعل هذا هو التجديد الذى يعنيه من ذكره بين مجددى القرن السادس الهجرى ، ولكنه لم يكن التجديد المطلوب فى هذا القرن ، بعد أن دق فيه ناقوس الخطر على المسلمين ، ولم تكن الوسيلة لدرئه تغليب فرقة على أخرى من الفرق الإسلامية ، وإنما كانت الوسيلة إصلاح ما كانوا فيه من الفساد الدينى والسياسى والاجتماعى والعلمى ، ولم يكن الفخر الرازى فى شىء من هذا ، بل كان هو الذى سنّ ما سبق فى العلم من العناية فيه بالجمع والحفظ والتلخيص دون الابتكار والتجديد ، ويقال إنه حفظ الشامل لإمام الحرمين ، وهو الذى سن فيه تلك الطريقة التقريرية التى تُعنَى بالقشور ، وكان لها من الأثر فى تأخر المسلمين ما سنبينه فيما سيأتى من القرون .

وغاية ما يقال فى فخر الدين الرازى أنه أراد أن يمثّل فى القرن السادس الهجرى ما مثله الغزالى قبله فى القرن الخامس ، فندم مثله على اشتغاله بالعلوم العقلية والفلسفية ، وقال فى كتابه الذى صنفه فى أقسام الذات : « ... ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا » . وقال ابن الصلاح : أخبرنى القطب الطوغانى مرتين أنه سمع فخر الدين الرازى يقول : يا ليتنى لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى .

ثم حدث له بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من العلم حالة صوفية مثل التى حدثت للغزالى ، فكانت تنتابه فى مجالس وعظه نوبات يصرخ منها مستغيثا ، وقد وعظ يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغورى ، وحصلت له حال فاستغاث : يا سلطـان العالم ، لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازى يبقى .

ولكن الغزالى كان فى حالته الصوفية أصدق من الفخر الرازى ، لأن الغزالىَ حين صار إلى هذه الحالة تجرد من مالهٰ ، وانقطع عن ملوك زمانه ، أما الفخر الرازى فلم ينقطع عن ملوك زمانه ولم يتجرد من ماله ، لأنه مات عن ثروة ضخمة منها ثمانون ألف دينار ، فلم يكن تصوفه مطابقا لحقيقة حاله ، ولعل هذا هو ما عناه بقوله فيما سبق - ولا تلبيس الرازى يبقى - والله أعلم .



الشريف الإدريسى

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس العلوى الطالبى ، ولد فى سبتة بالمغرب الأقصى سنة ٤٩٣هـ = ١١٠٠ م ، وكان أبواه أندلسيين ، فذهبا به إلى قرطبة بالأندلس ، فنشأ بها وأخذ على علمائها ، ونبغ فى علم الجغرافيا ، ثم رحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية ، وذلك فى عهد ملكها روجر الثانى .

فنزل بصقلية على هذا الملك ، ويقال إنه هو الذى استقدمه إليه من بلاد المغرب ، وكان معجبا بحضارة المسلمين ، مولعا بثقافتهم ، محبا لعاداتهم ، حتى إنه كان يلبس ملابسهم ؛ وكان رداؤه يطرز بحروف عربية ، فأثار هذا عليه فى أوربا رجال الدين المسيحى ، وجعلهم يقولون عنه إنه ملك نصف وثنى ، لأنهم كانوا يزعمون أن كل من خالفهم فهو من الوثنيين ، ولا يستثنون من ذلك المسلمين .

فاتخذ الإدريسى مدينة بلرم عاصمة صقلية مقراً لنشاطه العلمى ، ووجد من رعاية هذا الملك المسيحى له ما ساعده على نشاطه ، وقد وضع له كتابه المشهور - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - وكان فراغه منه سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م ، وهو أصح كتاب وضعه المسلمون فى علم الجغرافيا ، وقد اشتمل على ما ذكره المتقدمون فى هذا العلم ، وجمع إليه ما استفاده صاحبه من تلك الرحلات الطويلة ، وكانت له فيه نظرات انتقادية تدل على سعة أفقه ، وتمكنه من الحقائق الأساسية لعلم الجغرافيا ، مثل كروية الأرض وغيرها .

وكان هذا الملك قد طلب منه أن يصنع له كرة سماوية ، ومصورًا للأرض على شكل قرص ، فصنعهما له من الفضة ، ثم طلب منه أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ، فوقع الاختيار على أناس ألبّاء فطناء أذكياء ، ساروا إلى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ، وأخذوا معهم مصوِّرين يصورون كل ما يشاهدونه ، وكان الإدريسى يدوِّن كل ما يصل إليه منهم ، حتى تكامل له كتابه السابق ، فجاء أوفى كتاب فى علم الجغرافيا إلى ذلك العهد ، وعُدَّ به الإدريسى أعظم جغرافيى القرون الوسطى .

وقد ترجم كتاب - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - إلى اللغة اللاتينية ، فتعلمت أوربا منه علم الجغرافيا فى القرون الوسطى ، لأنه كان أصح كتاب ألفه المسلمون فى وصف بلاد أوربا وإيطاليا ، وكل من كتب من المسلمين بعد الإدريسى عن أوربا أخذ عنه ، وقد اشتمل على عدة مصوَّرات لما اشتمل عليه من البلاد ، فلما ترجم إلى اللاتينية مع هذه المصورات مكثت أوربا تعتمد عليها ثلاثة قرون ، إلى أن ظهر علم الجغرافيا الحديث .

ومن هذه المصورات مصور احتوى على منابع النيل ، وعلى البحيرات الاستوائية الكبيرة التى لم يصل إليها رُوَّاد أوربا إلا فى العصر الحديث ، وهذا المصور أعظم مصورات الإدريسى طرافة ، وهو يثبت أن معارف المسلمين فى جغرافية أفريقيَّة أعظم مما ظُنَّ زمانا طويلا .

ولا يزال لكتاب الإدريسى قيمته فى أوربا ، وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية ، وكان هذا الكتاب مجهولا بيننا ، وكان صاحبه مغمورا فى الغفلة التى وقع المسلمون فيها بعده ، فلم يعرف فضل كتابه عندنا إلا بعد تنويه علماء أوربا به ، ورفعهم من شأنه ، وقد عدا عليه بعض العلماء بعده فوضع خلاصة له ، وقد طبعت هذه الخلاصة بالعربية ، وكان شأننا فى هذا كشأننا حين أدركنا العجز عن مجاراة أسلافنا فى التجديد العلمى ، فلم نزد شيئا فى علمهم ؛ وإنما عمدنا إلى هذه الخلاصات ، لنكتفى بها عن التوسع فى العلوم ، ونجمد عليها ذلك الجمود المذموم ، ونترك لغيرنا ميدان التجديد الذى سار فيه أسلافنا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

وذكر كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون كتاب - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - فلم يعرف من أمره ما عرفه علماء أوربا ، ولم يذكر إلا أنه للشريف محمد بن محمد الإدريسى الصقلى ، صنفه لرجار الفرنجى صاحب صقلية ، وهو من أصحابه ، ورتبه على الأقاليم السبعة ، وأورد فيه أوصاف البلاد والممالك مستوفية ، وذكر المسافات بالميل والفرسخ .

فلم يذكر شيئا من تجديداته فى علم الجغرافيا مما شهد له به فيما سبق علماء أوربا ومما شهدوا له به أيضا من أنه كان أول من سمِى باسم - الماليز - أحد الشعوب الساكنة فى جزيرة جاوه ، وقد ذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة مدغشقر من العلاقات ووحدة الجنس ، فدل بهذا على أن مصوَّره الجغرافى وصل إلى تبسيط عظيم فى المحيط الهندى لم يصل إليه الجغرافيون قبله ، وإن كان قد ذكر ما وصل إليه من ذلك على أنه امتداد لقارة أفريقية ، لأن جغرافيته كانت قائمة على أساس جغرافيا بطليموس اليونانى قبله .



أبو الفرج ابن الجوزى

هو جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجَوْزى القرشى التَّيمى البكرى ، ينتهى نسبه إلى الخليفة الأول أبى بكر الصديق ، وقد ولد ببغداد سنة ٥١٤هـ = ١١٢٠م ، ولما ترعرع قليلا حفظ القرآن ، وقرأه على جماعة بالروايات ، ثم طلب العلم على جمع كثير من العلماء ، وكان حنبلى المذهب ، وفيه تعصب شديد له ، حتى أوذى فى سبيل تعصبه له وناله فيه ما ناله من الشدة ، وقد قال له قائل ذات يوم : ما بك عيب إلا أنك حنبلى ، فأنشده فى الحال :

وعيّرنى الواشون أنى أحبها وتلك شكاةٌ ظاهر لك عارها

وقد اشتغل بالوعظ وهو صغير جداً ، وكان الناس يرتاحون لوعظه ، ويقصدونه من كل فج لسماعه ، فاشتهر بهذا أمره بينهم ، وذاع صيته بين العامة والخاصة ، وعظم شأنه فى عهد الوزير أبى هُبيرة ، ولما ولى المستنجد بالله الملك خلع عليه خلعة مع الشيخ عبد القادر وأمثاله ، وأذن لهم فى الجلوس بجامع القصر ، فتكلم أبو الفرج فى الوعظ واحتشد القوم على مجلسه ، كما كانوا يفعلون فى كل مجلس له ، وكان عددهم يتراوح على الدوام بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا .

ولما ولى المستضىء قوى اتصال أبى الفرج به ، وقد ألف له كتاب - المصباح المضىء فى خلافة المستضىء - ثم كتاب - النصر على مصر - بمناسبة عودة الخطبة للعباسيين بمصر وانقضاء عهد الفاطميين ، وقد حظى بهذا عند المستضىء وحصل له من القبول وحضور الملوك مجالسه ما لا يكاد يوصف ، وقد تكلم يوم عاشوراء سنة ٥٧٤ هـ - ١١٧٨ م ، وكان أمير المؤمنين حاضرا مجلسه ، فقال له أثناء وعظه : « لو أننى مثلت بين يدى السُّدَّة الشريفة[1] لقلت : يا أمير المؤمنين ، كن لله سبحانه مع حاجتك إليه ، كما كان لك مع غناه عنك ، إنه لم يجعل أحدًا فوقك ، فلا ترضى أن يكون أحد أشكر له منك » ، فتصدق أمير المؤمنين يومئذ بصدقات كثيرة ، وأطلق بعض المحبوسين ، وتقدم فى هذه السنة بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل ، وحصل لأتباع مذهبه تعظيم زائد ، فجعل الناس يقولون لأبى الفرج : هذا كله بسببك ، فإنه ما ارتفع هذا المذهب عند السلطان إلا بسماع كلامك .

وكان أبو الفرج كثير التأليف ، وقد ذكروا أنه كان يكتب فى اليوم أربع كراريس ،

---

(١) السدة ما يجلس عليه كالمنبر ونحوه .

وكان له فى كل علم مشاركة ، وقد سئل عن عدد مصنفاته فقال : زيادة على ثلثمائة وأربعين مصنفا ، ومن هذه المصنفات ما هو عشرون مجلدا ، ومنها ما هو كراس واحد ، وكان كثير الاطلاع على مصنفات الناس ، حسن التبويب والترتيب ، ومن مصنفاته المغنى فى التفسير ، وزاد المسير فى علم التفسير ، وعمدة الراسخ فى معرفة المنسوخ والناسخ ، إلى غير هذا من مؤلفاته ، وإنما يهمنا هنا منها كتابه المشهور : تلبيس إبليس .

وكانت وفاته سنة ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م ، وقد أوصى أن يكتب على قبره :

يا كثير الصفح عمن كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه
أنا ضيفٌ وجزاء الضيف إحسان إليه

وحياة أبى الفرج فى هذا حياة واعظ قضاها فى أمر الناس بالتقوى ، وحثهم على القيام بالطاعات وترك المحرمات ، وقد رضى الناس بهذا منه ، ورضى الملوك أيضا بهذا منه ، لأنه كان يحث الناس فى وعظه على لزوم الجماعة ، وعدم الخروج على الطاعة ، وهذا كان أقصى ما يطلبه الملوك من واعظ مشهور ملك ألباب الناس ، واستهوى بوعظه أفئدتهم ، وقد أفاد أبو الفرج بهذا كثيرا فى دنياه ، واستفاد كثيراً لأهل مذهبه ، ولا شىء عليه أن يستفيد منهم هذه الفوائد لنفسه وأتباعه ، لأن هذا يوافق نظره إلى الدنيا على ما سيأتى فى الكلام على كتابه - تلبيس إبليس - ولكن ما كان يأخذه منهم جعله يغضى فى وعظه لهم عن مصارحتهم بما كان يجب أن يصارحوا به ، وهو قيام حكمهم على الاستبداد ، وعدم أخذهم فيه بالشورى ، وغفلتهم عن النهوض بالرعية ، وإهمالهم العمل على استعادة ما ضاع من مجد الإسلام ، واسترداد ما ذهب من حضارته ، قبل أن يسبقه غيره فى ميدان الحضارة ، ويتقدم عليه فى العلوم والمعارف ، فلا يكتفى فى وعظه للملك بأن يطلب منه أن يكون شكره لله فوق شكر غيره ، لأنه لم يجعل أحداً فوقه ، فلا يفهم الملك من هذا إلا أنه يطلب منه أن يتصدق كثيرا ، وأن يطلق بعض المحبوسين ، وأن يقوم بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل ، مع أن هذا الملك لم يكن فوق الناس جميعا كما ذكر أبو الفرج ، وإنما كان يعيش سجينا فى بغداد ، وقد ضاعت ممالكه باستيلاء من استولى عليها من السلجوقيين وغيرهم ، ولم يكن إلا ملكا صوريا لا حول له ولا قوة ، فكلمة أبى الفرج هذه إما غفلة عن هذه الحقيقة ، وإما ملق ومداهنة لا يغنيان من الحقيقة شيئا .

وقد كان مع هذا فى أبى الفرج من التشدد فى الدين ما فى غيره من أتباع ابن حنبل ، فكان يذم التأويل فى الدين ، وينظر بعين البغض إلى الفرق التى خالفت سُنة

السلف فى ترك التأويل ، ولا يرضى عن الأشعرية الذين حاولوا أن يقفوا فى ذلك موقفا وسطا بين المعتزلة والقدامى من أهل السنة ، فلم يصل فى وعظه إلى السمو الذى يداوى جراح هذه الفُرْقة الدينية ، وينشر التسامح بينهم فى خلافاتهم ، وقد كان عليه أن يستغل انقياد الجماهير له فى ذلك الغرض النبيل ، ليجمع به بين فرق المسلمين ، ويزيل ما بينهم من تشاحن وتخاصم ، وقد حكى أنه وقع فى عهده نزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة فى المفاضلة بين أبى بكر وعلى ، ووقع اتفاق الفريقين بما يقوله أبو الفرج فى ذلك ، فأقاما من يسأله عنه وهو على الكرسى فى مجلس وعظه ، فقال على البديهة : « أفضلهما من كانت ابنته تحته » ونزل فى الحال حتى لا يراجَع فيما قال ، فكل من الفريقين احتج بها لنفسه .

وما كان لأبى الفرج أن يتهرب عن الجواب الصريح فى هذه المسألة ، ولكن تهرُّبه بهذا الشكل يدل على مبلغ حرصه على إرضاء تلك الجماهير المنقادة له فى وعظه ، وأنه كان يسلك فيه مسلكا لا يتعدى حثهم على التقوى ، وأنها هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وما إلى هذا من الأمور التى لا يزال الوعاظ يدورون فى دائرتها ، ولا يكادون يتعدونها فى وعظهم ، حتى مجَّ الناس أسلوبهم فى الوعظ ، وصاروا يسمعونه فلا يتأثرون به ، لأنه كلام يسمعونه كل يوم ، ولا يصل إلى علاج النكسات الرجعية التى وقعوا فيها ، وكانت السبب فى ضياع مجدهم ، وتأخرهم فى دنياهم وأخراهم .

ولو أن أبا الفرج لم يؤثر فى ذلك إرضاء أهل السنة والشيعة للامهم على الاشتغال بهذه المسألة التافهة ، لأنها من المسائل التى لا تقدم ولا تؤخر فى الدين ، ومع هذا فرقت كلمة المسلمين ، وجعلتهم فريقين يعادى بعضهم بعضا ، فيكون الاشتغال بها حراما وإثما ، لأنه يؤدى إلى استمرار النزاع بين المسلمين ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم الأفضل من أبى بكر وعلى ، وهو الذى سيتولى حسابهما ، وقد مضى أمرهما وانتهى ، ومضى الخلاف بينهما على الخلافة فى هدوء ورفق ، فلم يؤدِّ إلى تفريق كلمة المسلمين ، وكان لأبى بكر رأيه فى أنه قام بالخلافة على رضا واختيار من الناس ، وكان لعلى رأيه فى أنه أحق بها منه لقربه من النبى ﷺ ، ولكنه مع هذا عاد فبايعه حذرا من تفريق كلمة المسلمين ، واحتفظ برأيه لنفسه ، ولم يحاول أن يحمل غيره عليه بوسيلة من الوسائل التى تؤدى إلى تفريق الكلمة ، ولا بأس علينا فى أن نرى فى ذلك رأيه ، ولكن لا يحق لنا أن نبالغ فى ذلك ، مع أنه هو نفسه لم يبالغ فيه ، فإذا بالغنا فيه نكون مخالفين له ، ولا يصح أن يكون من شيعته من يوافقه فى رأيه ثم يخالفه فى حد التمسك به ، لأنه لم يفرق به كلمة المسلمين ، فيجب أن نحافظ مثله على جمع كلمتهم .

ولكنى لم أذكر أبا الفرج هنا لشىء من ذلك كله ، لأنه لا يستحق به أن يذكر بين مجددى هذا القرن ، ولكنى ذكرته لموقف له من أسمى مواقف التجديد فى كتابه - تلبيس إبليس - فقد وقف فيه مع الصوفية موقفا يجب أن يذكر له فى هذه الناحية من التجديد ، إذ وفَّى القول حقه فى أمرهم ، ونطق بحكم الدين فى تصوفهم ، وكان فى هذا صريحا لا يخشى طغيان سلطانهم فى هذا القرن على العامة وأشباه العامة من المسلمين ، على عكس حاله فيما سبق .

فأبطل أولا نسبة تصوفهم إلى أهل الصُّفَّة من أصحاب النبى ﷺ ، فذكر أن أهل الصفة إنما قعدوا فى المسجد وأكلوا من الصدقة بحكم الضرورة ، لأنهم كانوا فقراء يقدمون على المدينة ، ولا أهل لهم ولا مال ، فبنى لهم النبى ﷺ صفة فى مسجده ليأووا إليها ، ويناموا فيها ، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال ، وخرجوا من صفتهم يطلبون الدنيا التى فتحت لهم .

ثم ذكر ثانيا أن الأولين منهم ذكروا أن التصوف عندهم هو رياضة النفس ومجاهدة الطبع ، بردِّه عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الفضيلة ، من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التى تُكسب المدائح فى الدنيا والثواب فى الآخرة ، ولكن إبليس لبَّس عليهم فى أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم ، وكلما مضى قرن زاد طمعه فى القرن الثانى ، فزاد تلبيسه عليهم ، إلى أن تمكن من المتأخرين منهم كل التمكن .

فأول ما لبَّس عليهم أنه صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا فى الظلمات ، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا فى الجملة ، فرفضوا ما يصلح أبدانهم ، وشبَّهوا المال بالعقارب ، ونسوا أنه خُلق للمصالح ، وبالغوا فى الحملة على النفوس ، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة ، ولكنهم على غير الجادَّة .

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم فى الجوع والفقر والوساوس والخطرات ، وصنَّفوا لهم فى ذلك ، مثل الحارث المحاسبى ، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها ، من الاختصاص بالمرقَّعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق ، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة ، ثم ما زال الأمر ينمى ، والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ، ويتكلمون بواقعاتهم ، ولم يزل بهم البعد عن العلماء حتى رأوا ما هم فيه أوفَى العلوم ، وسموه العلم الباطن ، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر ، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادَّعى عشق الحق والهيمان فيه ، فكأنهم تخيلوا شخصًا مستحسَن

الصورة ، فهاموا به ، وهؤلاء بين الكفر والبدعة ، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ، حتى فسدت عقائدهم ، فمنهم من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا ، وجاء أبو عبد الرحمن السلمى فصنف لهم كتاب السنن ، وجمع لهم حقائق التفسير ، فذكر عنهم فيه العجب فى تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم ، وصنف لهم أبو نصر السراج كتابا سماه - لمع الصوفية - ذكر فيه كثيرا من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ،وصنف لهم أبو طالب المكى كتاب « قوت القلوب » فذكر فيه الأحاديث الباطلة ، وما لا يستند فيه إلى أصل من الأصول الصحيحة ، وردَّد فيه قول « قال بعض المكاشفين » وهذا كلام فارغ لا يصح التعويل عليه ، وصنَّف لهم أبو نعيم الأصبهانى كتاب « الحلية » وذكر فى حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ، وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيرى كتاب « الرسالة » فذكر فيها العجائب من الكلام فى الفناء والبقاء ، وصنف لهم أبو حامد الغزالى كتاب - الإحياء - فجاراهم فى كثير من أحوالهم ، حتى ذكر أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ، لأن أقل ما فيه الاشتغال بإصلاحه عن ذكر الله عز وجل ، ثم أباح لهم السماع بأشياء نزل فيها عن رتبته فى الفهم والعلم .

ثم ذكر ثالثا أن التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، وأنه يدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد ، وقد ذموا التصوف ، ولكن إبليس قد لبَّس على الزهاد أيضا ، لأنهم سمعوا في القرآن والحديث ذم الدنيا ، فلبَّس عليهم إبليس بأنهم لا ينجون فى الآخرة إلا بترك الدنيا والفرار منها ، فخرجوا على وجوههم إلى الجبال ، وبعدوا عن الجمعة والجماعة ومجالس العلم ، حتى يصير الواحد منهم كالوحش ، ويخيَّل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقى ، وبهذا أعرضوا عن العلم اشتغالا بالزهد ، فاستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأن الزاهد لا يتعدى نفعه عتبة بابه ، والعالم نفعه متعد إلى غيره ، وكم رد إلى الصواب من متعبد ، وكذلك ظنوا أن الزهد تركُ المباحات ، فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير ، ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس بدنه ، ويعذب نفسه بلبس الصوف ويمنعها الماء البارد ، ولم تكن هذه طريقة الرسول ﷺ ، ولا طريقة أصحابه ، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئا ، فاذا وجدوا أكلوا ، وكان النبى ﷺ يأكل اللحم ويحبه ، ويأكل الدجاج ، ويحب الحلوى ، وقد كان رجل يقول : أنا آكل الخبيص لأنى لا أقوم بشكره ، فقال الحسن البصرى : هذا رجل أحمق ، وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟ . . وكان سفيان الثورى إذا سافر حمل فى سفرته اللحم المشوى والفالوذج . ولما تغالى أولئك الزهاد ومن تبعهم من الصوفية فى ترك المباحات والتقلل من

الطعام جعلوا ذلك شرطا فيمن يريد الدخول فى زمرتهم من الشبان والمبتدئين ، مع أنه من أضر الأشياء على الشبان الجوع ، فإن الشيوخ والكهول يصبرون عليه ، أما الشبان فإنهم أقدر على هضم الطعام ، فلا يمكنهم أن يصبروا عليه ، فإذا لم تجد معدتهم الغذاء أخذت من الفضول المجتمعة فى البدن ، فتغذى الجسم به وتفسده .

ثم ذكر أن إبليس كان يُلبِّس على المتقدمين من الصوفية لصدقهم فى الزهد ، فيريهم عيب المال ويخوفهم من شره ، فيتجردون من أموالهم ، ويجلسون على بساط الفقر ، وكانت مقاصدهم صالحة ، ولكن أفعالهم فى ذلك خطأ لقلة العلم ، وهذا الفعل لا يلام صاحبه عليه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادّخرها لنفسه ، أو كانت له صناعة يستغنى بها عن الناس ، أو كان المال عن شبهة فتصدق به ، فأما إذا أخرج المال الحلال كله ثم احتاج إلى ما فى أيدى الناس وأفقر عياله ، فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم ، أو يأخذ من أرباب الظلم والشبهات ، وهذا هو الفعل المذموم المنهى عنه ، وقد ذكر الحارث المحاسبى فى هذا كلاماً كثيراً ، وشيّده أبو حامد الغزالى ونصره ، والحارث فيه أعذرُ من أبى حامد ، لأن أبا حامد كان أفقه ، ولكن دخوله فى التصوف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه ، وعنده أنه ينبغى للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته ، فما بقى له درهم يلتفت إليه قلبه ، فهو محجوب عن الله عز وجل ، وهذا كله خلاف الشرع والعقل ، وسوء فهم للمراد من المال ، لأن الله قد عظّم قدره وأمر بحفظه ، إذْ جعله قواماً للآدمى ، وما جُعل قواماً للآدمى الشريف فهو شريف ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ... ﴾ (1) وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن إضاعة المال ، وقال لسعد : « لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكفّفون الناس » ولا ينكر أنه يخاف من فتنة المال ، وأن جمعه من غير وجهه يعز ، فمن اقتصر على كسب البلغة من حِلها فهذا أمر لابد منه ، وأما من قصد جمعه والاستكثار منه بطريق الحلال فينظر فى مقصوده ، فإن قصد به المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه ومن تلزمه نفقته ، وادّخر لحوادث زمانه ، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح ، أثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات .

ثم ذكر أن الفقر مرض ، فمن ابتلى به فصبر أثيب على صبره ، ولهذا يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، لمكان صبرهم على البلاء ، أما المال فهو نعمة ،

---

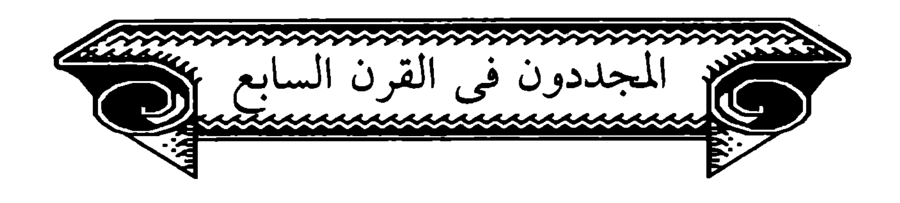
(1) النساء : آية ٥ .

والنعمة تحتاج إلى شكر ، والغنى وإن تعب فهو كالمفتى والمجاهد ، والفقير كالمعتزل فى زاوية ، فهو فى أمن أكثر من المفتى والمجاهد .

ثم ذكر أن هذا كان حال المتقدمين من الصوفية ، كانوا يخرجون من أموالهم زهداً فيها ، فقصدوا الخير بذلك ولكنهم غلطوا فى الفعل ، فأما متأخروهم فقد مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أىّ وجه كان ، فمنهم من يقدر على الكسب ولا يعمل ، ويجلس فى الرباط أو المسجد ، ويعتمد على صدقات الناس ، وقلبه معلق بطرْق الباب ، ومنهم من يخرج فيقصد بيوت كبار الظلمة ، ولا يتورع عن طلب ما يريده من أموالهم ، وقد دخل بعض الصوفية على أمير منهم فوعظه فأعطاه شيئاً فقبله ، فقال له الأمير : « كلنا صيادون ، وإنما الشِّباكُ تختلف » .

وذكر أبو الفرج كثيراً غير هذا فى الكلام على الصوفية ، وكله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة فى هذه الناحية من التجديد ، ولكن السيل كان جارفا ، لأن العامة كانت تتهافت على أولئك المتصوفة ، وكان هو رجعيا جامداً فيما عدا هذه الناحية من التجديد ، فكان فى العقائد يرى الوقوف عند ظواهر النصوص ، ويكره الخوض فى علم الكلام ، ويذهب فى هذا مذهب الشافعى وابن حنبل وغيرهما من السلف ، وينقل عن الشافعى أنه كان يقول : « لأنْ يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خيرٌ له من أن ينظر فى الكلام » وينقل عن ابن حنبل أنه كان يقول : « لا يفلح صاحب كلام أبدا ، علماء الكلام زنادقة » ، وكان مع هذا على صلة حسنة بأولئك الملوك والأمراء الذين كان يأخذ على المتصوفة الاتصال بهم ، كما سبق فى تاريخ حياته ، فلم يَسْعَ فى إصلاح حكمهم ، ولم يجتهد فى جعله حكما شورياً لا استبداد فيه ، فكل هذا ونحوه قلل من شأن نزعته التجديدية فى التصوف ، ولم يجعل لها أثراً فى القضاء على نزعاته الرجعية ، ولا فى منع المسلمين من الوقوع فى الوهدة التى يجرهم إليها أولئك المتصوفة .





المجددون فى القرن السابع

حال العالم فى القرن السابع الهجرى

يمتد القرن السابع الهجرى من سنة ١٢٠٤ م إلى سنة ١٣٠٠ م ، وكانت الدول الإسلامية فيه لا تزال مشتغلة بحروبها الداخلية ، غافلة عن الخطر الخارجى الذى يهدِّدها من الشرق والغرب ، فتسقط بهذه الحروب دولة وتقوم دولة ، بعد أن يفنَى فيها عدد كثير من الدولتين ، ويتبع هذا ما يتبعه من ضعف المسلمين .

وقد ظهر أمر الدولة الخوارزمية فى هذا القرن ، وأمكنها أن تستولى على جميع الأقطار التى كانت تحكمها الدولة الغُورية والدولة السلجوقية ، فانتهت بهذا الدولة الغورية سنة ٦١٢ هـ = ١٢١٥ م ، كما انتهت قبلها الدولة السلجوقية سنة ٥٩٠ هـ = ١١٩٣ م ، وبلغت الدولة الخوارزمية غاية عظمتها فى عهد علاء الدين خوارزم شاه ، فامتدَّت من حدود العراق العربى غربا إلى حدود الهند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين وبحر أرال شمالا إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبا ، وقد اعتنق علاء الدين خوارزم شاه المذهب الشيعى ، وأراد أن يستولى على بغداد ويسقط دولة العباسيين ، فاختار رجلا من العلويين يسمى « علاء الملك » وخطب له على منابر دولته ، وقطع خطبة الناصر العباسى ، ثم سار إلى بغداد سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م ، ليستولى عليها ويسقط الدولة العباسية ، ولكن جيشه هلك فى الطريق بعواصف ثلجية هبَّت عليه واستمرت نحو عشرين يوما ، فعاد بمن بقى معه إلى خراسان ، وشغله عن بغداد ما شغله من محاولة التتر الانقضاض على دولته .

وكذلك ظهرت فى هذا القرن دولة المماليك بمصر ، وكان ظهورها سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م ، فانتهت بها دولة الأيوبيين بمصر ، وقد انتزعت منها الشام وغيره مما كانت تملكه بعد ذلك .

وكذلك قامت فى هذا القرن بالمغرب دول غير دولة الموحِّدين - بنى عبد المؤمن - وقد انتهت سنة ٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م ، فقامت دولة بنى عبد الواد بالمغرب الأوسط سنة ٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م وقامت دولة بنى مَرين بالمغرب الأقصى سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م ، وقامت دولة الحفصيين بأفريقية - تونس - سنة ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م ، وكانت هذه الدول

متعادية يحارب بعضها بعضا بهذه البلاد ، بعد أن كانت تجمعها دولة واحدة ، وتجعلها كلها يداً واحدة على الأعداء الذين يهدِّدون المسلمين من ناحية المغرب .

وقد انتهى ملك الموحدين بالأندلس قبل انتهاء ملكهم بالمغرب ، فانقسم أهل الأندلس بعضهم على بعض ، وانتهز الفرنجة فرصة انقسامهم ، فأخذوا ينتزعون منهم بلادهم واحدة بعد واحدة ، وكان من الزعماء الذين ظهروا أثناء هذا الانقسام محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر ، وهو الذى أنشأ دولة بنى الأحمر بالأندلس سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م ، وكانت تضم ما بقى من الأندلس للمسلمين ، وقد اتخذت مدينة غرناطة قاعدة لها ، وهى آخر دول المسلمين بالأندلس .

وكانت الدولة الخوارزمية بالمشرق أقوى دول المسلمين فى هذا القرن ، ويليها دولة المماليك بمصر ، ودولة بنى مرين بالمغرب الأقصى ، ولكن ملوك هذه الدول كانوا فى غاية من الفساد والاستبداد ، حتى بلغ من تجبر ملوك الدولة الخوارزمية أنهم كانوا لا يخاطبهم كبير أو صغير إلا وهو جالس على الركبتين أمامهم ، وبلغ من فساد جلال الدين منكبرتى ابن خوارزم شاه أنه كان له مملوك يحبه حبا شديدا ، فلما مات حزن عليه حزنا لم يُسمع بمثله ، وأمر الناس بالخروج والنواح واللطم عليه ، وأبقاه من غير دفن ، فكان يستصحبه معه حيث سار ، ولا يقدر على فراقه بعد موته ، وكان لا يترك اللطم والبكاء عليه ، وإذا قدِّم إليه الطعام أرسل إليه منه ، فلا يجرؤ أحد أن يقول إنه ميت ، بل يحملون إليه الطعام ، ويقولون إنه يقبِّل الأرض ، ويقول إنه الآن أصلح مما كان .

وكانت حال المسلمين العلمية مثل حالهم السياسية أو أكثر ، فقد أخذوا فى هذا القرن يكتفون بما وصلوا إليه فى علومهم ، ولا يهتمون إلا باختصار الكتب المبسوطة التى وضعها أسلافهم فيها ، وكان هذا لا يحصل إلا نادرا فيما قبل هذا القرن ، وممن عُنى بهذا فيه أبو عمرو عثمان بن أبى بكر المعروف بابن الحاجب ، فله مختصرات فى أصول الفقه والنحو وغيرهما ، وقد قصدوا بهذا أن يسهلوا على طلاب العلوم الإحاطة بها ، فلا يكون همهم فيها إلا سرعة الاستحضار ، وكان هذا تمهيدا لما سيؤول إليه أمرهم من العناية بشرح هذه المختصرات ، وفقد ملكة الابتكار فى العلوم ، وتأخرهم فيها عن غيرهم[1] .

وزاد الطين بلة ما كان من زيادة عدائهم للعلوم الفلسفية ، حتى إنه كان لا يشتغل بها فى هذا القرن إلا نفر منهم فى حذر وخفية ، لما كان من قوة نفوذ رجال الدين فيه ، وكذلك جهلة المتصوفة ، وقد حرَّم ابن الصلاح فى هذا القرن المنطق والفلسفة[2] ولم يمكن

(١) سيأتى بيان خلافهم فى بدعة المختصرات فى الكلام على ابن دقيق العيد .

(٢) انظر فتوى ابن الصلاح فى تحريم ذلك فى كتاب (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) ص ١٦٠ .

أحدا فى دمشق من قراءة كتب هذه العلوم ، وكان الملوك يطيعونه فى ذلك ، حتى إنه لما ولى الأشرف موسى - من الأيوبيين - نادى فى مدارس دمشق : « من ذكر غير التفسير والحديث والفقه أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيتهُ » .

وممن أوذى بسبب اشتغاله بالفلسفة فى هذا القرن سيف الدين على بن محمد الآمدى ، وكان قد تصدر بالجامع الظافر بالقاهرة مدة من الزمن ، فاشتهر أمره بين الناس ، واشتغل عليه الطلاب وانتفعوا به ، فحسده جماعة من الفقهاء وتعصبوا عليه ، ونسبوه إلى فساد العقيدة ، لاشتغاله بعلوم الفلسفة ، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك وضعوا فيه خطوطهم بما يستباح به دمه ، وكان منهم رجل فيه عقل ومعرفة ، فلما رأى تحاملهم عليه كتب فى المحضر حين حمل إليه ليكتب فيه مثلهم :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالقوم أعداء له وخصوم

ولما رأى سيف الدين تحاملهم عليه خرج من القاهرة مستخفياً إلى الشام ، واستوطن مدينة حماة .

وكذلك كانت حال المسلمين الدينية فى هذا القرن ، فقد زاد فيه جمودهم فى العقائد على مذهب الأشعرى ، وزاد فيه جمودهم فى الفروع على المذاهب الأربعة المعروفة ، فكان من يحاول الخروج على مذهب الأشعرى ، يعد خارجا عن مذهب أهل السنة ، فيلقى من الأذى والاضطهاد ما لا يطاق ، وكذلك من يحاول الخروج على أحكام المذاهب الأربعة ، وكان ابن تيمية أشهر من حاول الخروج فى هذا القرن على مذهب الأشعرى ، لأنه كان يؤثر عليه مذهب السلف من أهل السنة ، وكذلك كان لا يتقيد فى بعض الأحكام بالمذاهب الفقهية الأربعة المشهورة ، وقد ناله فى هذا ما ناله مما سيأتى فى الكلام عليه فى هذا القرن ، ولكن ابن تيمية لم يخرج فى الفروع إلا قليلا عن الأحكام المعروفة ، لأنه كان مقلداً فيها لمذهب ابن حنبل .

وكان هناك فى هذا القرن عالم حنبلى آخر حاول الخروج فى الفروع أيضا عن المذاهب المعروفة ، وهو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوى الطوفى الصرصرى البغدادى المتوفى سنة ٧١٦ هـ = ١٣١٦ م ، وقد كان فيما قيل أشعريا رافضياً ، حتى إنه ألف كتابا سماه - العذاب الواصب على أرواح النواصب - وقد شعر من نفسه بغرابة اجتماع هذه المذاهب فيه ، فقال :

أشعرى حنبلى وكذا   رافضى هذه إحدى العبر[١]

---

(١) أثبت الأستاذ مصطفى زيد فى كتابه - المصلحة فى التشريع الإسلامى ونجم الدين الطوفى - أنه لم يكن شيعياً ولا رافضياً .

وقد حُبس وطيف به لأجل ذلك ، ثم سافر إلى الحج وجاور ، ثم نزل إلى الشام وتوفى ببلد الخليل ، وكانت محاولته فى الفروع أنه رأى تقديم رعاية المصلحة على النص والإجماع ، فإذا خالفت المصلحة النص والإجماع وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق التعطيل لهما والافتئات عليهما ، كما تقدم السُّنة على القرآن بطريق البيان ، لأن رعاية المصلحة ثابتة بقوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » فيجب مراعاتها أيضا جمعًا بين الأدلة ، وعنده أن رعاية المصلحة أقوى من الإجماع ، وأحق منه بأن نكون من أدلة الشرع ، وقد عرّف المصلحة بحسب الشرع بأنها السبب المؤدى إلى مقصود الشارع عبادة أو عادة ، وقسمها إلى ما يقصده الشارع لحقه كالعبادات ، وإلى ما لا يقصده الشارع لحقه كالعادات، والظاهر أنه أخفى فى حياته هذه الأقوال أو رجع عنها ولم يصرّ عليها كما أصر ابن تيمية على أقوالِه ، فلم يشتهر أمره فى هذا القرن كما اشتهر ابن تيمية ، وكان له من المؤلفات : بغية السائل فى أمهات المسائل ، والإكسير فى قواعد التفسير ، والرياض النواظر فى الأشباه والنظائر ، والذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة ؛ وتعاليق على الأناجيل ، وشرح المقامات الحريرية ، ومختصر الجامع الصحيح للترمذى ، وشرح الأربعين النووية ، وهو الذى جاء فيه رأيه السابق فى تقديم المصلحة عند شرح الحديث السابق « لا ضرر ولا ضرار » .

وزاد ضعف الحركة العلمية فى هذا القرن من نفوذ المتصوفة فيه ، حتى زاد فيه خضوع العلماء لهم ، لأنهم كانوا أشعرية لا يرى جمهورهم شيئا فى تصوفهم ، لما سبق من تأثرهم فى هذا بالغزالى ، وفد كان لعز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة (٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م) نفوذ كبير فى هذا القرن ، حتى إن ملوكه كانوا يخشون بأسه ، وكان يلقب سلطان العلماء ، ومع هذا حضره أبو العباس المرسى من الصوفية وهو يدرس فى « الرسالة القشيرية » فى التصوف ، فقال له : تكلم على هذا الفصل - يعنى الفصل الذى كان يدرس فيه - فأخذ أبو العباس بتكلم على طريقتهم ، وأخذ عز الدين يزحف فى الحلقة ويقول : « اسمعوا هذا الكلام الذى هو حديثُ عهدٍ بربه » .

وكان الذى هيأ للمتصوفة ذلك النفوذ فى هذا القرن ظهور القطبين الأخيرين من أقطاب الصوفية الأربعة فيه ؛ بعد ظهور القطبين الأولين فى القرن السابق ، وهذان القطبان الأخيران هما : أبو العباس أحمد البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م ، وإبراهيم بن أبى المجد الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م :

فأما أبو العباس أحمد البدوى فقد نشأ بمدينة فاس بالمغرب ، ثم انتقل إلى المشرق وصار ينتقل من بلد إلى بلد إلى أن وصل إلى العراق ، وقابل القطبين السابقين فى القرن

السادس ، وهما الجيلى والرفاعى ، فقالا له : « يا أحمد ، مفاتيح العراق والهند واليمن والروم والمشرق والمغرب بأيدينا ، فاختر أىَّ مفتاح شئت منها » ، فقال لهما : « لا حاجة لى بمفاتيحكما ، ما آخذ المفتاح إلا من الفتَّاح » ، ثم سار إلى مصر وكان صيته قد وصل إليها ، فلما دنا منها خرج الملك الظاهر بيبرس وعسكره فتلقوه بالإكرام والتعظيم ، وكان الظاهر ينزل كل يوم لزيارته ، ثم قصد بلدة طندتا - طنطا - فلما وصل إليها قصد دار بعض أهلها وصعد إلى سطحها ، فكان يمكث طول نهاره قائما شاخصا ببصره إلى السماء ، وقد انقلب سواد عينيه إلى حمرة تتوقد كالجمر ، وكان يمكث أربعين يوما أو أكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وقد مكث على هذا اثنتى عشرة سنة ، وكان فى هذه المدة يؤتى إليه بالرجل أو الطفلْ ، فيطأطىء من السطح فينظر إليه نظرة واحدة فيصير له مريدا ، ثم يأمره أن يذهب إلى البلد الذى يعينه له ، ليكون نائبا له فيه ، فانتشر بهذا صيته انتشارا عظيما ، حتى كان يقول : « وعزة ربى ، سواقىَّ تدور على البحر المحيط ، لو نفد ماء سواقى الدنيا لما نفد ماء سواقىّ » ، وقد صار له بهذا أتباع لا يحصون فى جميع البلاد ، وقامت له دولة صوفية فى داخل دولة المماليك ، فلما مات استخلف عليهم بعض أتباعه ، وصارت له خلافة فى مدينة طندتا يتوارثها أتباعه إلى يومنا ، وتقوم على جمع النذور ممن يقصد قبره للزيارة ، ولا سيَّما فى الموالد التى تقام له ، ويقصدها الناس من جميع البلاد .

وأما إبراهيم الدسوقى فكان له شأن أيضا مثل هذا الشأن ، فانتشر صيته أيضا فى جميع البلاد ، حتى صار له قبر يزار فى دسوق من أعمال مديرية الغربية ، وصارت له طريقة صوفية ومريدون كثيرون ، وكان له دعاوى كبيرة فى التصوف ، حتى نسب إليه الشعرانى فى طبقاته أنه كان يتكلم بالعجمى والسريانى والعبرانى والزنجى وسائر لغات الطيور والوحوش ، ونقل عنه أنه كان يقول : « أنا موسى عليه السلام فى مناجاته ، أنا على رضي الله عنه فى حملاته ، أنا كل ولى فى الأرض خُلْعَتُه بيدى ، ألبس منهم من شئت ، أنا فى السماء شاهدت ربى ، وعلى الكرسى خاطبته ، أنا بيدى أبواب النار أغلقتها ، وبيدى جنة الفردوس فتحتها ، من زارنى أسكنته جنة الفردوس ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا فى الأزل ، وإن الله عز وجل خلقنى من نور رسول الله ﷺ ، وأمرنى أن أخلع على جميع الأولياء بيدى ، فخلعت عليهم بيدى ، وقال لى رسول الله ﷺ : يا إبراهيم أنت نقيب عليهم ، فكنت أنا ورسول الله ﷺ ، وأخى عبد القادر خلفى ، وابن الرفاعى خلف عبد القادر ، ثم التفت إلىَّ رسول الله ﷺ وقال لى : يا إبراهيم سر إلى مالك ، وقل له يغلق النيران ، وسر إلى رضوان ، وقل له يفتح الجنان . ففعل مالك ما أمره به ، وفعل رضوان ما أمره به .

ولست أدرى كيف تغلق النيران وتفتح الجنان فى هذا القرن الذى عاقب الله فيه المسلمين أشد عقاب ، وجزاهم على ما اقترفوه فيه وفيما قبله من القرون بتسليط أعدائهم عليهم ، فضاع منهم ملكهم العظيم فى المشرق ، على ما سيأتى بيانه فى نكبة المسلمين بالتتر ، وكذلك سلط عليهم أعداءهم يقتصون أطرافه من جهة المغرب ، ولست أدرى أى قيمة لتلك الدعاوى العريضة وهذه حال المسلمين ، فلم ترد عنهم بلوى ، ولم تدفع عنهم شرا ، ولست أدرى ما قيمة هذا الملك الباطنى العريض ، والمسلمون فى هذا القرن لم يبق لهم إلا ملك ضيق فى مصر وبلاد المغرب ، يخبىء له القدر ما يخبىء ، وتهيىء لزواله تلك الغفلة التى أوقع المسلمين فيها أولئك المتصوفة .

وظهر فى هذا القرن أيضا صوفيان آخران أوقعا المسلمين فى بلهلة دينية صرفتهم أيضا عن التنبه فى عواقب أمرهم ، وهذان الصوفيان هما محيى الدين بن عربى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٤٠ م ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ = ١٢٣٧ م ، فقد تغاليا فى دعوى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وكان للأول فيها كتب كثيرة وأشعار تربو على شعر مَن قبله فيها ، وكان للثانى فيها ديوان شعر كبير ، فشغلا المسلمين بتلك الدعاوى عن الخطر المحدق بهم ، وجعلاهم فريقين فى شأنهما وكل فريق لا هم له فى دنياه إلا تأييد مذهبه فيهما ، حتى صار هذا هو الشغل الشاغل للمسلمين فى هذا القرن ، وفى القرون التالية له ، ولكن جمهرتهم كانت فى جانب المتعصبين لهما ، وتأويل ما لا يلائم الشرع من نثرهما وشعرهما ، حتى إن عز الدين بن عبد السلام وهو شيخ الإسلام بمصر والشام كان يحط من قدر محيى الدين بن عربى ، ويتحامل عليه تحاملا كثيرا ، فلما صحب أبا الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م عرف أحوال الصوفية منه ، فصار يترجم محيى الدين بن عربى بالولاية والعرفان والقطبية .

وكذلك ظهر فى هذا القرن بين مسلمى الفرس والترك صوفى آخر بلبل أفكارهم بتلك الدعاوى ، وأوقعهم فى الغفلة التى وقع فيها مسلمو العرب ، وهو جلال الدين محمد بن محمد البلخى القونوى الرومى المتوفى سنة ٦٧٠ هـ = ١٢٧١ م - وقد ألف لهم كتاب المثنوى فى التصوف ، فصار لهم كإحياء الغزالى لمسلمى العرب ، وهو منظوم باللغة الفارسية فى مزاحفات رمل المسدس ، ولكن هناك فرقا بين الإحياء والمثنوى ؛ لأن الغزالى يستعمل فى الإحياء الأساليب العلمية ، أما جلال الدين الرومى فيحقِّر فى المثنوى من شأن العلم والتعلم عن طريق التلقين ، ويرى أن العقل شىء شيطانى إذا قورن بالعاطفة ، فحلق بهذا فى سماء الوجد والجذب الصوفى ، حتى حملاه إلى عالم فوق عالم الشرع والأخلاق ، ومما قاله فى ذلك : « أنا سرقة اللصوص ، أنا ألم العصا ، أنا السحاب ، أنا الغيث ، أنا الذى أمطرت فى المروج ... الخ الخ » .

فعَلا بظهور أولئك الأقطاب فى عالم التصوف شأنه على شأن الملوك والعلماء حتى

أذعن المسلمون لدولته الباطنية أكثر مما أذعنوا لدولهم الظاهرة ، لأن الدولة الباطنية فى نظرهم هى التى تصرِّف أمور الكون فى الحقيقة وليس لملوك الدنيا إلا تصرف ظاهر فى دولهم ، وقد بلغ من هوان أولئك الملوك بإزاء رجال الدولة الباطنية أن متصوفةً من الطبقة الثانية بعد أولئك الأقطاب كانوا لا يقيمون لهم وزنا ويخاطبونهم كأنهم هم الملوك دونهم ، ومن ذلك أن الشيخ إبراهيم الجعبرى المتوفى سنة (٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م) كان يكاتب سلطان مصر : « من إبراهيم الجعبرى إلى الكلب الزوبرى » فكان السلطان يقول : من أطلع هذا على اسمى فى بلادى ؟ إنه والله اسمنا فى بلادنا قبل أن أجيء إلى مصر ، وكان أولئك الملوك يُشترون من بلادهم ثم يؤتى بهم إلى مصر فيصيرون ملوكا عليها ، وكان الشيخ إبراهيم الجعبرى صوفيا لا يبلغ مرتبة أولئك الأقطاب ، وكان له مجلس وعظ يطرب فيه السامعين من العامة وأشباه العامة ، ولكنه كان يلحن فى القرآن والحديث ، فعقد القضاة الأربعة بمصر مجلسًا لمنعه من الوعظ فامتنع ثلاثة منهم عن الإفتاء بمنعه ، ولم يحكم بمنعه إلا القاضى المالكى ، فحين نزل من درج القلعة وقع فانكسرت رقبته ، فجاء الثلاثة فقبَّلوا رجل الجعبرى ، فقال لهم : نحن لا نلحن ، إنما سمعكم هو الذى يلحن .

وكان الشيخ خضر بن أبى بكر المتوفى سنة (٦٧٥ هـ - ١٢٧٦ م) من الطبقة الثانية من المتصوفة أيضا ، ويقال إنه تنبأ للظاهر بيبرس بالملك قبل أن يصير إليه فلما صار ملكا تغالى فى اعتقاده فى ولايته وكراماته حتى جعله صاحب التصرف فى ملكه وقد ذكر المقريزى أنه كان يُرْمَى بعظائم من اللواط والزنا ونحوهما ، وأنه كان يكتب إلى ملوك عصره : « من الشيخ خضر نياك الحمارة »[1] وبهذا وصل مذهب الملامتية فى التصوف إلى هذا الفسوق السافر ، وتلك الإباحية الفاجرة ، وما كنت لأنقل هذا عن المقريزى لولا أنى أريد أن أبين العوامل التى أخذت فى هذا القرن تهيىء للمسلمين من النكبات ما لا يذكر معه نكبتهم فيه بالتتر .

وقد بدأ نظام الرهبنة فى التصوف من القرن الخامس ، ولكنه زاد كثيرا فى هذا القرن ، وانتشر على أيدى أصحاب الطرق الصوفية كالقادرية والرفاعية وغيرهما من الطرق التى تَوَالى ظهورها بسرعة فى هذا القرن وفيما بعده من القرون ، وفى كتاب - عوارف المعارف - لشهاب الدين عمر السهروردى المتوفى سنة (٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م) كثير مما زيد فى نظام الرهبنة فى هذا القرن ، ولعل أولئك المتصوفة أرادوا تسلية المسلمين بذلك عما فاتهم من دنياهم بضياع كثير من ممالكهم ، بدل أن يبعثوا فيهم الرجاء باسترداد هذه الممالك الضائعة ، واستعادة ما فقدوه من مجدهم .

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٩٨ .

ولما بلغ فساد المسلمين ما بلغ فى تلك النواحى السابقة سلط الله عليهم عدواً جديدا من الشرق ، إلى عدوهم القديم الذى كان يناوئهم من الغرب منذ ظهور الإسلام ، وذلك العدو الجديد هو جنكزخان ملك التتر ، وجنكزخان لقبه ومعناه الأمير العظيم ، واسمه تيموتشين ، وكان قد استولى على بلاد الصين والمغول والتركستان ، فلما تم له ذلك قصد البلاد الإسلامية ، فاكتسح الدولة الخوارزمية ، وكان ظهور أولئك التتر بالبلاد الإسلامية سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م ، ولم يزالوا يستولون عليها بلداً بعد بلد ، حتى استولى هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م ، وبهذا انتهى ملك الدولة العباسية ·

ثم سار التتر بعد هذا إلى الشام واستولوا على دمشق ، فسار إليهم من مصر الملك المظفر قطز ، والتقى بهم سنة (٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م) على عين جالوت ، فتمكن المسلمون بقيادته من هزيمة التتر لأول مرة ، فوقفت فتوحهم عند بلاد الشام ·

وكانت نكبة المسلمين بالتتر كبيرة فى هذا القرن ، ولكن الله أدركهم ، مع هذا بشىء من لطفه ، فبقيت لهم دول على شىء من القوة فى مصر وبلاد المغرب ؛ وهذا إلى أن أولئك التتر كانوا أقل من المسلمين دينا وعلما وحضارة ؛ فرأوا أنفسهم فى حاجة إلى من استولوا على بلادهم من المسلمين ، فاستعانوا بهم فى تدبير دولتهم ، ثم لم يلبثوا أن أدركوا فضل الإسلام على دينهم ، فاتخذوه دينا لهم ، ودان به بعض ملوكهم ، مثل بركة ابن باطوخان بن دوشى خان بن جنكزخان المتوفى سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م ، وكان أعظم ملوك التتر ، ومثل أحمد بن هولاكو بن تولوى بن جنكزخان ، وكان مقر ملكه بغداد ، وقد ملك بعد أخيه أبغا سنة ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م ، وكان يسمى بيكدار ، فلما تولى الملك أظهر دين الإسلام ، وسمى نفسه سلطان أحمد ، وتوالى ملوكهم بعده على الإسلام ، ولكن حالة المسلمين لم تعد إلى مثل ما كانت عليه فى هذه البـلاد ، وإنما هو شىء من لطف الله أراد به أن يمهل المسلمين ليتدبروا فى أمرهم ، قبل أن يحل بهم ما هو أفدح من نكبة التتر فى هذا القرن ، ولقد استولى أولئك التتر فى هذا القرن على بلاد روسيا فى أوربا ، ودان ملوكهم فيها بالإسلام أيضا ، وكان لهم فيها مملكة واسعة ، فكان هذا أيضا من زيادة لطف الله تعالى بالمسلمين فى هذا القرن بعد محنته لهم ·

فأما أوربا فى هذا القرن فقد وقعت فيها مملكة الروم الشرقية تحت حكم الفرنجة الذين قاموا بالحروب الاستعمارية الصليبية على البلاد الإسلامية ، وقصدوها من ناحية هذه المملكة ليصلوا إلى الشام وبيت المقدس ، فاستولوا على القسطنطينية سنة ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ م ، وهدموا قصـــورها وأبنيتها ونهبوا ما فيهـــا ، واستمر حكمهم فيها إلى سنة

٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م ، وكان أهل البلاد قد أقاموا لهم مملكتين فى نيقية وطرابزون ولم يزالوا فى حروب مع هؤلاء الفرنجة حتى قضوا على مملكتهم فى السنة السابقة ، ولكنهم وقعوا بعد هذا فى فتن داخلية إلى آخر هذا القرن .

وكان حال أوربا الغربية فى هذا القرن أحسن من حال أوربا الشرقية ، فقد تكونت فيه الممالك الأوربية الحديثة ، وتأثرت شعوبها باتصالها بالمسلمين فى الحروب الصليبية ، وفتح أمامها البحر الأبيض المتوسط للتجارة ، فبرزت طبقة البرجوازية - الطبقة الوسطى - أكثر من القرن السابق ، وزادت ثروة أفرادها ، فنافسوا بثروتهم طبقة الأشراف ، واستخدموها فى مناصرة العلم والفن ، فأخذت الجامعات العالية والمدارس تنتشر فى أنحاء أوربا ، وازدهرت فيها الآداب الشعبية باللغات التى تنطق بها شعوبها ، ولم تبق مقصورةً على اللغة اللاتينية ، ومن أشهر الجامعات التى أنشئت فى هذا القرن جامعة السوربون بفرنسا ، وقد أنشأها رُبيردى سوربون سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م ، ومنها جامعة بولونيا بإيطاليا ، وجامعة أكسفورد وجامعة كمبردج بإنجلترا ، وكانت جامعات فرنسا وإيطاليا تؤثر فى الفلسفة الجانب النظرى والاستدلال والترتيب والتوضيح، وكانت جامعات إنجلترا تؤثر العلم الواقعى إلى جانب المثالية الأفلاطونية ، وكانت ألمانيا تؤثر جمع المعارف إلى جانب تصوف الأفلاطونية الحديثة ، وكانت هذه الحركات العلمية تقوم على أساس الكتب الفلسفية المنقولة عن العربية واليونانية ، ولا سيَّما كتب أرسطو ، وكانت جامعة أكسفورد ترى المثل الأعلى للعلم فى كتاب المناظر للحسن بن الهيثم ، وتؤثره على طبيعيات أرسطو ، لأنها أقرب إلى الفلسفة منها إلى الرياضيات ، وكانت جامعة السوربون بباريس أشهر هذه الجامعات ، وتمتاز بقوة أساتذتها وعدم خضوعهم للسلطة الأسقفية الدينية ، وقد اجتمعوا فى سنة ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م ، وأعلنوا انفصالهم عن هذه السلطة ، وكانت الكنيسة تحارب بعض كتب الفلسفة ، مثل كتب أرسطو فى الطبيعة ، ولكن كثيراً من المشتغلين بالفلسفة فى هذه الجامعات كانوا لا يتأثرون بمقاومة الكنيسة لهذه الكتب .

وكان من أشهر المشتغلين منهم بالفلسفة فى هذا القرن رُوجر بيكون الانجليزى (٦١١ - ٦٩٤ هـ = ١٢١٤ - ١٢٩٤ م) وله شرح على الطبيعيات وما بعد الطبيعة لأرسطو ، وله مؤلفات أهمها الكتاب الأكبر ، وقد طلب منه البابا كليمان الرابع أن يدوِّن آراءه فدونها فى هذا الكتاب ، وهو ينقسم إلى سبعة أقسام : وهى أسباب أخطائنا ، والعلاقة بين الفلسفة والدين ، وعلم اللغة ، والرياضيات ، وعلم المناظر أو البصريات ، والعلم التجريبى ، والفلسفة الخُلقية ، وقد حصر روجر بيكون وسائل المعرفة فى ثلاث : النقل، والاستدلال ، والتجربة ،ورأى أن النقل لا يفيد المعرفة إذا لم يبين فيه علة عقلية ،

وأن الاستدلال لا يمكن تمييز البرهان فيه عن السفسطة إلا إذا أيدته التجربة ، وبهذا تقوم دراسة العلوم عنده على هذا الترتيب : الرياضيات ، فالعلوم الطبيعية ، فالفلسفة النظرية ، فالأخلاق ، فاللاهوت أو الحكمة الكلية التى تلتقى فيها كل العلوم ، وللتجربة عنده وظيفتان : تحقيق النتائج التى تصل إليهـــا العلوم بالاستدلال ، والكشف عن حقائق جديدة ، وهذا ينتهى بها إلى علم جديد غير العلوم المعروفة ، وهو العلم التجريبى الذى يعطينا سلطة على الطبيعة لنصل بها إلى اختراعات تفيد فى رقى الإنسانية وفوز المسيحية ، مثل حمامات ساخنة تحتفظ بسخونتــها بغير نار ، ومصابيح تضىء دائماً من غير تجديد وقود ، ومواد ملتهبة تهلك الجيوش فى لحظة ، ومرايا ترسل على العدو أشعة محرقة ، وأخرى ترسل سحباً مسمومة ، ومرايا سحرية ، ومرايا تكبر الصور أو تصغرها ، إلى غير هذا من الاختراعات التى رأى إمكان الحصول عليها من الطبيعة ، وكان يعيب التراجم اللاتينية لكتب أرسطو ، ويفضل عليها التراجم العربية ، وقد استفاد كثيراً من الفلسفة الإسلامية ، ولا سِيَّمــا فلسفة ابن سينا والحسن بن الهيثم ، وكان يقــدم ابن سينا على ابن رُشد ، ويعده الفيلسوف الثانى بعد أرسطو ، ولكنه كان يأخذ عليه القول بقدم العالم ، والقول بصدور الموجودات بعضها عن بعض ، ويرى أنه وضع مذهبه الخاص فى الفلسفة المشرقية بعد أن دوَّن للعامة كتاب الشفاء ، وكان ينقل عنه فى الطب ، كما كان ينقل تجارب الحسن بن الهيثم فى المناظر ، وبهذا كله جمع روجر بيكون بين الفلسفة والدين والعلم والعمل ، ومهد لأوربا طريق السيادة على العالم ، لأنه نبهها إلى فائدة العلم التجريبى ، وذكر أنه يحقق الغايات الكبرى الثلاث : توفير الخير الأعظم للجسم بإكسير الحياة ، والخير الأعظم للثروة بحجر الفلاسفة ، والخير الروحى للنفس بهذين الخيرين ، والغاية الأخيرة هى الغاية القصوى ، ولهذا يجب أن يكون العلم التجريبى فى خدمة الكنيسة ، ليستخدمه المبشرون بها مع الوعظ والإرشاد ويجنوا منه فوائد ثلاث : أولاها : أن آثاره العجيبة تبدو كالمعجزات فى نظر الكفار ، فيقولون فى أنفسهم : إنه إذا كانت الطبيعة تحدث هذه العجائب فإنه يجب أن نخضع عقولنا للحقائق الإلهية ، والثانية : أنه يكشف خداع السحر الكاذب الذى تقوم عليه ديانة الكفار ، والثالثة أنه يحفظ دماء المسيحيين فيما يقوم بينهم وبين الكفار من الحروب .

ومنهم **توما الأكوينى** الإيطالى (٦٢٢ - ٦٧٣ هـ = ١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) وقد وقف من الفلاسفة قبله موقف المنتقد ، وكان له رأى فى العقــل الإنسانى والوجود يخالف رأيهم ، وقد أدى به هذا الموقف إلى الفصل بين الفلسفة واللاهوت ، حتى لا ينظر إليها على أنها آلة له ، بل ينظر إليها على أنها مقصودة لذاتها ، وتكون صلتها باللاهوت صلة

الموجِّه لا الخادم ، وقد ثار عليه رجال الدين وأشباههم من أجل هذه الجرأة ، ولكنهم وجدوا أخيرا أنفسهم فى حاجة إلى فلسفته ، وهذا عندما فشا الإلحاد فى الفلسفة ، ولم يجدوا فى غير فلسفته ما يصلح لمقاومة هذا الإلحاد ، لأنها كانت مع نزعتها الحرة تحاول الجمع بين فلسفة أرسطو والمسيحية ، وتراعى هذه العقيدة فى عرضها للفلسفة .

ومنهم **سيجردى بريان** (٦٣٣ - ٦٨١ هـ = ١٢٣٥ - ١٢٨٢م) وكان أكثر إخلاصا للفلسفة من توما الأكوينى ، فرأى أن فلسفة أرسطو كما شرحها ابن رشد علم قائم برأسه ، وأنه هو المثل الأعلى للعمل الإنسانى ، فيجب أن ينظر إليه فى ذاته ولا يعبأ بما يكون من خلاف بينه وبين الدين ، وقد ظهرت هذه الحركة بين أساتذة كلية الفنون بباريس ، وابتدأت من سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م ، وكانت تسمى الرشدية اللاتينية ، فمكثت ربع قرن تبلبل الأفكار فى فرنسا وغيرها ، وقد قاد سيجردى بريان هذه الحركة حين اختير معلما بهذه الكلية سنة ٦٦٤ هـ - ١٢٦٥ م ، فأنكر عليه ذلك أسقف باريس ، ولم يزل يقاومه حتى كفَّ عن التعليم ، وقد طلبه رئيس محكمة التفتيش فهرب إلى روما ، وقدَّم نفسه إلى محكمتها فقضت بحبسه ، وكانت وفاته باغتيال كاتبه له فى نوبة جنون اعترته .

ومنهم **ريمون ليل** من جزيرة ميورقة (٦٣٣ - ٧١٥ هـ = ١٢٣٥ - ١٣١٥ م) وقد تعلم العربية من أهل ميورقة ، وكذلك تعلم اللاتينية ، وأقبل على دراسة المنطق ليستخدمه فى الدفاع عن دينه ، وقد ألف فيه كتاب - الفن الأكبر - وهو يدَّعى فيه أنه كشف طريقة جديدة فى الإقناع والدفاع عن الدين ، وقد عرّف الفن الأكبر بأنه علم كلى تتضمن مبادئه العامة مبادىء جميع العلوم الجزئية كما يتضمن الكلى الجزئى ، وهو يختلف عن المنطق وعن الميتافيزيقا ، لأن المنطق ينظر فى الوجود الذهنى ، والميتافيزيقا تنظر فى الوجود العينى ، والفن الأكبر ينظر فى الوجودين معا ، ثم ألف بعده كتبًا كثيرة فى المنطق وفى الرد على ابن رشد والرشديين ، وأخذ يطوف فى أنحاء أوربا وشمال أفريقية ومصر وفلسطين والهند ، وهو يدعو إلى دينه بطريقته الجديدة فى المنطق ، وكان يغالى فى النقاش والاستفزاز ، حتى سجن مرة بتونس ، ومرة بالجزائر ، ورجمه الناس فى الجزائر بالحجارة ، وقد أخذه بعض أهل جنوى فى عودتهم إلى أوربا ، ولكنه توفى قبل أن يصل إلى جزيرة ميورقة .

ويمكننا بعد هذا كله أن نحكم بأن هذا القرن كان مبدأ التحول فى الحالة السياسية والاجتماعية والعلمية بين المسلمين والأمم الأوربية ، لأن الأمم الأوربية أخذت تشعر بنقصها فى هذا القرن ، وتحاول النهوض والتجديد فى العلم وغيره ، أما المسلمون فأخذوا

يرجعون القهقرى ، ويكتفون فى العلم باختصار ما وصلوا إليه فيه ، ليقووا على حفظه واستذكاره ، ويجمدوا على هذا إلى أن يصلوا إلى أقصى حالات الجمود .

ولكن الفرق بين الأمم الإسلامية والأمم الأوربية لم يكن كبيرا فى هذا القرن ، إذ كانت الأمم الأوربية فى بدء نهضتها ، فهى تعتمد فيها على غيرها من اليونان والعرب ، إما بترجمة كتبهم فى الفلسفة إلى لغاتها ، وإما بمحاولة الاستفادة ممن لا يزال يشتغل بهذه العلوم من المسلمين وغيرهم ، كما حصل من ملك صقلية منفريذا بن فردريك ، وهو الذى ألف له جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الرسالة الأنبروزية فى المنطق ، وكان الملك الظاهر بيبرس قد أرسله إليه ، فأكرمه وأقامه عنده مدة من الزمن ، وكان هذا الملك محبا لعلوم الفلسفة ، حتى إنه كان يحفظ عشر مقالات من كتاب أقليدس ، وكان يقرّب مسلمى صقلية إليه ليستفيد منهم هذه العلوم ، ولقد كان على جمال الدين محمد بن سالم أن يدرك الفرق بين ثقافة هذا الملك وثقافة الظاهر بيبرس وغيره من ملوك المسلمين ، وأن يعرف ما سيترتب من النتائج على اعتماد ملك صقلية فى ملكه على الفلاسفة والعلماء ، ولو كانوا من غير أهل دينه ، وعلى اعتماد الظاهر بيبرس على جهلة المتصوفة والجامدين من علماء الدين ، ولكنه لم يدرك شيئا من هذا ، ولم يخبر المسلمين بما شاهده فى رحلته إلى ملك صقلية ، ولم ينبه أحد إلى الخطر المحدق من تنبه هذا الملك إلى علوم الفلسفة ، ومن توثبه للنهوض ببلاده فى ميدان العلم ، مع جمود المسلمين ومعاداتهم لهذه العلوم .

وبهذا كان المسلمون فى هذا القرن محتاجين إلى مجدد يدرك ذلك التحول الخطير الذى حصل فيه ، وقد كان هذا التحول مقدمة لثورة على الاتجاه النظرى المحض فى الفلسفة والعلم ، نعم كان المسلمون فى حاجة إلى المجدد الذى يدرك خطورة هذا التحول فى التفكير ، ليسير بالمسلمين فى الطريق الجديد مع السائرين ، حتى لا يتخلفوا عن ركب الحضارة ، لا يؤدى بهم هذا إلى ما هو أشد من نكبتهم بالتتر فى هذا القرن ، لأن الله قد لطف بهم فيها ، فلا يلطف بهم إذا استمروا بعدها فى غفلتهم ، ولم يأخذوا منها عبرة لهم .

ولكن المسلمين لم يدركوا فى هذا القرن أنهم فى حاجة إلى ذلك المجدد ، لأن غفلتهم كانت شديدة بمن استولى على عقولهم من جهلة المتصوفة والجامدين من علماء الدين ، فاتجهوا فى تعيينهم مجدد هذا القرن إلى ما يلائم غفلتهم ، وبحثوا عنه بين أولئك الذين استولوا على عقولهم ، فاتفق جمهورهم على أنه ابن دقيق العيد ، كما قال السيوطى فى أرجوزته :

والسابعُ الراقى إلى المراقى ابنُ دقيـــق العيد باتفــاق

وقد ذكر السيد رشيد رضا أن ابن تَيمية وتلميذه ابن القيم كانا مجددين فى آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والإلحادية من حلل الكتاب والسنة السنية فى جميع العلوم الدينية ، وإنى أوافقه على أن ابن تيمية أجدر بهذا من ابن دقيق العيد ، لأنه قام بشىء من الجهاد فى الإصلاح ، ولكنى لا أوافقه على نظرته إلى الفلسفة بمثل ما سبق له قبل هذا القرن ، وأرى أن نصير الدين الطوسى الفيلسوف أجدر بهذا من ابن تيمية وابن دقيق العيد ؛ لأن ثقافته العلمية كانت مثل ثقافة فلاسفة أوربا فى هذا القرن ، ولو قام بعده من سار فى طريقه لما تخلفنا عنها فيما سيأتى من القرون ؛ وبهذا يكون أحق بالدراسة فى هذا القرن من غيره ؛ ثم يتلوه ابن تيمية ، ولا بد مع هذا من دراسة ابن دقيق العيد ، لنعرف منزلته فى التجديد ، ولا بد أيضا من دراسة محيى الدين بن عربى ، لأنه أتم فى التصوف ما بدأ به معروف الكرخى .



نصير الدين الطوسى

هو محمد بن محمد بن الحسن المعروف بنصير الدين الطوسى ، وقد ولد بطوس سنة ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م ، وقرأ على المعين سالم بن بدران المعتزلى الشيعى ، وكمال الدين بن يونس الموصلى ، وغيرهما ، واشتغل بالعلوم الفلسفية حتى صار رأسا فيها ، ولا سيما فى الأرصاد والمجسطى ، فإنه فاق فيها الكبار ، وكان حسن الصورة سمحا كريما ، جوادًا حليما ، حسن العشرة ، غزير الفضل ، فلما استولى هولاكو ابن تولوى بن جنكزخان على بغداد سنة (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) وجد نفسه ملكا على شعوب من المسلمين تفوق التتر فى علومها وحضارتها ، ووجد دولته فى حاجة إلى من يقوم بتدبيرها على أصول الحضارة من علماء المسلمين وحكمائهم ، ولم يجد أقدر على هذا من نصير الدين الطوسى ، فاتخذه حكيما ووزيرًا ، واصطفاه ناصحا ومشيرا ، وكان يطيعه فيما يشير به عليه ، ويعرف فضل ما امتاز به من العلوم ، وهو ملك وثنى غير متحضر ، بينما كان ملوك المسلمين المعاصرون له فى مصر وغيرها يتنكرون لهذه العلوم ، ويحاربون من يشتغل بها من المسلمين .

فاستغل نصير الدين الطوسى حاجة هولاكو إليه فى نفع الإسلام والمسلمين ، وأخذ يجمع ما نُهب من الكتب الإسلامية بعد سقوط بغداد بيد التتر ، وابتنى لها خزانة عظيمة بمدينة مراغة ، كانت تحتوى على أكثر من ٤٠٠٠٠٠ مجلد ، ولولا اهتمامه بجمعها لتلفت عند من لا يعرف قدرها من التتر وغيرهم ، وهذا إلى ما حصل للمسلمين من النفع به فى هذه المحنة التى نزلت بهم ، فأحيا ما ذهب من آمالهم ، واسترد ما ضاع من كرامتهم ، وانتفع بجاهه عند هولاكو كثير منهم ، وخصوصا الشيعة والعلويين والحكماء ومن إليهم ، فكان يبرُّهم ويقضى حوائجهم ويحمى أوقافهم ، لأنه كان على عقيدة الشيعة .

ثم أراد نصير الدين أن يبنى رصدا عظيما بمدينة مراغة ، فأقنع هولاكو بفائدته حتى بذل فى بنائه ما لا يُحصى من الأموال ، وقد جمع نصير الدين لبنائه جماعة من الحكماء ، منهم المؤيد العرضى من دمشق ، والفخر المراغى من الموصل ، والفخر الخلاطى من تفليس : وابتدأ بناءه سنة ٦٥٧ هـ = ١٢٥٨ م ، وقد صار إلى بغداد فى آخر أمره ومعه كثير من تلامذته وأصحابه ، فأقام بها عدة أشهر ، ثم توفى بها سنة ٦٧٢هـ = ١٢٧٣ م ، ودفن فى مشهد موسى الكاظم .

ولم يمت نصير الدين إلا بعد أن جدد ما بلى فى دولة التتر من العلوم الإسلامية ، وأحيا ما مات من آمال المسلمين بها ، وفتح الباب بعده لمن عمل على إدخال الإسلام فى قلوب هؤلاء التتر، ليكون لهم فتح ما فتحوا من بلاده ، ويكون له فتح ما فتح من قلوبهم ، ومن يجدد للإسلام كرامته إلى ذلك الحد بعد أن ذهبت فى هذا القرن أولى من غيره بأن يكون هو المجدد فيه ، لأن الانتصار على التتر لم يكن فى الحقيقة بردهم عن الشام فى موقعة عين جالوت ، وإنما كان بفتح قلوبهم إلى الإسلام وهدايتهم له ، فبهذا غلب الإسلام عليهم بعد أن غلبوه ، وأخضعهم لسلطانه الدينى بعد أن أخضعوه لسلطانهم الدنيوى ، وسلطان الدين أعلى شأنا وأعظم قدراً .

وهذا إلى ما كان لنصير الدين من الكتب الجليلة فى علوم الفلسفة ، ومنها شكل القطاع ، وتحرير أصول أقليدس ، والمتوسطات بين الهندسة والهيئة ، وأوصاف الأشراف ، وتحرير المجسطى ، والكرة ، وتحرير كتاب المساكن ، وتحرير كتاب المناظر ، وتحرير الطلوع والغروب ، وتحرير المأخوذات ، وتحرير المفروضات ، وتحرير ظاهرات الفلك ، وتحرير الكرة المتحركة ، والبارع فى علم الهيئة والبلدان ، والتحصيل فى علم النجوم ، وبقاء النفس بعد بوار البدن ، وإثبات العقل الفعَّال .

وقد جرى نصير الدين فى طريقة الفخر الرازى فى الجمع بين الفلسفة وعلم الكلام ، وألف فى هذا كتابا موجزا سماه - تجريد العقائد - ورتبه على ستة مقاصد :

الأول فى الأمور العامة ، والثانى فى الجواهر والأعراض ، والثالث فى إثبات الصانع وصفاته ، والرابع فى النبوة ، والخامس فى الإمامة ، والسادس فى المعاد ، وهو كتاب موجز عليه شروح وحواش كثيرة لمن أتى بعده من العلماء ؛ ولكن نصير الدين كان أخلص للفلسفة من الفخر الرازى ، لأنه كان من الشيعة المتأثرين بمذهب المعتزلة ، والفخر الرازى كان من الأشعرية الذين ورثوا مذهب أهل السنة ؛ ومذهب أهل السنة يتحرز من الفلسفة ، ولا يلين لها كما يلين مذهب المعتزلة ، ولهذا لم تُرض طريقة نصير الدين مَن أتى بعده من أهل السنة ، ورضوا طريقة الفخر الرازى ، لأنها تبحث مسائل الفلسفة فى علم الكلام لإبطالها والرد عليها ، وإن كان بعضهم لم يرض عن هذا أيضاً ، ورأى تحريم الاشتغال بالفلسفة مطلقا .

ولكن نصير الدين مع هذا لم يصل إلى المطلوب من المجدد فى هذا القرن ، لأن غاية ما وصل إليه المحافظة على تراث المسلمين القديم فى العلم والفلسفة ، فلم يحاول فى الفلسفة ما حاوله فلاسفة أوربا فى هذا القرن ، مما كان مبدأ تحول خطير فى الفلسفة والعلم ، وكان سببا فى اتجاههما إلى غاية جديدة سيكون لها أثر كبير فى العالم ، وقد يعذر

نصير الدين فى تقصيره عن الوصول إلى ذلك ، لأنه نهض به وعوامل اليأس تحيط به من كل جانب ، ويكفيه أنه قام بذلك فى دولة معادية للإسلام والمسلمين ، وهذا إلى أنه كان بعيدا عن مركز ذلك الاتجاه فى العلم والفلسفة ، ولم يكن شأنه فى هذا كشأن المسلمين الذين بقى لهم ملكهم فى مصر والشام والمغرب والأندلس ، وكانوا يجاورون أوربا التى وقع فيها ذلك الاتجاه الجديد فى العلم والفلسفة ، وكان عليهم أن يتنبهوا إليه ويدركوا ما يصيب المسلمين بالتقصير فيه ، ولو فعلوا هذا لساروا بالمسلمين فى ركب الحضارة الحديثة ، وجمعوا إلى مجدهم القديم مجدا حديثا .



تقى الدين بن تيمية

هو تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميَّة الحرَّانى الدمشقى الحنبلى ، ولد بحران سنة ٦٦١ هـ = ١٢٩٢ م ، ثم قدم به والده وأهله إلى دمشق وهو صغير ، فسمع الحديث من جمع كثير منهم زينب بنت مكى ، ثم اشتغل بغير الحديث من العلوم ، وكان ذكيا قوى الحفظ لا يسمع شيئا إلا حفظه ، ولم يزل يشتغل بالطلب حتى صار إماما فى التفسير وما يتعلق به ، عارفا بالفقه على اختلاف مذاهبه ، حتى قيل إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها ، عالما فى الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وقد بلغ هذا كله وعمره نحو ثلاثين سنة ·

وكان ابن تيمية يمتاز على غيره من علماء هذا القرن بأنه كان يجمع بين العلم والعمل ، ويجاهد فى هذا الإصلاح بقدر ما هيأه له نشوءه فى بيئة حديث وفقه حنبلى ، ويهتم بأمر المسلمين ويجتهد فى إحياء ما مات من نخوتهم بعد نكبتهم بالتتر ، فله فى هذا كله مقام يمتاز به على علماء عصره ممن ركن إلى الجمود ، ولم يكن يهمه فى دنياه إلا أمر نفسه ·

وقد وردت الأخبار إلى دمشق فى سنة (٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م) بأن التتر يقصدون الشام ، وأنهم عازمون على دخول مصر ، فأدرك أهل دمشق من الخوف ما أدركهم ، وكان ابن تيمية هو الذى يثبتهم ويعدهم بالنصر ، وقد اختاروه ليسافر إلى مصر ويستحث السلطان على الخروج بعسكره إلى الشام ، وكان سلطان مصر ، والشام فى ذلك الوقت هو الناصر محمد بن قلاوون ، فلم يزل به ابن تيمية حتى أرسل عساكره إلى الشام ، فرجع ملك التتر عن قصده ، لِمَا رأى من ضعف جيشه وقلة عددهم ، ومن حسن استعداد المسلمين للقائهم ، وكان هذا ونحوه مما جعل لابن تيمية منزلة كبيرة فى نفوس العامة ، وكان يشاركهم فى هذا بعضٌ من الخاصة ·

ولكن جهاد ابن تيمية الأكبر كان مع الجامدين من الصوفية والأشعرية والفقهاء ، فكان يكثر من الزراية بطرق الصوفية ، وينكر على محيى الدين بن الغربى وغيرهم من رجالهم ، وكان مما يقوله فى هذا على لسان فقرائهم :

والله ما فقرنا اختيار وإنما فقرنا اضطراب
جماعة كلنا كسالى وأكلُنا ما له عيار
تسمع منا إذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

وكان ينكر في هذا ما يفعلونه هم وغيرهم من زيارة القبور للاستغاثة بأصحابها فى قضاء الحاجات ، ولا يفرق فى هذا بين ولى ونبى ، فثار عليه المتصوفة وعلى رأسهم أحمد ابن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم المشهورة ، وكان ابن تيمية فى ذلك الوقت مقيما بمصر ، فادّعوا عليه بأنه يطعن فى شيوخ الصوفية ، وينكر الاستغاثة والتوسل بالنبى ﷺ ، فرأى أهل الدولة أن يسكنوا هذه الفتنة بتخييره بين الانتقال إلى دمشق أو الاسكندرية أو الحبس ، فاختار الحبس من هذه الأمور الثلاثة ، فاعتقل فى سجن بحارة الديلم سنة ٧٠٧ هـ = ١٣٠٧ م ، وكان الناس يقصدونه فى سجنه فيعظهم ويفتيهم ويعلمهم ، فلما تولى بيبرس الجاشنكير بعد عزل الناصر محمد بن قلاوون نقله إلى سجن الاسكندرية ، لأنه كان من أشد خصومه ، وكان الناس يقصدونه فيه للاستفادة منه أيضا ، فلما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك سنة (٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) أطلقه من السجن ، وجمعه هو وخصومه فأصلح بينهم ، وقد شرطوا عليه فى صلحهم ألا يعود إلى إنكار الاستغاثة بالنبى ﷺ .

وكان له مثل هذا الموقف مع الجامدين من الأشعرية فأنكر عليهم مذهبهم فى صفة الكلام ، ورأى أن الله يتكلم بحرف وصوت ، كما كان يرى أن الله فوق العرش على سبيل الحقيقة ، إلى غير هذا من مذهب أهل السنة قبل أن يتأثر بمذهب الأشعرية ويدخل فيه ما أدخلوه من التأويل بعد تأثرهم بمذاهب المعتزلة والفلاسفة ، فثاروا عليه أيضاً كما ثار عليه الجامدون من المتصوفة ، وقد حُبس فى هذه الفتنة أيضاً ، ولم يخرج من السجن إلا بعد أن شفع فيه الأمير حسام الدين مهنّا بن عيسى أمير عرب الشام ، وكان يحبه حباً زائداً ، لأنه هداهم وأصلح حالهم ، بعد أن كان بعضهم يغير على بعض ، فنقلهم من هذه الجاهلية إلى الإسلام الصحيح ، وقد جمع بينه وبين خصومه ليصلح بينهم ، فانتهى المجلس بكتابة محضر ذكر فيه ابن تيمية أنه يعتقد أن القرآن معنى قائم بذات الله ، وهو صفة من صفات ذاته القديمة ، وهو غير مخلوق ، وليس بحرف ولا صوت ، وأن قوله ﴿ الرَّحمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [1] ليس على ظاهره ، ولا يعلم كنه المراد به ، بل لا يعلمه إلا الله تعالى .

وكذلك كان أمره مع الجامدين من الفقهاء ، لأنه كان يرى فتح باب الاجتهاد فى الفقه ، ويفتى بخلاف المذاهب الأربعة التى وَقع إجماعهم عليها ، كما أفتى بأن الطلاق الثلاث من غير تخلل رجعة يقع طلقة واحدة وَقد حبس على هذه الفتوى سنة ٧٢٠ هـ =

---

(١) طه : آية ٥ .

١٣٢٠ م ، وكان فى ذلك الوقت مقيما بدمشق ، فمكث محبوساً بقلعتها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ثم ورد كتاب من السلطان بإخراجه من الحبس فمكث بدمشق يشتغل بالتعليم والتأليف إلى أن وجدت فتوى بخطه فى منع السفر وإعمال المطىِّ إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ؛ فثار عليه العلماء من أجلها ؛ وقد ورد كتاب السلطان باعتقاله سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م ؛ فاعتقل هو وجماعة من تلامذته فيهم شمس الدين محمد بن قيِّم الجوزية ؛ وقد مكث هذه المرة فى سجنه إلى أن توفى سنة ٧٢٨ هـ = ١٣٢٧ م .

وقد أحسن ابن تيمية فيما حاوله من إحياء روح الجهاد فى المسلمين بعد أن ماتت فيهم بتغلب التتر عليهم ، وفيما حاوله من الإصلاح فى التصوف الذى صار جهلا وبطالة وشعوذة ، وفيما حاوله من فتح باب الاجتهاد فى الفروع ، فكل هذا يدخل فى باب التجديد ويستحق به أن يكون من المجددين ، ولكنه لم يحسن فيما حاوله من سد باب التأويل فى النصوص ، وحجره على المسلمين أن يخرجوا على مذهب السلف فى العقائد ، لأنه لا يدخل بهذا فى باب التجديد ، ولا يستحق به أن يكون من المجددين ، وإنما هو منه جمود على مذهب السلف ، كجمود الأشعريين على مذهبهم ، وجمود غيرهم من الفرق على مذاهبهم ، والمجدد فى هذا هو الذى يأخذ الفرق كلها بالتسامح ، فلا يحجر على أحد فيما يقبل الاجتهاد من الأصول ، كما لا يحجر على أحد فيما يقبل الاجتهاد من الفروع .

وكذلك يؤخذ على ابن تيمية أنه كان شديدا على الفلسفة وعلومها ، حتى إنه كان يقول : « ما أظن الله يغفل عن المأمون ، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة » . وقد بلغ من تعصب ابن تيمية على علوم الفلسفة أنه حاول أن يبطل منها ما لا صلة له بالدين كعلم المنطق ، مع أن الغزالى وغيره من أهل السنة كانوا يتعصبون لهذا العلم ، والذى يؤخذ فيه على ابن تيمية أنه كان يحاول إبطاله بنزعة دينية ، وقد حجبه هذا عن الوصول إلى الإصلاح المطلوب فيه ، فلم يصل فيه إلى ما وصل إليه فلاسفة أوربا بعده فى إصلاحه ، لأنه كان مأخوذا فيه بنزعة من التعصب الدينى ، فكان همه فيه الهدم لا الإصلاح ، وقد جنى هذا التعصب الأعمى على المنطق ونحوه من علوم الفلسفة على المسلمين أكبر جناية ، وجعلهم يستمرون على النفور منها فى هذا القرن ، ولا يشعرون بما ظهر فيه من اهتمام أوربا بها ، ومحاولتها توجيهها وجهة جديدة نافعة .

وكذلك يؤخذ على ابن تيمية أنه لم يحاول إصلاح طريقة الحكم فى هذا القرن ، وقد وصلت إلى أسوأ ما وصلت إليه فى الإسلام ، فصار للمسلمين فى القاهرة خليفة دينى لا شىء له من الحكم ، وكأنهم أرادوا به أن يكون له زعامة دينية كزعامة البابا فى

المسيحية ، وكان يقوم إلى جانب هذا الخليفة حاكم دنيوى من طائفة المماليك ، وهى طائفة كانت تجلب من غير بلاد المسلمين ، فتحكمهم حكما استبداديا غاشما ، وتنظر إليهم كما ينظر الأجنبى إلى الأجنبى ، لبعد ما بينها وبينهم ، وغلبة العنصرية الأجنبية عليها ، ومثل هؤلاء الحكام لا يرجى منهم صلاح للمسلمين ، ولا يتوقع منهم أن ينهضوا بهم ، فكان على ابن تيمية أن ينظر فى أمرهم ، وأن يحاول إصلاح هذا الحكم الفاسد ، ليقوم بدله حكم صالح ينهض بالرعية فى دينها ودنياها ، ويعرف ما يلزم لهذا النهوض من العلوم التى فرط المسلمون فيها ، ليرفعوا رايتها كما كانت ، وينهضوا بها فى حاضرهم ومستقبلهم ، كما نهضوا بها فى ماضيهم ·

وكان لابن تيمية مدرسة بعده جارته فى تلك النواحى من الجمود ، فعادت علوم الفلسفة كما عاداها ، ولم تهتم بغير الفقه والتفسير والحديث وما إليها من العلوم ، وكان ابن رُشد الفيلسوف الفقيه أولى أن يكون له مدرسة بعده من ابن تيمية ، ليسير المسلمون بها فى سبيل التجديد الصحيح ، ويجمعوا بها بين علوم الدين وعلوم الفلسفة ، فهذا كان خيرا من مدرسة ابن تيمية التى جمدت بعده على تقليده ، كما جمدت مدرسة الأشعرى على تقليده أيضا ، وكان من أثر هذا ما سنبينه فيما يأتى من القرون ·



ابن دقيق العيد

هو تقى الدين أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى ، كان والده مجد الدين بن دقيق العيد متوجها من قوص إلى مكة فى البحر ، فولد له ابنه تقى الدين سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م ، وقد تفقه بقوص على والده ، وكان والده مالكى المذهب ، ثم تفقه على عز الدين بن عبد السلام ، وكان شافعيا ، فحقق مذهب مالك ، ومذهب الشافعى ، ودرس غير الفقه من العلوم على شيوخ زمانه ، حتى برز فى العلوم النقلية والعقلية ، وكان للعلوم جامعا ، وفى فنونها بارعا ، مقدما فى معرفة علل الحديث على أقرانه ، منفردا بهذا الفن النفيس فى زمانه ، وقد سمع بمصر والشام والحجاز ، وكان له مع هذا معرفة بالأدب وقرض الشعر ، حتى ذكر السبكى فى طبقاته أنه لم يدرك أحدا من مشايخه يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة ، وقد اشتهر أمره وعلا قدره بين الناس ، حتى كان يخاطب الناس عامّة - السلطان فمن دونه - بقوله : يا إنسان ، وإن كان المخاطب فقيها كبيرا قال : يا فقيه ، وتلك الكلمة لا يسمح بها إلا لابن الرفعة وأمثاله ، وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجى : يا إمام ، ويخصه بها ، وقد حضر مرة عند السلطان لاجين ، فقام إليه السلطان وقبل يده ، فلم يزد على قوله : أرجوها لك بين يدى الله ، وقد ولىْ قضاء القضاة على مذهب الشافعى سنة ٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م ، ولم يقبله إلا بعد إباء شديد ، وبعد أن قيل له : إن لم تفعل ولوا فلانا أو فلانا لرجلين لا يصلحان للقضاء ، فرأى أن القبول واجب عليه حينئذ ، ومع هذا عزل نفسه غير مرة ، فكانوا يعيدونه إذا عزل نفسه ، وقد مكث فى القضاء إلى أن توفى سنة ٧٠٢ هـ = ١٣٠٢ م .

وإنما أبى ابن دقيق العيد منصب القضاء ذلك الإباء الشديد ، ثم عزل نفسه منه غير مرة حتى يعاد إليه ، لأنه كان غير راض عن حالة الحكم فى عصره ، ولا عن استئثار أولئك المماليك بالحكم فى مصر والشام ، ويؤيد هذا قوله :

أهل المناصب فى الدنيا ورَفعتها ... أهل الفضائل مرذولون بينهمُ
قد أنزلونا لأنا غير جنسهمُ ... منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فما لهم فى توقِّى ضيرنا نظر ... وما لهم فى ترقى قدرنا همم
فليتنا لو قدرنا أن نعرّفهم ... مقدارهم عندنا أو لودَروه هم
لَهُمْ مريحان من جهل وفرط غنى ... وعندنا المتعبان : العلمُ والعدمُ

وقد ناقضه الفتح الثقفى - وكان يتهم بالزندقة - فقال :

أين المراتب والدنيا ورفعتُهـــــا عند الذى حاز علمًا ليس عندهم ؟
لا شك أنَّ لنـــا قدرًا رأوه ، وما لقدرهم عنـــــدنا قدر ولا لهم
همُ الوحوشُ ونحن الإنسُ حكمتنا تقودهم حيثـما شئنا وهم نعم
وليس شىءٌ سوى الإهـــمال يقطـعنا عنـــهم لأنهـــم وجدانهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم وفيهم المتعبان الجهل والحشم

ولا أدرى متى كانت هذه الشكوى من ابن دقيق العيد ؟ .. أكانت وهو لا يزال ببلده قوص ، لا يعرف أولئك الحكام ولا يعرفونه ، وبعض الناس ينصحه بالذهاب إلى القاهرة ليظهر فيها فضله ، وينال ما ينال من العلى ، فيجيبهم بقوله :

يقولون لى هلاّ نهضتَ إلى العُلَى فما لذَّ عيشُ الصابر المتقنع
وهلاً شددتَ العيسَ حتى تحلها بمصر إلى ذاك الجناب المرفع
ففيها من الأعيان مَنْ فيضَ كفِّه إذا شاء روى سيلُه كلَّ بلقع
وفيها قضاةٌ ليس يخفى عليهم تيقُّن كون العلم غير مضيع
وفيها شيوخ الدين والفضل والأ لى يشير إليهم بالعلى كل إصبع
وفيها وفيها ، والمهابة ذلة ، فقم واسْعَ واقصد باب رزقك واقرع
فقلت : نعم أسعى إذا شئتُ أن أرى ذليلا مهانا مستحقًا لموضع
وأسعى إذا ما لذَّ لى طول موقفى على باب محجوب اللقاء ممنَّع
وأسعى إذا كان النفاقُ طريقتى أروح وأغدو فى ثياب التصنُّع
وأسعى إذا لم يبق فىَّ بقيةٌ أراعي بها حق التُّقى والتورع
وكم بين أرباب الصدور مجالس يشبُّ لها نارُ الغَضا بين أضلع
وكم بين أرباب العلوم وأهلها إذا بحثوا فى المشكلات بمجمع
مناظرةٌ تُحمى النفوسَ فتنتهى وقد شرعوا فيها إلى شر مشرع
منَ السفه المزرى بمنصب أهله أو الصمت عن الحق هناك مضيع
فإما توقىٍّ مسلك الدين والنُّهى وإما تلقى غُصَّة المتجرِّع

أم كانت شكواه بعد أن ضرب بقوله هذا عُرض الحائط ، فترك قوص إلى القاهرة ، وبلغ فيها من السلطان ما بلغ ، حتى كان يخاطب الناس عامة - السلطان فمن دونه - بقوله « يا إنسان » ، ويحضر مرة عند السلطان لاجين ، فيقوم إليه السلطان ويقبل يده ، فلا يزيد على قوله : « أرجوها لك بين يدى الله » ، كأن هذه القبلة تمحو كل تلك المظالم

التى شكا منها ، والتى كانت لم تزل قائمة بعد حضوره إلى القاهرة وإقامته فيها ، فكان الفساد هو الفساد ، وكانت عواقب ذلك الفساد من ذهاب الدنيا من المسلمين ظاهرة لا تخفى على متبصر ، وقد أدركها ابن جرير الطبرى فى القرن الثالث الهجرى[1] ونحن الآن فى القرن السابع ، حيث زاد الفساد وَطم ، وصار ينذر بالخطر كل الخطر على المسلمين .

ولعل ابن دقيق العيد كان قد أدركه اليأس من صلاح الحال ، فسلم الأمر لله يفعل ما يشاء ، كما يُشعر بهذا قوله :

قد جرحتنا يدُ أيامنا ... وليس غيرُ الله مِن آسى
فلا تَرْجُ الناس فى حاجه ... ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تردٍّ شكوى إليهم فلاً ... معنى لشكوى إلى قاس
ولا تَقِسْ بالعقل أفعالهم ... ما مذهبُ القوم بمنقاس
لا يعدَمُ الآتى لأموالهم ... مِن ذلة الكلب سوى الحاس[2]
وإن تجالس منهمُ معشرا ... هَوِيَت فى الذنَب على الرأس
يأكل بعضٌ لحمَ بعض ولا ... يخشى فى الغِيبة من باس
لا رغبةٌ فى الدين تحميهمُ ... عنها ولا حشمة جلاّس
فاهرب من الخلق إلى ربهم ... لا خير فى الخلطة بالناس

وقال فى هذا المعنى أيضا :

منْ عذيرى من معشر هجروا العقـ ... ـل وحادوا عن طُرقه المستقيمهْ
لا يرون الإنسان قد نال حظــا ... من صلاح حتى يكون بهيمــهْ

ولكن هذا اليأس ليس فى شىء من نزعة التجديد ، حتى يُعَدُّ به ابن دقيق العيد فى مجددى هذا القرن ، وإنما نزعة التجديد أمل وجهاد فى الإصلاح ، وسعىٌ دائب فى غير ملل إلى تنبيه الناس إلى عواقب هذا الفساد ، وإلى وضع خطط ظاهرة للنهوض بهم ، أما تلك الشكوى فهى موقف سلبى لا يفيد شيئا ، ولا يبين للناس كيف يتخلصون من فسادهم .

ولعل ابن دقيق العيد يعنى بالبيتين الأخيرين حالَ صوفية زمانه ، ولكن يبعد هذا ما جرى بينه وبين أبى العباس المرسى من صوفية هذا القرن ، وقد مر فى القاهرة بأناس

---

(١) انظر ص ١١١ ، ١١٢ من تاريخه .

(٢) اسم من حسا المرق شربه شيئا بعد شىء .

يزدحمون على دكان خباز فى سنة غلاء ، فوقف عليهم ، فوقع فى نفسه لو كان معه دراهم لآثرهم بها ، فأحس بثقل فى جيبه ، فأدخل يده فوجد دراهم جملة ، فدفعها إلى الخباز ، وأخذ خبزاً فرقه عليهم ، فلما انصرف وجد الخباز الدراهم زيوفا ، فناداه الخباز ليعود ، فوقع فى نفسه أن ما وقع فى قلبه أولا من الرقة اعتراض على الله تعالى ، فاستغفر اللهَ منه ، فلما عاد وجد الدراهم جيدة ، فانصرف أبو العباس وجاء إلى ابن دقيق العيد ، وحكى له ما حصل من ذلك ، فقال له : « يا أستاذ ، أنتم إذا رققتم على أحد تزندقتم ، ونحن إذا لم نرقَّ على الناس تزندقنا » وقد ذكر السبكي فى شرح كلام ابن دقيق العيد أن الفقير - الصوفى - يطّلع على الأسرار ، فكيف يرقّ ، ولا يقع شىء فى الوجود إلا لحكمة اقتضته ، ومن اطّلع على الذنب لم يرق للعقوبة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ ﴾ [1] والفقيه لا اطلاع له على ذلك ، فيرقّ ديانةً ورأفة ؛ فابن دقيق العيد بهذا يسلم للصوفية دعوى علم الباطن ، ويسلم أن علم الفقهاء علم بالظاهر ، وبهذا سلَّم لهم كل شىء ، فلا يصح أن يكون قد عناهم بالبيتين السابقين .

ولابن دقيق العيد لفتة عابرة قد تدل على أنه كان فيه شىء من نزعة التجديد ، وذلك أنه لما جاءت التتر إلى الشام فى سنة (٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) ورد مرسوم السلطان إلى القاهرة بعد خروجه منها للقائهم أن يجتمع العلماء ويقرؤوا البخارى ، فاجتمع العلماء وقرؤوه إلى أن بقى شىء منه ، وكان هذا فى يوم خميس ، فأخّروا ما بقى إلى أن يتموه فى يوم الجمعة ، فلما كان يوم الجمعة ، رأوا ابن دقيق العيد فى الجامع ، فقال لهم : ما فعلتم ببخاريكم ؟ . . . فقالوا : بقى ميعاد أخرناه لنختمه اليوم ، فقال : انفصل الحال من أمس العصر ، وبات المسلمون على كذا ، فقالوا : نخبر عنك ؟ فقال : نعم ، فجاء الخبر بعد أيام بذلك ، وكان النصر فيه للمسلمين ، وقد عد السبكى هذا من كرامات ابن دقيق العيد ، والذى يهمنى منه قوله « ما فعلتم ببخاريكم » لأن الظاهر أنه يريد أن النصر قد تم قبل الانتهاء منه ، وأنه تم بما أمر الله بإعداده من قوة ومن رباط الخيل ، وليس منه قراءة البخارى ونحوه ، ولكنها كما قلت لفتة عابرة ، ولا يقصد ابن دقيق العيد منها إلا إظهار كرامة كما فهم السبكى ، ولو كان يقصد أكثر من هذا لنبه المسلمين إلى خطر اعتمادهم على مثل هذه الوسائل ، وإهمالهم الاعتماد على العلوم التى تمكننا من إعداد ما أمرنا به من القوة الحربية ، ولا سيما بعد أن أخذ أعداؤنا يعتمدون على هذه العلوم ، وينفضون عنهم غبار الجهل الذى كان يساعدنا على النصر عليهم .

---

(١) النور : آية ٢

على أن الذى يقطع عندى فى اتفاقهم على أن ابن دقيق العيد كان مجـدد هذا القرن ، أمران :

أولهما : ما ذكره في خطبة شرح « الإلمام » من أنه يجب أن يجعل الرأى هو المأموم والنص هو الإمام ، فتُرَدُّ المذاهب إليه ، وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه ، ولا يصح أن يجعل الرأى الذى هو فرع للنص أصلا ، فيرد النص إليه بالتكلف والتحيُّل ، ويحمل على أبعد المحامل بلطافة الوهم وسعة التخيل ، ويرتكب فى تقرير الآراء الصعب والذلول ، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول .

فابن دقيق العيد فى هذا يكاد يذهب إلى الأخذ بحرفية النصوص ، وهذه نزعة أصحاب الجمود ، وهو فى هذا يخالف كل المخالفة الذين يجعلون العقل هو الأصل ، ويذهبون إلى أنه هو الإمام الأول ، فيحملون النص عليه ، ولا يحملونه على النص ؛ لأن دلالة النص ظنية ، ودلالة العقل قطعية ، والواجب حمل الظن على القطع ، لا حمل القطع على الظن .

وثانيهما : انتصاره لتلك المختصرات المعقَّدة التى عرفت فيما بعد باسم المتون ، وكان ابن الحاجب وأقرانه من المتأخرين أول من سنَّ هذه البدعة فى العلوم ، وقد اختلف علماء هذا القرن فى أمر هذه المختصرات المعقدة ، فكان ابن دقيق العيد من أنصارها ، ومن أنصار الاعتماد عليها فى التعليم ، والعناية بشرحها لطلاب العلوم ، ونحن الآن نجنى الآثار السيئة لهذه الطريقة ، وكان ابن دقيق العيد فيما أعلم أول من انتصر لها ، ودافع عنها فى خطبة شرحه لمختصر ابن الحاجب الذى سماه - الجامع بين الأمهات - فقد ذكر فى الثناء عليه أنه قرَّب المرمَى ، فخفف الثقي ، وقام بوظيفة الإيجاز فناداه لسان الإنصاف : ما على المحسنين من سبيل ، ثم ذكر أنه مع هذا لم يعدم حاسدًا تارة يعيب لفظه بالتعقيد ، وطورًا يقول : لقد رمى المعنى من أمد بعيد ، ومرة ينسبه إلى السهو والغلط ، وأخرى يدَّعى أنه رجح غير المشهور وذلك معدود من السقَط ، ثم ذكر أن الاعتراض بالتعقيد والإغماض ربما كان سببهُ بُعد الفهم ، وأن هذه المختصرات وُضعت لقرائح غير قرائح[1] وخواطر إذا استسقيت كانت مواطر ، وأذهان يتقّد أوارها ، وأفكار إذا رامت الغاية قصر مضمارها ، فربما أخذها القاصر ذهنا فمـــا فك لها لفظا ، ولا طرق معنى ، فإن وقف هناك وسلَّم سلم ، وإن أنف بالنسبة إلى التقصير فأطلق لسانه أثم ، وهو مخطىء فى أول سلوك الطَريق ، وظالم لنفسه حيث حمَّلها ما لا تطيق ، وسبيل هذه الطبقة أن تطلب المبسوطات التى تفردت فى إيضاحها ، وأبرزت معانيها سافرة عن نقابها ، والحكيم من يقر الأمور فى

(١) قرائح : ملكات ، وغير قرائح: بمعنى سليمة .

نصابها ، ويعطى كل طبقة ما لا يليق إلا بها ، ثم أجاب عن باقى الاعتراضات بما لا يهمنا لفظه وفهم معانيه ، على وجه يسهل للماهر مساغه وذوقه ، ويرفع القاصد فيلحقه بدرجة هنا ، إلى أن ذكر أنه قد آن شرح هـذا الكتاب شرحا يعين الناظر فيه على فك من هو فوقه ، ثم ذكر أنه يقصد إلى عشرة أمور : أولها التعرض لبسط ألفاظه المقفلة، وإيضاح معانيه المشكلة ، وإظهار مضمراته المهملة ، فيذكر المسائل أو المسألة يبسط العبارة فيها ، ويقتصر على ذلك إن رأى أنه يكفيها ، وإلا رجع إلى تنزيل ألفاظ الكتاب على ذلك الذى بسطه موضعا موضعا ، ليجمع بين البيان الإجمالى والتفصيلى معا ، اللهم إلا مواضع يسيرة أخذ الإشكال يخنقُهـا ، ورامت الأذهان الرائقة سلوكها ، فالتبس عليها جميع طرقها ، والعاقل يختار السكوت على التخليط ، ثم حكى عن والده أن المصنف - يعنى ابن الحاجب - سُئل عن شيء من هذا الكتاب فلم يأت منه بجواب وذكر أنه وضعه على الصحـة ... الخ الخ .

فابن دقيق العيد يعترف أخيرا بما اعترض به على تلك المختصرات ، ولكنه لا يوافق المعترضين عليها فى ضررها على العلوم ، وفى وجوب الإعراض عنها ، والمضىّ فى طريقة المتقدمين فى التأليف والتعليم ، حتى لا يكون همُّ العالم والمتعلم من العلم كشف الغامض من هذه المختصرات ، وحلّ المعقد من عباراتها ، وتضييع زمن التعليم فى هذا من غير فائدة ، ولا شك أن ابن دقيق العيد يحمل وزر هذه الطريقة ، ويتحمل ما جرَّته من ضرر على العلم والتعليم ، ويكون بها جديرا فى أن يعد من أنصار التأخر والجمود ، لا من أنصار النهوض والتجديد .

ولكن هذه الطريقة التى دافع عنها ابن دقيق العيد هى التى قدّر لها الغلبة بعده ، وكان أصحابها هم الذين يعينون مجددى القرون ، ولعل هذا كان من أسباب اتفاقهم على أنه مجدد هذا القرن .



محيى الدين بن عربى

هو أبو بكر محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائى الأندلسى ، ويقال له ابن عربى وابن العربى بالألف واللام ، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ = ١١٦٤ م ، ونشأ بها فى صباه ، وسمع على ابن بشكـوال وغيره ، ثم انتقل إلى أشبيلية سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م ، فمكث بها نحو عشرين سنة ، وكتب الإنشاء لبعض الملوك ، ثم تزهد وتعبد وطاف البلدان ، ودخل مصر والشام والحجاز والروم والمشرق ، ثم دخل بغداد وحدث فيها بشىء من مصنفاته ، وكان له توسع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق فى التصوف وتآليف جمة فى العرفان ، وكان يقول : « أنا أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء » ، إلى غير ذلك من دعاوى أولئك المتصوفة ، وكان ظاهرىَّ المذهب فى الفروع ، باطنىَّ النظر فى الاعتقادات ، وله اختيارات فى المسائل الفقهية ، منها قوله بجواز مسح الرجلين فى الوضوء ، وجواز السجود فى التلاوة إلى أى جهة كانت ، وجواز إمامة المرأة للرجال والنساء ، وجواز التطهير بالماء الذى تخالطه النجاسة إذا لم يتغير أحد أوصافه ، وعدم تأثير نزع الْخُفّ فى طهارة القدم ، وعدم القضاء على تارك الصلاة ، إلى غير هذا من اختياراته الفقهية .

وله مؤلفات كثيرة فى التصوف ، منها الفتوحات المكية فى عشرين مجلداً ، ومنها التدريبات الإلهية ، ومنها التنزلات الموصلية ، ومنها فصوص الحكم ، ومنها كتاب الهوّ والأحدية ، ومنها ترجمان الأشواق ، ومنها مسامرات الأخيار فى خمس مجلدات إلى غير هذا من مؤلفاته التى أتى فيها من غرائب التصوف ما أتى ، وجعلت الناس يختلفون فى أمره اختلافا كبيراً ، وهذا إلى شعر كثير فى المعانى الصوفية التى أودعها كتبه ، ومن ذلك قوله :

إذا حَـــلَّ ذكركُم خاطرى ... فرشتُ خدودى مكان الترابْ
وأقعدُ فى الذل على بابكم ... قعودَ الأسارى لضرب الرقاب

وقوله :

ليت شعرى هل دَرَوْا أىَّ قلب ملكوا ... وفؤادى لو درى أى شعْب سلـــكوا
تُراهم سَلِمـوا أم تراهم هلـــكوا ... حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

وقوله

سلامٌ على سَلْمَى ومن حَلَّ بالحِمَى ... وحق لمثلـــى رِقَّةً أنْ يُسَلِّمـــا

وماذا عليها أن تَرُدَّ تحيةً ... علينا ؟ ... ولكن لا احتكام على الدما

سرَوْا وظلامُ الليل أرخى سدوله ... فقلت لها : صبا غريما متيَّماً

فأبدت ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر مَ نْشَقَّ الحنادس منهما !؟

وقالت : أما يكفيه أنى بقلبه ... يشاهدنى فى كل وقت ؟ أمَا أمَا ؟

إلى غير هذا من الشعر الذى يذهب أنصاره إلى أنه يُتغزل فيه بالذات العلية جل شأنها عن هذا التغزل ، وعن تمثيلها بسلمى وغير سلمى ممن يتغزل بهن فى الشعر ، والله يعلم أكان هؤلاء المتصوفة يتغزلون حقيقة بالذات الإلهية ، أم كانوا واقعين فى حب آخر عُذْرى أو غير عذرى رأوا أنه لا يليق بهم ، لما يرونه من اعتقاد أتباعهم فى ولايتهم ، فاضطروا أن يتستروا به هذا التستر ، وأن يظهروا أنهم يتغزلون فى شعرهم بالذات العلية ، وما كانت الذات العلية تريد منهم هذا التغزل ، وما تريد من الحب الذى أمرت به إلا امتثال أوامرها واجتناب نواهيها ، وإيثار مصالح عبادها العامة على المصالح الخاصة ، وإنه ليدخل فى هذه المصالح الخاصة سعىُ أولئك المتصوفة فى حمل الناس على تقديسهم ، وعلى اعتقاد الولاية فيهم ، وعلى تكريمهم فى حياتهم بالخضوع لهم ، وبعد مماتهم بإقامة القباب على قبورهم ، فلم يُرِد الله مِن حبه بثَّ الشوق إليه ، وإظهار الشكوى من بُعده ، وما إلى هذا مما لا يفيد الناس شيئاً فى دنياهم وأخراهم .

وإذا كان معروف الكرخي أول من نقل التصوف من ميدانه العملى إلى ميدانه النظرى ، فاستحق بهذا أنْ يُخَصَّ من بين المتصوفة بالدرس فى القرن الثانى الهجرى ، فإن محيى الدين بن عربى قد وصل فى هذا التصوف النظرى إلى غايته ، فاستحق أن يُدرس أيضاً فى هذا القرن ، لبيان ما كان له من الأثر فيه وفى القرون الآتية بعده ، حتى يُعرف من كان أكثر تبعةً فيما أصاب المسلمين من النكسات الرجعية التى ذهبت بمجدهم ، وجعلتهم فى مؤخرة الأمم .

فقد توسع محيى الدين بن عربى فى نظرية وحدة الوجود توسعًا كبيراً ، فلم تبق عنده نظرية بسيطة تُقصد لذاتها ، بل صارت نظرية تتفرع إلى فروع كثيرة ، ويرتِّب عليها نتائج دينية خطيرة ، فمما رتَّبه عليها نظرته إلى الأديان كلها على أنها دين واحد ، لا يؤثر فى وحدتها ما بينها من خلافات فى أصولها وفروعها ؛ لأن من يدين بوحدة الوجود لا تؤثر فيه مثل هذه الخلافات ، وتغيب عن نظره كما يغيب عنه كل خلاف فى الوجود ، فالحب عنده أساس الأديان جميعها ؛ ولا شيء غير الحب فيها ، وفى هذا يقول :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعَى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان

وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجَّهت ركائبه فالدينُ دينى وإيمانى

فهو يرى أن كل أهل الأديان على صراط مستقيم ، وأن الوعيد لا يقع منه شىء ، وعلى تقدير وقوعه فالعذاب المتوعد به إنما هو نعيم وعذوبة ونحو ذلك ، وإن حصل لأهله ألم فهو لا ينافى السعادة والرضا ، كما لم ينافها ما يحصل من الآلام فى الدنيا ، فالثناء عنده بصدق الوعد لا بصدق الوعيد ، ولهذا قال الله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [1] ولم يقل ووعيده ، بل قال ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [2] مع أنه توعد على ذلك ، وفى هذا يقول :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عينٌ تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد وما بينها عند التجلى تباين
يسمى عذاباً من عذوبة لفظه وذاك له كالقشر والقشر صائن

ثم تغالى محيى الدين بن عربى فى هذا حتى ذهب إلى أن فرعون مات طاهراً مطهرًا ، وإلى أن كل عابد شيئًا فهو عابد لله ، وإلى أن الضلال أهدى من الهدى ، لأن الضالّ حائر ، والحائر دائر حول القطب[3] ،والمهدى سالك فى طريق مستطيل فهو بعيد عن القطب ، إلى غير هذا مما يدخل عنده فى دائرة وحدة الوجود ، ومما بلبل به أفكار المسلمين فى هذا القرن ، وما بعده من القرون ، وصرفهم عن الأمور التى تنهض بهم ، وأعماهم عن النظر فيما يدور فى العالم حولهم وفيما يجرى فيه من التوثب للنهوض ، ثم الانقضاض على العالم الإسلامى الذى يشتغل بهذه التفاهات ، ويترك النظر فيما ينهض به فى دينه ودنياه ·

فلم يكن لعلماء المسلمين فى هذا القرن وما بعده من القرون حديثٌ يُذكر إلا فى محيى الدين بن عربى ، وقد انقسموا فيه إلى أربعة أقسام :

أولها : المكفِّرون له ، كالسخاوى ، والسعد التفتازانى ، وملا على القارى ، وابن حجر العسقلانى ،وأبى حيان ،وابن دقيق العيد ،وكثير غيرهم ·

---

(١) إبراهيم : آية ٤٧ · (٢) الأحقاف : آية ١٦ ·

(٣) القطب عند الصوفية عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض فى كل زمان ، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه ؛ وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد · · ·

وثانيها : من يعتقد فيه الولاية ، كعبد الرؤوف المناوى ، والمجد صاحب القاموس ، وابن كمال باشا ، وعبد الوهاب الشعرانى ، وإبراهيم بن حسن الكورانى المدنى ، وكثير غيرهم ، فهو عندهم سلطان العارفين ، وصاحب التآليف التى تدل على سعة باعه وتبحره فى العلوم ، وأنه بلغ مبلغ الاجتهاد فى الاختراع والاستنباط ، وفى تأسيس القواعد والمقاصد التى لا يدريها ولا يحيط بها إلا من طالعها بحقها ، ولكنهم يختلفون فى تلك الأمور التى أخذت عليه ، فبعضهم يرى أنها مدسوسة عليه ، وبعضهم يرى أن ما أوهمته ظواهرها ليس هو المراد ، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو الصوفية غيرةً عليها ، حتى لا يدَّعيها الكذّابون فى التصوف ، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك ؛ لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها ، ويكفى فى الرد على هذا أن تلك العبارات السابقة صريحة فى المراد منها ، ولا معنى للاعتذار عنها بمثل هذا ، ولا معنى لشغل المسلمين بها ، وبلبلة أفكارهم فى فهمها ، وشغلهم بهذا عما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ·

وهذا مثال مما شغل به محيى الدين بن عربى الناس فى أمره ، وجعلهم يحتارون فى حقيقة عقيدته ، فقد قال فى شعر له :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

فقيل له : كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟

فقال مرتجلا :

يا من يرانى مجرماً ولا آراه آخـــذاً
كم ذا أراه منعـما ولا يرانـــى لائذا

وقد قبل أنصاره منه تأويله هذا لبيته الأول ، وجعلوه أساسا لما ذهبوا إليه من صرف كل ما شابهه من كلامه عن ظاهره بمثل ذلك التأويل ·

وإنى أرى أن أولئك الصوفية قد شاع بينهم القول بالاتحاد والحلـــول ووحدة الوجود ، وقد رماهم خصومهم بذلك ، فمن لا يرى هذا منهم لا يصح له أن ينطق بما هو صريح فيه أو ظاهر فيه على الأقل ، ثم يحاول التخلص منه بمثل تلك التأويلات البعيدة ، لأنهم يشككون الناس بهذا فى أمرهم ، ولا يدفع هذا الشك تأويلهم له ؛ لأن هذا التأويل قد يحمل على ما عرف عنهم من الأخذ بالتستر ، وإخفاء مثل هذه العقائد عن غيرهم ، على أن التأويل إنما يكون فى كلام مشرِّع معصوم ، ومع هذا لا يُقبل إذا كان بعيداً مثل التأويل السابـق فى بيت محيى الدين بن عربى ، ثم إنه لم يقع إلا نادرا فى القرآن والحديث ، ولم يقع إلا مع قرائن تدل على المراد منه ، كما هو شأن المجاز والكناية ونحوهما من العبارات ·

وثالثها : من يعتقد فى ولايته ويحرِّم النظر فى كتبه ، كجلال الدين السيوطى والحصكفى وغيرهما ، ولا يكاد يفترق هذا عن القسم الثانى ؛ لأن ما حرموا النظر فى كتبه من أجله إن كان المراد منه ما هو صريح فيه لم يصح الاعتقاد فى صاحبه ولا فى ولايته ، وإن كان المراد منه ما تأوَّله القسم الثانى كانوا منهم ؛ لأنهم يرون أيضاً أن هذه اصطلاحات للصوفية أرادوا بها صون الطريق عن غير أهله غيرةً عليه ، حتى لا يدخل فيه من يكون غير أهل له .

ورابعها : من يرى أن محيى الدين بن عربى وأمثاله كانوا يتعاطون الحشيش المخدر ، فأثر فيهم هذا التأثير ، وأوقعهم فى تلك الخيالات والشطحات ، وكان هذا المخدر فى أول ظهوره بين الناس ، فلم يلتفتوا إليه ، ولم يعرفوا سوء تأثيره فيمن يتعاطاه . وممن ذهب إلى هذا علاء الدين محمد بن محمد البخارى ، فقال فى وصفه لمحيى الدين بن عربى : يحكى عنه أنه كان كذابا حشاشا كأوغاد الأوباش ، فقد صح عن صاحب كتاب « المواقف » عضد الملة والدين أنه لما سئل عن كتاب « الفتوحات » لصاحب « الفصوص » حين وصل إلى هناك قال : « أفتطمعون من مغربى يابس المزاج بحر مكة ويأكل الحشيش شيئا غير ذلك ؟ » .

وإنى أرى أن من نسب إلى محيى الدين بن عربى أكل الحشيش لم يذكر هذا عن مشاهدة ، وإنما هو من الأخذ بما يشيعه الناس فى حق خصومهم ، ولا يصح أن ينسب إلى الناس مثل هذا من غير تثبت ، ولا يصح أن يتعدى الخلاف على الرأى دائرته المحدودة ، لأنه إذا تعداها إلى مثل هذا دخل فى دائرة السباب ، ولم يكن فى شىء من الخلاف على الرأى .

وإنى أرى أيضاً أنه كان يجب أن يناقش رأى محيى الدين بن عربى مناقشة علمية بريئة ، لا عنف فيها ولا عصبية بين من يناقشها ، وإنما هو الهدوء الذى يليق بمناقشة المسائل العلمية ، ليمكن الوصول إلى الحق فيها بهدوء ، وكان الحق واضحا فى هذه المسألة ، ولكنها لم تناقش على أنها مسألة قائمة بذاتها ، وإنما نوقشت فى شخص محيى الدين بن عربى ، وكان هناك جماهير تدين بولايته ، وجماهير تدين بكفره ، فأثر هذا فى النقاش الدائر حولها ، ولم يمكن الوصول فيه إلى شىء فاصل يمكن الاتفاق عليه فيها ، أو يخفف من حدة الخلاف بين المشتغلين بها ، أو يصرفهم عن الاشتغال بها إلى ما هو أهم منها ، لأن الفريق الأول يدين بولاية محيى الدين بن عربى ، فلا يمكن أن يسلِّم لخصومه فى هذه المسألة ، والفريق الثانى سىء الظن فيه فيأبى إلا أن يتخذ هذه المسألة ذريعة للطعن فى عقيدته ، ولا يرى أن يبحثها فى ذاتها بقطع النظر عن محيى الدين بن عربى وغيره .

وكان محيى الدين بن عربى قد استقر بالشام فى آخر حياته ، حتى توفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م ، وقد ذكر الشعرانى أنه ذكر فى بعض كتبه فى صفة السلطان جد السلطان سليمان بن عثمان الأول أنه يفتح القسطنطينية فى الوقت الفلانى ، فجاء الأمر كما قال ، وبينه وبين السلطان نحو مائتى سنة ! فبنى عليه السلطان سليمان قبة عظيمة ، وأنشأ بجواره تكية فيها طعام وخيرات ، فزاد بهذا اعتقاد الناس فيه ، بعد أن كان من ينكر عليه يبول على قبره ، وهذا شأن العامة فى تغاليها فى كرهها وحبها ، والله يتولانا بأمره ·

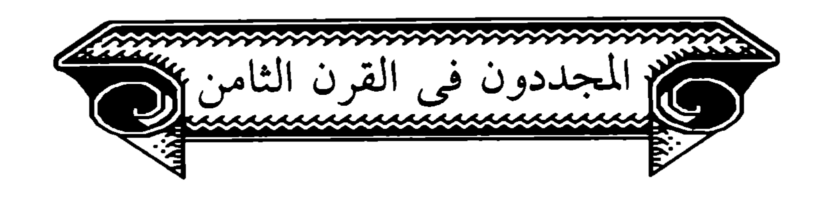
وما ذكره الشعرانى فى سبب بناء قبة محيى الدين بن عربى يحتاج إلى تحقيق من التاريخ ، لأنه يعنى بالسلطان سليمان الذى بنى هذه القبة السلطان سليمان القانونى ، وقد تولى الملك سنة ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م ، واستمر ملكا إلى أن توفى سنة ٩٧٤هـ = ١٥٦٦م ، وهو ابن السلطان سليم الأول ابن السلطان بايزيد الثانى ابن السلطان محمد الفاتح وهو الذى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م ·

وبهذا يكون والد السلطان سليمان هو سليم الأول لا عثمان الأول كما ذكر الشعرانى ، والظاهر أن هذا تحريف من الناسخ أو اشتباه من الشعرانى بين عثمان الأول وسليم الأول ، ويمكن حمله على ما اشتهر بينهم من قولهم عن كل سلطان عثمان إنه ابن عثمان ، نسبةً إلى عثمان الأول مؤسس دولتهم ·

وبهذا أيضا يكون محمد الفاتح هو الجد الثانى للسلطان سليمان لا الجد الأول كما هو ظاهرُ كلام الشعرانى ·

ولا شك أن بين تاريخ وفاة محيى الدين بن عربى وتاريخ فتح القسطنطينية نحو مائتى سنة كما ذكره الشعرانى فيما سبق ، ولكن ثبوت تلك الكرامة يتوقف على تعين الكتاب التى ذكرت فيه وعلى تعيين مكانها منه ، ولم يعين الشعرانى واحدا منهما ، على أنه لو كان هذا صحيحا لَعُرف حين فتحت القسطنطينية ، ولم تتأخر معرفته إلى عهد السلطان سليمان القانونى ، وكان قد مضى عليه نحو مائة سنة · وقد تغالى الناس كثيراً فى نسبة الكرامات إلى هؤلاء المتصوفة ، فيجب الاعتماد فى أمرهم على ما صح من أقوالهم وأفعالهم ، لا على هذه الكرامات التى تنسب - من غير تحقيق - إليهم ·





المجددون فى القرن الثامن

حال العالم فى القرن الثامن الهجرى

يمتد القرن الثامن الهجرى من سنة ١٣٠١ م إلى سنة ١٣٩٧ م ، وكان التتر فيه لا يزالون مستولين على البلاد الإسـلامية من العراق إلى ما بعده من بلاد فارس والهند والترك ، ولكنهم كانوا قد دخلوا فى دين الإسلام ، وانفصلوا عن طاعة الخان الأعظم بالصين ، وكان - محمود غازان - خان فارسَ أول من خرج عن هـذه الطاعة بعد إسلامه ، فابتدأ بهذا عهدٌ جديد لهم فى سنة ٧٠١ هـ = ١٣٠٢ م ، وقامت به لهم دولة إسلامية قوية على رأسها محمود غازان بن أرغون بن أباقاخان بن هولاكو بن تولوى بن جنكزخان ، وكان هؤلاء التتر قبل إسلامهم يقرِّبون مسلمى الشيعة إليهم أكثر من مسلمى أهل السُّنة ، فلما أسلموا دخلوا فى مذهب الشيعة ، فدخل فى إسلامهم ما دخله من التعصب الذى كان قائما بين المذهبين ، وهذا إلى أن إسـلام أكثرهم تم على يد بعض رجال الصوفية ، وكان فى إسلام هؤلاء المتصوفة كثير من الخرافات والبدع ، فتأثر به إسلام هؤلاء التتر ، كما كان من براق القرمى ، وهو من قرية من قرى دوقات فى بلاد التتر ، وكان لأبيه إمرة بها ، فأسلم وترك إمرة آبائه ، وقام على رأس جماعة من الفقـراء الصوفية ، فدخل بهم بلاد الروم ، ثم قدم دمشق سنة (٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م) وهو محلوق الذقن ، وشواربه وافرة ، وهيئته منكرة ، وأتباعُه على كتف كل واحد منهم جوكان ، وفى رأسه قرنا لبّاد ، إلى غير هذا من أمورهم المنكرة ، وقد عوتب رئيسهم على هذه الأمور ، فقال : أردتُ أن أكون مسخرة للفقراء . وكان محمود غازان ملك التتر السابق يعظِّمه ويعتقد فيه ؛ لأنه لما بلغه خبره أحضره وسلَّط عليه سبعًا ضاريا ، فوثب عليه وركب على ظهره ، فعظم بهذا فى عينه .

وكان لأهل السنة فى هذا القرن دولتان مجاورتان لدولة التتر : أولاهما دولة المماليك بمصر والشام وبعض بلاد العرب ، وكانت تحتضن الخلافة الصورية التى أقامتها لبنى العباس بعد سقوط دولتهم ببغداد ، فأساء هذا إلى دولة التتر لأنها نظرت إليه على أنه محاولة من دولة المماليك لإعادة الدولة العباسية ببغداد .

والثانية الدولة العثمانية التركية ، وقد قامت ببلاد الروم فى آسيا الصغرى سنة ٦٩٩هـ = ١٣٠٠ م ، وأول ملوكها هو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه التركمانى ، وكان أرطغرل بن سليمان شاه زعيما لإحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية إلى آسيا الصغرى ، وكان بها إمارة لعلاء الدين سلطان قونية وهى إحدى الإمارات الباقية من الدولة السلجوقية ، وقد قصدها التتر للاستيلاء عليها ، فساعد أرطغرل السلطان علاء الدين حتى ردَّ التتر عن إمارته ، فأقطعه علاء الدين بعضا من بلاده ، وصار لا يعتمد فى حروبه إلا عليه ، ولما مات أرطغرل أقام علاء الدين ابنَه عثمان مكانه ، ومنحه بلاداً أخرى إلى البلاد التى كان قد منحها لأبيه ، وأجاز ضرب السكّة باسمه ، وأنْ يُذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، ثم مات علاء الدين سنة ٦٩٩ هـ = ١٣٠٠ م ، فقام عثمان بن أرطغرل مكانه فى هذه الدولة ، وأخذ يضم إليها ما يفتحه من بلاد الروم بآسيا الصغرى ، وكان من أشهر ما فتحه فيها مدينة بروسة .

ومات السلطان عثمان سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م ، فقام ابنه أورخان الأول مكانه ، واتخذ مدينة بروسة قاعدةً له ، وكانت الجيوش قبله لا تُجمع إلا وقت الحرب ، فأراد أن يتخذ جيشاً يقوم دائما فى الحرب والسلم ، وكان بهذا أول من ابتدع سنة الجيوش الدائمة ، وقد ألفه من شبان الأسرى فى حروبه ، ولما ألَّفه منهم سار بهم إلى الحاجِّ بكطاش شيخ طريقة البكطاشية الصوفية بأماسية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم بالنصر على الأعداء ، وسمَّاهم بنى تشارى ، أى الجيش الجديد ، فحرّف فى العربية إلى أنكشارى ، وفى عهد السلطان أورخان امتدت هذه الدولة ، واجتاز جيشها بحر الدردنيل ، وامتلك بلادا من مملكة الروم الشرقية فى أوربا .

ومات السلطان أورخان سنة ٧٦١ هـ = ١٣٦٠ م ، فخلفه ابنه مراد الأول وافتتح كثيراً من البلاد فى آسيا الصغرى وأوربا ، ومن أشهرها بأوربا مدينة أدرنة ، فاتخذها قاعدة لدولته ، وبهذا اتسعت فتوحه فى أوربا حتى صارت مدينة القسطنطينية قاعدة دولة الروم الشرقية محاطة بها من جميع الجهات ، وكان من ضمن ما فتحه بلاد البلغار والصِّرْب وغيرها من البلاد فى أوربا وآسيا الصغرى .

ومات السلطان مراد الأول سنة ٧٩١ هـ = ١٣٨٨ م ، فخلفه ابنه بايزيد الأول وكان له أخ أصغر منه يسمى يعقوب ، فخاف منه أن ينازعه فى ملكه لِمَا كان متصفا به من الشجاعة وعلوِّ الهمة ، فقتله باتفاق أمراء الدولة وقُواد جيوشها ، ويقال إنهم استندوا فى قتله على فتوى شرعية اعتمد فيها على قوله تعالى ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [1] فكان

(١) البقرة : آية ١٩١ .

بايزيد أول من ابتدع هذه السنَّة السيئة فى هذه الدولة . وتَمّ فى عهده فتح جميع بلاد آسيا الصغرى ، وزال ما كان قد بقى بها من الإمارات السلجوقية ، وكذلك فتح بعض البلاد فى أوربا ، وحاصر مدينة القسطنطينية ، ولم يمنعه من الاستيلاء عليها إلا إغارة تيمورلنك التترى على آسيا الصغرى .

ثم توالت إغارات التتر بعد إسلامهم على تينك الدولتين السُّنيتين ، وكان يدفعهم إلى هذا تعصبهم الجنسى والمذهبى ، وقد استفحل خطرهم بعد أن ظهر بينهم جبَّار ثان بعد جنكزخان وهو تيمورلنك ، لأنه أنشأ فى هذا القرن دولة كبيرة على أنقاض دولة هذا الجبار السابق ، وكان تيمورلنك يدين بالإســـلام ، فأراد أن يجمع المسلمين كلهم بالقوة تحت رايته ، حتى استولى على جميع البلاد التى تتفرع من شرق أوربا إلى الصين ، ثم انتزع الشام من دولة المماليك ، وقصد السلطان بايزيد الأول ، فحاربه حتى أسره وانتزع منه آسيا الصغرى ، بعد أن كاد يستولى على القسطنطينية ، وقد أفزع دول أوربا بفتوحاته ، فأرسل ملوك أوربا إليه يهنئونه بانتصاره على بايزيد ، وما كان أجدره وهو مسلم أن يعرف معنى هذه التهنئة !

وكانت حال المسلمين ببلاد المغرب والأندلس أسوأ منهـا بالمشرق ، إذ كان لهم بالمشرق هذه الدول القوية ، وإن كانت متعادية بتأثير الخلافات المذهبية والجنسية ، أما المغرب والأندلس فكانت دوله من الضعف بحيث لا تقدر على مهاجمة أعدائها وهم ملوك أسبانيا والبرتغال ، وإنما كانت تدافعهم عما بقى للمسلمين بالأندلس ، فتتمكن حينا من دفعهم ، وتعجز حينا آخر عنهم ، وكانت دولة بنى الأحمر بغرناطة هى البقيَّة الباقية للمسلمين بالأندلس ، ولم تكن تقوى وحدها على الدفاع عن بلادها ، بل كانت تستعين بدولة بنى مَرين بمراكش ، وكانت هذه الدولة تعينها بجيشها ، إلى أن أخذت تدخل فى طور الانحلال بعد وفاة السلطان أبى الحسن سنة ٧٥٢ هـ = ١٣٥١ م ، وتقع فى حروب داخلية تصرفها عن نجدة بنى الأحمر بالأندلس ، فلم يُبْق على دولتهم فيه إلا اشتغال أعدائها عنها بحروبهم الداخلية فى أواخر هذا القرن ، وقد بلغ من ضعف المسلمين فى هذه البلاد أنهم كانوا يتخذون طائفة من الفرنجة فى جندهم ؛ لأن الفرنجة صاروا أعلم منهم بفنون الحرب ، وأقوى على تحمل شدائدها ، ولكنهم كانوا يستعينون بهم فى حروبهم الداخلية فقط ، لا فى قتال أعدائهم من الفرنجة ، لئلا ينقلبوا مع أجناسهم من الفرنجة عليهم .

فهذا ما كان عليه المسلمون فى هذا القرن من الناحية السياسية ، وهو يدل على أنهم كانوا فيه محتفظين بشىء من القوة ، حتى أمكنهم أن ينسابوا فى أوربا من الشرق ويهدّدوا

مدينة القسطنطينية ، ولكن حالهم من الناحية العلمية لم يكن بهذه المنزلة ، لأنهم ازدادوا فى هذا القرن بُعْدًا من العلوم الفلسفية التى تنهض بهم فى دنياهم ؛ لغلبة الجهلة من المتصوفة والجامدين من رجال الدين عليهم ، وكان المتصوفة قد وصلوا فى هذا القرن إلى أسوأ حال ، حتى قال فيهم فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس :

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليو م سوى ســـتة بغير زيادَهْ
وَهِىَ : نيك العلوق ، والسكر ، والسط ـلة ، والرقصِ ، والغناء ، والقياده
وإذا ما هـــذَى وأبدى اتحادًا وحلولاً مِن جهله أو إعاده
وأتى المنكــراتِ عقـــلاً وشرعاً فهو شيخ الشيوخ ذو السجَّاده

وكان الملوك ورجال الدين يخضعون لمدَّعى التصوف ، ويبالغون فى تعظيمهم ، ويستشيرونهم فى أمورهم ، حتى غلب على طلاب العلم الاشتغال بالتصوف ، واقتصروا من العلوم على ما يناسبه من الفقه والحديث ونحوهما ، واستمروا على نفورهم من العلوم التى لا غنى عنها مثل العلوم الفلسفية ، حتى قال الذهبى من علماء هذا القرن : « إن الفلسفة الإلهية لا ينظر فيها مَن يُرجى فلاحه ، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه ، فإن هذا العلم فى شق ، وما جاءت به الرسل فى شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علما وعملا إلا التحريق ، والإعدام من الوجود ؛ إذ الدين ما زال كاملا حتى عرِّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدمت لكان فتحا مبينا » .

وبلغ من نفوذ المتصوفة فى ملوك هذا القرن ووزرائه أن الشيخ حسينا الجاكى المتوفى سنة (٧٣٠ هـ = ١٣٢٩ م) كان خطيب جامع الجاكى ؛ وكان يعظ الناس ويلحن فى وعظه ، فأمر السلطان بمنعه من الوعظ ؛ فشكاه لشيخه أيوب الكناس ، فبينما السلطان فى بيت الخــلاء ، إذ خرج له الشيخ أيوب من الحائط والمكنسة على كتفه فى صورةِ أسد عظيم ، فارتعد السلطان ووقع مغشيا عليه ، فلما أفاق قال له : أرسل للشيخ حسين يعظ وإلا أهلكتك ، ثم دخل من الحائط ، فنزل السلطان إلى الشيخ حسين ، وأراد الاجتماع بالشيخ أيوب فلم يأذن له .

ومن ذلك أن الشيخ حسينا التُّسترى المتوفى سنة (٧٩٧ هـ = ١٢٩٤ م) كان السلطان ينزل إلى زيارته ، فلم يزل الحاسدون له من أرباب الدولة بالسلطان حتى غيروا اعتقاده فيه ، فأمر الوزير فأرسل إلى زاويته فأغلقهـــا ، وكان الشيخ خارج مصر فى المطرية ، فلما رجع وجد باب زاويته مسدودا ، فسأل : من سده ؟ . . . فقالوا : الوزير بأمر السلطان ، فقال : ونحن نسد أبواب بدنه وطيقانه . فعمى الوزير وطرش وخرس وانسد أنفه وقُبله ودُبره ، ومات فى الحال ، ولما بلغ السلطان هذا نزل إليه وصالحه ، وكان العسكر كله قد خرج عن طاعة السلطان ودخل فى طاعته .

ومن ذلك أن بعض مملوكى السلطان هرب عند الشيخ يوسف العجمى المتوفى سنة (٧٦٨ هـ = ١٢٦٦ م) خوفاً من السلطان ، فأرسل إلى السلطان يقول له : اصفح عن هؤلاء ، فأرسل إليه : إن كنت فقيراً فلا تدخل فى أمر السلطنة ، ثم طلب منه أن يردهم ، فلم يفعل ، فقال له : أنت تتلف مماليك السلطان ، فقال : إنما أنا أصلحهم ، فنزل إليه السلطان ، فأخرج إليه مملوكاً منهم وقال له : قل لهذه الأسطوانة كونى ذهباً ، فقال لها ذلك ، فصارت ذهباً يراه السلطان بعينه ، فاستغفر وقبّل رجل الشيخ ، فقال له : هذا صلاح أو فساد ؟ . . . فعرض السلطان عليه أرزاقا يأمر بوقفها على فقرائه فأبى ، وقال : لا أعوّد أصحابى على معلوم .

ولست أدرى لم يرفض الشيخ هذا من السلطان ، مع أنه كان يغلق باب زاويته طوال النهار ، ولا يفتح لأحد إلا للصلاة ، وكان إذا دق شخص على الباب يقول للنقيب : اذهب فانظر من شقوق الباب ، فإن كان معه شىء من الفتوح للفقراء فافتح له ، وإلا فهى زيارات فشارات . فقال له بعضهم فى ذلك ، فقال : أعزّ ما عند الفقير وقته ، وأعز ما عند أبناء الدنيا مالهم ، فإن بذلوا لنا مالهم بذلنا لهم وقتنا . وكان إلى هذا يُخرج كل يوم فقيراً من الزاوية يسأل الناس إلى آخر النهار ، فكان ما يأتى به الفقير يُجعل قوت الفقراء ذلك النهار كائناً ما كان ، وكان الفقير يخرج فيأتى بالحمار وهو يحمل الخبز والبصل والخيار والفجل واللحم وغير ذلك مما يجمعه بسؤال الناس ، وكان الشيخ له يوم يخرج فيه ، فلا يأتى إلا ببعض كسيرات يابسة يأكلها فقير واحد ، فسألوه عن ذلك فقال : أنتم بشريتكم باقية ، وبينكم وبين الناس ارتباط ، فيعطونكم ؛ وأنا بشريتى فنيت حتى لا تكاد تُرى ، فليس بينى وبين التجار والسوقة وأبناء الدنيا كبير مجانسة . وكانت صورة سؤاله أن يقف على الحانوت أو الباب ويقول : - الله - ويمـدها حتى يغيب ويكاد يسقط إلى الأرض ، فيقول من لا يعرفه : هـذا الأعجمى راح فى الزقزية .

ولا شك أن ما عرضه عليه السلطان كان أشرف من هذه الحالة المشينة وكان أكرم من ذل السؤال ، ولست أدرى كيف كان سلاطين ذلك الوقت يخضعون لأولئك المتصوفة فى مثل هذه الحالة ، ولكنهم كانوا سلاطين يُشترون بالمال ، ثم يصيرون سلاطين فى غفلة الزمان ، وانتشار الجهل بين الناس ، فلا عجب فى خضوعهم لأولئك المتصوفة ، ولا عجب فى خوفهم منهم ؛ لأن العامة وأشباه العامة كانت فى أيديهم ، ولعله كان خداعا متفقا عليه بينهم ، لتلهو به العامة وأشباه العامة ، ولا يلتفتوا إلى هذا الفساد الذى يبصره الأعمى .

وقد ضعفت فى هذا القرن همم العلماء بعد أن وصل جهلة المتصوفة إلى ذلك

السلطان والجاه ، ففترت منهم العزائم ، ولم يبق فيهم شيء من النزعة الفلسفية التى كانت تحملهم على الابتكار فى العلم ، وتغريهم على الوصول إلى حقائق الأشياء بقدر الطاقة البشرية ، وظهر فيهم الميل إلى الاقتصار على معارف من سبقهم بأكثر مما ظهر فى القرنين السابقين ، فكان أكبر همهم جمعها واختصارها وشرحها ، وقد بدأ بينهم فى هذا الضعف العلمى بالاهتمام بحفظ المختصرات التى سموها المتون ليقفوا بمعارفهم عند حدودها ، ويكون أكبر همهم استحضار مسائلها ، والبراعة فى فهم معانيها ، والتنافس فى وضع الشروح والحواشى عليها ، فيعوضوا ما فاتهم من الفلسفة التى يقصد منها الوصول إلى حقائق الكون ، ويصيروا إلى فلسفة جوفاء يقصد منها البراعة فى فهم تلك المتون ، ويُضيعوا العلم الحقيقى الذى ينفع فى هذه الحياة ، ويصيروا إلى قشور من العلم لا تفيدهم إلا براعة فى حل معقدات المتون ، وهى براعة لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وكان علماء العجم أول من برع فى هذه الطريقة ، وكان من أعلمهم بها فى هذا القرن سعد الدين التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى ، وهما من علماء دولة تيمورلنك ، فذاع صيتهما فى هذا القرن ببراعتهما فى هذه الطريقة ، وسيكون لهذا أسوأ الأثر فيما بعده من القرون ؛ لأن هذه الطريقة لم تَشعْ فى هذا القرن كما شاعت فيما بعده ، حتى إننى لم أعثر فى كتاب - الدُّرَر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - إلا على عالم واحد ذُكر فى ترجمته أنه كان يستحضر كثيرًا من ألفاظ المتون ، وهو عبد الرحمن بن أحمد الغزى ثم القاهرى ، وكانت هذه الطريقة قد بدأت تنتقل من بلاد العجم إلى بلاد العرب كمصر وغيرها على يد من ينتقل إليها من علماء العجم ؛ فتلقَى بين علمائها ما تلقى من الرواج ، ولم ينتبه لسوء عاقبتها منهم إلا ابن خلدون على ما سيأتى .

وكذلك كانت حال المسلمين الدينية فى هذا القرن ، فقد استمروا فى جمودهم على عقيدة الأشعرى ، وبلغ من جمودهم عليها أن محمد بن أحمد الدنيسرى ذهب إلى أنه ليس كل الحق مع أهل السنة ، بل بعض أقوال المعتزلة قد تكون حقـا ، فعزره القاضى تاج الدين السبكى وسجنه ، ثم أطلقه وكلفه أن يسأل ابن الكفرى أن يحكم بإسلامه ، ففعـل .

وكذلك كانت حال المسلمين الاجتماعية فى هذا القرن أسوأ منها فى القرون السابقة ولا سيما فى مصر والشام ؛ لأن ملوكها كانوا من المماليك الترك المخالفين لرعيتهم فى الجنسية ، فكانوا لا يشعرون بشعور رعيتهم ، ولا يهمهم بشيء حسن حالهم ، حتى قال أحمد بن يحيى بن مخْلوف فى الشكوى من هذه الحالة فى هذا القرن :

وكيف يروم الرزقَ فى مصر عاقلٌ ... ومِن دونه الأتراك بالسيف والترس ؟

وقد جمـــعته القبط من كلِّ وجهةٍ لأنفســـهم بالربع والثُمن والخُمس
فللترك والســـلطان ثلث خراجهـــا وللقبط نصفٌ والخلائق فى السدس

ويمكن أن يُستثنى الملك الناصر حسن من أولئك الملوك ، فقد ذكر المقريزى فى خططه أنه كان يكره المماليك ويؤمِّر بدلهم أولاد الناس ، وأولاد الناس فى عرف ذلك العصر هم أولاد الرعية ، ولكن بعض المؤرخين يصفه بسوء السيرة مع الرعية كغيره من أولئك المماليك ·

فإذا انتقلنا من حال المسلمين فى هذا القرن إلى حال أوربا فيه وجدنا دولة الروم الشرقية من دولها تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ لأن الدولة العثمانية التركية أخذت تضيِّق عليها الخناق ، حتى إنه لم يبق لها من ممالكها الواسعة إلا مدينة القسطنطينية وما حولها ، وكذلك كانت روسيا فى هذا القرن لا تزال فى قبضة من استولى عليها من التتر ، وكذلك كانت فرنسا من دولها الغربية ، فقد عادت فيها سلطة الأشراف فى هذا القرن إلى مثل ما كانت عليه ، وقد أدى هذا إلى ضعف ملوكها ، فطمع الإنجليز فى الاستيلاء على بلادها ، وقامت بين الفريقين حرب استمرت نحو مائة سنة (٧٣٨ - ٨٥٦هـ = ١٣٣٨ - ١٤٥٢م) وقد انتهت هذه الحروب باستيلاء انجلترا عليها ، وبهذا كان الانجليز أقوى دولة أوربية فى هذا القرن ، وكذلك كان الأسبان والبرتغال ؛ لأنهم استعادوا إلى ملكهم أكثر بلاد الأندلس ، وأخذوا يضيِّقون الخناق على دولة بنى الأحمر بغرناطة ·

وقد ظهر بين الإنجليز مصلح دينى فى هذا القرن ، وهو يوحنا ويكلف ، وكان ميلاده سنة ٧٢٥ هـ = ١٣٢٤ م ، وقد اشتغل بطلب العلم حتى نبغ فيه ، واختير رئيسا للمدرسة الكلية فى كنتربرى ، ثم أخذ يدعو إلى إصلاح المسيحية· ، فرأى عدم وجوب الرهبانية ، وأنكر سلطة البابا الروحية والدنيوية ، إلى غير هذا من الإصلاحات التى كان لها أثرها فيمن أتى بعده من المصلحين فى أوربا ، وتناولت الصميم من الفساد الدينى والسياسى فيها ، وقد أرسل بابا روما - غوريغوريوس - الحادى عشر إلى رئيس أساقفة كنتربرى يأمره بالقبض على يوحنا ويكلف ، فدعاه هذا الرئيس إلى المحاكمة ، ولكن بعض أمراء الإنجليز تولى حمايته ، ولم يمكنهم من محاكمته ، وبهذا كان حال أوربا الدينى فى هذا القرن أحسن من حالها السياسى ، لِمَا كان فيها من تباشير هذا الإصلاح الدينى ، وكانوا يسمون فيها يوحنا ويكلف : نجمة صبح الإصلاح ·

وكذلك كانت حال أوربا العلمية فى هذا القرن أحسن من حالها السياسى ، فقد استمرت فيها الحركة العلمية التى ظهرت فى القرن السابق ، وإن تغير اتجاهها بعض التغير ، لأنها كانت فى القرن السابق حركة بناء وتركيب ، يراد منها الجمع بين العقل والدين ، أما

فى هذا القرن فقد توجهت إلى نقد العقل والاعتصام بالدين وحده ، وبهذا يبدو هذا القرن وكأنه سلبى هدَّام للماضى ، ولكنه كان إيجابيا إنشائيا بتخليصه الفلسفة من الدين ، وإعادتهـــا إلى مثل ما كانت عليه عند اليونان ، وتمهيده بهذا لما أتى بعده من العصـــر الحديث .

وقد تناول وليم أوف إيكام (٦٩٥ - ٧٥٠ هـ = ١٢٩٥ - ١٣٤٩ م) بالنقد العلم الطبيعى الأرسطوطالى ، فشق بهذا النقد الطريق للعلم الحديث ، وكان قد ظهر واضحا على أيدى أساتذة جامعـــة أكسفورد ، إذ رأوا أن العلم هو صـوغ التجربة فى أسلوب رياضى ، وكان أرسطو يفسِّر الطبيعة تفسيرا نظريا محضا ، وكذلك رفض وليم أوف إيكام فكرة القوة ، أى الموجـود غير المعيَّن ، لأن مثل هذا الموجـود لا يمكن فى اعتقاده أن يوجد ، ولأن الحدس على كل حال لا يقع إلا على الموجود بالفعل ، وبهذا رفض هيولى أرسطو ، واستبدل بها فكرة المادة الموجودة بالفعل متلبسة بالصورة الجسمية ، وكان مقصد أرسطو من الهيولى أن يفسر التغير الجوهرى ، فلما رفضت وحلت محلها المادة المعينة ردت جميع التغيرات إلى التغير العرَضى وظهر المذهب الآلى الذى يفسر الأجسام وتغيراتها بأجزاء من المادة تجتمع وتفترق ، وبهذا صارت الأجسام مركبات لا وحدة لها ، إلى غير هذا مما تعقب به فلاسفة أوربا فى هذا القرن فلسفة اليونان ، وكان أنفع من تلك الفتاوى التى لجأ إليها فقهاؤنا فى تحريم الفلسفة فى هذا القرن ، إذ كانت فتاوى عمياء لا تُذكر بجانب ذلك النقد العلمى .

فأين هذا كله مما صرنا إليه من الجمود العلمى ؟ ومن إهمال الفلسفة وعلومها ، ومن ندرة من يشتغل بها بيننا ؟ وقد جاء فى كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » أن محمد بن أحمد المرسى كان ذا معرفة بالفنون القديمة ، فبنى له ملك الروم العثمانى مدرسةً بمرسية كان يُقرىء فيها المسلمين واليهود والنصارى جميع ما يرغبون فيه بألسنتهم ، فكان يُدرسها على حالها القديم ، ولا يحاول فيها ما حاوله علماء أوربا فى هذا القرن .

وبهذا يكون مجدد هذا القرن من المسلمين هو الذى ينفض عن نفسه غبار التقليد فى الدين والعلم ، ويدرك مَدى ما وصلت إليه الحركة العلمية فى العالم ، ويعرف خطر اتجاه علمائنا إلى الجمع والاختصار وحفظ المختصرات التى سمَّوها متونا ، ولا سيما فى علوم الفلسفة التى حُشرت بعد اختصارها فى علم الكلام ، لتدرس تلك الدراسة التى لم تكن إلا مماحكات لفظية فى عبارات تلك المتون .

ولكن علماءنا استمروا على خطئهم فى النظر إلى هذا المجدِّد ، وقد اختلفوا فى مجدد هذا القرن بين الاثنين اللذين ذكرهما السيوطى فى قوله :

والثامنُ الحَبْرُ هو البلقينى أو حافظُ الأنام زين الدين

وكانت شهرتهما فى الفقه والحديث ، ومثل هذا لا يُدنيهما من المجدد الذى كان المسلمون يحتاجون إليه فى هذا القرن ·

واختار السيد رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام بدلهما ابن القيم تلميذ ابن تيمية ، وأبا إسحاق الشاطبى صاحب كتاب الاعتصام وكتاب الموافقات ، وقد كان ابن القيم مقلدًا لأستاذه ابن تيمية ، فلم يجدد بعده شيئاً ، وكان قريبا منهما أبو إسحاق الشاطبى ·

وإنى أرى أن ابن خلدون كان أقرب من هؤلاء جميعا إلى أن يكـون مجدد هذا القرن ، وسيتبين هذا من دراسته ، وقد غفل عنه علماؤنا فى هذا القرن لأنه كان فى واد من العلم وهم فى واد آخر ، ثم يأتى بعده ابن قيم الجوزية ، وأبو إسحاق الشاطبى ، وسراج الدين البلقينى ·

* * *



ولى الدين بن خلدون

هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الكندى الأندلسى التونسى ، كانت أسرته من أهل الأندلس ، ثم هاجرت منها إلى تونس ، وقد ولد بها سنة ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م ، وكان أبوه عالما فقيها يقوم ببعض الوظائف فى الدولة الحفصية ، ثم اعتزلها واشتغل بدراسة العلوم الدينية واللغوية ، فأخذ عليه ابنه القراءة والكتابة ومبادىء النحو والأدب والفقه ، ثم أخذ على غيره من العلماء ، ودرس علوم التفسير والحديث والنحو والمنطق والكلام والفلسفة والأدب والتاريخ .

ومات أبوه سنة ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م ، فسعى حتى شغل وظيفة كاتب العلامة فى تلك الدولة ، فكان يوقع على كل مرسوم بشارة السلطان ، وقد تقلب بعد هذا فى وظائف الدولة ، ولم يقصر نفسه على الدولة الحفصية ، بل كان إذا لم يجد مطمعه فيها يقصد دولة غيرها من دول المغرب ، وينتقل بين تونس ومراكش وغرناطة بالأندلس ، ويشتغل بالفتن والمؤامرات والحروب التى كانت قائمة بين ملوك هذه البلاد ، فيصل حينا إلى ما تطمح إليه من المناصب العالية فى هذه الدول ، ويخفق حينا حتى يقع فى السجن .

ثم كره هذه الحياة السياسية المضطربة ، فصرف نفسه عنها ، وقصد تلمسان بأهله وولده سنة ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م ، فأقام هناك أربع سنين انقطع فيها للمطالعة والدرس والتأليف ، واتجهت نفسه إلى تدوين كتاب مبسوط فى التاريخ ، يذهب فى ترتيبه مذهبا جديدا ، فيرتب الكلام فيه على الدول ، ويذكر فيه تاريخ كل دولة على حدتها ، ويخالف بهذا الطريقة التى كانت متبعة قبله من ترتيب التاريخ على السنين .

ثم أراد أن يجعل له مقدمة يدون فيها علما جديدا تكون منزلته من علم التاريخ منزلة المنطق من الفلسفة ، أو منزلة علم أصول الفقه من الفقه ، فاخترع بهذا علم الاجتماع ، وامتاز فى تجديده بهذا الاختراع على من سبقه من مخترعى العلوم من المسلمين ؛ لأن ما اخترعوه منها يدخل فى دائرة العلوم الدينية والعربية ، فينحصر فضله فى هذه الدائرة ، ولا يعترف به إلا أصحاب هذه العلوم من المسلمين والعرب ، أما علم الاجتماع فيدخل فى دائرة العلوم العالمية ؛ ويعترف العالم كله بفضله ، وقد عرف علماء أوربا لابن خلدون هذا الفضل ، فهو عندهم واضع علم الاجتماع الحديث ، والفيلسوف

الاجتماعى الاقتصادى المبتكر ، ومؤرِّخ الحضارة البشرية بصفة عامة ، والحضارة الإسلامية بصفة خاصة .

وهذا الكتاب الذى يمتاز بهذه المقدمة العظيمة هو كتاب - العِبر وديوان المبتدإ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر - وقد اهتدى فيه ابن خلدون إلى هذا التجديد ، والجمود يحيط به فى هذا القرن من كل جهة ، وقد اندثرت فى العالم الإسلامى نزعة التجديد ، وركن علماؤه إلى إيثار التقليد فى سائر العلوم ، اللهم إلا علم الفقه الذى حاول بعض العلماء أن يخرج فيه عن دائرة التقليد ، فلم يأت فيه بجديد يذكر ، ولم ينهض به من الكبوة التى تردَّى فيها ، ولم يصل فيه إلى الإصلاح المطلوب فى هذا القرن .

وقد أتمّ ابن خلدون هذه المقدمة العظيمة فى تِلْمِسانَ ، ثم رحل منها إلى تونس فأتم فيها بقية الكتاب ، وهنا ثارت منافسة بينه وبين بعض الجامدين بتونس من رجال الدين ؛ وهو محمد بن عَرفة مفتى تونس ، فأخذ ابن عرفة يشيع عن ابن خلدون أشنع التهم ، ويثير عليه السلطان والعامة ، حتى سئم الإقامة بتونس ، ورحل منها إلى القاهرة ، فاشتغل فيها بالتدريس فى الجامع الأزهر وغيره ، وقد أجرى عليه السلطان برقوق رزقا يقوم بكفايته ، ثم عرض عليه بعد هذا منصب قضاء المالكية فقبله ، وسار فيه سيرة صالحة ، وأعرض عن قبول شفاعات الأعيان وكبار الدولة ، وكان هذا يُسخطهم عليه ، فيكيدون له إلى أن يتمكنوا من عزله ، ثم يعود إليه بعد عزله عنه ، إلى أن مات وهو متول له سنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م .

ولابن خلدون نواح أخرى فى التجديد لا تنقص منزلتها عن منزلة ما اخترعه من علم الاجتماع : فمنها إدراكه فساد ما ظهر فى هذا القرن والقرنين السابقين من عناية العلماء بالجمع والاختصار والحفظ ، والاسترسال فى المماحكات اللفظية فى التأليف والشرح ، والتعمق فى هذا إلى الحد الذى جعل علمنا علما أجوف لا طائل تحته ، فقد نقل عنه أنه كان ينكر هذه الطريقة العجمية فى التعليم والتأليف ، وأنه كان يؤثر عليها طريقة المتقدمين كالغزالى وغيره ، وقد عقد فى مقدمته فصلا مهماً فى أن كثرة الاختصارات المؤلَّفة فى العلوم مخلة بالتعليم ، أنكر فيه على المتأخرين ما أولِعوا به من وضع مختصر فى كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار فى الألفاظ ، وحشو القليل منها بالمعانى الكثيرة من ذلك الفن ، حتى صار هذا مخلا بالبلاغة وعسِراً على الفهم ، وهذا إلى ما فيه من ضياع وقت المتعلم فى فهم هذه المختصرات الصعبة ، وإلى أن الملكة الحاصلة من التعليم فيها إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة تكون ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من

الموضوعات المبسطة[1] ، وقد ذكر مع هذا الفصل فصولا فى نقد التعليم فى عصره وبيان الطرق الصالحة فيه ترفع كثيراً من قدره ، وتجعله المجدد الذى عرف فى هذا القرن مرضا خطيرا من أمراض المسلمين ، وأدرك ما سيكون له من سوء الأثر فيما سيأتى من القرون .

ومنها إلمامه فى هذا القرن بالحركة العلمية فى العالم ، فلم يقع فى الغفلة التى وقع المسلمون فيها من هذه الناحية ، بل كان يعرف ما فى هذا القرن من حركات علمية فى بلاد المسلمين من مشرقها إلى مغربها ، وفى بلاد أوربا أيضا ، فهو حين كان ببلاد المغرب لا يغفل عن الحركة العلمية فى مصر ، ولا يجهل ما وصل إليه علماؤها فى العلم ، فذكر أنه وصل إليهم بالمغرب تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جِنِّى وأهل طبقتهما ، لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرُّفه فيه ، وكذلك لا يغفل عن الحركة العلمية عند أهل المشرق ، فيذكر أنه يبلغه عنهم أن بضائع العلوم العقلية لم تزل عندهم موفورة ، وخصوصا فى عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر ، لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ، ثم يذكر أنه قد وقف على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يعرف بسعد الدين التفتازانى فى علم الكلام وأصول الفقه والبيان تشهد بأن له ملكة راسخة فى هذه العلوم .. وكذلك لا يغفل عن الحركة العلمية ببلاد الفرنجة ، فيذكر أنه بلغه لهذا العهد أن العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق ، وأن رسومها هناك متجددة ، ومجالس تعليمها متعددة ، ودواوينها جامعة متوفرة ، وطلبتها متوفرة ، فلا يغفل فى هذا كما غفل غيره من علماء المسلمين عما وصلت إليه أوربا فى هذه العلوم فى هذا القرن ، ولو أن غيره من هؤلاء العلماء وقف من هذا على ما وقف عليه ، وأدرك أن المسلمين لا يصح لهم أن يقصروا عن أوربا فيه ، لما وصلنا الآن إلى ما وصلنا إليه ، ومع هذا لا أوافقه على تنويهه بتآليف سعد الدين التفتازانى ؛ لأنها تدخل فيما أنكره من طريقة العجم فى التآليف والتعليم ، وقد كان سعد الدين التفتازانى أشهر أعلام هذه الطريقة ، حتى إنه ليحمل أكبر تبعتها فى إفساد التأليف والتعليم بين المسلمين .

ومنها إنكاره ما ذهب إليه الغزالى والفخر الرازى وغيرهما من خلط مسائل الفلسفة بمسائل علم الكلام ، فإنه بهذا يقوم بين المسلمين فى هذا القرن بما قام به فلاسفة أوربا فيه من الفصل بين الفلسفة والدين ، والتمهيد بهذا لما أتى بعده من العصر الحديث ، وإن كان

---

(١) سبق الخلاف على هذه المختصرات فى الكلام على ابن دقيق العيد فى القرن السابق .

ابن خلدون لم يجد بعده من المسلمين من يبنى على هذا الأساس ، وحجة ابن خلدون فى هذا أن طريق الفلسفة غير طريق علم الكلام ، لأن مسائل علم الكلام إنما هى عقائد متلقَّاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ، وإن كان للعقل فيها مدخل أيضاً ، ولكنه لا يعوَّل عليه فيها أولا كما يعول على النقل ، أما مسائل الفلسفة فإنما يعول فيها على العقل وحده[1] .

ولكن ابن خلدون مع هذا لم يكن من أنصار الفلسفة ، فقد عقد فى مقدمته فصلا فى إبطال الفلسفة وفساد منتحليها ، ذكر فيه أن هذه العلوم عارضة فى العمران ، كثيرة فى المدن ، وضررها فى الدين كثير ، فوجب أن يُصْدَع بشأنها ، ويكشف عن المعتقَد الحقِّ فيها ، ثم ذكر أنهم وضعوا قانوناً يهتدى به العقل فى نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسَمَّوْه المنطق ، وأنه لا يفيد شيئاً فيما يسمُّونه العلم الطبيعى ، ولا فيما يسمونه العلم الإلهى ، لأن الأول طريق العلم فيه هو الحس ، والثانى ذواته مجهولة لا يمكن التوصل إليها بالعقل ، ولكنه عاد فاعترف بفائدة المنطق فى شحذ الذهن فى ترتيب الأدلة لتحصيل ملكة الجودة والصواب فى ترتيب البراهين ، لأن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان يجىء على ما شرطوه فى صناعتهم المنطقية ، وهم كثيراً ما يستعملونها فى علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها ، فيستولى الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب فى الاستدلالات ، لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم أصَحُّ ما عُلِمَ من قوانين الأنظار ، وهذا إلى الاطلاع على مذاهب أهل العلم ومضارِّها ، فيجب أن يتحرَّز الناظر فيها من معاطبها ، وأن يكون نظره فيها بعد الامتلاء من الشرعيات ، والاطلاع على التفسير والفقه ، ولا يصح أن يكبَّ أحد عليها وهو خلو من ذلك ، فَقَلَّ أن يسلم من معاطبها إذا كان خلوا منه .

وقد أحسن ابن خلدون فى نقده للغزالى والفخر الرازى ، وأحسن فيما ذهب إليه من أن علم المنطق لا فائدة له فى الطبيعيات ، لأن الحس هو الذى يفيد فيها العلم ، وكاد بهذا يوافق ما ذهب إليه فلاسفة أوربا فى هذا القرن ، من نقدهم أرسطو بأنه يفسر الطبيعة تفسيراً نظرياً محضاً ، كما وافقهم فيما ذهبوا إليه من الفصل بين الفلسفة والدين ، وقد كانوا بهذين الأمرين يمهدون فى أوربا للعلم الحديث ، ولكنه لم يوفَّق فيما ذهب إليه من تحريم النظر فى الفلسفة لما فيها من المعاطب ، وقد تأثر فى هذا برجال الدين فى هذا القرن ، وما كان لمثله أن يتأثر بهم ، وقد ابتلى بواحد منهم قاسَى ما قاسَى من جموده فى الدين ، فكان الأجدر به ألا يذهب فى هذا الجمود مذهبهم ، وقد كان له فى ابن رشد

---

(١) رأيى أن الجمع بين الدين والفلسفة للتوفيق بينهما خير من الفصل بينهما .

بالمغرب أحسن أسوة ، لأنه كان رجل دين مثل ابن خلدون ، ومع هذا لم ير فى الفلسفة هذه المعاطب التى يزعمها رجال الدين ، بل رأى أن الفلاسفة مجتهدون فيما ذهبوا إليه فى فلسفتهم ، وأنه يسرى عليهم فى اجتهادهم ما يسرى على كل مجتهد ، فيؤجَر منهم من أصاب ، ويعذر منهم من أخطأ ، بل يؤجر على اجتهاده وإن أخطأ فيه ، ويمتاز عليه المجتهد المصيب بأنه يؤجر مرتين على اجتهاده وصوابه .

فهذه ناحية جمود فى ابن خلدون تؤخذ عليه ، كما يؤخذ عليه أنه لم يكن له رأى فى إصلاح الحكم الإسلامى ، ولم ير فيه أكثر من أن الخلافة لا يصح أن تنحصر فى قريش ، لأنهم إنما تولوها بالعصبية ، فإذا ذهبت عصبيتهم تولاها غيرهم بعصبيته ، وهذا رأى جديد له خالفَ به الجمهور الذين كانوا لا يزالون يرون انحصار الخلافة فى قريش ، ولكنه أخطأ فيما ذهب إليه فيه من أن الخلافة تقوم على العصبية ، والحق أنها تقوم على اختيار المسلمين جميعاً ، ولم يصب ابن خلدون إلا فيما ذهب إليه من عدم انحصارها فى قريش ؛ لأنه يجوز للمسلمين أن يوجهوها إلى غير قريش باختيارهم ، لا بعصبية ونحوها مما يأباه الإسلام .

وإنما كان الخلفاء الأربعــة الراشدون من قريش لأنهم كانوا أصلح من غيرهم للخلافة ، فاختيارهم لها كان لهذه الصلاحية لا لكونهم من قريش ، فإذا صلح لها شخص من غير قريش صح اختياره خليفة ، لأن المدار فيها على الصلاحية الدينية والسياسية ، وهى لا تتعين فى قريش من بين العرب ، بل لا تتعين فى العرب من بين المسلمين ، فقد يكون فى غيرهم من يكون أصلح لها منهم .

وكذلك يؤخـذ على ابن خلدون تهاونه فى أمر المتصوفة ، وتأثره بمذهب الغزالى فيهم ، حتى إنه ذكر أنهم لا يؤاخذون على ألفاظهم الموهمة التى يعبِّرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع ، لأنهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم فينطقون عنها بما لا يقصدونه ، وصاحب الغيبة غير مخاطب ، والمجبور معذور ، وقد نسى ابن خلدون أن صاحب هذه الغيبة تعاطى أسبابها عن عمد ، فيجب أن يؤاخذ عليها أو يمنع على الأقل من الاشتغال بما يؤدى إليها حتى لا يقع فى هذه المخالفة للشرع ، ولكن ما نأخذه من هذا على ابن خلدون لا يقدح فيما رأيناه من أنه أوْلى بأن يكون مجدد هذا القرن ، لأن له فيه من نواحى التجديد ما شهد به العالم كله واعترف بفضله أهل العصر الحديث ، والعصمة لله وحده ، والحق أحق أن يتبع .

* * *

ابن قيم الجوزية

هو شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حزيز الزرعى الدمشقى ، ولد سنة ٦٩١ هـ = ١٢٩١ م ، وسمع على التقى سليمان وأبى بكر بن عبد الدائم وغيرهما وقرأ العربية على ابن أبى الفتح والمجد التونسى ، وقرأ الفقه على المجد الحرانى وابن تيمية ، وقرأ فى الأصول على ابن تيمية والصفى الهندى ، وكان جرىء اللسان واسع العلم ، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف ، وقد غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شىء من أقواله ، بل كان ينتصر له فى جميع ذلك ، وهو الذى هذّب كتبه ونشر علمه ، وكان له حظ عند الأمراء المصريين ، وقد اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة ، فلما مات ابن تيمية أفرج عنه .

وقد عاش بعد ابن تيمية مقلدا له ومحافظا على مسلكه فى الدين والعلم ، ينال من علماء عصره وينالون منه ، وقد ذكره الذهبى فى المختصر فقال : حبس مرة لإنكاره شد الرَّحْل لزيارة قبر الخليل ، ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم ، ولكنه معجب برأيه ، جرىء على الأمور . وكانت مدة ملازمته لابن تيمية منذ عاد من مصر سنة ٧١٢هـ إلى أن مات ، وقال فيه ابن كثير : « كان ملازما للاشتغال ليلا ونهارا ، كثير الصلاة والتلاوة ، حَسَن الخلق ، كثير التودد ، لا يحسد ولا يحقد » ثم قال : « لا أعرف فى زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه ، وكان يطيل الصلاة جدا ، ويمد ركوعها وسجودها » إلى أن قال : « وكان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق حتى جرت له بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكى وغيره ، وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار » ويقول : « هذه غدوتى لو لم أقعدها سقطت قواى » وكان يقــول :« بالصبر والفقر تُنال الإمامة فى الدين »[1] وكان يقول : « لا بد للسالك من همة تُسيِّره وتُرقيه ، وعلم يبصره ويهديه » .

وكان إلى هذا مغرمًا بجمع الكتب ، فحصل منها ما لا يُحصر ، حتى كان أولاده يبيعــون منـها بعد موته دهراً طويلا ، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم ، وقد ألف كتبا كثيرة ، منها الهدى ، وأعلام الموقعين ، وبدائع الفوائد ، وطريق السعادتين ، وشرح منازل السائرين ، والقضاء والقدر ، وَجلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ، ومصايد

---

(١) رواية كتاب البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : « بالصبر والتيسير تُنال الإمامة فى الدين » .

الشيطان ، ومفتاح دار السعادة ، والروح ، وحادى الأرواح ، ورفع اليدين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، إلى غير ذلك من كتبه ، وكلها كما قال ابن حجر مرغوب فيها بين الطوائف ، وهو طويل النفَس فيها ، يتعانى الإيضاح جهده ، فيسهب جداً ، ومعظمها من كلام شيخه ابن تيمية بتصرف فى ذلك ·

ثم ذكر ابن حجر أنه جرت له محن مع القضاة ، وأن السبكى طلبه بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل ، فأنكر فتواه بذلك ، وآل الأمر إلى أن رجع عنها ، وقد مات سنة ٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م ·

وبهذا يظهر أن ابن قيم الجوزية لم يأت بجديد غير ما أتى به أستاذه ابن تيمية قبله ، لأنه كان لا يخرج عن شىء من أقواله ، وكانت كتبه معظمها من كلامه ، وليس له فيها إلا تصرف فى الألفاظ ، وتفنن فى العبارة ·

على أنه يجب أن نقف عند أمرين مما سبق فى حياته :

أولهما : ما كان منه من المبالغة فى العبادة ، حتى يقول فيه ابن كثير : لا أعرف فى زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه ، وكان يطيل الصلاة جداً ، ويمد ركوعها وسجودها ، وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار ، ويقول : هذه غدوتى ، لو لم أقعدها سقطت قواى ·

وثانيهما : ما سبق من قوله : بالصبر والفقر تنال الإمامة فى الدين ·

فهذان الأمران يدلأن على أن ابن قيم الجوزية وأستاذه ابن تيمية كان فيهما نزعة من الزهد والتصوف ، مما كان عليه ابن المبارك وغيره من زهاد القرن الثانى ، حين كان الزهدُ والتصــوفُ مبالغةً فى العبـادة وإيثاراً للفقر فقط ، ولم يدخله ما دخله من النزعات الفلسفية ، والانحرافات الظاهرة ·

وقد سبق أن المبالغة فى العبادة وإيثار الفقر كانا من أهم ما مهد لضياع ما كان للمسلمين فى الدنيا من حضارة ومجد ، لأن هذا جعلهم يفهمون أن هذا هو المثل الأعلى فى الدين ، فجعلوا يبالغون فى إيثاره على غيره ، حتى صار الانقطاع عن العمل للعبادة أعلى درجات التدين ، وحتى صار طريق نَيْل الإمامة فى الدين هو الفقر ، والصبر على الحرمان الذى يلازم الفقر ، كما قال ابن قيم الجوزية فيما سبق ، ولا شك أن أبا الفرج ابن الجوزى كان أعلى نظراً منهما فى ذلك، كما سبق فى الكلام عليه فى القرن السادس ·

فهذه نزعة رجعية من ابن قيم الجوزية وأستاذه ابن تيمية ، وقد يكون لزهاد القرن الثانى بعض العذر فى هذه النزعة ، لأن المسلمين كانوا فى عصرهم سادة الدنيا فى العلم والمال والحضارة ، فلم يدركوا أثر نزعتهم فى الزهد بين المسلمين ، ولكن ابن قيم الجوزية

وأستاذه ابن تيمية قد أدركا أثر هذه النزعة ، وشاهدا ضياع الدنيا من أيدى المسلمين ، حتى أنه لم يبق بأيديهم إلا قليل مما كان لهم ، فلم يكونوا فى حاجة إلى من يحببهم فى الفقر بعد أن غرقوا فيه إلى أذقانهم ، وإنما كانوا فى حاجة إلى من يحببهم فى الغنى والمال والدنيا ، حتى لا يفرطوا فى القليل الذى بقى بأيديهم أو يقنعوا به ، بل يعملوا على استرداد ما ضاع منهم ، ولا يتركوا دنيا الغنى والمال لغيرهم ·

ويجب أن يضاف إلى ذينك الأمرين أنه كان مثل شيخه ابن تيمية يغالى فى معاداة الفلسفة وعلومها ، ويحطُّ من شأن المشتغلين بها ، ويطعن فى دينهم وعقيدتهم ، وهذا أيضا يبعُـده كثيرًا عن أن يكـون مجدِّدا ، وقد قال فى كتابه - إغاثة اللهفـان - عن نصير الدين الطوسى الذى تكلمنا عنه فى القرن السابق : « لما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر والإلحاد ، وزير الملاحدة النصير الطوسى وزير هولاكو ، شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينهم ، فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة واشتفى هو ، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدِّثين ، واستبقى الفلاسفة والمنجِّمين والطبائعيين والسحرة ، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والرُّبط إليهم ، وجعلهم خاصته وأولياءه ، ونصر فى كتبه قِدَمَ العالم ، وبطلان المعاد ، وإنكار صفات الرب جل جلاله ، مِن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ، واتخذ للملاحدة مدارس ، ورام جعل « إشارات » إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن ، فلم يقدر على ذلك ، فقال : هى قرآن الخواص ، وذلك قرآن العوام ، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين فلم يتم له الأمر ، وتعلم السحر فى آخر الأمر فكان ساحرا يعبد الأصنام » ·

وقد يؤخذ من الناحية السياسية على نصير الدين الطوسى اتصاله بالتتر الذين استولوا على بلاد المسلمين ، وقد يُعتذر عنه بأنها كانت حالة ضرورة رأى فيها أنه ينفع المسلمين باتصاله بهم ، وقد أمكنه وأمكن من اتصل بهم من المسلمين أن يهدوهم أخيرا إلى الإسـلام ، ومن يكون هذا حاله لا يصح الطعن فى دينه إلى حد رميه بعبادة الأصنام ، ولكنها مغالاة ابن القيم فى بغض الفلسفة وعلومها ، جعلته ينسى أن المشتغلين بها لا يأخذونها على أنها تعادى الإسلام ، حتى يُحكم بكفرهم من أجلها ، وإنما يأخذونها على أنها لا تنافى الإسـلام ، فلا يصـح أن يحكم مع هذا بكفرهم ، وقد يكـونون مخطئين فى اعتقادهم قدم العـالم وإنكار الصفـات والمعاد الجسمـانى ، ولكنهم مجتهدون فى ذلك ، والمجتهـد معذور ، والخطأ فى هذا لا يصـل إلى حد الكـفر ، وما كان أغنى ابن القيم عن التورط فى هذه المغالاة ، وإنه ليتحمل هو وابن تيميَّة تبعاتها فى أنصارهما إلى هذه الأيام ·

نعم إنهما يتحملان تبعة ذلك أمام التاريخ ، لأنهما قد أمكنهما أن يجعلا لهما مدرسة مكثت تنشر آراءهما قرنا بعد قرن ، وقد ظهر أمرها فى هذين القرنين الأخيرين أكثر مما قبلهما من القرون ، وهما القرنان اللذان اشتد فيهما النضال بين أنصار التجديد وأنصار الجمود ، فكان لموقفهما من الفلسفة وعلومها أثره فى مدرستهما ، فوقفت فى صف أنصار الجمود فى هذين القرنين ، وعوَّقت حركة التجديد والإصلاح مع المعوِّقين ، ولو أن هذه المدرسة كانت لابن رشد مثلا لوقفت فى صف أنصار التجديد والإصلاح ، ولم يصل الجمود بالمسلمين إلى ما وصلنا إليه الآن .



أبو إسحاق الشاطبى

هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى الشاطبى ، كان من غرناطة بالأندلس ، أخذ العربية وغيرها عن أئمة أهل عصره ، كابن الفخار الألبيرى وأبى القاسم السبتى وأبى عبد الله التلمسانى ، وغيرهم ممن أخذ عنهم ، ولم يزل مجتهدا فى طلب العلوم حتى برع فيها ، وصار من كبار أئمتها ، وتكلم فى كثير من مشكلات المسائل مع علماء عصره من شيوخه وغيرهم ، وكان حريصـًا على اتباع السنة ، مجانبًا للبدعة والشبهة ، حتى وقع له فى ذلك أمور مع جماعة من شيوخه وغيرهم ، لشيوع البدعة بينهم ، وتساهلهم فى شأنها إرضاءً للعامة وأشباههم ، فلم يسلك فى هذا مسلكهم ، لأنه كان ينهج نهج المتقدمين من العلماء ، فكان لا يأخذ الفقه ونحوه إلا من كتب الأقدمين ، ولا يرى لأحد أن ينظر فى الكتب المتأخرة كما قرره فى كتابه - الموافقات - وكانت ترد عليه الكتب فى ذلك من بعض أصحابه ، فيوقع له :

« وأما ما ذكرتم من عدم اعتمادى على التآليف المتأخرة ، فليس ذلك منى محض رأى ، ولكن اعتمدتُه بحسب الخبرة عند النظر فى كتب المتقدمين مع المتأخرين ، كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومَن بعدهم ، ولأن بعض من لقيته من العلماء بالفقه أوصانى بالتحامى عن كتب المتأخرين ، وأتى بعبارة خشنة ، ولكنها محض النصيحة . والتساهل فى النقل عن كل كتاب جاء لا يحتمله دين الله ، ومثله ما إذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض الأصحاب : لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ، ونص ذلك القول لا يوجد لأحد من العلماء فيما أعلم » .

والعبارة الخشنة التى أشار الشاطبى إليها كان ينقلها عن صاحبه أبى العباس القباب أنه كان يقول فى ابن بشير وابن شاس ومن بعدهما : أفسَدوا الفقه ، وكان يقول : شأنى عدم الاعتماد على التقاييد المتأخرة ، إما للجهل بمؤلفها أو لتأخر أزمنتهم جدا ، فلذلك لا أعرف كثيرا منها ولا أقتنيه ، وعمدتى كتب الأقدمين المشاهير(١) .

وكان لهذه النزعة الإصلاحية عند الشاطبى أثرُها فى كتابين من كتبه ، وهما : كتاب الموافقات وكتاب الاعتصام .

فأما كتاب الموافقات فهو فى علم أصول الفقه ، وهو يقوم على ركنين : **أولهما** : علم اللغة التى نزلت الشريعة بها ، **وثانيهما** : علم أسرار الشريعة ومقاصدها ، وقد اهتم الذين ألفوا فى هذا العلم قبل الشاطبى بالركن الأول ، فذكروا فيه ما تمس الحاجة إليه من

---

(١) سبق الاختلاف على هذه الكتب فى الكلام على ابن دقيق العيد فى القرن السابق .

قواعد اللغة بطريق مباشر ، وأضافوا إليه ما يتعلق بتصور الأحكام ، وشيئا من مقدمات علم الكلام ومسائله ، وجعلوا هذا كله مقدمة للمقصود من هذا العلم ، وهو ما يتعلق بالكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ولكنهم أطالوا الكلام فيما جعلوه مقدمة ، حتى صارت كأنها هى المقصودة من هذا العلم ، وهذا إلى أنهم أهملوا فيه الكلام على الركن الثانى إلا إشارة إليه فى باب القياس عند تقسيمهم العلة بحسب مقاصد الشارع ، وبحسب الإفضاء إليها ، وأنها بحسب الأول ثلاثة أقسام : ضروريات وحاجيات وتحسنيات الخ ، وقد وقف هذا العلم منذ القرن الخامس الهجرى عند هذا الحد ، وكل ما ألف فيه من الكتب يدور فى ذلك بين بسط وتلخيص وشرح ، ولا يأتى فيه بجديد يذكر ، فلما وضع الشاطبى كتاب - الموافقات - سلك فى هذا العلم مسلكا جديدا ، وأبى أن يدور فيما دار فيه مَن قبله ومن عاصره من ذلك الحد السابق ، فاهتم فيه بالركن الثانى الذى أهملوه ، وقسم مقاصد الشريعة إلى أربعة أنواع ، ثم أخذ يفصل كل نوع منها ، وأضاف إليها مقاصد المكلف فى التكليف ، وبسط هذا الجانب من العلم فى اثنتين وستين مسألة ، وتسعة وأربعين فصلا ، وبيَّن - كما ذكر الشيخ عبد الله دراز فى مقدمته لشرحه - كيف كانت الشريعة مبنية على مراعاة المصالح ، وأنها نظام عام لجميع البشر دائم أبدى ، لو فرض بقاء الدنيا إلى غير نهاية ، لأنها مراعى فيها مجرى العوائد المستمرة ، وأن اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ليس اختلافاً فى الخطاب الشرعى نفسه ، بل عند اختلاف العوائد ترجع كل عادة إلى أصل شرعى يحكم به عليها ، وأن هذه الشريعة كما يقول الشاطبى خاصيتها السماح ، وشأنها الرفق ، تحمل الجمَّاء الغفير ؛ ضعيفاً وقوياً ، وتهدى الكافة ؛ فهيما وغبياً .

وهذه ناحية فى التجديد لها قيمة عظيمة ، لأنها تقضى على جمود الذين يقفون فى الشريعة عند دلالة النصوص فى ذاتها ، ويغفلون النظر فى مقاصدها وأغراضها ، ولا يراعون ظروفها وأحوالها ، ولا شك أن المقاصد والأغراض تتفاوت ، وأن الظروف والأحوال تتغير ، فمن يقف عند دلالة النصوص فى ذاتها يجمد عليها ويجنى على الشريعة بتفويت مقاصدها وأغراضها ، وجعْلها غير ملائمة لما يجدّ من الظروف والأحوال فيها ، وإذا كان للإمام الشافعى فضلُ وضع علم أصول الفقه فإنه كان كما سبق لا يخرج على قاعدة أهل الحديث من الاعتماد على الظاهر الذى تدل عليه النصوص ، ويرفض ما عدا هذا مما يسمَّى فى عصرنا روح الشريعة أو روح القانون ، وبهذا يكون للشاطبى ذلك الفضل الكبير بعد الإمام الشافعى ، لأنه سبق هذا العصر الحديث بمراعاة ما يسمى فيه روح الشريعة أو روح القانون ، وهذا باهتمامه بمقاصد الشريعة ذلك الاهتمام ، وسلوكه فى علم الفقه ذلك المسلك السابق ، وخروجه على الجمود الذى وقف به عند الحد الذى وضعه الشافعى .

وأما كتاب - الاعتصام - فهو فى نقد الحياة الدينية والاجتماعية بين المسلمين ، وبيان ما دخل فيها من البدع المذمومة ، ولا سيما البدع الدينية ، كالتزام المصلين المكث بعد الصلاة لأذكار وأدعية مأثورة يؤدونها بالاجتماع والاشتراك ، حتى صارت شعاراً من شعائر الدين ، وقد ذهب فى هذا إلى أن كل بدعة فى الدين مذمومة ولو كانت مما سموه البدع المستحسنة ، وذكر أن استحسان ذلك وقع بسبب اشتباهه بالاستحسان الفقهى والمصالح المرسلة ، مع أنه ليس منهما فى شىء ، لأن البدعة مطلقاً استدراك على الشرع وافتيات عليه ، وأما مسائل المصالح المرسلة والاستحسان فهى موافقة لحكمته ، وجارية على غير المعيَّن من عموم بيناته وأدلته .

والذى يهمنا هنا مما تناوله بالنقد أمران :

أولهما : مذهبه فى إحداث الرُّبط لالتزام سكناها بقصد الانقطاع للعبادة ، وهى بخلاف الربط من الحصون والقصور التى كانت تبنى بقصد الرباط فيها ؛ لأن هذه الربط تدخل فى وظيفة الجهاد ، وهو أصل من أصول الدين المعروفة ، فلا يمكن أن يقال إنه بدعة، بخلاف الانقطاع للعبادة فى تلك الربط . وقد ذكر الشاطبى أن أصحابها يتعلقون فيها بالصُّفَّة التى كانت فى مسجد النبى ﷺ ، ليجتمع فيها فقراء المهاجرين ، ثم رد على هذا بأن هذه كانت حالة ضرورة ، كما يدل على ذلك قوله تعالى فى أهل الصفة : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ [1] فإنه قال (أخرجوا) ولم يقل خرجوا ، فهم قد أخرجوا من ديارهم وأموالهم اضطراراً ، ولم يمكنهم أن يبنوا لهم دوراً بالمدينة بعد الهجرة إليها لفقرهم ، فآواهم النبى ﷺ فى هذه الصفة إلى أن يتيسر لهم بناء منازل يأوون إليها ، فالقعود فى الصفة لم يكن مقصوداً لذاته ، ولا بناء الصفة للفقراء مقصوداً بحيث يقال إن ذلك مندوب إليه لمن قدر عليه ، ولا هى رتبة شرعية تُطلب بحيث يقال إن ترك الاكتساب والخروج عن المال والانقطاع إلى الربط يشبه حال أهل الصفة ، وبحيث تكون هى الرتبة العليا فى الدين ، فلا يظن العاقلِ أن ذلك مباح أو مندوب إليه أفضلَ من غيره ؛ لأن ذلك ليس بصحيح ، ولن يأتى آخرُ هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ، وإنه ليكفى من يغتر بعمل المتأخرين من هذه الطائفة المتصفين بالصوفية أن صدورها لم يتخذوا رباطاً ولا زاوية ، ولم يبنوا بناء يضاهون به الصفة للاجتماع على التعبد والانقطاع عن أسباب الدنيا ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والجنيد وإبراهيم الخواص والحارث المحاسبى والشبلى وغيرهم ممن سابق فى هذا الميدان ، وإنما محصول هؤلاء أنهم خالفوا رسول الله ﷺ ، وخالفوا السلف الصالح ، وخالفوا شيوخ الطريقة التى انتسبوا إليها .

---

(١) الحشر : آية ٨ .

وكأنى بالشاطبى لا يخالف إلا فى بناء الربط والزوايا للانقطاع للعبادة ، أما الانقطاع للعبادة فى مسجد أو منزل فلا يخالف فيه ، بدليل إقراره لما كان عليه سلف هذه الطائفة من الزهد والانقطاع للعبادة فى غير الربط والزوايا ، مع أن طريقتهم فى ذاتها غير صحيحة كما سبق بيان ذلك غير مرة ، ولو كانت فى ذاتها صحيحة لهان أمر الربط والزوايا التى تتخذ لها

والحق أن نظام الصفَّة نظام دائم لا مؤقت ؛ لأنه يقصد منه كفاية الفقراء الذين لا يجدون كسباً ، حتى لا يتعرضون لسؤال الناس ، وهذا نظام يجب أن يُعمل به فى كل زمان ومكان ، ولا يصح أن يقال إن وظيفته انتهت بعد الفتوحات الإسلامية ،بل هو باق ما بقى فى الدنيا فقراء لا يجدون كسباً ، وللإسلام فضل السبق إلى إنشاء هذا النظام ، وهو نظام الملاجىء الشائع بيننا الآن .

وثانيهما : مذهبه فى علم الكلام ، فقد ذهب فى ذمه مذهبَ المتشددين من أهل السُّنة ،كالإمام مالك،والإمام الشافعى،والإمام أحمد بن حنبل ، وغيرهم من آئمة الحديث والفقه ، وقد ذكر عن الحسن بن زياد اللؤلؤى أن رجلا قال له فى زُفر بن الهذيل : أكان ينظر فى الكلام ؟ ... فقال : سبحان الله ما أحمقك ! ما أدركت مشيختنا - زفر وأبا يوسف وأبا حنيفة وَمن جالسْنا وأخذنا عنهم - همَّهم غير الفقه والاقتداء بمن تقدمهم .

والشاطبى فى هذا كابن تيميَّة وابن قيِّم الجوزية ، مجدد فى ناحية الفقه وأصوله وإن كان دونهما فى ذلك ، وجامد متشدد فى العقائد ، يرى أن الناجى فيها فرقة واحدة لا غير ، وهى فرقة السلف من أهل السنة ، وكانت تجرى النصوص على ظواهرها ، وتذم ما يسلكه غيرها من التأويل فيها ، وكان مذهبهم هو الغالب على الناس فى أول الأمر ، فلما جاء الأشعرى لم يتهيب من التأويل ما تهيبوه ، ولكنه لم يسرف فيه كما أسرف المعتزلة قبله ، وقد غلبت طريقته على جمهور المسلمين ، ولم يبق إلا قليل يتمسك بما كان عليه سلف أهل السنة ، وأكثرهُم من أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، ولا حرج عندى عليهم فى التمسك بمذهب ذلك السلف ، وإنما آخُذُ عليهم أنهم إلى وقتنا هذا لا يأخذون غيرهم بالتسامح ، وهذا يدعو إلى أن يقابَلوا بمثل هذا من مخالفيهم ، وليس هذا فى مصلحة الإسلام ، لأنه يثير العداوة بين أبنائه ، والواجب أن ينتصر كل فريق منا لمذهبه بالتى هى أحسن ، لأن هذا هو الأصل الذى قامت عليه الدعوة الإسلامية ، فلا يُدْعىَ المخالفون إليها إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا شك أن هذا يكون واجبا فيما بين المختلفين من المسلمين من باب أولى ؛ لأن الخلاف بينهم لا يصل إلى درجة الخلاف بينهم وبين غيرهم .

* * *

سراج الدين البلقينى

هو أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير البلقينى الكنانى ، وُلد بقرية بلقينة من غربية مصر سنة ٧٢٤ هـ = ١٢٢٣ م ، وحفظ بها القرآن وصلى به وهو ابن سبع سنين ، ثم حفظ الشاطبية والمحرَّر والكافية الشافية فى النحو وغيرها من المتون ، ثم قدم به أبوه إلى القاهرة وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، فعرض ما يحفظه من ذلك على جماعة من علمائها ، فبهرهم بذكائه وكثرة محفوظه وسرعة فهمه ، وقد عاد به أبوه إلى قريته فاستمر بها إلى أن ناهز الاحتلام ، ثم انتقل إلى القاهرة واستوطن بها ، فأخذ ابنه عمر يطلب العلم على شيوخها ، فتلقى الفقهُ على ابن عدلان والتقى السبكى ، والنحوَ على أبى حيان ، والحديثَ على ابن القماح ، إلى غير هذا من العلوم الدينية والعربية التى تلقاها على شيوخ عصره ، وكان يلازم البهاء بن عقيل ، وقد انتفع به كثيراً ، وتزوج بنته ، ثم اشتغل بالتدريس بعد أن نال حظا كبيراً من هذه العلوم ، فبرع فى الفقه والحديث والأصول وما إليها من العلوم الدينية والعربية ، وكان فيه من قوة الحافظة وشدة الذكاء ما لم يشاهَد فى مثله ، فاشتهر اسمه فى الآفاق ، وبَعُدَ صيته إلى أن صار يضرب به المثل ، وكان أحفظ الناس لمذهب الشافعى ، واشتهر بهذا وطبقة شيوخه موجودون ، وقد ذكر البرهان الحلبى أنه كان يقرأ مختصر مسلم فى الحديث للقرطبى ، وقد اجتمع فى درسه فقهاء المذاهب الأربعة ، فكان يتكلم على الحديث الواحد من بكرة النهار إلى ما يقرب من الظهر ، وربما أذَّن الظهر وهو لم يفرغ منه .

وقد تولى تدريس الخشابية بجامع عمرو وغيرها من المدارس ، ثم تولى إفتاء دار العدل رفيقا للبهاء السبكى ، واختير بعد هذا لقضاء الشام سنة (٧٦٩ هـ = ١٣٦٧ م) عوضًا عن التاج السبكى ، فباشره دون السنة ، وجرت له فيها أمور من تعصب العلماء هناك عليه ، وقد أنصفه قليل منهم كالعماد بن كثير الذى قال له : « أذكرتنا سمتَ ابن تَيميَّة » وكابن شيخ الجبل الذى قال له أيضا : « ما رأيت بعد ابن تيمية أحفظ منك » وعين بعد هذا لقضاء مصر غير مرة ولكنه لم يتم ، مع أنه ارتقى إلى أعظم منه ، حتى إنه كان يجلس فوق كبار القضاه ، لأن كثيراً من القضاة والعلماء كان من تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه ؛ وقد ولى ابنه عَلَم الدين هذا المنصب فى حياته ، وكان الناس يأخذون عنه طبقة بعد طبقةً ، حتى كان أكثرُ علماء عصره من تلاميذه ، وكانت وفاته سنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٢م .

ولا يذكر من ذهب إلى أن البلقينى كان مجدد هذا القرن إلا أنه بلغ رتبة الاجتهاد ، وكان له ترجيحات فى مذهب الشافعى خلاف ما رجحه النووى ، واختيارات خارجة عن هذا المذهب ، ومن هذا أنه أفتى بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة ، وقال : إنه خارج عن مذهب الشافعى . وقد قيل إن ثلاثة من العلماء - العراقى والبلقينى وابن الملقن - كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس هذا القرن : الأول فى معرفة الحديث وفنونه ، والثانى فى التوسع فى معرفة مذهب الشافعى ، والثالث فى كثرة التصانيف ، وليس هناك أكثر من هذا عند الذين ذهبوا إلى أن البلقينى كان مجدد هذا القرن ، ثم يضيفون إلى هذا ما كان من قيامه فى إزالة المنكرات ، من إبطال المكوس والحانات ، وتنفيره من محيى الدين بن عربى ومطالعة كتبه ، مع أنه كان له اعتقاد فى الصالحين من المتصوفة لا يقف عند حد ، وإنما خصَّ ابن عربى بذلك لما نُسب إليه من دعوى وحدة الوجود .

ولهذا كان ترشيحه لأن يكون مجدد هذا القرن من بعض أولئك الذين كان يعتقد فى صلاحهم ، وقد ذكر السيوطى ذلك فى كتابه - حسن المحاضرة - فقال : « سمعت ولده يعنى ولد البلقينى » شيخنا قاضى القضاة علم الدين يقول : ذكر الشيخ كمال الدين الدميرى أن بعض الأولياء قال له : إنه رأى قائلا يقول : إن الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الأمة من يجدد لها دينها ، بُدئت بعمر ، وخُتمت بعمر ، يعنى عمر بن عبد العزيز وعمر البلقينى » ثم قال السيوطى : « ومن اللطائف أن شطر المبعوثين على رؤوس القرون مصريون : عمر بن عبد العزيز فى الأول ، والشافعى فى الثانية ، وابن دقيق العيد فى السابعة ، والبلقينى فى الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر » والسيوطى يرجو بهذا أن يكون هو المجدد على رأس المائة التاسعة ، كما مضى له فى أرجوزته .

والحقيقة أن مثل البلقينى لا يصح أن يكون مجدداً ، لأن أمره لا يتجاوز التوسع فى معرفة مذهب الشافعى ، وإذا كان له فيه ترجيحات تخالف ترجيحات النووى فإنها لا تقربه من ذلك ، كما لم تقرب النووى منه ترجيحاته ، لأن كلا منهما كان يرجح فى دائرة تقليده لمذهب الشافعى ، فلا تبلغ به أن يكون مجتهدا أو مجددا ، وكذلك لا تبلغ به أن يكون مجتهداً أو مجدداً اختياراته الخارجة عن هذا المذهب ، لأنها كانت مثل فتواه بجواز إخراج الفلوس فى الزكاة ، وهذه فتوى هينة لم يكن لها شأن فى هذا القرن ، ولم يهتز لها أحد من العلماء الجامدين فيه ، لأنها لا تجاوز دائرة جمودهم على المذاهب الأربعة ، ولا تخرج عمّا ألفوه من أحكامها .

وقد ذكر العماد بن كثير فيما سبق أن البلقينى ذكَّره سمتَ ابن تيمية ، وذكر

ابن شيخ الجبل فيما سبق أيضا أنه لم ير بعد ابن تيمية أحفظ من البلقينى ، والحق أنه لم يكن من رجال ابن تيميـة ولا من مدرسته ، وإنما كان من الجامدين فى الفقه على المذاهب الأربعة ، وفى العقائد على مذهب الأشعرى ، ولم يكن ينكر إلا على محيى الدين بن عربى من الصوفية ؛ لأنه كان يدعو إلى وحدة الوجود ، فلم ينكر منه إلا هذه الدعوى ، وكان يقر ما عداها من أمور التصوف ، وأين هو فى هذا كله من ابن تيمية ؟

ولا ننكر أن البلقينى كان آيةً فى قوة الحفظ ، وكان آيةً فى الذكاء ، ولكنه استفرغ ما امتاز به من هذا فى حفظ المتون ، ووقف به عند البراعة فى شرحها والتعليق عليها ، فأفسد هذا ذوقه فيما عداه ، كما أفسد ذوق كل من قصر نفسه عليه ، حتى إنه كان يتكلف النظم فيأتى منه بما لا تُشرفه نسبته إليه ، من المعنى الركيك ، واللفظ المبتذل ، وفسـاد الوزن ، ولو أن ذلك الذكاء من البلقينى كان حرًّا طليقا لكان له شأن غير هذا الشأن ، ولنفعَ المسلمين فى أمور ترفع من شأنهم فى العلم ، وتنهض بهم فى الدنيا كما نهض غيرهم ، وتعيد شأن العلماء الأولين الذين كانوا يستخدمون نبوغهم فى صميم العلم ، ولا يضيعونه فيما ضيّعه فيه العلماء المتأخرون ، مَن حفظ المتون فى الصغر من غير فهم ، ليتربى فيهم الجمود عليهـا والوقوف عند حدها من الصغر ، فلا يتجاوزها علمهم عند الكبر .





المجددون فى القرن التاسع

حال العالم فى القرن التاسع الهجرى

يمتد القرن التاسع الهجرى من سنة ١٣٩٨ م إلى سنة ١٤٩١ م ، وكان للمسلمين فيه من الدول بالمشرق الدولة التيمورية التى أنشأها تيمورلنك فيما بين النهر وخُوارزم وخراسان وتركستان ، وقد مات تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ م ، وترك ولدين هما أمير نشاد ، وشاه رخ وحفيداً هو خليل بن أمير نشاد ، فخلفه فى ملكه حفيده خليل ، وقام بعده عمه شاه رخ ، ثم تنازعوا وقسّموا المملكة بينهم ، وكان تاريخهم بعد سنة (٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) مملوءاً بالفتن والحروب ، وكان لهذه الفتن والحروب أثرها فى ضعف دولتهم .

وكان للمسلمين بالمشرق أيضاً الدولة العثمانية التركية ، وقد استولت على آسيا الصغرى وبلاد البلقان ، وأمكنها أن تنهض من كبوتها بعد هجوم تيمورلنك عليها ، وكان من أعظم ملوكها فى هذا القرن السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح ابن السلطان مراد الثانى ابن السلطان محمد جلبى ، وهو محمد الأول ، وأبوه هو السلطان بايزيد الذى أسره تيمورلنك ، وقد تولى السلطان محمد الثانى الملك سنة ٨٣٣ هـ = ١٤٢٩ م ؛ وهو الذى أسقط دولة الروم الشرقية ، واستولى على مدينة القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م ، واتخذها قاعدةً لدولته ، وسماها إستانبول أو إسلام بول ، أى تخت الإسلام أو مدينة الإسلام ، ولما استقر أمر هذه الدولة فى عهده أخذ فى تنظيمها ، فأدخل تنظيمات جديدة فى جيشها ، وقام بوضع أول مبادىء القانون المدنى وقانون العقوبات ، فألغى العقوبات البدنية التى تقوم على قاعدة أخذ السن بالسن والعين بالعين ، وجعل بدلها عقوبات مالية مختلفة .

وكذلك كان للمسلمين بالشرق دولة المماليك بمصر والشام وبعض بلاد العرب وكان يقوم بجوار ملوك هذه الدولة خلافة صورية لبنى العباس على ما سبق فى القرن السابق ، وتمتاز هذه الدولة على الدولتين السابقتين بأن صبغتها كانت عربية فى الجملة ،أما الدولتان السابقتان فكانت صبغتهما تركية محضة ، ولكن هذه الدولة لم تكن فى عظمة الدولتين السابقتين ، لأنها لم تكن مستقرة فى أسرة مثلهما ، بل كان أولئك المماليك يتنازعونها بينهم .

أما المسلمون فى المغرب والأندلس فكان لهم دولة بنى مَرين بالمغرب الأقصى ، والدولة الحفصية بتونس ، ودولة بنى الأحمر بغرناطة من الأندلس ، وقد سقطت دولة بنى مرين سنة ٨٦٩ هـ = ١٤٦٤ م ، وقام فى مكانها دولة بنى وَطَّاس ، وهم ينتمون إلى بطن من بطون بنى مرين ، ولكنها لم تبلغ فى القوة والعظمة مبلغ بنى مرين ، وكانت دولة بنى الأحمر بغرناطة تتجه إلى دولة بنى مرين إذا ضيَّق ملوك أسبانيا الخناق عليها ، فلما سقطت هذه الدولة لم تجد من المسلمين فى المغرب من يساعدها عليهم ، فأخذت دولة أسبانيا فى النصف الأخير من هذا القرن تنتزع أطرافها من كل جهة ، حتى استولت عليها سنة ٨٩٧هـ = ١٤٩٢ م .

وبهذا كانت دول المسلمين فى المشرق على شىء من القوة فى هذا القرن ، بينما أخذت عوامل الضعف والانحلال تعمل عملها بين دولهم فى المغرب ، ومع هذا كان فى دولهم بالمشرق كثير من الفساد الذى لا يؤمَن خطره على قوتهم ، فقد كانوا منقسمين على أنفسهم ، وليس بينهم اتحاد وارتباط يجمع بينهم ، إلى غير هذا من أنواع الفساد والظلم التى سيكون لها أسوأ الأثر فيهم .

ومن هذا الفساد أن السلطان محمدا الفاتح لما تولى الملك ، بعد أبيه بدأ حكمه بقتل أخيه الرضيع أحمد ، لئلا يشب ويكبر فينازعه الملك ، وهذه كانت عادة سيئة فى ملوك الدولة العثمانية التركية ؛ لأن حكمهم كان يقوم على الاستبداد والغلبة ، ولا يقوم على محبة الشعب التى يأمنون بها الثورة عليهم من إخوتهم .

وبلغ من فساد دولة المماليك فى هذا القرن أن انحطت درجة الوزارة فيها إلى حالة خطيرة ، حتى تولاها من يسمى محمدا البباوى ، وكان خفيرا راعيا ببلدة ببا ، ثم قدم إلى القاهرة فخدم بعض الطباخين ، ثم خدم بعض تجار اللحم ، وساعده القدر فصار من تجّاره ، وكثرت أمواله حتى صار رئيس جماعته ، وعوَّل عليه الوزراء فى رواتب المماليك ، واشتهر أمرُه بين الأكابر ، ولم يزل فى ازدياد حتى ولاَّه السلطان نظر الدولة طمعًا فى ماله ، فتزيا بزى الترك وتسمى بالقاضى بعد المعلم ، وهو عامى جلف لا يفقه شيئا ، ولم يكتف السلطان بوصوله إلى هذه الدرجة ، بل رقاه إلى رتبة الوزارة ، وقد ذكر السخاوى فى كتاب - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - أنه لم يعلم وَلِيَها أوضعُ منه ، مع كثرة من وليها من الأوباش فى هذا القرن ، وأنه لم يتحول فيها عن عاميته مثقال ذرة ، ولم يتطبع بما ينصرف به عنها مقدار خردلة ، وأنه كان يبالغ فى الظلم والعسف والاستخفاف بالناس .

وليت الأمر وقف فى الفساد السياسى بين المسلمين فى هذا القرن عند هذا الحد ، فقد انضمَّ إليه ازدياد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية فى هذه الدول ؛ لأن ملوكها كانوا

يبالغون فى الخضوع لهم ، لازدياد اعتقاد العامة فيهم ، فكانوا يحاولون بالمبالغة فى الخضوع لهم أن يكسبوا رضا العامة ، ليستمروا فى الغفلة عن مساوىء حكمهم . وممن عظم نفوذه فى هذا القرن من أصحاب الطرق الصوفية الشيخ محمد الحنفى ، فكان عظيم النفوذ فى دولة الظاهر جقمق من المماليك ، مع أنه كان سىء الاعتقاد فيه ، ولكنه كان لا يرد له شفاعة، ويقول لمن حوله: « كلما أقول إنى لا أقبل لهذا الرجل شفاعة لا أستطيع ، بل أقبل شفاعته ، وأتعجب فى نفسى من ذلك » وكذلك كان أمره مع السلطان ططر ، وقد أرسل إليه جاريته حين عزل ابن حجر عن القضاء ، وقال لها قولى له : « رُدَّ الشيخ شهاب الدين - يعنى ابن حجر - إلى ولايته » فلما بلَّغته هذا رده إليها قبل أن تفارقه ، وكان ابن حجر لا ينسى هذا الفضل للشيخ محمد الحنفى . وقد مرض هذا السلطان فذهب إليه الشيخ محمد الحنفى ليعوده ، فلما تسامع الناس بذهابه إليه ترادف عليه أصحاب الحوائج ، فأمر السلطان ألاّ ترد قضيته فى هذا اليوم ، ووكل إليه الفصل فيما يرد فيه من القضايا ، ففصل فى خمس وثلاثين قضية ، وكذلك كان شأنه مع باقى الملوك والأمراء ، حتى قال العينى فى تاريخه الكبير : والله ما سمعنا ولا رأينا فيما حويناه من كتبنا وكتب غيرنا ، ولا فيما اطلعنا عليه من أخبار الشيوخ والعبَّاد والأستاذين بعد الصحابة إلى يومنا هذا ، أن أحداً أعطى من العز والرفعة ، والكلمة النافذة ، والشفاعة المقبولة ، عند الملوك والأمراء وأرباب الدولة والوزراء ، عند من يعرفه وعند من لا يعرفه ، مثل ما أعطى الشيخ سيدى شمس الدين الحنفى .

فساءت الحالة الاجتماعية بين المسلمين بسبب هذه الغفلة فى هذا القرن ، وازداد فيه شقاء الرعيـة ، ولا سيَّما فى دولة المماليك بمصر ؛ لأن حكامها كانوا من جنس غير جنسها ، إذ كانوا من الترك أو الجركس الذين أبوا أن يندمجوا فى رعيتهم ، واستمروا محافظين على خصائص جنسهم ، مترفعين على طبقات الرعية من فلاحين وغيرهم ، يعاملونهم كالعبيد فى إقطاعاتهم الزراعية ، ولا يسمحون لهم باللقمة التى تسد بعضًا من جوعهم ، وإلا بالخرقة التى تستر بعضًا من عريهم ، اللهم إلا أولئك المتصوفة الذين كانوا يخدمون أولئك الملوك بضرب تلك الغفلة على الرعية ، حتى لا تشعر بما هى فيه من ضيق وذلة ، فكان أولئك المتصوفة يعيشون فى بحبوحة بين ذلك الشقاء ، ويتمتعون بما يغدقه عليهم أولئك الملوك ، وبما يجنونه باسم الدين من الرعية الغافلة المعتقدة فى ولايتهم ، وقد صوَّر هذه الحالة أحمد بن عبد الخالق القاهرى المالكى فى قوله :

إذا شئتَ أن تحيـا حياة سعيـدة ... ويستحسنُ الأقوامُ منـك المقبَّحا
تزيَّ بزى الترك واحفظ لسـانهم ... وإلا فجانبهـمْ وكن متصوِّلحـا

فالمتزيى بزى الترك يظهر بمظهر أولئك الحكام ، والمتصولح يظهر بمظهر أولئك المتصوفة ، فيسعد فى الأول بمظهر الجبروت ، ويسعد فى الثانى بمظهر الصلاح المغشوش ٠

ولم تكن حالة المسلمين العلمية فى هذا القرن بأحسن من حالتهم السياسية والاجتماعية ، وكان لكل دولة من الدول الإسلامية السابقة صبغتها العلمية ، وكانت الدولة التيمورية أقوى أثرا فى غيرها من هذه الناحية ؛ لأن علماءها كانوا يجمعون بين المنقول والمعقول على طريقة السعد التفتازانى والسيد الجرجانى ، وكانت سمرقند مركز الحركة العلمية فى هذه الدولة ، فكان طلاب العلم فى الدولة العثمانية التركية يتجهون إليها فى تكميل ثقافتهم ، كما حصل من موسى باشا ابن المولى محمود قاضى بروسه ، فإنه لما سمع صيت العلم بها عزم الرحلة إليها ، فارتحل إلى خراسان وأخذ عن علمائها ، ثم ارتحل إلى ما وراء النهر وأخذ عن علمائه بسمرقند وغيرها ،حتى جمع علوما كثيرة واشتهر بين أهل تلك البلاد ،وكانوا يلقبونه بقاضى زاده الرومى ، وكانت شهرته بالعلوم الرياضية أكثر من غيرها ، وقيل إنه قرأ على السيد الجرجانى ، ولكنه لم تحصل موافقة بينهما فترك درسه ، ثم سئل كل منهما عن الآخر ، فقال السيد فيه : غلب على طبعه الرياضيات ، وقال هو فى السيد : هو لا يقدر على الإفادة لى فى العلوم الرياضية ٠ وكان هذا سببا فى تقديم أولوغ بك له واستعانته به فى المرصد الذى أنشأه بسمرقند ، كما سيأتى فى الكلام عليه ٠

فكانت الحركة العلمية فى الدولة العثمانية التركية متأثرة بالحركة العلمية فى الدولة التيمورية إلى حد كبير ، حتى إن كتب السعد التفتازانى والسيد الجرجانى وغيرهما من علماء الدولة التيمورية هى التى كانت تُدَرَّس فى المدارس والمساجد بالدولة العثمانية التركية ، وقد ذكر صاحب كتاب – الشقائق النعمانية – أن طلبة العلم فى بلاد هذه الدولة كانوا يعطون يومى الجمعة والثلاثاء إلى زمن شمس الدين محمد بن حمزة الفَنَارِى ، فزادهم إليهما فى العطلة يوم الاثنين ، لأنه اشتهر فى زمانه تآليف التفتازانى ، ورغب الطلاب فى قراءتها ، وكانت لا توجد بالشراء لعدم انتشار نسخها ، فاحتاج الطلاب إلى الاشتغال بكتابتها ، فزادهم ذلك اليوم ليشتغلوا فيه أيضا بنسخها ٠

وكانت دولة المماليك أقل تأثرا بالحركة العلمية فى الدولة التيمورية فى أوائل هذا القرن ، لأنها كانت بعيدة عنها ، ولأنه كان يغلب على أهلها الاشتغال بالعلوم النقلية ، فلم يكن يُعنىَ فيها بالرحلة فى طلب العلم إلى الدولة التيمورية ، ولكن كثيرا من علماء الدولة التيمورية رحلوا إلى دولة المماليك بمصر وغيرها ، فنشروا طريقتهم بين أهلها ، حتى تأثروا بها فى أواخر هذا القرن ٠

ومن رحل منهم إلى مصر فى هذا القرن محيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى ، ولُقب بهذا لكثرة تدريسه لكتاب الكافية فى النحو ، وكان من تلامذة السعد التفتازانى ، وقد اشتهر أمره فى مصر ، حتى خضعت له فيها الرجال ، وذلت له الأعناق ، لأن ملوكها من المماليك كانوا يقدِّمون كل غريب ، ولا سيَّما إذا كان يمت إليهم بصلة الجنس . فأقبل عليه طلاب العلم ، وأخذوا عنه طبقةً بعد طبقة ، وكانوا يتزاحمون عنده من كل فن ومذهب ، لأنه كان يجمع بين المعقول والمنقول ، وقد تقدم طلابه فى حياته حتى صاروا أعيان وقتهم ، لما كان من عظم نفوذه فى دولة المماليك ، وذاع صيته حتى وصل إلى الدولة العثمانية التركية ، وكان ملوكها يرسلون إليه هداياهم وجوائزهم ، ولم تكن ميزته على علماء مصر إلا براعته فى الطريقة العجمية ، وما تعنى به من الفلسفة العقيمة فى شرح المتون وتوجيه المسائل العلمية النقلية ، وصبغها صبغة فلسفية لا طائل تحتها ، حتى ذكر السخاوى فى كتاب - الضوء اللامع - أنه كان يسلك فى فتاواه الدينية البسط والإسهاب والتوسع فى المعقول ، ويصل فى هذا إلى حد يصعب معه الوصول إلى الغرض منها ، وقد تُصادم المنقول وتخالفه ، ونقل صاحب كتاب - الشقائق النعمانية - عن جلال الدين السيوطى - وكان من تلامذته - أنه قال له يومًا : ما إعراب « زَيدٌ قائمٌ » ؟ فغضب السيوطى وقال له : قد صرنا فى مقام الصغار ، نسأل عن هذا ! فقال له : فى « زيد قائم ، مائة وثلاثة عشر بحثا ، فقال له السيوطى : لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها . فأخرج تذكرتها فنقلها منه .

ومن رحل منهم إلى مصر فى هذا القرن العلاء محمد بن محمد البخارى ، وكان من تلامذة السعد التفتازانى ، وقد انثال عليه فى مصر الطلاب من كل مذهب ، وعظَّمه الأكابر والأصاغر ، وكان إذا اجتمع هو والقضاة يجلسون عن يمينه وعن يساره كالسلطان ، وإذا حضر عنده أعيان الدولة بالغ فى وعظهم وأغلظ عليهم ، وكان يرسل إلى السلطان يعظه بما هو أشد غلظة ، ويأمره بإزالة ما يراه من المظالم والبدع ، ومما كان ينكره بدعة المحمل ، لأنها يراد منها فى الأصل إعلان الناس بالحج وأمن الطريق ، ولكن ما يقع فيها من الفساد أكثر من هذه المصلحة ، فيجب إبطالها حسمًا للفساد الذى يقع فيها .

ومن رحل منهم إلى مصر فى هذا القرن محمد بن مراهم الدين الشروانى ، وكان يأخذ طلابه بآداب الطريقة العجمية فى التعليم ، لأنها كان لها آداب فى الجلوس أمام الأستاذ وفى السؤال ، وفى أخذ الطلاب بالغلظة والجفاء ، ومن هذا أن الطالب منهم إذا غاب عن المجىء فى وقته يُمنع من تعويضه بالقراءة فى غيره عقابا له .

ومن رحل منهم إلى مصر فى هذا القرن علاء الدين على بن مصلح الرومى ، وكان من تلامذة سعد الدين التفتازانى والسيد الجرجانى ، وقد نالته فى مصر حرمة وافرة من

الأشرف برسباى ، وكان يستخف بالعلماء المصريين ، ولا يرى عملهم شيئا بالقياس إلى العلم الذى أخذه عن سعد الدين التفتازانى والسيد الجرجانى .

وكان لهذا أثره فى شيوع الطريقة العجمية فى التعليم بين علماء مصر وغيرهم من علماء العرب ، حتى صاروا من البارعين فيها كعلماء العجم ، وقد ذكر السخاوى فى كتاب - الضوء اللامع - أن اثنين من أبناء العجم حضرا درس أحمد بن محمد المعروف بالشُّمُنِّى ، وكان يعنى بدرس المطوَّل والمختصر وغيرهما من كتب السعد والسيد ، فأعجبا بدرسه إعجابا عظيما ، وذكرا أنهما لم يظنا أن فى أبناء العرب من ينهض بدرس هذه الكتب .

فاستحكمت فى هذا القرن هذه الطريقة التى تعنى بالجمع والاختصار والشرح بين المسلمين ، وازداد فيه إقبالهم على حفظ المختصرات التى سموها متونا ، وبلغ من شغفهم بحفظها ودراستها أنهم كانوا يتواصون بحفظها قبل درسها ولو من غير فهم ، كما حكى صاحب كتاب - الشقائق النعمانية - عن المولى بن الأشرف أن أباه أمره بحفظ متن من كل علم قبل أن يفهم معناه ، فلما شرع فى دراستها وبلغ مرتبة استخراج معانيها صار ما حفظه منها معلوما عنده دفعةً واحدة ، حتى صار بهذا أعجوبة زمانه فى سرعة حَلِّ ما يُسْأَل عنه من مشاكل العلم ، وكان من الطبقة السابعة من علماء الدولة العثمانية التركية ، وهى التى تمتد من سنة ٨٥٥ هـ إلى سنة ٨٨٦ هـ (١٤٤١ - ١٤٨٣ م) .

فازداد بهذا ضعف علماء المسلمين فى هذا القرن ، وازداد بعدهم عن الاشتغال بما يفيد المسلمين فيه ، حتى كانت أكبر مشكلة علمية عندهم فى هذا القرن مشكلة التصوف الفلسفى الذى ذهب إليه محيى الدين بن عربى وابن الفارض ، والخلط بين التصوف والفلسفة قديم قبلهما ، ولكن جديدهما فيه أنهما جمعا بينه وبين دعوى الولاية ، وأخذا يقرِّبانه إلى العامَّة ،ويشطحان فيه شطحات توهم القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، فانقسم علماء المسلمين فى هذا القرن فى شأنهما ، فكان فريق ينكر عليهما ويكفِّرهما ، وفريق يؤوِّل ما ورد عنهما فى ذلك ، فيردُّ عليه الفريق الأول بأن التأويل لا يصح فى كلام غير المعصوم ، فلا يكون إلا فى كلام الله تعالى أو كلام رسله عليهم السلام .

ولما وصل ضعفُ علماء هذا القرن إلى هذا الحد طغى عليهم فيه جهل المتصوفة ، حتى ارتفع قدرُهم على قدر هؤلاء العلماء ، وصار جهلهم علمًا لَدُنيا يعلو على علم غيرهم ، فكان أبو المواهب الشاذلى يفتى بأنه يباح للأولياء من أمثاله فعل بعض المحرَّمات للتستر عن أهل الزمان[1] ، ووصلت الجرأة بمن يسمى شعبان المجذوب أن يؤلف سورًا غير

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢ ص ٦٤ .

سور القرآن ، ثم يقرؤها على كراسى المساجد فى يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر أحد عليه ، بل كان العــوام يظنون أن ما يتلـوه من القرآن لما فيه من الآيات والفواصل ، ومن هذا قوله : « وما أنتم فى تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسل الله لنا قوما بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين » فإذا فرغ من تلاوته يقول : اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان ممن قرأ لهم ، وكان الناس مع هذا يبالغون فى الاعتقاد فيه ، بل كانوا يعدّون رؤيته عيدا عندهم[1] .

وأراد الشيخ أحمد بن سليمـان المتوفى سنة نيِّف وعشرين وثمانمائة أن يبنى له مسجدا ، فكان يجمع له طوبا من المساجد المتخرِّبة ، فأنكر عليه ابن حجر والبلقينى وغيرهما من علماء الأزهر ، فذهب إلى الجامع الأزهر ونصب كرسيـا فى صحنه ، ثم جلس عليه وقد تغيرت حاله حتى صارت عينه كالجمر الأحمر ، ثم قال : « مَن يسألنى عن كل علم نزل من السماء أجيبه عنه » فبهت أهل الأزهر كلهم ، ولم يسأله أحد منهم ، ولما أفاق مما اعتراه قال : من جاء بى إلى هنا ؟ . . . فقالوا له : وقع منك كذا وكذا ، وقلتَ كذا وكذا ، فقال : الحمد لله ، لو خرج إلينا أحد لافترسناه . وذهب جماعة من علماء الأزهر إلى الشيخ إبراهيم المتبولى ببركة الحاجّ ، فناموا عنده فيها ، فوجدوه يختلى فى الليل بشابين أمردين من أولاد الأمراء ، فأنكروا عليه خلوته بهما ، وشكوه إلى قاضى الشرع بالصالحية ، فأرسل إليه فأحضره ثم قال له : هؤلاء يدَّعون عليك أنك تختلى بالشباب ، وهذا حرام فى الشرع ، فقال : ما هو إلا هكذا ، وقبض على لحيته بأسنانه وصاح فيهم ، فخرجوا صائحين فلم يُعرف لهم خبر ، ثم أشيع أنهم أسروا فى بلاد الفرنجة وتنَّصروا ، وقد شفّع فيهم عنده فلم يقبل فيهم شفاعة .

وكان السيوطى الذى رجا أن يكون مجدد هذا القرن شيخ خانقاه سعيد السعداء ، فرأى أهلها ينعمون فى أوقافها ولا يهتمون بتكاليفها الصوفية ، بل كانوا يظهرون بمظاهر الأغنياء ، ويقتنون الخيل والبغال ، فأراد أن يحرمهم من أوقاف هذه الخانقاه ، فثاروا عليه وأوسعــوه ضرباً ، وألقوه فى الميضـأة بثيابه ، وفاخر بعضُهم بأنه ضربه بالقبقاب على كتفيه ، إلى غير هذا مما نذكره على كره منّا ، ونرى أنه لا بُدَّ من ذكره ليعلم المسلمون كيف وصلوا إلى ما وصلوا الآن إليه .

وإذا كان هذا القرن ليس بشىء فى جانب المسلمين فإنه كان شيئاً هاماً فى جانب أوربَّا ، لأنه يقابل فيها القرن الخامس عشر الميلادى ، وهو يُعَدُّ من عصر النهضة فيها ، إذ وقع فيه سقوط القسطنطينية بيد الدولة العثمانية التركية ، وكانت أكبر نكبة أصيبت بها أوربا

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

فى هذا القرن ، لأن زوال دولة الروم الشرقية فتح أوربا من جهة الشرق أمام الدولة العثمانية التركية ، ولكن أوربا الغربية لم تقع بهذه النكبة فى اليأس والقنوط ، ولم تستسلم بها لعوامل الضعف والتأخر ، بل كان سقوط القسطنطينية سنة (٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م) معدوداً عند مؤرخى أوربا نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، لأن أهل أوربا أخذوا يثورون على القديم من أول القرن الثالث عشر الميلادى ، فكانت هناك علاقة ثقافية بين إيطاليا ودولة الروم الشرقية من هذا القرن ، وانتشر بسببها تعلم اللغة اليونانية فى إيطاليا ، وانتشر النقل منها إلى اللاتينية ، فلما هاجر علماء القسطنطينية بعد سقوطها إلى إيطاليا فى القرن الخامس عشر الميلادى ازداد الشغف فى أهلها بالأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ، حتى صار لهم أدبٌ لاتينى متأثر بالأدب اليونانى ، ولم يلبث هذا الأدب أن انتشر فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وهولندا ، وكان لاختراع الطباعة فى هذا القرن فضل كبير فى سرعة انتشار هذه النهضة .

وعصرُ النهضة فى أوربا يشمل القرنَ الخامس عشر الميلادى والسادس عشر ، وهو يُعَدُّ نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث كما سبق ، وإنما لم يكن من صميم العصر الحديث لأنه كان فيه كثير من أثر القديم ، فكان فيه أتباع لأفلاطون يستمدون منه أسباب دين طبيعى ، وأتباعٌ لابن رُشْد يذيعون الإلحاد تحت ستار دراسة الفلسفة الأرسطوطالية الرشدية ، وعلماء يحاولون معرفة أسرار الطبيعة بالسحر والتنجيم ، وآخرون يضعون أساس العلم الحديث فى الرياضيات والطبيعيات ، ونُقَّاد يثيرون الشك فى أصول الأخلاق ومبادىء المعرفة ، وفلاسفة تضطرب فى عقولهم جميع هذه الاتجاهات المختلفة ، فيخرجون منها بمذاهب غامضة مختلطة فى الدين والفلسفة[1] .

وكانت هذه النهضة مختلفة النواحى ، فمن نهضة فى السياسة ، إلى نهضة فى العلم ، إلى نهضة فى الدين ، إلى نهضة فى الاختراع ؛ فأما النهضة السياسية فقد كانت قائمة فى أسبانيا والبرتغال وفرنسا وانجلترا وروسيا ، ففى أسبانيا قام بالنهضة فيها الملك فردينند الخامس وزوجه إيزابيلا ، وابتدأت أسبانيا فى عهدهما عصراً من القوة والعظمة ، كانت إيزابيلا زوجته على جانب عظيم من الذكاء والإخلاص لشعبها ، فبذلت كل ما فى طاقتها للنهوض به ، وكانت طبقة الأشراف تستبد فى أفراده ، فعملت على إضعاف سلطان هذه الطبقة ، وساعدت جمعية الأخوة المقدسة التى تألفت فى القرن الثالث عشر الميلادى لأجل هذه الغاية ، ففوَّضت إليها نشر العدل فى البلاد ، ومعاقبة الذين يسعون فيها بالفساد ، فقامت بهذا من غير أن تفرق بين طبقة الأشراف وغيرهم ، وقد شكت هذه

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٨ .

الطبقة من هـذه الجمعية إلى الملك فردينند فأعرض عنها ، وأدخل هذه الجمعية تحت حمايته ، ليتمكن بها من القضاء على هذه الطبقة الظالمة ، وهذا الملك هو الذى استولى فى هذا القرن على كثير من بلاد دولة بنى الأحمر بغرناطة ، ومكث يضيق الخناق عليها إلى أن أسقطها فى نهاية هذا القرن .

وفى البرتغال قام بالنهضة فيها ملوكها ورعاياهم ، وقد قامت سنة (٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م) بتجهيز جيش بحرى ليغزو سواحل أفريقية ، وينتزعها من يد حكامها من المسلمين وغيرهم ، وكانت النساء تنافس الرجال فى تجهيز ذلك الجيش ، فكنّ يحرضن الرجال على الانضمام إليه ، حتى كنّ يأبين التزوج إلا ممن يلتحق به ، وقد استولى هذا الجيش على تلك السواحل وما يتبعها من البلاد ، وفى عهد يوحنا الثانى وصل الرحالة البرتغالـى المعـروف - بارتلمى دياز - إلى رأس أفريقيـة الجنوبى ، وكان هذا فى سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م ، وعانى قبل أن يصل إليه كثيرا من أهوال البحر بتأثير العواصف والأنواء فسمّـاه رأس الأهوال ، ولكن يوحنا الثانى لم يرضَ هذا الاسم وسمّاه رأسَ الرجاء الصالح ، وقد تيقن البرتغاليون بعد وصولهم إلى هذا الرأس أن فى إمكانهم الطواف حول أفريقية ، وسيكون لهذا أثره فى القرن الآتى .

وفى فرنسا قام بالنهضة فيها شعبها وعلى رأسـه البطلة الفرنسية المعروفة - جان دارك - وكانت فرنسا قد وقعت فى قبضة انجلترا فى القرن السابق ، فتمكن الفرنسيون من التخلص منها فى هذا القرن ، وكان هذا فى سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م ، فقام ملك فرنسا كارلوس السابع بحركة الإصلاح فيها ، وعمل على إضعاف طبقة الأشراف ، ليتخلص أفراد الشعب من ظلمهم واستبدادهم ، ثم قام بعده ابنه لويس الحادى عشر ، فسلك طريقه فى الإصـلاح وإضعاف طبقة الأشراف ، وكان محبا للعلوم والمعارف ، فأنشأ كثيرا من المدارس ، وقرّب إليه العلمـاء وأصـاب الفنون ، وأنشأ المطابع فى باريس سنة ٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ م ، فانتشرت بها فى فرنسا العلوم والمعارف ، وكان علم الطب ضعيفا مخلوطا بالضلالات والأعمال السحرية ، فأنشأ له مدرسة سنة ٨٧٧ هـ = ١٤٧٢ م ، فنهض هذا العلم فيها ، وتخلص من تلك الضلالات والأعمال السحرية ، ومن إصلاحات هذا الملك تنظيم البريد وجعله عاما للناس بعد أن كان خاصا بالملك والبابا ، وكانت وفاة هذا الملك سنة ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م .

وفى إنجلترا قام بالنهضة فيها شعبها ، وكان منقسما فى شأن من يحكمه إلى حزبين كبيرين : حزب الورد الأبيض ، وحزب الورد الأحمر ، فقامت حرب أهلية بينهما استمرت ثلاثين سنة ، وفى هذه الحرب دليل على أن هذا الشعب كان له رأى فيمـن

يحكمه ، ولم يكن يساق فى هذا كمّا تساق الأنعام ، وقد أخذ الشعب الانجليزى بعد هذه الحرب فى النهوض ، فصار الفلاحون الذين لم يكونوا من طبقة الأشراف أصحاب أراض يزرعونها لأنفسهم ، وصار لهم حق الاشتراك فى انتخاب المحامين ، وحق الحصول على الوظائف الحكومية ، وزال بهذا كثير مما كان يمتاز به أولئك الأشراف عليهم ، ثم ظهرت المطابع بعد هذا فى انجلترا ، فانتشرت بها العلوم والمعارف فيها ·

وفى روسيا قام بالنهضة فيها إيفان الثالث ، وكان أكثر بلادها محكوما بملوك من التتر المسلمين ، فأخذ ينتزعها منهم ، وكانوا قد ضعفوا بعد ظهور تيمورلنك واستيلائه على بلاد التتر ، فلم تأت سنة (٩٠٥ هـ = ١٤٩٩ م) حتى كان إيفان قد استولى على أكثر بلاد روسيا ، ولم يبق لأولئك التتر فيها إلا بعض إمارات ضعيفة تابعة له ، كإمارة القرم وإمارة قازان ، ثم عُنىَ بعد هذا بإدخال وسائل الحضارة فى روسيا ، فأدخل فيها كثيرا من الأنظمة الجديدة ، حتى نهضت فيها العلوم والتجارة والصناعة ·

وأما النهضة العلمية فقد قام بها علماء لهم نظرة جديدة فى الفلسفة القديمة ، فلم يكونوا يخضعون لها كل الخضوع ، ولم يكونوا يأخذون كل مسائلها قضايا مسلّمة ، بل كانوا يثورون على بعض مسائلها ، أو يرجحون بعض مسائلها على بعض ، وكان بعضهم ينتصر لأفــلاطون ، وبعضهم ينتصر لأرسطو ، وبعضهم يحاول الفصل بين الفلسفة والدين ، ولا يرى ما يراه فلاسفة العصر الوسيط من محاولة التوفيق بينهما ، لأن التوفيق بينهما كان يتم على حساب الفلسفة ، فيخضعها لما لا يقره العقل من بعض القضايا الدينية فى المسيحية ·

ومن هؤلاء العلماء نيقولا دى كوسا (٨٠٤ - ٨٦٩ هـ = ١٤٠١ - ١٤٦٤ م) وهو ألمانى من مدينة كوسا ، وقد درس الفلسفة بجامعتى هيدلبرج بألمانيا وبادوفا بإيطاليا حتى برع فى القانون والرياضيات والفلسفة ، ثم اشتغل بالمحاماة فى أول أمره ، ثم عُدل عنها إلى الكهنوت ، فترقى فيه إلى أن صار أسقفا ؛ فكردينالا ، وكان يؤثر أفلاطون على أرسطو ، لأن أرسطو كان فى نظره فيلسوفا ملحدا ، وله رسائل فلكية ورياضية تعد ممهدة لإصلاح التقويم ، وممهدة لما سيذهب إليه كوبرنك من مخالفة النظام الفلكى لبطليموس فى القرن الآتى ، وله كتاب سماه - الجهل الحكيم - يشتمل على ثلاث مقالات : أولاها فى الله تعالى ، والثانية فى العالم والإنسان ، والثالثة فى العودة إلى الله تعالى بالفناء ، وقد اتهم من أجل هذا بالقول بوحدة الوجود ، فنفاها عن نفسه ، وأثبت أن الله أوجد العالم عن قصد واختيار ، وهذا ينفى كل اشتراك فى الوجود بين الخالق والمخلوق ·

ومن هؤلاء العلماء مرسيليو فتشينو (٨٣٧ - ٩٠٥ هـ = ١٤٣٣ - ١٤٩٦ م) وكان

ثم توّجت هذه النهضة العظيمة فى أوربا بذلك الاختراع العظيم - اختراع المطبعة - والذى توصل إليه فى هذا القرن هو يوحنا جوتنبرج من مدينة متز بألمانيا ، وقد ولد بها سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م ، ولما وصل إلى سن الزواج تزوج فتاة من أهلها ، ورحل بها إلى مدينة سترسبورغ فأقام بها ، واشتغل بصناعة الأحجار الكريمة وصقل المرايا ونحت التماثيل والتصوير ، وقد أخذ فى ليلة من الليالى يتأمل فى صورة مرسومة على الأوراق التى يلعب بها هو وزوجته ، ويفكر فى طريقة تصويرها ، وكانت كل واحدة منها تصوَّر أولا من غير تلوين ، ثم تلوَّن بلونها المخصوص ، فبدا له أن هناك طريقة أحسن من هذا ، وهى أن تصور على قطعة من الخشب ثم يُحفر ما حول خطوطها لتبرز وحدها فيها ، ثم تلوّن خطوطها بالمداد ، ثم توضَع عليها قطع من الورق قطعة بعد قطعة ، فنظهر صور عديدة لها بسرعة ، ولا يضيع فى تصويرها من الزمن ما يضيع فى تصويرها باليد فى كل ورقة على حدة ، واشتغل مدةً فى طبع أوراق اللعب بهذه الطريقة ، ثم بدا له أن يستعملها فى طبع الكتب ، لتظهر نسخ كثيرة منها بالسرعة التى ظهرت بها أوراق اللعب ، ولا يضيع فيها من الزمن ما يضيع فى نسخها باليد ، وبهذا تكون قليلة الثمن ، ويمكن الحصول عليها للعامة والخاصة ، وتنتشر العلوم والمعارف بين الناس ، فتقلُّ بهذا الفوارق بينهم ، ولا تكون مزية التعليم محصورة فى طبقة الأشراف ورجال الدين ومن إليهم ، ورأى يوحنا جوتنبرج أن خشب التفاح أصلح من غيره لطبع الكتب ، فأخذ قطعة منه وحفر فيها صورة قديس ثم كتب تحتها جملة محفورة أيضا ، ورأى أن الحبر القديم لا يصلح لطبع ما يريد طبعه من ذلك ، فاخترع حبراً جديداً مزج فيه الهبـاب بالزيت والكهرمان ، حتى لا يسيل على الخشب فيشوه ما يطبع عليه ، وقد نجحت تجربته الجديدة أيضا ، وظهرت صورة القديس والكتابة التى تحتها ظهوراً واضحا ، فاشتغل بطبع مثل هذه الصورة وما تحتها من كتابة قليلة مدة من الزمن ، وبعد هذا عرض عليه رئيس دير قريب من مصنعه أن يقوم له بطبع كتاب - تاريخ القديس يوحنا - وكان يشتمل على ستين ورقة ، فأخذ يحفر صفحاته على قطع من الخشب حتى انتهى منها ، ثم قام بطبعه عليها ، ومضى بعد هذا فى طبع غيره من الكتب الصغيرة بهذه الطريقة ، ثم عرض عليه رئيس الدير السابق أن يقوم له بطبع الكتاب المقدس ، وهو يشتمل على كتب العهد القديم وكتب العهد الجديد ، فيتألف منها سِفر ضخم يستغرق حفر صفحاته على الخشب ما بقى من عمره ، فأخذ يفكر فى طريقة أخرى لطبعه حتى هداه تفكيره إلى اختراع حروف بارزة من الخشب ، وتوصل بهذا إلى طريقة الطبع بالحروف ، وقد صنعت بعد هذا من الرصاص الممزوج بالإثمد بدل الخشب ، لأن حروف الخشب كانت ضعيفة لا تقوى على عملية الطبع ؛ فتم بهذا نجاح ذلك الاختراع

العظيم ، وكان هذا فى سنة ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م ، ولم يلبث أن انتشر فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من أقطار أوربا .

فإذا وازنّا بين حال أوربا وحال المسلمين فى هـذا القرن وجدنا فى أوربا توثبا ونهوضا ، ووجدنا فى المسلمين جمودا وتأخرا ، وإذا كانوا قد بقى فيهم شىء من القوة فإنه كان ينبغى أن يحافظوا عليها بالعلم الصحيح حتى لا ينحدروا إلى ما انحدروا إليه من طغيان الجـــهل فيهم على العلم ، ولا يكون زمام الأمر فيهم وفى دولهم إلى عوام المتصوفة ، حتى كان لهذا أثره فى غفلة المسلمين فى هذا القرن عما جدَّ فى أوربا من بواكير نهضتها ، وفى اندفاعهم بقوتهم الباقية لهم نحو أوربا الشرقية ، وفى عدم تقديرهم لما تقوم به أوربا الغربية فى بلاد الأندلس والمغرب ، ولاندفاعها فى ذلك إلى أن وصلت إلى رأس الرجاء الصالح ، مما سيكون له أسوأ الأثر فيهم فى القرون الآتية .

فكان المسلمون فى هذا القرن يحتاجون إلى مجدد يدرك مقدار حاجتهم فيه على ضـوء تلك النهضة الأوربية ، ولا ينحصر تفكيره فى ناحية ضيقة من العالم الإسلامى وحده ، ولكنهم لَمْ يَصْحوا فى هذا القرن أيضا من غفلتهم ، بل استمروا على طلب هذا المجدد من رجال الفقه وأصحاب الطرق الصوفية ، لأنهم صاروا أصحاب الشأن الأعلى بينهم ، فطمع جلال الدين السيوطى أن يكون مجدد هذا القرن ، وقال فى أرجوزته :

وهذه تاسعـــــــــــة المئين قد ... أتتْ ولا يخلف ما الهادى وعـد
وقد رجـــــــوتُ أننى المجددُ ... فيها وفَضْلُ الله ليس يجحدُ[1]

وقيل إن القاضى زكريا الأنصارى كان مجدد هذا القرن ، وممن ذهب إلى هذا صاحب كتاب - النور السافر عن أخبار القرن العاشر - ورجحه على السيوطى بشهرة الانتفاع به وبتصانيفه، واحتياج الناس إليها فيما يتعلق بالفقه وتحرير المذهب ، بخلاف السيوطى ، لأن مصنفاته على كثرتها ليست بهذه المثابة ، وكثير منها مجرد جمع بلا تحرير ، حتى كأنه فيها حاطِبُ ليل ، وأكثرها فى الحديث من غير تمييز الطيب من غيره[2] وإنى أرى أن الفرق لم يكن كبيرا بين الاثنين ، وأنه لم يكن هناك تجديد فى مؤلفات القاضى زكريا ، وإنما هى اختصار ونقل من كتب المتقدمين ، ومثل هذا لا يستحق به أن يكون مجددا ، على أن كلا منهما لم يدرك شيئا من فساد المسلمين فى هذا القرن ، ولم يحاول أن يقوم بإصلاح بينهم .

---

(١) توفى السيوطى سنة ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م .

(٢) النور السافر ص ١٢٤ ، وخلاصـــة الأثر فى أعيـــان القرن الحـــادى عشر جـ ٣ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

من أصحـاب الدين الطبيعى الذى يستمد أدلته من فلسفة أفلاطون ، ويقوم على أربعة أركان : الله ، والنفس ، والخلود ، والحرية ، وكان أصحابه يقنعون بهذا فى إدخال فلسفتهم فى دائرة الفلسفة المسيحية ، ويعارضون فلاسفة جامعة بادوفا فى اعتقادهم المنافاة بين المسيحية والفلسفة ، ومن أهم ما قام به مرسيليو فتشينو نقل تاسوعيات أفلوطين إلى اللاتينية ، وكذلك شرح فلسفة أفلاطون ، وقد شرحها فى كتاب سماه - الإلهيات الأفلاطونية فى خلود النفس - وقال فى مقدمته : إننا فى حاجة إلى دين فلسفى يستمع إليه الفلاسفة بقبول ، وقد يقتنعون به .

ومن هؤلاء العلماء جان بيك دى لاميراندول (٨٦٨ - ٩٠٠ هـ = ١٤٦٣ - ١٤٩٤م) وهو أمير إيطالى من أعلام الفلسفة الإشراقية ، وكانت فلسفته تجمع بين الأفلاطونية والفيثاغورية ، وكان له فيها آراء فى الدين والرياضة والطبيعة أثارت عليه رجال الكنيسة ، فألف البابا إنوسان الثامن لجنة لبحث آرائه ، فقضت بإلحاده فيها ، فرد عليها بكتاب سمَّاه - التبرير - ثم رحل إلى فلورنسا ليحتمى بآل مديتشى ، وكانوا حماة العلوم والآداب فى إيطاليا ، فعيَّنوه أستاذًا فى الجامعة الأفلاطونية ، وقد قام فيها بنشر عدة رسائل وكتب علمية وفلسفية .

وأما النهضة الدينية فقد قام بها بعض من رجال الدين ، وكانوا يطالبون بإصلاح الكنائس المسيحية ، وبإصلاح حال رؤسائها من البابا وأتباعه ، وكان من أظهر القائمين بهذا الإصلاح يوحنَّاهوس مصلح كنيسة بوهيميا ، ورفيقه وتلميذه جيروم من مدينة براك ، وكان يوحناهوس يدعو إلى إبطال - سر الاعتراف - فى المسيحية ، لأنه لا سلطان للكنيسة فى محو الذنب أو إثباته ، حتى يتوقف هذا على اعتراف به فيها ، وإنما يمحى الذنب بالتوبة وحدها رحمةً من الله تعالى ، وأيده فى هذا تلميذه جيروم ، ثم انضم إلى هذا قيام كثير من أساقفة فرنسا ينادون بإصلاح حال البابا وأتباعه ، فعقد البابا مجمعًا دينيًا بمدينة « كونستانس » للنظر فى أمر القائمين بهذه الحركة ، واستمر هـذا المجمع نحـو أربع سنين (٨١٧ - ٨٢١ هـ = ١٤١٤ - ١٤١٨ م) وكان مؤلَّفا من ١٩٥٠ عضوا من رجال الكنيسة وأساقفتها وغيرهم ، ودُعِىَ يوحناهوس إلى الحضور أمام هذا المجمع ، فأخذ يدافع عن رأيه السابق ، وحاول أعضاء المجمع أن يُرجعوه عنه فأبى وأصر عليه ، فحكموا بالقبض عليه وتأليف لجنة لبحث مؤلفاته ، فقامت هذه اللجنة ببحثها بعد تأليفها ، وقررت أن فيها خروجا على الكنيسة ، فحكم المجمع بحرقها ، ثم حكم بحرمان يوحناهوس من درجاته الدينية ، وكان هذا فى سنة ٨١٧ هـ = ١٤١٤ م ، ثم حكـم فى سنة (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) على تلميذه جيروم بحرقه حيا ، فحرق فى هذه السنة .

وقد عثرت على رجال غيرهما أدركوا شيئا من فساد المسلمين فى هذا القرن ، وحاولوا القيام بشىء من الإصلاح بينهم ، ولكن فساد هذا القرن كان أقوى منهم ، فلم يمكنهم أن يجمعوا من يعتد به حولهم ، فمنهم أحمد بن محمد المعروف بابن البرهان ، وكان قد درس ابن حزم وابن تيمية ، فتأثر بدراستهما ، وتخلص من بعض جمود أهل هذا القرن ، فلما غلب الظاهر برقوق من المماليك على المملكة ، وحبس الخليفة العباسى الذى كان يمثل صورة الخلافة فى القاهرة ، خرج ابن البرهان إلى الشام والعراق يطالب بقيام رجل من قريش فى الخلافة ، وطاف جميع الممالك الإسلامية ، فلم يستجب له أحد ، فرجع إلى الشام ليدعو أهلها إلى ذلك ، فمال إليه بعض من أهلها ، لما كانوا يرونه من فساد الأحوال وكثرة المعاصى ، وانتشار الرشوة فى الحكام ، فأمر الظاهر برقوق بإحضاره إلى مصر ، فلما حضر إليها سأله عما يدعو إليه ، فأجابه بأنه يطلب خليفة من قريش يحكم بالعدل ، فأمر بضربه وحبسه ، وقد مكث فى الحبس مدة نسى الناس فيها أمره ، فأفرج عنه بعدها ، وكان يعيش وحيدا يتحاماه الناس حتى ساءت حاله ، وعاش فى فقر وإملاق ، إلى أن مات سنة ٨٩١ هـ = ١٤٨٦ م ، ولم يحضر جنازته إلا سبعة أنفس ، ولم يكن ما يدعو إليه هو الإصلاح فى الحكم الذى يحتاج إليه المسلمون فى هذا القرن ، لأن حاجاتهم فيه كانت إلى حكم شورى عادل ، سواء أكان القائم به من قريش أم من غيرهم .

ومنهم الأمير لاجين الجركسى ، وكان يمنى نفسه فى هذا القرن بحكم مصر ، ويعد الناس بإبطال الأوقاف ، وحرق كتب الفقه ، وبمعاقبة الفقهاء والبلقينى فى أولهم ، وإعادة الأمر إلى ما كان عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، إلى غير هذا مما ذكره السخاوى فى ترجمته فى كتاب الضوء اللامع ، وعقب عليه بأنه من الهذيانات ، وأنه لم يحمله عليه إلا قلة عقله ، وللسخاوى عذره فى هذا التعقيب ؛ لأنه كان من أولئك الفقهاء ، وقد يكون فيما كان يعد به هذا الأمير شىء من المغالاة فى عقابهم ، ولكنهم كانوا فى هذا القرن قد تغالوا فى الجمود ، واستكانوا لما كان فيه من الحكم الاستبدادى الجائر ، وكان لهذا الأمير أتباع من الجركس والأتراك يشايعونه فى أمانيه ، والظاهر أنها كانت أمانى له عابرة ، ولم تكن دعوة وعقيدة يثابر عليها ، ويقوم بالجهاد فى سبيلها ، ويبذل ما يبذل من النفس والمال فى الوصول إليها ، ولهذا لم يلق فيها عنتاً ، لأنه لم يحرك بها أحداً .

ومنهم عالم من علماء الدولة العثمانية التركية يقال له بدر الدين ، وكان قاضى عسكر لجيش الأمير موسى أخ السلطان محمد الأول ، وقد لحقت بهذا الجيش هزيمة فى وقعة من الوقائع ، فألزم ذلك القاضى بالإقامة فى مدينة أرنيك بعد هذه الهزيمة ، ولكنه

هرب منها وأخذ يدعو إلى مذهب يقوم على أساس المساواة بين الناس فى الأموال ونحوها فتبعه خلق كثير من المسلمين والمسيحيين واليهود ، لأنه كان يسوّى بين أهل الأديان ، ويجعلهم جميعا إخوة ، وكان يستعين على نشر مذهبه بشخصين يسمى أحدهما بيرقليجة مصطفى ، ويسمى الثانى طورلاق كمال ، ويقال إنه من أصل يهودى ، فأرسل إليه السلطان محمد الأول جيشا بقيادة سيسمان ابن أمير البلغار ، وعيّنه حاكمًا لمدينة سمسون ، وكان قد دان بالإسلام ، فتغلب عليه بيرقليجة وقتله ، فأرسل إليه جيشا آخر بقيادة بايزيد باشا ، فتغلب على بيرقليجه وقتله ، فهرب القاضى بدر الدين إلى مقدونية ، وقد قبض عليه فيها وحكم عليه بالقتل ، وكان الذى أفتى بقتله المولى سعيد من تلامذه السعد التفتازانى لأنه شقّ عصا الطاعة ، وخرج على الجماعة . والظاهر أن ما كان يدعو إليه هذا القاضى من الاشتراكية العالمية التى يدعى إليها الآن فى العصر الحديث ، ولهذا لم ينحصر أتباعه فى المسلمين ، بل اتبعه فيها كثير من اليهود والنصارى ، وقد كان لليهود أثر ظاهر فى هذه الدعوة فى العصر الحديث ، فلا يبعد أن يكون لهم أثر أيضا فى دعـوة القاضى بدر الدين .

وإنى أرى بعد هذا كله أن الأقرب إلى أن يكون مجدد هذا القرن هو ألوغ بك ، لأنه كان ملكًا يمثّل فى ملكه عصر المأمون فى العباسيين ، ويحاول أن يجدد ما أبلاه المسلمـون فى هذا القرن من العلوم ، ولهذا يكون أحق من غيره بأن يكون مجدد هذا القـرن ، وتكـون دراسة حياته فيه أولى من غيره ، ولا بأس بدراسـة القاضى زكريا وابن الوزير اليمنى[1] بعده ، ليتبين فضله فى التجديد عليهما ، ويظهر أنـه أحق بذلك منهما .



(١) ذكره السيد رشيد رضا بين المجددين .

ألوغ بك

هو ألوغ بك بن شاه رخ بن تيمورلنك ، ولد سنة ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م ، وقد شغف منذ صغره بالعلوم الفلسفية ، ولا سيّما العلوم الرياضية ، فدرسها على من بقى مشتغلا بها من العلماء فى دولتهم ، مثل موسى باشا المعروف بقاضى زاده الرومى ، وقد رحل إلى هذه البلاد من الدولة العثمانية التركية ، فأخذ على علمائها ، وبرع فى علوم كثيرة ، ولا سيما العلوم الرياضية ، فقرأ عليه ألوغ بك كتبا كثيرة فى هذه العلوم ، حتى برع فيها أيضا ، وصار العلماء يقصدونه لأخذها عنه ، كالمولى على القوشجى ، فقد قرأها عليه مدة من الزمن ، ثم تركه وذهب مختفيا إلى بلاد كرمان ليأخذ على علمائها ، وغاب فيها عنه زمنا طويلا ؛ ثم عاد إليه واعتذر عن غيبته بغير إذنه بأنها كانت لتحصيل العلم ، فقبل عذره وقال له : بأى شىء أو بأى هدية جئت إلىّ ؟ فقال له : برسالة حللت فيها إشكال القمر ، وهو إشكال تحير فيه الأقدمون ، فقال له ألوغ بك : هات بها أنظر فى أى موضع أخطأت ؟ فأتى بالرسالة فقرأها قائما على قدميه ، فأعجب بها ألوغ بك .

وهذا يدل على مقدار ما وصل إليه ألوغ بك فى العلوم الرياضية ، على أنه كان مع هذا بارعا فى غيرها من العلوم ؛ وقد وصفه صاحب كتاب – شذرات الذهب – بأنه كان فريد دهره ووحيد عصره فى العلوم العقلية والهيئة والهندسة ، وطوسىَّ زمانه فيها ، لأنه كان فيها صاحب علم غزير ، وفضل جم ، واطلاع كبير ، وباع واسع ، وهذا إلى مشاركة جيدة إلى الغاية فى فقه الحنفية والأصلين – أصل الفقه وأصول العقائد – والمعانى والبيان والعربية والتاريخ وأيام الناس ، ثم ذكر أنه سأل بعض حاشيته عما يقول الناس فيه ، وألح عليه فى سؤاله ، فأخبره بأنهم يقولون عنه إنه لا يحفظ القرآن ، فدخل قصره وعكف فيه حتى حفظه فى أقل من ستة أشهر .

وكان ألوغ بك يلى لأبيه شاه رخ سمرقند ، ومكث فى ولايتها نيفاً وثلاثين سنة ، كان فيها يقرِّب إليه العلماء ويجالسهم ، ويكثر من برِّهم وتعظيمهم ، وقد أراد أن ينشىء رصدا عظيما بسمرقند ، فجمع له علماء هذا الفن من كل الأقطار ، وأغدق عليهم الأموال ، وأجزل لهم الرواتب الكثيرة ، حتى رحل إليه علماء الهيئة والهندسة من البلاد البعيدة ، وهرع إليه كل صاحب فضيلة ، وهو مع هذا يتلفت إلى من يسمع به من العلماء فى الأقطار ، ويرسل فى طلب من يسمع به ، وكان الذى حمله على بناء هذا الرصد أنه

أراد رصد الكواكب فرأى خللا فى أرصاد المتقدمين ، فأراد أن يبنى رصدا أتقن من كل ما سبقه من الأرصاد ، وأن يختار له من العلماء من يصل به إلى هذه الغاية من الإتقان ، وقد ولى أمره فى ابتداء بنائه غياث الدين جمشيد ، وكان من مهرة هذا العلم ، فلبث فى ولايته قليلا ثم مات ، فاختار لولايته موسى باشا المعروف بقاضى زاده الرومى ، فلبث فى ولايته إلى أن مات قبل إتمامه ، فاختار لولايته المولى المعروف بعلى القوشجى ، فمكث واليا عليه حتى أتمه ، وهذا الرصد هو المعروف بالزيج الجديد لألوغ بك ، ويمتاز بأنه أحسن الزيجات وأقربها إلى الصحة ·

وقد مات أبوه شاه رخ سنة ٨٥١ هـ - ١٤٤٧ م ، فخلفه ألوغ بك فى الملك ، وكان له ابن يسمى عبد اللطيف ، فطلب منه أن يوليه هراة فلم يجبه إلى ولايتها ، وولاه بلخ بدلها ، فذهب إليها وهو كاره لولايتها ، وكان ألوغ بك مَسيكا لا يغدق على أمرائه وحاشيته ، كما كان يفعل غيره من الملوك الذين لا يبالون بمصلحة رعاياهم ، ولا يتحرجون من إنفاق أموالهم على حاشيتهم ، فكرهه الأمراء ورجال الحاشية ، وكتبوا إلى ابنه عبد اللطيف يطلبون منه الخروج عليه ، وكان فى نفسه من هذا ما فى نفوسهم ، فانتهزها فرصة ، وأعلن الخروج على أبيه فخرج أبوه لقتاله بجيش عظيم ، ولكن أمراءه خانوه حين التقى جيشه بجيش ابنه ، فانضم كثير منهم إلى ابنه بمن معهم من جيشه ، وتركوه فى جماعة قليلة العدد ، فانهزم من ابنه وولّى على وجهه ، وتولى ابنه الملك بعده ، ولما ضاق عليه الأمر ذهب إلى ابنه ودخل فى طاعته ، ورضى أن يعيش فى ولايته كآحاد الناس ، وكان له ابن آخر يسمى عبد العزيز ، فقبض عليه ابنه عبد اللطيف وقتله صبرا فى حضور والده ؛ فلم يطق أبوه المقام بعد هذا بسمرقند ، وطلب من ابنه عبد اللطيف أن يأذن له فى الخروج إلى الحج ، فخرج من سمرقند إلى أن كان على مسافة يوم أو يومين منها ، وكان بعض الأمراء قد حذر ابنه منه بعد خروجه من سمرقند ، فأرسل إليه من قتله فى طريقه ، وكان هذا سنة ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م ، أى بعد سنتين من قيامه بالملك ، ولو أنه لبث فى الملك طويلا لذهب فى التجديد أكثر مما ذهب إليه وهو أمير فى حياة أبيه ·

فهذا الملك العظيم أولى بأن يكون مجدد هذا القرن من أولئك الجامدين من الفقهاء والصوفية ، إذ كان ما فعله من هذا قريبا مما يجرى فى أوربا من النهضة العلمية ، وكان جديراً بأن يسير بالمسلمين فى طريق النهضة أيضا ، لو وجد من يبنى على أساسه بينهم كما وجدت النهضة فى أوربا ، ولكنا تخلفنا بعده ، ولم نجد من يتابع النهوض فى هذه العلوم ، كما سيأتى بيانه فيما سيأتى من القرون ·

* * *

القاضى زكريا الأنصارى

هو زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصارى ، كان مولده ببلدة سُنيكة من شرقية مصر سنة ٨٢٦ هـ = ١٤١٢ م ، فنشأ بها وحفظ القرآن ثم حفظ عمدة الأحكام وبعض مختصر التبريزى فى الفقه، ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٨٤١هـ = ١٤٣٧م ، فقطن بالجامع الأزهر ، وأكمل حفظ مختصر التبريزى ثم حفظ المنهاج للنووى ، وألفية ابن مالك ، والشاطبية فى القراءات، وغير ذلك من المتون ، ثم أخذ الفقه عن القاياتى والعَلَم البلقينى وشيخ الإسلام ابن حجر وغيرهم، وأخذ النحو عن ابن المجدى وابن الهمام والشمنى ، وكذلك درس غيرهما من العلوم فى الجامع الأزهر وغيره من معاهد العلم فى القاهرة ، كالصرف والحديث والأصول واللغة والتفسير والهيئة والهندسة والميقات والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وعلم الحرف والتصوف وما إلى هذا من العلوم .

ولم يزل مشتغلا بطلب العلم على طريقة جميلة من التواضع ، وحسن العشرة والأدب والعفة ، والابتعاد عن بنى الدنيا ، مع التقلل وشرف النفس ، ومزيد العقل وسعة الصدر والاحتمال والمداراة ، إلى أن أذن له شيوخه فى الإفتاء والإقراء ، فتصدى للتدريس فى حياة غير واحد من شيوخه ، وانتفع به طلاب العلم طبقةً بعد طبقة ، وشرح عدة كتب منها : آداب البحث وسماه - فتح الوهاب شرح الآداب - ومنها فصول ابن الهائم وسماه - غاية الوصول إلى الفصول - ومنها التحفة القدسية لابن الهائم فى الفرائض وسماه - التحفة الإنسية لغلق التحفة القدسية - إلى غير هذا من شروحه . وقد صنف فى كثير من العلوم كالفقه والتفسير والحديث والنحو واللغة والتصريف والمعانى والبيان والبديع والمنطق والطب والتصوف والفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهيئة والهندسة وغير ذلك من العلوم التى كانت تُدَرَّس بالجامع الأزهر على ذلك العهد ؛ ولم يكن الأزهريون قد أهملوها ونظروا إليها بعين العداء .

فعلا قدره بما حازه من هذه العلوم ، وولى المناصب الجليلة ، كالتدريس فى مقام الإمام الشافعى ، ولم يكن بمصر أرفع منصبا من هذا التدريس ، ثم ولى تدريس عدة مدارس رفيعة وخانقاه صوفية وغيرها ، إلى أن تولى منصب قاضى القضاه بعد امتناع كثير وتعفف زائد ، وكان هذا سنة ٨٨٦ هـ = ١٤٨١ م ، ثم استمر قاضيا مدة ولاية السلطان الأشرف قايتباى ، واستمر بعد هذا إلى أن كفَّ بصره ، فعُزل بالعمى ، ولم يزل مشتغلا بالتدريس والإفتاء والتصنيف إلى أن توفى سنة ٩٢٥ هـ = ١٥١٩ م .

وهذه خلاصة حياته مختصرة من كتاب - النور السافر عن أخبار القرن العاشر - وقد قال فى آخر الكلام عليه : « ويقرب عندى أنه المجدد على رأس القرن التاسع ، لشهرة الانتفاع به وبتصانيفه ، واحتياج غالب الناس إليها فيما يتعلق بالفقه وتحرير المذهب ، بخلاف غيره ، فإن مصنفاته وإن كانت كثيرة فليست بهذه المثابة ، على أن كثيرا منها مجرد جمع بلا تحرير ، حتى كأنه حاطب ليل » .

وهو يعنى بمن جعله أجدر منه بذلك جلال الدين السيوطى كما سبق ، والحق أن جلال الدين السيوطى كان أكثر ثقافةً منه ، وأن الانتفاع بمصنفاته أكثر ، وأن الناس إليها أحوج ، وقد ضرب بها فى كل فن بسهم ، ومنها ما هو عظيم القيمة فى فنه ، مثل كتاب الإتقان فى علوم التفسير ، وقد جعله للتفسير كعلم أصول الفقه للفقه ، ومنها كتاب المزهر فى علوم اللغة ، وهو فريد فى بابه أيضا ، أما القاضى زكريا فإن ثقافته تكاد تكون فقهية محضة ، على أن كلا منهما يشترك فيما أخذه صاحب كتاب - النور السافر - على جلال الدين السيوطى ، لأن بضاعة كل منهما فى العلم كانت بضاعة جمع واختصار ، فلم يأتيا فيها بجديد يُذكر ، ولم يكن لهما عمل فى التجديد والنهضة بالعلوم على اختلاف أنواعها ، ولا سيما العلوم الفلسفية التى لا تنهض أمة إلا بها ، بل كانا ممن يعادى الفلسفة ويحرِّم الاشتغال بدراستها ، ولا شك أن ألوغ بك كان فى هذا أعلى منهما همةً ، وكان أكثر ثقافة ، وأعرفَ بحاجة المسلمين إلى التجديد فى هذا القرن ، فهو أجدر منهما بأن يكون مجدد هذا القرن ، على قدر ما أمكنه أن يصل إلى التجديد فيه .

على أن فى دراسة حياة القاضى زكريا أمرين جديرين بالاعتبار لمن يريد أن يعتبر بهذه الدراسات :

أولهما : أن الجامع الأزهر فى عهده لم يكن يضيق بدراسة العلوم التى صار أخيرا إلى محاربة دراستها ، وهى علوم الطب والهندسة والحساب والجبر والمقابلة وما إليها من العلوم ، لأن القاضى زكريا تعلمها فيه ، ثم اشتغل بتدريسها والتأليف فيها ، ولا غرو فقد كانت مصر فى ذلك العهد دولة مستقلة ، وكان الجامع الأزهر أكبر معهد للتعليم فيها ، فكان لعلمائه وطلابه رغبة فى جمع العلوم ، وكانت لهم همم أقوى منها فيما سيأتى من القرون ، لأنهم كانوا مطمح آمال الأمة ، وكان لهم نصيب كبير فى وظائف الدولة ، فكانوا يُعدُّون أنفسهم للقيام بها عن جدارة ، بقدر ما تسمح به ظروف زمانهم ، وبقدر ما وصلت إليه الحركة العلمية فى عهدهم ، وإن كانت حالتها على ما وصفنا فى هذا القرن .

وثانيهما : أن علوم الطب والهندسة والحساب والجبر والمقابلة وما إليها من العلوم قد تضاءلت حتى أمكنت دراستها لأولئك الفقهاء ، بعد أن كانت دراستها خاصة بمن يتفرغ لها

من أمثال الكندى والرازى وغيرهما من الفلاسفة ؛ لأن شغف المتأخرين باختصار العلوم فى متون موجزة كان قد تناول هذه العلوم أيضا ، فوُضعت فيها متون موجزة كغيرها من العلوم ، وصار مثل علم الطب يدرَّس فيها دراسة نظرية تافهة ، بعد أن كان يدرَّس دراسة عملية فى البيمارستانات - المستشفيات - فأمكن أولئك الفقهاء أن يدرسوه أيضا فى تلك المتون ، وهذا فى الوقت الذى أخذت أوربا تنهض فيه بهذه العلوم ، وتدرسها دراسة عملية كما كان يدرسها آباؤنا الأقدمون ، وتنشىء لها مدارس خاصة يتفرغ لها طلابها ، ولا يكتفون فيها بتلك الدراسة التافهة التى كان يقوم بها فى هذا القرن مثل القاضى زكريا وغيره من المتفقهة ٠



ابن الوزير اليمنى

هو محمد بن إبراهيم الوزير بن على المعروف بابن الوزير ، وكان من أئمة الزيدية الذين ينتهى نسبهم إلى على بن أبى طالب ، ولهم حكم قديم باليمن ، لا يزال قائما إلى اليوم ، وهم أقرب الشيعة إلى مذهب أهل السنة ، لأنهم يدينون بإمامة أبى بكر وعمر ، ولا يغالون في أمر الصحابة كما يغالى غيرهم من الشيعة ، ولكنهم مع هذا لهم مذهب خاص فى الفروع والأصول ، يتعصبون له ويقلدونه كما يفعل غيرهم من أهل المذاهب الأخرى .

وكان مولد ابن الوزير بهجر الظهراوين من شظب سنة ٧٧٥ هـ = ١٣٧٣ م ، فقرأ العربية على أخيه الهادى ، وقرأ علم الكلام على القاضى على بن عبد الله ، وكذلك درس أصول الفقه والتفسير والفروع والحديث على أكابر علماء صنعاء وصعدة وغيرهما من مدن اليمن ، حتى تبحَّر فى جميع العلوم ، وفاق الأقران ، واشتهر ذكره بين علماء عصره ، وكان شديد الميل لأهل السنَّة على خلاف أهل مذهبه من الزيدية ، لأنه كان لا يتقيد بالتقليد ، بل يؤثر الكتاب والسنة ، ولا يتقيد بمذهب من المذاهب ، وقد ارتحل إلى مكة فقرأ الحديث على ابن ظهيرة فعرف له قدره ، ونظر إليه نظرة العالم إلى عالم يضاهيه فى علمه ، وقد قال له يوما : ما أحسن يا مولانا لو انتسبت إلى إمام كالشافعى أو أبى حنيفة ، فغضب وقال له : لو احتجتُ إلى هذا النسب والتقليدات ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادى .

ومضى ابن الوزير ينظر فى الأصول والفروع نظر مجتهد غير مقلد ، فكان يزاحم الأئمة الأربعة ومن بعدهم فى اجتهاداتهم ، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة فى مقالاتهم ، وكان أهل مذهبه من الزيدية يثورون عليه ثورةً بعد ثورة ، فلا يؤثِّر هذا فى مسلكه من التمسك بالكتاب والسنة ولو خالف مذهبهم ، وهو مع هذا لا يرى أنه يخرج بمسلكه على أصولهم ، بل كان يتكدر من قول بعض حاسديه إنه يخالف أسلافه من أهل البيت ، ويدافع عن نفسه بمثل قوله :

دينى كأهل البيت دينا قيِّما	متنزها عن كل معتقَد ردِى
ويشكُّ فىَّ ذوو الجهالة والعمى	والشمس لا تبدو لعين الأرمد
إنى أحب محمداً فوق الورى	وبه كما فعل الأوائل أقتدى
وأحب آلَ محمد نفسى الفِدَى	لهمُ فما أحدٌ كآل محمد

هم باب حطَّة والسفـينة والهدى   فيهم وهم للظــــالمين بمرصد
ولهم فضائل لست أُحصى عدَّها   مَن رام عَدَّ الشهـب لم تتعدد
سَنُّوا متابعةَ النبى ولم يكـن   لهمُ غرام بالمذاهب عن يد

وابن الوزير يعد بهذا من مدرسة ابن حزم وابن تيميَّة ، فلم يكن راضيا عن الخوض فى علم الكـلام ، بل كان الأوْلى عنده ترك الخـوض فيما لا تمس الحاجة إليه من هذا العلم ، وكان ينتقد مسلك المصنفين فيه نحو مسلك مصنفى كتب الفروع ، حيث ينتصر المصنف لمذهب واحد فى الضعيف والقوى ، والدقيق والجلى ، مع أنه لا يلزم أن يكون الصــواب فى جميع المواضع ، إلا ما حصل فيه أحد الإجماعات القاطعة من الأئمة والعترة ، وهو يعنى بهذا أئمة أهل البيت وعترتهم ، لأنه كما سبق لم يتخلص تخلصا كاملا من مذهبهم ،فكان شأنه فى هذا كشأن ابن حزم وغلبة مذهب الظاهرية عليه ، وشأن ابن تيمية وغلبة مذهب الحنابلة عليه .

وكل مؤلفات ابن الوزير تدور فى هذه الدائرة ، وتنحو فى الاجتهاد نحوًا ظاهرُه التجديد وباطنه الجمود ، إذ كان يدفعــه إلى معاداة من لا يتمســك بالنصوص على ظواهرها ، وإلى النفرة ممن يستعين فى فهمهـا بأساليب غير الأساليب التى اتبعها سلف الأمة ، وله فى هذا كتاب سماه - ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان - مع أن القرآن فيه كثير من الأساليب المنطقية ، وإن كانت مصنوعة فى قالب يوافق بلاغة اللغة العربية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهَ لَفَسَدَتَا ﴾ (1) فهو قياس استثنائى مستوف لشروط هذا القياس ، وليس فيه إلا حذف إحدى المقدمتين والنتيجة ؛ لأن هذا مما تقتضيه البلاغة العربية .

وله من المؤلفات أيضا كتاب « العواصم والقواصم فى الذب عن سنة أبى القاسم » فى أربع مجلدات ، وقد اختصره فى كتاب سماه « الروض الباسم المنتزع من العواصم والقواصم » ومنها كتاب « إيثار الحق فى رد الخلافات إلى المذهب الحـق » ومنهــا كتاب « البرهان القاطع فى إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع » وكتاب « تنقيح الأنظار فى علوم الآثار » وكتاب « نصر الأعيان على شر العميان » يرد فيه على أبى العلاء المعرى ويأخذه بما كان يشاع عنه من غير تحرٍّ ولا تثبت ، وهذه نزعة جمود تخفى فيه أيضا تحت ما كان يتظاهر به من كراهة الجمود والتقليد .

وظهرت نزعة الجمود فيه أيضا نحو غير العلوم الدينية ، من علم الفلك والطبائع والطب والهندسة والحساب والجبر وما إلى هذا من العلوم الفلسفية ، فقد جعلها مما لا

---

(1) الأنبياء : آية ٢٢ .

يُحتاج إلى معرفته فى الدين الذى يُسأل عنه فى الآخرة ، لأن هذه الفنون لم يرد الشرع بوجوب معرفتها ، ولم يندب إلى تعلمها ، كأن الإسلام لا يُعنى إلا بأمر الآخرة فقط ، مع أنه يعنى بالآخرة والدنيا ، وهذه العلوم لازمة للمسلمين فى دنياهم ، فيكون تعلمها فرض كفاية عليهم ، وقد تأثر ابن الوزير فى هذا بابن تيمية .

ومع هذا أبَى ابن الوزير إلا أن يختم حياته بالخروج على المدرسة التى سار على نهجها فى كراهة التقليد ، ففعل ما فعل الغزالى فى آخر أمره ، وندم على ما مضى له من المعارك العلمية ، فاعتزل الناس وأقبل على العبادة ، وتوحش فى الفلوات ، وهجر الاشتغال بالعلم ، وآثر عليه تلك العزلة عن الناس ، حتى مات فى صنعاء سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٣٦ م .





حال العالم فى القرن العاشر الهجرى

يمتد القرن العاشر الهجرى من سنة ١٤٩٦ م إلى سنة ١٥٩١ م ، كانت الدولة العثمانية التركية أقوى دولة إسلامية فيه ، وكان على رأسها فى أوله السلطان بايزيد الثانى ابن السلطان محمد الفاتح ، وكان ملكا محبا للسلم ، فوقفت هذه الدولة فى عهده عند فتوح أبيه ، وقد خرج عليه ابنه سليم الأول ، فانضمَّ إليه جيش الانكشارية ، فترك له الحكم سنة ٩١٨ هـ = ١٥١٢ م ، فقام السلطان سليم بعد أبيه بالحكم ، وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم إلى أن قضى عليهم ، ثم توجه إلى قتال الشاه إسماعيل مؤسس الدول الصفوية بفارس ، وكان شيعياً علوياً ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب ، فحاربه السلطان سليم واستولى على مدينة تبريز قاعدة ملكه ، وانتزع منه العراق وما إليه من البلاد ، ثم توجه بعد هذا إلى قتال المماليك بمصر ، فحاربهم حتى أسقط دولتهم سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م ، وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بنى العباس بمصر ، وبهذا صار ملوك الدولة العثمانية التركية خلفاء المسلمين بعد أن كانوا ملوكا على دولتهم فقط ، وفاتهم أن الخلافة الإسلامية لا تنعقد بهذا الشكل ، وإنما تنعقد بالشورى ومبايعة المسلمين باختيارهم ، ثم توفى السلطان سليم سنة ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م ، فخلفه ابنه السلطان سليمان الأول القانونى ، وفى عهده وصلت هذه الدولة إلى نهاية عظمتها ، فاستولت على بلاد الصرب والمجر ، ووصلت فتوحاتها إلى فينَّا قاعدة النمسا ، واستولت على الجزائر وغيرها من بلاد المغرب ، وقد انتهت باستيلائها على تلمسان دولة بنى زيان سنة ٩٥٢ هـ = ١٥٤٥م،واستولت على اليمن وغيره من بلاد العرب ، وكان لهذا السلطان إصلاحات دينية ومدنية سيأتى بيانها فى ترجمته ، ثم توفى سنة ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م ، فخلفه ابنه سليم الثانى ، وكان ضعيفًا لا يتحلى بالصفات التى تمكنه من إدارة هذه المملكة الواسعة ، ولكنه كان له وزير عظيم هو محمد باشا صقلى ، فاعتمد عليه فى تدبير أمور هذه الدولة ، وإليه يرجع الفضل فى المحافظة عليها فى عهده ، وقد تم فى عهده الاستيلاء على مدينة تونس من بلاد المغرب ، فانتهت بهذا الدولة الحفصية سنة ٩٨١هـ =١٥٧٣ م ،

وتوثقت العلاقة فى عهد هذا السلطان بين فرنسا والدولة العثمانية التركية ، حتى أباح لفرنسا أن ترسل بعوثا دينية إلى البلاد الإسلامية ، فأرسلت إليها كثيرا من هذه البعوث ، مع أنها كانت تقصد تربية الطوائف المسيحية الموجودة بين المسلمين على الإخلاص لها ، وسيكون لهذا من العواقب السيئة ما سيأتى بيانه فى القرون الآتية ، ثم توفى هذا السلطان سنة ٩٨٢ هـ = ١٥٧٤ م ، فخلفه ابنه مراد الثالث ، وابتدأ حكمه بعادتهم السيئة ، فقتل إخوته لئلا ينازعونه فى الملك ، ثم أعلن تحريم شرب الخمر ، وكان قد شاع فى عهد أبيه ، وأفرط فيه الانكشارية ، فثاروا عليه واضطروه إلى إباحته بالمقدار الذى لا يسكر ، وفى عهده كانت علاقة الدولة حسنة مع فرنسا والبندقية وانجلترا ، وقد حصلت هذه الدول على كثير من الامتيازات التجارية فى بلاد الدولة بسبب هذه العلاقة ، وسيكون لهذه الامتيازات أثرها السيء فى القرون الآتية ، وقد وقعت فى عهد هذا السلطان حروب كثيرة بينه وبين الدولة الصفوية ، فازدادت بها العلاقة سوءاً بينهما ، وكانت أولى بحسن العلاقة من الدول الأوربية السابقة ، وفى عهده أعلنت الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا العصيان على الدولة ، وأمكنها بمساعدة ملك النمسا وألمانيا الاستيلاء على مدن كثيرة من هذه البلاد ، وكانت وفاة هذا السلطان سنة ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ م .

وكان للمسلمين فى هذا القرن دولتان شرقيتان غير الدولة العثمانية التركية :

أولاهما : الدولة الصفوية ببلاد فارس ، وقد أنشأها إسماعيل ابن الشيخ صفى الدين العلوى الحسنى سنة ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠ م ، واتخذ مدينة تبريز قاعدة له ، وقد اتسعت بعد هذا حتى شملت جميع بلاد فارس والعراق العربى وديار بكر ، وامتدت من الخليج الفارسى إلى بحر الخزر ، وكانت العلاقة سيئة بينها وبين الدولة العثمانية التركية طول هذا القرن ، ومن أهم أسباب هذا العداء أن الدولة الصوفية كانت شيعية ، والدولة العثمانية التركية كانت سنية .

والثانية : الدولة المغولية ببلاد الهند ، وقد أنشأها بابرشاه من نسل تيمورلنك سنة ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م ، وكانت وفاته سنة ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠ م ، فخلفه ابنه همايون ، وقد استمر حكمه إلى سنة ٩٦٤ هـ = ١٥٥٦ م ، فخلفه ابنه أكبرخان إلى سنة ١٠١٤ هـ = ١٦٠٥ م ، وكان لأكبرخان أفكار جريئة فى التجديد خرج فى بعضها عن دائرة التجديد الإسلامى ، وسنذكرها فى موضعها من هذا القرن .

أما المغرب فقد ظهر ضعفه فى هذا القرن ، وكادت بلاده تسقط فى يد الأسبانيين والبرتغاليين ، وقد ذهبت فيه دولة بنى حفص ودولة بنى زيان باستيلاء الدولة العثمانية التركية على تونس والجزائر ، وسقطت فيه بمراكش دولة بنى وطاس سنة ٩٥٦ هـ =

١٥٤٩م ، وقامت دولة السعديين الحسنية العلوية مكانها ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث يمكنها دفع عدوان أوربا على المسلمين من هذه الناحية ، وقد خرج على سلطانها بعض أهلها ، واستعانوا عليه بالبرتغاليين ، فلم يَقْوَ وحده على حربهم ، واستنجد بالدولة العثمانية التركية ، فأمرت واليها بطرابلس أن يرسل إليه مدداً من جنوده ، فأرسل إليه مدداً منها ، وكان هذا سنة ٩٨٦ هـ = ١٥٧٨ م ، فتمكن بهذا المدد من الانتصار على الثائرين ومَن ساعدهم من البرتغاليين ، وقد رجع هذا المدد إلى طرابلس بعد انتصاره عليهم ، وترك مراكش وحدها تُعانى ما تعانى من طمع أوربا فيها .

وبهذا يمكننا أن نحكم بأن المسلمين فى هذا القرن كانوا على شيء من القوة ، إذ كانت الدولة العثمانية التركية فيه لا تزال مرهوبة الجانب عند أمم أوربا ، ولكن الحالة العلمية بين المسلمين فى هذا القرن لم تكن مضاهية لقوتهم ، فقد فشا الجهل فيهم إلى الحد الذى سيأتى فى شكاية بعضهم ؛ وكانوا فى القرون السابقة يعادون العلوم الفلسفية وحدها ، فأضافوا إليها فى هذا القرن معاداة العلوم الأدبية ؛ لأن العامية أخذت تطغى عليهم بعد استيلاء الدولة العثمانية التركية على معظم البلاد العربية ؛ وجعلها اللغة التركية هى اللغة الديوانية ؛ وممن شكا من معاداة العلوم الأدبية فى هذا القرن صاحب كتاب - العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم - وكان معاصراً للسلطان سليمان القانونى ؛ فقال مشيرا إلى موضوع كتابه فى التاريخ : « ولعمرى إن ذلك يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات ؛ لأن المعارف عندهم خرافات ؛ فإنا قد انتهينا إلى زمان يرون الأدب عيبا ، ويعدون التضلع من الفنون ذنبا ؛ وإلى الله الحنَّان المشتكى من هذا الزمان، قد سلَّ سيف بغيه وعدوانه ، على من تحلى بالفضائل وتقدم على أقرانه ، وأوفق[1] نبله لكل ذى نُبل ظاهر ، وشرف باهر ، فالتبس الدر بالزجاج ، واشتبه العذب بالأجاج ، وضاع أرباب الألباب ؛ كالذباب فى الضباب ؛ فصارت المعارف طيف خيال ، أو ضيفًا على شرف ارتحال ، وضعف أساس العلم وبنيانه ، وتضعضعت أركانه ، وخمدت ناره ، وكادت أن تمحى آثاره :

وكان سرير العلم صرحا ممَّردا ... يناغى القباب السبع وهْىَ عظام
متيناً رفيعاً لا يُطار غرابه ... عزيزاً منيعً لا يكاد يُرام
يلوح سنا برق الهدى مِن بروجه ... كبرقٍ بدا بين السحاب يشام
فجرَّت عليها الرامسات ذيولها ... فخرت عروشٌ منه ثم دعام
محا الذرياتُ اليوم آيات حسنه ... فلم يبق منه آية ووسام

(١) يقال أوفق النبل : وضع الفوق فى الوتر ليرمى ، مقلوب أفوق ، والفوق : مشق رأس السهم حيث يقع الوتر .

وممن شكا حال العلوم الفلسفية فى هذا القرن الحكيم داود الأنطاكى صاحب التذكرة فى الطب ، وكان قد نزل بمصر فقال فيها : « ثم لم ألبث أن هبطت مصر هبوط آدم من الجنة ، لما وجدتها كما قال أبو الطيب ملاعب جنة ، فكأنها مغانى الشِّعب ، وأنا المعنىٌّ فيها بقوله :

ولكن الفتى العربىَّ فيها   غريبَ الوجه واليد واللسان

تنبو عن قبول الحكمة فيها طباع الرجال ، نبوَّ قيناتهم الحسان لحى شيب القذال ، ثم تمثل :

ما مقامى بأرض نخلة إلا   كمقـام المسيح بين اليهود

أنا فى أمة تداركهــــا اللـ   ـهُ غريبٌ كصالح فى ثمود

وقد طعن أهلُ مصر فى عقيدته لاشتغاله بعلوم الفلسفة ؛ فلما كثر كلام الناس فى اعتقاده ارتحل منها إلى مكة .

وبهذا ازداد العلم هوانا فى هذا القرن أمام جهلة المتصوفة ، حتى ذكر الشعرانى أنه تلمذ فيه لسبعين شيخًا أميين ، وقال أبو السعود الجارحى لفقيه أزهرى : « متى تصير هاء الفقيه راءً ؟ » يعنى متى يصير الفقيه فقيرا متصوفا ؟ لأنهما مترادفان فى اصطلاحهم ، وكان لأبى السعود الجارحى نفوذ كبير فى هذا القرن ، حتى إن الشكاوى كثيرا ما كانت تُرفع إليه ، وكان الأمراء يقفون ببابه فلا يأذن لهم ، وهو الذى ولَّى طومان باى على مصر، وكان بركات الخياط ممن يبالغ الحكام وعلماء الأزهر فى اعتقادهم ، ومع هذا طلب إليه جماعةٌ من هؤلاء العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة فاعتذر بأنه لم يتعود إقامتها ، ثم استجاب لإلحاحهم عليه ، وأخذ يتوضأ بماء قذر نجس ، فلما أنكروا عليه أشبعهم طعنا وشتما ، وقد أنكر عليه الوالى مرة وضربه بعصاه ، فغضب وأقام ببابه وهو يقول : « والله يا زربون ، ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك » . فلم يزل مقيما ببابه حتى ورد عزل السلطان له ، وكان إبراهيم المواهى يشرح قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ (١) فأنكر عليه بعض علماء الأزهر ، لأنه يتكلم فى الماهيَّة ، ولما أقبل على مجلسهم محمد المغربى وهو من إخوانه فى الطريق أمسكوا عن الكلام معه ، فقال لهم محمد المغربى : تكلموا حتى أتكلم معكم ، فلم يجرؤوا على الكلام ، فقـال لهم : نحن أحق بتنزيه الحق منكم معاشر الفقهاء ، ومَن طلب إيضاح ذلك فليتقدم إلىَّ أتكلم معه ، فسكتوا جميعا ، وأخذ إبراهيم المواهى بيده وخرج ، فلحقوا به يطلبون رضاه ، وهو ينهرهم ويقول لهم : « إن الطريق ليست مجرد كلام كطريقكم ، إنما هى طريق ذوق ، فمن أراد منكم الذوق فليأت

---

(١) الحديد : آية ٤ .

أخلِّيه وأجوِّعه حتى أقطع قلبه ، وأرقِّيه حتى يذوق ، وإلا فليكفّ عن هذه الطائفة ؛ فإن لحومهم سم قاتل » . إلى غير هذا مما هو أخزى وأشنع ، وقد ذكرنا بعضا منه فى القرون السابقة ، فلا داعى إلى ذكره هنا وإعادة الاعتذار عنه .

وبهذا خضع أكثر علماء هذا القرن لأولئك المتصوفة ، ولم ينكر عليهم إلا قليل منهم ، وكان إنكارهم فى الغالب من أجل المنافسة على الدنيا ، فكان فى الغالب على المتصوفة من المتفقهين ، لأنهم كانوا أكثر حظا فى الدنيا ، وأكثر أتباعا ومريدين ، وكانوا يشاركون المتفقهة فى علومهم ، فأثار هذا المنافسة بين الفريقين ، وقد بلغ من حقد بعض المتفقهة على الشعرانى المتصوف سنة (٩٧٣ هـ = ١٥٦٥ م) أن سعوا فى قتله ، فلما فشلوا فى محاولتهم سعوا فى التنكيل به والتشهير باسمه ، مع أنه كان إلى تصوفه أكثر علماً منهم ، وكان صاحب زاوية كبيرة تضم أكثر من مائتين من مريديه وأتباعه .

وكان إنكارهم على جهلة المتصوفة أخف من إنكارهم على المتفقهين منهم ، ومن هؤلاء المتصوفة محمد كريم الدين الخلوتى المتوفى سنة ٩٧٦ هـ = ١٥٧٨ م ، فقد كان يمثل جهلة المتصوفة فى هذا القرن أكبر تمثيل ، وكان حريصا على جهله بمعرفة الدين وأحكامه ، ويسخر من شيوخ الطريق المتفقهين فى الدين ، ومع هذا لم ينكر عليه الخطيب الشربينى إلا ابتداءه فى الذكر باسم الله واقتصاره عليه ، وقال فى إنكاره : « إنه مبتدأ، ولابد لكل مبتدأ من خبر » وهو إنكار ضعيف متهافت ، وقد ردَّ عليه بأن القوم كانوا لا يزالون على ذلك فى الذكر ، والخبر هنا محذوف ، وتقديره المعبود أو المطلوب أو الموجود أو نحـو ذلك .

ولكن الذين كانوا ينكرون على متصوفة هذا القرن كانوا قلة بين العلماء ، وكان أكثرهم يدافعون عنهم ، ولا سيَّما مَن كان يجمع بين التفقه والتصوف كالشعرانى وزين العابدين البكرى المتوفى سنة ٩٩٤ هـ = ١٥٨٥ م ، وقد كتب البكرى رسالة يدافع فيها عن فقراء الطائفة السعدية الذين يكثرون من الذكر ، حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض ، وافتقدوا الحس حتى يصيرون كالخشب المسنَّدة ، ولا يقوون على النهوض حتى يسارع إليهم نقيب الشيخ ، فيدلِّك أيديهم وأرجلهم، ويقيمهم على بركة شيخه ، وكان بعضهم يُخرجون من أجسادهم شيئا ملوَّنا بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له ، فادَّعى البكرى أن هذه كرامة طاهرة وآية ظاهرة ، حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ، ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيعة ، وإذا ظهرت على من يخلط الطاعة بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذه الذى ينتسب إليه ، ولكن لطهارة قلبه فى ذلك الوقت ظهرت عليه ! . وإنى أرى أن هذه أمور تظهر عليهم بحيل لهم فيها ، وهم

يفعلون أكثر من ذلك بهذه الحيل ، ولا يصح أن نتهافت فى إثبات الكرامة لهؤلاء الناس إلى ذلك الحد ، فنثبتها لهم مع الاعتراف بأنهم من أهل العصيان ، ثم ندَّعى أنها كرامة لأستاذهم ، فلا كان الأستاذ الذى يقبل أهل العصيان بين تلاميذه ، ولا كانت تلك الطريقة التى يدافع البكرى عن أصحابها مع عصيانهم بهذا الدفاع المتهافت .

وكذلك ساءت الحالة الاجتماعية بين المسلمين فى هذا القرن ، حتى صارت أسوأ منها فى القرن السابق ؛ لأن الدولة العثمانية التركية التى ملكت أكثر الأقطار الإسلامية كانت تعامل الرعايا كأنهم عبيد لها ، وتنظر إلى ما فى أيديهم على أنه ليس ملكًا لهم ، وإنما هو ملك للدولة ، حتى إن السلطان سليمان القانونى لما تولى بعد أبيه السلطان سليم أعلن أنه المالك الحر لجميع أرض مصر ، ووزعَّها إقطاعات على رؤساء من الأتراك سمَّاهم ملتزمين ، وكان يتقاضى منهم خراجًا باهظا ؛ لأنهم كانوا يحصلون على هذا الإقطاع بطريق المزايدة ، وكان كل هذا على حساب الفلاح المسكين ، لأنه لم يكن يناله من كده فى الأرض إلا اللقمة والخرقة ، وقد تغالى سلاطين هذه الدولة فى ترفعهم على الرعية ، حتى إنهم كانوا يعلنون عند توليهم أنهم اعتلوا عرش آبائهم الأمجاد طبقا للأوامر الواردة من ملك الملوك ، فإذا خاطبوا ولاتهم قالوا : « أما بعد ، فقد تمت إرادتنا السنية الشاهانية .. فإذا أردت اكتساب رحمتنا الملوكانية فتعال إلى أعتابنا ، وأقسِم على طاعتنا والإخلاص لنا » . وإذا خاطبوا الرعية لا يوجهون الخطاب إليها ترفعًا عليها ، بل يقولون لولاتهم : « بلِّغوا عبيد بابنا العالى » . وكان هذا أسوأ ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من الناحية الاجتماعية ، وهذه الدولة هى التى ابتدعت الألقاب التى تقسم الأمة إلى طبقتين - طبقة الأشراف ، وطبقة العامة من سائر أفراد الرعية ، من لقب باشا إلى لقب بك ، وكان كل من يحمل لقبا من هذين اللقبين يخاطَب بغير ما يخاطب به أفراد العامة ، فإذا خوطب قيل له : يا صاحب السعادة أو يا صاحب العزة . أما أفراد الرعية فكان خطابهم - يا رجل أو يا ولد - إن لم ينزل إلى أدنى من هذا الخطاب .

ولننظر بعد هذا فيما كان عليه حال أوربا فى هذا القرن ، وهو يقابل القرن السادس عشر الميلادى ، وقد عُدَّ فى الكلام على القرن السابق من عصر النهضة الأوربية ، لأن أوربا تابعت فيه نهضتها فى القرن السابق ، فكانت فيها نهضة سياسية ، ونهضة دينية ، ونهضة علمية ، ونهضة اجتماعية ، وقد توِّجت نهضتها فى هذا القرن بكشف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح ، كما توجت نهضتها فى القرن السابق باختراع المطبعة .

فأما نهضتها السياسية فكانت بازدياد عظمة دولها فى هذا القرن ، وكان أعظمها فيه دولة أسبانيا ودولة البرتغال ، وكان سبب عظمة الأولى كشف أمريكا ، وسبب عظمة الثانية

كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان كشف أمريكا أعظم حدث فى هذا القرن ، وقد عاد على أوربا عامة وأسبانيا خاصة بالخير العميم ، لأنه فتح لأهلها النصف الغربى من الكرة الأرضية ، فأخذوا يتنافسون فى استعماره ؛ حتى زادت ثروتهم به زيادة عظيمة ، وفاقوا بها غيرهم من باقى شعوب القارات القديمة ، وكان الفضل فى كشف أمريكا لخريستوف كولمبوس ، وقد ولد بمدينة جنوى من إيطاليا ، وتعلم فى مدرسة بافيا الجامعة ، ثم اشتغل بالملاحة فى السفن ووضع المصورات الجغرافية للملاحين ، وكان يباحث شيوخ الملاّحين فيما وجدوه من المشاق فى أسفارهم ، وما صادفوه فى البحار من العجائب والآثار ، واستنتج مما رآه وسمعه منهم أن هناك جانبا كبيرا من الأرض لا يزال مجهولا ، وأنه يمكن الوصـــول إلى طرف آسيا الشرقى بالسير إليه من غرب أوربا فى المحيط الأطلنطى ، فأخذ يعرض هذا الرأى على أهل العلم ، ويقيم لهم الأدلة على صحته ، فوافقه عليه طبيب من أهل فلورنسا بإيطاليا ، وكان من أدلته عليه أن بعض الملاحين ابتعد فى المحيط الأطلنطى عن رأس فنسنت بمقدار ألف ومائتى ميل ، فوجد قطعة من الخشب طافية على وجه الماء ، وفيها آثار تدل على أنها من صنع طوائف مجهولة من البشر ، ومنها أن بعضهم التقط من هذا المحيط أنابيب كبيرة من القصب أمام بوروتوسانتو ، تسع الأنبوبة منها نحو أقتين من الخمر ، وهى مما لا ينبت إلا فى بلاد الهند ، إلى غير هذا مما استدل به على أنه يمكن الوصول إلى بلاد الهند بالسير غربا فى المحيط الأطلنطى . ثم أخذ بعد هذا يبحث عمن يساعده على هذه الرحلة ، فعرض أمرها على المجلس البلدى لمدينة جنوى فأبى أن يساعده عليها ، فلجأ إلى يوحنّا الثانى ملك البرتغال ، فألّف لجنة من العلماء لبحث هذا الأمر من الناحية الجغرافية ، فلم توافق على رأى خريستوف كولمبوس ، فلجأ فى آخر أمره إلى فردينند ملك أسبانيا وزوجه إيزابيـلا ، فألّفا لجنةً من علماء الفلك والجغرافيا لبحث رأيه ، فخالفته فيه واستدلت على فساده بآيات من التوراة وأقوال لآباء الكنيسة ، فترك أسبانيا إلى فرنسا ليبحث عمّن يساعده فيها ، ومَرّ فى طريقه إلى فرنسا على دير رهبان ، فدخله ليقيم فيه يوماً أو يومين ثم يواصل السفر ، ولكن رئيس الدير سأله عن أمره فأخبره به ، وكان فى الدير طبيب ماهر فى علم الجغرافيا ، فاقتنع بصحـة رأى خريستـوف كولمبوس ، وكان لرئيس الدير صلة بالملكة إيزابيلا ، فكتب إليها يخبرها بأمره وقصده الذهاب إلى فرنسا ، فأرسلت إليه كتابا تأمره فيه بردّه إليها ، فلما وصل إليها وافقته هى وزوجها فردينند على رأيه ، ورضيا أن يساعداه على هذه الرحلة ، ثم طلبا منه أن يذكر ما يشترطه لنفسه فيها ، فذكر أنه يشترط لنفسه أن يعطياه لقب أمير البحر وأن يجعلاه والياً على ما يكشفه من البلاد ، وأن يكون له عُشر ما يُستَغلّ منها بالحرب والتجارة أو غيرهما ،

فرضيا بهذه الشروط بعد أن استكثراها فأصرَّ عليها ، وأعدّاً له ما يلزمه من السفن والرجال والأموال ، فسار بها من أسبانيا فى سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م ، وكان معه ثلاث سفن ، وعشرون ومائة رجل ، وقد ابتدأ سيره فى الثالث من شهر أغسطس ، ومكث يسير مغرِّبا فى المحيط الأطلنطى إلى الثالث عشر من شهر سبتمبر ، وفى هذا اليوم شاهدوا انحراف الإبرة المغنطيسية بالبوصلة البحرية من الشمال إلى الجنوب ، فأدركهم خوف شديد من انحرافها ؛ فشرح لهم خريستوف كولمبوس سبب هذا الانحراف وطمأنهم ؛ فتابعوا السير إلى أن شاهدوا كثيرًا من طيور البحر ، فعلموا أنهم قد قربوا من بعض شواطئه ، ولكنهم كانوا يشاهدون ما يظنونه شاطئا ، فإذا وصلوا إليه وجدوه سراباً ، فيغضبون ويثورون على خريستوف كولمبوس ، وفى الحادى عشر من شهر أكتوبر عثر بعضهم على قناة وقطعة من الخشب وعصا ولوح ، وعثر بعض آخر على وتد ونبات مزهر ، ورأى خريستوف كولمبوس نوراً فى الأفق ، وفى الساعة الثانية صباحاً من هذا اليوم رأى واحد منهم شاطئاً حقيقـياً ، وكان هذا الشاطىء لأول جزيرة من جزر أمريكا ، وهى الجزيرة التى تسمى سمنا ؛ فنزل خريستوف كولمبوس ورجاله ومعهم العَلَم الأسبانى إلى هذا الشاطىء ، وركعوا شكرًا لله تعالى ، ودموع الفرح تملأ عيونهم ، ثم تابعوا سيرهم حتى كشفوا كثيراً من هذه الجزر ، واكتفوا بما كشفوه من هذه الجزر فى هذه المرة ، وعادوا إلى أسبانيا فى السادس عشر من شهر يناير سنة ١٤٩٣ م ، ومعهم ما وجدوه فيها من الذهب والقطن والأسلحة والنبات والوحوش ، واصطحبوا تسعة من سكانها ليراهم أهل أسبانيا ، فلما عادوا من رحلتهم تلقى أهل أسبانيا خريستوف كولمبوس كما يُتلقى الملوك الفاتحون ، واستقبله الملك فردينند وزوجه إيزابيلا أعظم استقبال ، ثم تابع بعد هذا رحلاته إلى هذه الجزر ، وكان فى كل رحلة يكشف جزراً جديدة ، إلى أن وصل إلى شاطىء أمريكا الجنوبية فى سنة ٩٠٤ هـ = ١٤٩٨ م ، فظنه أولا شاطىء جزيرة كالجزر التى كشفها ، ولكنه أخذ يسير موازيا له وهو يشاهد رؤوسه الناتئة فى البحر فيظنها جزائر ، إلى أن رأى الماء الغزير الذى يصب فى البحر من نهر أورونيكو ، فعلم أنها قارَّة كبيرة كالقارات القديمة ، وأنهـا هى الغاية التى كان يقصـدها من هذه الرحلة ، فتوَّج بكشفها ما كشفه من الجزر قبلها ، وكانت وفاته سنة ٩١٢ هـ - ١٥٠٦ م ، ثم قام بعده عالم معاصر له يسمى أمريكو فسبوشيوس من أهل فلورنسا بإيطاليا ، فأتم كشف هذه القارة وهو الذى سميت باسمه ، لأن ما كشفه فيها لا يقل عما كشفه قبله خريستوف كولمبوس ، وإن كان له فضل السبق عليه ·

ويلى كشف أمريكا فى الأهمية كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، فإنه فتح جنوب أفريقية الشرقى وشرق آسيا أمام أوروبا ، وكانت الدولة العثمانية التركية قد سَدت طريق

آسيا الشرقية من مصر وبلاد العرب عليها ، فأرادت أن تصل إليها من هذه الناحية ، لتأخذ المسلمين الذين وقفوا أمامها من الخلف ، وقام بهذا الأمر العظيم ملك البرتغال عمانوئيل الأول ، وجَهَّزَ له أسطولا كبيرا سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م ، واختار الملاح المشهور فاسكو دى غاما رئيسا له ، فخرج من ميناء ليشبونة وسار موازيا سواحل أفريقية الغربية إلى الجنوب ، وكان يستولى على السواحل والبلاد التى يمر بها ، ولم يزل سائراً حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم أخذ يسير شمالا موازيا لسواحل أفريقية الشرقية ، وكان يستولى عليها أيضاً ، وقد استولى أولا على نتال وبلاد كفروريا ، وكشف جزيرة مدغشقر وجزائر القمر وأنجوان ، ثم استولى على بلاد سغالا - موزمبيق - ووجد فيها كثيراً من مناجم الذهب التى كانت معروفة لقدماء المصريين والرومان والعرب ، ووجد بعد هذا ممالك عربية عامرة زاهرة فاستولى عليها ، ولما وصل إلى مصبٍّ نهر زمبيسى الكبير سار فيه بسفنه ، وأنشأ حصوناً على شواطئه ، وفتح أسواقا عظيمة للتجارة ، ثم رجع إلى طريقه على الساحل الشرقى ، حتي وصل إلى مدينة ممبسَّة ، وكانت مدينة عظيمة يسكنها مهاجرة من أهل اليمن ، فاستولى عليها أيضاً ، واستولى بعدها على مملكة ملندة ، وكان بها جماعة من تجار الهنود ، فأخذ بعضهم معه ليدلُّوه على طريق الهند ؛ فساروا معه حتى وصلوا به إلى مدينة كلكتا على ساحل ملابار سنة ٩٠٤ هـ = ١٤٩٨ م ، فمكث فيها مدة عرف فيها أحوال الهند ، واطَّلع على ما فيها من ثروة عظيمة ، ثم عاد إلى البرتغال ، فوصل إليها سنة ٩٠٥ هـ = ١٤٩٩ م ، فاهتزت بلاد البرتغال لعودته إليها ، لأنه كشف لها هذا الطريق العظيم إلى الهند ، واستولى لها على ما استولى عليه من البلاد والممالك ، ثم عاد ثانياً إلى الهند سنة ٩٠٨ هـ - ١٥٠٢ م ، وكان ينوى الاستيلاء عليه فى هذه المرة ، فلما وصل إلى كلكتا أطلق عليها مدافعه فسلمت له ، ثم استولى على مدن كثيرة غيرها ، وعقد معاهدات تجارية مع بعض ملوك الهند ، وعاد بعد هذا إلى بلاد البرتغال ، فاحتفل به أهلها احتفالا عظيما ، وأقام مدة بين أهله إلى أن ولاه يوحنَّا الثالث ملك البرتغال على المستعمرات البرتغالية فى الشرق ،وأعطاه لقب نائب الملك بالهند ،وكان هذا سنة ٩٣١هـ = ١٥٢٤م ، فلما وصل إلى الهند عاجلته المنية فمات بها فى هذه السنة .

وكان فتح طريق رأس الرجاء الصالح مصدر خطر كبير على المسلمين ، لأنه مكَّن أهل أوربا من أن يأتوهم من خلفهم ، وأن يوجهوا إليهم ضربتهم فى أضعف موضع فيهم ، ولكن عقول المسلمين فى هذا القرن كانت قد تبلدت ، فلم تدرك مقدار هذا الخطر ، ولم تتنبه من غفلتها التى ألفتها بطول الزمن ، ولهذا سهل على ذلك الأسطول البرتغالى أن يفتح كل تلك البلاد التى مر بها إلى أن وصل إلى الهند ، مع أن البرتغال أمة قليلة العدد ، ولا يقاس عددها بعدد ما استولت عليه من تلك البلاد .

وقد أرسل صاحب الجوزرات بالهنـد رسولا إلى الدولة العثمـانية التركية سنة ٩٤٤ هـ = ١٥٣٧ م ، يستنجد بها على البرتغاليين الذين أغاروا على بلاده ، واستولوا على أهم ثغورها ، وكذلك أرسل إليها صاحب دلهى بالهند رسولا يستنجد بها على همايون بن ظاهر المعروف ببابر ؛ فأرسل السلطان سليمان القانونى إلى والى مصر أن يجهز أسطولا بثغر السويس لنجدتهم ، فجهز أسطولا يحتوى على سبعين سفينة ، وقد توجه إلى سواحل الجوزرات بالهند ، فانتزع من البرتغاليين أكثر الثغور التى استولوا عليها ، وسلَّم ما استولى عليه منها لصاحب الجوزرات ، ثم ترك البرتغاليين فيما بقى لهم من الثغور ، وعاد إلى مصر قبل أن يتمم طردهم من الهند ، فخلا الجو فيها لهم كما كان ، ليطعنوا المسلمين من خلفهم ، حتى إذا أضعفوهم من هذه الناحية أخذوهم من الأمام أيضاً ، ليضعوهم بين شقَّى الرحا ، ويضغطوا عليهم من الأمام والخلف ، وقد قام البرتغاليون بنصيبهم من هذه الحركة الخطيرة فى هـذا القرن ، ومهدوا لغيرهم من أمم أوربا إتمامهـا فيما سيأتى من القرون ·

وكان هناك ملوك آخرون فى أوربا ساعدوا على هذه النهضة ، منهم فرنسيس الأول ملك فرنسا (٩٢١ - ٩٥٤ هـ = ١٥١٥ - ١٥٤٧ م) فقد عمل على النهوض بالعلوم والمعارف والفنون فى فرنسا ، حتى راجت فيها سوقها ، وزاد عدد طلابها ،ولهذا كان يلقب أبا العلوم والمعارف ، وبلغ من حبه للعلماء أنه كان لا يصبر على مفارقتهم ، بل يقربهم إليه فى الحضر والسفر ، ويرقِّيهم إلى المناصب الرفيعة ، ويمنحهم العطايا الجزيلة ·

ومنهم أليصابات ملكة إنجلترا (٩٦٦ - ١٠١٢ هـ = ١٥٥٨ - ١٦٠٣ م) وقد لجأ إليها كثير من البروتستانت أتباع مارتين لوثر من ألمانيين وفرنسيين وهولنديين لأنها كانت بروتستانتية ، وكانوا من أصحاب العلوم والفنون والصناعات ، فنشروا ما كان مجهولا منها فى إنجلترا ، وترجموا كثيراً من الكتب العلمية التى اصطحبوها معهم إلى اللغة الإنجليزية ، فاستفادت منها إنجلترا فائدة عظيمة ، وقد ألِّفت فى عهد هذه الملكة شركة الهند الشرقية ، وهى الشركة التى ستمكن إنجلترا من الاستيلاء على بلاد الهند ·

ومنهم شارلكان ملك جرمانيا (٩٢٥ - ٩٦٣ هـ = ١٥١٩ - ١٥٥٥ م) وكان أكبر ملوك أوربا فى هذا القرن ، وكان محبا للعلوم والمعارف ، بل كان يجيد معرفة بعضها · ثم تزهد واعتزل الملك فى آخر حياته ؛ فكان يقضى وقته فى صنع الساعات ونحوها ، ليضرب مثلا لشعبه فى الاهتمام بالصناعة ، وليحملهم على التنافس فيها وإتقانها ·

وأما النهضة الدينية فقد قام بها بطل من أبطال أوربا فى هذا القرن ، وهو مرتين لوثير الألمانى ؛ فقد قام بأكبر ثورة على البابا ، وهو رئيس الكنيسة المسيحية الكاثوليكية ،

وخليفة المسيح عندهم فى الأرض ، وله من السلطة الدينية ما يصل إلى حد أن ما يربطه فى الأرض يربط فى السماء ؛ فأقامت ثورة مارتين لوثير عليه أوربا وأقعدتها ، وكانت من الأسباب التى أيقظتها فى هذا القرن من غفلتها . وقد وُلد مارتين لوثير فى مدينة أسلابان بسكسونيا من ألمانيا سنة ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م ، ودرس العلوم الدينية والفلسفية ، وكان يميل إلى الزهد والعزلة ؛ فالتحق بدير ليترهب فيه ويتابع دراسته ، ولم يزل يتابعها حتى وصل إلى درجة عظيمة فى علوم الدين والفلسفة ، فاختاره فردريك أمير سكسونيا معلما للفلسفة واللاهوت فى المدرسة التى أنشأها فى مدينة وتمبرج ؛ فلما كانت سنة (٦٢٣ هـ = ١٥١٧ م) توسع البابا « لاون » العاشر فى منح الغفرانات التى لم يكن أسلافه يمنحونها إلا لمن يشترك فى حرب صليبية أو ينشىء كنيسة ، أو يقوم بنحو هذا من الأمور الدينية ، فأرسل كثيرا من أتباعه إلى أقطار أوربا يبيعون الغفرانات لأهلها بالدراهم ، لتُمحى بها ذنوبهم ولا يحاسبون عليها فى الآخرة ، فأخذوا يجولون فى هذه الأقطار وهم ينادون بالبركات الروحية ، ويبيعون الغفرانات للعامة بأبخس الأثمان ، حتى نفرت منهم قلوب الملوك والأمراء لأنهم رأوا أموال رعاياهم تذهب إلى خزينة البابا « لاون » العاشر ، لينفقها فى شهواته وملذاته ، فانتهز مارتين لوثير هذه الفرصة ، وأخذ ينكر على حق الغفران وغيره من البدع التى جعلت منه وسيطا بين الله تعالى والمسيحيين ، وقام يدعو الناس إلى الثورة على هذه البدع ، فاستجاب كثير منهم له ، وأخذوا يناصرونه فى دعوته ؛ فقام أتباع البابا يردون عليه ، ويستندون فى ردهم على أقوال الأحبار السابقين ، وعلى قوانين الكنيسة وتقاليدها ، وكان مرتين لوثير لا يقيم لأدلتهم وزنا ، ويتمسك بنصوص الأناجيل ، وبالبراهين التى يؤيدها العقل ؛ حتى فتن الناس بقوة أدلته ، فكثر أتباعه إلى حد أقلق البابا أتباعه ، ولم يجدوا إلا أن يأخذوه بالشدة ، فأرسل إليه البابا ليقدمه إلى المحاكمة على آرائه ، فأبى أن يذهب إليه ليحاكم عنده ، وطلب منه أن يحاكم فى ألمانيا ، وأيده فى هذا أمير سكسونيا ، فأمر البابا الكردينال كاتيجان نائبه فى ألمانيا أن يحاكمه ، فقام بمحاكمته فى مدينة أجسبرج ، وثار بينهما جدال عنيف ظهر فيه عليه مرتين لوثير ، فأخذ يهدده ويتوعده بالعقاب ليرجع عن آرائه ، فأبى أن يرجع عنها ، وفر فى خفية إلى سكسونيا ، فأدخله أميرها فى حمايته ، وأبى أن يرسله إلى الكردينال كاتيجان ليعاقبه على آرائه ، وقد وقعت الكنيسة الكاثوليكية بعد هذا فى ارتباك بسبب موت مكسيمليان ملك جرمانيا ، واشتغالها باختيار خليفة له ، فلم تلتفت إلى مرتين لوثير ودعوته حتى تمكن من نشرها فى ألمانيا وسويسرا ، فلما رأى البابا نجاح هذه الدعوة جمع الأساقفة وحكم على مرتين لوثير بالإلحاد ، وحرَّم على الناس مطالعة مؤلفاته ، فلم يعبأ بهذا الحكم ، وأعلن الخروج على

البابا ، وأخذ يحرض ملوك أوربا على عصيان أوامره ، ولما جلس شارلكان على عرش جرمانيا بعد مكسيمليان أراد أن يتقرب إلى البابا ، فعقد مجلساً بمدينة ورمس لمحاكمة مرتين لوثير ، فلما حضر إلى هذه المدينة للمحاكمة قابله أهلها بالتعظيم والتبجيل ، وأعلنوا انضمامهم إلى دعوته ، وأراد بعض أعضاء هذا المجلس أن يحكم عليه بالقتل ، فلم يوافقه المجلس على هذا الحكم ، لأن مرتين لوثير حضر إليه بأمان من شارلكان ، فاكتفى بإصدار منشور يمنع أمراء أوربا وأشرافها من الدخول فى دعوته أو حمايتها ، ولكن أمير سكسونيا لم يعبأ بهذا المنشور ، وأخذ مرتين لوثير فأخفاه عنده نحو تسعة أشهر ، وكان يشتغل فيها بتأليف المقالات والكتب فى تأييد دعوته ، وزاد ما حصل له من اضطهاد فى نشر دعوته بين الناس ، حتى انتشرت فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وغلب على أنصار هذه الدعوة اسم بروتستانت أى محتجِّين ، ثم مكث مرتين لوثير يجاهد فيها حتى مات سنة ٩٥٣ هـ = ١٥٤٦ م ، بعد أن ثبَّت أركانها ، فلم تمت بموته ، بل زاد انتشارها بعده ، حتى صارت أقوى نفوذا فى أوربا من الكاثوليكية[١] .

وأما النهضة العلمية فقد كانت فى هذا القرن أظهر منها فى القرن السابق ، فظهر فيها علماء وفلاسفة ختموا عصر النهضة ، ومهدوا بآرائهم للفلسفة الحديثة ، وقد قام فى هذا القرن خلاف كبير فى شأن الفلسفة اليونانية فى ترجمتها من العربية إلى اللاتينية ، وفى ترجمتها من اليونانية إلى اللاتينية ، فانتصر فريق من فلاسفة هذا القرن للفلسفة اليونانية فى شكلها العربى ، وكان على رأس هذا الفريق أساتذة جامعة بادوفا بإيطاليا ، وقد مكثوا مخلصين لهذه الفلسفة إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادى ، وانتصر فريق آخر منهم للفلسفة المنقولة من اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، وادعوا أنها أكثر موافقة للأصل اليونانى من الفلسفة المنقولة من العربية ، لأن العرب كثيراً ما كانوا يخلطون بين آراء أفلاطون وآراء أرسطو ، وقد خُدِعوا فى هذا بما حصل قبلهم من تلفيق الأفلاطونية الحديثة ، وكان من هذا الفريق أكثر جامعات أوربا ، فنشطت الحركة الفلسفية فى أوربا بهذا الخلاف الكبير ، وازداد الفلاسفة جرأة على نقد الفلسفة القديمة ، وكان من أكثرهم جرأة فى هذا كوبرنيكوس العالم الفلكى المعروف ، وقد ولد فى بلدة ثورن عند حدود بروسيا ، والتحق بجامعة كراكو ليدرس الطب فيها ، ولكنه وجد فى نفسه ميلا إلى العلوم الطبيعية

---

(١) لم تتناول ثورة لوثر إنكار التثليث كما جاء فى كتاب الأستاذ محمد البهى مدير الجامعة الأزهرية « الفكر الإسلامى الحديث » مما يسىء إلى الأزهر والإسلام ؛ لأنه يُفهم المخالفين أن ما فى ديننا على هذا الشكل من الخطأ الظاهر ، وأن أزهرنا ضيق الثقافة إلى حد الجهل بديانة إنجلترا وأمريكا .

والرياضية ، فأقبل على دراستها فى هذه الجامعة ، ثم رحل إلى بالونا بإيطاليا ليدرس الفلك على العالم الفلكى دومنيكو ، فدرسه عليه مدة من الزمن ، ثم رحل إلى روما فعين أستاذًا للعلوم الرياضية فى جامعتها ، ثم عين أسقفا لكاتدرائية فرونبورغ ، فكان يقضى وقت فراغه فى دراسة السماوات والكواكب ، ولم يكن المرصد الحديث ذو المرقب - التلسكوب - قد ظهر فى هذا القرن ، فعمد إلى بعض الجدران فى داره فأحدث فيها شقوقا ، وجعل يراقب منها عبور النجوم لخط الهاجرة ، ثم درس حركة الكواكب السيارة ودوّن مشاهداته لها فى جداول مكث علماء الفلك يعوّلون عليها قرونا بعده ، وكانت هذه الجداول سبب خروجه على النظام البطليموسى الذى جعل الأرض مركز الكون ، ويرتب على هذا أنها ثابتة غير متحركة ، وأن الشمس والكواكب السيارة هى التى تدور حولها ، فخالف كوبرنيكوس هذا النظام ، وذهب إلى أن الشمس هى مركز الكون ، وأن الأرض هى التى تدور حولها ، وكان هذا رأياً لفيثاغورث من فلاسفة اليونان ، ولكن رأى أرسطو وبطليموس طغى عليه ، حتى أتى كوبرنيكوس فأحياه وأيده بأدلة قوية ، وأحدث به انقلاباً عظيما فى العلم والفلسفة ، وكان الناس قد ألفوا ذلك الرأى القديم ، فكان كوبرنيكوس أول من خرج على الجمود الأرسطوطالى ، بعد أن عاق التقدم العلمى قروناً طويلة ، ثم ألف كوبرنيكوس كتاباً يؤيد مذهبه سنة ٩٣٧ = ١٥٣٠ م ولكنه أحجم عن نشره ثلاث عشرة سنة ، ولم يقدمه للنشر إلا فى السنة التى مات فيها ، فقدمه فيهـا للبابا برلس الثالث ، وقال فى تقديمه له : « إذا وجُد أناس أخذوا على عاتقهم مع جهلهم بالرياضيات أن يحكمـوا على هذه الآراء وفقاً لآية من الكتاب المقدس كدروا صفوها حتى يوافق هواهم ، فإنى لا أقيم لهم وزناً ، بل أحتقر حكمهم الأحمق ، وإنى لأرفع بحثى فى هذا الموضوع إلى قداستكم ، ثم إلى أعلام الرياضيين ، ليحكموا فيه » .

وكان من أعلام فلاسفة أوربا فى هــذا القرن بومبونازى أستاذ جامعة بادوفا بإيطاليــا ، وقد أحدث ثورة شديدة بمخالفته ابن رشد فى مسألة وحدة النفس وخلودها ، وكانت هذه أهم مشكلة فلسفية فى هذا العهد ، حتى إن طلاب الجامعات كانوا إذا أرادوا أن يختبروا علم أستاذ جديد سألوه فى أول محاضرة له عن مشكلة النفس ، فلما خالف بومبونازى ابن رشد فى وحدة النفس وخلودها ثار عليه كثير من رجال الكنيسة ، وطلبوا من البابا « لاون » العاشر أن يحكم بحرقه ، فلم يجبهم إلى هذا الحكم القاسى ، واكتفى بتكليف بعض أساتذة جامعة بادوفا بنقض رأيه ، فقام جدال عنيف فى هذه المسألة بين فلاسفة هذا القرن ، وكانت وفاة بومبونازى سنة ٩٢٧ هـ = ١٥٢٠ م .

ومن هذا كله نستطيع أن نحكم بأن العلم فى هذا القرن ازداد ضعفاً بين المسلمين ،

وازداد قوة بين أهل أوربا ، وأن هذا سيكون له أثره فى ضعف المسلمين وقوة الأوربيين ، على ما كان من تكافؤ الفريقين فى القوة طول هذا القرن ، ولم يظهر بين المسلمين من أدرك هذه الحقيقة ، وعلم مقدار اهتمام أوربا بالعلم ، وبحث فيما سيكون لهذا من النتائج ، وعمل على درء خطرها قبل وقوعه .

وقد سبق أن بعض علماء المسلمين شكا من انتشار الجهل بينهم فى هذا القرن ، ولكن الشكوى من هذا لا قيمة لها إذا لم تصحب ببيان وسائل الإصلاح ، وتقرن بالعمل الإيجابى المؤدى إلى النهوض ، على أنها كانت شكوى ضعيفة لم تصل إلى حد الثورة ، ولم تبعث على الجهاد فى سبيل النهوض والتجديد .

ولهذا مضى المسلمون فى هذا القرن يبحثون عن مجددهم فيه كما مضوا فى القرون السابقة ، لا يبحثون عنه إلا بين علماء الفقه وما إليه من العلوم ، فمنهم من ذهب إلى أنه شمس الدين الرملى المصرى (٩١٩ - ١٠٠٤هـ = ١٥١٣ - ١٥٩٥م) وكان يقال له الشافعى الصغير ، لأنه كان بارعا فى فقه الشافعى ، وأيد بعضهم أنه مجدد هذا القرن بأنه لم يشتهر الانتفاع بأحد ممن انقضى هذا القرن وهو موجود مثل اشتهاره واحتياج الناس لكتبه ، ولا سيما فيما يتعلق بالعلوم الشرعية ، وذكر صاحب كتاب - خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر - أن هناك فقهاء فى هذا القرن قيل إنهم مجددون ، مثل الشيخ على بن مطير ، والشيخ عبد الملك بن دعسين ، والشيخ محمد البهنسى ، ثم قال : « أين هؤلاء من الرملى ؟ وشهرته كافية فى هذا الباب » والحق عندى أنه لا فرق بين الرملى وبينهم ، لأنهم كانوا جميعا فقهاء مقلدين ، وليس لواحد منهم دعوة تجديدية فى هذا القرن .

وقد يكون الحكيم داود بن عمر البصير الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨هـ = ١٥٩٩م أولى من هؤلاء الفقهاء بأن يكون مجدد هذا القرن ، فقد ذكر صاحب كتاب - خلاصة الأثر - أنه كان رأس الأطباء فى زمانه ، وشيخ العلوم الحكمية ، وأعجوبة الدهر ، وقد نشأ بأنطاكية ، وأخذ فيها العلوم الحكمية عن حكيم رحل إليها من بلاد فارس ، وقد طلب منه أن يعلمه اللغة الفارسية ، فقال له : يا بنى ، إنها سهلة ، ولكنى أفيدك اللغة اليونانية ، فإنى لا أعلم الآن على وجه الأرض من يعرفها أحداً غيرى ، فتعلم اللغة اليونانية من هذا الحكيم الفارسى ، ثم رحل إلى الشام ومصر ، وأقام بالقاهرة يشتغل بالتدريس والتأليف فى العلوم الفلسفية ، ولا سيما علم الطب ، ويقوم بعلاج المرضى ، وكان قد حفظ كثيرا من هذه العلوم ، حتى إنه كان إذا سئل عن شىء منها يملى على السائل فيه ما يبلغ الكراستين ، ولهذا كان يقول : لو رآنى ابن سينا لوقف ببابى ، أو ابن

دانيال لاكتحل بتراب أعتابى . ولكنه مع هذا لم يكن إلا مقلدا فى هذه العلوم ، وليس له فيها شىء من التجـديد ، وأين هو من ابن سينا الذى يدعى أنه لو رآه لوقف ببابه ، وقد كان ابن سينا شيخ الفلاسفة فى عصره ؛ ولم يكن أحد يقاربه بين المسلمين وغيرهم فى علوم الفلسفة ، أما الأنطاكى فلا يُذكر مع من ذكرنا من فلاسفة أوربا فى هذا القرن ؛ ولو عرف شيئا من أمرهم لخفف من فخره بنفسه ، ولم يدَّع أنه لا يوجد أحد على وجه الأرض يعلم اللغة اليونانية إلا هو وشيخه الفارسى ؛ لأن العلم بهذه اللغة كان فى هذا القرن منتشرا فى أوربا ، وقد نقل أهلها كثيرا من كتب الفلسفة بهذه اللغة إلى اللغة اللاتينية ، فكانت معرفتهم بها نافعة مثمرة ، ولم تكن كمعرفة الأنطاكى بها ؛ لأنه لم يترجم منها شيئا إلى اللغة العربية ؛ ومع هذا كله لا يصح جعله مجدد هذا القرن ، وإن كان حاله فيه أحسن من أولئك الفقهاء السابقين .

وإنى أرى أن السلطان سليمان القانونى قد قام فى هذا القرن بشىء من الإصلاح ، وجاهد فى إدخال بعض من التجديد بين المسلمين ؛ ومن أجل ما قام به من هذا استحق لقب القانونى ، وهو لقب يدل على الناحية التى ذهب إليها فى التجديد ، وسيتبين هذا فى دراسته الآتية .

وقد ذكرت فيما سبق أنه كان لأكبر خان ملك الهند أفكار تجديدية جريئة فى هذا القرن ، وذلك أنه عقد مؤتمرا من رجال الأديان ليختاروا دينا جديدا يجمع بين الأديان المختلفة ، ويزيل الفوارق الدينية وما يترتب عليها من أسباب الشقاق بين الطوائف والطبقات ، وهذا تجديد يخرج عن دائرة التجديد الإسلامى ، وكان فى هذا الملك نزعة تجديدية صالحة لو لم يصل فيها إلى هذا الغلو . ومن إصلاحاته إلغاء حرق المرأة بعد وفاة زوجهـا الهندوسى ، ومنع زواج الأطفال ، إلى غير هذا من إصلاحاته فى هذا القرن ، وقد عدل عمـــا أراده من الجمع بين الأديان ، لأنه لم يجد من يوافقه عليه من رجال الدين .

فلم يبق إلا أن ندرس أولا السلطان سليمان القانونى فى هذا القرن ، لأنه أقرب إلى أن يكون مجدده من أكبر خان المغالى فى التجديد ، ومن أولئك الفقهاء الذين لم يخلعوا عن أنفسهم ثوب الجمود ، ثم ندرس بعده شمس الدين الرملى الذى آثره بهذا صاحب كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، ثم ندرس بعده محمد بن بير على البركوى الذى عده السيد رشيد رضا فى المجددين لأنه من رجال هذا القرن ، وقد آثره بهذا على شمس الدين الرملى ، لأنه كان من مدرسة ابن تَيْمِيَّة ، وللسيد رشيد رضا شغف برجال هذه المدرسة ، ولا شك أنهم كانوا أحسن حالا من رجال مدرسة الأشعـرى

كشمس الدين الرملى فى هذا القرن ، لأن رجال مدرسة الأشعرى كانــوا يجارون الجمهور فى جمودهم على ما ألفوه فى الدين ، وكان رجال مدرسة ابن تيمية يخرجون قليلا على هذا الجمود ، ولكنهم لا يصلون إلى كل المطلوب فى الإصلاح والتجديد .



السلطان سليمان القانونى

هو السلطان سَليمان الأول ابن السلطان سليم الأول ، كان عاشر ملوك الدولة العثمانية التركية ، ولد سنة ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤ م ، وتولى الملك سنة ٩٢٦هـ = ١٥٢٠م ، وفتح ملكه بإرسال منشورات إلى ولاة الأمصار مملوءة بالنصح لهم ، وبيان فضل العدل فى الرعية ، وسوء عاقبة الظلم ، وقد بلغت الدولة فى عهده غاية مجدها ، ودخل فيها كثير من بلاد أوربا وأفريقية وآسيا ، حتى صارت أقوى دولة إسلامية فى هذا القرن ، وكان لها نفوذ قوى بين دول العالَم .

وإنما لقب هذا الملك بالقانونى لأنه حدد كثيرا من الأنظمة فى الدولة ، فأدخل تجديدات فى نظام العلماء والمدرسين ، وفى أقسام الجيش ، إلى غير هذا من فروع الدولة ، وقد أنشأ مسجدا عظيما باستانبول ، وأنشأ بجواره عددا من المدارس لتدريس العلوم المختلفة ؛ من علوم الأديان ، إلى علوم الأبدان ، إلى غير هذا من العلوم ، ومنها مدرسة الطب التى ذكر جودت باشا فى تاريخه أنه لم يكن فى أوربا على عهدها مدرسة طب مثلها[1] .

ومن أهم ما قام به فى التجديد إصَلاح القضاء ، وكان القضاء فى الدولة لا يجرى على مذهب واحد ، بل كان فى مصر مثلا يجرى على المذاهب الأربعة ، فكان فيها قضاة أربعة لكل مذهب يحكمون بأحكام مختلفة بين الناس ، فيضطرب أمرهم باختلاف تلك الأحكام ، وقد أرسل قاضيا إلى مصر سنة ٩٢٧ هـ = ١٥٢٠ م ، ليبطل هذا النظام فيها ، ويعزل قاضى القضاة الشافعى والمالكى والحنفى والحنبلى من المصريين ، ويولى قضاة من الترك يقوم بجانبهم قضاة مصريون يترجمون بينهم وبين أصحاب القضايا ، ويدخل ما أراده من التجديدات فى نظام المحاكم ، ومنها تحتيم عقد الزواج فى بيت القاضى أو نائبه فى المدن والأرياف ، وتحتيم دفع قدر من المال فى نظير تدوين وثائق الزواج والطلاق فى دفاتر تحفظ فى المحاكم ، ليرجع إليها فى التقاضى ونحوه ، إلى غير هذا من التجديدات التى قصد بها ضبط الأمور التى يكثر فيها نزاع الناس ، ليرجع إليها فى نزاعهم ، ويمكن تحرِّى العدل فى الحكم بينهم .

ولكن هذا لم يعجب أنصار الجمود على القديم من علماء مصر ، فثاروا عليه باسم الدين ، وثار معهم العامة وأشباه العامة ، بل ثار معهم النساء أيضا ، لأن ذلك القاضى

---

(١) تاريخ جودت ص ١٢٢ .

التركى رآهن يتمتعن فى مصر بما لا يتمتع به نساء الترك ، فيخرجن إلى الأسواق ، وإلى دور اللهو ، وإلى الحمامات ، وإلى زيارة أقاربهن ، فمنعهن من هذا كله ، وكان هذا سببا فى اشتراكهن فى هذه الثورة ، ولا سيما حين أشيع بينهن أنه يريد أن يأخذهن بما يؤخَذ به النساء التركيات ، فيحتم عليهن إرجاع نصف المهر إلى أزواجهن عند الدخول بهن ، ولا يجعل لهن كسوة ولا نفقة على أزواجهن ، بل تغزل المرأة فى بيتها ، وتكسو نفسها وزوجها ، وما أظن أن النساء التركيات كن يؤخذ بمثل هذا لأن دولتهن كانت تجرى على مذهب أبى حنيفة ، وليس فيه شىء مما أشيع بينهن .

ولو أن أولئك العلماء ثاروا على حرمانهم من المراتب العليا فى القضاء ، وغضبوا لرفع درجة قضاة الترك فوق درجتهم ، لحمدت لهم الثورة على ظلمهم ، ولكنهم ثاروا على تلك التجديدات ، وحكموا بأنها مخالفة للدين ، وكان من زعمائهم فى ذلك الوقت شمس الدين محمد اللقانى المالكى ، وشمس الدين محمد الديروطى الشافعى ، فجمعا وفدا من العلماء إلى الوالى التركى ، فلما اجتمعوا عنده قالوا له : « أبطلتم سنة الرسول، وصرتم تأخذون على زواج البكر ستين نصفا ، وعلى زواج الثيِّب ثلاثين نصفا ، وهذا يخالف الشرع الشريف ، وقد عقد رسول الله ﷺ على خاتم فضة . وعلى ستة أنصاف، وعقد على آية من كتاب الله تعالى ، وهذا كله لا شىء فيه شرعا » . ولكنه لم يكن يعرف الشرع فقال لهم : هكذا أمر السلطان ، ولا يمكن أن أخالف أمره ، فقالوا له : هذا كفر لا تصح الطاعة فيه . فغضب الوالى وقبض على بعضهم ، فخرجوا غاضبين إلى الجامع الأزهر ، وجمعوا علماءه وطلابه ، وقصوا عليهم ما جرى لهم ، فأضربوا عن دروسهم ، وأغلقوا المساجد والزوايا ، وأقاموها فتنة عمياء لا تسمع ولا تبصر .

فلم يجد الوالى إلا أن يأخذهم بالمال ، لأنهم لم يثوروا عن عقيدة صحيحة ، وإنما عادَوْا ذلك التجديد جهلا بالدين ، وجمودا على ما ألفوه من قديم ، وتقليدًا لما وجدوا عليه آباءهم من قبلهم ، ومن يثور لغير سبب صحيح يكون من السهل تسكيته بالمال ، فأخذ الوالى يبذل أموالا كثيرة للثائرين فى المساجد والزوايا ، حتى أخمد فتنتهم ، وأسكتهم عن إنكار تلك التجديدات ، فأظهروا الرضا بها وهم ينكرونها فى أنفسهم ، لأنهم لم ينكروها عن دليل ، وإنما أنكروها عن جهل وتقليد ، وكذلك لم يرجعوا عن إنكارهم بدليل ، وإنما رجعوا عنه بالمال ، ولهذا أظهروا ما كان كامنا فى نفوسهم عند نقل ذلك القاضى من مصر ، وتغالوا فى إظهار فرحهم بنقله ، حتى إن النساء خرجن فى شوارع القاهرة يرقصن ويطبلن ويصفِّقن ، ويرفعن أصواتهن بقولهن :

قوموا بنا نقحب نسكر فقد خرج قاضى العسكر

ولكن هذه التجديدات التى قام بها السلطان سليمان لم تكن من صميم التجديد ، ولم تكن تضاهى تلك النهضة التى قامت بها أوربا فى هذا القرن ، فلا يوجد فيها ثورة شاملة على الجمود الدينى كثورة مرتين لوثر ، ولا ثورة شاملة على الجمود العلمى كثورة كوبرنيكوس ، وهذا إلى أن السلطان سليمان لم يدرك خطر ما وصلت إليه أوربا من النهضة فى هذا القرن ، ولم يعرف ما سيترتب من النتائج على كشفها أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح ، وهذا كتاب منه إلى ملك فرنسا يبين مقدار عقليته ، وكيف عجزت عن إدراك التجديد اللازم فى هذا القرن :

« بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته ،وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء ، وقدوة فرقة الأصفياء ، محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وجميع أولياء الله - أنا سلطان السلاطين ، وبرهان الخواقين ، متوِّج الملوك ، ظل الله فى الأرضين ، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود ... إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا ، وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الخ » .

فهذا الكتاب يدل على أن هذا السلطان لم يكن يدرى أن هذه الدولة التى يغالى فى عظمتها تدب فيها أمراض قاتلة ، من أشدها هذا الغرور بعظمتها ، والغفلة عن الأحداث البشرية التى سيكون لها أشد تأثير فيها ، ومن أشدها الاستهانة بدولة فرنسا وغيرها من الدول الناشئة فى أوربا ، وكان من حسن سياستها معه أنها كانت ترضى تعاظمه عليها بهذا الشكل ، لتستفيد منه امتيازات فى دولته لم يستفد مثلها منها ، وكانت امتيازات ماكرة لا يدرى نتائجها ، ولا يعرف ما سيترتب عليها من إلقاء فريق كبير من رعاياه فى أحضان هذه الدول ، وهذا إلى ما فى ذلك الكتاب من عقلية متأثرة بجهلة المتصوفة إلى حد كبير ، ومن إصرار على جمود خاطىء بأن السلطان ظل الله فى الأرض ، وهى نظرية الحق المقدس ، أخذها الملوك المستبدون فى الإسلام عن ملوك الفُرس والروم ، وقد تأثر بها هذا السلطان فى حكمه ، فلم يجعل لرعيته شيئاً فى هذا الحكم ، وإنما كان المتسلط عليه فيه زوجه خورّم ، أى الباسمة ، وهى روكسلان الروسية المعروفة فى كتب الأوربيين ، وكان له نساء غيرها ، وله أولاد منهن أكبرهم يسمى مصطفى ، وكان ولىَّ عهده من بعده ؛ فلما رزقت منه بابنها سليم عملت على الإفساد بينه وبين أولاده ، ليكون ابنها سليم ولى عهده من بعده ، ولو ترتب على هذا ما ترتب من الفتن والفساد فى الدولة ، ولم تزل تفسد بينه وبين ابنه مصطفى حتى قتله بتهمة الخيانة ، ولم تكتف بقتله بل أرسلت إلى ابن له رضيع مَن قتله بعد أبيه . وكان لمصطفى أخ يسمى جهانكير ؛ فمات غمـا وحزنا بعد قتل أخيه

بقليل ، وكان لهما أخ يسمى بايزيد فقتله أبوه أيضا ، وقتل أربعة أولاد له معه . ولولا هذه المرأة لكان حال السلطان سليمان أحسن من هذا الحال ، ولأمكنه أن يعمل فى الإصلاح أكثر مما عمل ، ولكنه سوء حظ المسلمين فى هذا القرن ، أن يكون لهم مثل هذه المرأة المفسدة ، وأن يكون لأوربا نساء يعملن ما سبق فى الكلام على نهضة أوربا فى هذا القرن ، مثل إيزابيلا زوج فردينند ملك أسبانيا ، فقد سبق أنها هى التى جهزت خريستوف كولمبوس بما يلزمه لكشف أمريكا ، ولكن نساء المسلمين فى ذلك العهد كن قد انقطعن عن المجتمع ، وصرن سجينات فى بيوت بعولهن ، فخيَّم الجهل على عقولهن ، ولم يكن يهمهن إلا شهواتهن ، وإلا ما يتصل بتلك الشهوات من الأثرة وحب النفس ، وإيثار هذا على مصلحة الدين والوطن ، وجر فسادهن إلى فساد الرجال ، لأن الأم هى المدرسة الأولى للأولاد ، فإذا صلحت صلح حالهم ، وإذا فسدت فسد حالهم ، وكان لهذا أسوأ أثر فيهم .

وكان لهذه المرأة ما أرادت بعد أن حرضت زوجها السلطان سليمان على قتل أولاده من غيرها ، فتولى ابنها سليم السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٩٣٠ هـ = ١٥٣٣ م ، مع أنه لم يكن أهلاً لتولى السلطنة بعده ، فكان عهد سلطنته مبدأ عهد الانحطاط فى هذه الدولة .



شمس الدين الرملى

هو محمد بن أحمد بن حمزة الرملى المنوفى الأنصارى ، ولد سنة ٩١٩ هـ = ١٥١٣ م ، وقد ذكر الشعرانى فى طبقاته الوسطى أنه صحبه من حين كان يحمله على كتفه إلى أن كبر - وكان تلميذاً لوالده - فما رأى عليه ما يشينه فى دينه ، بل كان فى صغره لا يلعب مع الأطفال ، فنشأ على الدين والتقوى والصيانة وحفظ الجوارح ونقاء العرض ، وقد رباه والده فأحسن تربيته ، ثم اشتغل عليه فى الفقه والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والتاريخ ، واستغنى به عن التردد إلى غيره ، وحفظ القرآن والبهجة وغيرها من المختصرات ، وقد حكى بعضهم عن والده أنه قال : تركت محمدا بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا فى النادر ، وأخذ أيضاً عن شيخ الإسلام القاضى زكريا الأنصارى ، وبرهان الدين بن أبى شريف ، وكذلك أخذ عن غيرهما ، وكان عجيب الفهم ، قوى الحفظ ، فجمع بين الحفظ والفهم ، والعلم والعمل .

ثم جلس بعد والده للتدريس ، فدرّس التفسير والحديث والأصول والفروع والنحو والمعانى والبيان ، وبرع فى العلوم النقلية والعقلية ، وحضر درسه أكثر تلامذة والده ، وممن حضره ناصر الدين الطبلاوى ، مع أنه كان فى مقام أبنائه ، فليم على هذا وسئل عن الداعى إلى ملازمته له ، فقال : لا داعى لها إلا أنى أستفيد منه ما لم يكن لى به علم ، وقد قصد الرملى طلابُ العلوم من كل الأقطار ، حتى طار صيته فى الآفاق ، وعمت شهرته البلاد ، واستحق بين أهل عصره لقب الشافعى الصغير ، لأنه كان مرجع أهل مصر وغيرها فى تحرير الفتاوى الفقهية ، وكان يلى منصب إفتاء الشافعية فى مصر .

ومن تآليفه شرح المنهاج ، وشرح البهجة الوردية ، وشرح الطريق الواضح للشيخ أحمد الزاهد ؛ سماه عمدة الرابح ، إلى غير ذلك من الشروح ، وله حاشية على شرح التحرير لشيخ الإسلام زكريا وحاشية على العباب ، وغير ذلك من الحواشى ، والظاهر أنه كان من أوائل من ألف هذه الحواشى التى ظهرت بعد الشروح ، ثم أتى بعده من ألف تقارير على هذه الحواشى ، وهذا من الإمعان فى هذه الطريقة الفاسدة التى عُنيت بشرح مختصرات المتأخرين فى العلوم ، وشغفت بالتعليق عليها إلى أن يصل إلى الحواشى والتقارير ، وقد تعلق الناس بهذا النوع من التأليف ، حتى أهملوا النظر فى كل كتاب ليس عليه شرح وحاشية وتقرير ، لأن هممهم ضعفت ، وعزائمهم فترت ، وأفهامهم ركدت ، فلا يمكنها أن تنفرد بفهم كتاب ليس عليه شرح وحاشية وتقرير ، وكان لهذا أثره فى اشتهار

كتب الرملى فى جميع الأقطار ، حتى صارت عمدة الشافعية فى أخذ مذهبهم عنها ، وإهمال ما عداها من كتب المتقدمين .

ولهذا رجح بعضهم أنه مجدد القرن العاشر ، لأنه لم يشتهر الانتفاع بأحد ممن انقضى القرن وهو موجود مثل اشتهاره ، ولم يحتج الناس إلى كتب غيره مثل احتياجهم إلى كتبه ، لا سيَّما فيما يتعلق بالعلوم الشرعية وقد رأى بعضهم أن المجدِّد فى القرن العاشر الشيخ على بن مُطَير ، وقيل إنه عبد الملك بن دُعسين ، وقيل إنه الشيخ عبد القادر ابن شيخ صاحب كتاب - النور السافر عن أخبار القرن العاشر - وقيل إنه الشيخ محمد البهنسى ، وقد عقَّب على هذا صاحب كتاب - خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر - بقوله : أين هؤلاء من الرملى صاحب الترجمة - يعنى ترجمته له فى هذا الكتاب - وشهرته كافية فى هذا الباب ، ثم ذكر أنه توفى سنة ١٠٠٤ هـ = ١٥٩٥ م .

والحق أن الرملى وأمثال الرملى لم يأتوا بشىء يستحقون به تلك الشهرة فى هذا القرن ، لأنهم لمن يكن لهم أثر إلا التعليق على تلك المختصرات بما وضعوه عليها من الشروح والحواشى ، ولم يكن لهم أثر فى ذلك التعليق إلا أنهم رجعوا إلى المبسوطات التى اختصرت منها تلك المختصرات ، فاستعانوا بها فيما وضعوه على تلك المختصرات من الشروح والحواشى ، ولم يزيدوا على ذلك شيئاً يستحق أن يذكر لهم ، أو يستحقون به أن يكونوا مجددين فى هذا القرن ، وهذا إلى أن تلك الطريقة فى التأليف هى التى كان لها أثرها فى الجمود على تلك المختصرات ، وفى الوقوف عند حدها فى العلوم التى وضعت فيها ، وكانت قد شاعت حتى وصلت إلى العلوم الفلسفية ، من الطبيعيات والرياضيات والإلهيات ، فكان لها أسوأ الأثر فيها ، لأنها جعلت الناس يكتفون فيها بتلك المختصرات التافهة التى تناولت مسائلها بطريقة عقيمة ، بينما كانت أوربا فى هذا القرن تتوثب للنهوض ، وتتطلع إلى العلماء الذين يقودونها فى ميدان التجديد ، ولا تتطلع إلى أمثال الرملى ممن كنا نتطلع إليهم فى ذلك العصر المنكود ، ونقول فيهم كما قال صاحب كتاب - خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر - فى الرملىّ : وذهب جماعة من العلماء إلى أنه مجدد القرن العاشر ، ووقع الاتفاق على المغالاة بمدحه ، وهو أستاذ الأستاذين ، وأحد أساطين العلماء وأعلام نحاريرهم ، محيى السُّنة ، وعمدة الفقهاء فى الآفاق ، وفيه يقول الشهاب الخفاجى ، وهو أحد من أخذ عنه :

فضائله عدُّ الرمال فمن يطق ليحوىَ معشار الذى فيه من فضل
فقل لغبى رام إحصاء فضله تربتَ استرحْ منْ جهد عدك للرمل

ولكنهم كانوا معذورين فى ذلك ، لأنهم ما كانوا يعلمون شيئاً من حال العالم فى

عصرهم ، ولا يعلمون أن قارَّة جديدة هى نصف الكرة الغربى قد كشفت ، ولا أن أهل أوربا قد وصلوا إلى الهند من طريق رأس الرجاء الصالح ، فليمضوا فيما هم ماضون فيه من الجهل بحال العالم فى عصرهم ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

وكان أولئك الذين قيل إنهم مجددون فى هذا القرن من طراز الرملي فى العلم ، ولم يكن هناك فرق كبير بينه وبينهم ، فالشيخ على بن مُطير كان من علماء اليمن ، وقد ولد سنة ٩٥٠ هـ = ١٥٤٣ م ، وتوفى سنة ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م ، ولا أثر له إلا مختصر التحفة لابن حجر ، والديباج على المنهاج ، وكشف النقاب بشرح ملحة الإعراب للحريرى ، وكذلك كان شأن غيره ممن ذكر معه .



محمد بن بير على البركوى

هو زين الدين محمد بن بير على محيى الدين المشهور باسم بيركلى أو بركلى أو بركوى ، ولد سنة ٩٢٩ هـ = ١٥٢٢ م ، وتوفى سنة ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ م ، وكان من قصبة بالى كسرى ، وكان أبوه رجلا عالما من أصحاب الزوايا ، فنشأ فى كنف أبيه يطلب العلم والمعارف ، ويسعى فى التحصيل والاستفادة من علماء عصره ، وكان ملازما للمولى عبد الرحمن أحد قضاة العسكر فى عهد السلطان سليمان القانونى ، ثم اتصل بخدمة الزاهد المرشد عبد الله القرمانى البيرامى ، فخدمه مدة من الزمن ، واستفرغ مجهوده فى العبادة والزهد ، ثم أمره شيخه المذكور بمدارسة العلوم ، والتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد حصل بينه وبين المولى عطاء الله محبة زائدة ، ومودة شديدة ، فأقبل عليه بحسن الالتفاف ، وبنى مدرسة فى قصبة بركى وفوض تدريسها إليه ، وجعل له راتبا كل يوم ستين درهما ، فكان يدرس فيها تارة ويعظ أخرى ، فقصده الناس من كل فج ، واجتمع عليه الطلبة من جميع البلاد ، فانتفع الناس بما كان يلقيه عليهم من دروس الوعظ ، وانتفع الطلبة بما كان يلقيه عليهم من دروس العلم .

واشتغل أيضا بالتأليف ، فشرح مختصر البيضاوى فى النحو ، وألف متنا فى علم الفرائض ، وله فى الحديث وتفسير القرآن والفقه تعاليق ورسائل اخترمته المنية قبل إتمامها ، وهى فى هذا النوع من التأليف الذى شغف العلماء به فى هذا القرن ، وهو التأليف الذى لا يتجاوز اختصار كتاب من الكتب المبسوطة ، أو شرح مختصر من المختصرات التى عرفت باسم المتون ، فهو فى هذا مثل شمس الدين الرملى وغيره من علماء هذا القرن ، فلم يكن لهم إلا معرفة ضعيفة بعلم الفقه وما إليه من العلوم التى عكفوا عليها ورضوا بها ، وجمدوا على الأخذ بالتقليد فيها ، فلم يدروا شيئا من حال العالم فى هذا القرن ، ولم يعرفوا ما يلزم المسلمين للنهوض بهم بين الأمم ، حتى حلت الكارثة بهم ، وضاعت بلادهم بغفلة علمائهم عما يلزم لرفع شأنهم .

ثم كان من البركوى فى آخر عمره أن رحل إلى - إستانبول - ودخل مجلس الوزير محمد باشا ، وكلمه فى قمع الظلمة ودفع المظالم عن البلاد ، وكان شديدا فى وعظه له ، لأنه لم يكن يخشى أحدا فيما أخذ به نفسه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأخذ يقوم بالوعظ فى إستانبول ، ويعمل على رفع المظالم عن الرعية ، ولكن وعظه كان يذهب كأنه صرخة فى واد ، فلم يتأثر به أحد من عامة الناس وخاصتهم ، لأن الناس سئموا هذا

الأسلوب القديم فى الوعظ ، وكانوا فى حاجة إلى أسلـوب جديد لا يكتفـى بمحاربة الظلم ، لأنه موقف سلبى لا يؤدى إلى الإصلاح المطلوب للمسلمين ، وإنما يؤدى إليه محاربة جمود العلماء ، وفتح باب الاجتهاد فى العلوم ، وكان البركوى من العلماء الجامدين ، ولا يذكر فى تاريخه إلا أنه كان لا يرى الاستئجار على تلاوة القرآن وتعليم العلوم ، ومثل هذا لا يدرجه فى سلك المجددين ·

وقد سبق أن السيد رشيد رضا هو الذى عده من المجددين ، وأنه مضى فى هذا على مذهبه فى إيثار رجال مدرسة ابن تيمية بلقب التجديد ، ولكن البركوى لا يشبه رجال هذه المدرسة إلا فيما كان من شدته فى إنكار المنكرات ، وأنه لم يكن يخشى فى ذلك أحدا من ذوى السلطان فى عصره ·





حال العالم فى القرن الحادى عشر الهجرى

يمتد القرن الحادى عشر الهجرى من سنة ١٥٩٢ ، إلى سنة ١٦٨٨ م ، وقد كانت الدولة العثمانية التركية فيه أكبر الدول الإسلامية ، ولكنها أخذت تفقد ما كان لها من قوة بين دول العالم ، لأن ملوكها أخذوا يشتغلون بملذاتهم وشهواتهم ، ويهملون شؤون دولتهم ، وقد تولى حكمها فى أوائل هذا القرن السلطان محمد الثالث ابن السلطان مراد الثالث ، وكانت أمه إيطالية سباها لصوص البحر ، فاصطفاها السلطان مراد الثالث لنفسه ، وكان لها نفوذ كبير فى دولته ، وكثيرا ما كانت تستخدم نفوذها فى مصلحة بلادها الأصلية ، وإن كان فيه ضرر على مصلحة دولة زوجها ، وقد سبق مثل هذا فى عهد. السلطان سليمان الأول ، ولا يبعد أن تكون تلك النساء جاسوسات دُسِسْن من دول أوربا ، ليكنَّ عيونا لها على ملوك هذه الدولة ، وبدأ ابنها السلطان محمد الثالث حكمه بقتل تسعة عشر أخا له ، على تلك العادة الشنيعة التى كان سلاطين هذه الدول يبتدئون بها حكمهم ، وتولى بعده السلطان أحمد الأول وهو لا يجاوز أربع عشرة سنة ، وكان له أخ يسمى مصطفى ، فأمر بحبسه فى قصره بين الخدم والجوارى ، فمكث بينهم لا يخرج نهارا ولا ليلا ، ولا يدرى شيئا من أمور الدولة ، ولا يعرف شيئا مما يجرى فى العالم ، إلى أن آل إليه الحكم بعد أخيه وهو على هــذا الحال ، فلم يعرف كيف يسير فيه ، ولهذا ثار عليه الإنكشارية وعزلوه ، فتولى الحكم بعده السلطان عثمان الثانى ابن السلطان أحمد الأول ، وابتدأ حكمه بقتل أخيه محمد على عادتهم ، ثم أراد أن يتخلص من الإنكشــارية ، وينشىء جيشا جديدا للدولة ، لأنهم كانوا قد مالوا إلى الراحة والكسل ، وسئموا القتال والحرب ، فثاروا علــيه وقتلوه ؛ وأعادوا السلطان مصطفى الأول إلى الحكم ؛ فصار ألعوبة فى أيديهم ؛ حتى ساءت حال الدولة ؛ وانتشرت الفتن الداخلية فيها ؛ فلم يجد الإنكشارية إلا أن يعزلوه ثانيا؛ فتولى بعده السلطان مراد الرابع، فالسلطان إبراهيم الأول ، فالسلطان محمد الرابع ، وكانت الإنكشارية هى التى تولى وتعزل هؤلاء الملوك ، حتى اضطرب أمر الدولة وانتشر الفساد فيها ، ولكن الله أراد أن يصلح شيئاً من حولها ، فقام

فيها على عهد السلطان محمد الرابع الوزير المشهور محمد باشا المعروف بكوبريلى ، وقد تولــى الوزارة من سنة (١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦م) إلى أن توفى سنة١٠٧٢هـ = ١٦٦١م ، فأخذ الأنكشارية بالشدة والحزم ، وقضى على الفتن فى البلاد ، وكان قد أوصى السلطان قبل موته أن يولى ابنه أحمد الوزارة بعده ، فولاه الوزارة إلى أن توفى سنة ١٠٨٧ هـ = ١٦٧٦ م ، فقام فيها كما قام أبوه قبله ، حتى استقام حال الدولة فى عهده ، ثم تولى الوزارة بعده وزراء لم يكونوا مثله ولا مثل أبيه ، فعاد الفساد فى الدولة إلى مثل ما كان عليه قبلهما ، ولم يزل حالها ينتقل من سيء إلى أسوأ ، إلى أن عزل السلطان محمد الرابع سنة ١٠٩٩ هـ = ١٦٨٧ م ، وكان أولئك الوزراء من عناصر أجنبية لا يهمها مصلحة الدولة ، بل كان بعضهم جواسيس من الدول الأوربية أظهروا الإسلام، ليمكنهم الوصول إلى هذا المنصب ، ويعملوا على نشر الفساد فى الدولة ، ويساعدوا دعاة الرجعية والجمود من الإنكشارية وغيرهم ، ويقضوا على كل إصلاح يقوم به المصلحون لدولتهم .

وكان فى هذا القرن بالمشرق دولتان أخريان :

إحداهما : دولة الصفويين بفارس ومن أعظم ملوكها فيه الشاه عباس ، وقد وصلت هذه الدولة فى عهده إلى غاية مجدها ، فاسترد من الدولة العثمانية ما أخذته منها ، واستولى على مدينة بغداد والموصل وديار بكر ، كما استولى على قندهار من بلاد الهند .

والثانية : الدولة المغولية بالهند ، وكان يحكمها فى أوائل هذا القرن جهانجيزخان (١٠١٤ - ١٠٣٧ هـ = ١٦٠٥ - ١٦٢٧ م) وفى عهده وصل أول مندوب عن شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، فأكرم وفادته وأذن له بإنشاء مصنع للشركة فى مدينة سورات ، ولم يكن هذا الملك محمود السيرة ، بل كان يكثر من شرب الخمر ، ويسرف فى الملذات والشهوات ، وملك بعده شاه جهان (١٠٣٨ - ١٠٦٩ هـ = ١٦٢٨ - ١٦٥٨ م) وكان أول ملك مغولى أبطل عادة ركوع الناس وسجودهم لملوكهم فى مقابلاتهم ، ولكنه كان قاسيا فى معاملة الهندوس ، فخالف بهذا سُنة أكبرخان فى الإحسان إليهم ، لأن المسلمين كانوا أقلية بينهم ، وكان من حسن السياسة إحسان معاملتهم ، ولا سيَّما عند ظهور الأجانب الطامعين فى الهند من البرتغاليين وغيرهم ، وعمل هذا الملك على طرد البرتغاليين من الهند لما ظهر من طمعهم فى الاستيلاء عليها ، فلم يزل يطاردهم حتى قضى على أطماعهم فى إنشاء مملكة لهم فيها ، ثم ثار عليه أبناؤه فى آخر عهده ، فقامت حروب داخلية فى الهند انتهت باعتزاله الملك ، فتولى بعده ابنه أورنك ذائب ، وهو المعروف بلقب عالم جير أى ملك العالم ، ويعرف عند الأوربيين باسم أرنج ذيب (١٠٧٠ - ١١١٩هـ =

١٦٥٩ - ١٧٠٧ م) وقد خالف سنة سلفه فى إيثار الشهوات والملذات ، وعاش عيشة زهد وتقشف ، وأراد أن يعيد بهذا عهد السلف الصالح ، ولكنه ازداد فى القسوة على الهندوس ليحملهم على الإسلام ، فأعاد فرض الجزية عليهم،وكانوا قد أعفوا منها من عهد أكبرخان وعوملــوا فى الخراج مـعاملة المسلمين،وقد أثارهم هذا على حكم المسلمين ، وقامت بسببه حروب كثيرة لعب فيها الإنجليز وغيرهم من الأوربيين بين الفريقين ليضعفوهم جميعاً ، ويظفروا بعد هذا بمطامعهم فى الهند ، وليت عالم جير اكتفى بهذا ولم يضف إليه مخاصمة مسلمى الشيعة بالهند ، لأنه كان من أهل السنة ، فأثار الشيعة بهذا عليه أيضا ٠

وأما المغرب الإسلامى فقد كان به فى هذا القرن دولة السعديين بمراكش ، وكانت دولة صغيرة كما سبق فى القرن السابق ، وكان ما بقى من بلاد المغرب من الجزائر وتونس وطرابلس فى حكم الدولة العثمانية التركية ٠

وبهذا يمكننا أن نحكم بأن حالة المسلمين السياسية فى هذا القرن كانت أسوأ منها فى القرن السابق ، وكذلك كانت حالهم العلمية فى هذا القرن ، وقد ذكر شهاب الدين الخفاجى فى كتابه « ريحانة الألبا » أن كبار علماء القسطنطينية - إستانبول - اندثروا فى زمانه ، وأن السلاطين والوزراء اجترؤوا على قتل العلماء ، حتى اندثر العلم ، وغلب الجهل ، وقام بالقضاء والفتوى من هو غير أهل لهما ، ثم ذكر أنه شكا هذا لوزير الدولة ، فإذا هو كما قيل :

هذا الوزير ولا أَزْرَ يُشَدُّ به   مثل العَروض له بحر بلا ماء

وكان شهاب الدين الخفاجى من علماء هذا القرن ، وقد فصَّل هذا الحديث جودت باشا فى كتابه - تاريخ جودت - فقال : « ومن بعد سنة ألف أخذت قوانين الطريقة العلمية ونظاماتها تتغير ، حتى دخل التسامح فى كل أمر ، وكثر التداخل فى المصالح ، حتى قضت الأحوال بإعطاء المناصب إلى غير من يستحقها ، فصار قضاة العسكر يُعزلون لغير ذنب فى مدة وجيزة ، فالذين ابتُلوا منهم بالطمع صاروا يحسبون زمان توليتهم فرصة اغتنموها ، فكانوا يوجِّهون المناصب إلى غير أهلها ، وصار الملوات - العلماء - يبيعون أوراق الملازمة أيضاً ، كما أن أوراقهــا صارت تعطى بزيادة عن قانونها ونظامها وبغير طريقها ، وحيث إنها مدخلٌ لطريقتى التدريس والعلماء ، فباختلال نظامها اختلَّ هذان الطريقان أيضاً ، وصار عوامُّ الناس وأمراء المقاطعات والضباط ملازمين بواسطة الدرهم والدينار ، وفى برهة يسيرة صاروا مدرِّسين وقضاة ، فامتلأ صحن العلم بالجهلة ، ولم يتميز العالم من الجاهل ، وبينما كان يشتغل المدرسون بتدريس العلوم فى مدارسهم ، تركوا شرط الخدمة الفعلية ، وصار مدرس المدرسة يعتبر وجوده فى ذلك الصنف المعدود منه شيئا

وهميا ، وما برحت هذه الأمور تزداد شيئاً فشيئًا ، حتى صار المدرسون لا يذهبون إلى مدارسهم ، وربما لا يسألون عن محلها ، وفى أيّ جهة هى ، وبعد أن صارت المدارس خرابا واحترقت ولم يبق إلا عرصاتها ، كان يوجّه التدريس إلى مدارس وهمية كاسم بلا جسم ، وكثر عدد المدرّسين ، وتنوسىَ أمر التدريس الذى هو من وظائف المدارس ، وصارت وظيفة التدريس عبارة عن ترفيع الدرجة بالنقل من مدرسة إلى أخرى ، أو عن مجرّد ترفيع الرتبة ، على أنه كان الامتحان الأصولى الذى وضع لأجل منع الذين هم ليسوا من أهل هذه الطريقة ما برح مرعيّ ، غير أنه كان مخصوصًا بطلبة المدارس القانونية، وبقى باب أخذ الرؤوس بلا امتحان مفتوحا لذوى البيوت المعتبرة ، وبعض المنسوبين ، أما أبناء الصدور والقضاة فإنهم ينالون وظيفة التدريس على حداثة سنهم ، ثم لا يلبثون أن يترقّوا في الوظائف ، حتى إن الواحد منهم كانت تأتيه نوبته فى المولويّة قبل أن يدبّ عذاره، وقد كان يوجد بينهم من اكتسب الكمال وحصل العلوم فى ذلك الوقت ، ولكن أكثرهم كانوا ينظرون إلى المناصب والمراتب العلمية بنظر الإرث الأبوىّ ، فلا يكلفون نفوسهم مشقة التعلم ، ولذلك استمرّوا فى الجهالة ، وأخذ الوزراء وبعض رجال الدولة فى إدخال أولادهم وكثير ممن لا فائدة فيهم فى الطريقة العلمية ، حتى امتلأت هذه الطريقة بأهل الجهل ، واستوى فى الترقى العالم والجاهل ، فنقص جاه العلماء ، ولم يبق لهم قدر ولا اعتبار عند الدولة ولا عند الناس ، حتى إنهم كانوا يعزلون بإشعار من جهة الملتزمين والجباة ، واضطرّ من وُجدَ بينهم من العلماء والصلحاء إلى مداراة الظلمة للمحافظة على ناموسهم وشرفهم ، وعلى كل حال لم يحصل فى طريق التدريس ما حصل فى طريق القضاء ، بل كان أهون حالا وذلك أن نظام المعارف فى المدارس وإن كان قد اختلّ فإنه يعرف ولو بصورة رسمية ، وأصول الامتحان للرؤوس والملازمة فى مدرسة بايزيد لم تزل باقية ، ولكن الوضع الأصلى للطريقة العلمية أصبح مختلا ، بحيث لم يبق إلا الاسم والرسم فقط ، أما الاسم فصارُ مخالفا للمسمّى ، وأما الرسم فأضحى مباينا لأصول العلماء المستحسنة ، فصار هذا الأمر سببا لبدع شنيعة ، وهى استعمال سفلة القوم وجهلتهم الذين لا يقرؤون ولا يكتبون كالملاحين والخدمة فى منصب القضاء ، بل كان علة لرواج البطالة والجهل بالطرق العلمية ، ولوقوع مضرّاتٍ عظيمة لا تخطر فى البال ، فى أمر إحقاق حقوق العباد ، وهذا الأمر قد استشعر بقبحه ولزوم إصلاح الخلل الواقع فيه ، ورؤى ذلك من أهم الأمور ، غير أن إزالته دفعةً واحدة مما لا يمكن ، فلذلك كانت المقاصد متوجهة للإصلاح بالتدريج .

ولا غرابة بعد هذا فى أن يقوم علماء - إستانبول - ويقعدوا فى هذا القرن لأن تركيًا

من أهلها أراد أن ينشىء مطبعة فيها ، فيفتوا بأن المطبعة رجس من عمل الشيطان ، ويحولوا دون إنشائها ، مع أنه كان يوجد بها مطبعة عبرية لليهود من القرن السادس عشر الميلادى ، وكان يوجد بالشام فى دير « فرجيا » مطبعة سريانية وعربية من أوائل القرن السابع عشر الميلادى ·

وكذلك كان حال الأزهر فى هذا القرن ، وكان أشهر جامعة علمية للمسلمين فيه ، وإن كانت مصر قد صارت ولاية من ولايات الدولة العثمانية التركية ، فقد ذكر صاحب كتاب - خلاصة الأثر - فى الكلام على شمس الدين الشوبرى الشافعى أنه كان يلقَّب شافعىَّ زمانه ، وأنه كان آخر من درّس فى الأزهر مختصر المُزُنى وشرح الرَّوْض والعباب وغيرها من الكتب القديمة المطولة ، لأن العلماء بعده قصرت عنها عزائمهم فآثروا كتب المتأخرين عليها ·

وبهذا زاد حال العلم سوءًا بين المسلمين فى هذا القرن ، حتى أفتى شيخ الإسلام بالدولة العثمانية التركية بإرث ابن العالم لوظيفته ولو لم يكن عالما ، فانحط شأن العلماء وارتفع شأن جهلة المتصوفة ، حتى ذكر صاحب كتاب - خلاصة الأثر - أن رجلا مجذوبا يسمى فايدا المصرى كان يقيم بباب الجامع الأزهر ، وأن كبار العلماء كانوا يبالغون فى اعتقاده والخضوع له ، فإذا زاره واحد منهم وقف بين يديه ، فإن أشار إليه بالجلوس جلس ، وإلا لبث واقفا حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه ·

وقد استفتى شخص يسمى مصطفى الرومى فى أواخر هذا القرن اثنى عشر عالما من الأزهر عن ذكر الله بطريقة الدمرداشية والخلوتية والشنَّاوية ، وعن الهوية عندهم وهى دورانهم فى حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها فى بعض، ثم يقولون: هو هو هو ··· فأجابه عن السؤال الأول أبو الخير المرحومى الشافعى ومحمد الأحمدى الشافعى ، ومحمد المهلهل المالكى ، وأحمد الأزهرى ، وعبد ربه البربرى الشافعى ، وأبو الصفا الشنوانى ، وعلى بن عامر الأنبابى المالكى ، وأجابه عن السؤال الثانى أبو العز بن أحمد العجمى الشافعى الوفائى ، والشهاب الرملى ، وعبد الحى الشرنبلالى ، وسليمان الشبراخيتى المالكى ، ومحمد الخليل الشافعى ، وكلهم من علماء الأزهر ، وقد أجابوه بجواز ما يفعله أهل تلك الطرق الصوفية مما استفتاهم فيه ، فحمل هذه الفتوى منهم إلى الشيخ عبد الغنى النابلسى المتصوف ، وأطلعه عليها فذكرها فى رحلته[1] وكان من أعلام التصوف فى هذا القرن ، وقد سأله الأزهريون فى زيارته للجامع الأزهر أن يُلقى عليهم درسا فى الحديث فاعتذر بأن هذا يُنقص مما هو فيه من ممارسة علوم الحقائق ·

---

(١) الحقيقة والمجاز ص ١٣٣ - ١٣٧ ·

وأنكر بعض متفقهة هذا القرن على أولئك المتصوفة ، ولكن إنكارهم كان فى الغالب لأجل المنافسة على الدنيا ، ولهذا كان إنكارهم فى الغالب على المتصوفة من المتفقهين ، دون غيرهم من المتصوفة الأميين ، ومن ذلك أن المناوى لما تولى التدريس فى المدرسة الصالحية ثار علماء الأزهر من الشافعية لذلك ، لأن التدريس فيها كان وقفًا على أكبر علمائهم ، وهو شيخ الجامع الأزهر فى العادة ، فأنكروا أن يتولاها رجل لا يعرف عنه إلا أنه من أهل التصوف ، مع أنه كان لا يقل عنهم فى العلم ، فأثار هذا الضغينة فى نفوس حساده حتى دسُّوا له السم ، وتوالى عليه بسبب هذا نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى ، حتى مات سنة ١٠٣١ هـ = ١٦٢١ م ٠

وممن أنكر على المتصوفة من علماء هذا القرن محمد صفى الدين الحنفى فى رسالة سماها - الصاعقة المحرقة - ألفها سنة ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ م ، ورد فيها على الصوفية الذين اتخذوا الرقص واللعب دينًا وخلطوها بالعبادة ٠

وكان الناس يثورون أحيانا على هؤلاء المتصوفة فى هذا القرن إذا تغالوا فى الفساد ، كما ثاروا على العُلَيمى المتوفى سنة ١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م ، وكان الرجال والنساء يجتمعون عنده ، ويحصل من هذا الاختلاط مفاسد قبيحة ، فثار عليه الجنود وانهالوا عليه بسيوفهم حتى قتلوه ، فقال الشيخ حسن الحجازى فى هذا نظمًا جاء فيه :

ونساء مع رجـال جاسات بالبديهِ
سلط الله عليـه بعد هـذا حاكميه
قتلــوه مع ثلاث بحـــسام صالتيه
وكفى الله البرايـا شره مع تابعيه

وبينما كان المسلمون فى هذا القرن يصلون فى الانحطاط إلى أسوا حالات العصر القديم ، كانت أوربا تطفر من عصر النهضة إلى العصر الحديث ، لأن هذا القرن يقابل القرن السابع عشر الميلادى ، وهو يعد مبدأ العصر الحديث ، إذ ثارت أوربا فيه على الثقافة القديمة ثورة عظيمة يقصد منها بناء ثقافة جديدة ، وكان عصر النهضة قد مضى فى الهدم ، فأتى العصر الحديث يمضى فى البناء ، فكانت أوربا فى هذا القرن تغلى فيها مراجل الثورة على القديم من كل ناحية ، فمن ثورة علمية على الفلسفة القديمة ، إلى ثورة دينية تواصل ما قام به مرتين لوثر فى القرن السابق ، إلى ثورة اجتماعية تنهض فيها الشعوب الأوربية ، وتعمل على التقدم فى العلم والصناعة والتجارة والزراعة ٠

وكانت هولندا أعظم دولة أوربية فى هذا القرن ، وقد سبق أن سيادة البحار فى القرن السابق كانت لأسبانيا والبرتغال ، فاستحوذت عليها هولندا فى هذا القرن ، وكان

أهلها فيه يلقبون بقادة البحار ، حتى صار بأيديهم زمام التجارة بين أوربا وغيرها من القارات ، وقد أنشئت فى بلادهم شركات تجارية عظيمة ، من أشهرها الشركة الهندية الهولندية التى أنشئت سنة ١٠١١ هـ = ١٦٠٢ م ، وقد اقتفوا أثر البرتغاليين فى رحلاتهم التجارية إلى الصين والهند ، ثم تبعوهـــم إلى أمريكـا ، وكادوا ينتزعون منهم مملكة البرازيل ، وكان لهم فى التجارة طريقة تخالف طريقة البرتغاليين ، لأن هؤلاء كانوا يخلطون بين التجارة والدين والسياسة ، فكانوا يسيئون بهذا إلى البلاد التى ينزلون فيها للتجارة ، ويعملون على انتزاعها من أهلها ، ويسعون فى حملهم على ترك ديانتهم واتباع النصرانية ، ويجتهدون فى بيع بضائعهم لهم بأغلى الأثمان ، وفى شراء بضائعهم منهم بأرخصها ، فخالفهم الهولنديون فى ذلك كله حتى اجتذبوا إليهم أهل البلاد ، وساعدوهم على انتزاعها من البرتغاليين ، فانتزعوا منهم التجارة مع الهند ، واستولوا على جزر الأقيانوسية من جاوة وغيرها ، وصار لهم سبعة حكام موزعين فيها ، وحاكم عام يقيم فى بتافيا ، وكانت تعدُّ قاعدة لهذه الجزر .

وكان هناك نهوض سياسى وتجارى وصناعى فى باقى شعوب أوربا فى هذا القرن أيضا ، فكان عهد لويس الرابع عشر بفرنسا عهد تقدم ونهوض ، وقد تولى ملك فرنسا سنة ١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣ م ، واستمر ملكه إلى سنة ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ م ، ويعدُّ من أزهى عهود فرنسا ، وقد ظهر فيه كثير من أصحاب الشهرة فى العلم والحرب ، مثل كوندى ، وتورين ، ودوكازن وكوبير ، ولوفو ، وراسين ، وموليا ولافونتين ، وبولو ، وبوسوى ، وفنيلون ، ولوبرون ، وقد أنشئت فى عهده أكاديمية العلوم الملكية سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦م ، وكان فى عهده لفرنسا نحو خمس وخمسين شركة تقوم بالتجارة بين فرنسا وأمريكا وغيرها من القارات .

وكذلك كان الحال فى إنجلترا ، لأن الملكة أليصابات كانت قد عملت فى أواخر القرن السابق وأوائل هذا القرن على النهوض بالشعب الإنجليزى ، فانتشرت فيه العلوم والصناعات ، وأنشئت فيه شركة الهند الشرقية سنة ١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ م ، فقامت بالتجارة بين إنجلترا والهند ، وهى التى ستقدم فيما بعد هذا القرن لقمة سائغة للحكومة الإنجليزية ، وقام الملك جيمس إستيورت بالحكم بعد الملكة أليصابات ، وكان محبا للعلوم والمعارف ، فعمل أيضا على نشرها فى إنجلترا ، وقام بعده الملك كارلوس فى الحكم ، فقام فى عهده خلاف داخلى فى إنجلترا ، لأنه كان للانجليز مجلس نواب يقوم بجانب الملك ، ولكن أعضاءه لم يكونوا يجسرون على مقاومة إرادة ملوكهم ، ولا سيَّما فى عهد الملك كارلوس ، لأنه كان يعتقد أن عامة الناس خلقوا لأجل أن يتسلط الملوك وحدهم عليهم ،

فثار الإنجليز عليه سنة ١٠٥٢ هـ = ١٦٤٢ م ، وتولى ثورتهم عليه أوليفر كروموبل ، حتى تمكنوا من عزله وتأليف جمهورية شعبية تقوم بحكمهم ، فاختاروا أوليفر كروموبل رئيساً لها ، ومكثت هذه الجمهورية فيهم إلى أن اضطرب أمر الانجليز فى عهدها ، فاختاروا كارلوس الثانى ابن كارلوس الأول ملكا عليهم ، ولكن هذه الثورة لم تذهب عبثا ، لأنها هيأت نفوس الإنجليز لثورتهم الكبرى فى أوائل القرن الآتى على الحكم الاستبدادى ، وسيأتى الكلام عليها فيه ·

وكان الحال فى إيطاليا مثل الحال فى فرنسا وإنجلترا ، ولكن النهضة فيها كانت علمية محضة ، فتألفت فيها الجمعية اللينوسية سنة ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م ، وهى تنسب إلى عالم نباتى يسمى لينوس ، وكانت تحظى برعاية المركيز فردريجو شيزى ، ثم قامت بعدها الجمعية المعروفة باسم مدرسة الطبيعيين الفلورنسيين سنة ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٧ م ، وكان مقرها مدينة فلورنسا ·

وكانت النهضة العلمية بأوربا فى هذا القرن أعظم من نهضتها فى السياسة ونحوها ، إذ قامت بها فلسفة حديثة تقوم على أساس التجربة الصحيحة ، ولا تقع فيما وقعت فيه الفلسفة القديمة من الأوهام الفاسدة ، ولا تجرى مجراها فى إيثار البحث النظرى الصرف على البحث العملى ، لأن البحث النظرى الصرف لا يفيد الإنسانية بشىء ، وكثيراً ما يجرى فى أوهام يضيع الزمن فيها من غير فائدة ·

ومن أشهر منشئى الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت الفرنسى (١٠٠٥ - ١٠٦١ هـ = ١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) ويقال له أبو الفلسفة الحديثة ، لأنه صاحب المنهج الذى فصَّل أصولها وفروعها ، وحررها من القيود اللفظية والمناقشات المدرسية - نسبة لمدارس العصر الوسيط بأوربا - وأطلقها من سلطان الكنيسة ، وخلصها من تحكم أرسطو فيها ، وكان تجديد الفلسفة أهم ما يشغله فى هذا القرن ، ولم يزل يشغله حتى اهتدى إلى وضع منهج رياضى يطبَّق على العلوم كلها ، وبهذا يمتاز على فرنسيس بيكون الآتى ، لأنه اقتصر على دراسة المنهج التجريبى ، ولم يدرس أصول الفلسفة وفروعها كما درسها رينيه ديكارت ، وبدأ رينيه ديكارت منهجه بالثورة على منطق أرسطو ، فذهب إلى أن طريق المعلومات الثابتة وأساس الاستدلال الصحيح عملان فكريان : الحدس والقياس ، والحدس هو الغريزة التى نستطيع أن ندرك بها الأفكار غير المركبة كالامتداد والحركة ، أو الحقائق الثابتة ، مثل أنا أفكر وأنا موجود ، أو الروابط بين قضية وأخرى ، مثل أن المساويين لشىء واحد متساويان ، وبهذا يكون الحدس هو الوسيلة لاكتساب الحقائق التى يعتمد عليها الاستدلال ، والقياس هو إثبات قضية بواسطة أصول عامة تصدق عليها ، وهو غير قياس

أرسطو ، لأنه يراد به ربط قضية بأخرى من غير اعتماد على وضع الحدود والأشكال وقواعدها المعقَّدة ، فلا يقومِ القياس عند رينيه ديكارت إلا على أسس فكرية مستمرة تدرك كل شيء على انفراد ووضوح ، ولا مجال فيها للقضايا الظنية كقياس أرسطو ، والاستدلال القياسي يعتمد عند رينيه ديكارت على أربع قواعد :

١ - ألاَّ نقبلَ شيئا مطلقا على أنه حق إلا إذا عرفناه كذلك فى وضوح لا لبس فيه ، فلا نتأثر فيه بالأفكار الموروثة التى لم تثبت صحتها ، ولا نعوِّل فيه إلا على الحقيقة أيا كان مصدرها ، ومقياس الحقيقة هو جلاء الأفكار ووضوحها .

٢ - أن نقسم القضية التى نبحثها ما أمكنتنا القسمة ، لنرد المركَّب إلى أجزائه ، ونرجع الصعب إلى السهل ، حتى نؤلف العلم من مجموعة أفكار واضحة .

٣ - أن نأخذ الأفكار بنظام ، فنبتدىء بأسهلها ، وننتهى بأكثرها تعقيدا ، وهذه القاعدة مكملة للقاعدة الثانية .

٤ - أن نقوم بإحصاءات واستقراءات تامة عامة ، بحيث نتأكد من أننا لم نهمل شيئا يتعلق بالقضية التى نبحثها .

وأخذ بعضهم على رينيه ديكارت أنه بعد أن هام فى منهاجه بالحقيقة واجتهد فى طلبها انتهى أمره إلى أن اتخذ الوضوح مقياسا لها ، وهو أمر نسبى يتغير من شخص إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى ، ولكن هذا لا يؤخذ به رينيه ديكارت ، لأنه يريد بالوضوح الذى جعله مقياسا للحقيقة الوضوح الذى لا يتغير بمثل ذلك .

ومن أشهرهم فرنسيس بيكون الإنجليزى (٩٦٩ - ١٠٣٦هـ = ١٥٦١ - ١٦٢٦ م) وكان أهم ما يشغله النهوض بالعلوم الطبيعية ، وقد وضع فى هذا رسائل جمعها تحت اسم مشترك هو - الإحياء الأعظم - وقسمها إلى ستة أجزاء :

١ - تصنيف العلوم ، أحصى فيه العلوم إحصاء كاملا ، وبيَّنَ موضوعها والغرض منها ، ووجّه الأنظار فى ذلك نحو بحوث مهملة أراد إدخالها فى دائرةَ البحوث العلمية ، وعُنى بالعلوم الطبيعية حتى ظهرت كأنها الغرض الأهم من هذا التصنيف .

٢ - الأرجانون الجديد ، خصه بالعلوم الطبيعية ، وبدأه بنقد الجامدين فيها على ما جاء به أرسطو ، وخطَّأهم فى زعمهم أن العلوم بلغت غايتها ، وأنها ليست فى حاجة إلى تجديد ، ثم قام بدراسة بعض الأخطاء الشائعة التى تعوق البحث العلمى ، وجمعها فى أربعة أنواع : أوهام الجنس التى ترجع إلى نقص العقل الإنسانى بوجه عام ، وأوهام الكهف التى تحبس الشخص فيما ألِفه من عاداته وتربيته ، وأوهام السوق التى تنشأ من مخاطبة الناس ومعاملتهم ، وأوهامَ الخاصة من العلماء والفلاسفة ، ثم ذكر أنه لما كان

العقل عرضة دائمًا لهذه الأخطاء وجب أن نبحث له عن طريقة واضحة تعصمه منها ، ثم أخذ يبحث عن هذه الطريقة حتى اهتدى إلى وضع أصول المنهج التجريبى وبيان مراحله وقواعده ، وطعن فى قياس أرسطو بأنه وسيلة عقيمة فى كثير من وجوهه ، لأنه يضطرنا إلى تسليم مقدماته وعدم الشك فيها ، وإذا كان قد نجح فى ربط بعض الأفكار ببعض ، فإنه لا سبيل له مطلقًا إلى كشف أفكار جديدة ، ولا يمكنه إثبات الأصول العلمية ، والمقدمات والنتائج سواء عنده ، وإنما العلم الصادق هو التجربة ، لأنها هى الوسيلة لفهم الظواهر الكونية ، فمن أراد أن يعرف الطبيعة فليرجع إليها نفسها ، وليعتمد على التجربة فيها .

ويقصد فرنسيس بيكون من هذا المنهج أن يكشف صور الظواهر الكونية ، ولا يريد من الصورة ما أراده أرسطو منها ، وكان أرسطو يريد منها ما يقابل الهيولى ، وكذلك لا يريد منها مُثل أفلاطون ، وإنما يريد الخصائص الحقيقية للأشياء ، ومميزاتها الذاتية ، ولهذا كان التغيير الذى تحدثه الصور فى الهيولى عند أرسطو يترتب على اتصال الصورة بالهيولى أو انفصالها عنها ؛ ويترتب عند فرنسيس بيكون على الوضع المعين للجسم فى الفضاء ، فالصورة عنده ليست أمرًا خارجًا عن الهيولى يضاف إليها ليُحدث التغيير ، وإنما هى حركة داخلية فيها ، فيجب أن يراعى فيها الأجزاء الصغيرة التى يتألف الجسم منها وما يحدث بينها من حركة ، وبهذا كان فرنسيس بيكون من أنصار فلسفة الكمِّ التى سادت القرن السابع عشر الميلادى ، وهى التى ترمى إلى توضيح الأشياء بالرجوع إلى شكلها ومقدارها وحركتها ، وقد دعاه هذا إلى استخدام الرياضيات فى الدراسة الطبيعية ، لتمنحها الدقة والانضباط اللازمين لها .

ووقف فرنسيس بيكون فى الجزء الثانى من منهجه عند هذا الحد ولم يتمه ، وأما الأجزاء الأربعة الأخيرة من أجزائه الستة فلم يوجد منها إلا بحوث متفرقة .

ومن أشهرهم غليليو الإيطالى (٩٧٢ - ١٠٥٢ هـ = ١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) ويقال له أبو الأسلوب التجريبى فى البحث ، وهو يبدأ ثورته على الفلسفة القديمة بالتنديد على مذهب أرسطو فى ثبات السماوات وعدم تغيرها ، ولما ظهر نجم غريب سنة - ١٠١٣ هـ = ١٦٠٤ م - أقام غليليو البرهان على أنه خارج عن فلكنا ، ثم استنتج من هذا أنه لو كانت السماء ثابتة لا تتغير لما أمكنه أن يأتى إلينا ، وأدَّاه هذا إلى اختيار مذهب كوبرنيكوس السابق ، وهو أن الشمس مركز هذا العالم ، ثم أراد أن يثبته بتجربة عملية ، وكان لبرشى الهولندى قد اخترع سنة (١٠١٧ هـ = ١٦٠٨ م) منظارا يزيد فى قوة النظر ، ويقرِّب النجوم إلينا ، ويكبر الأجسام الصغيرة البعيدة ويقربها ، وهو التلسكوب ، فأخذ غليليو

يجتهد فى اختراع منظار يفوق هذا المنظار حتى وصل إلى غايته ، ثم قام بتجربته فى إثبات مذهب كوبرنيكوس ، فلما وجهه إلى المجرة قضى به على ما يقوم حولها من الأساطير ، وأثبت أنها مجموعة كثيفة من النجوم منثورة فى الفضاء ، ولما وجهه إلى القمر شاهد به جباله وظلاله ، وأثبت أنه عالم يشبه الأرض ، ولما وجهه نحو المشترى شاهد أربعة أجسام صغيرة تدور حوله ، فخطر له أن هذا ليس إلا نظاما دقيقا للنظام الشمسى الذى يذهب إليه كوبرنيكوس ، ولما وجهه إلى الزهرة شاهد به أوجها كأوجه القمر ، وكان كوبرنيكوس قد سبق إلى ذلك بطريق النظر الرياضى ؛ فحكم بأن تركيب النظام الشمسى على الشكل الذى ذهب إليه يقتضى أن يكون لعطارد والزهرة أوجه كأوجه القمر ، وأسخط غليليو بهذا أنصار الفلسفة القديمة ، فحملوا البابا على أن يمنعه من تأييد مذهب كوبرنيكوس ، فامتنع من تأييده خوفًا من التعذيب والسجن ، ولكنه عاد (سنة ١٠٤٢ هـ = ١٦٣٢ م) فألف كتابًا على شكل محاورة بين ثلاثة رجال: واحد من أتباع كوبرنيكوس، وثان من أتباع أرسطو ، وثالث يدير المحاورة بينهما ، وكانت كل محاورة تنتهى بانتصار صاحب كوبرنيكوس ، فأقبل الجمهور على قراءة هذا الكتاب إقبالا عظيما ، وحمل هذا أنصار الفلسفة القديمة على الشكوى منه ثانيا للبابا ، فاستدعاه البابا إليه ليقدمه إلى ديوان التفتيش، وكان يُحكم فى مثل هذا بالحرق ، فخاف غليليو وأعلن أمام البابا توبته ورجوعه عن رأيه ، وكان هذا سببًا فى اكتفاء مجمع الكرادلة بالحكم عليه بالسجن ومنع قراءة كتبه .

ومن أشهرهم توماس هوبس الإنجليزى ، وكان من خصوم الفلسفة المدرسية التى تعتمد على فلسفة أرسطو ، وآثر عليها الدراسات الطبيعية والكونية ، وقسم الفلسفة إلى قسمين : فلسفة طبيعية تدرس الكون وظواهره ، وفلسفة سياسية تدرس المجتمع الذى هو جسم صناعى كوَّنته إرادة الإنسان ، ثم ذهب إلى أن غاية الفلسفة توضيح الظواهر الكونية الإنسانية ببيان عللها وأسبابها ، وردِّها إلى قوانينها الثابتة التى تجرى على وفقها ، ولا تتعدى الفلسفة عنده هذه الغاية ، لأنه كان لا يؤمن إلا بالمادة ، فكان ينكر العالم الروحى ، ويخرج الإيمان والعقيدة والألوهية من دائرة البحث الفلسفى ، وخرج فى السياسة على ما كان معروفًا قبله من نظرية الحق المقدَّس ، وهى ترى أن الملكية أمانة سماوية وسر إلهى لا يصح التعرض له ، فذهب إلى أن الملكية حاجة اجتماعية ، وكان بهذا وسطا بين أنصار الحكم المطلق القائلين بنظرية الحق المقدس ، وأنصار الحكم الدستورى الذى دعا إليه لوك وروسو ، وأقاماه على أساس نظرية العقد الاجتماعى ، وتوماس هوبس فى ذلك لا يرى أن الإنسان مدنى بطبعه كما كان يراه من قبله ، بل يرى أنه همجى متوحش ينفر من النظم والقوانين ولا يؤمن كل فرد من أفراده إلا بمصلحته

الخاصة ، فكانوا يقتتلون فى سبيل هذه المصلحة ، إلى أن ألجأتهم الحاجة إلى أن يتركوا بعض مطامعهم لأجل مطامع أخرى أعظم منهـا ؛ وأن يتعاونوا حبا لأنفسهم لا حبا لغيرهم ، وكان لهم بهذا عقد اجتماعى يقوم على حب الذات ، ويقضى بأن يكون هناك سلطة عظمى يذعن لها المتعاقدون ؛ لأنهم إذا تُركوا من غيرها يعودون إلى وحشيتهم الأولى ، وهذه السلطة العظمى تتمثل فى شخص واحد هو الحاكم أو الملك ؛ وإذا كان توماس هوبس لم يخرج بهذا على الحكم الاستبدادى فى عصره ؛ فإنه مهد به لمن يخرج عليه بعده ، لأنه لم يجعل للملك حقا مقدسا لا يصح التعرض له ·

ومن أشهرهم جون لوك الإنجليزى ، وقد عاصر فى إنجلترا ثورة فكرية يختلف المفكرون فيها اختلافا كبيرا ، فيختلفون فى الخير : هل هو ما أراده الشعب أو هو ما رآه الملك أو الحاكم خيرا ؟ ويختلفون فى بنى الإنسان : هل لهم حقوق طبيعية ثابتة لهم من أول نشأتهم أو لا حقوق لهم ، وإنما الحقوق وليدة المجتمع والحياة المدنية ؟ إلى غير هذا من خلافاتهم ، فرأى جون لوك أنه ليس هناك حقوق طبيعية ثابتة ، كحق بعض الأفراد فى التملك ، وذهب إلى أن الملك إنما يستمد سلطته من الشعب ، فيجب أن تكون حكومته حكومة دستورية ، تحترم إرادة الشعب وتنفيذها ، وتدعو إلى المساواة والحرية وفصل كل من السلطة التشريعية والقضائية عن الأخرى ؛ وتقوم على أساس التسامح الدينى ؛ فلا يتدخل الملك أو الكنيسة فى عقائد الناس ، بل يجب فصل الكنيسة عن الحكومة ، وكان جون لوك يرى أن الناس قد تعاقدوا على أن يعيشوا فى حياة مدنية منظمة ، ومن شروط هذه الحياة أن يخضع كل فرد أو سلطة فيها لقيود ثابتة ، فليس لفرد أو سلطة أن يجاوز دائرة نفوذه ، أو يتعدى على حق غيره ، والفرق بينه وبين توماس هوبس فى نظرية العقد الاجتماعى أنه يرى أن هذا العقد لم يخلق حقوقا جديدة للناس ، لأنهم كانوا قبل حياتهم المدنية يتمتعون ببعض الحقوق ؛ كحق التملك ؛ وحق الأبوة ؛ وما إلى هذا من الحقوق التى وضعها الله تعالى لخلقه ، وتوماس هوبس يخالفه فى هذا · وكان لآراء جون لوك أثرها فى ثورة إنجلترا فى أوائل القرن الآتى ، وسيأتى الكلام عليها فيه ، بل كان لها أثرها فى الثورة الفرنسية التى أتت بعد هذه الثورة ·

وكان بأوربا فى هذا القرن فلاسفة آخرون لا يقلون شأنا عن هؤلاء الفلاسفة ، مثل جوهان كبلر مستنبط قوانين حركة الكواكب السيارة ، ومثل إسحاق نيوتن مستنبط قانون الجاذبية ، ومثل أسبينوزا صاحب الفلسفة العقلية الرياضية فى أصولها ومبادئها الدينية الصوفية فى غاياتها ومقاصدها ، ومثل ليبنتز الذى كان للفلسفة الحديثة كأرسطو للفلسفة

القديمة ، ومثل بويل روبرت الذى اشتهر بدراسة خصائص الغازات ، ومثل توريشلى مخترع البارومتر ، ومثل هوجنس الذى اشتهر بالبحث فى طبيعة الضوء التموُّجية ·

وظهر أثر هذه النهضة العلمية فى أوربا واضحا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فامتاز بنشاط عظيم فى البحث العلمى ، وحصل فيه تقدم عظيم فى العلوم الطبيعية الرياضية ، وتألفت فيه جمعيات للبحث العلمى ، مثل جمعية أكسفورد بانجلترا ، وتألفت سنة ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥ م ، وأرادت تحقيق ما كان يحلم به فرنسيس بيكون من تأسيس جمهورية علمية ، فأخذ أعضاؤها يطبقون فيها منهجه الفلسفى ، ويجرون على طريقته فى البحث العلمى ، ثم تألفت بعدها جمعيات علمية فى فرنسا وألمانيا على مثالها ، وهذه الجمعية لا تزال قائمة بانجلترا ، وتعرف الآن باسم الجمعية الملكية لتقدم العلوم ·

فإذا أردنا أن نوازن بين ما وصلت إليه أوربا من التقدم فى تلك العلوم وما وصلنا إليه من التأخر فيها ، وجب أن نرجع إلى إجازتين طبيتين من الإجازات الطبية عندنا فى هذا القرن :

فأما الإجازة الأولى فهى كما ورد فى ديباجتها من الشيخ الأجل ، عمدة الأطباء ومنهاج الألبَّاء ، الشيخ شهاب الدين بن الصايغ الحنفى ، رئيس الأطباء بالديار المصرية ، إجازة للشاب المحصِّل محمد بن عزام ، أحد تلامذة الشيخ الأجل ، الشيخ زين الدين عبد المعطى رئيس الجراحين ، على حفظه لرسالة الفصد ، كما سنبينه :

« الحمد لله منه أستمد العناية ، الحمد لله الذى وفق من عباده من اختاره لخدمة الفقراء والصالحين ، وهدى من شاء للطريق القويم ، والنهج المستقيم ، على ممر الأوقات والأزمان إلى يوم الدين - وبعد - فقد حضر عندى الشاب المحصل شمس الدين محمد بن عزام ، المتشرف بخدمة الجراح الشيخ الصالح بقية السلف الصالحين العارفين ، وشيخ طائفة الجراحين بالبيمارستان المنصورى ، وهو الشيخ عبد المعطى المشهور بابن رسلان ، نفعنا الله ببركاته ، ورحم أسلافه العارفين الصالحين ، وعرض علىَّ جميع الرسالة اللطيفة المشتملة على معرفة الفصد وأوقاته وكيفيته وشروطه ،وما يترتب عليه من المنافع المنسوبة ، والرسالة المذكورة للشيخ الإمام العلامة التمام ، شمس الدين محمد بن ساعد الأنصارى[1] شكر الله له سعيه ورحمه ، وأسكنه بحابيح جناته بمنِّه وكرمه عَرضًا جيدا دل على حسن حفظه للرسالة المذكورة ، وقد أجزته أن يرويها عنى بحق روايتها ، وغيرها من الكتب الطبية ، الخ ·

---

(١) هذه الرسالة تسمى - نهاية القصد فى صناعة الفصد - وتوجد منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ·

وأما الإجازة الثانية فهى من رئيس الجراحين بدار الشفا المنصورى ، وهو البيمارستان السابق :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من ممدِّ الكون أستمد العون - الحمد لله الذى جعل لهذه الأمة بالطب المحمدى شفا ، وداوى علل أفهامهم بصحيح حديثه بعدما كانوا فى سقم الباطل على شَفا ،أحمده حمدًا يتقوى به الضعيف ، وأشكره شكرا وافيًا يكون لنا نعم العلاج عند الحكيم اللطيف ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى جعل الفصد والحجامة للأبدان من أنفع العلاج ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى قطع عرق الاشتراك ، وعلى آله وأصحابه السادة النساك - وبعد - فقد وقفت على هذه الرسالة العظيمة ، والمقالة الكريمة ، الموسومة ببرء الآلام فى صناعة الفصد والحجام ، نظم لوذعىٍّ زمانه ، وألمعىٍّ عصره وأوانه شمس الدين محمد القيم شهرةً ، الجراح صنعةً ومهرة ، التى أصلها للشيخ الفاضل ، حاوى الفضائل ، الشيخ شمس الدين محمد الشربينى الجراح ، لا زالت شآبيب الرحمة والرضوان على قبره غادية رائحة ، وشذا العبهرى والريحان من مرقده فائحة ، الموسومة بغاية المقاصد فيما يجب على المفصود والفاصد ، إذ هى فى هذا الفن أسمى المقاصد ، وقد قرأها عليه قراءة إتقان وإمعـان ، وحلٍّ لمشكـلات الألفاظ والمعان ، فلم ير بدآً من أن ينظمها ليتيسر حفظ تلك الفوائد ، وليسهــل ضبط تلك القواعد ، فجاءت بجمل أبهى من نُور الأنحار ، وأضوأ من نَور الأثمار ، كالتبر المنسبك ، أو القطر المنسكب ، قد أجاد ناظمها فى تحقيقها ، وبذل الجهد فى تحريرها وتدقيقها ، إلى أن قال ، ولقد صارت فى هذه الصناعة العمدة والكفاية ، واعترف لها الكامل أنها المنهاج والهداية ، ونسيت بهـا التذكرة[1] ولم تبق لهذا العلم تذكرة حميدة وأحجم عندها كل مهذب بالمكنون ، وصرح تاريخ الأطباء أنها نص ما فى القانون[2] فلما ظهرت نتيجة الانتخاب فى المسألة والجواب ، وتغذى ناظم سلكها بالخاص من اللباب[3] وصارت الخناصر عليها تُعقد ، وإن كان لساعد الأنصـارى رسالة - يعنى رسالته المذكورة فى الإجازة السابقــة - فشتان بين رسالته ورسالة محمد ، وكانت عين المقصود ، ورقمت فيما يجب على الفاصد والمفصود ، استحق راقم وشيها وناسج بردها أن يتوج بتاج الإجازة ، فاستخرت الله تعالى وأجزت له أن يتعاطى من صناعة الجراح ، ما أتقن معرفته ليحصل له النجاح والفلاح ، وهو أن يعالج الجراحات التى تبرأ بالبط ، ويقلع من الأسنان ما ظهر من غير شرط ، وأن يفصد من الأوردة ويبتر الشرايين ، وأن يلمَّ ما بعد من تفرق الاتصال ،

---

(١) اسم كتاب فى الطب .

(٢) يعنى كتاب القانون لابن سينا .

(٣) كتاب فى الطب ايضًا .

من المجددين ، وهو من رجال هذا القرن أيضا ، ولم تكن ميزته على متفقهة هذا القرن إلا أنه لم يكن جامدا فى الفقه مثلهم ، ولم يمتز بأكثر من هذا عليهم .

وإنى أرى أن الشاه عباسا الصفوى كان أكثر فهمًا من غيره لرسالة المجدد فى هذا القرن ، ولهذا يكون أجدر بذلك من الكورانى والمقبلى ، ولا بأس مع هذا من دراستهما بعده ، ليتبين فضله فى التجديد عليهما .

وكان الشاه عباس من الشيعة الإمامية ، وكان الكورانى والمقبلى من مدرسة ابن تيميَّة ، ولم نجد الأشعرية يذكرون لهم مجددا فى هذا القرن ، لأنهم كانوا قد وصلوا فى الجمود على أصولهم وفروعهم إلى غايته ، ووصل ضعفهم فيها إلى نهايته ، فلم يظهر بينهم من يتطلع إلى هذا اللقب ، كما ظهر بينهم من تطلع إليه فى القرون السابقة ، وكان آخرهم شمس الدين الرملى فى القرن العاشر .

على أنا ذكرنا فى ترجمة شمس الدين الرملى أنه كان هناك عالمان من الأشعرية يقال إنهما كانا مجددين فى القرن العاشر ، وهما الشيخ على بن مُطَير ، والشيخ عبد القادر بن العيدروس ، والحق أنه يجب أن يُعدّاً فى القرن الحادى عشر ، لأنهما عاشا زمانًا طويلا فيه ، فإذا عُدّا فيه كان للأشعرية مجدد فيه أيضا ، وقد سبق أنهما لا يُذكران إذا قيسا إلى شمس الدين الرملى ، وهذا هو شأنهما فى هذا القرن أيضا ، لأنهما لا يمتازان فيه بشىء على غيرهما من متفقهة المذاهب الأربعة .

وهناك عالم آخر كان له شأن فى هذا القرن ، وإن لم يذكر بين المجددين فيه ، وهو بهاء الدين العاملى ، وكان عالما أديبًا ممتازا على علماء عصره بسعة ثقافته ، إذ كان ملما بالعلوم الدينية والعربية والعلوم الفلسفية على الطريقة القديمة ، وقد ولد ببعلبكّ سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦ م ، ورحل بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من تلك الثقافة إلى بلاد العجم ، لأنه كان من رجال الشيعة الذين يغالون فى حب آل البيت ، ولكنه كان معتدلا فى أمر الصحابة ، وقد بالغ الشاه عباس فى إكرامه حين وصل إلى بلاد العجم ، وقدَّمه على علماء بلاده ، حتى كان لا يفارقه سفرا ولا حضرا ، وكان يجد مثل هذا التقدير فى بلاد الشام ، لِمَا كان عليه من التشيع ، ولما كان له من الإلمام بعلوم الفلسفة ، وقد نزل فى سياحة له ببيتَ المقدس ، فعرف بعض طلاب العلم فيها أن له إلماما بهذه العلوم ، فطلب منه أن يتلقاها عليه ، فأجابه إلى هذا بشرط أن يكون مكتوما ، مع أن الذى يعرفه من هذه العلوم كان شيئا قديما تافها بالنسبة لما وصلت إليه فى أوربا ، وهذا القدر هنا يكفى بهاء الدين العاملى ، لأنه لم يُذكر بين مجددى هذا القرن ، وليس فيه غير هذا يستحق إفراده بالذكر ، وكانت وفاته سنة ١٠٣١ هـ = ١٦٢١ م .

* * *

الشاه عباس

هو الشاه عباس الصفوى ابن الشاه محمد خدابنده ، ينتهى نسبه إلى الشاه إسماعيل الصفوى الذى أسس الدولة الصفوية ببلاد إيران فى القرن السابق ، وكان أهل هذه الدولة على مذهب الشيعة الإمامية ، وكانت الدولة العثمانية التركية على مذهب أهل السنة ، فقامت بينهما حروب كثيرة بسبب هذا الخلاف المذهبى ، وكان النصر فيها للدولة العثمانية التركية فى القرن السابق .

وكان ميلاد الشاه عباس حوالى سنة ٩٦٦ هـ = ١٥٥٨ م ، وقد تولى الملك سنة ٩٩٥ هـ = ١٥٨٥ م ، وكان ملكه لا يكاد يتجاوز فى هذا الوقت بلاد خراسان ، فأخذ يسعى فى توسيع هذا الملك ، ويستعيد البلاد التى انتزعت منه ، وكان ملكا قوىّ الجأش ، واسع الحيلة ، فقصد أولا مدينة مشهد، وكانت قبائل الأزبك من التتر قد استولت عليها ، فاستردها منها ، وانتصر عليها بقرب مدينة هراة سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م ، ثم أراد أن يتجه إلى محاربة الدولة العثمانية التركية ، ليسترد منها البلاد التى انتزعتها من الدولة الصفوية ، ويستولى على ما يمكنه الاستيلاء عليه من بلادها ، ولكنه آثر قبل هذا أن يتجه إلى ناحية الهند ، فاستولى على قندهار ، وهى من المدن الهندية .

وكانت الشركة الهندية الإنكليزية قائمة على عهده فى بلاد الهند ، ولها فيها مطامع ومآرب ، تتوسل إليها بحسن الحيلة ودهاء السياسة ، فأخذت تجتهد فى صرف الشاه عباس عن منافستها فى بلاد الهند ، حتى تمكنت من عقد محالفة معه ، وصرفته عن مناوأتها فى الهند إلى مناوأة الدولة العثمانية ، وإلى مناوأة البرتغاليين المنافسين لها فى الهند ، وساعدته فى انتزاع جزيرة هرمز فى الخليج الفارسى منهم .

ولما تم هذا للشاه عباس بدأ يفكر فى أمر جنده ، ورأى أنهم ينقصهم النظام والتدريب ، بخلاف عساكر الدولة العثمانية التركية من الإنكشارية ، فرأى أن ينظم جيشه تنظيما أحسن منهم ، وكان قد أدرك ما وصل إليه الجندى الأوربى من النظام الحديث ، فأراد أن يأخذ جنده بهذا النظام ، وكان أول مسلم اتجه نحو هذا التجديد فى النظام الحربى ، ولم ير فى الإسلام ما يمنعه من هذا الاتجاه الجديد ، على خلاف أهل الجمود الذين كانوا لا يزالون يغطون فى نومهم ، ويتابعون المضى فى غفلتهم ، ولم ير حين اتجه هذا الاتجاه بأسا فى أن يستعين فيه بمن سبقه إليه من أهل أوربا ، وبهذا يكون أقرب من غيره إلى فهم رسالة المجدد المسلم فى هذا القرن .

بقيطان وغير ذلك وطهارة الأطفال . هذا مع مراجعته وخدمته لرؤساء هذا الفن المتبحرين ، والمهرة الأساتذة العارفين ، مع تقوى الله والنصح فى الصناعة ، ولا يخشى مع ذلك من كساد البضاعة ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياه لصالح الأعمال ، فى كل حال ومآل . رقمه بقلمه أحقر عباد الفتاح ، الفقير للحق على بن محمد الجراح ، خادم الفقراء والضعفاء بدار الشفا بمصر المحروسة ، بتاريخ صفر الخير من شهور سنة إحدى عشرة وألف من الهجرة النبوية (١٦٠٢م) على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله وحده » .

ولا شك أن كلاّ من الإجازتين يدل على مدى ما وصلت إليه صناعة الطب بين المسلمين فى هذا القرن من التدهور والانحطاط ، لأن الإجازة الأولى منحت لطالبها على حفظه رسالة فى صناعة الفصد ، فلم يتجاوز أمره حفظ متن من المتون التى شغف طلاب العلوم بحفظها فى هذه القرون المتأخرة ، ولأن الإجازة الثانية منحت لطالبها على نظمه رسالة فى صناعة الفصد ، وهذا عمل لا يزيد عن حفظ المتن الذى منحت به الإجازة الأولى ، وكل منهما عمل تافه لا يستحق إجازة فى صناعة شريفة عملية كصناعة الطب ، ومما يدل عليه كل من الإجازتين أيضًا أن القائمين بصناعة الطب فى هذه القرون المتأخرة كانوا من أولئك المتفقهة الجامدين ؛ لأن علوم الفلسفة كانت قد حرِّم الاشتغال بها فى هذه القرون ، فلم تجد صناعة الطب إلا أن تلقى بنفسها فى أحضان أولئك المتفقهة الجامدين ، لتعانى من جمودهم ما تعانى ، وتصل إلى ذلك التدهور والانحطاط الذى وصلت إليه .

ومن هذا كله يظهر أن أوربا فى هذا القرن سبقت العالم الإسلامى بمرحلة عظيمة فى نهضتها العلمية والسياسية والاجتماعية ، وأن هذه النهضة قامت على أساس صحيح يجب احتذاؤه فى كل نهضة تقوم بعدها ، وأنه يجب ملاحظة هذا فى كل مجدد مسلم يظهر فى هذا القرن أو فيما يأتى بعده من القرون ، وإذا كنا قد أهملنا فى القرون السابقة حتى تأخرنا فى التجديد عن أوربا بهذه المرحلة العظيمة فلنقبل فى هذا القرن تقليدها فيما سبقتنا فيه من تجديد صالح ، ليمكننا أن نصل إلى مساواتها فيه ، أما إذا أخذنا نعمل فى التجديد معتمدين على أنفسنا وحدنا ، فإننا سنمضى متدرجين فى خطواتنا كما تدرجت أوربا فى خطواتهـا فى التجديد ، وبهذا نمضى فى التجديد متأخرين عنها دائمًا ، ولا نلحقها فيه أبدا .

ولكن المسلمين لم يعرفوا هذه الحقيقة فى هذا القرن ، ومضوا يبحثون عن مجددهم فيه بين الفقهاء ومَن إليهم ، كما مضوا فيما قبله من القرون ، فجاء فى كتاب - عون المعبود شرح سنن أبى داود - أن المجدد على رأس القرن الحادى عشر هو إبراهيم بن حسن الكردى الكورانى ، خاتمة المحققين وعمدة المسندين ونزيل المدينة المنورة .

وكذلك كان شأن السيد رشيد رضا فى مجدد هذا القرن ، فقد ذكر المقبلى اليمنى

فاستعان الشاه عباس على هذا برجلين من الإنكليز ، وهما السير أنتونى شارلى ، وأخوه السير روبرت شارلى ، وكان الأول قد خرج من إنجلترا ليساعد أحد الأمراء فى حربه مع عساكر البابا ، فوصل إليه بعد انتهاء هذه الحرب ، فقصد بلاد إيران مع رفقائه ، وكانوا خمسين فارسا ، فأمر الشاه عباس باستقبالهم وإكرامهم ، وقرّبهم منه وأجزل لهم العطاء ، ثم استشار السر أنتونى فيما ينويه من محاربة الدوْلة العثمانية التركية ، وفيما يريده من تنظيم جنده قبل البدء فى هذه الحرب ، فأشار عليه بتعليم جنده مبادىء العلوم العسكرية ، وبمحالفة دول أوربا على هذه الدولة ، فرضى الشاه عباس بما أشار به ، ومكنه من تنظيم جنده ، فأخذ يدربهم على النظام الحديث ، ويعلّمهم ما يلزمهم لإتقان فن الحرب ، حتى كانوا أول جند من المسلمين تدرب على النظام الحديث ، ولما تم هذا للشاه عباس توجه إلى محاربة الدولة العثمانية التركية ، فانتصر بهذا الجند المدرب على النظام الحديث مع قلته ، وهزم جنود الدولة العثمانية التركية مع كثرتها ، لأنها كانت لا تزال على نظامها القديم ، واسترد فى حربه جميع ما انتزعته من بلاده ، وأخذ مدينة بغداد ، ومدينة الموصل ، ومدينة ديار بكر .

وكان السر أنتونى شارلى قد عقد للشاه عباس محالفات مع دول أوربا ، وكانت تميل إلى محالفته على الدولة العثمانية التركية ، لأنها كانت أقوى الدول الإسلامية ، وكانت مستولية على كثير من بلاد أوربا ، فأخذ كثير من الأوربيين يقصدون بلاد إيران للتجارة وغيرها ، وكان الشاه عباس يكرمهم ، ويأمر أهل دولته باحترامهم ، ولا يأخذ رسوما على بضائعهم ، ورحل إلى إيران أيضا قوم من الأرمن ، فكان يقربهم منه ويساعدهم ، حتى صاروا أصحاب المتاجر والصناعات فى بلاد إيران ، وكان السر روبرت شارلى من أعظم المقربين إليه ، حتى صار بيته ملاذ النازحين إلى إيران من جميع الأقطار ، وقد أهدى إليه الشاه فتاة جركسية ، فتزوجها وكان له أولاد منها ، وبهذا كله وجد المسيحيون الأوربيون فى بلاده من التسامح الدينى ما لم يجدوه فى غير إيران ، وإن كان السلطان سليمان القانونى قد تساهل بعض التساهل معهم قبل هذا فى بلاد الدولة العثمانية التركية ، وقد أدى هذا إلى رواج سوق التجارة فى بلاد إيران ، فكثرت الأموال فى أيدى أهلها ، وحسنت أحوالهم ، وعظمت قوتهم ، وكانت مدة حكم الشاه عباس لهم ثلاثا وأربعين سنة وقد توفى سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٨ م .

وإذا كان الشاه عباس أقرب إلى فهم رسالة المجدد المسلم فى هذا القرن من غيره من المسلمين ، فإنه يؤخذ عليه أنه لم يأخذ بلاده بإصلاح شامل ينهض بها نهضة حديثة ، كما نهض بجنده وأخذهم بذلك النظام الحديث ، فلم يقم بنشر التعليم الحديث فى بلاده ،

ولم يصلح من نظام الحكم فيها ، بل ترك كل شيء فيها يسير على نهجه القديم ، وكان هو أيضا يسير على ذلك النهج ، ومن ذلك أن قبائل التتر كانت قد عادت إلى الهجوم على خراسان ، فأرسل إليها جيشا ردها على أعقابها ، وحدث فى أثناء قتالهم معها أن المنجمين رأوا أن الشاه سيقع فى خطر عظيم إذا استمر فى الحكم ، فأذعن لما رأوه من ذلك ، واعتزل الملك فى الحال ، وانقطع فى قصره يفكر فى هذا الأمر ، حتى يكون مثل غيره من الناس ولا يصيبه ضرر ، وجاءت حاشيته برجل من العامة فجعلوه ملكا ثلاثة أيام ، فأمر ونهى فى هذه المدة ، ولم يعص له فيها أحد أمرا ولا نهيا ، فلما انقضت قاموا عليه وقتلوه شر قتلة ، وأعادوا الشاه عباسا إلى مثل ما كان عليه بعد أن اطمأنت النفوس ، وحكم المنجمون بأن الخطر قد زال . وهذه الحادثة كانت قبل تفكيره فى أخذ جنده بذلك النظام الحديث ، وقبل اتصاله على نحو ما سبق بالأوربيين ، ولكنها تدل على مقدار ما كانت عليه بلاده من الجهل ، وعلى أنها كانت أيضًا فى أشد حاجة إلى الإصلاح . وكان لهذا أثره بعد انتزاعهم جزيرة هرمز من البرتغاليين ، وكانت أعظم جزيرة بالخليج الفارسى ، وقد أنشأ البرتغاليون بها كثيرًا من المعامل الصناعية ، فزادت ثروتها ، ونهضت نهضة عظيمة ، فعقد الشاه عباس محالفة مع الشركة الإنكليزية بالهند على أن يساعدوه على إخراج البرتغاليين من هذه الجزيرة ، ويعطيهم إعانة مالية كل سنة ، فساعدته هذه الشركة على انتزاعها من البرتغاليين ، وكانت تريد القضاء على نفوذهم فى هذه البلاد ، لأنهم كانوا ينافسونها فى الهند ، فلما استولى الشاه عباس على هذه الجزيرة لم يجد من أبناء بلاده من يحسن القيام على هذه المعامل ، فتعطلت عن العمل ، وساءت بذلك حالة هذه الجزيرة ، وكان لذلك أيضا أثره فى حال بلاد إيران بعد وفاة الشاه عباس ، لأنها أخذت بعده فى الضعف ، وعادت إلى مثل ما كانت عليه من الاضطراب وعدم الاستقرار .

وكذلك يؤخذ على الشاه عباس أنه مع ذلك التسامح الدينى الذى أظهره للأوربيين مضى على خلافه مع إخوانه المسلمين السنيين ، ووقع فى حروب طويلة مع الدولة العثمانية التركية ، آثرَ المضىَّ فيها بتأثير رجال الشركة الإنكليزية بالهند ، ولم يكونوا يقصدون بها مصلحته ، بل كانوا يقصدون أن يقع فى هذه الحرب الطويلة ليُضعفوه بها ويُضعفوا الدولة العثمانية التركية معه ، ويصرفوه عن منافستهم فى بلاد الهند ، حتى إذا تمكنوا من تنفيذ مآربهم فى البلاد الهندية ، وتم لهم الاستيلاء عليها ، عادوا إلى تنفيذ مطامعهم فى بلاد إيران ، وفى بلاد الدولة العثمانية التركية ، ولم يكن أولئك الأوربيون الذين قصدوا بلاده للتجارة ونحوها إلا طليعةً لاستعمارها ، وهى عادة الأوربيين فى كل بلد قصدوا استعماره ، لأن أولئك الأوربيين لم يكونوا إلا جواسيس لدولهم ، يسعون فى

نشر الفتنة فى كل بلد دخلوه ، ليفرقوا أهله إلى شيع وأحزاب ، ويهيئوا لدولهم أن يتدخلوا فى شئونهم ، ويستولوا على بلادهم ، وكان على الشاه عباس أن يدرك هذا كله ، بعد أن وصل الأوربيون من طريق رأس الرجاء الصالح إلى بلاد الهند ، واستولوا على ما استولوا عليه فى طريقهم من البلاد الإسلامية ، وكان خطرهم فى هذا واضحا لكل ذى عينين ، ولكن الشاه عباس ورجال الدين فى بلاده أعماهم التعصب المذهبى عن هذا الخطر ، كما أعمى أمثالَهم فى الدولة العثمانية التركية ، فمضى الفريقان يتحاربان بتأثير ذلك التعصب المذهبى المذموم ، وهم لا يدرون ما تخبئه لهم الأيام ، ولا يعلمون أنه لا يستفيد من هذا إلا عدوهم الذى يتربص بهم ، ويعمل على إثارة الفتنة بينهم ، ويعين ضعيفهم على قويهم ، ليضعفوا جميعا بعد اتحادهم ، ويسهل عليه أن يظفر بهم فى آخر الأمر .



إبراهيم الكورانى

هو إبراهيم بن شهاب الدين حسن الشهرزورى الشهرانى الكورانى الكُرْدى ، ولد سنة (١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م) ببلاد شهران من بلاد الكرد ، ثم أخذ فى طلب العلم ببلاده على مشايخ قطره ، وكان شافعى المذهب كغيره من الكرد ، ولم يترك شيئًا من العلوم إلا حصل عليه ببلاده ، خلا علمَىِ التصوف والحديث ، فإنه حصل عليهما ببلاد العرب بعد رحلته إليها .

وخرج من بلاد الكرد بعد وفاة والده قاصدًا أداء فريضة الحج ، فمرَّ على بغداد ، وأقام بها نحو عامين ، ثم سافر إلى الشام ، وأقام فيها نحو أربعة أعوام ، ثم ذهب إلى المدينة فأقام بها إلى أن توفى سنة ١١٠١ هـ = ١٦٨٩ م .

وللكورانى مصنفات كثيرة : منها شرحان على عقيدة شيخه القشاشى ، ومسلك الاعتدال إلى آية خلق الأفعال ، ومسلك السداد ، وإعمال الفكر والرويَّات ، وإفاضة العلاَّم فى تحقيق مسألة الكلام ، وتنبيه العقول على تنزيه الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول ، ومطلع الجود ، وإتحاف الخلف بعقيدة السلف ، واللمعة السنية ، وجناح النجاح ، واقتفاء الآثار ، ومجلى المعانى حاشية على عقائد الدوانى ، وجلاء الأنظار ، وغير هذا من المصنفات .

وذكر صاحب كتاب - جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين - أن الكورانى كان سلفى العقيدة ذابّاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأنه كان كذلك يذبُّ عما وقع فى كلمات الصوفية مما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية .

وما ذكره صاحب كتاب (جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين) يخالف آخرُه أوله لأن أخذ الكورانى بعقيدة السلف وذبه عن ابن تيمية يجعله من مدرسته ، ولكن ذبه عما وقع فى كلمات الصوفية مما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية يجعله من مدرسة الغزالى التى كانت تنكر عليها مدرسة ابن تيمية ، لأنها لم تكن ترى تأويل ما ظاهره الحلول أو الاتحاد من كلام الصوفية ، بل كانت تؤاخذهم بهذا الظاهر وتحكم بكفرهم من أجله ، بل كانت تنكر ما هو أخفَ من هذا من بدع الصوفية ، من مقاماتهم وأذواقهم وسماعهم ورقصهم وغير ذلك من أحوالهم ، وما كانت ترى إلا الزهد الذى كان عليه قدماء المتصوفة قبل أن يقعوا فى هذه البدع ، وكانت تغالى فيه مثلهم ، كما سبق فى الكلام على ابن قيم الجوزيَّة .

والظاهر أن الكورانى كان بعيدًا أيضًا عن مدرسة ابن تيمية فيما يتعلق بالفروع ، لأنه سبق أنه كان على مذهب الشافعى ، ولم ينقل عنه أنه خرج عن شىء فى هذا المذهب ، وهذا بخلاف ابن تيمية ومدرسته ، لأنهم كانوا لا يتقيدون فى كثير من المسائل بالمذاهب الأربعة التى جمد عليها غيرهم ، ولعل هذا الجمود من الكورانى هو الذى سهّل له ما وقع فيه من الجمود فى أمر الصوفية ، لأن الجمود يجر بعضه بعضا .

والكورانى مع هذا لا يمتاز عن غيره من علماء هذا القرن ، إذ كانوا فى غفلة عن حال العالَم فى عصرهم ، وعمّا أصاب المسلمين من التأخر فى العلوم التى نهض بها أسلافهم ، وعَما وصلت إليه أوربا من التقدم فيها ، حتى أمكنها بها أن تصل إليهم من طريق رأس الرجاء الصالح ، ومعها من القوة التى وصلت إليها بالعلم ما أمكنها بقليل من السفن أن تستولى على الممالك الإسلامية بسواحل أفريقيَّة ، وأن تصل إلى الهند فتستولى على بعض بلاده ، وتوشك أن تستولى عليها كلها ، وتستأثر بخيراتها دون غيرها .

فأىُّ تجديد يمكن أنْ يُنسب إلى أمثال الكورانى فى غفلته عن هذا كله ؟ وأى قيمة لخروجه عن جمود علماء عصره على عقيدة الأشعرى إلى عقيدة السلف ؟ كأنه لا يزال فى القرن الذى عاش فيه ابن تيمية ، ولم يأت بعده بنحو أربعة قرون ! فلا يصح أن يقف علمنا عند الفصل فى هذا الخلاف بين ابن تيمية والأشعرية ، بينما يسير العلم عند غيرنا بخطى واسعة إلى الأمام ، وتزداد مسافة الفرق فى العلم بيننا وبينه ، إلى أن نصحو فنجده قد سبقنا فيه بمراحل ، وهناك نحاول النهوض فنتعثر فيه ، ويقف الجامدون حجر عثرة فى طريقه ، ولا شك أن الكورانى وغيره من السلفية يستوون هم والأشعرية حين غفلوا جميعا عن ذلك كله فى هذا القرن ، ولم يدركوا الرسالة التى يجب أن يقوم بها فيه المجدد المسلم .

وكان هناك قليل من العلماء فى هذا القرن لم يقعوا فى جمود هؤلاء الأشعرية والسلفية ، كبهاء الدين العاملى الذى سبق ذكره فى آخر الكلام على حال العالم فى هذا القرن ، فلم يعادوا علوم الفلسفة كما عاداها هؤلاء الأشعرية والسلفية ، ولكنهم كانوا نادرين جدًا ، وكانوا يشتغلون بها فى حذر وخفية ، ومع هذا لم يخرجوا فيها عن دائرة الجمود ، ولم يحاولوا أن يصلوا فيها إلى شىء من التجديد .

* * *

المقبلى اليمنى

هو صالح بن مهدى المقبلى اليمنى ، ولد فى قرية المقبل من أعمال كوكبان باليمن سنة ١٠٤٨ هـ = ١٦٣٧ م ، ثم أخذ عن جماعة من أكابر علماء قطره ، كالشيخ محمد ابن إبراهيم بن المفضل ، وكان ينزل للقراءة عليه من مدينة ثلا إلى شبام ، حتى تخرج به وانتفع بعلومه ، ثم انتقل بعد أن تخرج عليه إلى مدينة صنعاء ، وهى أشهر مدن اليمن ، فجرت بينه وبين علمائها مناظرات علمية كثيرة ، وكان فيه حدة فى المناظرة وإصرار على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة ، وإن خالفت ما ألفه العلماء من التقليد ، فأوجب هذا نفرةً بينه وبينهم ؛ لأنه كان يميل إلى الاجتهاد فى الدين ، وهم جامدون على التقليد لمذهبهم .

وكان من أشد أهل اليمن ثورةً على المقبلى فرقة الجارودية من الزيدية ، وهم أتباع أبى الجارود من هذه الشيعة ، وإنما كانوا أشد ثورةً على المقبلى من غيرهم لأنهم من غلاة الزيدية ، إذ يخالفونها فى قولها بإمامة أبى بكر وعمر ، ويدّعون الخلافة لعلى بعد النبى ﷺ بالنص عليه بالوصف دون الاسم ، يشيرون بهذا إلى قوله ﷺ له يوم آخى بين المهاجرين والأنصار « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » ومن مذهبهم أيضا أن كل من شهر سيفه ودعا إلى دينه من ولد الحسن والحسين فهو الإمام .

فدعاهم هذا إلى الغلو فى أمر المقبلى حين رأوه يخرج على تقليدهم ، ويسلك مسلك الاعتدال بين مذهب أهل السنة والشيعة ، حتى إنه كان يذهب إلى أن عائشة أم المؤمنين والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله كانت لهم شبهتهم وصلاح مقصدهم ، حين خرجوا يطالبون علياً بالقصاص من قتلة عثمان بن عفان .

فكبر هذا وأشباهه من المقبلى على الزيدية عموماً ، وعلى الجارودية منهم خصوصاً ، ودعا إلى تلك النفرة بينه وبينهم ، حتى زعموا أنه ناصبى ، فقال بعضهم فيه :

المقبلى ناصبىّ أعمى الشقا بصرَه[1]

وقال أيضا :

أطرق كرا يا مقبلى فلأنت أحقر من ذبابه

فارتحل من صنعاء إلى مكة من مواطن الأشعرية ، وسلك فيها مسلكه السابق ، فثار عليه علماؤها أيضاً ، ونسبوه إلى الزندقة ، والاعتراض على أسلافهم ، مع أنه كان يسلك

---

(١) الناصبى : هو الذى يدين ببغض على بن أبى طالب .

فى هذا مسلك السلف من الصحابة والتابعين ، من التعويل على الكتاب والسنة ، وعدم التعويل على التقليد ولو خالف الدليل ، ولكنه يكثر من الحط على المعتزلة فى بعض مسائلهم الكلامية ، وعلى الأشعرية فى بعض آخر ، وعلى الصوفية فى غالب مسائلهم ، وعلى الفقهاء فى كثير من تفريعاتهم ، وعلى المحدِّثين فى بعض غلوهم ، ولا يبالى إذا تمسك بالدليل بمن يخالفه كائنا من كان .

ولما ثار عليه علماء مكة رفعوا أمره إلى السلطان باستانبول ، فأرسل بعض علمائها إلى النظر فى شكواهم منه ، فلما وصل إلى مكة أخذ يبحث فى شكواهم ويسأله فيما أثارهم عليه ، فلم ير منه إلا الجميل فى العلم ، ولم ير فى مسلكه شيئًا يؤخذ عليه ، فسكت الثائرون عليه حين لم يجدوا معينا من السلطان ؛ لأن هذا هو غاية أمرهم ، وهو ديدنهم فى الثورة على كل مصلح ، فهم ضعاف جامدون لا يقوون على المناظرة العلمية ، فلا يجدون إلا أن يستعينوا على دعاة الإصلاح بمن فى يدهم القوة ، فإذا لم يجدوا منهم مساعدة ظهر عليهم العجز ، ولكنهم لا يؤمنون برسالة الإصلاح ، وإنما يأخذونها بالمداراة إلى أن يجدوا فرصة للثورة عليها ، ويظفروا بصاحب سلطان يساعدهم بقوته على من يثورون عليه .

وقد نشأ المقبلى فى بيئة الزيدية من الشيعة باليمن ، كما نشأ ابن الوزير قبله ، وكان متأثرا به فيما أخذ به نفسه من إيثار التمسك بالكتاب والسنة على التقليد ، حتى إنه تأثر به فى تسميه كتابه الذى أظهر فيه آراءه فى ذلك ، وهو كتاب - العلم الشامخ فى إيثار الحق على الآباء والمشايخ - فهذه التسمية مأخوذة من اسم كتاب ابن الوزير - إيثار الحق على الخلق - وهذا إلى أن الغرض من الكتابين واحد ، وهو إيثار الاجتهاد فى الأصول والفروع بالرجوع إلى الكتاب والسنة على تقليد المذاهب التى جمد عليها أصحابها ، ولم يبيحوا لأنفسهم الخروج على أحكامها ، ولو كان الحق الذى يؤيده الكتاب والسنة على خلافها ، وكتاب « العلم الشامخ فى إيثار الحق على الآباء والمشايخ » أوسع من كتاب « إيثار الحق على الخلق » وقد أشرف على طبعه السيد رشيد رضا ، وذكر أنه كتاب جليل فى الأحكام والأصول والفقه والتصوف ، يعرِّف بحقيقة مذاهب الأشعرية والمعتزلة والزيدية والصوفية ، وينفر من تعادى المسلمين لاختلافهم فى المذاهب ، ويبين ما فى ذلك من الخطأ ، ويحرر الكلام فى كثير من مسائل العقائد والأصول والفروع ومسألة وحدة الوجود بما لا يوجد مثله فى استقلال الرأى دون التعصب لمذهب معين فى كتاب من الكتب .

والحق أن المقبلى من مدرسة ابن تيمية وابن الوزير ، وأن هذه المدرسة تتعصب لعقيدة السلف فى الأصول والفروع ، وذلك مذهب من المذاهب أيضا ، فالتعصب له مثل

التعصب لغيره من المذاهب ، وإنما تمتاز هذه المدرسة بخروجها على جمود جمهور المسلمين على مذهب الأشعرى فى العقائد ، وعلى المذاهب الأربعة المشهورة فى الفقه ؛ فكان عندها بهذا بعضٌ من الحرية الفكرية ، ولكنها تتعصب مع هذا لمذهبها السلفى ، وترى أن الفرقة الناجية هى الآخذة بالكتاب والسنة من غير تأويل ، فلا تعذر غيرها من الفرق فى تقليدها لمذاهبها ، مع أنها لم تخرج أيضا من دائرة التقليد إلا قليلا ، لأنها لا تبيح الخروج عن مذهب السلف فى الأصول والفروع ، ولو إلى مذاهب أخرى غير تلك المذاهب التى جمد عليها أصحابها ، من مذاهب يقتضيها ذوق هذا العصر الحديث ، ويكون فيها مرونة دينية لا توجد عند الجامدين على تلك المذاهب ولا عند الجامدين على مذهب السلف ، فإن من يحاول هذا فى عصرنا الحديث يجد من هؤلاء الجامدين جميعا نفورا شديدا ، يصل إلى حد الطعن فى العقيدة ، وإثارة أصحاب السلطان على أخذه بالقوة ، مع أنه قد يكون الحق معه ، فيضيع فى ذلك التعصب الأعمى للرأى ، وفى ذلك الجمود الشديد على تلك المذاهب .

وهكذا وقعت مدرسة ابن تيمية فيما وقع فيه غيرها من الجمود ، حتى صارت ترى لها اختصاصًا بالكتاب والسنة دون غيرها ، ولا ترى لغيرها حقا فى أن يجتهد فيهما بما يراه أحسن من اجتهادها ، مع أن الاجتهاد فيهما حق لجميع المسلمين ، ولا يمكن أن يكون مقصورًا على ابن تيمية ومدرسته ، ولا يصح أن يدَّعى الاستئثار بذلك أحد فى الماضى والحاضر والمستقبل ، بل يجب أن يكون حق الاجتهاد فيهما لمن هو أهل له من أصحاب مدرسة ابن تيمية وغيرهم ، وأن يكون رائدنا فى هذا أن نصل إلى الحق من غير إثارة تعصب ، أوطعن فى عقيدة ، أو نحو هذا مما يثير المخاوف بيننا ، ويمنع كثيرًا من المخلصين لدينهم من إبداء ما عندهم من الآراء النافعة ، لأنهم يخافون إذا ظهروا بها ألاَّ يجدوا إلا الطعن فى عقائدهم ، وإثارة ذوى السلطان عليهم ليؤذوهم فى أنفسهم وأموالهم .

هذا وإن ما أخذناه على الكورانى من وقوفه فى هذا القرن عند حد الفصل بين أنصار المتمسكين بالكتاب والسنة والجامدين على مذهب الأشعرى فى العقائد ومذاهب غيره فى الفروع ، نأخذه أيضًا هنا على المقبلى ؛ لأن هذه المسألة لا يصح أن يقف علمنا عندهم ، ولا أن يهتم علماؤنا بها فى كل قرن إلى الحد الذى تكون فيه آخر ما عندهم من العلم .

ومضى المقبلى أيضًا فيما مضت فيه مدرسته من التنفير من علم الكلام ، ومن العيب عليه بتأثره بأساليب الفلسفة ، فسَوَّى فى هذا بينه وبين التصوف الذى يعتمد على أذواق المتصوفة ، لأن هذه المسالك ليست فى شيء من مسلك مدرسته فى التمسك بالكتاب

والسنة ، وفى هذا يقول فى كتابه - العلم الشامخ فى إيثار الحق على الآباء والمشايخ - :
« واعلم أن إعجاب هؤلاء المدعين عين الصفا لكلام المتصوفة ، كإعجاب المتكلمين بكلام الفلاسفة ، فسموا هؤلاء أهل الله ، وسموا أولئك الحكماء » وهذه من المقبلى شِنْشِنة قديمة درج عليها قدماء السلف من أهل السنة ، وتوارثها من تأثر بهم فيها طبقةً بعد طَبَقَة ، إلى أن ورثها عنهم فى عصرنا السيد رشيد رضا ، وما كان له أن يذهب إلى مثل هذا فى عصر ظهر فيه فضل علوم الفلسفة ، ونهضت بها أوربا فيه نهضتها العظيمة .

وكانت وفاة المقبلى سنة ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦ م .





حال العالم فى القرن الثانى عشر الهجرى

يمتد القرن الثانى عشر الهجرى من سنة ١٦٨٩ م إلى سنة ١٧٨٥ م ، وكان فيه بالمشرق من الدول الإسلامية دول ثلاث :

أولاهما : الدولة العثمانية التركية ، وقد تألبت عليها دول أوربا فى هذا القرن حتى انتزعت منها كثيراً من أملاكها فى أوربا ، وكان سلاطينها من الضعف بمكان ، فلم يكن لهم شيء من الأمر فى الدولة ، وإنما كان الأمر لوزرائهم ولرؤساء الإنكشارية ، يولون فيهم ويعزلون ، وكان أكثر هؤلاء الوزراء جهلاء رجعيين ، لا يعرفون شيئا من أحوال السياسة الدولية فى هذا القرن ، ولا يعرفون ما يجرى فيه حولهم ، ولا يأخذون بشيء من الإصلاح والتجديد ، بل يجمدون على ما ألفوه من القديم ، ويرون الخروج عليه كفراً أو أشد من الكفر وقد قامت حروب بين هذه الدولة ودول النمسا وروسيا وبولونيا والبندقية فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦ - ١١١٥ هـ = ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م) فانتهت هذه الحروب بمعاهدة كارلوفتس التى عقدت بين الدولة العثمانية التركية والنمسا والروسيا والبندقية وبولونيا سنة ١١١٠ هـ = ١٦٩٩ م ، وانتزع فيها من الدولة كثير من أملاكها فى أوربا ، واتفق فيها على ألا تدفع النمسا أو غيرها شيئًا لها على سبيل الجزية أو الهدية ، وزادت من عهد هذه المعاهدة أطماع دول أوربا فيها ، فعملت على أن تقف فى سبيل تقدمها ، لتقسم بلادها فيما بينها ، وابتدأ بهذا ما يعرف فى السياسة باسم المسألة الشرقية ، وهى مسألة تقوم على أساس الاستيلاء على البلاد الإسلامية باسم الاستعمار السياسى ، وإخفاء ما ينطوى تحته من محاولة القضاء على الدين الإسلامى ، لأنه هو الذى يقف فى سبيل هذا الاستعمار ، ولا شك أن أوربا الحديثة فى هذا الطور من الاستعمار هى أوربا العصر الوسيط التى هاجمت هذه البلاد باسم الحروب الصليبية ، وهى أوربا العصر القديم التى هاجمتها باسم الاستعمار اليونانى والاستعمار الرومانى ، وهى فى هذا تلبس لكل عصر لبوسه ، ولا تقصد إلا انتزاع خيرات هذه البلاد من أهلها ، ولو كانوا على دين يوافقها ، وعلى أهل هذه البلاد جميعًا أن يعرفوا هذه الحقيقة ، حتى لا يغترِ منهم بمقاصد

أوربا من يوافقها فى الدين ، لأنها لا تقصد خيراً لنا جميعا ، وإنما تقصد من استعمارنا خير أهلها وحدهم ، فالاستعمار الأوربى فى عصرنا استعمار سياسى كالاستعمار اليونانى والرومانى ، لا يهمه فى شيء أمر الدين ، ولو لم يقف الإســلام فى سبيله لما قصده بسوء ، وقد أدرك هذا كثير من مواطنى المسلمين من المسيحيين ، فوقفوا إلى جانبهم فى مقاومة ذلك الاستعمار .

والثانية : **الدولة الصفوية ببلاد فارس** ، وقد انتهت هذه الدولة سنة ١١٣٥ هـ = ١٧٢٢ م فاستولى بعض أمراء الأفغان على بلادها ، ومكث حكمهم فيهـا إلى سنة ١١٤٢هـ = ١٧٢٩ م ، وكان نادر شاه هو الذى قضى أخيراً على حكمهم ، وقد أظهر أولاً أنه يريد إعادة الدولة الصفوية ، ولكنه لم يلبث أن نادى بنفسه ملكا سنة ١١٤٩هـ = ١٧٣٦م ، وكان نادر شاه أعظم شخصية إسلامية فى هذا القرن ، وأصله من قبيلة الأفشار من خراسان ، وكان والده من عامة الناس ، فكوّن لنفسه مملكة عظيمة تمتد من فارس إلى بلاد الهند ، وتدخل فيها بخارى وداغستان وأفغانستان وغيرها من الأقاليم ، وسلك فى طريق التجديد ما سلكه الشاه عبــاس فى القرن السابق ، فدرَّب جنده على الأنظمة الحديثة ، واستعان ببعض الإنكليز فى الحصول على الأسلحة الحديثة من أوربا ، وفى صنعها فى بلاد فارس ، وكان يميل إلى التسامح الدينى ، حتى إنه لما نودى به ملكا على بلاد فارس ، أصدر منشوراً دعا فيه أهلها إلى نشر المعارف ، وإلى المؤاخاة بين أهل السنة والشيعة ، ويقال إنه أراد أن يقلد أكبر خان فى جمع الناس على دين يختاره لهم من بين الأديان ، وقد اضطربت بلاد فارس بعد موته سنة ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧ م ، ولم تزل فى اضطرابها إلى أن قامت فيها الدولة القاجارية سنة ١٢٠٣ هـ = ١٧٨٨ م .

والثالثة : **الدولة المغولية بالهند** ، وقد اضطرب أمرها فى هذا القرن ، حتى طمع فيها أمراء الهندوس ، وأرادوا أن يعيدوا بلاد الهند إلى حكمهم ، وكان لشركة الهند الإنكليزية يد فى تلك الاضطرابات ، لتصل إلى مآربها فى الهندوس والمسلمين على السواء ، فاستنجد بعض وزراء هذه الدولة بنادر شاه السابق ، فقصد الهند بجيشه حتى استولى على دهلى قاعدة دولتها ، ولكنه أبقى ملكها محمد شاه على عرشه ، واكتفى بإدخاله فى حمايته ، وكان محمد شاه من أسـوأ ملوك الهند ، يقضى نهاره فى شرب الخمر وليله فى أكل الأفيون ، حتى وهن عزمه ، وضعف عقله ، وقام بعده ملوك ضعاف مثله ، فاضطربت البلاد الهندية ، وقامت فيها الحروب الداخلية ، حتى انقسمت إلى ولايات صغيرة ليس للدولة عليها إلا سلطة اسمية ، فسهل على الشركة الهندية الإنكليزية الاستيلاء عليها ولايةً بعد ولاية ؛ وكان آخر هؤلاء الملوك يسمى عالم شاه ، وقد انتهى حكمه سنة ١٢٢١ هـ =

سنة ١٨٠٦ م ، وهو آخر ملوك الدولة المغولية ، وقد عاش حتى رأى لشركة الهند الإنكليزية السيادة على دهلى قاعدة هذه المملكة وقد مكثت هذه السيادة لها إلى أن انتقلت إلى الحكومة الإنجليزية سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٦ م ·

وأما المغرب الإسلامى فكانت حالته السياسية فى هذا القرن كحاله فى القرن السابق ، إذ كانت دولة السعديين لا تزال قائمة بمراكش ، ولا تزال الجزائر وتونس وطرابلس تابعة للدولة العثمانية التركية ، وكان الفساد والضعف يجريان فى هذا المغرب كما يجريان فى المشرق ·

وكذلك ازدادت الحالة العلمية فسادًا بين المسلمين فى هذا القرن ؛ فاستمر العلماء فيه على جمودهم وتنطعهم ؛ حتى إنه لما أراد محمد الحلبى أفندى سفير الدولة العثمانية التركية فى فرنسا إنشاء مطبعة باستانبول ؛ لجأ إلى السلطان وحاشيته ليقنعوا علماء الدين بفائدتها ؛ فأمر السلطان شيخ الإسلام أن يفتى بأن المطبعة نعمة من الله تعالى ، وليست رجسا من عمل الشيطان كما أفتى علماء القرن السابق ، فأفتى شيخ الإسلام بجواز إنشاء هذه المطبعة ، على أن تمنع من طبع القرآن وكتب التفسير والحديث والفقه والكلام ؛ لأنها كتب دينية يخاف عليها من التصحيف والتحريف · مع أن التصحيف والتحريف موجود فى الكتب الخطية قبل المطبعة ، ولكنها كانت فتوى بالإكراه ، فلم تخل من مغمز فى فائدة المطبعة ، مع أنه كان قد مضى على اختراعها فى أوربا نحو ثلاثة قرون ، وكانت من أعظم الأسباب فى نهوضها وانتشار المعارف والعلوم فيها ، فأنشئت المطبعة بمقتضى هذه الفتوى فى إستانبول سنة ١١٢٤ هـ - ١٧١٢ م ·

ولم يكن علماء الأزهر يقلون جمودا وتنطعًا عن علماء إستانبول ، فقد عين أحمد باشا المعروف بكور وزير واليًا على مصر سنة ١١٦١ هـ = ١٧٤٨ م ، وكان من أرباب الفضائل ، وله رغبة فى العلوم الرياضية ، فذهب إليه الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر مع وفد من العلماء لتهنئته بالولاية ، ودار بينه وبينهم كلام فى مسائل العلوم ، فلما انتقل بهم إلى العلوم الرياضية أحجموا عن الكلام فيها ، وقالوا : لا نعرف هذه العلوم ، فسكت عن لومهم على الجهل بها فى هذه الجلسة ثم اجتمع بالشيخ عبد الله الشبراوى بعد هذا فقال له :

« المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتُها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ·

فقال له الشيخ الشبراوى : هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف ·

فقال له الوالى : وأين هى ؟ وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عندكم منها شيئا ؟! ·

فقال له الشيخ الشبراوى : هذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك .

وقد نظم الشيخ حسن الحجازى قصيدة يصف فيها أهل الأزهر فى هذا القرن فقال :

الجامع الأزهر ابتلاه	رَبٌّ له العز والوجودُ
بكل فَظٍّ قحف وطِرْف	عليك بالبشر لا يجود[1]
قطعة صخر أليس فيه الثقـ	ـلُ واليبس والجمود
عمائمًا كبَّروها وكُمًّا	قد وسَّعوه لكى يسودوا
وتحت آباطهم زَوايا	تسعين كراسًا أو تزيد
بها يميلون حيث مالوا	لأجل مالِلٍ لهم تصيدُ
لولاهُم مالتِ السوارى	كلٌّ عمودٍ له عمود
تزويرُهم شاعَ فى البرايا	سيَّان الأحرار والعبيد
حتى دا حرفةٌ وفخرًا	ما عنه بدٌّ ولا محيد
يا لذئاب ذوى ثياب	بين دوابٍّ لها تبيد
صلُّوا وصاموا والليلَ قاموا	والقلبُ عن كل ذا بعيد
فأين هم ممن اجتمعنا	بهم لهم طالع سعيد ؟
إنْ أشكل الأمر أوضحوه	أو كنتَ فيهم فتستفيد
وهم على ذاك فى خضوع	وخوفهم من غد شديد
أبدَلهم دهرنا قرودًا	يا بئس دهرًا له قرود
البعضُ منهم يقول إنِّى	فى العلم بين الورى فريد
ومَن مضى ليس لى يضاهى	حتى الجوينىٌّ والجنيد[2]
وهو لعمرى ما ريحُ علمٍ	شمٌّ ولا بحثه يجيد
بل تلك دعوى ما قام فيها	قرينةٌ لا ولا شهود
فالبعدُ خذ عنهم سبيلا	تكن مجيدًا نعمَ المجيد

وبهذا هان العلم فى هذا القرن كما هان فى القرن السابق ، وضعف فيه شأن العلماء

(١) الطرف : الرغيب : الذى لا يرى شيئا إلا أحب أن يكون له .

(٢) الجوينى : هو إمام الحرمين ، والجنيد : شيخ الصوفية .

وعلا فيه شأن مدَّعى التصوف من العوام ، حتى كان الأبله محمد بن أبي بكر المغربى الطرابلسى المتوفى سنة (١٢٠١ هـ = ١٧٨٦ م) ممن يُعتقد فيه الولاية ، وكان يحب مجالس الشراب ، وتتهافت على مجلسه النساء ، ومع هذا كان أهل الفضل من العلماء وغيرهم يحترمونه وينقلون عنه أخبارًا حسنة ، وكان الولاة لا يردّون له شفاعة .

وكان الشيخ على البكرى المتوفى سنة (١٢٠٧ هـ = ١٧٩٢ م) فى أول أمره أبله يمشى فى الشوارع عريانًا مكشوف الرأس والسوأتين ، فاعتقد أهل مصر فيه الولاية كما هى عادتهم فى كل أبله ، فرأى أخ له أن يستغلَّ فيهم هذه الغفلة ، فألبسه ثيابا وحبسه فى البيت ، وادَّعى لهم أنه صار قطبا ، فأقبل الرجال والنساء من خاصة وعامة على زيارته والتبرك به ، وكان يُسمعهم تخليطات من الكلام فينصتون إليها ويؤوِّلها كل واحد منهم بما فى نفسه ، وصاروا ينسبون له الكرامات ، ويدَّعون أنه يطَّلع على خطرات القلوب والمغيبات ، ويُقبلون عليه بالهدايا والنذور والعطايا الكثيرة من كل شىء ، ولا سيما نساء الأمراء والأكابر ، حتى راج حال أخيه واتسعت أمواله ، وسمن هو من كثرة الأكل والفراغ والراحة ولم يزل على هذا الحال إلى أن مات ، فدفن بجامع الشرابى بالأزبكية بالقرب من الرُّوَيعى ، وعُمل له مقصورة وقبة ، ورتِّب له مقرئون ومرتلو أوراد وأشعار فى مدحه وذكر كراماته ، فإذا اجتمعوا عنده تواجدوا وتصايحوا ومرَّغوا وجوههم على أعتابه ، وغرفوا بأيديهم من الهواء المحيط به ليضعوه فى جيوبهم ، فقال الشيخ حسن الحجازى ينتقد هذه الحادثة :

ليتنا لم نَعِشْ إلى أن رأينا ... كل ذى جنة لدى الناس قطبا

عُلمـــاهم به يلوذون بل قد ... تخذوه من دُون ذى العرش ربا

إذْ نسوا اللهَ قائلين فلان ... عن جميع الأنام يفرج كربا

وإذا مات يجعلوه مزارًا ... وله يهرعون عُجْمًا وعربا

بعضُهم قبَّل الضريحَ وبعضٌ ... عتبَ الباب قبَّلوه وتُربا

هكذا المشركون تفعل مع أصـ ... ـنامهم تبتغى بذلك قربا

كلٌّ ذا من عمى البصيرة والويـ ... ـل لشخص أعمى له الله قلبا

والحجازى مَن سمى حسنًا ينـ ... ـظر ما خالف الشريعة صعبا

فالحذار الحذار من فعل أهل الـ ... ـجهل لوْ عالمًا يدرس كتبا

جعل العلم فخَّ صيد لدنيا ... فساوى فى صنعه السوء كلبا

لا بل الكلب منه خيرٌ إذِ الكلـ ... ـبُ عديم العقاب فى يوم عقبى

وكان الشيخ حسن الحجازى فى هذا الشعر الركيك كأعور بين عميان فهو يبصر شيئا على كل حال ، ولم يقع فى العمى الكامل الذى وقع فيه المسلمون من أهل هذا القرن .

وقد وصل الأمر بالمسلمين فى هذا القرن إلى أن يعتقدوا فى عنزة ادَّعى كبير خدام المشهد النفيسى بمصر أن السيدة نفيسة أوصت بها خيرًا ، فنسب الناس إليها الكرامات ، وكانت النساء أكثر من الرجال اعتقادًا فيها ، فكن يرسلن إليها القلائد الذهبية والأطواق والحلى ، واللوز وماء الورد والسكر المكرر وغير هذا من الهدايا ، ولما زاد الأمر فى هذه العنزة عن حده دعا الأمير عبد الرحمـن كتخدا صاحبها وأدخلها إلى زوجه بقصد التبرك بها ، ثم أمر بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها من غير أن يعرفه ، ثم أخبره بعد أن انتهى من أكله بأمرها ، ووبخه على ما كان منه فى هذه العنزة ، ثم وضع جلدها على عمامته ، وأمر أصحاب الطبول أن يسيروا به فى شوارع القاهرة مبالغةً فى التشهير به ، وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه هذه الحادثة فى حوادث سنة ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨م ، ولم ينكر على أولئك المتصوفة فى هذا القرن إلا قليل من العلماء ، ومن هذا ما حصل الشيخ على البيومى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ = ١٧٦٩ م ، وكان متصوفا قريبا من الأمية ، ومع هذا كان كثيرٌ من العلماء يعتقد فيه ويخضع له ، وقد ثار عليه بعض العلماء ، فقام بالتدريس فى الطبرسية وأفحمهم بطلاقة لسانه وقوة شخصيته ، لا بعلمه وقوة حجته ، وكان من عادته أن يعقد مجلسًا للذكر كل يوم ثلاثاء بالمشهد الحسينى ، فيدخل أكثر أتباعه المسجد حفاة ويلوِّثونه ، وكانوا يرفعون أصواتهم بالذكر ، فيتأثر بها المصلون ، فسعى بعض العلماء لدى الوالى التركى لإلغاء ذلك المجلس ، ولكن الشيخ عبد الله الشبراوى - وكان شيخـا للأزهر - انتصر للبيومى عليهم عند الوالى ، فأبقى له ذلك المجلس .

وقد كتب الشيخ على الصعيدى سنة (١١٩٧ هـ = ١٧٨٢ م) فتوى أنكر فيها على أصحاب طريقة المطاوعة ما يتخذونه من المغنِّين والأعلام والطبول والنقباء والسُّبح الكبيرة وسيوف الخشب وطواقى السعف والطراطير التى يضعون عليها أنواع الريش ، وغير هـذا من البدع التى وقعت فيها الطرق الصوفية ، ووصلت بها إلى آخر مراحل الانحطاط والتدهور ، ولكن جمهرة العلماء فى هذا القرن كانت ترى هذه البدع ولا تنكرها ، لأن العلم كان قد انحط فى هذا القرن مثل التصوف ، وصار العلماء أشبه بالعوام فى أمورهم وعاداتهم ، فكان مثل تلك البدع من المألوف عندهم لأن الزمن قد طال عليها حتى ألفها الناس فيما ألفوه من العادات الأخرى التى لا يقرها الشرع ، فلا يصح أن ينكر على تلك البدع من أرباب الطرق ، مع أنه لا ينكر على البدع الأخرى من غيرهم .

ومع هذا كان من صوفية هذا القرن متفقهون وصلوا فيه إلى أعلى المناصب الدينية

فى مصر ، وهو منصب شيخ الجامع الأزهر ، فتولاه الشيخ الشبراوى من أصحاب الطرق الصوفية ، وكانت وفاته سنة ١١٧١ هـ = ١٧٥٧ م ، وتولاه الشيخ الحفناوى من أصحاب الطرق الصوفية أيضًا ، وكانت وفاته سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م .

أما أوربا فإنها ازدادت فى هذا القرن تقدمًا ونهــوضا ، وظهر هذا فى حالتها السياسية ، وفى حالتها العلمية ، وفى حالتها الاجتماعية ، وكانت انجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا أسبق فى هذا من باقى شعوب أوربا ، وهذا القرن يقابله فى أوربا القرن الثامن عشر الميلادى ، وهو القرن الثانى من هذا العصر الحديث .

فأما إنجلترا فكان للآراء الفلسفية والاجتماعية والسياسيـة التى ظهرت فى القرن السابق أثرها فى ثورتها الكبرى سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م ، وكان ملكها جيمس الثانى يحكمها حكما استبداديا ، لأنه كان يرى كغيره من ملوك هذا العصر أن الحق الملكى حق إلهى ، وأن سلطة الملوك مستمدةٌ من الله لا من الشعب ، وعلى الشعوب أن تخضع لحكمهم خضوعا مطلقا ، ولا حقٌ لها فى محاسبتهم على أفعالهم ، فقام بحل مجلس النواب الإنجليزى ، وأراد أن يستبد وحده بالحكم ، فقام الشعب عليه بتلك الثورة التى اضطرته إلى الفرار إلى فرنسا ، وأقام بدله الأمير وليم أورنج ملكًا باسم وليم الثالث ، وقد اجتمع البرلمان الإنجليزى بعد إقامته فوضع قانونا جديدا لنظام الحكم ، ونصٌ فى هذا القانون على أن حق الملك فى التاج مستمد من الشعب ، فتم بهذا للإنجليز الحصول على الحرية السياسيـة قبـل غيرهم من الشعوب الأوربية ، وكان وليم الثالث ملكًا محبًا للإصلاح ، فنهضت فى عهده العلوم والمعارف ، وتقدمت الصناعة والتجارة ، ثم حكمت بعده حنا بنت جيمس الثانى ، فبلغت إنجلترا فى عهدها مجدا عظيما ، وظهر فيها كثير من كبار الفلاسفة ، مثل إسحاق نيوتن (١٠٥٢ - ١١٤٠ هـ = ١٦٤٢ - ١٧٢٧ م) وغيره من الفلاسفة الذين اشتركوا فى نهضة إنجلترا فى هذا القرن ، وقاموا بتأييدها فيما حصلت عليه من الحرية السياسية ، ونادوا مع هذا بالحرية الدينية ، وذهبوا فى الحرية السياسية إلى رأى جديد يؤيد ما كسبه الشعب ، وهو أن للإنسان حقوقا طبيعية مقدسة ، وهى المعروفة بحقوق الإنسان ، كحق التملك وغيره من الحقوق ، والرغبة فى صيانة هذه الحقوق هى التى حملت الناس على إنشاء الحكومة ، فلا تُطاع إلا إذا قامت بحفظها ، ووفت بعهدها للشعب الذى أقامها ، فإذا لم تف به ، خسرت حق وجودها ، لأنها تكون قد فسخت العقد الذى جعل لها سلطةً على الأفراد ، فصار من حق كل واحد منهم ألاَّ يطيعَها ، وحينئذ لا تكون سلطة الحكومة مطلقة ، لأنها مقيدة بمراعاة الحقوق الطبيعية للأفراد ، ولما كان حق الأفراد فى التملك مطلقًا لم يجز للحكومة أن تفرض عليهم ما تشاء من الضرائب لأنها تقتطع بها جزءا مما يملكونه ، فإذا احتاجت إلى الأموال للمصلحة العامة وجب عليها

أن ترجع إليهم بوساطة نوابهم ، لأنها لا تستطيع أن تصل إلى هذا إلا بموافقتهم ، ولما كان كل فرد يعطى سلطة يميل إلى جعلها مطلقة كان أحسن وسيلة لمنع السلطة العامة - الحكـومة - عن الجور فى الأمة هو حفظ التوازن بينهما ، بحيث لا تترجح كفة إحداهما على الأخرى ، وكذلك ذهبوا فى الحرية الدينية إلى أن المسيحية يجب أن تكون موافقة للعقل ، لأن الله منحه لنا لنصل به إلى معرفة الحقائق ، فالمسائل التى اختلفت الفرق المسيحية فيها غير مهمة ، وإنما المهم ما اتفقوا عليه من المسائل ، وهذه المسائل التى اتفقوا عليها هى البقية الصحيحة من المسيحية ، وهى الدين النظرى الملائم للطبيعة الإنسانية ، وهو ينحصر فى مسألتين أساسيتين : وجود إله واحد وخلود النفس ، والمسائل المختلف فيها يرجع فيها إلى العقل ، كمسألة الخير والشر ، وما إلى هذا من المسائل .

وأما فرنسا فقد تأثر فلاسفتها فى هذا القرن بفلاسفة إنجلترا ، وظهر فيها جيلان من الفلاسفة ، وكان ظهور الجيل الأول فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، وظهور الجيل الثانى فى النصف الأخير من هذا القرن ، ومن أشهر فلاسفة الجيل الأول مونتسكيو وفولتير ، ومونتسكيو هو صاحب كتاب - روح الشرائع - ومما جاء فيه أن الغرض من الحكومة صيانة الحرية ، وأن أفضل وسيلة لصيانتها هى توزيع السلطة بين الملك والبرلمان ، وأفضل وسيلة لتثبيت نظام الدولة أن يكون بها ثلاث سلطات بعضهـا منفصل عن بعض : السلطة التشريعية للبرلمان ، والسلطة القضائية للقضاة ، والسلطة التنفيذية للحكومة .

وفولتير هو الذى قام بأقوى نقد للنظم الدينية والسياسية القديمة ، وذهب إلى أنه يجب أن يُمحى كل نظام لا يقبله العقل ، فحارب الكنيسة وامتيازات الأشراف وظلم الملوك وفساد القوانين ، حتى نبه الشعب إلى ما فيه من فساد ، وجعله يتطلع إلى عهد تقوم فيه نظم موافقة للعقل ، وقد اتهمت الكنيسة هذين الفيلسوفين بالإلحاد ، مع أنهما لم يريدا القضاء على الدين ، وإنما أرادا إصلاحه والاقتصار على الدين الفطرى الذى يؤمن بوجود الله وخلود النفس ، فلم يحاربا إلا ما فى المسيحية من الرموز والأسرار والعقائد المنافية للعقل .

ومن أشهر فلاسفة الجيل الثانى روسو ، ديدرو ، وروسو هو صاحب كتاب - العقد الاجتماعى - وهو كتاب كان له أثره فى ارتقاء الفكر الإنسانى فى العصر الحديث ، ومما جاء فيه أن الإنسان وُلد حرا ، ولكنه الآن يرسف فى الأغـلال ، وقد يعتقد شخص أنه سيد غيره ، مع أنه أكثر منه عبودية . وأهم ما فى هذا الكتاب رأى روسو فى العقد الاجتماعى ، وخلاصته أن الشعب هو صاحب السـلطة الحقيقية ، وأن الحكومة تستمد منه

سلطتها ، وأن سلطتها تبقى شرعية ما دامت مستمدة منه ، وأن التشريع يجب أن يكون بيده ، لأنه هو الذى يطلب منه الخضوع للقانون ، ولا يهم بعد هذا أن تكون الحكومة بيد فرد واحد أو بيد أفراد متعددة .

وديدرو هو صاحب - الأنسكلوبيديا - وهى قاموس يحتوى على جميع أنواع المعارف والفنون والصناعات، وقد شارك ديدرو فيه كثير من الفلاسفة والعلماء ، ولم ينتهوا منه إلا بعد عشرين سنة من ابتدائهم فيه ، وهو يقع فى ثمانية وعشرين مجلدا ، وقد انتشر بعد طبعه فى جميع أنحاء أوربا ، فكان له أثر كبير فى نشر الثقافة الحديثة بين أهلها .

وظهر **بفرنسا** مع هؤلاء الفلاسفة علماء اقتصاديون مثل كسناى وترجو ، وهم الذين وضعوا أساس علم الاقتصاد السياسى الحديث ، وهو يقوم على أساس إزالة القيود المنافية لحرية التجارة والصناعة ، وأصحابه يرون أن الأرض هى أصل الثروة ، فأعطوا الزراعة المكان الأول فى الدولة ، وانتقدوا طريقة توزيع الضرائب والوسائل التى كانت الحكومة تتخذها لحماية الصناعات المحلية ، كإقامة الجمارك داخل البلاد ، وتعطيل تبادل الغلال بين الشعب ، وما إلى هذا مما أدى إلى كساد التجارة ، ووقوع المجاعات ، وتبلد العقول ، وعجزها عن الاختراع .

وأما **ألمانيا** فقد قام فيها ملوك تأثروا بالآراء الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التى ظهرت فى هذا القرن ، ومن أشهرهم فردريك الثانى ملك بروسيا (١١٥٣ - ١٢٠١ هـ = ١٧٤٠ - ١٧٨٦ م) وكان ملكا عظيما محباً للفلاسفة والعلماء ، وقد زاره فولتير فقرّبه إليه وتأثر بآرائه ، فكان يبذل كل ما فى وسعه لإصلاح مملكته ، ويسعى فى النهوض بالصناعة والتجارة والعلوم والفنون ، ويرى أن الأمير لا يمكنه أن يكون السيد المطلق فى مملكته إلا إذا كان خادمها الأول ، وبلغه أن عماله يجورون على الفلاحين ويضربونهم ، فأمرهم بعدم الجور عليهم وإبطال ضربهم ، وجعل عقاب من يثبت عليه ذلك أن يسجن ست سنوات .

وأما **روسيا** فقد قام فيها ملوك تأثروا بذلك أيضا ، ومن أشهرهم بطرس الأكبر (١٠٩٤ - ١١٣٨ هـ = ١٦٨٢ - ١٧٢٥ م) وهو الذى نقل روسيا إلى المدنية الحديثة ، فأرسل (سنة ١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م) بعثة إلى هولندا وإيطاليا والنمسا ليتعلموا العلوم والفنون الحديثة ، ثم رأى أن يقوم هو أيضًا بذلك ، فساح فى ممالك أوربا ليتعلم منها حسن السياسة ، ويدرس بعض العلوم والفنون ، وكان فى سياحته متنكرًا ليس معه إلا خادمه ونديمه ، وأقام مدة فى أمستردام ، قاعدة هولندا ، وأخذ يتعلم صناعة السفن الحديثة ، وكان يقوم بين العمال كأنه واحد منهم ، ثم تعلم فن التشريح والطب والطبيعة

وغيرها من العلوم الحديثة ، وانتقل بعد هذا إلى إنجلترا ، وكانت أرقى مدنيةً من هولندا ، فأتم فيها تعلم صناعة السفن الحديثة ، وتعلم صناعة الساعات ، والفنون البحرية والحربية ، ثم رجع إلى روسيا سنة ١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م ، فنشر فيها هذه العلوم والفنون ، وأنشأ جيشًا على النظام الحديث ، وأصلح كثيرًا من العادات الروسية القديمة ، ومن أشهرهم أيضًا كاترينا الثانية (١١٧٧ - ١٢١١ هـ = ١٧٦٣ - ١٧٩٦ م) ، وكانت ملكة حازمة ، محبة للفلاسفة والعلماء ، وكانت تراسل فلاسفة فرنسا وتأخذ رأيهم فى سياسة مملكتها ، حتى إنها تعد من الملوك الذين ساروا فى سياستهم على ما تقضى به أصول الفلسفة ، وكانت معجبة بالفيلسوف مونتسكيو ، وترى أن كتابه - روح الاجتماع - يجب أن يكون للملوك مثل كتاب فروض الصلاة لأتباع الكنيسة ، وقد ألفت سنة (١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م) لجنة لوضع قوانين جديدة للدولة ، وأمرتها أن تحتذى فيها أصول هذا الكتاب ، فقامت بوضع هذه القوانين على هذه الأصول ، ومن موادها : « ليست الأمة للملك ، إنما الملك للأمة ، العفو عن عشرة مجرمين أولى من قتل برىء واحد » وقد كتبت مرة إلى الفيلسوف ديدرو : « إن الذين يتبعون آراءكم العظيمة يؤلفون كتبًا بديعة ؛ ولكن يسيئون قضاء الحوائج » .

وكان لتوجيه الفلسفة نحو الناحية العملية فى أوربا أثره فى هذا القرن ، فظهر فيها كثير من الاختراعات والاستكشافات العلمية العجيبة ، ومن أهمها القوة البخارية المحركة ، وقد استخدموها فى ثلاثة أشياء طفرت بهم طفرة كبيرة فى نهضتهم : الآلة البخارية ، والسفينة البخارية ، والطرق الحديدية ، وقد تنازع الإنكليز والفرنسيون والأمريكيون فضل اختراع الآلة البخارية ، والمشهور أن طبيبا فرنسى الأصل شرع فيها سنة ١١٠٢ هـ = ١٦٩٠ م ، وتمكن من إتمامها سنة ١١١٩ هـ = ١٧٠٧ م ، فظهرت أول آلة بخارية لسفينة صغيرة فى وادى فولدا فى كاسل ، فكانت أعجوبة فى ذلك العصر ، حتى إن بعض الرعاع ثار عليها فكسرها ، فتأثر الطبيب من هذا تأثرًا كبيرًا ، وترك الاشتغال بهذا الاختراع العجيب ، فاهتم به بعده جمس وات الإنكليزى ، وزاد فى تهذيبه حتى كاد ينجح فى اختراع السفينة البخارية ، ثم اهتم به روبرت فلطن الأمريكى إلى أن وصل إلى اختراع سفينة بخارية تتحرك بدواليب سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م ، وكان هذا فى فرنسا ، فقام بتجربة سفينته فى نهر السين ، ثم اخترعت آله الرفاس ، التى تسيِّر السفن البخارية الآن بها سنة ١٢٦٠ هـ = ١٨٤٤ م ، ثم ظهرت الطرق الحديدية بعد السفينة البخارية ، وكان ستيفنسون الانكليزى أول من وصل إلى اختراعها ، واستعملت سنة ١١٣٧هـ = ١٨٢١م ، فاقتصرت أولا على نقل الفحم الحجرى ، ثم استعملت بعد هذا فى نقل الناس .

ومن أهم اختراعات أوربا فى هذا القرن : التلغراف ، وكان علماؤها قد وصلوا إلى خصائص الكهرباء ، ففكر كثير منهم فى إمكان اختراع التلغراف على أساسها ، وكان جورج ليزاج الفرنسى أول من فكر فى اختراعه ، ومكث فيه نحو أربع عشرة سنة ، حتى وصل إليه سنة ١١٨٨ هـ = ١٧٧٤ م ، وكان يستعمل أولا فى المسافات القريبة ، ثم زيد فى تهذيبه إلى أن استعمل فى المسافات البعيدة سنة ١٢٣٩ هـ = ١٨٢٣ م .

ومن أهم اختراعات أوربا فى هذا القرن مصانع الحديد التى تستعمل وقود الفحم بدل الحطب ، وقد أمكنهم بهذا أن ينشئوا المواقد العالية ، والمطارق الضخمة ، وأن يستعملوها فى سبك القطع الحديدية الكبيرة ، واختراع الأسلحة القوية الحديثة .

ومن أهم اختراعات أوربا فى هذا القرن مانعة الصواعق ، والمركبة الهوائية المعروفة بالبالون ، إلى غير هذا من الاختراعات العجيبة التى نبهت عقول أهلها ، وجعلتها تواصل البحث العلمى ، لتصل إلى ما ستصل إليه بعد هذا القرن .

لقد جدَّ الجد فى أوربا ، وتحققت فيها أحلام روجر بيكون فى الفلسفة ، فوصلت البحوث الفلسفية العملية إلى قوة البخار وقوة الكهرباء فى هذا القرن ، وسيكون لتينك القوتين أثرهما فى قوة أوربا وعظمتها ، وقد ظهر بعضٌ من هذا بوضع قدمها فى الهند وجزر الأقيانوسية ، وفى نجاحها بقوتها الجديدة وبدهائها السياسى فى أخذ المسلمين من خلفهم .

وكان على المسلمين أن يتنبهوا إلى خطر هذا العدو الذى ظهر لهم من حيث لا ينتظرون ، وأخذ يحاربهم بأسلحة جديدة ، ويقوم فى حربهم بأنظمة حديثة ، وكان عليهم أن يتأملوا فى هذا ويطيلوا التأمل ، ليقفوا على أسراره ، ويقوموا بما يلزم لدفع خطره ، من التجديد الذى يشمل كل شىء فى حياتهم السياسية والعلمية والاجتماعية والدينية ، ويقضى على كل جمود فيهم ، وينهض بهم إلى العصر الحديث الذى نهضت إليه أوربا ، وسبقتهم فيه بقرن من الزمن ، بل بقرون ثلاثة ، إذا أضفنـــا إليه ما سبقه من عصر النهضة .

ولكن المسلمين مكثوا مع هذا يغطُّون فى نومهم ، فإذا تنبه بعضهم إلى شىء من الإصلاح نظر فيه إلى الماضى ولم ينظر إلى الحاضر ، لأنه يجهله جهلاً تاماً ، ثم كان نظره فى الإصلاح ضيقا جدًا ، كما حدثنا الجَبرْتى فى كتابه - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - عن رجل تركى قام فى سنة (١١٢٣ هـ = ١٧١١ م) يدعو إلى الإصلاح بمثل ما كان يدعو إليه ابن تيميَّة ، فأنكر ما يفعله أهل مصر من تقبيل أعتاب أصحاب القباب من الأموات ، وقصدهم لقضاء حاجاتهم ، وما إلى هذا من جهالاتهم ، وحكم بأنه كفر يجب

عليهم تركه ، ثم أنكر بناء القباب على الأموات ، وحكم بوجوب هدمها ، واتخذ مسجد المؤيد مقراً لدعوته ، فاتبعه كثير من الناس وتعصبوا له ، ولكن علماء الأزهر كانوا قد وقعوا فى هذه البدع وألفوها ، فأفتوا العامة بأنها صحيحة فى الدين ، وقامت فتنة كبيرة بينهم وبين هذا الرجل التركى ، وقد انتهت هذه الفتنة بنفيه من مصر ، فترك أتباعه دعوته بعد نفيه .

فكان المسلمون فى هذا القرن أيضا ينتظرون مجدده من بين الفقهاء الذين لا يعرفون شيئا سوى الفقه وما إليه من العلوم ، فعاشوا بين تقليب أوراقه ، يجهلون دنياهم الجديدة وما فيها ، وتجهلهم هذه الدنيا لأنهم يعيشون فى دنيا قبلها ، مع أنهم كانوا يحتاجون فى هذا القرن إلى مجدد يعرف دنياه الجديدة ، ويعرف ما جدَّ فى العصر الحديث من علوم ومعارف ، لينفع المسلمين بها ، وينهض بهم كما نهض غيرهم فى هذا القرن .

وقد جاء فى كتاب - عون المعبود فى شرح سنن أبى داود - أن المجدد على رأس القرن الثانى عشر هو صالح بن محمد بن نوح الفلانى نزيل المدينة ، والسيد مرتضى الحسينى الزَّبيدى .

وذهب السيد رشيد رضا مذهبه فى إيثار رجال مدرسة ابن تيميَّة ، فذكر من مجددى هذا القرن الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ، وولى الله الدهلوى ، وكلاهما من مدرسة ابن تيمية ؛ وكذلك كان صالح بن محمد بن نوح الفلانى ، وكان مولده سنة ١١٦٦ هـ = ١٧٥٢ م ، وقد توفى سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م ، ومن مؤلفاته - إيقاظ همم أولى الأبصار - وهو فى تحقيق مسألة التقليد ، وقد ذهب فيه مذهب ابن تيمية . وأما السيد مرتضى الزبيدى فهو صاحب كتاب تاج العروس فى شرح القاموس ، وصاحب شرح الإحياء للغزالى ، فكان من متفقهة الصوفية فى هذا القرن ، وكان للناس فيه اعتقاد يصل إلى حد الغلو . وبهذا يكون لمدرسة ابن تيمية فى هذا القرن نصيب الأسد فى التجديد كالقرن السابق ، لأن الأشعرية ومتفقهتهم فى هذا القرن كانوا قد وصلوا فى الجمود إلى غايته .

وإنى أرى أن نادر شاه كان أقرب من هؤلاء المتفقهة إلى فهم رسالة المجدد المسلم فى هذا القرن ، ولهذا أقدِّم دراسته فيه على غيره ، ثم أتبعه بدراسة محمد بن عبد الوهاب ، وولى الله الدهلوى .

* * *

نادر شاه

هو نادر قلى خان الأفشارى ، والأفشار الذين ينسب إليهم عشيرةٌ من عشائر بلاد خراسان ، وكان والده من عامة الناس ، فولد له ابنه نادر سنة ١٠٩٩ هـ = ١٦٨٧ م ، ولما شبَّ رأى بلاده فى حالة من الفوضى من ضعف الحكومة وهجوم قبائل التتر عليها حينًا بعد حين ، فأخذ يغامر بنفسه فى تلك الفوضى ، وصارت الأحوال تنقلب عليه من قوة إلى ضعف ومن ضعف إلى قوة ، فمرة يؤخذ أسيرا ، ومرة يخدم عمال السلطان ، ومرة ينظم فرقة يسطو بها على الناس ، وينهب الأموال منهم ، حتى اشتهر أمره بينهم ، واستولى عليهم الخوف منه ، فدعاه حاكم خراسان إليه ، وأكرمه كل الإكرام ، واستعان به فى محاربة قبائل التتر ، ثم غضب منه هذا الحاكم ، وعزله من وظيفته ، فعاد إلى مثل ما كان عليه ، وقد عظم أمره فى هذه المرة أكثر من الأول ، حتى خافت الحكومة سطوته ، وصارت تحسب له حسابه .

وكان تهما سب ميرزا بن السلطان حسين الصفوى آخر ملوك الدولة الصفوية يسعى فى استرداد ملكهم من الأفغانيين الذين انتزعوه منهم ، فسعى بعض أقارب نادر شاه ، فى ضمه إلى تهماسب ميرزا ، ليساعده على استرداد هذا الملك ، فانضم إليه نادر شاه ، وصار من أعظم أعوانه فى ذلك .

وكانت الدولة العثمانية التركية قد اتفقت هى وروسيا على اقتسام إيران بعد انتهاء الدولة الصفوية ، وعلى طرد الأفغانيين المتغلبين عليها ، فأخذ كل من الدولتين يتقدم بجيشه للاستيلاء على ما تم الاتفاق عليه بينهما ، ولما رأى هذا تهماسب وافقهما على الاستيلاء على ما يريدان الاستيلاء عليه من بلاد إيران ؛ على أن يردَّا إليه الباقى منها ، فلم ترض بهذا الدولة العثمانية التركية ، ورضيت به دولة روسيا ؛ فعقدت معه معاهدة رضى فيها أن يترك الولايات الشمالية الإيرانية ، على أن تسعى فى طرد الأفغانيين من إيران ، وتردها إلى الدولة الصفوية ، فلما رأت الدولة العثمانية نجاحه فى هذه المعاهدة وافقت عليها ، على ألا يُتركَ له إلا قليل من بلاد إيران ، فإذا لم يرض به أقيم بدله ملك آخر من أسرته .

فلما رأى الأمير أشرف خان الأفغانى ذلك أوفد رسلا إلى إستانبول ليطلبوا من سلطانها الكف عن محاربته ، ويشكوا إلى علمائها أنْ تحاربهم دولتهم وهم سنيون مثلهم ، وأن تسعى فى إعادة الدولة الصفوية الشيعية ، وتتفق عليهم هى ودولة روسيا النصرانية ،

فلم ينجح رسل أشرف خان فى مسعاهم ؛ لأن السلطان ادَّعى أنه إنما يحاربهم لعدم اعترافهم بسلطته الدينية على جميع المسلمين ؛ لأنه الخليفة الشرعى عليهم ، فوقعت حروب شديدة بين أشرف خان وبين جنود السلطان نال فيها منهم ونالوا منه ، وكان يستميل هذه الجنود باسم الدين وأنه سنى مثلهم ، فيميل كثير منهم إليه ، ويأبون أن يستمروا فى قتاله ، إلى أن اضطرت الدولة العثمانية التركية إلى عقدْ صلح معه .

وكان « تهماسب ميزرا » فى ذلك الوقت قد عظمت قوته بانضمام نادر شاه إليه ، فأرسله إلى إخضاع بلاد خراسان ، فأخضعها له ، ولما رأى أشرف خان ذلك عزم على حربه ، وكان قد انتهى من الحرب مع الدولة العثمانية التركية ، فسار بجيشه إلى خراسان ، والتقى بنادر شاه وجيشه بقرب مدينة دامغان ، فانتصر عليه نادر شاه وانتزع منه أصفهان ، وكانت قاعدة الدولة الصفوية ، وبهذا انقضى حكم الأفغانيين فى إيران ، بعد أن مكث ثمانية أعوام .

فجلس تهماسب ميزرا على عرش آبائه بفضل شجاعة نادر شاه ، ولكنه لم يكن له فى الملك إلا الاسم ، وكان الحاكم الفعلى لإيران هو نادر شاه ، وكانت الدولة العثمانية التركية قد عادت إلى الهجوم على بلاد إيران ، فنهض نادر شاه إلى مقاتلة جيوشها ،وانتصر عليها انتصاراً عظيما ، ولكن بلغه قبل أن ينتهى من القتال معها أن الأفغانيين شنُّوا الغارة على البلاد ، فترك قتال الترك إلى قتالهم ، وسار إلى خراسان فنكل بهم شر تنكيل ، ولما كان مشتغلاً بحربهم زينت حاشية تهماسب له أن يقوم بحرب الترك من آل عثمان ، ويتمِّم ما بدأ به نادر شاه ، فكسروه شر كسرة ، حتى اضطر إلى عقد الصلح مع والى بغداد ، بعد أن خسر كل الذى ربحه منهم نادر شاه ، وبلغ من أمره أنه لم يشترط ردَّ الأسرى الإيرانيين فى هذا الصلح ، فلما رجع نادر شاه من حرب خراسان اشتد غضبه عليه ، ثم عزله ونفاه إلى خراسان ، وأقام مكانه ابنه عباس مرزا ، وكان طفلا صغيرا ، فأقام نفسه وصيًا عليه ، ثم قام بحرب الترك حتى استعاد منهم جميع البلاد التى استولوا عليها ، ومنها جميع بلاد القوقاس ، واضطرهم إلى عقد الصلح معه ، ثم رجع إلى أصفهان فاحتفل به الإيرانيون احتفالا باهرا .

وكان الطفل عباس مرزا قد مات ، فأقام الإيرانيون نادر شاه ملكًا عليهم ، بعد أن حررهم من حكم الأفغانيين والترك والروس ، ولم يقبل الملْك منهم إلا بعد أن اشترط عليهم أن يتركوا التعصب على أهل السنة ، ولا يغالوا فى التشيع الذى كانوا عليه فى عهد الدولة الصفوية ، فقبل هذا منه بعضٌ منهم بإخلاص ، وأظهر الباقون القبول ، ولكنهم مكثوا فى باطنهم على مغالاتهم فى تشيعهم .

وكان أول ما بدأ به نادر شاه بعد أن توج ملكًا على إيران أن أصدر منشورا طويلا دعا فيه أهل إيران إلى تعلم العلوم والمعارف ، وإلى مؤاخاة أهل السنة من المسلمين ، ثم سلك فى طريق التجديد ما سلكه الشاه عباس من قبلـه ، فدرَّب جنده على الأنظمة الحديثة ، واستعان ببعض الإنكليز فى الحصول على الأسلحة الحديثة من أوربا ، ثم أقام معامل فى بلاده لصنعها ، حتى تم له تجهيز جيش كبير على النظام الحديث فى أوربا ، ففتح به مدينة قندهار ، ثم توجهت نفسه إلى فتح بلاد الهند ، فكتب إلى ملكها محمد شاه يأمره أن يمنع حكام بلاده من مساعدة الأفغانيين الذين يفرون منه إلى بلاد الهند ، فأنف محمد شاه أن يكتب إليه فى ذلك ؛ لأنه كان يراه أقل منه ، فزحف عليه نادر شاه سنة ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ م ، وأخذ يستولى على بلاد الهند بلدًا بعد بلد ، إلى أن استولى على دهلى عاصمة محمد شاه ، وعقد معه صلحًا أقرَّه فيه على سلطنة الهند ، وجعله حليفاً له يصدع بأمره ؛ وأخذ قسما كبيراً من البلاد الهندية ، ثم عاد إلى إيران فاحتفل به أهلها احتفالا عظيما ؛ وقد سار بعد هذا إلى محاربة ملك بخارى - أبى الفيض خان - فانتصر عليه وعقد معه محالفةً كالتى عقدها مع ملك الهند ، ثم تقدم إلى بلاد خوارزم وخيوه وداغستان ؛ حتى عظم ملكه ؛ ووصل إلى ما لم يصل إليه فى عهد الدولة الصفوية .

ولكنه أصيب فى آخر عمره بمرض الوهم ، حتى إنه أساء الظن بابنه رضاقلى خان وكان ساعده الأيمن فى حروبه ، وتوهم أنه يريد نزع ملكه منه ؛ فأمر بسَمْل عينيه ، ثم ندم على هذه القسوة معه ، ولكنه مضى فى إساءة الظن بأهل بيته ، وكان الإيرانيون لا يزالون مخلصين فى باطنهم لمذهبهم الشيعى ومغالاتهم فيـه ، فلم يرضهم أخيراً مسلكه معه ، وكان هذا سببا فى اضطهاده لبعض أئمة هذا المذهب فى إيران ، فثارت عليه بعض ولايات فارس ، إلى أن تآمروا أخيرا على قتله ؛ فقتلوه سنة ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧ م .

ولا شك أن ما حصل من نادر شاه من سعيه فى نشر العلوم والمعارف بين أهل بلاده ، وتدريب جنده على النظام الحديث فى أوربا ، وعمله فى التقريب بين أهل السنة والشيعة ؛ يجعله أقرب إلى فهم رسالة التجديد الإسلامى فى هذا القرن ممن ذُكروا فيه من أولئك المتفقهة الذين سيأتى ذكرهم ، كما كان الشاه عباس فى القرن السابق أقرب إلى فهم رسالته من متفقهته .

وقد ذكرنا فيما سبق أنه ينسب إلى نادر شاه أنه كان يسعى إلى توحيد الأديان ، ونسب إليه أيضا أنه أمر بترجمة بعض أسفار الإنجيل ، لعله يكون أقرب إلى ذوقه من

القرآن ، وأنه جمع أصحاب الأديان الثلاثة - الإسلام واليهودية والنصرانية - ليباحثهم فيها ، ثم صرفهم بعد أن جمعهم ! ولعل هذا كله من افتراء الجامدين الذين ساءهم سعيه فى الإصلاح بالشكل السابق ·

ولكن ما أتى به نادر شاه من ذلك الإصلاح لم يكن كل الإصلاح المطلوب للمسلمين فى هذا القرن ، لأنهم كانوا فى حاجة إلى إصلاح شامل ينهض بهم فى كل نواحى الحياة ، فيقضى على جمود الرجعيين من أهل السنة والشيعة ، وعلى نظام الطبقات بينهم ، ويجعل حكمه قائما على العدل والشـــورى ، ولـم يأت نادر شاه بشىء من هذا كله ، ولهذا ذهب ما أتى به من ذلك الإصلاح الناقص بعد موته ·



محمد بن عبد الوهاب

هو محمد بن عبد الوهاب النجدى الحنبلى ، ولد فى بلـدة العُيَينة بنجد سنة ١١١٥هـ = ١٧٠٣ م ، وأخذ دروسه الأولى على فقهاء الحنابلة ، وهم معروفون من قديم بتمسكهم بالسنة ، ونفرتهم من البدعة ، فتأثر بهم فى نشأته ، ونظر إلى ماضيهم فى محاربة البدع ، فوجَّهه إلى الوجهة التى سيكون فيها جهاده . وكان ابن تَيميَّة من سلف الحنابلة هو الذى سيجعله قدوته ، ولكنه أراد أن يحصِّل دراسة أوسع من دراسته بنجد ، فرحل إلى المدينة ومكث فيها مدة من الزمن ، حتى أتم تعليمه فيها ، ثم رحل إلى البصرة فأقام فيها أربع سنين ، يستزيد فيها من العلم ، ثم رحل إلى بغداد فأقام فيها خمس سنين ، ثم أراد بعد رحلته إلى المدينة والبصرة وبغداد أن يُبعد فى الرحلة ، ويجاوز بلاد العرب إلى غيرها من البلاد ، فرحل إلى كردستان وأقام بهـا سنة ، ثم رحل إلى همدان وأقام بها سنتين ، ثم رحل إلى أصفهان ودرس فيها فلسفة الإشراق والتصـوف ، ثم رحل إلى قُمَّ وأقام بها مدةً من الزمن .

ثم رجع إلى بلده بنجد بعد هذه الرحلة العلمية الطويلة ، وقد تهيأ له بها ما لم يتهيأ لغيره من علماء نجد ، فكان أوسعَ منهم علمًا ، وأعرف بالعلماء السابقين الذين كانت لهم جولة فى الإصلاح ، ولم يقعوا فى ذلك الجمود والركود الذى وقع فيه علماء عصره ، حتى ألفوا ما فيه من البدع ، وأخذوها على أنها من أصول الدين وأركانه ، ولكن هذه الثقافة التى امتاز بها على علماء نجد كانت ثقافة محدودة ، لأنه لم يجاوز البلاد الإسلامية فى رحلته ، حتى يتأتى له أن يعرف الحركات الإصلاحية الخطيرة التى ظهرت فى غير البلاد الإسلامية ، وقلبت الدنيا من العالم القديم إلى العالم الحديث ، ويعرف ما يترتب من النتائج السيئة على إهمال المسلمين الاعتبار بهذه الحركات الخطيرة .

فلما عاد إلى بلده لم يرضَ بما رضى به علماء نجد من السكوت على تلك البدع ، وأراد أن يعيد فى محاربتها عهدَ أسلافه من الحنابلة ، ولا سيما ابن تيميَّة ، وكان قد درس كتبه ورسائله الإصلاحية فيما درسه فى نشأته ، ويوجد فى المتحف البريطانى بلندن بعض رسائل لابن تيمية بخطه ، وهـذا مما يؤيد دراسته لها ، فلما أراد ذلك اعتكف فى داره عن أهل بلده نحو ثمانية أشهر ، ثم أخذ يدعو إلى مثل ما دعا إليه ابن تيمية قبله ، من التوجه بالعبادة لله تعالى وحده ، وإنكار التوجه إلى أصحاب القباب والقبور ، وإنكار

التوسل بالأولياء والأنبياء إلى الله تعالى فى قضاء الحاجات ، وما إلى هذا من البدع التى سبقه ابن تيمية إلى إنكــارها ، وقد سبق أن رجلا تركيا قام بإنكــارها قبله فى هذا القــرن (١١٢٣ هـ = ١٧١١ م) ولكن كان من سوء حظه أنه قام بها فى مصر حيث يوجد الأزهر وعلماؤه ، فقاموا بإنكار دعوته كما سبق ، ومن يمكنه أن يقف فى طريق الأزهر إذا أنكر شيئًا فى الدين أو أقره ؟ . . . أما محمد بن عبد الوهاب فقد قام بدعوته فى بادية نجد ، وفى بيئة الحنابلة المعروفة قديما بإنكار البدع ، والبدو لا يجمدون على علم كما يجمد الحضر ، فتكون زحزحتهم عن الجمود أسهل من زحزحة غيرهم ممن يجمد على علم .

وقد بدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته فى بلده بلين ورفق ، ثم أخذ يرسل بها إلى أمراء الحجاز وغيره من الأقطار ، فلما رأى أهل بلده مثابرته على دعوته قاموا باضطهاده فتركهم إلى بلدة الدرعيَّة بنجد ، وكان أميرها محمـد بن سعـود ، فعرض عليه دعوته فقبلها ، وقام بحمايتها ونشرها فى بلاد العرب ، واستخدم فى هذا قوته فى تأييدها ، حتى أخذ بهـا كثير من بلاد العـرب ، ودخـل أهلهـا فى حكم آل سعود ، ولم يزل محمد ابن عبد الوهاب يقـوم بدعـوته فى حماية هذه الإمارة ، إلى أن مات سنة ١٢٠٦ هـ = ١٧٩١ م .

فأدرك محمد بن عبد الوهاب من النجاح فى هذا القرن ما لم يدركه ابن تيمية قبله ، والفضـل فى نجاحه أنه قام بدعوته فى أهـل البدو ، وأنه قام بها فى إمارة عربية ، أما ابن تيمية فقد قام بدعوته فى أهل الحضر ، وفى دولة المماليك التى لم تكن فى الحقيقة دولة عربية ، فلم يتأتَّ له من النجاح مثل ما تأتى لابن عبد الوهاب فى تلك الإمارة البدوية العربية ؛ لأن من جمد فى دينه على علم من أهل الحضر أبعد عن الإصلاح ممن جمد فى دينه على جهل ، لأن جهل الأول بسيط تسهل زحزحته عنه ، وجهل الثانى مركب يصعب تركه له .

ولكن هذا النجاح الذى أدركته الدعوة الوهابية لم يكن له الأثر المطلوب بين المسلمين فى هذا القرن ؛ لأن الإصلاح الذى نادت به كان إصلاحا ضئيلا جدًا ، وكان الغرض منه دينيا محضـا ، مع إن الإصلاح المطلوب للمسلمين فى هذا القرن لم يكن إصلاحا دينيا فقط ، بل كان إصلاحا دينيا وسياسيا واجتماعيا وعلميا ، يصل به المسلمون إلى ما وصلت إليه أوربا فى هذا القرن ، نعم كان المطلوب أن يصل المسلمون إلى ما وصلت إليه أوربا فى نهضتها ، ولم يكن هدم القباب ومنع التوسل بالأنبياء والأولياء ليوصِّل وحده إلى هذه النهضة ، على أن طابع الدعوة الوهابية كان متأثرًا بطابع دعوة ابن تيمية ، وقد كانت دعوة ابن تيمية تنافر أو تهمل الفلسفة وعلومها ، وكان هذا نقصا كبيرا فيها ، وهو فى الدعوة

الوهابية أشد ضرراً ؛ لأن الفلسفة فى عهد ابن تيمية كانت فلسفة قديمة ليست لها قيمة كبيرة فى الحياة العملية ، أما الفلسفة فى عهد الدعوة الوهابية فقد صارت فلسفة عملية ظاهرة النفع فى هذه الحياة ، فلا يصح لدعوة إصلاحية أن تنكر فائدتها أو تتجاهلها ، وقد تعذر الدعوة الوهابية فى هذا بنشأتها فى أمة بدوية ، وإنه ليكفى هذه الأمة البدوية أن تقوم فى هذا القرن بذلك القدر فى الإصلاح ، وإنه ليقبل عذرها فى الاكتفاء به إذا نظرنا لموقف الأمم الإسلامية المتحضرة منه ، فإنها لم تقم بمناصرته وطلب المزيد من الإصلاح ، بل وقفت منه موقفا غير كريم ، وقاومته بكل ما فيها من قوة جمود على القديم ، حتى وصل الأمر فى هذا إلى قيام حروب زادت فى تفريق كلمة المسلمين .

ومع هذا يقع على الدعوة الوهابية أيضا شىء من التبعة فى الحروب التى قامت بسببها ، لأنها لم تكن دعوة سلمية محضة ، يقصد منها دعوة مخالفيها إليها بالموعظة الحسنة ، وإدخال الناس فيها بالتى هى أحسن ، بل أعلنت فى سبيل تأييدها جهاداً دينيا لحمل مخالفيها على الدخول فيها ، فمن آمن بها سلم ، ومن خالف وعاند فقد حل دمه وماله ، وعلى هذا الأساس كانت غزواتهم فى نجد وخارج نجد ، من اليمن والحجاز وأطراف الشام والعراق ، فكان كل بلد يدخلونه منها حرباً حلالاً لهم ، إذا أمكنهم البقاء فيه ألحقوه بإمارتهم ، وإذا لم يمكنهم البقاء فيه اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنائم .

ولا شك أن الدعوة الوهابية تخرج بهذا على سماحة الإسلام ؛ لأن الدعوة الإسلامية سلمية محضة ، ولا تلجأ إلى القتال إلا عند الضرورة ، وإلا إذا كان فى سبيل الدفاع عن نفسها ، فلا يباح فيها ابتداء أعدائها بالقتال ، لأنه لا إلجاء فيها على الدخول فى الإسلام ؛ وهذا معلوم منها الآن بالضرورة ، ولكن الوهابيين كانوا كغيرهم من جمهور المسلمين فى ذلك الوقت ، يرون أن الإسلام لم يقم إلا بالسيف ، فلتقم دعوتهم بالسيف أيضا ، وإذا كان الإسلام قد عامل مخالفيه هذه المعاملة السمحة ، وهم يكفرون به كفراً صريحا ، فإنه كان على الدعوة الوهابية أن تعامل مخالفيها بمثل ما عامل الإسلام به مخالفيه ، وهم ليسوا فى الكفر مثلهم قطعا ، لأنهم يؤمنون بالله ورسوله ، وإن كانوا مع هذا يدعون الموتى ويستغيثون بهم ، ويسألونهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، لأن هذا لو سُلِّم أنه شرك ، فإنه لا يبلغ شرك من لا يؤمن بالله ورسوله .

وكان فى حماية آل سعود للدعوة الوهابية ما يكفيها عن إعلان الجهاد على مخالفيها ، وكان فى الوسائل السلمية ما يضمن لها أن تنتشر أكثر مما وصلت إليه بالقوة ، لأن استعمالها القوة ألجأ مخالفيها إلى استعمال القوة مثلها ، وإلى المغالاة فى تشويهها وصرف الناس عنها ، فلم يؤمن بها إلا قليل جداً فى بلاد العرب ، لأنها لم تصل إليهم

على حقيقتها ، وإنما وصلت إليهم محرَّفة مشوَّهة ، ولو أنها وصلت بوسائل سلمية لآمن كثير منهم بها ، ولا سيما بعد انتشار التعليم الحديث بين المسلمين ، لأنها أقرب إلى عقول المثقفين بهذا التعليم من غيرها ، ولا يمنعهم الآن من الإيمان بها إلا عُنجهية القائمين بالدعوة إليهـــا ، وأنهم لا يزالون متأثرين بشيء من أساليب الشدة التي كانت تتخذها في أول أمرها .

وكذلك يؤخذ على الدعوة الوهابية أنها مع دعوتها إلى فتح باب الاجتهاد وقفت جامدة على تقليد مذهب ابن حنبـــل ، ولم تأخذ مما دعا إليه ابن تيمية إلا ما يتعلق بالعقائد ، فلم تأخذ شيئًا مما ذهب إليه في الطلاق الثلاث ونحوه ، مع أنه قد أُخذ بهذا أخيرًا في بعض الحكومات التي لم تتأثر مثلها به ، ولا يذكر لابن عبد الوهاب في الاجتهاد إلا بعض مسائل ليست بذات شأن ، كجعله دية المسلم ثمانمائة ريال بدلا من مائة ناقة ، مع أن المسلمين في حاجة الآن إلى اجتهاد كبير لا يقف عند ما وقف عنده ابن تيمية ، بل يرفع عنهم آثار الجمود التي مرت عليهم في تلك القرون ، وألجأتهم إلى اتخاذ ما وضعوه من القوانين .



ولىُّ الله الدهلوى

هو أبو عبد العزيز ولىُّ الله أحمد شاه بن عبد الرحيم الدهلوى العمرى ، ولد سنة ١١١٤هـ = ١٧٠٢م ، وتوفى سنة ١١٧٦هـ = ١٧٦٢م ، وقيل إنه توفى سنة ١١٨٠هـ .

وله مؤلفات منها : التفهيمات الإلهية ، وأجوبة عن ثلاث مسائل ، والإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف ، وتنوير العينين فى رفع اليدين ، وحجة الله البالغة ، ورسائل الدهلوى ، وشرح تراجم أبواب صحيح البخارى ، وعقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد ، وفتح الخبير بما لا بد من حفظه فى علم التفسير ، والقول الجميل فى بيان سواء السبيل .

وقد دافع فى رسالته - التفهيمات الإلهية - عن ابن تيمية فقال : « والذى أعتقده أنا وأحب أن يعتقده جميع المسلمين فى علماء الإسلام ، حملة الكتاب والسنة والفقه ، الذابِّين عن عقيدة أهل السنة والحديث ، أنهـم عدول بتعديل النبى ﷺ ، حيث قال : « يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدولُه » وإن كان بعضهم قد تكلم فيهم بما لا يرتضيه هذا المعتقد ، إذا كان قولهم ذلك غير مردود عليهم بنص الكتاب والسنة والإجماع ، وكان قولهم ذلك محتملا ، وكان مجال ومساغ للخوض فيه ، سواء كان قولهم ذلك فى أصول الدين أو فى المباحث الفقهية أو فى الحقائق الوجدانية ، وعلى هـذا الأصل اعتقدنا فى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعـية ، أستاذ فى النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله ، فائق فى الذكاء ، ذو لسان وبلاغة فى الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة ، اللهم إلا هذه الأمور التى ضُيِّق عليه لأجلها ، وليس شىءٌ منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنَّة وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود فى العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه فى تحريره وتقريره ، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى ، وإن كان تضييقه ذلك ناشئا من اجتهاد ، ومشاجرة العلماء فى مثل ذلك ما هى إلا كمشاجرة الصحابة رضى الله تعالى عنهم فيما بينهم ، والواجب فى ذلك كف اللسان إلا بخير . » ثم أجاب عن مسائله التى ضيقوا عليه فيها بما لا داعى إلى ذكره هنا ، وقد سبق بيانها فى الكلام على ابن تيمية .

وبهذا يكون ولى الله الدهلوى إلى حَدٍّ ما من مدرسة ابن تيمية ، لأن قوله فيه - لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة ، اللهم إلا هذه الأمور التى ضُيِّق عليه لأجلها - يشعر بأنه لم يكن

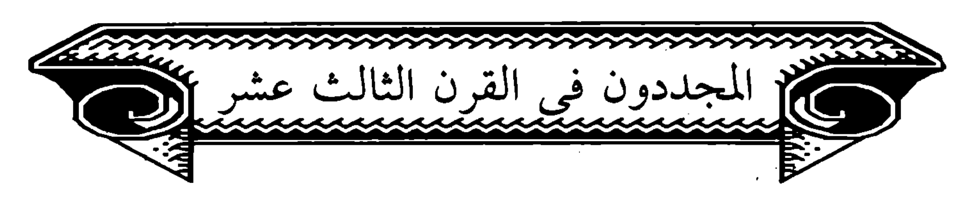
متشيعًا له فيها كل التشيع ، وإن ذكر أنه ليس شيء مما أخذ عليه إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف ·

وهذا إلى أن كتابه - القول الجميل فى بيان سواء السبيل - يقصد منه بيان أصول الطرق الأربع : وهى النقشبندية والجيلانية والجشتية والمجددية ، وهى من أشهر طرق التصوف ، وقد عُنِىَ فى هذا الكتاب ببيان أصول هذه الطرق من المبايعة والخرقة وغيرهما من أصولها ، وقد ذكر فى ذَنّبِه السابق عن ابن تيمية ما سماه الحقائق الوجدانية - وهى الحقائق التى يدركها المتصوفة بذوقهم ، وكل هذا لا تؤمن به مدرسة ابن تيمية ، فجمعُ ولى الله الدهلوى بينهما كالجمع بين النقيضين ، وإيمانه بتلك الطرق الصوفية يبعده كثيرا عن أن يكون من مجددى هذا القرن ·

على أن تقليد الدهلوى لمدرسة ابن تيمية لا يُذكر له أيضا فى هذا القرن ، كما سبق فى الكلام على محمد بن عبد الوهاب وغيره من أصحاب هذه المدرسة ؛ لأن تقليدها فى هذا القرن وفيما قبله من القرون صار إلى جمود أشد من جمود الجمهور الذين تخرّج عليهم ، وتعتقد فيهم الجمود على تقليد مذاهبهم ، ولا فرق بين الجمودين ، إلا أن الجمهور جامدون على تقليد المتأخرين كالأشعرى وغيره ، وأنها جامدة على تقليد مذهب السلف قبل الأشعرى ، مع أن الزمان قد تغير عن زمان الأشعرى والسلف ، حتى صار المسلمون فى حاجة إلى اجتهاد جديد لا يتقيد بالمذهبين ، بل ينظر فى الكتاب والسنة نظرًا جديدًا يلائم ذوق العصر الحديث ، ويوافق تحرر العقول من جمود العصر القديم ، ويكون فيه من اللين والتسامح ما يرفع عن المسلمين إصرهم وأغلالهم ، ويفتح لهم أبواب النهوض والتقدم ، لينظروا فى العلوم التى نهض بها غيرهم من الأمم فى هذا القرن ؛ ولا يتأثروا بتلك الفتاوى التى ذهبت إلى تحريمها ، وجنى بها عليهم الجامدون من أصحاب مدرسة الأشعرى وأصحاب مدرسة ابن تيمية ·

وما كان لولى الله الدهلوى أن يجهل ما وصل إليه العلم فى العصر الحديث وقد نشأ ببلاد الهند ، ورأى ما جره الجمود على أهله من التأخر ، وما أوقعهم فيه من الخلاف الذى أطمع فيهم رجال الشركة الإنكليزية ، وجعل هذه الشركة تلعب بعقولهم ، وتستولى بسهولة على بلادهم ، وتنتصر بأساليب العلم الحديث على جمودهم ، وعلماؤهم غافلون عن هذا الخطر الجديد ، لاهون بذلك الخلاف بين ابن تيمية والأشعرية ، وما إليه مما ألهاهم عن ذلك الخطر المحدق بهم ·

* * *



حال العالم فى القرن الثالث عشر الهجرى

يمتد القرن الثالث عشر الهجرى من سنة ١٧٨٦ م ، إلى سنة ١٧٨٣ م ، وقد كان للمسلمين فيه أربع دُول : الدولة العثمانية التركية ، والدولة القاجارية بفارس ، ودولة السعديين بَمرَّاكش ، ودولة محمد على باشا بمصر ، وقد زالت فى هذا القرن الدولة المغولية بالهند ؛ لأن الحكم فيها صار لشركة الهند الإنكليزية سنة ١٢٢١ هـ = ١٨٠٦ م ، ثم انتقل منها إلى الحكومة الإنكليزية سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧ م ، فانتهت بذلك أكبر دولة إسلامية بعد الدولة العثمانية التركية ، وقد أخذتها إنجلترا لقمة سائغة بدهاء رجال هذه الشركة ومكر سياستهم ، واستغلالهم لجهل ملوك الهند وتفرقهم .

فأما الدولة العثمانية التركية فقد عُرفت بين دول أوربا فى هذا القرن باسم « الرجل المريض » ، وكانت قد اتفقت فى القرن السابق على تقسيمها ، ولكنها فى هذا القرن تضاربت أطماعها فيها ؛ فكانت كل دولة منها تنتزع ما يمكنها انتزاعه منها فى غفلة الدول الأخرى ، وكان هذا يؤدى أحيانا ببعض هذه الدول إلى أن تقف فى صف هذه الدولة ، وتحارب الدولة الأوربية التى تحاربها ، ولم يكن يدفعها على مساعدتها إخلاصها لها ، وإنما كان يدفعها عليها أنها تريد أن تستبقيها لنفسها ، وكان لتضارب هذه الأطماع فضل بقاء هذه الدولة فى هذا القرن ، وإن كانت قد بقيت مريضة لا يرجى شفاؤها ؛ لأن أعداءها من دول أوربا عملوا على بقائها مريضة ، إذ كانوا يشغلونها بحروبهم المتوالية ، ويعملون على إثارة الفتن الداخلية فيها ، ويستغلون فى هذا ما حصلوا عليه من الامتيازات فى بلادها فى القرون السابقة ، فقد تمكنوا بها من استمالة بعض أهلها إليهم ، ولا سيّما الطوائف المسيحية التى كانت مرتعا لدسائسهم فكانوا يستغلونها باسم الدين ، وكانت تجهل أنهم مستعمرون سياسيون ، يريدون إعادة عهد استعباد اليونان والرومان لبلادهم ، ولا يفرقون فى استعبادهم لها بين مسلم ومسيحى من أبنائها ، وقد فقدت الدولة العثمانية فى هذا القرن أكبر أملاكها فى أوربا ، وفقدت الجزائر فى المغرب باستيلاء فرنسا عليها سنة ١٢٤٦هـ = ١٨٣٠ م ، وكانت فرنسا قد استولت على مصر سنة ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م ، ولكن الدولة تمكنت من إخراجها منها بعد ثلاث سنين بمساعدة إنجلترا ، وقد استولت بعد هذا على تونس سنة ١٢٩٨ هـ = ١٨٨٠ م .

وكان لهذه الأحداث أثرها فى هذه الدولة ، فقامت فيها حركة إصلاح من أول هذا القرن ، ولكنها لم تصل إلى شفائها من مرضها ، وسيأتى تفصيل الكلام عليها فى موضعها من هذا القرن .

وأما الدولة القاجارية بفارس ، فإنها كانت تعانى من الفساد فى هذا القرن ما تعانيه الدولة العثمانية التركية ، وكان لدولتى روسيا وإنجلترا أطماع فى بلادها ، فقامت حروب بينها وبينهما بسببها ، وكانت هذه الحروب تنتهى بفوزهما عليها ، وقد جعلها هذا تفكر فى الأخذ ببعض الإصلاحات الحديثة ، ولا سيما فى عهد ناصر الدين شاه (١٢٦٤ هـ - ١٣١٤ هـ = ١٤٨٨ م - ١٨٩٦ م) ولكنها كانت ناقصة مثل الإصلاحات التى قامت فى الدولة العثمانية التركية .

وأما دولة السعديين بمراكش فإنها فى هذا القرن كانت فى حال أسوأ من حال الدولتين السابقتين ، لأن فرنسا فصلت بينها وبين باقى بلاد المغرب باستيلائها فى هذا القرن على الجزائر وتونس ، وكان للمسلمين فى المغرب سفن تنافس السفن الأوربية ، فانتهى عهد سفنهم فى هذا القرن ، وكان آخر عهدهم بها سنة ١٢٤٠ هـ = ١٨٢٤ م .

وأما دولة محمد على باشا بمصر فقد نشأت فى هـذا القرن سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥م ، وكان هذا بعد أن أتى إلى مصر جنديا فى الحملة التى أتت لإخراج الفرنسيين منهـا ، وأصله من قولة ، وهى بلدة قديمة من مقدونية ، وكان أهل مصر هم الذين اختاروه ليكون واليًا عليهم فى هذه السنة ، وقد سعت إنجلترا عند الدولة العثمانية التركية لتعزله عن مصر ، لأنها توسمت فيه معارضة لأطماعها فيها ، ولكن أهل مصر تمسكوا به وأفسدوا سعيها عليها ، وكان محمد على باشا أقوى شخصية إسلامية فى هذا القرن ، وقد وضع نصب عينيه أن ينشىء له دولة قوية حديثة بمصر ، فقام فيها بإصلاحات كثيرة سيأتى بيانها فى موضعها من هذا القرن ، وقد تمكن بها من إنشاء هذه الدولة ، ولما رأى أوربا تحاول تقسيم بلاد الدولة العثمانية التركية على دولها ، رأى أنه أحق منها بهذا الميراث الإسلامى ، فطمع فى بلادها كما طمعوا فيها ، ولو أنه عمل على النهوض بها كما عمل فى مصر لكان خيرًا له من تلك الحروب التى أضعفتها وأضعفته معها ، وقد انتهز فرصة وقوع خلاف بينه وبين والى الشام ، وشنَّها حربًا عنيفة على هذه الدولة ، حتى كاد يستولى فى هذه الحروب على بلادها ، وينشىء دولة قوية حديثة فيها ، فحالت دول أوربا بينه وبين الوصول إلى هذا الغرض ، وعقدت صلحا بين الفريقين سنة ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٠ م ، فتركت جيوشه ما استولت عليه من هذه البلاد ، وجعلت مصر له ولذريته من بعده ، على

أن يكون عليه للدولة العثمانية التركية جزية يؤديها كل سنة ، وهذه الحرب من غلطاته التى وقع فيها ، ومثلها حربه مع الوهابيين ، وسيأتى بيان هذا فى الكلام عليه فى هذا القرن ، وكانت الإصلاحات التى قام بهـا محمد على فى مصر ناقصة أيضا ، وقد مات سنة ١٢٦٥هـ = ١٨٨٢ م ، فذهبت إصلاحاته بموته ، ومكثت مصر بعده تتأخر مرة وتنهض أخرى ، وتقـوم فيها الفتن والاضطرابات ، إلى أن احتلتها إنجلترا سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م ، وكان هذا فى عهد توفيق باشا ابن إسماعيل باشـا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا .

فانحط العلم بين المسلمين فى هذا القرن بقدر انحطاطهم السياسى ، وصـار علمًا قديما باليًا لا جدوى فيه ، ولا يناسب العصر الحديث بعد أن مضى عليه قرنان ودخل فى الثالث ، ومع هذا بقى أهله جامدين عليه جمودا شديدا ، حتى إنهم كانوا لا يرون غيره علما ، وكان أهل الأزهر يؤمنون بهذا القول المشهور - لا علم إلا أزهرى - ولا يزال كثير منا يؤمن بهذا القـول ، ويرى أن العلم هو علم الأزهر ، وأن أوربا تمتاز علينا بالصناعة فقط .

وهذا مع أن علماء الأزهر كانوا قد وصلوا فى هذا القرن إلى حالة بلغ اليأس فيها من إصلاحهم غايته ؛ لأنهم كانوا مع هذه العنجهية العلمية فى حالة عجز تام عن القيام بأى عمـل نافع ولو كان فى مصلحـة دينهم ، وقد أراد إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا أن يصلح نظام المحاكم فى هذا القرن ، وكانت لا تزال تأخذ بالأحكام الشرعية ، ولكنَّ حالَها لم يكن مناسبًا لما جدَّ من أحداث فى العصر الحديث ؛ إذ كانت جامدة على مذاهب فقهية معينة قد يكون العمل بغيرها أنسب منها لهذا العصر ، وقد يكون فى فتح باب الاجتهاد فى الفقه ما نصـل به إلى أحكام جديدة غير التى وصل إليها فقهاؤنا .

فأراد إسماعيل باشا أن يكلف علماء الأزهر بذلك الإصلاح ، لينهض بهذه المحاكم الشرعية ، ولا يضطر إلى إنشاء محاكم غيرها تعمل بالقوانين الوضعية ، وقد حكى السيد رشيد رضا نـقلاً عن على رفاعة باشا أن إسمـاعيل باشا استحضـر والده رفاعة الطهطاوى بك ، وطلب منه أن يذهب إلى شيخ الأزهر وغيره من كبار العلماء ليقنعهم بالقيام بذلك الإصلاح ، وقال له : « إنك منهم ونشأتَ معهم ، فأنت أقدر على إقناعهم ، فأخبرهم أن أوربا تضطرنى إذا هم لم يجيبوا إلى الحكم بشريعة نابليون .

فقال له رفاعة بك : « إننى يا مولاى قد شختُ ، ولم يطعن أحد فى دينى ، فلا تعرِّضنى لتكفير مشايخ الأزهر إياى فى آخر حياتى ، وأقِلنى من هذا الأمر » .

فأقاله إسماعيل باشا من هذا الأمر . وكانت نتيجة هذا اليأس من علماء الأزهر قيام المحاكم الأهلية التى عملت بقانون نابليون ، وكانت هذه أكبر نكبة أصيب بها الفقه الإسلامى ، ولا شك أن هذه النكبة يتحمل أكثر تبعتها علماء الأزهر .

وكان علماء الأقطار الإسلامية الأخرى مثل علماء الأزهر فى هذه العنجهية العلمية أو أكثر ، ولا أدل على هذا مما ذكره الألوسى المفسر[1] فى الكلام على تسخير الريح لسليمان من سورة الأنبياء ، فقد استطرد فيه إلى الكلام على ما وصل إليه من المحاولات الأولى للطيران ، فقال : « ومن العجب أنَّ أهل لندن قد أتعبوا أنفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجرى مرتفعة فى الهواء إلى حيث شاءوا بواسطة أبخرة يحبّسونها فيها ، واغترارًا بما ظهر منذ سنوات من عمل سفينة تجرى فى الماء بواسطة آلات تحركها أبخرة فيها ، فلم يتم لهم ذلك ، ولا أظنه يتم حسب إرادتهم على الوجه الأكمل ، وأخبرنى بعض المطّلعين أنهم صنعوا سفينة تجرى فى الهواء ، لكن لا إلى حيث شاءوا ، بل إلى حيث ألقت رحلها » .

ولا شك أن الألوسى فى هذا أسوأ حالا من الجبرتى المؤرخ من علماء الأزهر فقد ذكر ما شاهده يوما فى المعهد العلمى الفرنسى الذى أنشأه الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر ، وكان مما شاهده الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة ، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا أمسك علاقتها شخص ، ولو خيطا لطيفا متصلا ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتجّ بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده برجّة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا متصلاً به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفًا أو أكثر ، ثم قال : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، تنتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا[2] » .

فلم يحاول الجبرتى فى هذا أن ينتقص من قيمة علوم أوربا وآثارها فى هذا العصر ، ولم تبلغ به تلك العنجهية ما بلغت بالألوسى ، وإن كان قد نزل فى هذا بعقله وعقل علماء المسلمين فى عصره ، فذكر أن ما شاهده من ذلك مما لا تسعه عقولهم ، وهو شعور بالعجز زائد عن الحد ، وقد يدعو إلى اليأس من النهوض إلى مثل ما نهضوا إليه ، ولكنه على كل حال أقل ضررًا من تلك العنجهيّة ، لأن فيه مع هذا شعورًا بالنقص ، والشعور بالنقص أول مراتب الإصلاح .

---

(١) هو محمود بن عبد الله الحسينى الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٤ م .
(٢) تاريخ الجبرتى - جـ ٣ ص ٣٧ .

وكان ما بقى بين المسلمين من العلوم الفلسفية كالطب ونحوه قد وصل إلى أسوإ حالة من الضعف ، وكان الذى يقوم به بعض من المتفقهة فى الجامع الأزهر ونحوه من المعاهد الدينية ، وقد بقى البيمارستان المنصورى إلى سنة (١٢١٢ هـ = ١٧٩٧ م) يتولاه المشتغلون بالطب من أولئك المتفقهة ، وكان آخر من تولاه منهم الشريف السيد قاسم بن محمد التونسى المتوفى سنة ١٢١٢ هـ = ١٧٩٧ م ، وكان شيخا لرواق المغاربة بالأزهر ، وقد أهمل بعده شأن هذا البيمارستان ، فكان المرضى يتركون فيه من غير علاج ، ويكتفون بما يوزع عليهم من الغذاء ، وهو لا يزيد عن الخبز والأرز والعدس ، وقد رضوا بهذا الغذاء عن العلاج ، لأنهم كانوا لا يتصورون أن فى الإمكان تخفيف أوجاعهم .

وقد زار العالم الأثرى الألمانى جورج إيبرس هذا البيمارستان فى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى ، فذكر أنه موجود فى سوق النحاسين ، وأنهم يشتغلون فيه بعد أن تخرب ولم يبق منه سوى قبر مؤسسه - المنصـور قلاوون - ثم ذكر أن المرضى كانوا يزورون مخلفات هذا السلطان بقصد الشفاء ، فيمسون عمامته لشفاء أوجاع الرأس ، ويمسون قفطانه للشفاء من الحميات المتقطعة ، وتجتمع الفتيات من النساء والأمهات ومعهن أولادهن ، فتطلب الواحدة منهن فى القبلة من الله أن يرزقها ولدا ذكرا ، ثم يقفن فى ناحية من القبلة وينزعن براقعهن ؛ ويغطين وجوههن بأيديهن ، ويقفزن من ناحية القبلة التى وقفن فيها إلى الناحية الأخـرى قفزة واحدة ، ويكررن القفز مرارًا حتى ينهكهن التعب ، ويُرَى بعضهن من التعب ممدودات فوق الأرض مغمى عليهن حتى يفقن من غشيتهن ، وكان كثير من النسوة يأتين بالأطفال الصغار وبعضهم لم يقو بعد على المشى لفك عقدة ألسنتهم ، فيذهبن بهم إلى حجر أسود عريض هناك ويعصرن ليمونة خضراء فوقه ، ثم يأخذن فى حك العصارة على هذا الحجر بحجر آخر صغير ، حتى تتلوّن عصارة الليمونة باللون الوردى الناشىء من الحجر الأسود ، وبعد هذا يحملن الأطفال على لحس هذه العصارة ، فيصيحون صارخين من الألم ، وتُسَرُّ أمهاتهم لصياحهم ، وكلما علا صراخهم أيقنت أمهاتهم بفك عقدة ألسنتهم .

ولا شك أن هذا يبين مقدار ما وصل إليه سوء الحال فى ناحية التطبب ، وأنه انقلب فى هذا القرن إلى ذلك الجهل الفاضح ، بعد أن كان لذلك البيمارستان شهرة عظيمة فى العلاج الطبى الصحيح ، حتى أن كثيرًا من أكابر العلماء وعظماء الناس كانوا يقصدونه للعلاج ، ومنهم عثمان بن على بن عثمان بن إسماعيل بن يوسف قاضى القضاة فخر الدين المعروف بابن خطيب جبرين قاضى حلب ، ولد بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣ م ، ومرض بذلك البيمارستان ، ومات سنة ٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م ومنهم زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى رأس القضاة ، توفى سنة ٩٢٦ هـ = ١٥١٩ م بذلك البيمارستان .

فلما تخرب ذلك البيمارستان فى هذا القرن قام بدله مسجد المنصور قلاوون وقبره ،

وقام خدامه بدل أطباء البيمارستان بين النساء بذلك الجهل الفاضح ، بعد أن كان أطباء البيمارستان يقومون فيه بالعلاج الصحيح ، وأن وصلوا أخيرًا إلى ما وصلوا إليه حين صاروا من المتفقهة الذين لا يعرفون الطب إلا معرفة ناقصة ، لأنهم كانوا فقهاء أكثر منهم أطباء ، ولكنهم كانوا على كل حال يعرفون شيئًا منَ الطب ، ولا يقومون بشىء من ذلك الجهل الفاضح الذى يقوم به خدام ذلك المسجد ·

وسيكون لذلك الجمود فى هذا القرن أثره فى أولئك الجامدين على العلم القديم ، إذ تسير القافلة بيننا فى طريق العلم الحديث وتتركهم ، ثم تمضى القافلة فى سيرهم إلى أن يشتد تخلفهم عنها ، فيصبحوا وقد انتُزع كل شىء من أيديهم وصار إلى الأيدى التى آمنت بالعصر الحديث ، فتتحسن حال المسلمين بذلك بعض التحسن ، ولكنهم لا يصلون إلى كل ما كان يُرْجَى لهم فى هذا القرن ؛ لأن بقاء الجامدين على القديم بينهم يضع كثيرا من العقبات فى طريقهم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه من هذا القرن ·

وكذلك وصل حال المتصوفة فى هذا القرن إلى أسوإ حال ، حتى ظهر بُعدُهم عن الإسلام الصحيح لغير المسلمين ، فروى الجبرتى أن نابليون الفرنسى بعد دخوله مصر سأل بعض علماء الأزهر فى شعبان من سنة (١٢١٥ هـ = ١٨٠٠ م) عن الفقراء الذين يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصرخون ويدَّعون الولاية ويعتقد العوام فيهم ، ومع هذا لا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون صيامهم ، فهل مسلكهم هذا يجيزه الدين الإسلامى أو يحرّمه ؟ · · · فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لدين الإسلام · فشكر نابليون لهم هذا الجواب ، وأمر رجال الحكومة بمنع هؤلاء الفقراء من هذه الأفعال المخالفة للإسلام ، وأمر بالقبض على من يسلك مسلكهم ، فإذا كان مجنونا أرسل إلى المارستان ، وإذا لم يكن مجنونا نُفى من القاهرة · وقد يشكر لأولئك العلماءِ جوابهم هذا لنابليون ، ولكن أىَّ عذر لهم فى ترك أولئك الفقراء المدعين للولاية يشوِّهون الإسلام بتلك الأعمال إلى ذلك الوقت؟ · · · وأى عذر لهم فى السكوت عنهم إلى أن ينبههم نابليون إليهم ؟ · · · ألم يكونوا يرونهم كل يوم وهم يأتون تلك الأعمال ؟ · · · ألم يكونوا يدركون أنها أعمال لا يجيزها الدين الإسلامى ؟ · · · اللهم إنهم إذا كانوا يدركون هذا وسكتوا عنه فإن نابليون المسيحى كان أبرَّ منهم بدينهم ، ولعل السبب فى تنبه نابليون إلى منع تلك الأعمال دونهم أنه كان مثقفا ثقافة حديثة تدرك بالبداهة قبحها ، وأن ثقافتهم كانت ثقافة قديمة جامدة ، قد ألفتْ مشاهدة تلك الأفعال التى تدخل فى دائرة الجمود والرجعية ، فكان كل من الفريقين مشتركا فى هذه الدائرة ، فلا يصح أن ينكر أحدهما على الآخر ·

على أن الحال لم يلبث أن عاد بعد هذا إلى مثل ما كان عليه أو أسوأ منه ؛ لأن

الحكام المستبدين رأوا أنهم فى حاجة إلى أولئك المتصوفة ، ليعملوا على بقاء المسلمين فى غفلة عن استبدادهم ، وينشروا بينهم الرضا بالفقر والحرمان ، والخضوع للقهر والظلم ، فقد اشتد خوفهم على حكمهم بعد اتصال المسلمين بأهل أوربا فى هذا القرن ؛ لأنهم رأوا ما يتمتع به أهلها من السعادة فى ظل الحرية والعدل والمساواة ، فرأوا أن يعملوا على بقاء جمهرتهم على غفلتهم بتقديسهم لأولئك المتصــوفة ، ومشاركتهم لهم فى تعظيمهم وتكريمهم .

وقد كان إسماعيل باشا الخديو يعمل فى هذا القرن على أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، فأخذ ينشر فيها وسائل المدنية الحديثة بما هو معروف فى تاريخه ، ولكنه لم يحاول أن يصلح طريقة الحكم الاستبدادى فيها ، فمشى فيما أراده من نشر وسائل المدنية الحديثة فى مصر بإسراف وصل بها إلى أسوإ حال من الفقر ، لأنه لم يجد من الأمة رقيبا يحاسبه على هذا الإسراف ، ولم يجد مع هذا إلا أن يعمل على بقاء جمهرة الأمة فى غفلتها عن فساد حكمه ، فكان يشاركها هو وحاشيته فى التقرب إلى أولئك المتصوفة ، وفى إظهار التعظيم والتكريم لهم ، وفى قصدهم لقضاء الحاجات ، ولمعرفة ما فى مستقبلهم من أمور الغيب ، فإذا ماتوا شيَّدوا لهم المساجد ، وأقاموا القباب العالية على قبورهم ، ووقفوا الضياع الواسعة على مساجدهم .

ومن هذا ما كان منه مع الشيخ صالح أبى حديد ، فقد كان الشيخ صالح - كما جاء فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا - قاطع طريق فى أول أمره ، وكان يستتر بزى الصوفية وله أتباع يستترون بهذا الزى ، وكان منهم تابع يجلس على مكسلة بيت متخرب بحارة درب سعادة ، وللناس فيه اعتقاد كبير ، وكان يستمر جالسا فى هذا المكان إلى الليل فإذا مر عليه رجل ليس معه غيره قال - يا واحد - فيخرج من البيت المتخرب أتباع له يحتاطون به ، ويُدخلونه البيت كرها ، فيقتلونه ويسلبون ما معه ، وقد استمروا على هذا زمنا طويلا ، إلى أن ظهر أمرهم لرجال الحكم ، فأقروا بمشاركة الشيخ صالح لهم ، فلما علم بإقرارهم لجأ إلى امرأة مغنية مشهورة فاحتمى بها ، فادعت أنه مجنون ووضعت فى رجليه قيدًا من حديد ، وقد اعتقل لسانه عن الكلام من شدة الخوف ، ثم بقى على هذا مدة حتى شاع بين الناس أنه من الأولياء ، وأن له كرامات ومعرفة بالمغيَّبات ، وذلك بوساطة من اجتمع حوله من الأوباش ونحوهم ، فقصده الرجال والنساء والعامة والخاصة للتبرك به ، ولمعرفة ما فى مستقبلهم من أمور الغيب ، وقد قصده إسماعيل باشا لمعرفة ما يكون فى بعض أموره ، فأشار له إشارة استبشر بها ، وحصل له ما فهمه منها ، فزاد اعتقاده فيه ، وناله كثير من خيراته ، ولما مات بنى له مسجدا كبيرا ، وأقام على قبره قبة

عالية ، ووقف عليه ما وقف من أرض ونحوها ، ولا شك أن هذا يعطينا سببا من الأسباب التى أخفق بها إسماعيل باشا فى إصلاحاته ؛ لأن من يعتقد فى مثل الشيخ صالح إلى هذا الحد لا بد أن يتعثر فى طريق الإصلاح ،فلا يمكنه أن يصل فيه إلى ما يرجوه من النجاح .

وبلغ من أمر المتصوفة فى هذا القرن أنه كان يرجع إلى نقيبهم فى مصر فى أمورها السياسية والدينية ، حتى إن منصب شيخ الجامع الأزهر كان لا يتم إلا بموافقته .

وقد تولى السيد على البكرى نقابة الأشراف سنة ١٢٧١ هـ = ١٨٥٤ م ، فكان خديو مصر يرجع إليه فى أمور الدولة ، لأنه كانت له رئاسة دينية تتناول السيطرة فى الحقيقة على العلماء والأشراف ومشايخ الصوفية ، حتى إنه كان هو الذى يرشح العلماء لمنصب شيخ الأزهر ، فلا يتولاه عالم منهم إلا بعد موافقته على ترشيحه ، كما حصل عند تولية الشيخ إبراهيم البيجورى هذا المنصب ، فإنه ذهب قبل توليته إلى منزل السيد على البكرى ، وصار ترشيحه فيه بعد كتابة الاتفاق الآتى :

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين - هو أنه لما كان يوم الأحد المبارك الموافق (١٩ شعبان سنة ١٢٦٣ هـ) حضر بمجلس سعادة الأستاذ الأعظم السيد البكرى نقيب السادة الأشراف حالا - دامت سيادته - حضرة شيخ الإسلام وعلامة الأنام ، الشيخ إبراهيم البيجورى ، وحضرة الأستاذ فخر العلماء شيخ السادة المالكية الشيخ محمد حبشى ، وحضرة الأستاذ والكهف الملاذ العلامة الشيخ محمد التميمى المغربى ، وجناب الأستاذ العمدة الفاضل الشيخ عثمان الساوى ، والعالم العلامة الشيخ على خليفة وحضرة الفاضل الشيخ أحمد منا ، ووقع الاتفاق ما بين الجميع مع حضرة الأستاذ الشيخ إبراهيم البيجورى المذكور قبل حضور الفرمان الشريف بتوليته على الجامع الأزهر أن يكون على أحسن حالة وأتم صفة من الكمالات التى يقتضيها مظهر شياخة الأزهر على طبق أحوال السلف ، وأن يكون طبق الأصول المعروفة للجميع الموافقة للطباع الحميدة ، من سعة الصدر ، وحصول الحلم ، وعدم التعرض للأمور التى لا تدخل تحت رسوم الجامع الأزهر ، مثل ما يتعلق بالزوايا والفقراء التى تحت حكم سعادة السيد البكرى ، كالمقرأة التى فى الزوايا ، ومشيخة المقارىء ، وخلافة الأضرحة ، كالسيد البدوى ، مشايخ التكايا والأضرحة والطرق ، فلا تعرُّض له بشىء من ذلك ، وأن الأمر فى المهمات يكون شورى مع الجميع من رؤساء الأزهر ، وبذلك يتحقق قول من صدر منهم الشهادة لسعادته من المذكورين لحضرة سعادة وكيل والى مصر - دام عزه - وقد شهدوا بما يعملون من الكمالات ، ومن علم وصلاح وتقوى وكمال ، وقد التزم سعادة الشيخ المذكور بالعمل بجميع ما ذكر طبقًا لبقاء شهادتهم ، فلذلك سارع الحاكم بالإجابة لما

طلبوا ، ولعلمه أيضًا بحال الأستاذ المذكور ، فنسأل الله دوام ذلك وزيادة ، نسأله سبحانه التوفيق له وللجميع ببركة سيدنا أبى بكر الصديق ، وسيدنا الإمام الشافعى ، وآل بيت رسول الله أجمعين » .

ثم أرسل هذا الترشيح إلى سعيد باشا خديو مصر ، فكتب إلى السيد على البكرى ما يأتى :

« حضرة فرع الشجرة الزكية ، وطراز العصابة الصدِّيقية ، قد عرض علينا إنهاكم الرقيم ٢٢ - الحاضر ، وسننظر فيما يقتضى بحسب التوفيقات ، جعلنا الله وإياكم من الموفقين برضاه ، بحرمة خاتم أنبياه » .

فأما **أوربا** فإنها قد بلغت غاية عظمتها فى هذا القرن ، حتى صارت فيه هى المتسلطة على أمور العالم ، تصرفها على وفق مصلحتها ، وتديرها كما تشاء سياستها ، وكان أظهر دُوَلها فيه إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا ، ولولا تنافسها على حكم العالم لتمّ لهـــا التسلط عليه كله ، وهذا القرن يقابل فيها القرن التاسع عشر الميلادى إلا قليلا منه .

فأما **إنجلترا** فقد صارت أقوى دولة فى هذا القرن ، إذ امتلكت فيه ناصية البحار ، وبلغ أسطولها من القوة ما لم يبلغه أسطول دولة أخرى ، فامتلكت به ما امتلكت من الأقطار فى القارآت القديمة والحديثة ، حتى اشتهرت بأن الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها ، وكان عصرها الزاهى فى هذا القرن على عهد الملكة فيكتوريا (١٢٥٣ - ١٣١٩ هـ = ١٨٣٧ - ١٩٠١ م) فإنها وصلت إلى ما وصلت إليه فى عهد هذه الملكة ، وكم من ملكات فى أوربا كان لهن فضل كبير فيما وصلت إليه من عظمة .

وأما **فرنسا** فإنها ابتدأت هذا القرن بثورتها المشهورة ، وهى المعروفة باسم الثورة الفرنسية ، وقد وقعت سنة ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩ م ، وكان لآراء فولتير وروسو فى القرن السابق أثر كبير فى قيام هذه الثورة ؛ لأنها قامت على أساس أن كل مجتمع سياسى يدّعى حق حكمه لنفسه إنما يستمدُّه من نفسه لا من حاكمه ، وإذا أدرك الناس فى هذا المجتمع معنى هذا الحقِّ فإنه يصعب عليهم الاستكانة لمن يسلبه منهم ، ويكون لهم الحق فى الثورة عليه لاسترداده منه ، وبهذا تكون الثورة عليه مشروعة ، وهذا كله مستمد من آراء روسو وغيره من فلاسفة القرن السابق ، وحتى كانت آراء روسو إنجيلا سياسيا لهذه الثورة ، ومنها استمد أصحابها قانونهم المعروف بقانون حقوق الإنسان ، ومما جاء فيه : « إن الناس سواء فى الحقوق والواجبات ، وإن القانون هو إرادة الشعب ، وإن لكل شخص الحق فى الاشتراك بشخصه أو بمن ينوب عنه فى تشريع هذا القانون ، وإنه لا يجوز اتهـــام شخص

أو القبض عليه أو محاكمته إلا بمقتضى القانون ، وإن لكل شخص حق الحرية الفكرية والدينية فى حدود المصلحة العامة ، وإن النظام الأساسى للحكم هو إخضاع القوة التنفيذية للقوة التشريعية ، إلخ إلخ » .

وكانت هذه الثورة فى عهد لويس السادس عشر ، وقد انتهت بقتله وإعلان الجمهــورية الفرنسية الأولى ، فسقطت بها الملكية فى فرنسا ، وسقط سلطان الكنيسة الدينى ، فاستولت حكومة الجمهورية على أملاك الكنيسة ، وقللت عدد رؤسائها ، وأصلحت نظامها على الوجه الذى يجعلها هى المسئولة عن إقامة الشعائر الدينية وصرف مرتبات رؤسائها ، ويجعل تعيين القسس والأساقفة بالاختيار ، ويجعلهم ملزَمين بحلف يمين الطاعة لنظام الحكم الجمهورى ، وكانت هذه الثورة أعظم حدث أوربىّ فى هذا القرن ، لأنها هزّت عروش ملوكها ، وأيقظت شعوبها من غفلتها ، فأخذت تطالب ملوكها بحق مشاركتها لهم فى الحكم ، ليكون حكما دستوريا صالحا ، فظفر كثير منها بهذا الحق ، وصارت حكوماتها حكومات دستورية لها مجالس نيابية تشاركها فى الحكم .

وأما **ألمانيا** فإنها كانت إمارات منفصلة ، يحكم كل إمارة منها ملك أو أمير ، وكان أشهرها مملكة بروســيا ، وقد تم اتحادهــا تحت حكـــم ملك بروسيا غليوم الأول سنة ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ، وبهذا تمت عظمة ألمانيا فى عهد ذلك الملك ، وكان هذا بحسن سياسة وزيره بسمرك ، وهو أعظم سياسيى أوربا فى هذا القرن .

وأما **النمسا** فكانت قبل هذا القرن تحكم الشعوب الجرمانية ، وكانت أعظم مملكة فى أوربا ، فلما كانت حروب الجمهورية الفرنسية مع ألمانيا فى آخر القرن الثامن عشر الميلادى وحروب نابليون الأول فى أوائل القرن التاسع عشر ضاع منها جانب كبير من أملاكها فى ألمانيا وإيطاليا ، ونزل فرنسيس الثانى ملكها عن سلطنته الجرمانية ، واقتصرت سلطنته على ممالك النمسا ، ولكنها عادت بعد سقوط نابليون فاستعادت بعض ما فُقد منها ، وبقيت فى هذا القرن من دول أوربا العظمى .

وأما **روسيا** فكانت فى هذا القرن من دول أوربا العظمى أيضًا ، ولكنها لم تكن متقدمة مثلها فى العلوم والمعارف ؛ لأن ملوكها كانوا يحكمونها حكمًا استبداديا ، وقد تألفت فيها جمعيات ثَورية سرِّية لمقاومة هذا الاستبداد ، ولكنها لم يمكنها التغلب عليه فى هذا القرن ، إلى أن قامت فيها الثورة الشيوعية التى تحكمها الآن .

وأما **إيطاليا** فكانت قبل هذا القرن خاضعة لبعض دول أوربا من النمسا وفرنسا وغيرهما ، وكان بها إمارة تسمى إمارة سردينيا ، وقد أمكنها فى هذا القرن أن تجمع إيطاليا كلها تحت حكمها ، وكان هذا فى عهد أميرها عمانوئيل الثانى ، فنودى به ملكـا على

إيطاليا كلها سنة ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م ، ولم تزل إيطاليا تتقدم بعد هذا حتى صارت من دول أوربا العظمى ، وهى الآن حكومة جمهورية .

وكان التقدم العلمى فى أوربا يسير فى هذا القرن مع التقدم السياسى جنبًا لجنب ، فأدَّى تقدُّمها العلمى إلى اختراعات جديدة غير الاختراعات التى ظهرت فى القرن السابق ، فاخترع فى هذا القرن : التليفون (المسرَّة) والفونغراف (حاكى الصوت) وغيرهما من الاختراعات ، إلى أن وصلت إلى اختراع القنابل الذرية وغيرها من الاختراعات الذرية .

فلما رأى المسلمون فى هذا القرن ما حل بهم من النكبات بسبب تقدم أوربا عليهم فى علومها وأنظمتها الحديثة، رأى الذين شعروا منهم بالخطر المحدق بهم أنهم لا بُدَّ لهم من تقليد أوربا فى علومها وأنظمتها التى نهضت بها ، وهذه الأنظمة بعضها يرجع إلى نظام الحكم ، وبعضها يرجع إلى نظام الحرب ، وبعضها يرجع إلى غيرهما من الأنظمة ، أما الذين لم يشعروا بهذا الخطر من الجامدين على القديم فلم يَروا تقليد أوربا فيما جدَّ عندها من علم وأنظمة ، بل رأوا أن الخطر فى تقليد أوربا فى هذا الجديد ، لأنه يؤدى إلى ضياع الدين والدولة ، ويصير بنا إلى أن نكون تابعين لأوربا ، وكان الذين يرون هذا هم العامة وأشباه العامة من رجال الدين ومَن إليهم من الجامدين على القديم ؛ لأنهم رأوا فى الأخذ بالتجديد الأوربى خطرًا عليهم ؛ ولكنهم أرادوا أن يسوِّغوا موقفهم منه ، فجعلوه خطرًا على الدولة والدين ، وكان ملوك المسلمين وأمراؤهم مترددين بين الفريقين ، لأنهم كانوا يخشون أيضا من ذلك التجديد على سلطانهم ، فكان بعضهم يأخذ به إلى الحدِّ الذى لا يَحدُّ من سلطانه ، وبعضهم يقف على رأس المعارضين له .

وهذه قصة التجديد فى هذا القرن فى الدولة العثمانية التركية :

كان السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ - ١٢٢٢ هـ = ١٧٨٩ - ١٨٥٧ م) أوَّل من أدرك فى هذا القرن الخطر المحدق بالدولة العثمانية التركية ؛ لأن جيوشها صارت لا تقوى على جيوش الدول الأوربية ، لتمسكها بأنظمتها وأسلحتها القديمة ، وقد صارت لا تقوى على الأنظمة والأسلحة الأوربية الحديثة ، إذ تغير بها نظام الحرب الحديث ، حتى صار يعتمد عليها أكثر مما يعتمد على شجاعة الجند ، وكان جيش الدولة يتألف من طائفة الإنكشاريَّة كما سبق ، وهو الاسم الذى اختاره لها رئيس طريقة البكطاشية الصوفية ، ومعناه الجيش الجديد ، وقد أفاد هذا الجيش الدولة حين كانت الحرب تعتمد على شجاعة الجند ، وقبل أن يتغير نظام الحرب فى هذا العصر الحديث ، ويسير نظام الإنكشارية قديما فاسدًا ، بعد أن كان جديدًا صالحا ، ولكن طائفة الإنكشارية كانت رجعية جامدة متأثرة بانتسابها إلى طريقة البكطاشية ، فلم تكن ذات عقلية مستنيرة فى الدين والعلم ، بل كان

لها نظام يدخله بعض الخرافات والبدع ، ومن هذا أنهم كانوا يعظِّمون القدور التى يتناولون فيها طعامهم ، فكانوا لا يفارقونها فى سِلْم ولا حرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجيوش عن أعلامهم ، لأنهم كانوا يعدون ضياعها فى الحرب أكبر عار يلحقهم ، وكانوا إذا أرادوا عصيان رؤسائهم يقلبونها أمام منازلهم .

فرأى السلطان سليم أن يؤلف من غير هذه الطائفة الرجعية جيشًا جديدا على نظام الجيوش الأوربية ، واختار كوشك حسين باشا لتأليف هذا الجيش ، وكان من الشبان الأذكياء الذين درسوا أحوال أوربا ، وعرفوا أسباب نهوضها ، فشرع فى تأليف فرق جديدة وتدريبها على النظام الأوربى الحديث ، واختار لهذا ضابطا إنجليزيا مسلما يسمى مصطفى ، ثم اجتهد فى إصلاح الثغور ، وفى بناء الحصون القويَّة لحمايتها ، وأنشأ عِدَّة سفن حربية على نظام أحدث السفن الفرنسية والإنجليزية ، وأحضر عددًا كبيرًا من نوابغ المهندسين من السويد وفرنسا لصنع المدافع وغيرها من آلات الحرب الحديثة ، وأصلح مدرسة الطوبجية - المدفعية - التى أنشأها البارون دى توت المجرى ، وأنشأ بها مكتبة تحتوى على أهم ما كُتِبَ فى الرياضيات وغيرها من الفنون الحربية الحديثة ، ليطَّلع عليها تلامذتها ، ويعرفوا كل ما يوصلهم إلى إتقان فن الطوبجية ، ثم وضع نظامًا جديدًا لفرقة المشاة ، إلى غير هذا من الإصلاحات الكثيرة التى قام بها .

فثارت لهذا التجديد طائفة الإنكشارية ؛ لأنهم عرفوا أنه سيكون مقدمةً لإلغاء طائفتهم ، فثاروا عليه باسم الدين ، وساعدهم فى ثورتهم طائفة العلماء الرجعيين ، وما زالوا يسعون عند السلطان سليم حتى أمر بإبطال هذه الإصلاحات ، لأنه لم يكن يعرف من الدين ما يمكنه أن يَرُدَّ به على أولئك الرجعيين ، وكان الجمهور من العامة وأشباه العامة متأثرًا بهذه الرجعية ، وقد ألفها من قرون مضت ، فصعب عليه أن يقبل هذه الإصلاحات الحديثة .

ولكن كوجك حسين باشا صعب عليه أن تضيع إصلاحاته بعد تعبه فيها ، فألَّف فرقة من جنده الحديث وأخذ ينفق عليها من ماله ، وكان الشبان يُقبلون على الانضمام إليها لأنهم أنصار التجديد فى كل عصر ، وكان الإنكشارية يقفون بالقرب منهم وقت تدريبهم على النظام الحديث ، ويأخذون فى الاستهزاء بهم وتهديدهم ، فلا يلتفتون إليهم ، ولا يؤثر تهديدهم فيهم ، وقد ظهر فضل هذه الفرقة حين ذهب نابليون من مصر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فكانت أقدر من الإنكشارية على حربه الحديثة ، وكان لها فضل كبير فى رَدِّه عن عكا .

فلما رجعت هذه الفرقة بعد فوزها فى هذه الحرب أمر السلطان سليم بأن تكون

نفقتها على الحكومة ، ثم انتهز فرصة ذهاب الإنكشارية لإخراج نابليون من مصر ، فأمر بفصل المدفعية عن الإنكشارية وتدريبها على النظام الحديث ، وكذلك فعل فى البحرية ، ثم أمر بإنشاء أورطتين من السوارى والآيَيْن من المشاة على النظام الحديث ، وجعل لكل منهم موسيقى عسكرية ، وإمامًا لتعليمهم الدين والإمامة بهم فى الصلاة ، ثم أمر عبد الرحمن باشا والى القرمان بإنشاء عدة آلايات وتدريبها على النظام الحديث ، فأتمَّ بعد ثلاث سنوات تنظيم ثمانية آلايات كاملة الْعَدَدِ والْعُدَد ، وقد ظهر فضل هذا الجيش فى فتنة قامت بالروملى ، فإنه أرسل لقمعها بعد أن عجزت الإنكشارية عنها ، فتغلب على الثائرين فى مُدَّة وجيزة ، ورجع تخفق عليه أعلام النصر .

وحمل هذا النجاحُ السلطانَ على أن يأمر بجمع شبان الانكشارية وغيرهم وتدريبهم على النظام العسكرى الحديث ، فقام بهذا كثير من الولايات ، حتى انتشر هذا النظام ووصل إلى مصر ، فذكر الجبرتى فى حوادث المحرَّم من سنة (١٣١٧ هـ = ١٨٠٢ م) أن والى مصر اتخذ عسكرًا من طائفة التكرور ، وجعل لهم لباسًا يشبه لباس الجنود الفرنسية ، وأخذ يدربهم على ما يسمى النظام الجديد .

فلما رأى الإنكشارية انتشار هذا النظام قاموا عليه بثورة أشدّ من الثورة السابقة ، وساعدهم عليها أعداء الإصلاح من علماء الدين وطلابهم ، فأذعن السلطان لهم ، وأرسل العساكر النظامية إلى ولايات آسيا الصغرى ، وعزل الوزراء المناصرين للنظام الحديث فى الجيش ، وجعل أغا الإنكشارية رئيس الوزراء ، فألف وزارة من أعداء هذا النظام ، فعملت هذه الوزارة على القضاء عليه ، ورأت أن هذا لا يتم إلا بعزل السلطان سليم ، وقد ساعدها على هذا وفاة المفتى الذى كان يرى أنه لا شىء فى هذا النظام من جهة الدين ، فعينت مكانه مفتيًا من أنصار الرجعية والجمود ، وقد أفتى هو وجماعة من العلماء بأن هذا النظام بدعةٌ مخالفة للشرع ، لما فيه من مشابهة النصارى فى الملابس ، فثارت العامة وأشباه العامة باسم الدين على المناصرين لهذا النظام من الوزراء وغيرهم ، وأخذوا يدخلون عليهم منازلهم ويقتلونهم ، ثم طلبوا عزل السلطان لأنه يناصر هذا النظام ، وذهبوا إلى ذلك المفتى يستفتونه فى عزله ، فأفتاهم بأن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحًا للملك ، فعزل السلطان سليم بهذه الفتوى فى ٢١ من ربيع الآخر سنة ١٢٢٢ هـ = ٢٨ من يونية سنة ١٨٠٧ م ، وتولى بدله السلطان مصطفى الرابع ، وكان السلطان سليم قد أرسل إلى مصطفى باشا البيرقدار يستنجده على القائمين بهذه الثورة ، فأقبل فى ستة عشر ألفًا من الجنود النظامية ، فوجدهم قد عزلوه وأقاموا السلطان مصطفى ، فطالبه بإرجاع السلطان سليم والتنحى عن الملك فلم يجبه إلى

طلبه ، وأمر بقتل السلطان سليم وإلقاء جثته إلى الجنود النظامية ، لينصرفوا بعد أن ييأسوا من عودته بقتله ، ولكن هذا زاد من سخطهم عليه ، فثاروا عليه وعزلوه بعد أن حكم ثلاثة عشر شهرًا ٠

وتولى بعد السلطان مصطفى السلطان محمود الثانى (١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ = ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) فجعل مصطفى باشا البيرقدار رئيس وزرائه ، وأمره بتنظيم الإنكشارية ليعيدها إلى قوتها الأولى ويقضى على ما أصابها من ضعف وفوضى ، ويدربها على الأنظمة الحديثة ، فأخذ يعيد النظام إلى هذه الطائفة ، وأمرها بملازمة مساكنها العسكرية ، ولا سيما غير المتزوجين منها ، وقطع مرتبات من لم يلازم هذه المساكن ، ثم أعاد إليها الضباط النظاميين ليدربوها على النظام الحديث ، ولكنها لم تلبث أن ثارت على هذا النظام ، فقامت حرب بينها وبين مصطفى باشا البيرقدار انتهت بقتله ، فأذعن لهم السلطان محمود ، وأمر بإلغاء النظام الحديث المفروض عليهم ، وكانوا قد أشعلوا النار فى إستانبول ، حتى كادت تأتى على منازلها ٠

ثم شغل السلطان محمود عن هذا الإصلاح بما قام فى الدولة من حروب داخلية وخارجية ، كالحرب الوهابية والحرب اليونانية ، وكانت الحرب الوهابية ترجع إلى خلاف دينى بين العقيدة الأشعرية والعقيدة السلفية ، وما كان يصح أن يؤدى الخلاف بين الفريقين إلى الحرب بينهما ، وقد انتهت بالقضاء على دولة السعوديين الأولى فى هذا القرن ٠

واشتركت الجنود المصرية النظامية بقيادة إبراهيم باشا بن محمد على باشا فى الحرب اليونانية ، وكان لها أثر ظاهر فى هذه الحرب ، فلما رأى السلطان محمود ما كان لها من هذا الأثر ، أراد أن يعود إلى إصلاح جيش الدولة بعزم أشد من الأول ، فجمع أعيان الدولة ورؤساء الإنكشارية ، وعرض عليهم ما أراده من إصلاح الجيش ، حتى يصل إلى ما وصلت إليه الجيوش الأوربية الحديثة ، فوافقوه على ما أراده من الإصلاح ، ووضعوا له قانونًا مؤلفًا من أربعين مادة ، ثم عرضوه على مفتى الدولة فأفتى بجواز العمل به شرعًا ، ومعاقبة مَن يعارض فى تنفيذه ، ولكن الإنكشارية ثاروا على هذا القانون ، وضموا إليهم كثيرًا من العامة ، فجمع السلطان العلماء واستفتاهم فى أمر هذه الطائفة ، فأنكروا عليها ما تقوم به من الثورة ، وساروا هم وطلابهم مع السلطان لقتالها ، وكان معهم فرقة من المدفعية ، فسلطوا عليها مدافعهم حتى قضوا عليها ، وأصدر السلطان بعد هذا أمرًا بإلغاء هذه الطائفة وأنظمتها فى جميع ولايات الدولة ، وكان هذا فى سنة ١٢٤١هـ = ١٨٢١ م ٠

وتولى بعد السلطان محمود السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ - ١٢٧٧ هـ = ١٨٣٩ -

١٨٦١ م) وكانت أحوال الدولة فى غاية الاضطراب ، وقد كثرت الفتن بين طوائفها المختلفة ، وصارت دول أوربا تهددها بالتدخل لحماية المسيحيين من رعاياها وإنصافهم ، فلم يكد السلطان عبد المجيد يتولى الملك حتى وضع منهاجا إصلاحيا لحكمه قال فيه :

« لا يخفى على الناس أن دولتنا العلية جرت منذ ظهورها على مراعاة الأحكام القرآنية والقوانين الشرعية ، فبلغت بهذا ما بلغت من المجد ، ثم انحرفت عن هذا منذ خمسين ومائة سنة ، فانقلبت من القوة إلى الضعف ، وقد أردنا منذ تولينا الملك أن نعمل على إعادة مجد دولتنا ، ونسعى فى إسعاد أهلها ، ونأخذ بالأسباب التى توصل إلى هذا فى خمس سنين أو عشر ، فرأينا أنه لا بُدَّ من وضع قوانين جديدة تصلح إدارة الدولة ، وتحفظ الأمن فى البلاد ، وتنظم جباية الخراج ، فيبطل نظام الالتزام - الإقطاع - ويوضع خراج مناسب على كل فرد لا يزيد ولا ينقص ، ثم تنظم الجندية فتوزع بالتساوى على البلاد ، وتكون إلى زمن محدود ، ثم تنظم القضاء ، فلا يعاقب شخص قبل أن تقام عليه دعوى ، وينظر فيها بكل دقة ، ثم تنظم حقوق الملكية ، فيكون كل شخص حراً فيما يملك ، وليس لأحد أن يمنعه من التصرف فيه ، ثم تنظم حقوق الطوائف ، فَيسوى بين المسلمين وغيرهم ، ولا يكون هناك فرق فى حق أو واجب بين أهل الأديان المختلفة ، ثم تنظم مجلس الأحكام العدلية ، فيجتمع أعضاؤه فى أيام معينة ، ويتناقشون فى أمور الدولة بحرية تامة ، ويجب تنفيذ كل قانون يضعونه » ، ثم ختم هذا المنهاج بأنه سيجمع العلماء ووكلاء الدولة - أعضاء المجلس السابق - ليحلف أمامهم على احترام هذا المنهاج ، ويحلفوا أيضًا على احترامه ، ويكون هذا عهدا بينهم جميعًا على احترام هذه القوانين ، ومعاقبة كل من يخالفها بما يستحقه .

ولكن السلطان عبد المجيد لم يكد يضع هذا المنهاج حتى شغل عنه بالحرب التى أعلنتها روسيا على دولته ، فانصرف عنه بتوالى الفتن فى الدولة ، وأهمل القيام بتلك الإصلاحات إلى سنة ١٢٧٣ هـ = ١٨٥٦ م ، ولم يهمه منها بعد أن مضى على إهمالها هذا الزمن الطويل إلا ما يتعلق بإصلاح حال غير المسلمين من الرعية ، والمحافظة على امتيازاتهم القديمة ، لِيُرضى بهذا دُول أوربا ، ويمنعها من التدخل فى أمور الدولة مع أن إصــلاح حال غير المسلمين لا يتم إلا بإصلاح حال المسلمين ، لأن حال الرعية كحال الجسم ، لا يتم إصلاح كل منهما إلا بإصلاح أعضائه كلها ، على أن الدُّول الأوربية لم تكن مخلصة فى طلب إنصاف المسيحيين من رعايا الدولة ، لأنها هى التى كانت تحركهم إلى الفتنة ليقع الظلم عليهم ، ولا شك أن الذى يبدأ بالفتنة أظلم ، فلم يكن إنصاف هؤلاء المسيحيين يهمُّ هذه الدول ، وإنما كان يهمها أن يستمرُّوا فى تدبير الفتن ، ليستمر ما تسميه ظلما عليهم ، ويتأتى لها أن تتدخل فى أمور الدولة بسببهم .

وتولى بعد السلطان عبد المجيد السلطـان عبد العزيز (١٢٧٧ - ١٢٩٣ هـ = ١٨٦١ - ١٨٧٦ م) فأراد أن يكسب رضا الدول الأوربية بإنشاء محاكم نظامية على مثال محاكم أوربا ، فألف لجنة من أشهر العلماء لوضع مجلة الأحكام العدلية ، لتكون قانونا تجرى عليه هذه المحاكم ، فقامت بوضعها ومهدت لها بتقرير قدّمته إلى محمد أمين عالى باشا رئيس الوزراء فى غرة المحرم من سنة ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ م ، وقد قالت فيه :

« لا يخفى على حضرة الصدر العالى أن ما يتعلق بالدنيا من علم الفقه ينقسم إلى مناكحات ومعاملات وعقوبات ، وكذلك القوانين السياسية للأمم المتحضرة تنقسم إلى هذه الأقسام ، ويُسمى قسم المعاملات منها باسم القانون المدنى ، ولما اتسعت المعاملات التجارية دعت الحاجة إلى استثناء كثير من المعاملات ، كالحوالات وأحكام الإفلاس ، فوضع لها قانون يسمى القانون التجارى ، ولا يخفى أن علم الفقه بحر لا ساحل له ، ولا سيما مذهب الحنفية ، لأنه لم يحصل فيه تنقيح كما حصل فى فقه الشافعية ، فلا تزال مسائله متشعبة متفرقة ، وتمييز القول الصحيح فيها عسير جداً ، وكذلك تطبيق الحوادث المختلفة عليها ، ولهذا دعت الحاجة إلى تأليف كتاب فى المعاملات الفقهية يضبط مسائلها ، ويجمع الأقوال المختارة دون غيرها ، ويُرتب ترتيبا يُسهل استخراج الأحكام منه ، فيصير مرجعًا للمحاكم الشرعيـة ، ويغنى عن وضع قانون لدعاوى الحقوق التى تُرى فى المحاكم النظامية ، ولأجل هذا قمنا بمشروع هذا الكتاب ، لتحصل به الكفاية فى تطبيق المعاملات الجارية على القواعد الفقهية بحسب احتياجات عصرنا ، فرتبنا مجلة مؤلفة من المسائل والأمور التى يكثر وقوعها ، مجموعة من أقوال الحنفية الموثوق بها ، وقسمناها إلى كتب متعددة ، وسميناها الأحكام العدلية ، فإذا حازت القبول لدى حضرتكم أمرتم بالاعتماد عليها فى الأحكام ، والأمر لولىّ الأمر » .

والناظر فى هذا التمهيد يجد أن ما أتت به تلك المجلة لا يجاوز ترتيب الأحكام الفقهية وتنظيمها ، وليس هذا هو الإصلاح الذى يقوم على أساس فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ويتخلص من جمود الفقهاء بعد تحريم الاجتهاد نحو عشرة قرون .

فهذا هو تاريخ المحاولات الإصلاحية التى قام بها ملوك هذه الدولة بتأثير ضغط الحوادث الخارجية والداخلية فى هذا القرن ، وهى محاولات لا تتناول صميم الإصلاح ، ولا تقضى على الجمود السياسى والدينى والعلمى المتفشى فى الدولة ، لأن أولئك الملوك لم يكونوا يؤمنون بالإصلاح الذى يحدّ من حكمهم ، ويلفت الأمة إلى ما لها من حقوق عليهم ، ويشاركهم فى هذا الجامدون من علماء الدين ؛ لأنهم رأوا فى جمود الأمة ما يحفظ لهم وظيفتهم الدينية ، كما يحفظ لأولئك الملوك سلطتهم السياسية ، فلم يكن

مقصودهم من هذه المحاولات الإصلاحية خير الأمة ، وإنما كان مقصودهم منها تقوية الجيش ليحافظ على سلطتهم ، وتنظيم المحاكم ليرضى دول أوربا المنازعة لهم ، فلم تجاوز نظرتهم الإصلاح الصورى إلى الإصلاح الحقيقى .

ولهذا عارض السلطان عبد العزيز أحمد مدحت باشا حينما قام يطالبه بالحرية التى كانت تنعم بها شعوب أوربا فى هذا القرن ، وقد مضى فى معارضته لهذا الإصلاح ومضى أحمد مدحت باشا يطالبه به حتى يئس منه ، فدبر له مؤامرة انتهت بعزله من الملك ، وسجنه فى قصر من قصورهم ، وقد وجد مقتولا بعد بضعة أيام من سجنه ، فقيل إنه انتحر بقطع شريان من ذراعه ، وقيل إنه اعتدى عليه بالقتل .

وتولى بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد الخامس ، وكان توليه بمساعى طلاب الإصلاح من أحمد مدحت باشا وإخوانه ، ولكنه لم يمض عليه أسبوع حتى ظهر عليه اضطراب عصبى ، ثم أخذ يزداد عليه حتى صار لا يميز بين الوزراء ، فعزل عن الملك بعد قليل من توليه له .

وتولى بعد السلطان مراد السلطـــان عبد الحميد الثانى (١٢٩٣ - ١٣٢٥ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) وكان توليه الملك بمساعى أولئك الأحرار أيضا ، وهذا بعد أن وعدهم بإجابتهم إلى مطالبهم ، فلما تولى الملك اتخذ حاشية من أعداء الإصلاح ، ليكونوا عونًا له على ما يضمره لأحمد مدحت باشا وأنصاره ، ولكنه لم يشأ أن يعجل بما ينويه لهم ، لأنه لا يزال فى أول عهده بالملك ، فعين أحمد مدحت باشا رئيسا للوزراء ، ومنح الأمة دستورا يجعلها شريكة له فى الحكم ، وكان هذا فى ٥ من شوال سنة ١٢٩٣ هـ = ٢ من نوفمبر سنة ١٨٧٦ م ، وأمر بتأليف مجلسين : مجلس نواب تختار الأمة أعضاءه ، ومجلس أعيان تختار الحكومة أعضاءه ، ليقوم المجلسان بمشاركة الحكومة فى الحكم ، فيكون لهما السلطة التشريعية ، ويكون للوزراء السلطة التنفيذية ، وجروا فى هذا على قاعدة فصل السلطتين ، وهى من القواعد التى استقر العمل بها فى العصر الحديث .

ثم أخذ السلطان عبد الحميد بعد هذا يثير أعداء الإصلاح على أحمد مدحت باشا ، فجعلوا يشيعون أنه يعمل على إرجاع السلطان مراد الخامس إلى الملك ، وإنه يسعى فى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، حتى لا يكون السلطان خليفةً للمسلمين فى دولته وغيرها من الدول ، واتخذ السلطان عبد الحميد من هذا ذريعة لعزل أحمد مدحت باشا ، ولم يكن قد مضى على وزارته إلا نحو شهرين ، ثم أمر بنفيه من بلاد الدولة ، وقد اجتمع مجلس النواب ومجلس الأعيان بعد هذا فى ٧ من ذى الحجة سنة ١٢٩٤ هـ ، فأخذا ينتقدان أعمال الحكومة ، ويعترضان على طريقتها فى الحكم ، فغضب السلطـــان

عبد الحميد عليهما ، وأمر بتأجيل اجتماعهما إلى أجل غير مسمى ، وكان هذا التأجيل فى حكم إلغائهما ، وقد كان السلطان عبد الحميد مخطئا فى دعواه أنه خليفة المسلمين ، لأن نظام الخلافة جمهورى شورى ، فلا يدخل فيه ملكه الاستبدادى .

ولا شك أن تلك الذبذبة فى الإصلاح تبعد أولئك الملوك عن رسالة التجديد فى هذا القرن ، وهذا إلى أن المحاولات الإصلاحية التى قاموا بها فيه كانت ناقصة جدًا ، ومع هذا لم يكونوا كما سبق مؤمنين كل الإيمان بها ، وإنما كانوا مدعوين إليها بحوادث داخلية وخارجية صادفتهم فى هذا القرن ، ولهذا لم يمضوا فيها إلى نهايتها ، وكان استبدادهم فى الحكم هو علة العلل فى فساد الدولة ، ومع هذا لم يصلحوا شيئًا منه ، وقد ظهروا على حقيقتهم حينما قام طلاب الإصلاح من رعيتهم يطالبونهم بإصلاح حكمهم ، فكانوا مع الرجعيين حربًا عليهم .

وأين ما قاموا به فى هذا القرن من الإصلاح العسكرى والعلمى الذى قام به محمد على باشا فى مصر ؟ ، وكان أول توجه له قيمته فى الإصلاح الحديث بين المسلمين ، وهو لم يكن إلا واليا من ولاة أولئك الملوك ، وقد أمكنه بهذا الإصلاح أن يؤسس فى مصر دولة حديثة أقوى من دولتهم ، مع أنها لم تكن إلا ولاية من ولاياتهم الكثيرة فى آسيا وأوربا وأفريقية ، فيكون أولى منهم بأن يكون من مجددى هذا القرن ، ولكن ما قام به من الإصلاح لم يكن مع هذا قائمًا على أساس صحيح ولهذا لم يلبث أن انهار بعد موته .

وكان هناك مجددون آخرون غير محمد على باشا فى هذا القرن ، وقد ذكر السيد رشيد رضا منهم الأمير عبد القادر الجزائرى ، ويعقوب بك التركستانى ، ومصطفى رشيد باشا[١] وعالى باشا وفؤاد باشا وخير الدين التونسى باشا ومحمد بن على السنوسى ، ثم ذكر أن المسلمين كانوا فى حاجة إلى مجددين آخرين غير المجددين السابقين ، يعرفون ما وصلت إليه أوربا فى مدنيتها ، ومقدار حاجة المسلمين إلى اللحاق بها بعد اتساع الفرق بينها وبينهم ، وقد بعث الله من أجل هذا جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده المصرى ، ويجب أن يضاف إلى هؤلاء الذين ذكرهم السيد رشيد رضا الشوكانى اليمنى الذى ذكره بين المجددين قبلهم ، لأنه من رجال هذا القرن .

وذكر صاحب كتاب - عون المعبود فى شرح سنن أبى داود - أن المجدد على رأس

(١) تولى مصطفى رشيد باشا رئاسة الوزارة فى زمن السلطان محمود إلى السلطان عبد المجيد ، ونبغ له تلامذة أمين عالى باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا .

القرن الثالث عشر هو السيد نذير حسين ، والقاضى حسين بن محسن الأنصارى اليمانى ، والنواب صديق حسن خان البوفالى القنوجى .

وهناك أيضا مجددون آخرون ظهروا فى هذا القرن ، لأنه امتاز على غيره من القرون السابقة بكثرة من تنبه فيه من المسلمين إلى تأخرهم عن غيرهم ، وإلى ضرورة السعى فى إصلاحهم ، وممن تنبه إلى هذا فى الهند أحمد خان ، كما تنبه كثير غيره فى البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب ، لأن الأمم الأوربية كادت تبتلعها كلها فى هذا القرن ، فلم يبق بين المسلمين أحد لا يشعر بهذا الخطر ، اللهم إلا العامة وأشباه العامة من علمائنا الجامدين ؛ لأنهم اعتزلوا الحياة العامة فى الجامع الأزهر وغيره من المعاهد الدينية الإسلامية ، فصاروا لا يشعرون بشىء فيها ، ولا يتنبهون إلى عواقب جمودهم ، ولا يدركون ما أصاب المسلمين بسبب تأخرهم .

وهؤلاء المجددون فى هذا القرن منهم مجددون مدنيون ، كمحمد على باشا ، وأحمد خان الهندى ، وأحمد مدحت باشا ، ومصطفى رشيد باشا ، وأمين عالى باشا ، وفؤاد باشا ، وخير الدين التونسى باشا ؛ ويعقوب بك التركستانى ، وهؤلاء نكتفى منهم فى هذا القرن بدراسة محمد على باشا ، وأحمد خان ، وأحمد مدحت باشا .

ومنهم مجددون من المتفقهة والمتصوفة ، كالشوكانى اليمنى ، والسيد نذير حسين ، والقاضى حسين بن محسن الأنصارى ، وصديق حسن خان ؛ وهؤلاء متفقهة تغلب عليهم نزعة ابن تيميةً وابن الوزير اليمنى فى التجديد ، وكمحمد بن على السنوسى ، والأمير عبد القادر الجزائرى ، وهؤلاء من المتصوفة ، وسنقتصر على دراسة الشوكانى اليمنى من بينهم ، لأن دراسته تغنى عن دراسة صديق حسن خان وغيره من المتفقهة ، ثم نغضى عن دراسة محمد بن على السنوسى والأمير عبد القادر الجزائرى ، لأن ما أخذا به من التصوف لا ينهض بالمسلمين ، وقد ذكرنا فيما مضى من القرون أنه كان نكسة من النكسات الرجعية التى أخرت المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وهذا لا شأن له بالجهاد العظيم الذى قام به الأمير عبد القادر ، حينما استولى الفرنسيون على الجزائر ، ولا بالإصلاح الذى قام به محمد بن على السنوسى فى حدود التصوف بين أهل برقة وطرابلس بالمغرب ، وقد كان معاصرا لمحمد على باشا ، ولم يكن يعجبه ما قام به من الإصلاح المدنى فى مصر ، بل كان يأخذ عليه عدم دعوته نقباء الأمة لاستشارتهم ، وهذا حقيقةً يؤخذ عليه ، ولكنه كان يرى أن فى إصلاحاته إفراطا ومبالغة وقصدا للاستخفاف بالحقوق الإسلامية والجنسية العربية ، ولم يكن فيها شىء من ذلك ، وإنما هى نزعة جمود منه .

ومنهم مجددون جمعوا بين التفقه فى الدين والدنيا ، وسعوا فى الإصلاح الدينى

والمدنى ، كجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده المصرى ، ولا شك أن التجديد الذى يجمع بين الإصلاح الدينى والمدنى هو الذى ينهض بالمسلمين الآن ، لأنهم لا يمكنهم النهوض بأحدهما دون الآخر ، ولهذا كان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده المصرى أقرب فهمًا من غيرهما لرسالة المجدد فى هذا القرن ، ويليهما فى هذا أحمد خان الهندى ، ولكن الشيخ محمد عبده كان أظهر جهاده فى القرن الرابع عشر ، فالأولى أن يكون الكلام عليه فيه .

وظهر فى هذا القرن بين الإيرانيين ميرزا على المعروف بالباب ، وقام بدعوة تبعه فيها طائفة البابية والبهائية ، ولا بد من دراسته أيضا فى هذا القرن ، لأن دعوته قد تشتبه بدعوة التجديد التى تدخل فى دائرة الإسلام ، وتخدع بعض محبى التجديد من المسلمين .



الشوكانى اليمنى

هو محمد بن عبد الله الشوكانى الصنعانى ، وإنما قيل له الشوكانى لأن وطنه ووطن سلفه وقرابته يقال له هجرة شوكان ، وكان مولده سنة ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨ م ، وقد نشأ بصنعاء وقرأ القرآن على جماعة فيها ، فحفظه وجوّده ، ثم حفظ الأزهار للإمام المهدى فى الفقه، ومختصر الفرائض للعُصيفرى، والملحة للحريرى، والكافية الشافية لابن الحاجب . وغير ذلك من المتون التى اعتاد حفظها طلاب العلم بين المسلمين فى القرون المتأخرة ، وقد حفظ بعضها قبل شروعه فى طلب العلم ؛ وحفظ بعضها الآخر بعد شروعه فيه ؛ وكان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التاريخ والأدب وهو لا يزال مشتغلا بحفظ القرآن فى المكتب ؛ ثم شرع فى الطلب والسماع والتلقى على علماء عصره ، فقرأ شرح الأزهار على والده ؛ وشرح الناظرى على مختصر العصيفرى ، وكذلك قرأ على غيره من العلوم كتب التفسير والحديث والنحو والصرف ، وهى لا تزيد إلا قليلا عن الكتب التى كانت تدرس فى الجامع الأزهر ، وكان أكثر اشتغاله بالفقه على مذهب الإمام زيد ، وبعلم الحديث والتفسير ، ولم يزل يشتغل بطلب هذه العلوم حتى صار عالما مبرزا فيها على صغر سنه ، فقصده طلابها للأخذ عنه من اليمن والهند وغيرهما ، حتى طار صيته فى جميع البلاد ، وانتفع بعلمه كثير من الناس .

وكان الشوكانى من مدرسة ابن تيمية ، ومن المعجبين بمذهبه فى الأصول والفروع ، وقد بالغ فى الثناء عليه حتى قال فى ذلك بعد أن نقل ثناء بعض أهل عصره عليه : « وأقول : أنا لا أعلم بعدَ ابن حزمٍ مثلَه ، وما أظن أنه سمح الزمان ما بين عصرى الرجلين بمن يشابههما أو يقاربهما » ، وقد جمع فى هذا بين ابن تيمية وابن حزم مع ما كان بينهما من الخلاف فى المذهب ؛ لأنهما كانا متفقين فى الثورة على التقليد فى الفروع ، وإن كان ابن تيمية مكث فى الجملة مقلدا لمذهب ابن حنبل ، وهو من المذاهب الأربعة التى شاع تقليدها بين جمهور المسلمين ، أما ابن حزم فإنه خرج من تقليدها إلى تقليد مذهب داود الظاهرى .

ولكن الشوكانى كان مع هذا متأثرا بابن تيمية ، لأنه كان أقرب إلى مذهب السلف من ابن حزم ، ولا يفرِّق بينه وبين ابن تيمية إلا أنه نشأ على مذهب الزيدية فى الفروع ، فكان هو الغالب على أمره فيها ، كما كان مذهب ابن حنبل هو الغالب على ابن تيمية ، وقد أداه هذا إلى موافقة ابن تيمية فى مسألة الاستواء وما إليها من مسائل العقائد ، كما

أداه إلى موافقته فى مسألة الطلاق بلفظ واحد أو فى مجلس واحد وما إليها من مسائل الفروع .

ولما خلع الشوكانى عن نفسه ربقة التقليد ، وفتح لنفسه باب الاجتهاد ، ألف كتاب - السيل الجرار على حدائق الأزهار - فلم يقيد نفسه فيه بمذهب الزيدية ، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة ، وزيَّف ما لم يقم عليه دليل ، فثار عليه أهل مذهبه من الزيدية ، وغالبهم من المقلدين الجامدين على التعصب لمذهبهم فى الأصول والفروع ، فكان يقارعهم بالدليل من الكتاب والسنة ، كلما زادوا ثورةً عليه زاد فى تمسكه بمسلكه ، حتى ألَّف رسالة سماها - القول المفيد فى حكم التقليد - ذهب فيه إلى ذم التقليد وتحريمه ، فزاد هذا فى تعصبهم عليه ، حتى رموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت ، فقامت بسبب هذا فتنة فى صنعاء بين خصومه وأنصاره ، وقد رد عليهم بأنه يقف موقفا واحدًا من جميع المذاهب ، ولا يخص مذهب الزيدية بتحريم التقليد فيه ، والخلاف فى المسائل العلمية الظنية سهل ، كما ردَّ عليهم بأن مذهبه فى العقائد هو مذهب السلف ، من حمل الصفات الواردة فى الكتاب والسنَّة على ظاهرها ، وترك التأويل والتحريف فيها ، وقد ألف فى هذا رسالة سماها - التحف بمذهب السلف .

وللشوكانى مؤلفات كثيرة جدا ، منها كتاب - أدب الطلب ومنتهى الأرب - وكتاب - إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات - وقد ردَّ فى هذا الكتاب على الفيلسوف موسى بن ميمون اليهودى الأندلسى ، وكتاب - شرح الصدور فى تحريم رفع القبور - ، ورسالة سماها - تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع - رد فيها على القائلين من الزيدية بجواز الجمع بين الصلاتين فى الحضر ، ورسالة فى إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع ، ورسالة فى حل الإشكال فى إجبار اليهود على التقاط الأزبال ، ورسالة البغية فى مسألة الرؤية ، ذهب فيها إلى جواز رؤيته تعالى فى الآخرة ، ورسالة إرشاد الغبى إلى مذهب أهل البيت فى صحب النبى ، ورسالة أمنية المتشوق إلى معرفة حكم علم المنطق ، ورسالة التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر والدجَّال والمسيح ، ورسالة فى حكم الاتصال بالسلاطين ، إلى غير ذلك من كتبه ورسائله ، وأشهرها كتابه - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار - وقد عُنىَ فيه باستنباط أحكام الفقه من تلك الأحاديث ، وبيان كيفية دلالتها عليها ، وأقوال مذاهب علماء الأمصار فيها ، ومذاهب علماء الصحابة والتابعين ، ومن وافق منهم الحديث ومن خالفه ، وحُجة كل منهم ، وترجيح الحكم فى ذلك من غير تعصب ولا تعسف .

وقد عرف أولو الأمر فى اليمن للشوكانى هـــذا الفضل ، فجعلوه قاضى قضاة اليمن ، وهو من أرقى المناصب فى حكومتهم ، وكانت وفاته سنة ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م ، وقيل إن وفاته كانت سنة ١٢٥٥ هـ ·

ولا شك أنه يؤخذ على الشوكانى فى هذا القرن ما أخذ فى القرون السابقة على مدرسة ابن تيمية ، لأنها تبالغ فى التعصب له ، حتى تقع بهذا فى تقليده فى كل ما ذهب إليه ، ولا يكون هناك فرق بينها وبين من يقلد غيره ، وقد حملها هذا على الوقوف عند المسائل التى أثارها فى الفروع ، يدافعون عنها بما كان يدافع به ، ويرددونه قرنا بعد قرن ، كأنه ليس هناك مسائل غيرها يجب أن تخالف فيها المذاهب المشهورة كما خالفها ابن تيمية فيها ولم يعبأ باتفاقهم عليها ، وبلغ من جمود هذه المدرسة أنها تكاد تكون أشدّ من غيرها على من يحاول فى هذا ما حاول ابن تيمية ، ولا شك أن هذا يرجع إلى ما سبق فى الكلام عليه من جموده على ظواهر النصوص ، وكراهته سلوك التأويل فيها على نحو ما فعله المعتزلة والأشعرية ، فقد أورث هذا مدرسته جمودًا فى العقائد ، ثم لم يلبث جمـودهم فى العقائد أن أوقعهـم فى الجمـود فى الفروع ، فهـم يقلدون الآن مذهب ابن حنبل ، كما يقلد غيرهم مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى ، ولا يقلدون ابن تيمية إلا فيما ذهب إليه من إنكـار التوسل بغير الله تعالى ، ومن إنكـار زيارة القبور للتبرك بأصحابها ، وما إلى هذا من أمور العقائد ·

وكان لهذا أثره فى الشوكانى حين وقف فى هذا القرن ذلك الموقف ، ولم يختلف فيه حاله عن حال ابن تيمية فى القرن السابع الهجرى ، مع أنه قد مضى على ابن تيمية نحو ستة قرون ، وجدّت فى هذا القرن أمور توقظ النائم من غفلته ، وتجعل المجدد يذهب فى التجديد مذهبًا آخر يوافق هذه الأمور التى جدّت فى هذا القرن ، كما تنبّه لها من المجددين فيه من تأثر بها ، ولم يغال فى أمر ابن تيمية كما غالت فيه مدرسته ، من أمثال جمال الدين الأفغانى ، وأحمد خان الهـندى ، وغيرهمـا من رجال المدرسة الحديثة فى الإصلاح ، وهى مدرسة ترفع من شأن ابن تيمية أيضًا ، ولكنها لا تغالى فى أمره ، ولا تتخذه إمامًا تقلده وتقف عند آرائه ، لأنها تنظر فى الإصلاح نظرة أوسع من نظرته ، ولا تتزمت فى الدين مثل تزمته ، بل تذهب فيه مذهبا مرنا يحقق التجديد المرن الذى لم تحققه مدرسته ·

* * *

محمد على باشا

وُلد محمد على باشا بقَوَلَه من بلاد مقدونيـة سنة ١١٨٣ هـ = ١٧٦٩ م ، ولم يتعلم شيئًا فى صغره ؛ بل نشأ أمياً ، ولما بلغ سنّ الجندية التحق بها ، ثم تركها إلى الاشتغال بالتجارة ، فلما كانت (سنة ١٢١٦ هـ = ١٨٠١ م) اشترك فى الحملة التى ذهبت إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها ، فارتفع شأنه بعد إخراجهم حتى صار قائدًا على أربعة آلاف من الألبانيين ، وكانت مصر قد عادت إلى ما كانت عليـه من الفساد والاضطراب بعد رجوعها إلى حكم الدولة العثمانية التركية ، فعمل محمد على باشا على أن ينقذها من هذا الفساد والاضطراب ، وأخذ يتقرَّب إلى أهلها ، ويظهر لهم ميله إلى العدل والإنصاف ، حتى تعلق به علماؤها وأعيانها ، وثاروا على والى الدولة فعزلوه ، واختاروا محمد على باشا بدله ، وكتبوا بهذا إلى السلطان فى إستانبول ، فسعى الإنجليز عنده فى عدم إجابة طلبهم ، لأنهم رأوا فيه خطرًا على مآربهم فى مصر ، ولكن أهل مصر أصرُّوا على تمسكهم بمحمد على باشا ، فلم يجد السلطان إلا أن يقره واليًا عليهم .

فتولى حكم مصر وهو لا يزال أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن عقله كان أكبر من علم علمائنا فى عصره ؛ لأنه كان علمًا جامدًا يضرُّ ولا ينفع ، ويولِّد غرورا يحول بينه وبين الرغبة فى الإصلاح ، ولهذا أدرك محمد على باشا حاجة المسلمين إلى الإصلاح الحديث بعد أن شاهد آثاره بين الفرنسيين فى حربهم ، ولم يدركها علماء الأزهر ، مع أنهم شاهدوا من هذه الآثار أكثر مما شاهده هذا الوالى الأمى .

فلما رأى محمد على باشا أن نابليون أمكنه بجيش صغير أن يستولى على مصر ، وأن يغزو الشام بعد استيلائه عليها ، لأن جيشه كان منظما تنظيما حديثا ، عزم على أن ينشر وسائل الإصلاح الحديث فى مصر ، ليمكنها أن تنشىء جيشًا حديثا يدافع عنها ، ويردّ مطامع أوربا فيها ، فعمل أولاً على القضاء على أسباب الفساد بين أهلها ، وكان بقايا المماليك الذين حكموا مصر قبل الدولة العثمانية التركية هم أسباب هذا الفساد ، فاحتال على زعمائهم حتى قضى عليهم ، وأراح البلاد منهم ، وكانوا قد عملوا على الكيد له عند السلطان بمساعدة الإنجليز حتى غضب عليه ، وأراد تعيين وَال بدله ، ولكن السلطان عاد فعدل عن هـذا بمساعدة سفير فرنسا ، لما كان بين إنجلترا وفرنسا من الخصومة فى ذلك العهد .

ثم شرع بعد هذا فيما أراده من الإصلاح الحديث ، فأبطل نظام الالتزام – الإقطاع –

ووزع الأرض على الفلاحين ، وعين عليهم مفتشين ليقوموا بزراعتها ولا يهملوا فيها ، وأنشأ كثيرًا من الترع والجسور ، وكانت القناطر الخيرية أهم عمل زراعى قام به ، لأنه كان سببا فى قيام نظام الرى الحديث فى الوجه البحرى ، وزيادة ثروة مصر زيادة عظيمة .

ثم شرع فى إنشاء جيش حديث ، فأنشأ مدرسة حربية بالصعيد ، لتكون بعيدة عن مرأى الجيش القديم ، واختاروا لها عددًا من شبان المماليك الذين ضمهم إليه بعد القضاء على زعمائهم ، ومن أبناء الترك والكرد والأرمن والألبان واليونان ، وكانوا يعلمونهم باللغة التركية ، وكان أكثر المعلمين من الأوربيين .

ثم أرسل بعثات إلى أوربا من هذه الطوائف لدراسة الفنون الحربية ، وبناء السفن والطباعة والهندسة والميكانيكا وما إلى هذا من الفنون الحديثة .

ثم أنشأ مدرسة طبية بالقصر العينى ، واختار تلاميذها من أبناء الريف وطلاب الأزهر ، وأحضر لها أساتذة من فرنسا وغيرها ، فنقل الطلب إلى النظام الحديث ، المتبع فى أوربا . ثم أنشأ كثيرًا من المدارس الابتدائية والثانوية فى أنحاء البلاد ، وجعل العربية لغة التعليم فيها ، فانتقل التعليم فيها إلى النظام الأوربى الحديث ، وكان له أثره فى نشر الثقافة الحديثة فى مصر .

ثم أنشأ مطبعة ببولاق ، فقامت بنشر كثير من الكتب الحديثة والقديمة ، فتناولها الناس وأقبلوا عليها ، وآثروها على الكتب الخطية القديمة ، فانتشرت المطابع فى البلاد ، ونهضت بها العلوم والمعارف .

ثم أنشأ جريدة الوقائع المصرية ، ليقرأها أهل مصر فى مواعيدها المنتظمة ، ويعرفوا الأخبار الداخلية والخارجية ؛ ويدركوا السياسة الدولية التى لا غنى لهم عن معرفتها ، ليسيروا على هداها فى معترك الحياة ، ولا يوقعهم الجهل بها فيما كانوا يقعون فيه ، حين كانوا يعيشون فى عزلة عن العالم ، كما تعيش القبائل المتوحشة فى وسط أفريقية وغيرها .

وهذا هو مجمل الإصلاح الذى أداه محمد على باشا لمصر خاصة ، وللمسلمين فى سائر الأقطار عامة ، وهو إصلاح مدنى صرف ، ليس فيه شىء من الإصلاح الدينى ولا شىء من الإصلاح السياسى ، وهو معذور فى عدم قيامه بشىء من الإصلاح الأول ، لأنه كان رجلا أمياً لا يعرف من الدين ما يعرفه علماء الأزهر ، فالذنب فى عدم القيام بشىء من الإصلاح الدينى فى عهد محمد على باشا واقعٌ عليهم لا على غيرهم .

وأما الإصلاح الثانى فيقع ذنب إهماله على محمد على باشا ، لأنه كان عليه أن يجعل حكمه شوريا على مثال الحكم فى أوربا التى قلدها فى الإصلاح المدنى ، لتنهض الأمة به من كبوتها ، وتفيق بسببه من غفلتها ، فتعرف قيمة الإصلاح المدنى الذى أتى به ،

ولا تتركه ينهار بعد وفاته ، لأنه كان متعلقا بشخصه وحده ، فبقى ما بقى ، وذهب حين ذهب . وقد يكون لمحمد على باشا فى هذا شىء من العذر ، لأنه كان مقيدا إلى حد ما بحكم الدولة العثمانية التركية ، فلم يكن فى إمكانه أن يذهب فى حكمه مذهبا يخالفه ، وهذا إلى ما كان بينه وبين الشعب المصرى من الفوارق اللغوية والجنسية وغيرها ، مما كان له تأثيره فى ذلك أيضا .

فقضى عليه كل هذا أن يقوم بإصلاحه المدنى وحده ، وأن يكون وحده ، هو الذى يدرك مقدار الحاجة إليه ، فلما مات لم يجد من يتابعه فيه ؛ بل لم يلبث أن انهار بعد موته ، وكانت وفاته سنة ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٨ م .

ولا شك أن أمية محمد على باشا كان لها أثر كبير فى نقص ذلك الإصلاح وفى انهياره بعد موته ، ولو أنه كان مثقفا ثقافة تناسب عصره لأتى به إصلاحا شاملا ، وعرف كيف يربِّى شعبه تربية تنهض بجميع أفراده وطوائفه ، وكيف يجعل جميع أفراده وطوائفه يشعرون بفوائد هذا الإصلاح ، ليكونوا حراسا عليه ، بعد موته ، ولا يمكنوا أحداً من إحداث نكسة فيه .

ولكنه عجز أولاً بتأثير أميته عن القيام بإصلاح دينى مع الإصلاح المدنى ؛ لأن أميته لم تمكنه من فهم هذا الإصلاح ، ولا من حمل علماء الأزهر على القيام به ؛ لأنه لا يمكنه أن يحملهم عليه وهو لا يفهمه .

ثم عجز ثانيا بتأثير أميته عن إنشاء حكم دستورى يجعل الأمة مشاركة له فى الحكم ، لتتبدل من الخنوع للحكام عزةً وكرامة ، وتشعر بفائدة هذا الحكم الذى يرفع من أمرها ، فتخلص له فى حياة صاحبه وبعد موته ، وتؤمن بفوائد الإصلاح الذى قام به ، فتسعى إليه قبل أن يسوقها إليه سوقا ، ويتسابق أبناؤها إلى ما أنشأه من المدارس والمعامل قبل أن يأخذهم إليه كرها ، ولكن أمِّيته أبتْ عليه أن يشاركه غيرُه فى الحكم ، لأنها كانت تترك فى نفسه شعورا بالعجز والنقص، فلم يجد إلا أن يداريهما بأن يستأثر وحده بالحكم ، ليُرضى تلك العظمة التى اكتسبها مع أمته ، ولا يظهر عجزها لأحد من رعيته ، وكان فيها كثير ممن تثقَّف بالثقافة الحديثة ، إلى من كان لهم حظ من الثقافة القديمة من الأزهريين وغيرهم .

ثم عجز ثالثا بتأثير أميته عن توحيد ذلك الشعب الذى اختاره لحكمه ، لأنه كان من عنصر تركى غير عنصر هذا الشعب ، فلم يمكنه بتأثير أميته أن يتغلب على عنصره فى نفسه وحاشيته ليندمج فيه ، بل مكث هو وحاشيته ومن إليهم من هذا العنصر التركى معتزِّين بعنصرهم ، متعالين على غيرهم من أفراد هذا الشعب وطوائفه ،وتبعهم فى هذا من اتصل

بهم من الطوائف الغريبة الأخرى من أرمن إلى جركس إلى يونان إلى ألبان إلى غير ذلك من الطوائف ، فقد استأثرت كلها بالوظائف العالية فى الإدارة والجيش ، فكان منها ولاة أقاليم فى مصر ، والضباط الكبار والصغار فى الجيش ، وكان أبناء الشعب ما بين فلاحين يقومون بزراعة نصيبهم الضئيل فى الأرض ، وعساكر فى الجيش يؤخذون بالقوة للخدمة فيه ، وقد بقى معظم الأرض ملكا لأبناء تلك الطوائف الغريبة ، يخدمهم الفلاحون من أبناء الشعب فيها بلقمة العيش ، إلى أن أدرك الشعب فى أواخر هذا القرن أنه مهضوم الحق في هذا الحكم ، فثار عليه يطلب المساواة بأبناء تلك الطوائف الغريبة عنه ، ويطلب حكما شوريا يرجع فيه إلى رأى من يختارهم لينوبوا عنه فى رعاية مصالحه ، وكان هذا فى عهد توفيق باشا كما سبق ، فأبى هو وأبناء تلك الطوائف الغريبة أن يجيبوا الشعب إلى المساواة بهم ، وآثروا أن يمكنوا الإنكليز من احتلال مصر ليحموا حكمهم ، ولم يعلموا أن عاقبة هذا ستكون وبالا عليهم وعلى الشعب معا .

ولو أن محمد على باشا نسى عنصره حين آل إليه حكم مصر ، واندمج هو وغيره من تلك الطوائف فى الشعب ، لما كانت هذه الكارثة التى حلت بنا جميعا ، فابتلت الشعب بحكم أجنبى يحاول أن يقضى عليه ، وصرفت جهود الشعب فى الإصلاح إلى محاولة التخلص منه ، وكانت بلوى مَن احتمى بهذا الحكم الأجنبى أكثر من بلوى الشعب ؛ لأنه سلبه الحكم أيضا ، وجعله ألعوبة فى يده يوجهه كيف شاء ، فاشتد غضب الشعب عليه ، وجعله يقع فى حرج شديد بين إرضائه وإرضاء من سلبوه الحكم ، وقد أدركه الندم على إساءته حين احتمى بالأجنبى على الشعب الذى كان أقرب إليه منه ، فعاش مذبذبا بين الفريقين ، وكان جزاؤه على هذا غضبهما معًا عليه .

ثم عجز رابعًا بتأثير أميته عن إدراك الضرر الذى يعود على المسلمين من وقوع حرب بينهم فى هذا القرن ، فقام بحربين زادا فى ضعف المسلمين فيه ، ولو كان مكانه رجل أوسع إدراكاً منه لما وقع فى هذين الحربين ، وكان أولهما حروبه مع الوهابيين الذين اتسعت دعوتهم الإصلاحية بين بلاد العرب فى هذا القرن ، حتى تم لها فى عهد سعود بن عبد العزيز (١٢١٨ - ١٢٢٩ هـ = ١٨٠٣ - ١٨١٣ م) الاستيلاء على مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز ، وقد واصل زحفه شمالاً حتى وصل إلى ضواحى دمشق ، فدانت له بادية الشام والعراق ، كما امتدت فتوحاته جنوبا إلى رأس الخيمة فى عُمان ، وزبيد فى اليمن ، وتبع هذا منع المحمل المصرى والمحمل الشامى من الوصول إلى مكة فى موسم الحج ، لأن هذا من البدع الدينية عند الوهابيين ، فانقطع أهل مصر والشام وسائر الدولة العثمانية التركية عن الحج ، ورأت هذه الدولة أن تقضى على حكم الوهابيين فى بلاد

العرب ، فأمرت محمد على باشا أن يقوم بحربهم ، فقام بهذه الحرب سنة ١٢٢٦ هـ = ١٨١١م ، وأمكنه أن يسترد مكة والمدينة والطائف سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٣ م ، وقد استمرت هذه الحرب حتى انتهت دولة آل سعود الأولى سنة ١٢٣٤ هـ = ١٨١٨ م ·

ولا شك أن محمد على باشا لم ينظر حين قام بهذه الحرب فى دعوة الوهابيين الإصلاحية ، لأنها كانت دعوة دينية لا يدرك حقيقتها ، ولو أنه أدركها على حقيقتها لآثر أن يتبع معها خطة أخرى غير الحرب ، لأن أمور الدين يجب أن يقتصر الأمر فيها على الإقناع والاقتناع ، ولا سيما فى هذا القرن الذى كان المسلمون فيه محتاجين أشد حاجة إلى جمع كلمتهم ، وإلى الابتعاد عن إثارة الحرب بينهم ·

وأما الحرب الثانية فهى التى أقامها على الدولة العثمانية التركية التى كان تابعًا لها ، فقد انتهز فرصة قوته وضعفها لإسقاطها ، وإقامة دولة له تقوم بدلها ، ولم يراع الظروف التى كانت تقاسيها هذه الدولة من تحالف الدول الأوربية عليها ·

ولا شك أن محمد على باشا كان أحسن حالا من القائمين بالحكم فيها ، ولكنه كان يجب عليه أن يسعى فى تقويتها بالتى هى أحسن ، حتى يكونوا جميعا يدا واحدة على تلك الدول التى تتربص بهم ، لأن هذا كان خيرا من تلك الحرب التى بذل فيها ما بذل من النفوس والأموال ، حتى كادت جيوشه تصل إلى إستانبول ، ثم لم يكن بعدها إلا أن تألبت تلك الدول الأوربية عليه ، فلم تمكّنه من أطماعه فى هذه الدولة ؛ لأنها كانت تريدها لنفسها قبله ، وكان عليه أن يدرك هذه الحقيقة قبل أن يقوم بهذه الحرب ، ليوفر على نفسه ما بذل فيها من النفوس والأموال من غير فائدة ، ولا يزيد الدولة التى كان لها فضل عليه ضعفًا على ضعفها ·

وهكذا أراد الله أن تكون أعظم شخصية بين المسلمين فى أول هذا القرن بتلك الأمية ، لتقوم بذلك الإصلاح الناقص الذى انهار بعدها ، وليقضى الله أمرًا كان مفعولا ·



أحمد خان

هو أحمد خان بن محمد مُتَّقى خان ، ولدَ سنة ١٢٣٣ هـ = ١٨١٧ م ، ونشأ فى الهند بين أسرة من أصل عربى نزحت من بلاد العرب إلى هرات ، ثم نزحت من هرات إلى دهلى قاعدة الهند ، وكانت ثقافته دينية كثقافة غيره من المسلمين الهنديين ، لأنهم آثروا أن يبتعدوا عن المدارس المدنية التى أنشأها الإنكليز بالهند ، وكانوا يريدون منها تخريج طائفة من الموظفين تعرف الإنكليزية ، وتلُّم ببعض العلوم الحديثة ، لتساعدهم فى مقاصدهم الاستعمارية بالهند ، وكان المسلمون حكام البلاد قبل الإنكليز ، فأبوا أن يستخدمهم الإنكليز فى هذه المقاصـد ، وآثروا أن يقتصروا على التعلم فى مدارسهم الدينية ، وأن يبتعدوا عن هذه الوظائف ، وقد زاد هذا فى تأخرهم وفقرهم ، وفى ظهور طائفة الهندوس عليهم ، لأنهم لم يأبوا الالتحاق بالمدارس التى أنشأها الإنكليز ، ولم يأبوا الالتحاق بتلك الوظائف .

وقد خالف السيد أحمد خان سنة قومه فى ذلك ، فاتصل بالإنكليز والتحق بتلك الوظائف ، فعين أمينًا للسِّجلات بقسم الجنايات فى محكمة دهلى ، ثم أخذ يترقى فى غيرها من الوظائف الحكومية ، إلى أن قام الهنود بثورتهم على الإنكليز سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧ م ،فلم يشاركهم فى هذه الثورة وإن كان معهم بقلبه ، لأنه رأى أنها ستفشل ، وقد صحَّ ما تنبأه لها من الفشل ، وكان لهذا أثر عظيم فى نفسه ، لأن الحوادث تؤثر فيمن يثور فى نفسه أكثر مما تؤثر فى غيره ، وجعله هذا يفكر فى الوسائل الصحيحة التى تؤدِّى إلى إخراج الإنكليز من الهند ؛ لأن وسيلة القوة فشلت فى إخراجهم منه .

وكانت الجرائد الإنجليزية قد شوَّهت هذه الثورة الهندية ، وزعمت أن لأفغانستان وروسيا يدا فيها ، فوضع أحمد خان رسالة باللغة الأورديَّة الهندية أبطل فيها هذه المزاعم ، وأثبت أنها ثورة شعبية قامت بسبب المظالم التى تقع من الإنكليز فى الهند ، إلى ما يرونه من سعيهم فى تغيير عقائدهم ، ومساعدتهم المبشرين المسيحيين فيما يأتونه من الطعن فى هذه العقائد .

ثم نظر فى أسباب تأخر المسلمين بالهند ، فوجدها ترجع إلى جمودهم على الأساليب القديمة فى التعليم ، ومجافاتهم العلوم الحديثة التى لا غنى لهم عنهـا فى نهوضهم ، فكانوا إذا أنشأ المبشرون المسيحيون مدرسةً فى بلد من بلادهم حرَّم علماؤهم

على المسلمين أن يُلحقوا أبناءهم بها ، وكذلك يفعلون مع المدارس التى تنشئها الحكومة ، ثم يقتصرون على هذا الموقف الجامد ، ولا ينشئون مدارس حديثة تثقفهم وتنهض بهم ، وتقضى على هذا الجمود فيهم .

فأراد أحمد خان أن يعالج هذا الجمود فى هدوء ، وأن ينشر العلوم الحديثة بين المسلمين من غير ضجة ، وكان فى هذا الوقت قاضيًا بمدينة عليكره ، فأنشأ أولا بها جمعية أدبية علمية سنة ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م ، فقامت بنشر الآراء الحديثة فى التاريخ والاقتصاد والعلوم ، وترجمت كثيرًا من الكتب الإنكليزية الحديثة إلى اللغة الأُردية ، وقد أثار هذا عليه بعض الجامدين من علماء الدين ، فلم يعبأ بهم ، ومضى فى سبيله إلى أن أمكنه إنشاء كلية للتعليم العالى فى مدينة غازى بور ، وسماها كلية فيكتوريا باسم ملكة إنجلترا ، لأنه كان يريد أن يمضى فى الإصلاح مع مسالمة الإنكليز ، فلم يهمه أن يسمى هذه الكلية باسم ملكتهم .

ثم سافر ابنه محمود فى بعثة علمية إلى إنجلترا سنة ١٢٨٦ هـ = ١٨٦٩ م ، فسافر معه ليدرس طرق الإنكليز فى التربية والتعليم ، ويعود إلى الهند فينشرها فيها ، فمكث بينهم مدة يدرس هذه الطرق ، ثم عاد إلى الهند فحمل على جهل أهله وجمودهم حملة قوية ، وأخذ يدعو المسلمين إلى دراسة العلوم الحديثة ، لينهضوا بها كما نهضت الأمم الأوربية ، إلى أن تمكن من إنشاء كلية تضاهى كليات إنجلترا سماها كلية عليكرة ، وقد أراد منهـــا ثلاثة أغراض : تعليم المسلمين الثقافة الأوربية والإسلامية من غير تعصب ولا جمـــود ، والاهتمام بالحالة الاجتماعية والخُلقية للطلاب ، والعناية بتربية عقولهم وأبدانهم ، وبهذا كان الغرض من هذه الكلية التربية قبل التعليم ، وقد نجحت فى تكوين جيل جديد فى الهند يجمع بين الثقافة الإسلامية والأوربية ، ويعمل على النهوض بمسلمى الهند فى دينهم ودنياهم .

ثم أنشأ مجلة سماها - تهذيب الأخلاق - ليدرس فيها مشاكل الهند الاجتماعية والدينية والسياسية ، وخَصَّ قسما منها لتفسير القرآن ، فأخذ يفسره تفسيرًا مناسبًا للعصر الحديث ، ويعتمد فيه على روح القرآن أكثر من اعتماده على قيود الألفاظ ، وكان يرى أن القرآن نزل بمعناه لا بلفظه ، ويأخذ فى هذا بقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ ﴾ (١) وقد ذكر السيوطى فى كتاب - الإتقان - إن هذا قول لبعض العلماء ، ولكن هذا أثار على أحمد خان بعض العلماء والعامة ، حتى حاول بعضهم أن يطعنه بخنجر فنجا منه بأعجوبة .

---

(١) الشعراء : آية ١٩٣ ، ١٩٤ .

وكان أحمد خان يرى فى السياسة أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، لا يفرّق بينها دين ولا لغة ، وكان يعقد مؤتمرًا عامًا من المسلمين كل سنة ، لينظروا فى أحوالهم ، ويبحثوا فى الوسائل التى تؤدى إلى إصلاحها ، وقد بقى هذا المؤتمر بعد موته يسير فى الطريق الذى وضعه له .

وكانت وفاته سنة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م .

وقد أثمرت دعوته الإصلاحية فى بعض أهل الهند ، وبقى أغلبهم على جمودهم فى دينهم ودنياهم ، لأن الإنكليز كانوا يُعرضون عن مساعدتها ، ويتركون الجامدين من علماء الدين يناهضونها ، ليبقى الهند عاجزًا عن مناهضتهم ، راضخًا لحكمهم واستعمارهم ، ويكفيه أنه وضع بها فى الهند أول بذرة فى الإصلاح الحديث ، وأنه كان أول من خرج من قومه على جمودهم القديم .



مدحت باشا

هو أحمد مدحت باشا بن الحافظ محمد أشرف ، وُلدَ باستانبول سنة ١٢٣٨ هـ = ١٨٢٢ م ، وكان أبوه من علماء الدين ، وقد تولى القضاء الشرعى فى بعض الولايات ، فحفَّظه القرآن وهو فى العاشرة ، ثم ألحقه بجامع الفاتح ، فتعلم فيه اللغة العربية والفارسية إلى لغته التركية ، ودرس العلـــوم الدينية والعربية والفلسفية على الطريقة القديمة ، ثم التحق بوظائف الحكومة ، فشعر بنقص ثقافته وعدم مناسبتها لعصره ، فتعلم اللغة الفرنسية ، ثم أراد السياحة فى أوربا ليدرُس أنظمتها السياسية والاجتماعية ، ويعرف الأسباب التى أدَّتْ إلى عظمتها ، فساح فى النمسا وبلجيكا وفرنسا وإنجلترا ، وزار مدنها زيارة درس واستطلاع .

وبهذا جمع بين الثقافة القديمة والحديثة ، وأدرك من وجوه النقص فى بلاده ما لم يدركه غيره ، وعمل على إصلاحها بكل ما يمكنه ، فكان إذا تولى ولايةً نشر فيها الأمن ، وأنشأ المدارس الحديثة ، وأصلح الزراعة ، وبنى المستشفيات ، وما إلى هـذا مما ينهض بأهله ، ويجعلهم يُخلصون للدولة على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، لأنه كان لا يفرق فى إدارته بين مسلم وغيره .

ولكنه رأى أن قيامه بهـذا وحده فى ولاية من ولايات الدولة لا يكفى لإصلاحها كلها ، وحينئذ رأى أنه لا بُدَّ من إصلاح طريقة الحكم فى الدولة ،وجعله حكما دستورياً لا ينفرد به السلطان وحده ، بل يقوم بجانبه مجلس تختار الأمة أعضاءه ، ويكون له سلطة التشريع وحده ، ويكون للحكومة سلطة التنفيذ فقط ، على نحو ما شاهده فى سياحته فى أوربا ، فقام ينادى بهذه الدعوة بين الأمة ، حتى التفَّ حوله كثير من الشُّبان ، وأخذوا يعملون للوصول إلى هذه الغاية .

وكان هذا فى عهد السلطان عبد العزيز ، فرأى أن هذه الطريقة فى الحكم تحدُّ من سلطته ، فقاومها واضطهد أنصارها ، ولكن حالة الدولة كانت تنتقل من سىء إلى أسوأ ، فاضطر السلطان عبد العزيز بضغط الحوادث الداخلية والخارجية إلى دعوة أحمد مدحت باشا ليكون رئيس وزرائه ، فقبل دعوته وقام بإصلاح مدنى شامل فى الدولة لينهض بها ، ويسوِّى بين أبنائها على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، ويمنع تدخُّل الدول الأجنبية فيها بحجة إنصاف المسيحيين .

ولكن السلطان عبد العزيز لم يلبث أن ضاق بسياسة أحمد مدحت باشا ، لأنه حدَّ

من الأموال التى كان ينفقها فى شهواته ، فعزله من الوزارة بعد خمسة وسبعين يوما ؛ ثم تتابعت الحوادث بعد هذا بين السلطان عبد العزيز وأحمد مدحت باشا وأنصاره ، حتى انتهت بعزل السلطـــان عبد العزيز وتولية السلطـــان مراد الخامس ، ثم توليته السلطـــان عبد الحميد الثانى ، على نحو ما سبق فى موضعه من الكلام فى هذا القرن .

فعين السلطان عبد الحميد أحمد مدحت باشا رئيسا لوزرائه ، ليقوم بتنفيذ الحكم الدستورى الذى كان يطلبه ، ولكنه لم يكن مخلصا فى ذلك كما سبق ، وإنما أراد أن يتحين الفرص للتخلص من أحمد مدحت باشا ، ومن الحكم الدستورى الذى سيقوم بتنفيذه .

فأراد أحمد مدحت باشا أن يأخذ نظام هذا الحكم عن النظام الأوربى ، مع مراعاة ما يوجد من فروق بين بلاد الدولة وبلاد أوربا ، ليسير الإصلاح بالتدريج ، ولا يوجد فى طريقه شىء من العقبات ، ولكن دولة روسيا كانت ترى فى هذا الإصلاح ما يقضى على مطامعها فى الدولة ، فأثارت فيها ثورات داخلية كثيرة ، ولا سيَّما فى بلغاريا والصرب وغيرهمـا من البلاد التى تكثر فيها العناصر المسيحية ، وقد أتاح هذا الفرصـة للسلطـــان عبد الحميد ، فأصدر أمره بعزل أحمد مدحت باشا ونفيه من بلاد الدولة ، ولم يكن قد مضى إلا شهران على توليه الوزارة .

وكان السلطان عبد الحميد قد نشر جواسيسه فى البلاد من أعداء الإصلاح ،فقدَّم له بعض حاشيته تقريرًا زعم فيه أنه سمع ضابطا يقول لصاحبه فى أحد المقاهى : إن أحمد مدحت باشا سيكون رئيس جمهورية ، فتذرع السلطان عبد الحميد بهذا وأمثاله إلى عزل أحمد مدحت باشا ، وقد قال حين جاءه الكتاب بعزله : إن بلادى التعسة كمريض حضره نطس الأطباء وعالجوه حتى يبل من مرضه فاندس عدو له فسقاه سماً قضى على حياته .

ولم يجد أحمد مدحت باشا إلا أن يذعن لأمر السلطان عبد الحميد ، فذهب إلى أوربا يعيش فيها بعيدا عن بلاده ، ولكنه لم ينسها على ما نال من ذلك النفى ، بل كان يهمه أمرها ، ويدافع عنها فى كل موضع حل فيه ، وقد حاربتها روسيا فجعل يؤلب عليها دول أوربا ، ويبين لها ما يعود عليها من الضرر إذا انهزمت هذه الدولة .

وكان هذا سببا فى رضا السلطان عبد الحميد عنه ، فسمح له أن يقيم مع أسرته فى جزيرة كريد ، إلى أن عينه واليا على سوريا ، ثم عينه واليا على أزمير ، فسار فيهما على ما كان يسير عليه من قبل ، يحكم بالشورى فى الولاية ، ويسعى فى كل ما يعود بالمصلحة على أهلهـــا ، وينفق ما يجبيه من الأموال فى الوجوه النافعة ، ولا ينفقه فى ملذاته وشهواته .

ولكن هذا أغضب أعداء الإصلاح فى داخل الدولة وخارجها ، فأخذوا يوغرون صدر السلطان عبد الحميد عليه ، ويوهمونه بأنه سيعمل على عزله كما عمل على عزل السلطان عبد العزيز ، حتى سمع لوشايتهم فيه ، وأراد أن يأخذه هذه المرة بتهمة قتل السلطـان عبد العزيز ، مع أنه مضى على هذا خمس سنين ، والمعـروف أن السلطـان عبد العزيز هو الذى انتحر كما سبق ٠

فدعى أحمد مدحت باشا إلى إستانبول ،وحوكم فيهـا محاكمة صورية حكم عليه فيهـا بالقتل ، ثم خفف الحكم بنفيه إلى الطائف ،فأقام فيها سجينا إلى أن أرادوا التخلص منه،لئلا يفر من السجـن ويقيم ثورة أو يدبر مؤامـرة ، فخنقـوه فى سجنه سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م ٠

وبهذا يظهر أن أحمد مدحت باشا لم يهتم إلا بالإصلاح المدنى ، فكان فيما يدعو إليه من الإصلاح أشبه بمحمد على باشا منه بأحمد خان ، ولكنه يمتاز عليهما بأنه جعل فى مقدمة ما يدعو إليه إصلاح طريقة الحكم ؛ ولم يقم محمد على باشا بهذا الإصلاح كما سبق فى الكلام عليه فى هذا القرن ، ولم يقم أحمد خان به لأنهم كانوا فى الهند يطلبون التخلص من حكم الإنكليز ؛ فلم يكن من المقبول فيه أن يقوم أحمد خان أو غيره بطلب إصلاحه ؛ لأن هذا يتضمن الرضا ببقائه ؛ وليس من الوطنية الرضا ببقاء حكم الأجنبى ٠



جمال الدين الأفغانى



هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسَيْنى الأفغانى ، وُلِد بأسعد أباد من أعمال كابل قاعدة أفغانستان سنة ١٢٥٤ هـ = ١٨٣٨ م ، وانتقل والده إلى كابل وهو فى الثامنة من عمره ، فالتحق ببعض مدارسها القديمة ، وأخذ على أساتذتها علوم العربية والتاريخ والإنشاء والعلوم الدينية والفلسفية على اختلاف أنواعها ، ولما أتمَّ دراسة هذه العلوم على الطريقة القديمة رحل إلى الهند ، فدرس فيها بعضا من العلوم الحديثة ، وتعلم اللغة الإنكليزية ، فجمع بهذا بين الثقافة القديمة والحديثة .

ثم أراد أن يقوم بسياحة طويلة في بلاد العرب ، ليؤدى فريضة الحجِّ ، ويدرس أحوال المسلمين فيها ، بعد أن رأى ما حَلَّ بالهند من استعمار الإنكليز لها ، وكان يريد أن يدعو فى الحج إلى فكرة الجامعة الإسلامية ، ليوقظ المسلمين من غفلتهم ، وينبههم إلى الخطر المحدق بهم .

وقد وصل مكة سنة ١٢٧٣ هـ = ١٨٥٧ م ، فأخذ ينشر هذه الفكرة بين الحجاج من مختلف الأقطار ، حتى أنشأ فيها جمعية سَمَّاها جمعية أم القُرَى ، وكان أعضاؤها من جميع الأقطار الإسلامية ، ثم أنشأ لها مجلة سماها مجلة أم القرى .

ثم عاد إلى أفغانستان ، واتصل بأميرها دوست محمد خان ، ثم اتصل بعده بالأمير محمد أعظم ، فجعله رئيس وزرائه ، لينهض ببلاد أفغانستان ، حتى تقوى على ردِّ الطامعين فيها من الإنكليز وغيرهم ، فعمل الإنكليز على إثارة الفتن فى أفغانستان ، حتى

تمكنوا من عزل الأمير محمد أعظم ، وتولية أمير آخر يرضون عنه ، فأخذ جمال الدين يعمل على إثارة الشعب الأفغانى على الإنكليز والأمراء المستبدين الذين يتآمرون عليه ، ويبثٌ فيهم حب الوطن والحرية ، ليقضوا على نفوذ الإنكليز فى بلادهم .

ثم أراد أن يجعلها ثورة إسلامية عامة على الانكليز وغيرهم من الأوربيين الطامعين فى المسلمين ، وكأن الله أعدَّه لهذه الثورة بما منحه من لسان فصيح ، وقلب قوى ، وثقافة واسعة ، فرحل إلى الهند وأخذ يدعو إلى الإصلاح الدينى والسياسى والعلمى والاجتماعى بين أهلها ، حتى ضاق الإنكليز به ، وأحاطوه بجواسيسهم فى كل حركاته وسكناته ، واضطروه أن يرحل من الهند إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ = ١٨٧٠ م .

فلما وصل إلى مصر فى هذه السنة قصدَ القاهرة فأقام فيها أربعين يومًا ، كان يتردد فيها على الأزهر ، ويتصل ببعض أساتذته وطلابه ، وكان الشيخ محمد عبده من أشهر الطلاب الذين اتصلوا به ، وقد أدرك ما يمتاز به علمه على العلم الأزهرى الذى كان يأخذه على شيوخه .

ثم رحل بعد هذه المدة التى قضاها فى القاهـرة إلى إستانبول بدعوة من السلطـان عبد العزيز ، فقرَّبه إليه وأمر بتعيينه عضوا فى مجلس المعارف ، فقام فيه بإصلاحات تنهض بالدولة ، وتنبه المسلمين من غفلتهم ، وقد أثار هذا عليه الجامدين من رجال الدين ، فقاموا يناهضونه ويطعنون فى عقيدته ، وكان فى طبعه حدة وشدة ، فقابل ثورتهم بمثلها ، وطلب محاكمة شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى لأنه طعن فى عقيدته بالباطل ، وأصرَّ على طلب هذه المحاكمة ، ولم يسمع لمن نصحوه بالهدوء والترفق ، حتى اشتدت الفتنة بينه وبين الثائرين عليه من علماء الدين ، ورأت الحكومة أنه لا سبيل إلى تهدئتها إلا بأمره بالرحيل عن إستانبول ، فرحل عنها إلى مصر سنة ١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ م .

فاحتفل به الخديوى إسماعيل ووزيره رياض باشا حين وصل إلى مصر ، ومكَّنا له من القيام بدعوته إلى الإصلاح ، فاتصل به كثير من أنصار هذه الدعوة ، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ، وكان نفوذ الأجانب قد أخذ يزداد فى مصر ، فأخذ جمال الدين يعمل على مقاومته ، لئلا تقع مصر فى أيديهم كما وقعت الهند ، وجعل يبثٌ فى تلاميذه وأصدقائه حب الوطنية والحرية ، ويؤلبهم على الحكـم الاستبدادى الذى أدى إلى ضعفهم ، وأطمع الأجانب فى الاستيلاء على بلادهم ، ولا يهمه فى هذا ما كان من إكرام إسماعيل باشا له ، لأنه كان يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ولم يزل يسعى فى هذا حتى ألَّف حزبا سمَّاه الحزب الوطنى ، ليقوم بالدعوة إلى إصلاح الحكم ، ويقاوم نفوذ الأجانب فى مصر ، وكان إسماعيل باشا يتغاضى عن طعنه فى الحكم الاستبدادى ،

ليمكنه التخلُّص من نفوذ الأجانب بعد أن طغى على نفوذه ، ولكن الغلبة كانت فى النهاية لهؤلاء الأجانب ، لأنهم سعوا عند السلطان حتى حملوه على عزل إسماعيل باشا وتولية ابنه توفيق باشا .

فلم يلبث توفيق باشا أن أصدر أمره بنفى جمال الدين من مصر ، فنفى منها سنة ١٢٩٦ هـ = ١٨٧٩ م ، بعد أن تمكن من أن يثبِّت فيها الدعوة إلى الإصلاح ، ويترك فيها رجالا يقومون بها بعده ، وكان أقواهم فى مناصرتها الشيخ محمد عبده ، وقد قال فيه جمال الدين لمودِّعيه حين خرج من مصر : « إننى خرجت من الديار المصرية وما ألَّفت كتابا ، ولكنى تركت لكم أثرًا يغنى عن جميع الكتب ، وهو محمد عبده ، وكفى به لمصر عالِمًا » .

ورحل جمال الدين من مصر إلى الهند ، فأقام بها ثلاث سنين ، وآثر فيها الاشتغال بالعلم ، وترك الاشتغال بالسياسة ، وألف فى هذه المدة كتاب - الرد على الدهريين - وهو نمطٌ حديث فى تأليف الكتب الدينية ؛ لأنه عُنى فيه برد المطاعن الحديثة التى توجَّه للدين ، وتَجاوز النطاق الذى كانت لا تتجاوزه الكتب الدينية القديمة ، من العناية بالرد على الشُّبه القديمة التى انتهى أمرها ، وإهمال الشبه الحديثة التى تجب العناية بأمرها أكثر من الشبه القديمة .

ثم بلغ جمال الدين أن أحمد عُرابى باشا قام بثورة فى مصر على توفيق باشا ، وأن الإنكليز يريدون استغلال هذه الثورة فى الاستيلاء على مصر ، فأراد أن يشغلهم عن مصر بثورة يقوم بها فى الهند ، ولكن الإنكليز علموا بمقصده فضيَّقوا عليه حتى رحل منها ، وكانوا قد تمكنوا من التغلب على الثورة المصرية ، ونفوا الشيخ محمد عبده إلى بيروت .

فقصد جمال الدين فرنسا وأقام فى باريس ، ودعا إليه الشيخ محمد عبده من منفاه فى بيروت ، فذهب إليه سنة ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م ، وقاما بإنشاء جمعية فى باريس من مسلمى الأقطار المختلفة وسمياها - جمعية العروة الوثقى - وأنشآ مجلة سمياها - مجلة العروة الوثقى - لتدعو المسلمين إلى النهوض فى دينهم ودنياهم ، وتحرضهم على الثورة على المستعمرين لبلادهم ، ولا سيما الإنكليز الذين فازوا بأكبر نصيب فى استعمارها ، كما تحرضهم على الثورة على المستبدِّين من ملوكهم ، ليكونوا أحرارًا فى بلادهم ، ويمكنهم النهوض بما بقى منها فى أيديهم ، وقد تألب المستعمرون وملوك المسلمين المستبدُّون على هذه المجلة ، وحالوا دون تمكين المسلمين من قراءتها ، حتى قضوا عليها بعد ظهور عشرة أجزاء منها ، فعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، وبقى جمـال الدين يتنقل فى بلاد أوربا ، ليقوم وحده بالجهاد الذى كانت تقوم به جمعية العروة الوثقى ومجلتها .

ومكث جمال الدين فى أوربا إلى أن دعاه سلطان فارس ناصر الدين شاه ، فسافر إليه سنة ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٦ م ، وقد أكرمه ناصر الدين شاه وقربه إليه ، وعينه وزيرا للحربية ، على أن يجعله بعد هذا رئيسا لوزرائه ، فقام بدعوته الإصلاحية فى فارس حتى كثر أنصاره فيها ، وقوى سلطانه على نفوس المثقفين من أبنائها ، فخاف منه ناصر الدين شاه على سلطانه ، وخشى منه الجامدون من العلماء على سلطانهم ، وأخذوا يناهضون ما يدعو إليه .

فاستأذن جمال الدين من ناصر الدين شاه أن يأذن له فى رحلة إلى روسيا ، فساح مدة فيها ، ثم انتقل منها إلى فرنسا ، وكان ناصر الدين شاه قد رحل إلى فرنسا أيضًا ، فلقى جمال الدين فيها ، وألح عليه أن يعود معه إلى فارس على أن يجعله رئيس وزرائه ، فرجع معه إليها ، وعاد إلى دعوته الإصلاحية فيها ، ثم عرض على ناصر الدين شاه أن يجعل حكومته دستورية على نظام حكومات أوربا ، فقاومه أعداء الإصلاح من علماء الدين وغيرهم ، وعملوا على الإفساد بينه وبين ناصر الدين شاه حتى نفاه من فارس .

فقصد جمال الدين العراق بعد نفيه من فارس ، ثم قصد إنجلترا فأقام بها ، وأنشأ مجلة سماها - ضياء الخافقين - ونهج فيها منهج مجلة العروة الوثقى ، وحمل فيها على ناصر الدين شاه ، وأخذ يؤلب عليه الأحرار من أبناء فارس ، وكان لهذه الحملة أثرها فى قتله بيد واحد منهم .

ثم دعاه السلطان عبد الحميد بعد هـــذا سنة (١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ م) إلى إستانبول ، فقربه منه وجعل يستشيره فى شؤون دولته ، ولم يقصد من هذا إلا أن يراقب حركاته وسكناته وهو قريب منه ، فيعيش فى جواره وكأنه فى سجن ، إذ يحيطه بجواسيسه فى غدواته وروحاته ، ولا يمكنه أن يفارقه إلى بلد آخر ، فمكث على هذا الحال حتى توفى سنة ١٣١٤ هـ = ١٨٩٦ م .

ويمتاز جمال الدين الأفغانى فيما دعا إليه من الإصلاح عن غيره من مجددى هذا القرن بأنه كان يقوم بدعوة إصلاحية عامة؛ لأنه كان يدعو إلى الإصلاح فى الدنيا والدين ، ويقصد به جميع المسلمين فى كل الأقطار ، وينادى فيه بالثورة على حكامهم من المستعمرين والملوك المستبدين ، وعلى الجامدين من علماء الدين ، وهو يقصد الثورة التى تستعمل القوة فى السر والجهر ، ولا يكتفى بالثورة الكلامية التى لا تدعو إلى استعمال القوة ، وقد تأثر به فى هذا بعض طلاب الإصلاح فى مصر وفارس والدولة العثمانية التركية ، ولكن الطامعين فى هذه البلاد من الأجانب كانوا ينتهزون قيام ثوراتهم ليحققوا أطماعهم فيها ، فلا توصل ثوراتهم إلى الإصلاح ، بل توصل إلى الوقوع فى حكم أولئك الأجانب ، وهو أقسى من حكم الوطنى المستبد ، ولهذا يكون الأسلم الدعوة إلى الإصلاح بالسلم .

* * *

ميرزا على محمد

هو الباب ميرزا على محمد بن ميرزا رضا البزاز ، ينتهى بنسبه إلى على بن أبى طالب ، وقد ولد سنة (١٢٣٥ هـ = ١٨١٩ م) فى مدينة شيراز ، ومات أبوه قبل فطامه ، فقام بتربيته خاله ميرزا سيد على ، وكان يشتغل بالتجارة ، فتعلم الفارسية والعربية ، واشتهر بإجادة الخط ؛ ولما بلغ الحلم اشتغل فى تجارة خاله إلى أن بلغ العشرين سنة .

وكان مع هذا يكثر الاشتغال بالعبادة ، ويأخذ نفسه بالرياضات الصوفية الشاقة ، حتى كان يصعد إلى سطح منزله ويمكث فى الشمس عارى الرأس من الظهر إلى العصر ، وهو يزمزم ويتلو الأوراد ، فكانت تعتريه من ذلك نوبات عصبية ، حتى ضعف وانحطت قواه ، فأخذ خاله ينصحه بأن يترك هذه الأمور الشاقة وينهاه عن ذلك بالرفق ، ثم اشتد فى زجره ومنعه منها حين أبى أن يتركها ، فلم يقلع عنها بالشدة أيضا ، فأرسله إلى النجف وكربلاء لعله ينال الشفاء ؛ لأن فيها مشهد على بن أبى طالب وابنه الحسين ، وأهل فارس من الشيعة الإمامية ، ولهم بالنجف معهد دينى كبير كالجامع الأزهر لأهل السنة .

فلما وصل ميرزا على محمد إلى كربلاء مضى فيما كان فيه من الاشتغال بالعبادة والرياضات الصوفية الشاقة ، واتصل بالسيد كاظم الرشتى ، فتلقى عليه بعض الدروس فى التصوف وغيره ، ثم اتفق هو وبعض أصحابه على أن يتوجهوا إلى النجف ، ليعتكفوا فى مسجدها بما يسمى عندهم الرياضة الأربعينية ، فلما قاموا بهذه الرياضة عادوا إلى كربلاء ، وعاد ميرزا على محمد إلى دروس السيد كاظم الرشتى ، ولكنه كان يحضرها وهو فى حالة ذهول ، وكان ينطق بعبارات من عبارات الصوفية أثارت عليه أصحابه فى تلك الدروس ، وجعلتهم يهجرونه ويبعدونه عن دروسهم ، فانقطع فى بيته عن الدرس ، وأخذ يشتغل بالعبادة ، ويظهر الزهد والتقشف ، حتى مال إليه كثير من عامة الناس وأشباههم ، وكان إذا أنس من بعضهم غفلةً ومبالغة فى الإخلاص له خاطَبه بقوله : « فادخلوا البيوت من أبوابها » ثم أخذ يكثر من إسماعهم الحديث المشهور « أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها » ، ويُدخل بهذا فى نفوسهم أن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا عن طريق الرسالة والنبوة ، ولـمّا كان من الصعب الوصول إلى تلك المراتب احتاج الأمر فيها إلى واسطة ، ثم أخذ يدَّعى أنه هو الواسطة إلى الوصول إليها ، وأنه كما لا يجوز دخول البيت من غير باب لا يجوز الوصول إلى هذا من غير باب، وأنه هو الباب الذى يوصل إليه، ولم يزل يبثّ هذه الدعوة بين أتباعه حتى آمنوا بها ، فسمى نفسه الباب ، واشتهر أتباعه باسم البابية .

وكان الذين آمنوا بأنه الباب فى أول أمره يبلغون ثمانية عشر رجلا ، فسماهم بحروف - حى - لأنها تبلغ بحروف الأبجدية هذا الرقم ، ثم أرسلهم إلى بلاد إيران ليبشروا الناس بظهوره · ويدعوهم إلى الإيمان بدعوته ، على أن يكتموا اسمه إلى أن يأمرهم بإظهاره ، وكان قد ألف رسالة سماها - الرسالة العدلية فى الفرائض الإسلامية - نبذ فيها بعض تلك الفرائض ، ثم شرع فى شرح سورة يوسف من القرآن الكريم ، فشرحها فى كتاب ضخم جعله عشرين ومائة سورة أو فصل ·

ولما وجَّه رسله إلى بلاد إيران ليقوموا بدعوته فى السر أخذ يستعد للسفر إلى الحجاز ؛ لأن المهدى المنتظر يكون خروجه من مكة ، فسافر إلى الحجاز مع بعض أصحابه سنة ١٢٥٩ هـ = ١٨٤٣ م ، وركب سفينةً من البصرة ليصل إليه بطريق البحر ، ولكن النَّوء اشتد بالسفينة فى الخليج الفارسى ، فجنحت بهم إلى مدينة بوشهر ، فنزل بها وأخذ فى إعداد ما يلزم لإظهار دعوته ، وقد ألف فيها كتابه « البيان » وهو الكتاب الذى ادَّعى أنه منزَل عليه من عند الله ، ثم قام بإظهار دعوته فيها ، وأرسل رسله إلى بلاد إيران ليقوموا بالدعوة إليها جهرًا ، بعد أن كانوا يدعون إليها سراً ·

وكان « البيان » يتضمن شريعته التى ادعى أنها ناسخة لأحكام القرآن ، وقد ادَّعى فيها أن كل من كان على شريعة القرآن فهو ناج إلى ليلة القيامة ، وهى تبتدىء من الساعة الثانية والدقيقة الحادية عشرة من غروب اليوم الرابع من جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ = ١٨٤٤ م ، وهو الوقتْ الذى قام فيه بإظهار دعوته ، وجعله المراد من يوم القيامة فى القرآن ، كما جعل المقصود فيه من البعث والحشر والنشر هو قيامه بدعوته ، فكل من لا يؤمن بها فهو كافر مباح الدم ، ثم جعل الغاية من لقاء الله هى لقاء الباب ، وادَّعى أنه البرزخ المذكور فى القرآن ، وأنه إذا كان محمد أفضل من عيسى فهو أفضل من محمد ، وأن كتابه أفضل من القرآن ، ثم حرَّم التعليم فى جميع العلوم والكتاب ما عدا كتابه ، وأمر بحرق القرآن وكتب العلوم الإسلامية من الفقه ونحوه ، وبهدم جميع المزارات الخاصة بالأنبياء والأوصياء السابقين ، كما أمر بهدم الكعبة ومنع الحج إليها ، وأمر أتباعه أن يبنوا بدلها تسعة عشر مزارًا له ولأصحابه الثمانية عشر السابقين ، وأن يكون حجهم إلى بيته الذى وُلد فيه بمدينة شيراز ، ثم قسَّم السنة إلى تسعة عشر شهرًا ، وجعل الشهر تسعة عشر يومًا ، فتكون السنة واحدًا وستين وثلثمائة يوم ، وقد أضاف إليها خمسة أيام سماها أيام - هاه - وهى الأيام الكبيسة ، وجعل للصوم تسعة عشر يوما ، وجعله يبتدىء قبل انتقال الشمس من برج الحوت إلى برج الحمل بتسعة عشر يوما ليجعل يوم عيد النيروز عيد الفطر ، وجعل الأيام الكبيسة السابقة قبل دخول شهر الصوم ، لتكون أيام لهو ولعب

وطرب واشتغال بملذات الدنيا ، قبل الدخول فى الصيام الذى يحرمها ، وهذا يشبه عيد المرافع أو المساخر عند المسيحيين قبل صيامهم ، ثم جعل نزيف الدم من الفم طاهرًا ، وكذلك روث البهائم وأجزاء جميع الحيوان المجتر وغير المجتر ، وجعل التراضى فى المعاملات أساسا لكل ما يتعلق بها من أحكام ، وفرض الزكاة على كل من امتلك نصابها ، وهو واحد وأربعون وخمسمائة مثقال من الذهب ، أو ما يساويه من الفضة ، وجعل أساس الزواج رضا الرجل والمرأة ، واستحسن وجود الشهود فى أواخره لا فى أوائله ، وأوجب على الرجل إذا أراد طلاق امرأته أن يعتزلها سنة فإذا ندمت قبل انقضائها رجع عن طلاقها ، وإن لم تندم كان له أن يطلقها ، فإذا طلقَّها لم يجز له مراجعتها إلا بعد تسعة عشر يوما ، وجعل الطلاق تسع عشرة مرة ، فإذا استوفاها لم تجز له المراجعة بعدها ، ثم جوَّز لبس الحرير واستعمال الذهب والفضة للرجال والنساء ، وأوجب على كل واحد من أتباعه أن يلبس خاتمًا من فضة منقوشًا عليه : « قل الله حق وما دون الله حق وكلٌّ له عابدون » كما أوجب عليهم أن يمنعوا ظلم بعضهم لبعض ، ومن يتهاون منهم فى هذا تحرم عليه امرأته تسعة عشر يوما ، ثم أوجب على كل ملك يتولى أمرهم أن يبنى له قصرًا عظيما يسميه باسم الباب ليستقر الملك فيه دون غيره ، ويجعل له خمسة وتسعين بابا من الداخل ، إلى غير هذا من شرائعه وأحكامه .

ثم جعل مع هذا موت الناس كناية عن فنائهم فيه ، وجعل خلقهم بكلمة منه ، لأنه جعل نفسه مبدأ ظهور الأشياء كلها ، إلى غير هذا من دعاوى الصوفية العريضة التى ابتدأ أمره بها ، ولم يكتف بها كما اكتفى الصوفية قبله ، بل أراد أن يكون صاحب شريعة منزلة .

ولما وزَّع ميرزا على محمد دعاتَه من بوشهر إلى بلاد إيران ، وصل بعضهم إلى شيراز ، وكان حسين خان نظام الدولة واليا عليها ، فجمعهم فى محفل من العلماء والأعيان وغيرهم ، وعرض عليهم دعوتهم فأفتوا بكفرهم ووجوب قتلهم ، ولكنه اكتفى بسجنهم ، ثم أرسل فأحضر ميرزا على محمد من بوشهر إلى شيراز فى شهر رمضان سنة ١٢٦١ هـ = ١٨٤٥ م ، وجمع له علماء شيراز ليمتحنوه فى العلم ، ويبحثوا معه فيما يدعيه ، فأمره الوالى أن يكتب ما يدَّعيه فى صحيفة ثم يقرأها عليهم ، فكتب أسطرًا بالعربية ثم سلَّمها إليهم ، فوجدوا فيها أغلاطا كثيرة ، وقد اعتذر عنها بأنه لم يتعلم فى المدارس ، وإنما كتبها بإلهام من الغيب ، فلينظروا إلى المعانى ويتركوا المبانى ، وليأخذوا اللب ويرموا القشور ، فأفتى بعضهم بقتله لأنه كافر ، ورأى بعضهم أنه مختلٌّ العقل ، وأجاز تعزيره بالسجن ونحوه ، فأمر به الوالى فسجن .

وكان بعض دعاة ميرزا على محمد قد وصل إلى أصفهان ، وأمكنه أن يؤثر فى واليها منوجهر خان الكرجى ، وكان نصرانياً من الكرج ، فأسلم وتقرب من الشاه حتى ولآه أصفهان ، فلم يكن يعرف من الإسلام ما يعرف به فساد هذه الدعوة ، ولعله كان ممن يظهر الإسلام ويبقى على دينه الأصلي ليتمكن من نشر الفتن بين المسلمين . فآمن بدعوة ميرزا على محمد ، ثم أرسل رجالا إلى شيراز فاحتالوا حتى أطلقوه من السجن ، وأتوا به إلى أصفهان ، فأخذ هذا الوالى يعمل على نشر دعوته فى السر ، ولكن أمرها لم يلبث أن ظهر للناس ، فثاروا وذهبوا إلى الوالى لينظر فى أمر ميرزا على محمد ، فلم يجد إلا أن يجمع له العلماء لينظروا فى أمره ، فأفتى بعضهم بأنه كافر يجب قتله ، وذهب بعضهم إلى أنه مختل العقل ، وافتتن به منهم فقيهان ، فطلب الناس من الوالى أن يأمر بقتله ، فتعلل بأنه لا يمكنه ذلك حتى يأخذ إذنا من الحكومة بطهران ، ثم أمر به فسجن إلى أن يصل هذا الإذن ، وكان يطلقه فى الليل سراً ويأخذه إلى منزله ، ثم كتب إلى الحكومة بطهران أنه يخشى وقوع فتنة لو أذنت بقتله ، لأن أكثر أهل أصفهان يميلون إليه ، واستحسن فى كتابه أن يبقى فى السجن إلى أن يهدأ الناس ، فانطلت حيلته على الحكومة ، ورضيت أن يبقى فى السجن مع منع الناس من الاتصال به .

فمكث ميرزا على محمد على هذا الحال سنة وبضعة أشهر ، وهذا الوالى يمكنه فى السر من القيـــام بدعوته ، إلى أن مات بعد هذه المدة وتولى أخوه كركين خان على أصفهان ، فعرف أمر ميرزا على محمد ، وأخبر حكومة طهران به ، فأمرت بنقله إلى سجن مدينة ماكو بأذربيجان ، فمكث فى سجنه إلى أن تولى الشاه ناصر الدين سنة ١٢٦٤هـ = ١٨٤٧ م .

وكانت بلاد إيران تموج بالفتن فى أوائل ولاية الشاه ناصر الدين ، فتمكـن بعض أتباع ميرزا على محمد من إطلاقه من السجن ، وانتهزوا فرصة تلك الفتن فظهروا فيها بدعوتهم ، وأخذوا يستعملون القوة فى نشرها ، فاستجاب لها ملا حسين من أهل بشرويه بخراسان ، وملا محمد البارفروشى بمازندران وطبرستان وجيلان ، وزرين تاج الملقبة بقرة العين ، وكانت فتاة جميلة من أسرة مشهورة بالعلماء ، حافظة للقرآن ، عالمة بالتفسير ، فافتتنت بهذه الدعوة ، وأخذت تأمر النساء بالسفور ، فاجتمع حولها خلق كثير ، وكانت متزوجة من ابن عمها ملا محمد فخرجت من عصمته بغير طلاق ، وأخذت تخطب فى تأييد دعوة الباب ، وتأمر أتباعها بالفتك بمن يعارضهم ، فاغتالوا عمها فى صلاة الفجر ، وكان من كبار علماء الشيعة الإمامية ، فغضب لذلك الناس ، وقاموا يطلبون قرة العين وأتباعها ، ففرت منهم إلى خراسان لتجتمع بالملا حسين ، والملا محمد على ، وخطبت الناس فى قرية بدشت هذه الخطبة :

« أيها الناس ، اعلموا أن أحكام الشريعة المحمدية قد نُسخت الآن بظهور الباب ، وأن أحكام الشريعة البابية لم تصل إلينا ، وأن اشتغالكم الآن بالصوم والصلاة والزكاة وسائر ما أتى به محمد كله عمل لغو ، وأن مولانا الباب سيفتح البلاد ، ويسخِّر العباد ، وستخضع له الأقاليم السبعة المسكونة ، وسيوحد الأديان الموجودة على وجه البسيطة ، حتى لا يبقى إلا دين واحد هو دينه الجديد ، وهو لم يصل إلينا بعدُ ، ولهذا أقول لكم وقولى هو الحق ، إنه لا تكليف اليوم ، وإنما نحن فى زمن فترة ، فاخرجوا من الوحدة إلى الكثرة ، ومزِّقوا الحجاب الحاجز بينكم وبين نسائكم ، وواصلوهن بعد السلوة ، وأخرجوهن من الخلوة إلى الجلوة ، فما هن إلا زهرة الحياة الدنيا ، وأما ادِّخار المال عند أحدكم وحرمان غيركم منه فهو أصل كل وزر ، لأنه حق مشاع غير مقسوم ، فليشارك بعضكم بعضا فى الأموال ، ليُرفع الفقر عنكم ويزول الوبال ، ساووا فقيركم بغنيكم ، ولا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم ، إذْ لا ردعَ الآن ولا حدّ ، فخذوا حظكم من هذه الحياة ، فإنه لا شىء بعد الممات » .

فلما سمع الناس هذه الإباحية السافرة انفضُّوا من حولها ، ولكن البابية زادوا افتتانًا بها ، ولم تزل تنتقل من قرية إلى قرية إلى أن قبضت الحكومة عليها وقتلتها .

وكان الملا حسين من أقوى أركان هذه الدعوة ، فقام بالنضال فى تأييدها ، وجرت له هو والملا محمد على وقائع كثيرة مع جند الحكومة ، إلى أن تغلبت عليهما وقتلتهما ، ثم أحضرت الحكومة ميرزا على محمد من سجنه إلى تبريز ، وكانت قد تمكنت من القبض عليه بعد أن أطلقه أتباعه من سجن ماكو ، فأفتى العلماء بقتله ، فقُتل سنة ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٧ م .

ولا شك أن هــــذه الدعوة البابية دعوة رجعية ، قام بها رجل نشأ نشأة صوفية رجعية ، ووقع مثل الصوفية فى دعاوى عريضة خرافية ، واستغلَّ فيها بيئة رجعية جامدة ، لا تدرى شيئا من أحوال هذا القرن ، ولا تعرف ما وصل إليه فى الحضارة والعلم ، فقامت بعقلية رجعية جامدة تدعو إلى أمور تافهة لا قيمة لها فى قرن بلغت فيه الحضارة غايتها ، ولم تكن البيئة التى ظهرت هذه الدعوة الرجعية فيها تنقصها الفتن التى تشغلها عن مطامع الدول الأوربية فيها ، حتى تضم إليها هذه الدعوة فتنة جديدة تشغلها عنها ، وتزيدها غفلةً عن الإصلاح الصحيح الذى ينجيها منها ، وهو الإصلاح الذى يقوم على أساس الأخذ بالأسباب التى نهضت بها الأمم الأوربية ، ودعا إليه أحمد خان فى الهند ، وجمال الدين الأفغانى فى البلاد الإسلامية التى دعا فيها إليه ، ولا يلتفت إلى شىء من تلك الأباطيل التى وصلت إلى حد الإباحية وإلى عدم الإيمان بالآخرة والثواب والعقاب وما

إلى هذا مما لا بُدَّ منه فى كل شريعة سماوية ، وما كان لرجل يدعو إلى مثل هذا أن يدعى أنه منزل من السماء ؛ لأن أساس دعوة السماء الإيمان بالثواب والعقاب فى حياة أخرى بعد هذه الحياة ، والذين لا يؤمنون بهذا لا يدّعون النبوة ، ولا يزعمون أن لهم شرائع منزّلة ، فالجمع بين هـــذا وذاك لا يكون من عقلية صحيحة ، ولا يقبله إلا بيئة رجعية لا تفقه شيئا ، وإنما تجرى وراء كل ناعق ، لأنها ضلت فى رجعيتها عن دينها الصحيح ، فصار من السهل على كل ناعق استهواؤها ، ما دامت تنظر هنا وهناك فلا تجد إلا فسادا مستحكما ، وضلالا مخيما ، ولا أحد يهديها الطريق الصحيح ، ويبصِّرها بما يدبَّر لها وهى غافلة عنه ، لتسلك سبيل الجدِّ ، وتدع ذلك اللهو واللعب ، وتنهض مع الأمم الناهضة ، حتى لا تتخلف عن غيرها من الأمم ، ثم تندم ولاتَ ساعةَ مندم .

ثم قام بالدعوة إلى البابية بعد موت ميزرا على محمد ميزرا حسين على ، ولقب نفسه بهاء الله ، فاتبعته فرقة من البابية يقال لها بهائية ، وهى صاحبة دعوة جديدة فى البابية ، وقد سجنته الحكومة الإيرانية ثم نفته إلى بغداد سنة ١٢٦٩ هـ = ١٨٥٢ م ، فلما تمادى فى دعوته نفته الدولة العثمانية إلى أدرنة ، ثم إلى عكــا ؛ فمات فيها سنة ١٣٠٩ هـ = ١٧٩١ م .

وتقوم دعوة بهاء الله على ادِّعاء الحلول الذى ادَّعاه بعض الصوفية ، وقد ذكر ابنه عباس عبد البهاء أنه أخبره بأن مجىء رب الجنود والأب الأزلى ومخلِّص العالم الذى لا بد منه فى آخر الزمان عبارة عن تجليه فى هيكل عيسى الناصر ، ولكن تجليه هذه المرة فيه - أى البهاء - أتم وأكمل وأبهى ، فعيسى وغيره من الأنبياء هيَّئوا الأفئدة للاستعداد لهذا التجلى الأعظم .

وكذلك ذكر ابنه عباس أن تعاليمه تحتوى على جميع آمال العالم ، وأن جميع الناس يجدون فيها دينا عاما موافقًا كل الموافقة للعصر الحاضر ، ثم ادعى أنه يريد أن يوحِّد بين المسلمين والنصــارى واليهود ، ويجمعهم على أصول نواميس موسى الذى يؤمنــون به جميعا ، ولا شك أن هذه ليست دعوة جديدة تحتاج إلى تلك الدعوى العريضة من دعوى حلول الله فى البهاء ، ومن دعوى أن تجلِّيه فيه هو التجلِّى الأعظم ؛ لأن الدين الإسلامى لم يكن يقصد إلا جمع الناس على الأصول التى دعا الأنبياء السابقون جميعا إليها لا موسى وحده ، ولكنه يدعو فى هذا إلى الأصول الصحيحة التى دعا إليها أولئك الأنبياء قبل أن يحرفها أتباعهم ، أما البهاء فيدعو مرة إلى ما حرَّف من دعوى الحلول ، ويدعو مرة إلى أنه لا آخرة ولا بعث ولا نشور ولا ثواب ولا عقاب ، فينكر الأصول التى دعا إليها أولئك

الأنبياء ، ولا يمكن أن تقوم دعوة سماوية إلا بها ؛ لأن إنكارها إنما تقوم به دعوة أرضية لا تدَّعى نبوة ولا حلولا ، ولا تزعم الاتصال بالسماء كما تزعم البابية والبهائية .

ولكن الرجعية التى تغلبت على الإسلام الصحيح جعلت منه دينا لم يقم إلا بالسيف ، ولم ينتشر إلا بالقوة ، فجعلت كثيرًا ممن لا يعرف حقيقته فى عصرنا يفهم أنه دين حرب لا سلام ، ويغتَرّ بدعوة البهائية إلى السلام وتوحيد الأديان ، ويظن أنها دعوة جديدة لم يسبق إليها الإسلام ، ولم يدْعُ إليها على الأساس الصحيح الذى سبق ، لا على الأساس الفاسد الذى تقوم عليه البهائية .

على أن الإسلام يمتاز أيضًا بأنه لا يجعل دعوة السلام ودعوة توحيد الأديان دعوتين متلازمتين ، بل يدعو إلى السلام ولو بقى الناس مختلفين فى الدين ؛ لأن الطبيعة الإنسانية مجبولة على الخلاف ، فيتعذر أو يعسر جمعها على دين واحد ، وبهذا تكون دعوة السلام بين أهل الأديان أقرب منالاً من دعوة توحيد الأديان فلا يصح أن تُعطَّل إحداهما إذا تعطلت الأخرى ، بل يجب أن يُترك الدين لحساب الآخرة ، وألاَّ يتأثر بالخلاف فيه أهل الدنيا ، ليعيشوا فى سلام وأمن ، ولا شك أن عيشتهم فى سلام وأمن يقرِّب بينهم فى الدين ، وربما يسهل معه جمعهم على دين واحد ، لا يكون فيه دعوى حلول ولا غيرها من الدعاوى العريضة التى يُقصد منها تمجيد أصحابها وتقديسهم ، ولا يقبلها الناس فى عصر العلم الذى لا يؤمن بمثل تلك الدعاوى .

وقد ينخدع بعض الناس فى البهائية بإيمان بعض أهل أمريكا بها ، ويفوتهم أن أهل أمريكا وأوربا لا يؤمنون إيمانا صادقا بمسيحيتهم حتى يؤمنون بالبهائية ، وإنما يذهب بعض منهم إلى هذا على أنه نوع من الترف الفكرى ، فهو أقرب إلى التفكه منه إلى الجدّ ، وبعضهم يذهب إليه على أنه دراسة لدعوة جديدة تجب دراستها ، وبعضهم يذهب إليه ليزيد فى بلبلة الإسلام ، بعد أن أعياهم أمره ، ولم يمكنهم أن ينالوا بأنفسهم منه .

ولما مات بهاء الله ترك أولادًا أربعة ، وهم عباس عبد البهاء ، ومحمد على ، وضياء ، وبديع الله ، وكان الثلاثة الأخيرون أشقاء ، فاختلفوا هم وأخوهم لأبيهم عباس عبد البهاء ، وكانت الرئاسة بيده بعد والده ، فنازعوه فيها وادعوا أنه خالف وصايا والدهم ، واستحكم الخلاف بينهم مدة من الزمن ، وكان فى عباس أنفة وحدة ، فمضى فى غضبه على إخوته حتى بعد أن سلَّموا له ؛ لأن النفرة كانت قد تمكنت من قلبه ، لما صدر منهم فى حقه من التشنيع عليه .

ولم يزل عباس عبد البهاء مصراً على هذا الجفاء مع إخوته إلى أن توفى سنة ١٣٤١هـ = ١٩٢٢ م ، وكان قد نيَّف على الثمانين سنة ، ولم يترك ولدًا ذكرًا بعده ، ومع

هذا أبى أن يستخلف أحدًا من إخوته ، وآثر عليه سبطًا من أولاد بنته ، فوقع الخلاف بهذا بين البهائية ، وانقسموا إلى فريقين : فريق يتمسك بوصية عباس عبد البهاء لسبطه ، وفريق يرى أنه لا حق له فى ذلك ، ويرى انتقال الخلافة إلى أخيه محمد علي . ولا شك أن هذا كله يبين حقيقة دعوتهم ، وأنها لم تكن غايتها إلا تأليف طائفة تدين بهذه الرئاسة لبهاء الله ، ثم تكون حقًا مقدسًا لورثته من بعده ، وكل ما عدا هذا من دعاواهم إنما هو ستار لهذا الغرض ؛ فالدعوة البريئة إنما تقوم على إنكار الذات ، ولا تقصد إلى شيء يعود إلى النفس فى الحياة ، ثم يتوارثه الأولاد بعد الوفاة .

وإنه لمن المؤلم أن يغتر بهذه الدعوة بعض المثقفين ثقافة حديثة من أبناء المسلمين ، فإنه إذا كان جهلهم بالإسلام قد أوقعهم فى الإيمان بهذه الدعوة ، لأنهم تربوا تربية مدنية صرفة ، فلم يعرفوا أن فى الإسلام ما يُغنى عن كل دعوة دينية ، لأن فتح باب الاجتهاد والتجديد الصحيح على مصراعيه ، ولم يرض للمسلمين أن يقفوا جامدين فى دينهم أو دنياهم كما جمد أهل الأديان قبلهم ، إذا كان جهلهم بهذا كله قد أوقعهم فى الإيمان بهذه الدعوة ، فإنهم كان لهم فى دراستهم للنهضة الأوربية ما يمنعهم من الوقوع فى هذه الخرافات والخزعبلات ، إذ يعرفون أنه كان من أسباب النهضة الأوربية الدعوة الإصلاحية الدينية التى قام بها مارتن لوثر ، وكانت دعوته تعتمد على البراهين العقلية ، وتستعين بالأدلة المنطقية ، فأيقظت العقول من غفلتها ؛ وجعلتها تعتمد على العلم الذى نهض بها ، لأنها لم يكن فيها لبس أو خداع يعادى العلم ويسهل الإيمان بالخزعبلات والخرافات ، كما فى البابية والبهائية ، نعم كان فى هذا ما يكفى أولئك المثقفين فى عدم الإيمان بهما ، ولكنها طبائع غافلة كطبائع العامة ، فلا تؤثر فيها الثقافة الحديثة ، ولا ينهض بها العلم الحديث ، فتقع فى حبائل تلك الرجعية ، ويكون حالها فيها كحال العامة .





حال العالم فى القرن الرابع عشر الهجرى

يبتدىء القرن الرابع عشر الهجـرى من سنة ١٨٨٤ م ، ونحن الآن فى سنة ١٣٧٠هـ = ١٩٥١ م ، وقد ظهرت فى هذا القرن نتائج تأخر المسلمين فى التجديد والإصلاح ؛ لأنهم مضوا فيه أيضا متفرقين متخبطين ، يقيم أعداء الإصلاح والتجديد منهم فى سبيله من العقبات أكثر مما يقيمه أعداؤها من غيرهم .

وقد استولت فرنسا فى هذا القرن على مراكش ، وأبقت فيها سيادة صورية لملوكها من السعديين ، واستولت إيطاليا على طرابلس ، وكانت تابعة للدولة العثمانية التركية ، وقد انتزعتها منها أخيرا إنجلترا وحلفاؤها ، وأقاموا فيها ملكًا لأنصارهم من السنوسيين ، وهم أتباع الطريقة السنوسية الصوفية التى قامت بعبء الجهاد فى استرداد طرابلس من إيطاليا ، حتى أمكنها أن تستردها منهم بمساعدة انجلترا وحلفائها فى الحرب العالمية الثانية .

فبقى للمسلمين فى هذا القرن دولتان بالمشرق ، وكانت الدول الأوربية تلعب بهما ، وتدبر فيهما المؤامرات لإضعافهما ، وأبناؤهما يمكِّنون لهذا بتخاذلهم وتفرقهم وعدم اتفاقهم على الإصلاح والتجديد الذى ينهض بهم .

أولاهما : الدولة العثمانية التركية ، وكان السلطان عبد الحميد الثانى لا يزال ملكًا عليها يحكمها حكمًا استبداديا بعد أن ألغى الدستور ، فوقفت فى عهده حركة الإصلاح السياسى والعلمى والدينى ، وانقسم أهل الدولة فى شأنه إلى فريقين :

أولهما : فريق يناصره فى استبداده وجموده من جهلة المتصوفة والعلماء الجامدين ، وقد استولى على عقله منهم الشيخ أبو الهدى الرفاعى الصيادى من أصحاب الطرق الصوفية ، وكان نقيب الأشراف بحلب ، ثم انتقـل إلى إستانبول ، فقلـده السلطـان عبد الحميد مشيخة الطرق الصوفية ، وكان هو المتصرف فى دولته نحو ثلاثين سنة ، يزين له فيها حكم الاستبداد ، وينفِّره من التجديد والإصلاح .

وثانيهما : فريق يطالبه بالإصلاح وإعادة الدستور ، وكان أكثره من أبناء المدرسة

الحديثة من الضباط والأطباء والمهندسين ونحوهم ، وقد ألَّفوا جمعية سرية سموها - جمعية الاتحاد والترقى - فلم تزل تعمل فى السر إلى أن تمكنت من عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد رشاد الخامس سنة ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م ، وكان عزله بفتوى شرعية من شيخ الإسلام بالدولة هذا نصها :

« إذ اعتاد زيد الذى هو إمام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة ، وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها(١) وأن يبذر ويسرف فى بيت المال ، ويتصرف فيه بغير سبب شرعى ، إلى غير هذا من المظالم ، ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله ، وحلف أن يصلح حاله ، ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلَّة ، وأصر على المقاتلة ، وتمكن المسلمون من التغلب على زيد المذكور ، ووردت أخبار متواترة من بلاد المسلمين تعده مخلوعا ، وصار بقاؤه محقق الضرر ، وخلعه محتمل المصلحة - فهل يجب خلعه ، أو تكليفه بأن يترك الإمامة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد من هذين الأمرين ؟

الجواب : يجب - كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفى عنه » .

واستعادت بهذا جمعية الاتحاد والترقى للشعب دستوره ، فقام مجلس الأعيان ومجلس النواب بجانب الحكومة ، يتوليان السلطة التشريعية ، وتتولى هى السلطة التنفيذية ، وكانت الحكومة وأغلب أعضاء المجلسين من جمعية الاتحاد والترقى ، لأن اختيار الشعب وقع على أعضائها ، فأخذت الحكومة بمساعدة هذه الجمعية تعمل على إصلاح حال الدولة ، وكانت عنايتها مصروفة إلى الإصلاح المدنى ، لأن رجال السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية كانوا من المدنيين الذين تغلب عليهم التربية الحديثة ، وليست لهم دراسة دينية تمكنهم من القيام بالإصلاح الدينى ، وكان علماء الدين من أنصار السلطان عبد الحميد ، فانكمشوا فى عهد الحكومة الدستورية ، وأخذوا ينفِّرون العامة وأشباه العامة منها ، ويزعمون أن رجال جمعية الاتحاد والترقى زنادقة ، وأنهم يعملون على القضاء على الإسلام فى الدولة ، وانضم إليهم الرجعيون السياسيون من حكام عهد السلطان عبد الحميد ، وألفوا أحزابا تناهض جمعية الاتحاد والترقى ، وتحاول انتزاع الحكم منها بالقوة .

واستغلت الدول الأجنبية فرصة هذا الانقسام فى الدولة ، فأخذت تناصر دعاة الرجعية فيها ، وتحاول التفريق فيها بين المسلمين والمسيحيين والترك والعرب ، وكانت هذه

(١) كان يمنع نشر الكتاب إذا كان فيه حديث « الأئمة من قريش » ويمنع طبع كتاب العقائد النسفية لأن فيه فصلاً فى الإمامة وشروط الخلافة ... الخ الخ .

الدعوة للتفريق تجد آذانا مصغية من العرب والمسيحيين ، ، وهم لا يدرون أن هذه الدول تلعب بهم ، لكى تزيح الدولة من بلادهم وتستولى بعدها عليهم ، ولا يهمها بعد هذا أمر العرب والمسيحيين ؛ لأن حكوماتها قومية أكثر منها دينية ، وكثيرا ما تؤثر المصلحة القومية على المصلحة الدينية ، ومع هذا لا يمكننا أن نخلى رجال جمعية الاتحاد والترقى من بعض المسئولية ، لأنهم كان فيهم شيء من الجمود السياسى ، فلم يمكنهم أن يصلوا بحسن السياسة إلى كسب العرب والمسيحيين ، وأن يتغلبوا على السياسة الأوربية الماكرة التى تعمل على إفساد الفريقين .

ثم قامت الحرب الأوربية الأولى سنة ١٣٣٣ هـ = ١٩١٤ م ، وكانت بين فريقين من الدول الأوربية : فريق إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ، وفريق ألمانيا والنمسا ، وكانت إيطاليا فى حلف هذا الفريق ، فغدرت به وانضمت للفريق الأول ، فرأت الدولة العثمانية التركية أن تنضم إلى فريق ألمانيا والنمسا ، لأن الفريق الأول هو الذى أصابها منه ما أصابها ، ولا سيَّما إنجلترا وفرنسا اللتين تستوليان على معظم بلاد المسلمين ، وصار همهما تقويض هذه الدولة ، لأن ملوكها يدَّعون لأنفسهم الخلافة الإسلامية ، والمسلمون يصدِّقونهم فى هذه الدعوى ، فيتعلقون بهم فى شرق الأرض وغربها ، ولهم أمل فى دولتهم أن تقوى فى يوم من الأيام ، فتخلصهم من إنجلترا وفريقها ، وتزيح عنهم كابوس الاستعمار الذى يكتم أنفاسهم ، وقد رأى بعض السياسيين أن المصلحة كانت فى أن تقف هذه الدولة موقف الحياد بين الفريقين ، لأن ألمانيا كان لها مطامع فيها أيضًا .

فلما دخلت الدولة العثمانية التركية هذه الحرب مع ألمانيا والنمسا نادت بالجهاد الإسلامى ، وهى تظن أن المسلمين فى الهند ومصر وغيرهما يستجيبون لهذا النداء ، وتنسى أن الجمود الدينى قد أمات نفوسهم ، وجعل من السهل على إنجلترا الماكرة أن تستغلَّ هذه النفوس الميِّتة الجامدة ، وأن تلعب بها كما يلعب الشخص بالكرة ، بل جعل من السهل عليها أن تستغل هذا الجمود فى المسلمين التابعين لهذه الدولة ، فتمنيهم بالأمانى الكاذبة ، وتفسدهم بهذه الأمانى على دولتهم ، فجرَّت إنجلترا وفرنسا مسلمى الهند ومصر وبلاد المغرب ليحاربوا فى صفها ، وكانوا فى جمودهم وجهلهم كالمطية الذلول لهما ، ثم لعبت إنجلترا لعبتها على الشريف حسين أمير مكة ، فمنته بمملكة عربية تضم الجزيرة العربية وبلاد العراق والشام وفلسطين ، وجمعت حوله عرب الحجاز وغيرهم ، واستغلت الخلاف العنصرى الذى كان بين العرب والترك قبل هذه الحرب ، وكان لجواسيسها يد فى تقوية هذا الخلاف ، فثار الشريف حسين على دولته ، وقاتلها جنوده مع جنود إنجلترا جنبًا لجنب ، حتى استولوا على فلسطين والشام والعراق .

وكان لهذا أثره فى ضعف هذه الدولة وحلفائها ، فانهزموا فى هذه الحرب ، ودخلت جنود إنجلترا وفرنسا إستانبول قاعدة الدولة العثمانية التركية ، وكان الذى يتولى حكمها السلطان محمد وحيد الدين ، فخضع لهؤلاء الجنود ، ورضى بهذه الاستكانة الذليلة ، ورضيها معه الجامدون من علماء الدين ، ولم يكن لهم من هم فى هذا الوقت العصيب إلا الشماتة برجال جمعية الاتحاد والترقى ، وإلقاء تبعة ما أصاب الدولة على عواتقهم .

وأرادت إنجلترا وحلفاؤها أن يقسِّموا ما بقى من بلاد هذه الدولة على أنصارهم ، فسلطوا حكومة اليونان على بلاد آسيا الصغرى ، ووقفوا ينظرون إلى جيوشها وهى تجتاح هذه البلاد ، ووقف السلطان محمد وحيد الدين وعلماؤه الجامدون ينظرون معهم ، ولم يقم إلا مصطفى كمال من ضباط الجيش لدفع هذا الخطر عن آسيا الصغرى ، وكانت البقية الباقية للعنصر التركى فى الدولة ، وقد قامت البلاد كلها وراءه ، يدافعون جيوشَ اليونان ، ويجودون بأنفسهم فى الدفاع عن وطنهم ، والسلطان محمد وحيد الدين وعلماؤه الجامدون يُصدرون الفتاوى بأن أولئك المجاهدين خوارج على دينهم وسلطانهم .

ولكن الله نَصَرَ مصطفى كمال وجنوده على جنود اليونان ، فأخرجوهم من بلادهم ، وذهبت تلك الفتاوى الفاسدة فى سبيل الشيطان ، فلم يكن لها أثر إلا القضاء على تلك السلطنة ، وإقامة جمهورية جديدة بمدينة أنقرة سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م .

وقد أرادت هذه الجمهورية أن تخالف جمعية الاتحاد والترقى فى الاعتماد على الجامعة الإسلامية ، فتقتصر على الجامعة التركية ، وتقطع علاقتها بالعرب الذين لم يفوا للجامعة الإسلامية ، فألغت الخلافة الصورية لأولئك السلاطين بعد إلغاء سلطتهم ، ليعتمد كل قطر إسلامى على نفسه ، ويترك آماله الكاذبة التى كان يعلقها على هذه الخلافة الصورية .

ومع هذا يؤخذ على حكومة مصطفى كمال أنها تغالت كثيرًا فى سياستها الجديدة ، حتى مالت بالترك عن بعض تقاليدهم القديمة ، فاستبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، والقوانين الأوربية بالقوانين التى كانت تعتمد غالبا على الشريعة الإسلامية ، والقبعة بالطربوش الذى كان يميز بينهم وبين أهل أوربا ، وإذا كان فى هذا شىء من الانحراف عن الشريعة الإسلامية ، فإن أكثر إثمه يقع على العلماء الجامدين فى هذه الدولة ، لأنهم لم يتقدموا صفوف المصلحين ، بل أخذوا يعارضونهم باسم الدين ، حتى جعلوهم يفهمون أن الإسلام عدو الإصلاح ، وأنه يجب السير فى الطريق الذى سارت فيه أوربا ، وهم قوم تربوا تربية مدنية ، وإذا كان علماء الدين قد جهلوه وجعلوه جمودا على القديم ، فإنهم أولى بأن يجهلوه ويأخذوه بهذا الجمود الذى يصوِّره به أولئك الجامدون .

والدولة الإسلامية الثانية دولة القاجاريين بفارس ، وكان ناصر الدين شاه يتولاها فى أوائل هذا القرن ، ويفعل فيها ما يفعله السلطان عبد الحميد فى الدولة العثمانية التركية ، إلى أن قُتل بيد واحد من أبنائها سنة ١٣١٤ هـ = ١٨٩٦ م ، فقام بعده ابنه مظفر الدين شاه ، وسار كما كان يسير أبوه من قبله ، إلى أن قامت ثورة عليه سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦م ، فجعل حكومته حكومة دستورية ، ولم يلبث أن مات سنة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧م ، فقام بعده ابنه ميرزا محمد على ، ولم يلبث أن وقع خلاف بينه وبين الحكومة الدستورية التى ألفها أبوه ، فألغاها سنة ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٧ م ، ولم يزل الخلاف قائما بين هذه الدولة وشعبها إلى أن قضى عليها سنة ١٣٣٣ هـ = ١٩٢٥ م ، فقام رضا شاه بهلوى بإنشاء دولة جديدة تسمى الدولة البهلوية فى إيران ، وهى تسير فى طريق الجمهورية التركية ، وإن كانت لا تغالى فى الخروج على تقاليدها القديمة مثلها ؛ لأنها دولة شيعية ، والشيعة أشدُّ تمسكا من أهل السنة بالتقاليد القديمة ، ولكنها تسير فى طريق الإصلاح المدنى الصرف ، وقد يؤدى فيها إلى ما أدى إليه الاقتصار على الإصلاح المدنى فى الدولة العثمانية التركية .

فهذا كان شأن الدولتين الباقيتين للمسلمين فى هذا القرن ، ويجب أن نبحث بعدهما فى شأن البلاد التى ابتليت بحكم الأجانب ، وقد زاد عددها فى هذا القرن ، فاحتلت إنجلترا العراق وشرق الأردنّ ، وأعطت فِلَسطين لليهود ، وذهبت أحلام الشريف حسين فى السلطنة العربية الواسعة ، بل ضاعت منه الحجاز باستيلاء الدولة السعودية عليها ، وكانت هذه البلاد تدخل فى حكم الدولة العثمانية التركية ، فقدمها الشريف حسين بعدم خبرته فى السياسة هديةً للإنجليز واليهود ، وقد عاش العرب مع الترك فى الدولة العثمانية والتركية ، فكنا نقاسى فى بلادنا من استبداد ملوكها ما يقاسونه فى بلادهم منهم ، وكان الإصلاح كفيلا بتحسين حالنا وحالهم ؛ لأنهم منا ونحن منهم ، وفساد حكامهم هو الذى أضرنا وأضرهم ، أما الإنجليز فهم يقصدون إلى القضاء علينا ، وهم أهل مدنية وحضارة ، فلا يسوقهم إلى العسف فينا فساد أو جهل ، وإنما تسوقهم عداوة متأصلة فى نفوسهم ، ومن هذا حاله لا يؤمَّل فيه خير لنا ، ولا يُرجَى منه صلاح لحالنا ، وقد أخذت الشعوب الإسلامية التى ابتُليت بحكم الأجانب تعمل للتخلص منه فى هذا القرن ، وكان لها فى ذلك جهاد متنوع الأساليب ، مختلف الوسائل ، ولكنها لن تصل إلى غايتها من ذلك الجهاد إلا إذا أصلحت من حالها قبله ؛ لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وإذا كانت الحرب الأوربية السابقة قد انتهت بذلك فى الدولة العثمانية التركية ، فإنها انتهت بأشدَّ منه فى دولة روسيا القيصرية ، فقد قامت فيها حكومة شيوعية تقوم على

أساس المساواة بين الأفراد فى المال وما إلى ذلك من أصول الاشتراكية المتطرفة ، وتتظاهر بإنكار استعمار الحكومات الرأسمالية للشعوب الضعيفة ، وتعمل على إثارة شعوب العالم على هذه الحكومات ، حتى قامت أحزاب كثيرة فى سائر الشعوب تعمل لهذا الغرض ، وتحاول قلب النظام الرأسمالى إلى نظام شيوعى ، وتلجأ فى ذلك تارة إلى الأخذ بوسائل السلم ، وتارة إلى الأخذ بوسائل القوة .

وترتب على هذا تغيير كبير فى سياسة الدول الكبرى ، لأنها كانت تتنازع أولاً على أغراض استعمارية محضة ، فصارت الآن تتنازع فى الظاهر على ذينك المذهبين الاقتصاديين - النظام الرأسمالى والنظام الشيوعى - وانقسم العالم بسبب هذا إلى معسكرين كبيرين : المعسكر الرأسمالى ، وعلى رأسه الولايات المتحدة بأمريكا ، وإنجلترا وفرنسا بأوربا ، والمعسكر الشيوعى ، وعلى رأسه روسيا ودول شرق أوربا ، وقد انضمت إليه أخيرا دولة الصين بالشرق الأقصى فى آسيا ، وكلٌ من المعسكرين يتربص بالآخر ، ويحاول أن ينتصر عليه بالقوة ، ويجتهد فى اختراع الآلات الحربية التى توصِّله إلى الانتصار عليه ، حتى وصلوا إلى القنابل الذرية وغيرها من القنابل التى تؤدى إلى خراب العالم .

وبهذا صار النزاع بين الدول الرأسمالية والشيوعية إلى مثل النزاع الذى كان بين الدول الاستعمارية ، فكل من المعسكرين - الرأسمالى والشيوعى - يحاول أن تكون له السيطرة على العالم ، ويسعى إلى هذا بالقوة لا بالسلم ، ولا يمكن مع هذه الأطماع أن يصل المعسكران إلى الاتفاق فيما بينهما على ما فيه صلاح العالم ، وإنما قصارى أمرهما أن يتفقا على تقسيمه إلى مناطق نفوذ واستغلال ، فيبقى العالم بهذا فى مصائب الاستعمار ، أو يقعا فى حرب لا يعلم مصيرها إلا الله تعالى ، ولا شك أن الحرب على هذه الأطماع لا يُرجى منها خير للإنسانية .

وإنما ينجى العالم من هذه الحروب التى تهدده بالخراب أن تقوم سياسته على أساس التعاون بين الشعوب ، وعلى إرادة الحرية لجميع الأمم ، فلا يتسلط فيه شعب على شعب لأجل الاستئثار بخيراته ، ولا يفرض على شعب نظام رأسمالى أو شيوعى ، بل تترك له الحرية فى اختيار النظام الذى يريده ، وهذه هى السياسة التى يمكن أن تتفق عليها الدول ، ولا يمكن معها أن ينقسم العالم إلى معسكرين يظن كل منهما فى الآخر بأنه يريد السيطرة على العالم ، لأنه ليس فيها شىء من سيطرة شعب على شعب ، وإنما تقوم على أساس الحرية لجميع الشعوب ، وإنها لأفضل عند الشعوب من التسوية فى المال وغيرها مما عند الشيوعية .

ولو أن روسيا قصدت إلى هذه السياسة فى إخلاص لما وقعت فيما وقعت فيه

حكومتها القيصرية قبلها ، فكانت تقتصر حكومتها على الشعب الروسى وحده ، وتترك الحرية للشعوب الإسلامية التى كانت تحكمها روسيا القيصرية ، ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك ، بل ضمت إلى حكمها هذه الشعوب بالقوة .

وقد اتصل أنور باشا من زعماء جمعية الاتحاد والترقى بعد هربه من إستانبول بحكومة روسيا الشيوعية ، وحاول أن يحملها على إعطاء الحرية للمسلمين فى أذربيجان وقازان وتركستان وطاغستان ، وكانت قد وعدتهم بالاستقلال ، ولكنها عادت فنقضت هذا الوعد ، وعادت إلى سياسة روسيا القومية ، فجعلت تسعى بالقوة فى حملهم على الخضوع لحكمها ، وعلى قبول نظامها الاقتصادى ، وقد قتل منهم عدد لا يحصى فى سبيل تمسكهم بحريتهم ، وانفصالهم عن روسيا ببلادهم .

فلما رأى ذلك أنور باشا احتال حتى وصل إلى تركستان ، ثم دخل بخارى وطرد منها أتباع روسيا من الشيوعيين ، وألفً فيها حكومة إسلامية ، فانضم إليه جميع أهل بخارى ، ولما استوثقت أموره فيها أرسل جيشا إلى خيوة وإلى فرغانة ، وكانت الفتن لا تزال قائمة بها منذ سقوط حكومة القياصرة بروسيا ، فعمت الثورة على الشيوعيين أكثر بلاد تركستان ، وانتصر عليهم أنور باشا فى مواطن عديدة ، وغنم منهم آلات حربية كثيرة ، ثم اشتغل بترقية حال المسلمين العلمية والأدبية والمادِّية والصحية بهذه البلاد ، واستولت جنوده على خمس ولايات من الولايات التسع التى كانت لروسيا فى تركستان ، فأرسلت إليه روسيا جيشا كبيرا استرد منه تلك البلاد بالقوة ، وقد استشهد أنور باشا فى قتاله معه سنة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٣ م .

ولم يكن علماؤنا فى هذا القرن بأقل غفلةً من ملوكنا وأمرائنا ، فقد بلغ جمود الأزهر فى أوائله غايته ، حتى ذكر الأستاذ مصطفى بيرم فى رسالته عن الأزهر ما كان من مجافاتهم لغير العلوم الدينية واللسانية فقال : « فبقيت تلك العلوم الرياضية والجغرافية والعقلية والفلسفية مهجورة من الأزهر ، ينظر إليها بعين السخط ، ويفر من سماعها فرار الصحيح من الأجرب ، الخ » .

ثم ذكر ما كان من سعى ولاة الأمور فى إعادة تدريسها بالأزهر ، وأنهم خافوا أن يفاجئوا أهله بها ، بعد أن رسخ فى أذهان كثير منهم أن بها ما ينافى الدين ، فرأوا أن يمهِّدوا السبيل لذلك قبل الشروع فيه ، فكلفوا بذلك والده السيد محمد بيرم التونسى ، وكان من مدرسى مدرسة جامع الزيتونة بتونس ، ثم انتقل إلى مصر فعين قاضيا بها ، فتقدم بهذا الاستفتاء إلى الشيخ محمد الأنبابى شيخ الجامع الأزهر :

« ما رأيكم رضى الله عنكم ؟ هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل

الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف ، لا سيَّما ما ينبنى عليه منها زيادة القوة فى الأمة ، بما تجارى به الأمم المعاصرين لها فى كل ما يشمله الأمر بالاستعداد - يعنى الأمر فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [1] بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة ، بمعنى أن يكـون واجبا وجوبا كفائيّاً على النحو الذى ذكره فيها الإمام حجة الإسلام الغزالى فى إحياء العـلوم ، ونقله علماء الحنفية أيضا وأقرُّوه ؟ ،إذا كان الحكم فيها كذلك ، فهل يجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحـوٍ وغيره الرائجة الآن فى الجامع الأزهر ، وجامع الزيتونة ، والقرويين - بمراكش - أفيدوا الجواب ، ولا زلتم مقصداً لأولى الألباب » .

فأجاب الشيخ الأنبابى بفتوى طويلة ملتوية ، تهرَّب فيها مما يقصده المستفتى من إدخال دراسة العلوم فى الجامع الأزهر ، مع أن دراستها كانت شائعة فى المدارس المدنية بمصر ، وكان كثير من علماء الأزهر يُدخلون أبناءهم فيها ليتعلموها ، كأن تعلُّمها كان مكروها فى الأزهر فقط ، ولكنه الجمود الذى يحكم من غير دليل ، فلا يرى صاحبه فى نفسه شيئًا فى مخالفته إذا كان فى هذا مصلحة له ، أو صادف هوًى فى نفسه ، ولهذا لم تفد هذه الفتوى فى إدخال دراسة هذه العلوم فى الجامع الأزهر ، ومضى عهد إسماعيل باشا وعهد توفيق باشا ، والأزهريون مُصِرّون على نفرتهم من دراسة تلك العلوم .

فجنى ذلك الجمود الشديد على علماء الأزهر ، حتى صاروا وكأنهم عضو ميت فى جسم الأمة ، لا يهمه شأن من شؤونها ، ولا يسعى فى شىء من الخير لها ، ولقد كان شمس الدين الرملى فى القرن العاشر الهجرى آخر من قيل إنه مجدد منهم ثم مضى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر وقد نسيهم من يرشح المجدِّدين لهذه القرون ، فلم يذكروا فيها مجدداً منهم ، لأنهم كانوا قد جمدوا فى العقائد على مذهب الأشعرى ، وفى الفروع على المذاهب الأربعة المشهورة ، ولم يحاول أحد منهم أن يخرج من دائرة هذا التقليد أو ينادى بشىء من الإصلاح الحديث ، مع أن العالم الإسلامى كان قد أخذ بكثير من أسباب هذا الإصلاح ، ولكن الله لم يرد أن يحرم الجامع الأزهر من عالم أزهرى يقوم فى أواخر القرن السابق وأوائل هذا القرن بما كان يجب على الأزهر أن يقوم به من قرون ، وقد كان هذا العالم الأزهرى هو الشيخ محمد عبده ، وإن كان الفضل فى بلوغه مرتبة المجدد فى هذا القرن لأستاذه جمال الدين الأفغانى .

وكذلك كان للمتصوفة نصيب كبير فى تعويق حركة الإصلاح والتجديد فى هذا

(١) الأنفال : آية ٦٠ .

القرن مثل الجامدين من علمائنا أو أكثر . وقد سبق بيان ما كان من شأن الشيخ أبى الهدى الصيادى مع السلطان عبد الحميد ، فهو الذى أفسد عليه دولته ، وزين له فيها الحكم الاستبدادى ، وسلَّطه على أنصار الإصلاح والتجديد ، وما كان لمثل هذا الصوفى فى جموده وتنطعه أن يتحكم فى هذه الدولة الكبيرة ، مع أنه كان مثل غيره من الصوفية المتساهلين فى دينهم ، المتسترين بالتصوف على ما يأتونه فى سرهم ، وكان له غلام يسمى شكيبا يشاع عنه فيه إشاعات ، ثم هرب منه إلى مصر سنة ١٣٣٩ هـ = ١٩٠١ م ، فاستغله الخديو عباس باشا الثانى فى التشنيع عليه ، وجرت فى شأنه مفاوضات كثيرة لإعادته إليه فى إستانبول ، فقال محمد حافظ إبراهيم على لسانه فى شأن هذا الغلام هذه الأبيات :

أُحرقُ الدُّفَّ لو رأيتُ شكيبا وأفضُّ الأذكار حتـى يغيبا
هو ذكرِى وقبـلتى وإمامى وطبيبى إذا دعوتُ الطبيبـا
لو ترانى وقد تعمـتَ قتلى بالتنائى رأيت شيخا حريبـا
كان لا ينحنى لغيـرك إجْلا لاً ولا يشتهى سواك حبيبا
لا تعيبنَّ يا شكـيب دبيبى إنما الشيخ من يدبُّ دبيبا
كم شربتَ المدام فى حضرة الشيـ ـخ جهارا وكم سقيت الحليبـا
فسلوا سُبحتى فهـل كان تسبيـ ـحىَ فيها إلا شكيبا شكيبـا

وكذلك كان شأن غير أبى الهدى الصيادى من المتصوفة فى هذا القرن ، فلا يزال لهم نفوذهم بين العامة وأشباه العامة من العلماء الجامدين ، ولا تزال الحكومات الإسلامية ترعى لهم تقاليدهم ، وتغضى عمالهم من سلطان على أتباعهم ، وتشاركهم فى الاحتفال بموالد أصحاب القباب من أمواتهم ، مع أن كثيرا من هذه الحكومات يجرى فى حكمه على الأساليب الحديثة ، ويأخذ فيها بالتقاليد الأوربية الجديدة ، فلا تؤمن بتقاليد هؤلاء المتصوفة ، ولكنه النفاق الذى أفسد علينا حياتنا ، وجعلها حياة مضطربة لا هى جديدة ولا قديمة ، وإنما هى حياة مذبذبة بين القديم والجديد ، والنفاق هو الذى يجمع بين المختلفين فيهما ، ويجعل حياتهم حياة عقيمة لا ثمرة فيها ، ولا خير يرجى منها .

وبهذا عاش أولئك المتصوفة فى هذا القرن كما عاشوا فى القرون السابقة ، ينشرون بين الناس البدع والخرافات ، وتَّجِرون بأصحـاب القباب من الأموات ، فتُجبَى إليهم الأموال كما تُجبَى إلى الحكومات ، ويضنُّ أتباعُهم على أنفسهم بأموالهم ليسعدوهم ، وليعيشوا فى سعادة ورفاهية بين شقاء الشعب ، ويتمتعوا بالغنى الوافر بين فقر الناس ، حتى شكا كثيرٌ من هذا الفساد ، وسعى فى القضاء على هذه البدع والتقاليد ، وكان الشيخ

محمد عبده أرفعهم صوتًا فى الإنكار على أولئك المتصوفة ، وكذلك الشيخ عبد الله النديم ، وقد ألف فى هجاء الشيخ أبى الهدى الصيادى كتابا سماه المسامير ، ومن أبدع ما قيل فى نقد أولئك المتصوفة من الشعر قول محمد حافظ إبراهيم :

أحياؤنا لا يُرزقــون بدرهم وبألف ألف تُرزق الأمواتُ

مَنْ لى بحظ النائمــين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات

يسعى الأنامُ لها ويَجرى حولَها بحرُ النذور وتُقــرأ الآيات

ويُقال : هذا القطبُ بابُ المصطفى ووسيلةٌ تُقْــضَى بها الحاجات

وقد قام الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن السابق وأوائل هذا القرن يواصل جهاده فى الإصلاح ، وكان يؤثر فيه الدعوة السلمية على استعمال القوة ، وهو فى هذا يخالف أستاذه جمال الدين الأفغانى ، ولكنه حينما قامت الثورة العرابية رأى أن يشترك فيها ، وقد انتهت باحتلال الإنكليز لمصر ، وكان عقابه على اشتراكه فيها النفى إلى بيروت ، فلما عُفى عنه وعاد إلى مصر تغير رأيه فى استعمال القوة فى الوصول إلى الإصلاح ، فرأى أن يسالم الإنجليز فى مصر ، وأن يفرِّغ نفسه للإصلاح الدينى والاجتماعى ، لأنه هو الطريق الذى يؤدى إلى خروجهم منها ، ولم يلجأ إلى استعمال القوة التى لا نضاهيهم فيها ، بل لا نملك شيئا منها بعد أن استولوا على كل شىء عندنا ، وقد جاراه فى هذا تلميذه السيد محمد رشيد رضا ، وهو الذى أنشأ مجلة المنار فى مصر بمساعدة الشيخ محمد عبده ، فقامت بنشر آرائه فى الإصلاح ، ودافعت عنه أعداءه من أنصار الجمود ، فلما مات سلك السيد محمد رشيد رضا فيها مسلك أستاذه ، فكان أخلص تلاميذه لرأيه فى الإصلاح ، وأعلاهم صوتا فى تأييده ، وأقواهم فى الرد على أعدائه .

ولم يزل الشيخ محمد عبده يسعى فى الإصلاح حتى أقنع الخديو عباس باشا الثانى بإصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف ، وكان الإنكليز قد تركوا التدخل فيها لصبغتها الدينية ، فقام الشيخ محمد عبده ببعض الإصلاح فيها ، ولم يمكنه إدخال كل ما يراه من الإصلاحات ، خوفًا من ثورة الرجعيين عليها ، ومع هذا لم يلبث الخديو عباس أن غضب على الشيخ محمد عبده ، لأنه لم يكن من العلماء الذين يخضعون للحكام فيما يرون ولو خالف آراءهم ، وقد جرى حكام المسلمين من قرون على كراهة مثل الشيخ محمد عبده من العلماء .

فلما غضب الخديو عباس على الشيخ محمد عبده أخرجه من مجلس إدارة الأزهر ، فلم يمكنه أن يصل بالإصلاح إلى غايته ، حتى ينهض بعلماء الأزهر وطلابه ، فيكون منهم علماء لهم آراء فى الدين والعلم ، ولا يقفوا من الحكام موقف الــذى يخضع لكل ما

يرون ، ولا يكون له رأى مع رأيهم ، بل وقف الإصلاح فى الأزهر عن الوصول إلى هذه الغاية ، ولم يعلم الحكام الذين وقفوا دون هذا أن من يأتمر لهم من أولئك العلماء يسهل أن يأتمر عليهم ممن يريد هذا منهم ، ولهذا بقى أولئك العلماء بعد دخول النظام الحديث فى الأزهر كما كانوا قبله ، بل زاد بعد هذا النظام خضوعهم للحكام ، لأنهم دخلوا فى هيئة الموظفين فى الدولة بعد هـذا النظام ، ووُضعت لهم تأديبات وعقوبات كغيرهم من الموظفين ، لتحدَّ من حريتهم ، وتُخضعهم لحكامهم .

وظهر أثر تعويدهم على الخضوع للحكام مع الخديو عباس نفسه ، وهذا فى موقفهم منه حين قامت الحرب الأوربية العامة الأولى ، فانضـمت الدولة العثمـانية التركية إلى ألمانيا ، وانضم إليها الخديو عباس ، فأبطلت إنجلترا السيادة الاسمية التى كانت باقية لهذه الدولة على مصر ، وأعلنت حمايتها عليها ، وعزلت الخديو عباسا عن الحكم ، وأقامت عمه حسين باشا بن إسماعيل باشا سلطانا على مصر، وكان هذا سنة ١٣٣٣هـ = ١٩١٤م ، وقد استعانت بكبار علماء الأزهر فى تأييد ذلك فأيدوها فيه ، وأصدروا رسالة دعوا فيها الأمة إلى السكون واتقاء الفتنة وإطاعة الحكومة ، ولم يَدَعُوا كما ذكر أحمد شفيق باشا فى حولياته آية من آيات الذكر الحكيم أو حديثًا من الأحاديث النبوية يحضـان على عدم المخاطرة وإلقاء الأنفس إلى التهلكة ، وعلى البعد عن تدخل المرء فيما لا يعنيه ، إلا أتوا به فى هـذه الرسالة ، وكان على رأس أولئك العلماء الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ بكرى عاشور الصدفى مفتى الديار المصرية ، وكان عليهم وقد نصحوا الأمة بترك التدخل فيما لا يعنيها أن يتركوا التدخل أيضًا فيما لا يعنيهم ، إذا صح أن هذا كان لا يعنى الأمة المصرية ، وقد أعلنت إنجلترا الحماية عليها من غير رضاها ، وحكمتها بالقهر والغلبة حكمًا يُقصد منه مصلحتها وحدها ، وقد وقف الخديو عباس فى ذلك موقفا كريما ، وكان الأليق بهم أن يلتزموا السكوت على الأقل .

وبهذا سار النظام الحديث الذى أدخله الشيخ محمد عبده فى الأزهر يتعثر بأمثال أولئك العلماء الذين لا يؤمنون به ، ولم يكونوا من طراز الشيخ محمد عبده ، حتى يمكنهم أن يوجِّهوه وجهة تُخرِّج علماء من هذا الطراز ، لا يخضعون إلا للحق ولا يأتمرون للحكام فى كل ما يريدونه منهم ، فانحطت منزلة العلماء بين الأمة عما كانت عليه قبل النظام الحديث ، وصـارت تنظر إليهم كمـا تنظر إلى سائر الناس ، فخرجت الأمة من أيديهم ، وصارت الكلمة العليا فيها لأبناء المدرسة الحديثة ، حتى فيما يتعلق بالدين وأحكامه ؛ لأن علماء الأزهر مضوا بعد الشيخ محمد عبده على الجمود فى هذه الأحكام ، فلم يجد المعتدلون من أبناء المدرسة الحديثة إلا أن يقوموا برسالة التجديد فيها دونهم .

ومن هذا الخضوع للحكام ما حصل من أولئك العلماء حين قام بعض أعضاء مجلس النواب يطالبون بإلغاء الوقف الأهلى أو إصلاحه ، فلم يرض هذا حكام فى ذلك الوقت ، ولم يجدوا إلا أن يستعينوا بعلماء الدين يريدون بقاء كل قديم على حاله ، ولو دخله من الفساد ما دخله ، وكان هذا سنة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م ، فأفتى العلماء جميعا فى الأزهر وغيره من المعاهد الدينية الإسلامية بأنه لا يجوز إلغاء الوقف الأهلى ، ولم يشذّ منهم إلا النادر الذى اكتفى بالسكوت ، ولم يمكنه أن يجهر بمخالفتهم ؛ لأنهم لا يطيقون أن يشذ أحد عنهم ، مع أن ظاهر الرواية عن أبى حنيفة عدم جواز الوقف مطلقا ، ولكنهم يؤوّلونها بأنه يريد أن الوقف كالإعارة يبقى على ملك الواقف ، وله الرجوع عنه وبيعه ، وإن مات يورث عنه ، وقد فاتهم أن مثل هذا ليس فى شىء من الوقف الذى استقر أمر الفقهاء عليه .

ومن هذا أيضًا ما حصل منهم حين قام بعض النواب أو الشيوخ يطالب بتحديد الملكية ، فعارضته لجنة الإفتاء بالأزهر ، وهى مؤلفة من هيئة كبار العلماء ، وأيدها فى فتواها جميع العلماء بالأزهر والمعاهد الدينية الإسلامية ، مع أن أبا ذَرٍّ الغفارى كان قد ذهب إلى أبعد من هذا فى خلافة عثمان ، إذ كان يرى أنه لا يجوز للمرء أن يقتنى أكثر من قوت يوم وليلة ، فلما رأوا أن مذهبه يعارض إجماعهم حكموا بأنه كان مخطئًا فيه ، ولم يراعوا أنه كان مجتهدا ، وأنهم الآن لا يتورّعون عن الإفتاء ببعض الأقوال الشاذة ، كالأقوال التى أفتوا بها فى الطلاق وغيره فليكن قول أبى ذر مثل هذه الأقوال ، وليترك من غير أن يحكم عليه هذا الحكم القاسى ، فقد يحتاجون إليه فى يوم من الأيام ، كما احتاجوا إلى تلك الأقوال الشاذة فى الطلاق وغيره .

ومن هذا أيضا فتواهم فى زواج رياض غالى بالأميرة السابقة فتحية بنت الملك السابق أحمد فؤاد الأول ، وكان رياض غالى مسيحيا فأسلم ليتزوج بهذه الأميرة ، وكانت هى وأمها بالولايات المتحدة بأمريكا ، وكان رياض غالى معهما فيها ، فبذل أخوها الملك السابق فاروق كل ما فى وسعه ليحول دون هذا الزواج ، وأخيرًا لجأ إلى لجنة الإفتاء بالأزهر ، فأفتت بأن الزواج لا يصح فى الإسلام ؛ لأن رياض غالى مسلم حديث ، والمسلم الحديث لا يكون كفؤا للمسلم القديم ، وفاتها أن الفقهاء مختلفون فى اشتراط الكفاءة فى صحة النكاح ، وأن المذهب الموافق لما جاء به الإسلام من المساواة بين الناس هو الذى لا يشترط فى صحة النكاح هذا الشرط ، على أن ما ذهبت إليه من فقد الكفاءة بين المسلم الحديث والمسلم القديم خطأ يزهّد الناس فى الإسلام ، لأنهم يرونه لا يسوّى بينهم وبين من سبقوهم إليه ، وكان فى إمكانهم أن يبطلوا هذا الزواج بأن إسلام رياض غالى من أجله لا

من أجل اعتقاده بصحة الإسلام ؛ لأنه لولا رغبته فى هذا الزواج لم يسلم ، وقد قال النبى ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » فهذا الحديث صريح فى أن الهجرة لا تصح إذا كانت لأجل إصابة دنيا أو نكاح امرأة ، وعلى هذا يقاس إسلام رياض غالى لأجل ذلك الزواج ، فهو إسلام غير صحيح لأنه لم تدفعه إليه رغبة فيه لذاته ، وإنما دفعه إليه رغبة أخرى اتخذه وسيلة إليها ، ولكن مثل تلك اللجنة لا يمكنها أن تذهب إلى مثل هذا ؛ لأنه يعتمد على استنباط جديد لا يوجد فى كتب المتأخرين فى الفقه ، وهى لا تعتمد غالبا إلا عليها ، وكذلك لا يوجد فى كتب المتقدمين التى تلجأ أحيانا إليها ·

ويمكننا أن نستثنى الشيخ محمد مصطفى المراغى من أولئك العلماء الذين تولوا أمر النظام الحديث فى الأزهر بعد الشيخ محمد عبده ، فساروا فيه منحرفين عن الغاية التى أرادها منه ، لأنه أراد أن يسير به فى طريق هذه الغاية ، وكان يمتاز عليهم بأنه يؤمن بالإصلاح الذى أراده الشيخ محمد عبده من هذا النظام ، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بأنصار الجمود فى الأزهر ، فلم يمكنه أن يصل إلى هذه الغاية أيضا ، وسيأتى بيان هذا فى الكلام عليه فى هذا القرن ·

وبهذا كان الشيخ محمد عبده أظهر المصلحين فى هذا القرن ممن جمعوا بين ثقافة الماضى والحاضر ، وكانت ميزتهم على رجال المدرسة الحديثة أنهم يجمعون بين الثقافة القديمة والحديثة ، فينادون بإصلاح القديم عن بصيرة به ، ويجعلونه أساسا لما يراد إضافته إليه من الإصلاح الحديث ، حتى لا تنقطع صلتنا بماضينا ، ولا نكون باقتصارنا على تقليد أوربا ذيلا من ذيولها ، لأن هذا هو ما تقصده من استعمار بلادنا ، ليطيب العيش لها فيها بعد أن نصير ذيولا لها ، إذ تستعمرنا إلى الأبد ، ويكون أبناؤها السادة ونحن العبيد ، أما رجال المدرسة الحديثة فلا يهمهم الإصلاح الدينى ، بل نجد كثيرا منهم يقفون فى صف الرجعيين ليحاربوا معهم المجددين ·

وممن ظهروا فى مصر مع الشيخ محمد عبده من رجال المدرسة الحديثة مصطفى كامل باشا (١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ = ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) وقد رفع علم الجهاد فى وجه الإنكليز فى مصر ، وقضى حياته يطالبهم بالجلاء عنها ، ويطلب من الخديو عباس أن يمنح الأمة الدستور ، لتكون لها حكومة دستورية تحكم بالشورى ، وتقوم فيها سلطة تشريعية من نواب الأمة ، وتكون سلطتها تنفيذية فقط ، ثم قام بإنشاء حزب يطالب بذلك سمّاه الحزب الوطنى ، ولكنه كان يعتمد فى جهاده على الثورة السلمية ، ولا يلجأ إلى استعمال

القوة ، ولم يكن يُعْنَى بشيء من الإصلاح الدينى ، بل كان جهاده سياسيا محضا ، وكان يُلجئه أحيانا إلى تأييد أصحاب الجمود الدينى ·

ومنهم قاسم أمين بك ، وكان مصلحـــا اجتماعيـــا ، وهو صاحب كتابَىْ - تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة - وقد نادى فيهما برفع الحجاب الذى يسجن النساء فى البيوت ، ويمنعهن من الالتحاق بالمدارس ، حتى تنهض نساؤنا ، ويمكنهن تربية أبنائهن تربية حديثة ، وكانت وفاة قاسم أمين بك سنة ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م ، وقد لقيت دعوته مقاومة شديدة من الجامدين على القديم ، إلى أن انتصرت أخيرا عليهم ، ولكن النساء تغالين بعده فى السفور ، وتبرَّجن تبرج الجاهلية الأولى ، فخرجن من رجعية متزمِّتة ، ووقعن فى رجعية مفرِّطة ·

ومنهم محمد فريد وجدى بك ، وهو يجمع بين الإصلاح الدينى والمدنى ، ولكن تربيته المدنية لم تمكنه من معرفة الإصلاح الدينى على وجهه الصحيح ، فكان يرى أن الفلسفة المادية هى صاحبة الخطر على الإسلام ، ولهذا شغل نفسه بتأليف الكتب فى الرد عليها ، وفى الانتصار لمذهب استحضار الأرواح الذى ظهر فى أوربا ، والحقيقة أن مسألة الروح والمادة من المسائل العلمية ، والمهم فى الدين هو الاعتراف بوجود الله تعالى ، ولا يهم بعد هذا أن يكون ما سواه ماديا صرفا ، أو يكون فيه روح ومادة ، والذى يفصل فى هذا هو العلم وحده ·

ومنهم آخرون هدَّامون يرون أن نقطع صلتنا بماضينا الإسلامى ، فنستبدل العامية باللغة العربية ، ونستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، ونأخذ المدنية الأوربية الحديثة بكل ما فيهـــا من حسن وقبيح ، وهؤلاء هم الذين يريدون أن نكون فى بلادنا ذيولا لأوربا ، وهم فى هذا يخدمون الاستعمار الأوربى من حيث لا يشعرون ، وقد يكون فيهم خونة يقصدون بهذا خدمة الاستعمار الأوربى ، وهذا النفر من رجال المدرسة الحديثة يزداد عدده يومًا فيومًا ، بعد أن ذهب الجيل الصالح من رجال هذه المدرسة ، وهم الذين كانوا يتأثرون بالتربية الإسلامية إلى حد ما ، ثم جاء الذين خلفوهم فتربوا فى المدارس الحديثة بعد أن سيطر الإنكليز عليها ، وقضوا على التعليم الدينى فيها ، فخرجوا منها غير متأثرين بشىء من التربية الإسلامية ، وقد ضعفت فيهم النزعة الدينية والوطنية إلى ذلك الحد من التعصب للمدنية الأوربية ·

وهناك صنف آخر لا يستقر فى دعوته إلى الإصلاح على حال ، فهو متردد متقلب فيما يدعو إليه ، والأستاذ « طه حسين » خير من يمثل هذا الصنف ، فقد نشأ نشأة أزهرية هيأت له الاطلاع على ما أمكنه الاطلاع عليه من الثقافة القديمة ، ثم التحق بالجامعة

المصرية القديمة ، فلما انتهى منها التحق ببعض جامعات فرنسا ، فاضطربت فيه الثقافتان اضطرابا عجيبا ، لأنه حين غيَّر اتجاهه فى التعليم تنكَّر لنشأته الأزهرية ، وكان لم يصل فيها إلى نهايتها ، فسهل عليه أن يتخلص من قيودها ، وأن يتغالى فى التجديد إلى حد أنكره عليه كثير ممن تربى تربية مدنية صرفة ، بل أنكره بعض من جمع بين الدراسة الحديثة فى مصر والدراسة الحديثة فى أوربا ، على أنه خالف فى ذلك كل المخالفة ما كان يدعو إليه حين كان طالبا فى الأزهر .

فقد كان وهو طالب فى الأزهر يتهكم بمن فتنتهم المدنية الأوربية ، حتى استقر فى وهمهم أن النسبة إلى الدين سبَّة ، وأن الظهور بالمحافظة عليه معرةً ، فقال يعتذر متهكما عن بدء محاضرة له فى الأدب بحمد الله والصلاة على نبيه : « سيضحك منى بعض الحاضرين إذا سمعنى أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر[1] » .

وقال أيضًا فى تقبيح التزوج من الأجنبيات : « إن مما لا شك فيه أننا الآن أصبحنا فى عصر غير العصور الماضية ، تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح ، ومن جميل إلى ردىء ، ذهبت مقوِّماتنا ، وضعفت أنفسنا وزالت مميزاتنا الجنسية ، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا فى طباع غيرنا من الأجانب ، بل أصبح تقليدنا للفرنج أمرا محببا إلى نفوسنا ، مستحسنا منها ، فنحن نقلدهم فى الحسن والقبيح ، ونقفو أثرهم فى النافع والضار ، وليس لنا من قوة الأنفس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد ، فإن أحدنا يفتن بكل شىء صدر عن الفرنج ، ولا يبالى أصدر من رجل أو امرأة عن كبير أو صغير ، فلا شك عندى فى أنه يجب أن نحتاط فى استعمال ما جاء فى الشريعة الإسلامية من إباحة التزوج بالكتابيات ، ولست أرى علىَّ من بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت »[2] .

فهو فى هذا الطور مغالٍ فى كراهة تقليد الأوربيين إلى حد تحريم ما أباحه الله من التزوج بالكتابيات ، فلما صار إلى الطور الثانى واستبدل بالعمامة الطربوش انقلبت حاله إلى الضد ، فتزوج بكتابية فرنسية ، وصار يدعو إلى الأخذ بكل شىء فى المدنية الأوربية ، من حسن وقبيح ، ومن جيد وردىء لأنه فى رأيه ليس هناك إلا أحد أمرين : إما أن نأخذ المدنية الأوربية بكل ما فيها من حسن وقبيح ، وإما أن نتركها بكل ما فيها من حسن وقبيح[3] ، ثم عاد أخيرًا فى كتابه – مرآة الإسلام – إلى شىء من جموده القديم ، فأنكر

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ١ ص ٢٩٤ .

(٢) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ١ ص ٣٣٤ .

(٣) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٤٥ .

التأويل فى نصوص القرآن والحديث ، وكذلك أنكر على أبى العلاء المعرى إيمانه بالعقل ، مع أنه كان معجبا بإلحاده المزعوم فى كتابه : ذكرى أبى العلاء .

ولو أن الأستاذ طه حسين سار فى نشأته الأزهرية إلى نهايتها ، ثم أضاف إليها ما شاء من الثقافة الحديثة ، لما تردد فى أمره بين المغالاة فى الجمود والمغالاة فى التجديد ، بل سلك فى الإصلاح سبيل الشيخ محمد عبده ومدرسته الإصلاحية ، وقد كان فيه استعداد كبير لخلافة الشيخ محمد عبده فى الأزهر ، ولكن تنكره لأزهريته قضى عليه بذلك التردد فى أمره ، وأوقعه فى ذلك الاضطراب فى رأيه ، ولا يزال هذا شأنه فيما يدعو إليه .

ويمكننا بعد هذا أن نحكم بأن الأقرب إلى التجديد الإسلامى فى هذا القرن هو من كان يجمع بين الثقافة القديمة والحديثة ، وينادى بالإصلاح الشامل لأمور الدين والدنيا ، وهـذا لم يتوفر فى واحـد من هذا القرن من أوله إلى يومنا كما توفر فى الشيخ محمد عبده ، ويقاربه فيه السيد محمد رشيد رضا ، ويليهما فيه الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ولا بأس أن يضاف إليهم دراسة غلام أحمد الهندى ، ومصطفى كمال التركى ، لنعرف منزلة ما قاما به فى هذا القرن من التجديد الإسلامى .

وبهذا يكون الشيخ محمد عبده على رأس المجددين فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى وأوائل القرن الرابع عشر ، وقد يُظن أنه هو وأستاذه جمال الدين الأفغانى من مدرسة ابن تيمية ، والحق أن جمال الدين الأفغانى أنشأ مدرسة حديثة تنحو فى التجديد الإسلامى مذهبًا يؤمن بفائدة الفلسفة الحديثة وعلومها ، ويحاول أن يقيم النهضة على أساسها ، كما قامت عليه نهضة أوربا ، وهذه المدرسة أقرب إلى ابن رشد من ابن تيمية ؛ لأن ابن رشد كان يؤمن بالفلسفة وعلومها فى عصره ، ويرى أنه لا خلاف بين الإسلام والفلسفة ، أما ابن تيمية فكان يخالف ابن رشد فى هذا ويرى تكفير الفلاسفة كما يراه مخالفوه من الأشعرية ، وبهذا انتصر رأى ابن رشد عندنا ، ولكنه جاء متأخرا .

ولهذا مكثت مدرسة ابن تيمية مثابرة على جمودها فى هذا القرن أيضا ، ولم تلن فيه للتجديد الذى دعا إليه جمال الدين الأفغانى فى القرن السابق ، وتابعه فيه الشيخ محمد عبده فى هذا القرن ، وقد ظهر كل منهما فى بيئته الأشعرية ، فوجد فيها أنصارا يؤيدونه فى تجديده ، حتى دخل كثير من الإصلاح والتجديد فى الجامعة الأشعرية الكبرى « الجامع الأزهر » من نحو نصف قرن أو أكثر ، ومن أهم وجوه الإصلاح فيها دراسة العلوم الفلسفية الحديثة .

وكذلك كانت بيئة الأشعرية فى نظرها إلى آثار الحضارة الأوربية ، فإنها سبقت إلى

الإيمان بفائدة استعمالها من القرن السابق ، حتى صارت عندها شيئًا مألوفًا فى هذا القرن ، فلا يظهر أثر جديد من آثارها فى أوربا حتى ينتقل إلى البلاد الإسلامية الآخذة بعقيدة الأشعرى ، فتبادر إلى استعماله ، ولا ترى فيه ما ينافى عقيدتها ، أو يخالف أصلاً من أصول دينها ٠

أما أصحاب مدرسة ابن تيمية فإنهم مكثوا إلى مدة قريبة ينظرون بعين العداء إلى آثار الحضارة الأوربية ، من الدراجات إلى السيارات إلى غيرها من آثار هذه الحضارة ، ولم يخالفهم فى هذا إلا الملك عبد العزيز آل سعود ، فإنه لم يقع مثلهم فى ذلك الجمود الدينى بل عمل على الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة فى بلاد العرب ، ليجمع فيها بين الإصلاح الدينى والمدنى ، حتى يسير التجديد الدينى والتجديد المدنى فيها جنبًا لجنب ، ولا يتخلف أحدهما عن الآخر ، وهذا هو الطريق الصحيح للتجديد فى الإسلام ، وبهذا يكون الملك عبد العزيز من مجددى هذا القرن ٠



محمد عبـــــده

هو محمد بن عبده خير الدين المصرى ، وُلِدَ بمحلة نصر بمديرية البحيرة سنة ١٢٦٦هـ = ١٨٤٥ م ، فحفظ فيها القرآن وعرف القراءة والكتابة على طريقة الكتاتيب القديمة ، ولما بلغ خمس عشرة سنة أرسله أبوه إلى الجامع الأحمدى ، وكان معهدًا دينيا يلى الأزهر فى المنزلة ، ويسير على طريقته القديمة في تعليم العلوم الدينية والعربية ، وهى تأخذ المبتدىء بما تأخذ به المنتهى فى التعليم ، حتى إنها كانت تأخذ المبتدىء فى النحو بإعراب البسملة فى أول درس يتلقاه فيه ، مع أنه لم يعرف شيئًا منه يطبقه فى إعرابها ، فلم يألف هذا الطالب الذى سيكون له شأن فى إصلاح الأزهر هذه الطريقة ، ولم يرض أن يجلس أمام أستاذه يسمع ولا يفهم ، بل آثر أن يرجع إلى قريته ليشتغل مع إخوته بالفلاحة ، وكان هذا منه إرهاصًا بشأنه فى إصلاح الأزهر .

وقد أبى والده إلا أن يعود ثانيا إلى الجامع الأحمدى ، فهرب منه إلى قرية بمديرية البحيرة ، تسمى كنيسة أورين ، ونزل فيها على خال أبيه الشيخ درويش ، وكان رجلا صوفيا يشتغل بالإرشاد والوعظ ، فعرف كيف يروِّض هذا الفتى الثائر ، وأخذه بطريقة فى التعليم أنفع من طريقة الأزهر والجامع الأحمدى ، حتى رغَّبه فى العلم الذى فر منه ، فعاد ثانيا إلى الجامع الأحمدى ، ومكث يأخذ على شيوخه خمس سنين ، ثم تركه إلى الأزهر فأخذ من شيوخه على طريقتهم فى التعليم ، والظاهر أنه ألف طريقتهم بعد نفرته منها .

ثم استمرَّ على هذا إلى أن أدركه الله بجمال الدين الأفغانى ، فوجد عنده علمًا جديدًا يخالف الأزهر ، ووجد فيه عالما مجدِّدًا ثائرا على علماء المسلمين فى الأزهر وغيرهم ؛ لأنهم يجمدون على علومهم القديمة ، ويعيشون فى عزلة عن العالم ، فلا يشعرون بما أصاب الإسلام والمسلمين ، ولا يهمُّهم إلا أنفسهم داخل الأزهر ، كأنهم رهبان فى دَيْر ، وليس عليهم مسئولية أمام الله عن إهمالهم فى شأن دينهم ودنياهم ، وفى شأن المسلمين الذين أوقعوهم مثلهم فى جمودهم .

فاتصل الشيخ محمد عبده بجمال الدين يأخذ عنه فى المدة التى أقامها بمصر ، وكانت على قصرها صاحبة الأثر فى حياته ، ولولاها لقضى حياته فى ركود كما قضاها غيره من علماء الأزهر ، وظهر هذا الأثر فيه وهو لا يزال طالبا ، فكان يقوم بتدريس بعض الكتب فى الأزهر على طريقة أستاذة جمال الدين ، لا يجمد فيها على مذهب فى الأصول

أو الفروع ، بل يأخذ بما يقوم عليه الدليل الصحيح ، وكان هذا يثير عليه أصحاب الجمود من العلماء والطلاب ، حتى إنه لما تقدَّم إلى امتحان العالمية تعصَّب بعض الممتحنين عليه ، وأراد أن يسقطه فى الامتحان ، ولكن نبوغه تغلَّب على هذا التعصُّب ، واضطرهم إلى أن يمنحوه شهادة العالمية ، ليقوم بما هيأه الله له من الدعوة الإصلاحية .

واختير بعد أن نال شهادة العالمية للتدريس فى مدرسة دار العلوم ، وكانت قد أنشئت فى عهد إسماعيل باشا ، لتخرِّج للمدارس الحديثة معلمين للعلوم العربية والدينية مثقفين ثقافة حديثة ، فيحلوا محل المعلمين الأزهريين الخالين من هذه الثقافة ، فدرَّس فيها علم التاريخ ، ونهض بدراسته فيها نهضة عظيمة ، فلم يقتصر فيها على سرد الحوادث كما كان يدرس قبله ، بل درَّس فيه مقدِّمة ابن خلدون ، وهى مقدمة توصل فيها ابن خلدون إلى اختراع علم العمران ، وجعل منزلته من التاريخ كمنزلة المنطق من الفلسفة ، أو كمنزلة علم أصول الفقه من علم الفقه ، كما سبق فى الكلام على ابن خلدون فى القرن الثامن ، ثم درس التاريخ على أساس هذه المقدمة ، فأدخل به ما أدخل من التجديد فى دراسته ، مع أن ابن خلدون لم يمكنه أن يدرس التاريخ على أساس هذه المقدمة .

ثم شارك مع هذا أستاذه جمال الدين فى جهاده ، فأخذ يدعو معه إلى الإصلاح ويعمل على تنبيه المصريين من غفلتهم ، ويقاوم دسائس الأجانب الطامعين فى بلادهم ، ويسعى فى إصلاح طريقة الحكم فيهم ، ليجعلها طريقة دستورية يشارك فيها الشعب الحكومة ، فينفق ما يجبى من أمواله فى مصالحه ، ولا يتركها تضيع فى ملذات الحاكم وشهواته .

فضاق بهذا توفيق باشا خديو مصر ، وأمر بنفى جمال الدين كما سبق فى الكلام عليه فى القرن السابق ، وأمر بأن يلزم الشيخ محمد عبده قريته محلة نصر ، فأقام بها سنة ١٢٩٦ هـ = ١٨٧٨ م ، حتى سعى وزيره رياض باشا فأرضاه عنه ، فعاد إلى القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ = ١٨٧٩ م .

فجعله رياض باشا رئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية ، وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، فنهض بها نهضة عظيمة ، وجعلها منبراً لإصلاح الشعب والحكومة ، فنشر فيها مقالات كثيرة فى إصلاح التعليم وطريقة الحكم ، وما إلى هذا من وجوه الإصلاح ، وابتدع فيها طريقة النثر المرسل التى جاراه فيها غيره من الكتاب ، فانتقل بأسلوب الصحافة إلى أسلوبها الحديث ، وقضى فيها على أسلوب السجع المتكلف .

وكان فى هذه الدعوة الإصلاحية يتوجه إلى الشعب أكثر مما يتوجه إلى الحكومة ، وخالف فى هذا أستاذه جمال الدين بعد نفيه من مصر ، لأنه كان يرى أن الحكومة هى

التى يجب عليها أن تقوم بالإصلاح ، لتفرضه على الشعب فرضا ، وتقضى على العقبات التى تعترضه فى طريقه ، فرأى الشيخ محمد عبده أن الإصلاح يجب أن يأتى من طريق الشعب ، بأن يربَّى تربية تساعده على النهوض ، وتجعله يسير فى الإصلاح بعد استعداده له ، وإنى أرى أن يتعاون الشعب والحكومة فى هذا معا ٠

وكان لهذا الرأى أثره فى الشيخ محمد عبده حين قام أحمد عرابى باشا بحركته فى المطالبة بالتسوية بين طوائف الشعب وإعلان الدستور ، فكان فى هذه الحركة يمثِّل العنصر المعتدل ، لأنه كان يخشى استغلال الأجانب لهذه الحركة ، ولكن إباء توفيق باشا الاستجابة لأحمد عرابى باشا زاد فى قوة حركته ، فانقلبت إلى ثورة شعبية شديدة ، فلم يَسَعْ الشيخ محمد عبده إلا أن يسير فى تيارها ، ولا سيما بعد التجاء توفيق باشا إلى الإنكليز ليحموه من شعبه ، كأنه لا يعلم أن فى حمايتهم له قضاء على حرية شعبه ، وعلى حريته ، وكانت فرصة ينتظرها الإنكليز بعد استيلائهم على الهند ، فلما سنحت لهم بادروا إلى انتهازها ، وقاموا باحتلال مصر ليقضوا على نفوذ توفيق باشا فيها ، ويضعوا العقبات فى طريق نهوض أهلها ، وقد عوقب الشيخ محمد عبده على اشتراكه فى هذه الثورة بالنفى إلى بيروت ، فأقام بها إلى أن دعاه جمال الدين إلى الذهاب إليه فى باريس ، وكان ما سبق من اشتراكهما فى تأليف جمعية العروة الوثقى ، وفى إنشاء مجلة العروة الوثقى ، وقد استفاد الشيخ محمد عبده من إقامته فى باريس تعلم اللغة الفرنسية ، والاطلاع على حضارة أوربا الحديثة ، فزاده هذا رغبةً فى الجهاد فى دعوة الإصلاح ، وبلغ بثقافته إلى الحد الذى يؤهله للزعامة على أصحاب الثقافة القديمة والحديثة ٠

فلما عاد إلى بيروت اشتغل بالتدريس فى المدرسة السلطانية ، ووضع فيها رسالة التوحيد التى تُعدُّ فتحًا جديدا فى هذا العلم ، إذْ تفتح فيه المجال للاجتهاد ، وتقضى فيه على آثار الجمود ، وتجعله ملائمًا لما صار إليه العلم فى العصر الحديث ٠

ومع هذا لم ينس الجهاد فى الإصلاح ، ولم تصرفه عنه عقوبة النفى إلى بيروت ، فوضع رسالتين فى الإصلاح : أولهما فى بيان الإصلاح اللازم للدولة العثمانية التركية وقد شرح فيها أحوال الدولة ، والوسائل التى تنهض فيها بالتعليم الدينى والمدنى ، والثانية فى إصلاح ولاية الشام ، وقد شرح فيها أحوال هذه الولاية ، والوسائل التى تؤدى إلى إصلاحها ، ثم بعث بالرسالتين إلى أولى الأمر فى الدولة ٠

ثم عفا توفيق باشا عن الشيخ محمد عبده سنة ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٧ م ، فعاد إلى مصر من بيروت ، ورأى أولو الأمر أن يبعدوه عن الاشتغال بالتدريس ، ليبعدوه عن الاشتغال بالإصلاح ، فعينوه قاضيا بالمحاكم الأهلية ، وقد رضى بهذه الوظيفة على كره

منه ؛ لأنه يعلم غرضهم من شغله بها ، وكانت أحكامه فيها حرة تجارى روح القانون ، ولا تتقيد بنصوصه وألفاظه ، وهذه هى طريقة القاضى المجتهد الذى تهمه روح القانون أكثر مما تهمه النصوص والألفاظ .

ومات توفيق باشا سنة ١٣١٠ هـ = ١٨٩٢ م ، وخلفه ابنه عباس باشا الثانى فى الحكم ، فأراد فى أول ولايته أن يناهض الإنكليز فى مصر ، لأنهم استأثروا بالحكم فيها ، ولم يتركوا له شيئا منه ، فعمل على تقريب زعماء المصريين من مجلسه ، وكان الشيخ محمد عبده أكبر هؤلاء الزعماء ، فقرَّبه من مجلسه أكثر من غيره ، وجعل يستشيره فى الوسائل التى تمكنه من مناهضة الإنكليز ، فذكر له أنهم تركوا له الأزهر والأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية ، وأنه لو اشتغل بإصلاحها لصلح بها حال البلاد ، وكانت أقرب إلى النجاح فى القضاء على حكم الإنكليز ، لأن هذا الإصلاح يحدث فيها نهضة دينية واجتماعية ، تصلح بها نفوس أهلها ، وتعرف كيف تناهض حكم الإنكليز ، وكيف تقضى على حجتهم فى التمسك بحكم مصر ، وكيف تستغلُّ الظروف السياسية فى الوصول إلى هذه الغاية .

فاقتنع عباس باشا بهذا الرأى من الشيخ محمد عبده ، ومكن له من إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وكان فى وظيفة مفتى الديار المصرية ، فقام بوضع تقرير لإصلاح المحاكم الشرعية ، وهو التقرير الذى كان أساسا لكل إصلاح حدث فى هذه المحاكم ، ثم قام بإدخال الإصلاح فى الأزهر ، وكان من رأيه أن يجعله إصلاحا شاملا يقضى على كل أثر للجمود فيه ، ولكن أولى الأمر لم يوافقوه على هذه الطفرة ، ورأوا أن يدخلوا الإصلاح فى الأزهر بالتدريج ، فرضى برأيهم على كره منه ،ورأى أن ما لا يُدرَك كله لا يترك كله ، وبهذا تناول الإصلاح الناحية الإدارية والصحية والخُلقية ، واقتصر على إدخال العلوم الحديثة فى الدراسة ، ولم يتناول طريقة الدراسة إلا بإصلاح لا يذكر ، إذ منع قراءة الحواشى فى الأقسام الأولية ، وترك طريقة التدريس على حالها ، فلا يُعنَى فيها إلا بفهم عبارات المتون والشروح ، ولا مجال فيها لفتح الاجتهاد والتجديد ، مع أن هذا هو الغرض الأكبر من الإصلاح ، وما سواهُ يُتَّخَذ على أنه وسيلة له .

فلما رأى الشيخ محمد عبده هذا النقص فى إصلاح الأزهر ، تداركه فى الدروس التى كان يلقيها فى التفسير وعلوم البلاغة ونحوها من العلوم ، فدعا فيها إلى الإصلاح بأوسع معانيه ، وفتح فيها باب الاجتهاد على مصراعيه ، واختار لها الكتب الصالحة ، مثل كتابى - دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة - للشيخ عبد القاهر فى علوم البلاغة ، وكذلك فتح باب الاجتهاد فيما كان يصدره من فتاوى دينية ، فأقام أصحاب الجمود فى الأزهر

وأقعدهم ، ولكنه كان أقوى منهم حُجَّة ، وأفصح لسانا ، وأقوى جنانا ؛ فسكتوا على مضض ، وجَبنوا عن منازلته بالبرهان والحجة ، لأنهم من الجمود فى العلم ، بحيث لا يحسنون بيانا ، ولا يمكنهم أن يقيموا حجة أو برهانا .

ومكثوا على هذا عشر سنين إلى أن غضب عباس باشا على الشيخ محمد عبده ، لأنه كان يقف منه موقف النِّد للند ، ويحتفظ معه بكرامة العلم والدين ، كما كان يفعل علماء السلف قبل أن يذلوا للحكام ، فوضع له العقبات فى سبيل الإصلاح الذى يقوم به فى الأزهر ، وسلط عليه علماءه يتهمونه فى عقيدته ، ويطعنون فى دينه ، فنفض يده من هذا الإصلاح ، وتركه يتعثر بعده فى خطواته ، ولا يصل إلى الغاية التى كان يريدها له ، وأدركه من الغم ما أدركه بعد نفض يده من الأزهر ، وتألب أعداء الإصلاح عليه ، فعاجلته المنية سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م .

وبهذا يظهر أن الشيخ محمد عبده لم يكن هو ومن شايعه على الإصلاح من فرقة السلفية التى ينتمى إليها الوهابيون ، بل كان يذهب إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ويدين بالتأويل فى العقائد الذى لا تدين به السلفية ، وينشد الحق بين الفرق الإسلامية كلها ، ويرى أنها اختلفت فى الأصول عن اجتهاد كما اختلفت فى الفروع ، فلا يهمه أن يكون مرة مع السلفية ، ومرة مع الأشعرية ، ومرة مع المعتزلة ، ومرة مع غيرها من الفرق الإسلامية . ومن يتوهم فى الشيخ محمد عبده أنه كان سلفيا يضيِّق منه واسعا ، ولا يجعل منه صاحب رسالة فى التجديد الحديث ، وهو المجدد الذى أدرك رسالة التجديد الحديثة على حقيقتها ، وعرف أنه لا نجاح للمسلمين إلا إذا عملوا بها .

ولا ننكر تأثر الشيخ محمد عبده بمدرسة ابن تَيمية إلى حد ما فى دعوته إلى تحرير الفكر من التقليد ، وإلى فهم الدين على طريق السلف قبل ظهور الخلاف ، وإلى الرجوع فيه إلى أصوله من الكتاب والسنة ، حتى ترجع الأمور الاعتقادية والتعبدية إلى ما كانت عليه فى عهد السلف بلا زيادة ولا نقصان ، وإن كان لا يجمد فى ذلك على ظواهر النصوص كما تجمد هذه المدرسة .

وكذلك لا ننكر تأثره بهذه المدرسة فى محاربته للبدع والخرافات الدينية ، وفى إنكاره على مشايخ الطرق الصوفية لشيوع هذه البدع والخرافات بسببهم وكان قد مال فى نشأته إلى الزهد والتصوف ، إذ كان يقضى الليل قائما والنهار صائما بين التلاوة والذكر ، لا يكلم أحدا إلا بمقدار الضرورة ، وكان يلبس الخشن ويأخذ نفسه بالرياضات والتأملات ، فلم

يلبث أن عدل عن هذا كله بعد أن اتصل بجمال الدين الأفغانى ، ورأى أن ما يدعو إليه من الإصلاح الحديث لا يوافق هذه النزعة الصوفية .

ولكن هناك فروقا كثيرة تباعد بينه وبين هذه المدرسة : منها عدم مجافاته العلوم الفلسفية لما رأى من آثارها فى نهضة أوربا ، وقد كان لهذا أثره فى دعوته إلى تقليد أوربا فى مدنيتها الحديثة ، وفى حمله على تعلم اللغة الفرنسية ، لتمكنه من الاستفادة من هذه المدنية ، وكان لاشتغاله بالقضاء الأهلى أثره أيضا فى حمله على تعلم هذه اللغة ، لأنه يعتمد فى أحكامه على القانون الفرنسى ، وقد أمكنه بهذه اللغة أن يطّلع على ما كتبه المربّون الأوربيون فى فن التربية والتعليم ، ولما أعجب بالفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر زاره فى إنجلترا ، ونقل كتابه فى التربية من الفرنسية إلى العربية ،ومن أثر ذلك أيضا سعيه فى إدخال دراسة العلوم الحديثة فى الأزهر ، وكل هذا يخالف ما كانت عليه مدرسة ابن تيمية قديما ، وما صارت إليه حديثا ، فقد نشأت على مجافاة العلوم الفلسفية ، ولا تزال تجافيها بعد أن صارت إلى ما صارت إليه فى العصر الحديث من الكمال والتهذيب ، وبعد أن صار لها أثرها فى هذه الحضارة الحديثة ، وفى تقدم أوربا وتأخرنا ، وقد أوجب الشيخ محمد عبده تعلمها ؛ لأنّا قد أمِرنا بإعداد ما نستطيع من قوة لأعدائنا ، وهذا يتوقف الآن على تعلم العلوم الطبيعية والرياضية .

ومن وجوه الفرق بين الشيخ محمد عبده وتلك المدرسة دعوته إلى السعى فى الملاءمة بين روح الإسلام ومطالب المدنية الحديثة ، وقد جرى على هذا فى فتاويه الدينية ، كحكمه بجواز التزيّى بزىّ غير المسلمين ، وجرى على هذا أيضا فى تفسيره للقرآن الكريم ، فكان يفسره تفسيرا يلائم روح العصر الحديث ، ويوافق النظريات العلمية الحديثة .

ومنها إيمانه بالصلة بين الدين والعقل ، حتى إنه كان يقدم العقل على النقل عند التعارض بينهما ، فيؤوّل النقل بما يوافق العقل ، وهو فى هذا يتابع مدرسة الأشعرية التى أخذ بها فى نشأته ، ويخالف ما عليه مدرسة ابن تيمية قديما ، وحديثا ، لأنها لا تزال تنكر ذلك التأويل ، وتأخذ بما جاءت به ظواهر النصوص .

ولا شك أن ما جرى عليه الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغانى من هذا كله يجعلهما أقرب إلى مدرسة ابن رشد منهما إلى مدرسة ابن تيميّة ، وإن كان الشائع بين أنصارهما خلاف ذلك .

ولا يفوتنا فى نهاية الكلام على الشيخ محمد عبده أن نذكر أن إيثاره بعد عودته من النفى ملاينة الإنجليز أثار عليه مصطفى كامل باشا ورجال الحزب الوطنى ، حتى ساءت العلاقة بينه وبينهم بسبب ذلك ، وكان الأجدر به أن يتجنب ما أدى إلى هذا بينه وبينهم ، والعصمة لله وحده .

* * *



محمد رشيد رضا

هو صاحب مجلة المنار السيد محمد رشيد رضا الحسينى العلوى ، ولد بقرية القلمون على شاطىء بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط - وهى تبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال ، وبيته فيها بيت علم وفضل ، فتعلم فيها القرآن والخط وقواعد الحساب ، ثم دخل المدرسة الرشدية بطرابلس ، وهى مدرسة ابتدائية كان التعليم فيها باللغة التركية ، فمكث فيها سنةً ثم تركها ، ودخل بعدها المدرسة الوطنية الإسلامية ، وهى مدرسة أنشأها الشيخ حسين الجسر الأزهرى ، وكان من العلماء الذين يميلون إلى الإصلاح ، ويرون أن الأمة الإسلامية لا ترقى إلا بالجمع بين علوم الدين والدنيا على الطريقة العصرية الأوربية ، فكانت تدرَّس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والطبيعيات ، ولكنها لم تلبث إلا قليلا ثم تركها الطلاب ، لأنها كانت مدرسة أهلية لا تكسبهم الرخصة فى عدم دخول العسكرية ، فدخل بعض المدارس الدينية بطرابلس ، وكان أستاذه فى العلوم العربية والشرعية الشيخ حسين الجسر ، وقد تأثر بأسلوبه فى تعليمها ، لأنه كان يسلك فيه أسلوبا حديثا غير الأسلوب الأزهرى ، يتوخَّى فيه السهولة ، ولا يُعنَى فيه بالمماحكات اللفظية ، وقد قرأ على غيره من العلماء ، وكان بعضهم يتبع الطريقة الأزهرية فى التعليم ، ولكنه لم يتأثر بها كما تأثر بطريقة الشيخ الجسر .

وكان مما قرأه من الكتب وكان له أثره فى نفسه أثناء الطلب كتاب « الإحياء » للغزالى ، فجعله يأخذ بشىء من التصوف ، ويقوم ببعض رياضات الصوفية ، ولكنه عالج الضارَّ من هذا الكتاب فلم يأخذ به ، مثل عقيدة الجبر ، والتأويلات الأشعرية والصوفية ، والغلو فى الزهد ، وبعض العبارات المبتدعة ، ومع هذا بقى تأثيره الوجدانى فيه إلى آخر حياته ، فلم يكن ممن يتكالب على الدنيا ، أو يتطلع إلى الوظائف الحكومية ، ليعيش فى سجن الوظيفة كما يعيش الموظفون .

فلما انتهى من طلب العلم تطلعت نفسه إلى العمل الحر ، وكان صوت جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى الدعوة إلى الإصلاح قد ملأ العالَم الإسلامى ، وقد هيأته للاستجابة له تربية الشيخ حسين الجسر ، فكان يتتبع وهو طالب أخبارهما ، ويقرأ مجلة العروة الوثقى وغيرها من آثارهما ، والتقى بالشيخ محمد عبده مرتين فى طرابلس فى زيارتين قصيرتين ، فازداد إعجابه به ورغبة فى الاتصال به ، وعزم على هذا سنة ١٣١٤هـ =

١٨٩٦ م ، وهى السنة التى توفى فيها جمال الدين الأفغانى ، فأراد الهجرة إلى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته ، وكان قد نال شهادة التدريس - العالمية - من شيوخه بطرابلس ، وكان والده يعارض فى ذلك ، فلم يزل به حتى أرضاه ، فسافر إلى مصر بطريق البحـر من بيروت ، ووصـل إلى الإسكندرية فى ٨ من رجب سنة ١٣١٥ هـ = ٣ من يناير سنة ١٨٩٨ م ٠

فاتصل بالشيخ محمد عبده بعد وصوله إلى القاهرة ، وأخبره بأن غرضه من الهجرة إلى مصر تلقى الحكمة عنه ، وأنه يعتقد أنه بقية رجاء المسلمين فى السعى للإصلاح والاضطلاع به ، فقرَّبه الشيخ محمد عبده من مجلسه ، وكان يجتمع به كثيرا فى داره ، فيدور بينهما ما يدور من الكلام فى المسائل الإصلاحية التى هاجر إلى مصر لأجل الاشتغال بهـا ، والوقـوف على منتهى علمه ورأيه فيها ، وكان رأيه يوافق رأيه فى أغلب هذه المسائل ، ولم يكونا يختلفان إلا فى مسائل قليلة ، فيدور البحث بينهما فيها حتى ينتهى أمرهما إلى الأتفاق ، لأنهما كانا متحدين فى طلب الإصلاح ، ومتى اتحدت الغاية سهل الاتفاق فيما يؤدى إليها من الوسائل ٠

ثم استشار الشيخ محمـد عبده فى إصدار مجلة تقوم بالجهاد فى سبيل ذلك الإصلاح ، وكان هذا أيضا من ضمن أغراضه من الهجرة إلى مصر ؛ فوافقه الشيخ محمد عبده على ذلك ، وكانت هذه المجلة التى استشاره فيه هى مجلة المنار ، فقامت مقام مجلة العروة الوثقى ، وامتازت عليها بأنها مكثت زمنا طويلا ، فارتفع بها صوت الإصلاح فى هذا الزمن الطويل ، وهو يمتد إلى وفاة السيد محمد رشيد رضا سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م ٠

وكان للسيد محمد رشيد رضا أثره فى حياة الشيخ محمد عبده بعد اتصاله به ، لأنه كان أكبر تلاميذه ، وله عنده كلمة مسموعة ، فكان يشير عليه كثيرا بما يرى أنه يفيد فى تحقيق رسالة الإصلاح ، ومن هذا أنه هو الذى حمله بالإلحاح على قراءة التفسير الذى كان ينشره بمجلة المنار فى الجامع الأزهر ، وأنه هو الذى أتاه بكتاب - أسرار البلاغة - من طرابلس ، وحمله على تصحيحه وتدريسه فى الأزهر ، فجدَّد به البلاغة العربية بعد أن بليت رسومها فى كتب السعد والسيد ومن إليهما ، وأنه هو الذى نشر فى مجلة المنار ما كان يقتبسه من دروسه ومجالسه بعبارة صحيحة فصيحة لا يأبى أن تُعْزَى إليه ، حتى ربَّى له تلاميذ ومريدين فى جميع الأقطار الإسلامية ، وجمع حوله حزبا فى مصر وغيرها من أرقى طبقات المسلمين ، ولم يكونوا يعرفون شيئا عنه إلا من مجلة المنار ، ومن مطبوعات هذه المجلة ٠

وكل هـذا جعل الشيخ محمد عبده يؤثره على غيره لخلافته فى الدعوة إلى الإصلاح ، وقد رشحه لهذا فى مرضه الذى مات فيه بالإسكندرية ، فقال له : « قد جاش فى نفسى الشعر فى غيبتك ، كأننى لا أقول الشعر إلا فى الحبس أو المرض - يشير إلى قصيدة نظمهـا فى السجن عقب الحـوادث العرابية - ثم أنشده هذه الأبيات :

ولستُ أبالى أنْ يقال محمـد ... أبَلَّ أم اكتظَّت عليـه المآتمُ

ولكنه دينٌ أردتُ صـلاحَه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وللناس آمالٌ يرجُّون نَيْلَهـا ... إذا متُّ ماتت واضمحلتْ عزائم

فيـا ربِّ إن قدرت رُجعَى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم

فباركْ على الإسلام وارزقه مرشدا ... رشيدًا يضـىء النهجَ والليلُ قاتم

يماثلنى نطقًا وعلمـاً وحكـمة ... ويشبه منى السيفَ والسيفُ صارم

ومع هذا ذكر السيد محمد رشيد رضا أنه كان يأخذ عليه وعلى مجلة المنار ما يأتى من الأمور :

(١) الشدة فى إظهار الحق ، وكان يقول له فى هذا : إنك كثيرا ما تبرز الحق عريانا ليس عليه حُلة ولا حَلْى يزينه للناظرين ، فينبغى أن تذكر أن الحق ثقيل ، وقلّما يكون للداعى إليه صديق ، وإنه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد إعراضهم عنه .

(٢) كون المنار فى موضوعه ولغته بحيث لا يفهم أكثرَ ما فيه إلا الخواص ، فينبغى أن يكون بحيث يفهمه جميع القارئين حتى العوام ، وقد تحرَّى المنار العمل بهذه النصيحة فيما بعد السنة الأولى ، ولكنه أبقى أكثر مباحثه للخواص مع ذلك التحرى .

(٣) الخوض فى سياسة الدولة العثمانية التركية ، وقد ذكر السيد محمد رشيد رضا أنه كان يكره ذلك أيضا ، ولكنه كان يعرض له من الضرورة ما يحمله عليه ، وكان جلُّ عمله المهم من السياسة سريا ، ثم قال فى ذلك : سالمنا السياسة فساورت وواثبت ، وأسلسنا لها فجمحت وتقمَّحت ، وكنّا نهمُّ بها فى بعض الأحيان ، فيصدف بنا عنها الأستاذ الإمام ، ولم ننل منها ما نهواه ، إلا بعد أن اصطفاه الله .

وليته سمع لأستاذه فى ترك الخوض فى سياسة هذه الدولة ، لأن الدول الأجنبية كانت تستغلُّ هذا فى مصلحتها ، وبعض الناقمين عليها كان يشتغل بتأثير هذه الدول ،

وكانت عاقبة هذا أنها استولت على البلاد العربية بمساعدة كثير من أبنائهـا ، وهم الآن يجنون سوء مساعدتهم لها ، ويندمون عليهـا حين لا ينفع الندم .

وكذلك لم يكن السيد محمد رشيد رضا موفَّقا فى السياسة حين استجـاب لطمع الملك أحمد فؤاد الأول فى الخلافة بعد إلغاء مصطفى كمال خلافة آل عثمان ، لأن هذا الملك لم يكن صالحا لذلك ، ولم يكن مستكملا لشروط الخلافة الإسلامية ، ولو تمت خلافته لكانت خلافة صورية كخلافة آل عثمان ، بل تزيد عليها أنها تقوم فى بلاد يتدخل الإنكليز فى شؤونها بوجود جيش لهم فيها على عهده ، ولا يرضون عنها إلا إذا كانت تراعى مصلحتهم ، وتوجِّه المسلمين فيما يوافق سياستهم ، ولا شك أن مثل هذه الخلافة هى التى كان يسعى فيها المستر بلنت الإنجليزى ، وكانت له صلة صداقة بالشيخ محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا .

وكان مما يخـالف فيه السيـدُ محمد رشيد رضا أستـاذَه جنوحه كثيرا إلى مدرسـة ابن تيْميَّة ، حتى كان طابَعُها فيه أكثر من طابع مدرسة جمال الدين ومحمد عبده ، ولهذا كان يأخذ بمذهب السلف فى العقائد ، ويكره ما يأخذ به الأشعرية من التأويل ، مع أنهم سلكوا فى هذا مذهبا وسطا بين المعتزلة والقدامى من أهل السُّنَّة ، وقد حمله هذا على الطعن فيمن اشتغل بالفلسفة من فلاسفة المسلمين ، حتى قام التجديد عنده فى القرون السابقة غالبًا على أساس من ذلك الجمود الدينى ، فكان ابن حنبل عنده مجددا للقرن الثالث ، لأنه نصر السنة وقاوم بدعة العباسيين فى نصرة علوم الفلسفة ، وكذلك فعل مع الغزالى وابن حزم وغيرهما من المجددين ، فلما وصل إلى ابن تيمية جعله إمام المجددين فيما بعده من القرون ، مع أن الإصلاح الذى كان يدعو إليه ويقلد فيه جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده يقوم على أساس الجمع بين علوم الدين والدنيا على الطريقة الأوربية ، وهذه الطريقة تناصر الفلسفة وعلومها ، لأن حضارة أوربا لم تقم إلا على أساس هذه العلوم ، بل لم تقم إلا على أساس الفصل بينها وبين علوم الدين ، لأن العلوم الدينية عندها لا تقوم على أساس العقل كما تقوم علوم الفلسفة ، بخلاف علـوم الدين عندنا ، فإنها تقوم على أساس العقل كما تقوم على أساس النقل ، ومن يذهب فى الإصلاح الحديث ذلك المذهب لا يصح أن يكون ابن تيمية إمامًا له فيه ؛ لأنه كان رجعيا فى هذه الناحية ، بل يكـون الأجدر بالاقتـداء فى هذا الإصـلاح الحديث من السابقين ابنُ رُشد الحفيد ، لأنه هو الفيلسوف الفقيه الذى جمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ،

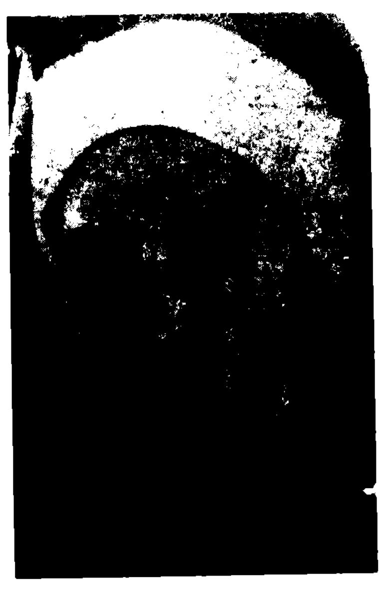
وآخى بين الدين والفلسفة ، ولو قامت له مدرســة بعده واستمرت كما استمرت مدرسة ابن تيمية ، لكنا أسبق إلى النهضة الحديثة من أوربا ، ولم نقع فى الجمود الذى وقعت فيه مدرسة ابن تيمية ، وكانت فيه أشد من مدرسة الأشعرية ·

ومن اضطراب السيد محمد رشيد رضا فى المجددين أنه جعل منهم الأمير عبد القادر الجزائرى ، مع أنه كان من المعجَبِين بمحيى الدين بن عربى ، وقد حمله هذا على أن يموِّل الطبعة الأولى من كتابه - الفتوحات المكية - مع أن مدرسة ابن تيمية تعادى محيى الدين ابن عربى وأمثاله من المتصوفين أشد عداء ، وإنما وقع السيد محمد رشيد رضا فى ذلك الاضطراب ، لأنه لم ينظر إلى أساس صحيح فى التجديد يقف عنده فيمن يراه من المجددين ، وقد وفقنا الله فيه إلى أساس جعل سلسلة التجديد فى كتابنا متناسبة الأجزاء ، متلائمة المناهج والمشارب ، والحمد لله على هذا التوفيق ·

* * *



محمد مصطفى المراغى



هو محمد بن مصطفى المراغى ، ولد بالمراغة بمديرية سوهاج سنة ١٣١٩ هـ = ١٨٨١ م ، وكان بيته بالمراغة بيت علم ، فحفظ القرآن بها ، ثم التحق بالأزهر وهو لا يزال على نظامه القديم ، وكان الطالب يمكث به نحو أربعين سنة حتى يتهيأ لنيل شهادة العالمية ، ولكنه خرج على ذلك النظام الجامد ، وكان خروجه عليه يشبه ما حصل من الشيخ محمد عبده حين نفر من هذا النظام لأول اشتغاله بطلب العلم · ويمتاز الشيخ المراغى على الشيخ محمد عبده بأنه كان فى هذه المرحلة أقوى على هضم هذا النظام من الشيخ محمد عبده ؛ لأنه كان مع شدة ذكائه يمتاز بهدوء الطبع ، وإيثار الأناة ، فكان لا يتلقى على شيوخ الأزهر إلا الدروس التى لا يمكنه الانفراد بها ، وكان لا يتم دراسة الكتب عليهم ، بل كانت له دراسة خاصة يدرس فيها بعض الكتب بنفسه أو بمشاركة بعض إخوانه ، فإذا تلقى بعض الكتب على شيخ لم يمكث معه حتى يتمه ، ويمضى فى دراسته معه من السنين الطويلة ما يمضى ، بل كان يبادر بإتمام دراسته وحده أو بمشاركة بعض إخوانه ، وكان من عادة طلاب الأزهر أن يشارك بعضهم بعضا فى مطالعة دروسهم قبل تلقِّيها على شيوخهم ، فكان من السهل على الأذكياء منهم الانفراد بمطالعة بعض كتبهم الدراسية ، والاكتفاء بها عن تلقيها على شيوخهم ·

فأمكن الشيخ المراغى بذلك أن يختصر مدة دراسته فى الأزهر ، وأن يحصل على

شهادة العالمية وهو فى سن ثلاث وعشرين سنة ، وقد حصل عليها سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م ، وكان الشيخ محمد عبده عضوا فى اللجنة التى قامت بامتحـــانه ، وكان قد مرض ، قُبيل دخول الامتحان ، ولكنه أصرَّ على الذهاب إليه ، فلما انتهى منه قال له الشيخ محمد عبده : لاحظتُ أنك محموم ، ولكنك كنت فوقْ الإجادة ، ثم ظهرت نتيجة الامتحان ، فإذا بالشيخ المراغى أول الناجحين ، وقد دعاه الشيخ محمد عبده إلى منزله تكريما له · والشائع أن الشيخ المراغى كان تلميذًا للشيخ محمد عبده ، ولكنه لم يَثبت على وجه التحقيق أنه تلقى كثيرًا من دروســـــه بالأزهر ، وإن كان من المتيقن أنه استمع إلى دروسه الحرة فى الرواق العباسى، وكانت فى علم التاريخ والاجتماع وما إليها من العلوم ، والحقيقة أن الشيخ المراغى كان تلميذا روحيا للشيخ محمد عبده ، ولا سيِّما بعد أن عرف فى امتحانه له أنه من طابع آخر غير طابع رجال الأزهر ، فجعله محل عنايته ورعايته ، واختصه بكثير من توجيهاته ونصائحه ، وكان هذا إرهاصا من الشيخ محمد عبده بما يكون له بعده من شأن فى الإصلاح الذى يدعو إليه ·

فلما طلبت حكومة السودان من الشيخ محمد عبده اختيار قضاة الشرع فيها ، كان الشيخ المراغى فى مقدمة من اختارهم لذلك ، وكان هذا فى السنة التى حصل فيها على شهادة العالمية ، وقد ذهب إليه حين اختاره لذلك فسأله عن تعريف العلم ، فأخذ الشيخ المراغى يعرِّفه له بما هو مشهور فى تعريفه ، فقال له الشيخ محمد عبده : العلم هو ما ينفعك وينفع الناس ، وكان هذا أول توجيه منه له ، وقد عرَّض له فيه بعلم الأزهر الذى لم يكن ينفع أهله ، ولم يكن ينفع الناس ، لجموده وبعده عن ذوق العصر الحديث ، وقد ذكر الشيخ المراغى أنه ذهب إلى الشيخ محمد عبده ليودعه ليلة سفره إلى السودان فسأله : هل معك رفقاء السفر ؟ · · · فقال : نعم ، بعض كتب آنس إليها ، وأستديم بها اتصالى بالعلم ، فقال : أوَ معك كتاب الإحياء ؟ · · · فقال : نعم ، فقال : الحمد لله ، هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرًا طويلا دون أن يكون رفيقه · وقد كان فى الشيخ محمد عبده قليل من النزعة الصوفية ، ولهذا ذهب فى تقدير كتاب الإحياء ذلك المذهب ، وهو يخالف ما سبق فيه من رأى العلماء الذين أنكروا على الغزالى اشتغاله بالتصوف ، وأنكروا عليه هذا الكتاب إلى حد أن أمروا بحرقه فى المغرب ، ولعل ما كان يعجب الشيخ محمد عبده من الغزالى عزوف نفسه فى آخر حياته عن الملوك والأمراء ، فقد كان عزوفا عنهم مثله ، ولكنه كان يخالفه ويخالف الصوفية عموما فى انكماشهم عن حياة الناس ، لأنه كان مندمجا فى حياة أهل عصره ، معنيا بإصلاح حالهم فى دنياهم وأخراهم · وقد

مكث الشيخ المراغى متصلا بالشيخ محمد عبده بعد سفره إلى السودان ، فتبادلا رسائل لهـا شأنـها فى الدين والوطن ، ولها شهادتها بما كان بينهما من الصلة العلمية والإصلاحية ·

ثم ترقى الشيخ المراغى فى مناصب القضاء الشرعى إلى أن صار قاضى قضاة السودان ، ثم صار قاضى قضاة مصر ، فانتفع بتوجيهات الشيخ محمد عبده فى إصلاح المحاكم الشرعية ، وكان القضاء الشرعي يلتزم مذهبا واحدا من المذاهب الفقهية منذ نشأته بعد حدوث هذه المذاهب ، فكان الشيخ المراغى أول من خرج على هذا الجمود ، وعدل عن مذهب أبى حنيفة الذى يجرى عليه القضاء الشرعى إلى مذهب مالك والشافعى وغيرهما فى مسائل رأى فيها حرجًا على الناس ، فلم يجمد على العمل بها والتعصب لمذهب أبى حنيفة فيها ، كما كان يجرى عليه متعصبة المذاهب ، وفتح بهذا باب التلفيق فى القضاء الشرعى على مصراعيه ، ليأخذ من المذاهب الفقهية لأهل السنة وغيرهم كما يشاء ، حتى نزَّه الطلاق عن أن يكون حلفا تلوكه ألسنة العامة وأشباه العامة ، ومنع وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد أو فى مجلس واحد كما كان يذهب إليه ابن تيمية ، وأمر بتشكيل لجنة للقيام بهذا الإصلاح أطلق عليها - لجنة تنظيم الأحوال الشخصية - ومما قاله فى افتتاح عملها : إن إصلاح القانون إصلاح لنصف القضاء ، أما إصلاح النصف الآخر فهو بيد القاضى نفسه ؛ لأن عليه أن يفهم الوقائع أولاً كما هى ، بعد تلمس أدلتها ونقدها والموازنة بينها ، وكان يقول لأعضائها : ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان ، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم ، وهذا يدل على مبلغ ما وصل إليه الشيخ المراغى من الاجتهاد فى الدين ، وهو يُحمد له إذا قيس إلى جمود جمهرة علماء الأزهر ، وإن كان يؤخذ عليه أنه يقف به عند حد ترجيح مذهب على مذهب بموافقته للزمان والمكان ، ولو لم يكن من المذاهب التى جمد عليها المتأخرون من الفقهاء ، ولا يجاوز هذا إلى استنباط أحكام جديدة ليست فى مذهب من المذاهب المشهورة وغير المشهورة ، ولكن خرقه الإجماع على تحريم تقليد غير المذاهب الأربعة مما لا يستهان به ، لأنه ذلل به الطريق لمن يخرج عليها باجتهاده لا بتقليد غيرها من المذاهب ·

ثم اختير الشيخ المراغى سنة (١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م) شيخا للأزهر بعد أن مكث بعيدا عنه كل هذا الزمن ، فمكث مخلصا لمذهب شيخه محمد عبده ، ولم تؤثر فيه البيئة الرجعية فى الأزهر كما أثرت فى غيره من تلاميذه ، فلما صار شيخا للأزهر عمل على أن يصل بنظامه الحديث إلى الغاية التى أرادها شيخه ، فلاقى معارضة شديدة من أنصار

الجمود فى الأزهر ، وكان الملك أحمد فؤاد الأول غير مرتاح لشغله هذا المنصب ، فلم يوافقه على المنهاج الذى وضعه لإصلاح النظام الحديث فى الأزهر ، فلم يجد إلا أن يعتزل هذا المنصب سنة ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٩ م ، بعد أن مكث فيه أربعة عشر شهرا ، لأنه وجد أن بقاءه فيه لا معنى له بعد عجزه عن إصـــلاحه ، والمنصب يجب أن يكون وسيلة لا غاية ، ولا يصح أن يضحى بالرأى فى سبيل منصب من المناصب .

ثم عاد الشيخ المراغى شيخا للأزهر سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م ، وكان الأزهريون قد ثاروا فى هذه السنة طالبين عودته إلى الأزهر ، ولكن ثورتهم كانت من أجل قوته النفسية التى يرعى بها مصالحهم ، لا من أجل مذهبه الإصلاحى الذى حمله على اعتزال منصبه فى المرة الأولى ، وكان لهذا أثره فى نفسه عند عودته ثانيا ، فأخذ بشىء من الحرص فى تنفيذ رأيه فى الإصلاح ، ولم ير أن يغضب أهل الأزهر عليه هذه المرة ، فخطا بالإصلاح خطوة لا بأس بها ، ولم يصل به إلى الغاية التى أرادها الشيخ محمد عبده ، وكان مما عاقه عن الوصول إلى هذه الغاية اشتغاله بالسياسة المصرية ، وقد وقف فيها إلى جانب الملك فاروق فى سياسته الرجعية ، حتى توفى سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م .

وكان الشيخ المراغى أقرب إلى أستاذه الشيخ محمـد عبده من السيد محمد رشيد رضا ، لأنه كان أكثر مرونة فى الدين منه ، ولم يكن مترددًا مثله بين مدرسة ابن تيميَّة ومدرسة جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ولكنه كان يميل إلى ملاينة الرجعية ، وكان لهذا أثره معى فى رأيى فى أن كلا من القطع فى السرقة والرجم فى الزنا إنما هو أقصى عقوبة فيهما ، كما أن القتل أقصى عقوبة فى حد الحرابة ، وبهذا يمكننا أن نخفف فى ذلك بما يلائم زماننا ، ونذلل أكبر عقبة تعترض العمل بشريعتنا فى عصرنا ، فآثر أن يُرضى الرجعية بعقاب هدأت به ، وإن كان أقل من العقاب الذى كانت تريده لى ، وتناسى أنَّ رأيى فى صميم التجديد والإصلاح .



غلام أحمد

هو ميرزا غلام أحمد القاديانى ، رئيس طائفة القاديانية والأحمدية ، ولد بقاديان من بلاد بنجاب فى الهند سنة ١٢٤٨ هـ = ١٨٣٢ م وكان والده من أصحاب الثروة فى بلده ، ومن الآخذين بعقيدة أهل السنة فيها ، فلما بلغ سن التعليم أقرأه القرآن على بعض فقهاء الشيعة ، فأمكنه أن يطَّلع بهذا على أقوال الطائفتين ، وقد قضى مدة التعليم بين علماء الدين ، فكانت نشأته دينية محضة ، ولم يأخذ نفسه فيها بشىء من الثقافة الحديثة التى كانت تنشرها المدارس الإنجليزية فى الهند لتطبع أهله على ثقافة الإنجليز ، وتجعلهم يخضعون لحكمهم ، ولا يعملون على التخلص منهم .

ولما انتهى من عهد التعليم اشتغل كاتبًا فى بعض أعمال الحكومة ، ولكنه كان يميل للتعبد ، وكانت هذه الوظيفة تعوقه عن الاشتغال به ، فاعتزلها وانقطع للعبادة والبحث فى الدين ، وكان له عقار فى قرية أحمد أباد ، فكان يستعين به على العيش ، وقد تزوج امرأتين ، وولد له أولاد منهما .

ثم مكث على هذا الحال إلى سن الأربعين ، فلما بلغ هذا السن أدعى أنه المسيح المنتظر ، وأنه يقوم بين المسلمين لهدايتهم كما قام المسيح ابن مريم لهداية اليهود ، ولما كان المشهور بين الناس أن المسيح المنتظر هو عيسى ابن مريم ، وأنه ينزل ثانيا من السماء إلى الأرض ، ادعى أن عيسى دفن فى الأرض ولم يصعد إلى السماء ، ليرتب على هذا إنكار نزوله ثانيا ، ويكون هو المسيح المنتظر لا عيسى ابن مريم ، ثم أضاف إلى هذا دعوى أنه المهدى المنتظر ، وأنه نبى من الأنبياء ، ولما كان نسبه لا ينتهى إلى أحد من آل بيت النبى ﷺ ، ادعى أن المهدى يجب أن يكون من غير قريش ، وأن يظهر فى عهد حكم الإنجليز للهند ، كما ظهر عيسى فى عهد حكم الروم لليهود ، وكذلك كان ظهوره بعد النبى ﷺ بأربعة عشر قرنًا تقريبا ، كما كان ظهور عيسى بعد موسى بمثل هذا الزمن ، ولكنه عاد فادَّعى أنه خاتم الأولياء ، كما كان محمد خاتم الأنبياء ، وكان يعتقد فى عيسى أنه هرب من فلسطين إلى الهند ، وأنه مات بها ودفن بجوار بلده قاديان ، وأنه بُعث ليكسر الصليب الذى يقال إنه صلب عليه .

ثم عاد فادَّعى أنه بعث على رأس المائة ليجدد الدين ، ويدعو إلى السلام ، ويُسقط

الجهاد بالسيف ، وينسخ حكم الجزية ، وكان يرى العمل بالحديث ولو كان ضعيفا إذا كان موافقًا للقرآن ، ويطعن فى المحدِّثين وفى الأحاديث التى أدَّت إلى اختلاف الأحكام ، ويرمى الشيعة بالشرك من أجل تغاليهم فى أمر الحسين،ويعترف بخلافة أبى بكر وعمر، إلى غير هذا مما ذهب إليه فى أحكام الفروع ، وقد ذهب إلى أن يوم القيامة هو يوم ظهوره ، كما ادَّعى الباب - ميرزا على محمد - فيما سبق هذه الدعوى ، كأن يوم القيامة عندهما ليس يومًا واحدا ، وإنما هو يومان أو أكثر بمقدار كل مَن تسوَّل له نفسه هذه الدعوى .

ثم بنى له مسجدا بقاديان ، وادَّعى أنه هو المسجد الأقصى الذى ورد فى أول سورة الإسراء من القرآن ، وأنشأ لجنةً ممن آمن بدعوته لتعمل على نشرها بين الناس ، فأنشأت مدرسة فى قاديان سمتها - تعليم الإسلام أو المدرسة الكلية - وكان من أتباعه طبيب يسمى نور الدين ، فأنشأ فى قاديان أيضًا مدرسة لتعليم الفلسفة وسائر العلوم .

ثم أنشأ أربع جرائد لنشر دعوته : أولاً : جريدة اسمها بدر ، وكانت تصدر مرة كل أسبوع ، وتُعنَى بنشر حوادثه من سفر وقدوم ومبايعة ونحو ذلك . والثانية : اسمها الحكم، وكانت أسبوعية أيضا ، ولكنها كانت تعنى ببحث المسائل الدينية الإسلامية ، وتجيب عن كل ما يرد عليها من الأسئلة فى موضوع الدين . والثالثة : اسمها مجلة الأديان ، وكانت تصدر باللغة الإنكليزية فى كل شهر ، وتعنى بالمسائل الدينية أيضا ، ولكنها كانت لا تعنى إلا بما يثبت دعوته . والرابعة : اسمها البشرى ، وكانت تصدر بالفارسية والعربية ، وتعنى بنشر دعوته بين الفرس والعرب .

وألَّف مع هذا كتبًا كثيرة باللغة الهندية وغيرها ، وكان يدَّعى أنها منزَّلة عليه من الله تعالى : ومنها كتاب - مواهب الرحمان - وقد ذكر فيه اعتراض صاحب جريدة اللواء عليه فى إنكاره التلقيح للوقاية من الطاعون ، وكان قد طلب من الحكومة الإنكليزية أن تترك أتباعه من غير تلقيح ، وادَّعى أن الله أراد بالطاعون الذى ظهر فى الهند أن يُهلك به أعداءه ، وينجى من يطيعه ويتبعه بإخلاص ، ومن غير استعانة بذلك التلقيح ، بل ادَّعى أن هذا الطاعون هو الدابة الواردة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [1] وقد أجاب عن ذلك الاعتراض بأنه لم ينكر ذلك التلقيح إلا بوحى من الله تعالى ، وأنه يذهب إلى ترك الأخذ بالأسباب من التلقيح وغيره ، ثم ذكر فى هذا الكتاب أنه المسيح الموعود والإمام المنتظـر ،

(١) النمل : آية ٨٢ .

وأن الله بشَّره بأنه يعيش ثمانين سنة ، وأن له معجزة من ذلك الطاعون وغيره ، وأن دعواه النبوة لا تنافى أن عقيدته الإسلام .

ومنها كتاب - إعجاز أحمدى - وهو باللغة الهندية ، وقد ذيَّله بقصيدة عربية من شعره ، وادعى أنه معجزة كبيرة له ، مع أن كثيرا من أبيات قصيدته ركيك الأسلوب ، فاسد الوزن ، وقد فضل نفسه فيه على الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب ، وادَّعى أنه الموعود الذى يملأ الأرض عدلا .

ومنها كتاب - الاستفتاء - وقد ذكر فيه أنه لا يريد من نبوته إلا كثرة الكلام مع الله تعالى ، ولا يريد معناها الوارد فى الصحف الأولى ، فهو لا يدعى النبوة على الطريقة المستقلة ، ولا يسمَّى نبيا إلا على طريق المجاز ، وقد ادعى فيه أيضا أن الله أوحى إليه أنه من أصل فارسى ، وأن بعض جداته من نسل فاطمة ﵄ ، مع أن نسبه ينتهى إلى أصل مغولى لا فارسى .

ومنها كتاب - سير الأبدال - وقد ادَّعى فيه البروز العيسوى من الله تعالى ، وكذلك ادعى البروز الأحمدى ، ثم ذكر أن المسيح لا ينزل من السماء كما يدعى اليهود والنصارى ، وكما يدعى المسلمون تبعًا لهم ، وردًّ على من يقول إنه لا حاجة إلى مسيح بعد القرآن بأن القرآن يحتاج إلى مفسر ، وقد أنكر فى هذا الكتاب صعود المسيح إلى السماء وصلب رجل آخر بدله .

ومنها كتاب - التعليم - وقد جاء فيه أن قبر المسيح بكشمير فى الهند ، وأن مريم تزوجت بيوسف النجار بعد حملها بالمسيح ، وقد مهد له بعض أتباعه بمقدمة ذكر فيها أن العلماء يجهلون معنى النبوة ، ويدَّعون أنها تستلزم شريعة ، مع أنه لا يلزم فيها ذلك ، كما فى الأنبياء المقررين لشريعة التوراة من عيسى وغيره ، وهذا شأن غلام أحمد مع الشريعة الإسلامية . ثم ذكر أن نبوته لا تنافى حديث « لا نبى بعدى » كما لا ينافيه نزول المسيح من السماء عند المسلمين ، وأيد هذا بما نقل عن محيى الدين بن عربى أن النبوة التى انقطعت إنما هى نبوة التشريع لا مقامها ، وكذلك ادَّعى أن هذا لا ينافى كون النبى خاتَم الأنبياء بفتح التاء ، لأنه خلاف خاتِم بكسر التاء بمعنى آخر ، ثم ذكر أن تجلِّى الله للصالحين وحىٌ لا إلهام ؛ لأن الإلهام للبار والفاجر ، بخلاف الوحى الذى لا يكون إلا للبار .

ومنها كتاب - حجة الله - وقد ذكر فيه أنه لم يتعلم البلاغة والفصاحة ، وإنما هو نور الله حل فى قلبه ، ثم أعلن فيه إخلاصه ونصرته لحكومة الهند ، وهى الحكومة الإنكليزية التى دخلت الهند لسلب خيراته من أهله ، ولتحكمهم حكمًا استبداديا يقصد

مصلحتها دون مصلحتهم ! وهذا وحده يكفى فى إبطال دعواه النبوة ، وقد سئل عيسى عليه السلام من بعض اليهود : هل يعطون إتاوة لقيصر الروم ؟ فقال : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، واقتصر على هذا فى بيان موقفه من الروم الذين كانوا يحكمون اليهود كما يحكم الإنجليز الهند ، فلم يعلن نصرته لهم كما أعلن غلام أحمد نصرته للانجليز ، ولم يعلن إسقاط الجهاد بالسيف كما أعلنه غلام أحمد ، ليخدم الإنجليز فى الهند بصرف المسلمين عن الجهاد فى إخراجهم منه ، ولهذا قاموا بحمايته وحماية دعوته . ومنعوا من كان يقصده بأذى من المسلمين ، وليته اقتصر على إسقاط الجهاد بالسيف معهم ، ولم يضف إلى هذا مدح حكمهم فى الهند ، لأن حكومتهم لا تدين بدين من الأديان ، وليست بنصرانية فى الحقيقة ، ولو صح هذا لكان عدم تدينهم بدين من الأديان السماوية ذمًّا لهم لا مدحا ، ولم يكن مما يقتضى مدح حكمهم ، ولا شك أنهم كانوا يقبلون منه هذا وهم يضحكون فى أنفسهم ؛ لأنهم يستغلون أمثاله فى تأييد حكمهم وهم لا يؤمنون بدعوتهم ، ولا شك أن أمثاله يعرِّضون أنفسهم بتأييد حكم الأجنبى لسخرية الصادقين من قومهم فى وطنيتهم ، ولكنهم لا تهمهم سخريتهم إذا فازوا برضا الحاكم الأجنبى عنهم .

ومنها كتاب - إعجاز المسيح - وقد ذكر فيه أن تأييد الدين فى هذا العصر لا يكون بالجهاد ، وأن إعجاز كلامه لا ينقص من إعجاز القرآن ؛ لأن كلامه ليس إلا ظلا له ،ثم ادَّعى فيه أنه لا مسيح بعده إلى يوم القيامة ، مع أنه ادَّعى فيما سبق أن يوم القيامة هو يوم ظهوره ، ومع أنه ادعى أيضًا فيما سبق أنه من المجددين الذين يبعثون على رأس كل مائة سنة ، ولا يخفى أن دعواه فى تأييد الدين بالجهاد بالسيف غير صحيحة ؛ لأن كل الأديان السابقة ولا سيَّما الإسلام لم تتأيد بهذا الجهاد ، وإنما تأيدت بالمعجزات ونحوها من الوسائل السلمية؛ فالجهاد بالسيف فى الإسلام لم يشرع لتأييد الدعوة ، وإنما شرع للدفاع عن أهلها، وهو حق طبيعى لكل إنسان فى هذه الدنيا ،ولا يمكن أن تنكره شريعة سماوية أو وضعية .

ومكث ميرزا غلام أحمد يجتهد فى نشر دعوته إلى أن توفى سنة ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م .

ولا شك أن ميرزا غلام أحمد كان يجهل فى هذه الدعوة حال عصره ؛ لأن أهله بلغوا من الوعى العقلى بحيث لا يحتاجون فى الإيمان بدعوة دينية إلى معجزات خارقة للعادة ؛ لأن فيهم من الوعى العقلى ما يكفى فى معرفة صحة الدعوة الدينية من غير تلك المعجزات ، ولو كان ميرزا غلام أحمد يعرف حال عصره لما لجأ إلى دعوى أنه المسيح أو المهدى المنتظر أو نبى من الأنبياء ، لأن هذا لا يفيده شيئا فى دعوته عند أهل هذا العصر إذا لم تكن مقبولة فى نفسها .

فهو قد حذر الناس مثلا فى كتاب - التعليم - من فلسفة الدنيا ، لأن الفلسفة الحقة هى التى تكون من الله تعالى ، وكذلك كان لا يؤمن بما أتى به الطب الحديث من التلقيح للوقاية من الطاعون ، لأنه كان يذهب إلى ترك الأخذ بالأسباب كما سبق ، وهذا كله غير صحيح ، ولا يوافقه عليه عاقل من عقلاء الناس ، ولو ادعى أنه نبى أو مسيح أو مهدى منتظر .

على أن ميرزا غلام أحمد كان يشعر بضعف دعواه أنه نبى ، فكان يحملها على المجاز لا على الحقيقة كما سبق ، وكان يشعر بأنه لا حاجة إليه بعد بقاء القرآن سالما من غير تحريف ، فادعى فيما سبق أن القرآن يحتاج إلى مفسر ، مع أن تفسير القرآن لا يحتاج إلى نبى ، لأنه نزل بلسان عربى مبين ، فهو من الوضوح بحيث يمكن تفسيره ببلوغ رتبة كافية من العلم ، ومن المصلحة أن يبقى باب تفسيره مفتوحًا لاجتهاد العلماء ، وألاَّ يغلقَ بابه بمفسر يدَّعى النبوة مثل ميرزا غلام أحمد ، فيوقعنا فى جمود يضر الإسلام والمسلمين ، ويضيف إلى جمودهم القديم جمودا أشد منه ، لأنه يكون جمودا منزلا من السماء ، وما نزل من السماء لا يرفعه أهل الأرض .

هذا وقد انقسم **أتباع ميرزا غلام أحمد بعد وفاته إلى فرقتين** : فرقة مركزها مدينة قاديان ، وفرقة مركزها لاهور ، وبينهما فروق كبيرة فى عقيدته ؛ ففرقة لاهور تعتقد أن أمره لا يزيد كثيرا عن كونه مجددا فى الإسلام ، وتنفر مما تذهب إليه فرقة قاديان من تكفير أهل المسنة ، وتسعى فى تقريب مسافة الخلف بينهما وبين جمهور المسلمين ، وعلى رأس فرقة قاديان ابن ميرزا غلام أحمد ، وعلى رأس فرقة لاهور المولى محمد على . والحقيقة أن ميرزا غلام أحمد لم يفهم رسالة التجديد فى هذا القرن حتى يكون مجددا ، ولم ينفع المسلمين فيه كما نفعهم المجددون السابقون ، بل زادهم فرقة إلى فرقتهم ، وهم فى أشد حاجة إلى ترك الخلاف ، لينهضوا بالاتحاد كما نهض غيرهم ، ولا يتنازعوا فى كونه مسيحا أو نبيا أو نحو هذا مما لا يفيدهم فى دنياهم أو أخراهم ، بل يصرفهم عن الاشتغال فى الدنيا بما ينفعهم ، وقد سبق أنه ادعى ذلك صريحًا فى كتبه ، فلا يقبل من فرقة لاهور ما تدعيه من أن أمره لا يزيد كثيرا عن كونه مجددا ، على أن دعواهم أنه لا يزيد كثيرا عن ذلك يفيد أنه يزيد قليلا عنه ، ويفيد أنهم يعتقدون فيه أنه أكثر من مجدد ، ولكنهم يحاولون أن يخففوا من أمره على غيرهم ، ليجرُّوهم إلى شىء من الاعتقاد بدعوته أولا ، ثم يجروهم إلى الاعتقاد بها كلها أخيرا .

* * *

مصطفى كمال باشا

هو الزعيم التركى مصطفى كمال باشا بن على رضا بك ، ولد بمدينة سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م ، وأصل أسرته من قرية بالأناضول فى أواسط آسيا الصغرى ، وكان أبوه يقوم بوظيفة صغيرة بميناء سلانيك ، فألحق ابنه بمدرسة ابتدائية تسير على النهج الأوربى الحديث ، بعد أن مكث بمدرسة دينية نحو ستة أشهر ، ثم لم يلبث أبوه أن مات فاضطرت أمه زبيدة هانم أن ترحل إلى شقيق زوجها فى قرية غزلان ، وهى تبعد عن سلانيك مسافة ساعتين ، فاشتغل مع عمه فى زراعة الأرض ورعى الماشية ، إلى أن بلغ الحادية عشرة من السن ، فأرسلته أمه إلى مدرسة أهلية ثانوية بسلانيك ، فمكث بها سنة ثم تركها ودخل مدرسة حربية بهذه المدينة ، وهى من المدارس التى كان السلطان ينفق عليها من ماله الخاص ، وكان يجد لذة عظيمة بها فى دراسة الرياضيات ، فاجتهد فيها حتى كان أول إخوانه فى علومها ، وقد أحبه أستاذها كمال وقرَّبه منه ، ويقال إنه أخذ اسم كمال إلى اسمه مصطفى من اسم هذا الأستاذ ، وكان فى أثناء الإجازة المدرسية يدرس اللغة الفرنسية سرا على رئيس دير فرنسى كان يدير مدرسة بسلانيك وكان يشدِّد عليه فى دراسته ويُعنى به عناية خاصة .

ثم انتقل إلى المدرسة الحربية باستانبول ، ومكث بها إلى أن تخرج منها ضابطا برتبة ملازم ثان وهو فى العشرين من عمره ، وكان هذا فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، فاندمج هذا الضابط الصغير فى طائفة الضباط الشبان الأحرار ، واشترك معهم فى تدبير المؤامرات للتخلص من هذا السلطان المستبد ، وكان له جواسيس يتتبعون أخبارهم ، إلى أن تمكن من القبض على جماعة منهم فيهم مصطفى كمال ، وكان يريد أن يوقع بهم عقوبات شديدة ، ولكنه رأى أخيرا أن يكتفى بنفيهم إلى أماكن بعيدة ، فكان حظ مصطفى كمال النفى إلى مدينة دمشق ، وقد شُفع لهم عنده بأن ما حصل منهم لم يكن إلا من نزق الشباب ، فرأى أن يبعدهم عن مهد الدسائس والمؤامرات .

ولكن مصطفى كمال لم يرتح لوجوده فى بيئة عربية لا يمكنه أن يشتغل فيها بالمؤامرات على هذا السلطان ، فهرب من دمشق إلى سلانيك ، والتحق بجمعية الاتحاد والترقى ، وكانت قد اتخذت مدينة سلانيك مقرا لها ، لتبعد عن جواسيس السلطان عبد الحميد ، وكان أكثر أعضائها من الضباط ، وقد انضم إليهم قليل من رجال الدين وغيرهم ، وكانوا يعملون سرا لعزل السلطان ، ليولُّوا بدله سلطانا يحكمهم حكما

دستوريا ، ويعمل على إدخال وسائل الإصلاح الحديث فى الدولة ولكن هرب مصطفى كمال ووصل إلى إستانبول ، فصدر أمر بالقبض عليه فى سلانيك ، فلم يجد إلا أن يعود ثانيا إلى الشام ، وكان قد وقع نزاع بين الدولة والإدارة المصرية الإنكليزية على مدينة العقبة ، فالتحق بالجيش الذى أرسلته الدولة إلى هذه المدينة ، وقد انتهى هذا النزاع ببقائها فى حكم الدولة ، وكان هذا سببا فى الإغضاء عن هرب مصطفى كمال من دمشق إلى سلانيك ، فلم يلبث إلا سنة حتى نقل إلى سلانيك ، وعهد إليه بأمر الإشراف على سكة حديد مقدونية .

ولكنه عاد إلى الاتصال بجمعية الاتحاد والترقى ، ولم يزل يعمل معهم حتى أمكنهم أن يحملوا السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور الذى عطله سنة ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م ، فقام مجلس النواب بعد إعادة الدستور ، وكان أكثر أعضائه من جمعية الاتحاد والترقى ، وقد اتخذت اسما ثانيا - حزب تركيا الفتاة - ولم يكن مصطفى كمال من الأعضاء البارزين فى هذا الحزب ، بل كان من رأيه حل جمعية الاتحاد والترقى ، لأنها كانت جمعية ثورية انتهت مهمتها بالفوز بالدستور ، فيجب أن تنتقل السيطرة على الحكومة من يدها إلى السلطات الشرعية الدستورية ، فلم توافق الجمعية على هذا الرأى ، ورد عليه بعض أعضائها بأن أعمالهم لم تنته وإنما هى قد بدأت .

ولكن الدسائس الداخلية والخارجية من الرجعيين والدول الطامعة فى الدولة لم يلبث أن تحركت ، فاستولت دولة النمسا على البوسنة والهرسك ، وأعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة ، واستولت اليونان على جزيرة كريت ، وقامت فتن داخلية كثيرة من الرجعيين الناقمين على الدستور ، فلم يجد حزب تركيا الفتاة إلا أن يقوم بعزل السلطان عبد الحميد وتولية أخيه السلطان محمد رشاد الخامس ، وكان هذا سنة ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩م ، ولكن هذا لم يمنع قيام الدسائس والفتن ، لأن الثورة لم تغير كثيراً من عقلية الشعب ، ولأن الشعب كان يتألف من أجناس مختلفة ، ويدين بأديان وعقائد كثيرة ، ولأن الدول الأجنبية لم تقطع أطماعها من الدولة ، بل كانت تستغل الفتن الداخلية أو تثيرها لمصلحتها ، وتحاول أن تصرف بها الدولة عن الإصلاحات التى تفيدها قوة ، وكان مصطفى كمال فى ذلك الوقت موضع ريبة من حزب تركيا الفتاة ، لأنه لم يكن على صلة وثيقة به .

ثم قامت الحرب الأوربية الأولى سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩١٤ م ، وكانت بين فريقين من الدول الأوربية : أولهما : إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ، وثانيهما ألمانيا والنمسا ، وكان حزب تركيا الفتاة هو القائم بالحكم فى الدولة ، فرأى الانضمام إلى فريق ألمانيا

والنمسا ، لأن دول الفريق الأول كانت مستولية على معظم البلاد الإسلامية فى أفريقية وآسيا ، وكان حزب تركيا الفتاة يميل إلى استغلال الجامعة الإسلامية ، ويرى أنها وسيلة للمحافظة على الدولة ، فكان يعمـل لإثارة البلاد الإسلامية التى استولت عليها تلك الدول ، ويساعد أهلها فى جهادهم للتخلص منها ، وكان يظن أو يتيقن أن هذه البلاد ستثور عليها إذا انضموا إلى ألمانيا والنمسا ، ولكن تلك الدول كانت تقبض على هذه البلاد بيد من حديد ، فساقتها كرها إلى الحرب فى صفها ، وأغرت بعضها بالأمانى الكاذبة ، كما أغرت أهل الحجاز وكانوا لا يزالون تابعين للدولة .

وكان بعض ساسة الدولة يرى أن تتخذ موقف الحياد بين الفريقين ، وبعضهم يرى أن تنضم إلى فريق إنجلترا ، ولكن الأيام أظهرت خطأ هذا الرأى ، لأن إنجلترا خدعت أهل الحجاز بالأمانى الكاذبة حتى شاركوها فى حرب دولتهم، ثم نقضت بعد الحرب عهدهم لهم، فاستولت على كثير من بلاد العرب،ثم ختمت مأساتها معهم بإعطاء فلسطين لليهود ، فلو وقفت الدولة فى تلك الحرب موقف الحياد أو انضمت إلى انجلترا لكان جزاؤها منها مثل جزاء أهل الحجاز أو أشد .

ولم يكن لمصطفى كمال شأن فى سياسة الدولة إلى هذا العهد ، ولكنه اشترك فى هذه الحرب كما اشترك فى غيرها من الحروب ، وكان له موقف عظيم فى معركة غاليبولى حين أراد الإنكليز اقتحام الدردنيل بسفنهم للوصول إلى نجدة روسيا ، وكانت قد أصيبت بانكسار شنيع ، فوقف لهم مصطفى كمال بجيشه وردهم على أعقابهم ، وكان هذا سنة ١٣٣٤ هـ = ١٩١٥ م ، فذاعت بهذا شهرة مصطفى كمال ، وارتفع صيته بين الجيش والشعب ، ولكنه كان مع هذا متشائما من نتيجة هذه الحرب،ناقما على حزب تركيا الفتاة ، لأنه دفع بالدولة فى هذه الحرب وهى غير مستعدة لها ، وعوامل الضعف تنتابها من كل ناحية .

وقد مات السلطان محمد رشاد الخامس سنة ١٣٣٧ هـ = ١٩١٨ م ، وتولى بدله أخوه السلطان وحيد الدين ، وكانت الدولة قد أصيبت بانكسارات فى هذه الحرب ، فصار كثير من الناس يشكّون فى نتيجتهـا ، ويلومون حزب تركيا الفتاة على الدخول فيها مع ألمانيا ، وكان السلطان وحيد الدين متأثرًا بهذا الرأى ، لأنه كان من المعجبين بإنجلترا ، لما يرى من مواردها التى لا نفاد لها ، ومن عظمتها واتساع ملكها ، وكان قد تربى فى كنف أخيه السلطان عبد الحميد الثانى ، لأنه كان قد ولد بعد وفاة والده ثم ماتت أمه عقب ولادته ، فكان مثل أخيه عبد الحميد يميل إلى الرجعيين فى السياسة والدين ، ويفترق بهذا عن مصطفى كمال ، وإن كان يشاركه فى نظره إلى حزب تركيا الفتاة .

وانتهت هذه الحرب سنة (١٣٣٧ هـ = ١٩١٨ م) بهزيمة ألمانيا ، وحلفائها ، فاحتلت إنجلترا وحلفاؤها إستانبول عاصمة الدولة ، وكان الأمن قد اختل فى بلاد الأناضول ، واختير مصطفى كمال ليقوم بحفظ النظام فى هذه البلاد ، فرضى بهذا ليبعد عن إستانبول ، وينتظر ما تفعله إنجلترا وحلفاؤها بالدولة ، وكان اختياره لهذا سنة ١٣٣٨هـ = ١٩١٩ م ، فلم يكد يفارق إستانبول حتى كانت إنجلترا وحلفاؤها قد مكنوا اليونان من الاستيلاء على أزمير ، وكان هذا أسوأ أثر فى نفوس أهل الأناضول من الترك ، لأن اليونان كانوا تابعين لهم فى عهد قوتهم ، فلا يصح أن يبلغ الهوان بهم إلى حد الرضوخ لهم ، وكانوا قد أظهروا من الوحشية عند استيلائهم على أزمير ما زاد فى حنق الترك عليهم ، فاستغل مصطفى كمال هذه الفرصة ، وأعلن الحرب فى بلاد الأناضول على اليونان من غير أن يرجع إلى الحكومة فى إستانبول ، لأنها كانت محتلة بجنود إنجلترا وحلفائها ، فلا يمكنها أن تعمل شيئا لمصلحة بلادها .

وهنا وقع الخلاف بين وحيد الدين ومصطفى كمال ، لأنه رأى أن ما قام به مصطفى كمال يؤلب على الدولة إنجلترا وحلفاءها ، فأمره أن يترك الأناضول ويعود إلى إستانبول ، فأرسل إليه أنه سيبقى فى الأناضول إلى أن يتحقق استقلال البلاد ، وقد أعلن أنه يريد أن يترك لإنجلترا وحلفائها بلاد العرب كلها ، على أن تبقى البلاد التركية فى الأناضول وإستانبول وما حولها للترك ، ليخفف بهذا شيئا من عداء إنجلترا وحلفائها له ، فتركوه يمضى فى حركته مع من انضم إليه من أهل الأناضول ، وهم يعتقدون أنه لا يمكنه أن يتغلب على خصومة السلطان وحيد الدين له مع خصومة اليونان ، ولكنه كان قد استعاض عن هذا السلطان بانضمام أهل الأناضول كلهم إليه ، وبإعلان المسلمين فى جميع بلادهم تأييدهم له ، وتأييد روسيا له أيضا ، لأنها رأت أن تتقرب إلى الشعوب الضعيفة بعد أن قامت فيها حكومة شيوعية ، فأخذت تناهض إنجلترا وحلفاءها فى سياستهم الاستعمارية .

فلم يجد السلطان وحيد الدين إلا أن يأمر شيخ الإسلام فى تركيا أن يصدر فتوى بأن مصطفى كمال قد استحق غضب الله ولعنته بخروجه على السلطان ، وبأنه على المسلمين فى تركيا أن يحاربوه لأنه من العصاة ، ثم أصدر وحيد الدين أمرا بقتل مصطفى كمال وبعض أنصاره ، فأصدر علماء الأناضول فتوى تناقض فتوى شيخ الإسلام ، وذكروا أن حكمه باطل طبقا لنصوص القرآن الكريم ، لأنه قد أصدره بتأثير ضغط إنجلترا وحلفائها عليه .

وأمكن مصطفى كمال أن ينتصر على اليونان فى سنة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٢ م ، ويقيم فى أنقرة من بلاد الأناضول حكومة لها الكلمة فى الدولة دون حكومة السلطان

وحيد الدين ، وبهذا أخذت أنقرة تأخذ بين المسلمين منزلة إستانبول ، فتوافدوا إليها مهنئين من جميع الأقطار ، وقدّم السيد أحمد السنوسى لمصطفى كمال سيفا مرصّعا باللؤلؤ ، وأكد له إخلاص المسلمين له .

ولما رأى مصطفى كمال أنه خلّص البلاد من أعدائها قام بإلغاء سلطنة آل عثمان وخلافتهم على المسلمين ، وأقام بدلها فى تركيا حكومة جمهورية تُعنى بها وحدها ، ولا يهمها شيء من شؤون المسلمين ، لأن هذا كان يجعلهم يعلقون عليها آمالا كاذبة ، كما كان يجعلها تعلق عليهم آمالا مثل آمالهم ، وقد ظهرت حقيقتها حين دعتهم فى الحرب الأوربية السابقة إلى الجهاد معها ، فلم يستجيبوا إلى دعوتها ، بل وقفوا فى صف إنجلترا وحلفائها يحاربونها ، وكان هذا من أهم أسباب انكسارها وانكسار ألمانيا معها .

وقام الرجعيون من المسلمين وقعدوا لإلغاء مصطفى كمال هذه الخلافة . مع أنها لم تكن خلافة إسلامية صحيحة ، لأن الخلافة الإسلامية لا تقوم بالوراثة ، وإنما تقوم باختيار المسلمين لمن يولونه أمر حكمهم ، ولم يكن آل عثمان إلا ملوكا مستبدّين ، فلم يكونوا خلفاء يحكمون بالشورى ، ولا يستأثرون بالحكم دون المسلمين ، ولا شك أن نظام الجمهورية أقرب إلى نظام الخلافة ، لأن الحكم فى الجمهورية يقوم مثل الحكم فى الخلافة على الشورى ، ولا تستأثر بالحكم فيه أسرة دون غيرها من المسلمين .

ولكن المؤلم فى ذلك قطع مصطفى كمال صلة تركيا بغيرها من البلاد الإسلامية ، لأنها صارت لا يعنيها شيء من أمورهم ، ولا يهمها إلا مصلحتها ولو خالفت مصلحتهم ، كما حصل بعد هذا من حكومة تركيا ، فإنها كانت تقف بجانب أعداء العرب المعتدين على بلادهم ، كأنها تجازيهم على وقوفهم بجانبهم فى الحرب الأوربية السابقة ، مع أن جمهرتهم كانت مكرهة على هذا الموقف ، وكانت قلوبهم مع تركيا دون من وقفوا كرها فى صفهم ، وظهر هذا لمصطفى كمال وإخوانه حين قاموا بتأييدهم ، وظاهَروهم على وحيد الدين ومن يؤيده من أعدائهم ، وقد قال مصطفى كمال فى مسألة الوحدة الإسلامية عند إلغائه الخلافة :

« عندما تشعر الأمم الإسلامية بضرورة اتصال بعضها ببعض ، ستعمد حالاً للاتفاق فيما بينها للدفاع عن حقوقها المشتركة ، وعندئذ يمكن أن تتحقق فكرة إيجاد الولايات الإسلامية المتحدة ، وعندئذ يمكن أن يكون فى هذه الولايات الإسلامية المتحدة خلافة ، والرئيس الذى تتجه هذه الولايات الإسلامية المتحدة إليه يحق له أن يلقب بخليفة » .

ونحن لا نطلب من تركيا مثل هذا الاتحاد معنا ، وإنما نطلب منها أن تنسى الماضى ومآسيه ، فلا تقف على الأقل فى صف أعدائنا ؛ لأن ظلمها لنا يكون أشد من ظلمهم ، كما قال الشاعر العربى :

وظلم ذوى القربى أشدُّ مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهنَّد

على أن مصطفى كمال لم يقف عند ذلك الحد ، بل عمد إلى صبغ تركيا بالصبغة الأوربية ، فحرَّم لبس الطربوش واستعاض عنه بالقبَّعة ، بحجة أنه ليس فى القرآن ما يشير إلى غطاء رأس خاص ، وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، وأمر بالعمل بالقانون المدنى السويسرى ، وبالقانون الجنائى الإيطالى ، وبالقانون التجارى الألمانى ، ثم ألغى نظام تعدد الزوجات ، وأدخل الأحوال الشخصية فى القانون المدنى الأوربى ٠

وهو يقصد بهذا كله التقرب إلى الأمم الأوربية ، لتخفف من عدائها لتركيا ، وينسى أن الأمم الأوربية تتعادى فيما بينها على القومية لا على الدين ، فهى تعادى تركيا لأنها أمة شرقية استولت على دولة الروم الأوربية ، أكثر مما تعاديها لأنها أمة مسلمة ، وهذه الأمور التى اهتم بها لا تجعل من تركيا فى الحقيقة أمة أوربية ، ولا سيما أن جمهورها لا يزال محافظا على دينه الإسلامى ، وأن هذه الأمور الشكلية لم تغير كثيرا من عقليته ، ولم تصل بتركيا إلى القوة التى تعتمد بها على نفسها ، وتستغنى بها عن غيرها ، ولا تجعلها تعيش فى ظل اختلاف الدول الأوربية عليها ، كما كانت تعيش الدولة العثمانية التركية ، وقد قامت روسيا بثورتها الشيوعية فى جوارها ، فلم تهتم مثلها بهذه الأمور الشكلية ، وإنما اهتمت بالوسائل الصحيحة التى تصل بها إلى القوة ، وتجعلها تعتمد على نفسها فوصلت بها إلى ما وصلت إليه ، وصارت تناهض بها أمم الأرض ، ومع هذا لم تنحرف عن الشيوعية التى تعاديها أكثر الأمم من أجلها ، ولم تعمد إلى قانون أجنبى تستعيره كما عمدت تركيا ، لأن فى هذا تضييعًا لاستقلالها التشريعى ، وهو لا يقل منزلةً عن الاستقلال السياسى ، على أن هذا لا ينسينا أنّا وقعنا فى مثل ذلك قبل تركيا ، وإن كان قانون الأحوال الشخصية عندنا لا تزال له صبغته الإسلامية ٠

ولما قامت معارضات لمصطفى كمال فى تلك التغييرات التى أحدثها ، قضى عليها بالشدة ، ومكث رئيسا للجمهورية التركية حتى توفى سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م ٠

ولا تزال تركيا محافظة على نظامها الجمهورى ، ماضية فى سياستها التى لا تعنى فيها بالعالم الإسلامى ، فلا تنسى ماضى العرب معها ، ولا ينسى بعض العرب ماضيها معهم ، والله ندعو أن يصلح نفوس الفريقين ، حتى تزول الأحقاد القديمة ، ويعيش العرب والترك إخوانًا ٠



عبد العزيز آل سعود

هو الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيْصَل بن تركى بن عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود · وآلُ سعود من قبيلة عنزة من فخذ المساليخ ، ويوجد هذا الفخذ الآن من عنزة قرب حمص ، وعنزة من أكثر العشائر العربية أفخاذًا وبطونا ، ومن أكبرهم عددًا ، فهم منتشرون فى العراق وسوريا ونجد · ومحمد بن سعود هو مؤسس دولة آل سعود بنجد ، وقد وفد عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٠ هـ = ١٧٣٧ م ، ولم يكن له ولا لآله شأنٌ كبير فى نجد ، بل كان شأنه كشأن غيره من شيوخ القبائل العربية ، فلما قام بحماية الدعوة الوهابية ظهرت بها إمارته ، وانضم إليها كل من أخذ بهذه الدعوة من البلاد المجاورة له ، ولكن هذه الدعوة كانت مع هذا سببا فى مناوأة خصومها لآل سعود ، حتى سقطت دولتهم مرة فى عهد عبد الله بن سعود بسببها ، ثم سقطت ثانية فى عهد عبد الله بن فيصل ، فأعادها الملك عبد العزيز آل سعود وأخذ يعمل فى النهوض بها ، حتى صارت أكبر دولة فى جزيرة العرب ، وكانت إعادته لها سنة ١٣١٩هـ = ١٩٠١ م ، وقد تم له الاستيلاء على بلاد الحجاز سنة ١٣٤٣ = ١٩٢٥ م ، وبهذا صار له مملكةٌ تسمى المملكة العربية السعودية ، وصار له لقب ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ·

فلما استقر الأمر للملك عبد العزيز فى جزيرة العرب أخذ يسعى فى إصلاحها ليقضى على الجاهلية التي وقعت ثانيا فيها ، ويزيل مظاهر البداوة التى انتشرت فى أنحائها ، وينشر فيها وسائل المدنية الحديثة ، وهو فى هذا يمتاز على غيره من الملوك والأمراء الذين قاموا بالتجديد بين المسلمين فى القرون الحديثة ، لأنهم كانوا يهتمون بالإصلاح المدنى وحده ، ولا يهتمون فى الإصلاح الدينى إلا بأمور لا تدخل فى صميم الإصلاح ، ولا تقضى على الجمود الدينى بين المسلمين ، ولا تزيل ما انتشر بينهم من بدع وخرافات ، فتؤدى إلى الفساد أكثر مما تؤدى إلى الإصلاح ، وتربى جيلا مضطربا بين القديم والجديد ، ومجتمعًا حائرًا بين دعوة التجديد والجمود ·

أما الملك عبد العزيز فإنه قام فى دولة تعمل بالتشريع الإسلامى ، وتأخذ فيه بإصلاح دينى يقضى على كثير من البدع والخرافات ، ولا يؤخذ عليه إلا معاداة الإصلاح المدنى ، ومجافاة وسائل الحضارة الحديثة ، فأخذ الملك عبد العزيز يعمل على إدخال وسائل هذه الحضارة فى دولته ، وعلى أن يسير بمدرسة ابن تيميَّة فى طريق يباعد بينها وبين تزمّتها

الدينى ، ومجافاتها للمدنية الحديثة ، ليجمع بين الإصلاح الدينى والإصلاح المدنى ، ويسير بالتجديد الإسلامى فى طريقه الصحيح الذى تنكبه الملوك والأمراء المسلمون فى القرون الحديثة ، فأخفقوا فى الوصول إلى غايتهم من التجديد ، ولم يمكنهم أن يجمعوا شعوبهم على نظام جديد يأخذون به جميعا ، وتجتمع كلمتهم عليه معا ، فلم تستفد شعوبهم من هذا إلا أن تفرقت وحدتهم ، واختلفت كلمتهم ، لأنهم كانوا قبل هذا متفقين على جمودهم القديم ، فلم يفعل أولئك الملوك والأمراء الذين عُنوا بالإصلاح المدنى وحده إلا أن قسّموهم إلى جامدين ومجددين ، فكان من الفريقين مجتمع متنافر لا تناسق بين أفراده ، ولا انسجام بين أجزائه ، اللهم إلا ذلك النفاق الاجتماعى الذى يؤلف بين أفراده فى الظاهر ، ولا يجعل منه مجتمعا صادقا فى الظاهر والباطن ، ليؤدى وظيفته الوطنية والدينية ، وينهض بشعبه فى كل ما يوصله إلى سعادته ، وإذا كان الملك عبد العزيز قد تأخر به الزمن فى ذلك ، فإن سلوكه ذلك الطريق الصحيح مما يبعث الأمل فى نجاح ما أخذ به من الإصلاح ، وعلى من يأتى بعده أن يمضى فى ذلك الطريق الصحيح ، وأن يأخذ بالوسائل التى كان يأخذ بها فيه ، فإنه كان له فى ذلك وسائل حكيمة امتاز بها على غيره من المجددين المتأخرين .

ومن تلك الوسائل أنه لم يكن يفرض ما يراه من الإصلاح على شعبه فرضا ، ولم يكن يحمله عليه بالإكراه والقوة ، كما فعل محمد على باشا فى القرن السابق ، بل كان يأخذ شعبه فى ذلك بالإقناع ، حتى يؤمن بما يريده من الإصلاح قبل أن يشرع فيه ، ويثبت عليه لإيمانه به ، فإذا تخلَّف بعد هذا متخلِّف بالعناد والاستكبار ، وأخذ يضع العقبات فى سبيل الإصلاح ، أخذه بالقوة التى تقضى على عناده واستكباره ، لأنه يعارض الإصلاح بالقوة ، فيكون جزاؤه أن يؤخذ بالقوة أيضا ، ليرتدع عن عناده واستكباره .

وكان من وسائله فى ذلك أيضا أنه كان يفضِّل التؤدة والتأنِّى ، ويراعى استعداد الشعب لما يريده من الإصلاح ، حتى إنه مكث نحو عشر سنين يجاهد ويجالد فى سبيل إنشاء التليفون ، مرة مع الإخوان ، ومرة مع علمائهم ، وقد حضروا عنده سنة (١٣٣١هـ = ١٩١٢ م) حين علموا بعزمه على إنشاء محطات للتلغراف غير السلكى بمدينة الرياض وغيرها من مدن نجد ، فقالوا له : يا طويل العمر ، لقد غشَّك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، فقال لهم : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، وليس هناك من دليل أو سُنة رسول يمنع من إحداث اللاسلكى والسيارات .

ثم انتظر بعد هذا إلى أن اختبر بالفعل التليفون بمكة عند استيلائه عليها ، ورأى فائدته العظيمة فى إنجاز الأعمال وسرعة المواصلات ، فلما نقل معسكره من الزاهر –

الشهداء قرب مكة - إلى حداء أراد أن يمد سلكًا تليفونيا بين مكة وحداء ، وسلكًا آخر بين حداء والرغامة ، حتى يكون على اتصال سريع بين مكة ومقره ، ولكنه عاد فعدل عن ذلك خوفًا من فتنة الإخوان ، لأنه رآهم يقطعون الأسلاك التليفونية التى كانت قائمة قبل استيلائه على مكة ، وكثيرًا ما كانوا يقطعون الأسلاك الموصلة إلى قصره حين كان مقيما بها ، لأنهم كانوا يرون أن هذا منكر تجب إزالته شرعا ، وكذلك كانوا يرون غيره من الدرَّاجات والتلغراف السلكى وغير السلكى ، حتى إنهم سموا الدرَّاجة حين رأوها عربة الشيطان أو حصان إبليس ، وادَّعوا أنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن راكبها إذا تركها ونزل لا تقف على الفور ، وكانوا يرون أن التلغراف غير السلكى لا ينقل الكلام إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ويذكر عليها اسم الشيطان ، فيقوم الشيطان فيه بنقل الكلام ، وقد أنكروا الساعة الدقَّاقة وعدّوها أيضًا من عمل الشيطان ، وكسروا أول ساعة دقاقة وصلت إليهم ، فرجعوا بالتفكير الإسلامى أكثر من عشرة قرون ، وشابهوا فى تفكيرهم الإمبراطور شارلمان وحاشيته حين أنكروا الساعة التى أهداها إليهم هارون الرشيد ، وزعموا أنها من عمل الشيطان .

وكان الملك عبد العزيز يلين لهم أحيانا فى ذلك ، وأحيانا يأخذهم بالشدة ، وقد حدث مرة أن أحد الإخوان ضرب خادما له رآه يركب درَّاجة ، فأحضره إليه وأدَّبه أدبًا أرجعه إلى رشده .

فلما رأى غلاة الإخوان أن الملك عبد العزيز يتساهل فى ذلك بعض التساهل أخذوا يتذمرون منه ، ويجاهرون بالإنكار عليه فيه ، وكان على رأس أولئك المتذمرين فَيْصل الدويش وسلطان بن بجاد ، وغالبهم من الإخوان أنصاف المتعلمين الذين غالوا فى الدعوة الوهابية ، فأصبحوا يعتقدون أن لبس العمامة هو السُّنَّة ، وأن العقال من البدع المنكرة ، بل غالى بعضهم فجعله من لباس الكفار وأوجب مقاطعة من يلبسه ، وكانوا إذا وجدوا شخصا له شارب طويل يقومون بقصِّه ، وإذا وجدوا على شخص ثوبًا طويلا فإن المقص يعمل عمله فى الزائد تنفيذًا لحديث « فضل الإزار فى النار » وكانوا يرون أن الحضر ضالُّون ، وأن غزو المجاورين واجب ، وأنه أُلقى عليهم هذا الواجب من الله ، فلا يسمعون كلام أحد فى منع الغزو ، ثم أخذوا يذيعون عن الملك عبد العزيز أنه يوالى الكفار ، ويتساهل فى الدين ، وينكرون عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال .

ثم دعوا إلى عقد مؤتمر بالأرطاوية سنة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٧ م ، فحضره رؤساء الإخوان من مُطير وعُتيبة ، والعجمان ، وتعاهدوا فيه على نصرة دين الله والجهاد فى سبيله ، ثم أنكروا صراحةً على الملك عبد العزيز هذه الأمور :

١ - إرسال ولده سعود إلى مصر بلد الشرك .
٢ - إرسال ولده فيصل إلى لندن .
٣ - استخدامه السيارات والتلغرافات والتليفونات .
٤ - فرضه الضرائب الموجودة فى الحجاز ونجد .
٥ - إذنه لعشائر العراق وشرق الأردن بالرعى فى أرض المسلمين .
٦ - منعه المتاجرة مع الكُويت ، لأنهم إن كانوا كفاراً حوربوا ، وإن لم يكونوا كفاراً لم تجز مقاطعتهم .
٧ - تركه النظر فى شيعة الإحساء والقطيف وإجبارهم على الدخول فى دين أهل السنة والجماعة .

وكان الملك عبد العزيز بالحجاز حين عقدوا ذلك المؤتمر ، فعجل بالرجوع من الحجاز إلى نجد ، وأخذ يعالج هذه الثورة عليه بالحكمة واللين ، فدعا زعماء الإخوان إلى مؤتمر أمر بعقده فى مدينة الرياض فى رجب سنة ١٣٤٥ هـ = يناير سنة ١٩٢٧ م ، فأجاب دعوته جميع زعماء الإخوان ما عدا سلطان بن بجاد ، ولما اجتمعوا فى هذا المؤتمر شرح لهم حاله شرحًا وافيًا ، وذكر أنه خادم للشريعة محافظ عليها كل المحافظة ، وأنه هو الذى يعهدونه من قبل لم يتغير ، وأنه لا يزال ساهرًا على مصالح العرب والمسلمين .

وانتهى هذا المؤتمر بهذه الفتوى من علماء الإخوان :

« من محمد بن عبد اللطيف ، وسعد بن عتيق ، وسليمان بن سَحمان ، وعبد الله ابن عبد العزيز العتيق ، وعبد الله العنقرى ، وعمر بن سليم ، وصالح بن عبد العزيز ، وعبد الله بن حسن ، وعبد الله بن عبد اللطيف ، وعمر بن عبد اللطيف ومحمد بن إبراهيم ، ومحمد بن عبد الله ، وعبد الله بن مزاحم ، ومحمد بن عثمان الشاوى ، وعبد العزيز بن العترى - إلى من يراه من إخواننا المسلمين ، سلك الله بنا وبهم الطريق المستقيم ، وجنبنا وإياهم طريق الجحيم - آمين - سلام عليكم ورحمة الله وبركاته - أما بعد فقد ورد علينا من الإمام - سلمه الله تعالى - سؤال من بعض الإخوان عن مسائل تطلب منا الجواب عليها ، فأجبناه بما نصه : أما مسألة البرق - التلغراف غير السلكى - فهو أمر حادث فى آخر الزمان ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلامًا لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته ، وأما مسجد حمزة وأبى رشيد فأفتينا الإمام - وفقه الله - بهدمهما على الفور ، وأما القوانين فإذا كان منها شىء فى الحجاز فيزال فورًا ، ولا يُحكم إلا بالشرع المطهر ، وأما دخول الحاج المصرى بالسلاح والقوة فى بلد الله الحرام ، فأفتينا

الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة ، ومن إظهارهم الشرك وجميع المنكرات ، وأما المحمل فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام ، ومن تمكين أحد أن يتمسح به ويقبّله ، وما يفعله أهله من الملاهي والمنكرات يُمنعون منها ، وأما منعه عن مكة بالكلية فإنْ أمكن بلا مفسدة تعيَّن ، وإلا فاحتمال أحد المفسدين لدفع أعلاهما سائغ شرعًا ، وأما الرافضة فأفتينا الإمام أن يلزمها البيعة على الإسلام ، ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل ، وعلى الإمام أيضًا أن يلزم نائبه على الإحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ، ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم ، وعلى ترك سائر البدع ، من اجتماعهم على مأتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ، ويُمنعون من زيارة المشاهد ، وكذلك يُلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم فى المساجد ، ويُرتَّب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة ، ويُلزمون بتعليم ثلاثة الأصول ، وكذلك إن كان لهم محالٌ مبنية لإقامة البدع تُهدم ، ويمنعون من إقامة البدع فى المساجد وغيرها ، ومن أبى قبول ما ذُكر يُنفى من بلاد المسلمين ، وأما الرافضة من أهل القطيف فيلزم الإمام - أيده الله - الشيخَ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم بما ذكرنا ، فأما البوادى والقرى التى دخلت فى ولاية المسلمين فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين ، ويلزم نوابه من الأمراء فى كل ناحية بمساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام ومنعهم من المحرمات ، وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين ، فأفتينا الإمام بكفهم عن الدخول فى مراتع المسلمين وأرضهم ، وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة ، فإنْ تركَها فهو الواجب عليه ، وإنْ امتنع فلا يجوز شقٌّ عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته من أجلها ، وأما الجهاد فهو محولٌ إلى نظر الإمام ، وعليه أن يراعى ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء - ونسأل الله لنا ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

فلم يسع الملك عبد العزيز إلا أن يأخذ بهذه الفتوى حسمًا للفتنة ، فاضطرَّ بها إلى عدم قبول المحمل ، وإلى هدم مسجد حمزة ، وإلى تعطيل التلغراف السلكى ، وهو يعلم أنه ليس فى الإسلام ما يمنع منه ، كما سبق فى رده عليهم حين أنكروا ذلك فى سنة ١٣٣١ هـ = ١٩١٢ م ، فكانت هذه الفتوى أقرب إلى مسلك أولئك الغلاة منها إلى مسلك الملك عبد العزيز ، ولكنه أخذ بها على عادته فى أخذ الأمور باللين والسياسة ، وفى مراعاته للظروف السياسية فى عصره .

ومع هذا لم يرض فيصل الدويش بنتيجة هذا المؤتمر ، وأراد أن يُوقِع الملك عبد العزيز فى مشكلة جديدة ، فأرسل قوةً صغيرة قتلت عمال مخفر بُصيَّة على الحدود

العراقية النجدية ، وقتلت بضعة أنفار من الشرطة كانوا مع أولئك العمال ، ليفسد بين الملك عبد العزيز والحكومة الإنجليزية ، فأدى هذا إلى هجوم الطيارات الإنجليزية واشتباكها هي والعشائر النجدية نحو ثلاثة أشهر ، ولم يمكن الملك عبد العزيز أن يحلَّ هذه المشكلة بطريق السياسة ، لأن الحكومة الانجليزية أصرَّت على موقفها من بناء المخافر على الحدود العراقية النجدية .

فرأى الملك عبد العزيز أن يعقـد مؤتمـرا فى بُرَيْدة سنة (١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م) لتهدئة الإخوان ، ولإفهامهم أنه يشاركهم فى سخطهم على بناء هذه المخافر ، ولكنه يرى أنه لا يصح اللجوء فى ذلك إلى استعمال القوة ، ولم يحضر هذا المؤتمر فيصل الدويش ، ولا سلطان بن بجاد ، وقد خطب الملك عبد العزيز فيهم هذه الخطبة :

« أيها الإخوان ، تعلمون عظم المنة التى مَنَّ الله بها علينا بدين الإسلام ، إذ جمعنا به بعد الفرقة ، وأعزنا به بعد الذلة ، وإن شفقتى عليكم وعلى ما مَنَّ الله به علينا هو الذى دعانى لأن أجمعكم فى هذا المكان ، لتذكروا - أولاً - ما أنعم الله به علينا ، فنرى ما يجب عمله لشكران هذه النعمة - وثانيا - لأمرٍ بدا لى فى نفسى وهو أننى خشيت أن يكون فى صدر أحد منكم شىء يشكوه منى ، فأردتُ أن أعرف ذلك منكم ؛ لأخرج أمام الله بمعذرة من ذلك - وثالثًا - لأسألكم عما فى خواطركم وما لديكم من الآراء ، أو مما ترونه يصلحكم فى أمر دينكم ودنياكم - أيها الإخوان - إن القوة لله جميعًا ، وكلكم يذكر أننى يوم خرجتُ عليكم كنتم فرقًا وأحزابًا ، يقتل بعضكم بعضا ، وينهب بعضكم بعضا ، وجميع مَن وَلاه الله عليكم من عربى أو أجنبى كانوا يدسـون لكم الدسائس لتفريق كلمتكم ، وإضعاف قوتكم ، ولإذهاب أمركم ، ويوم خرجت كنت فى محل الضعف ، وليس لى من عضد وساعد إلا الله وحـده ، ولا أريد أن أقص عليكم ما منَّ الله به علىّ من فتوح ، وما فعلت معكم من أعمال كانت لخيركم ، لأن تاريخ ذلك منقوش فى صدر كل واحد منكم - إننى لم أجمعكم اليوم فى هذا المكان خوفًا أو رهبًا من أحد منكم ، فقد كنت وحدى من قبل ، فما باليتُ بالجموع ، واللهُ هو الذى نصرنى ، وإنما جمعتكم لأمر واحد ، ولا أجيز لأحد أن يتكلم هنا فى غيره ،وذلك هو النظر فى أمر شخصى وحدى ، أريد منكم أن تنظروا فيمن يتولى أمركم غيرى ، ومن اتفقتم عليه فأنا أقرُّه وأساعده . ولا يحملنى على هذا القول إلا أمران ، الأول : محبتى لراحتى فى دنياى ، والثانى : أنى أعوذ بالله أن أتولى قوما وهم لى كارهون ، فإن أجبتمونى إلى هذا فذلك مطلبى ، ولكم أمان الله ، وإذا كنتم لا تزالون مصرِّين على ما كلمتمونى به على أثر دعوتى لكم ، فإنى

أبرأ إلى الله أن أخالف أمر الشرع فى اتباع ما تجمعون عليه مما يؤيد شرع الله ... الخ الخ » .

ثم أخبرهم بأن الإنجليز متمسكون ببناء المخافر على الحدود ، وألقى مسئولية بنائها على فيصل الدويش ، بسبب تعدِّيه على الحدود العراقية من وقت لآخر ، فاجتمعت كلمتهم حوله ، وحاربوا فيصل الدويش حتى أسروه ، وبهذا استقرّ الأمر للملك عبد العزيز ، لأنه قضى به على عوامل الفوضى فى مملكته ، حتى قال حين انتهى أمر فيصل الدويش : من اليوم سنحيا حياة جديدة .

وأمكن الملك عبد العزيز فى هذه الحياة الجديدة أن ينهض بأعمال الإصلاح فى مملكته ؛ فأنشأ التليفونات والتلغرافات وغيرها من وسائل الحضارة الحديثة ، وواصل ما بدأ به من تحضير البادية ؛ وكانت حركة الإخوان قد عاقته عن المضى فيه ، وأخذ ينشر المدارس لتعليم العلوم على الأنظمة الحديثة فى أنحاء المملكة . وقد هدأ الإخوان واستكانوا لسلطانه ، لأنه لم يعد لهم ذلك السلطان القاهر ، بل صار شأنهم كشأن غيرهم من الرعية ، ولم يحدث إلا أن مشايخ نجد أنكروا سنة (١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م) على دائرة المعارف أنها قررت فى مناهج التعليم تدريس الرسم واللغة الأجنبية وعلم الجغرافيا الذى يقرر كروية الأرض ودورانها ، فجمعهم الملك عبد العزيز وبحث معهم فى ذلك ، فلم يجد عندهم دليلا على ما ينكرونه من كروية الأرض ودورانها ، وقد قالوا له حين طال البحث : لقد قررنا ما نعتقد ، ولسنا فى حاجة إلى الجدل المنهىِّ عنه شرعا ، فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله ، وإن خالفَنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها .

ولا شك أن الملك عبد العزيز جرى حكمه فى كل هذا على أصول الشورى التى أتى بها الإسلام ، وإن لم يكن له مجلس نيابى مؤلف على النظام الحديث ، وله حكم قاطع دون كل حكم شخصى ، ولعل ما أخذ به نفسه من سيره فى الإصلاح بالتؤدة والتأنِّى ، ومن مراعاته استعداد الشعب لما يريده من الإصلاح ، وهو الذى منعه من التعجيل بتأليف مثل ذلك المجلس ، ولكنه استعاض عنه بأخذه بالشورى والعدل فى الحكم ، وإيثاره فيه المصالح العامة على المصالح الخاصة ، لأنه لم يراع فيه مصلحة لنفسه ولا لقرابته وحاشيته ، بل كان يميل إلى استرضاء الناس واكتساب مودتهم بإيثاره مصالحهم ، وكان كل ما يتعلق بشخصه لا أهمية له فى نظره ، حتى إن علماء الرياض لما اعترضوا على إذنه فى سنة (١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م) بإقامة الاحتفالات بعيد جلوسه على عرش الحجاز ، وذكروا له أن هذا مخالف للسنة ، خضع لرأيهم فى ذلك ، لأنه يتعلق بشخصه لا بالمصلحة العامة ، ولكن كل هذا لا يغنى عن المجالس النيابية .

وقد يقال إن الأمر فى الدولة السعودية لا يجرى على التملق للحاكم والخضوع له والشعور بانحطاط المنزلة عنه كما يجرى فى غيرها ؛ لأن الفريق الأكبر فيها ولا سيَّما البدو لا يعرفون الألقاب الشائعة عند غيرهم ، فهم شعبيون بفطرتهم ، يدعو بعضهم بعضا بأسمائهم المجردة ، ويخاطبون ملوكهم وأمراءهم بأسمائهم وألقابهم المعتادة ، فأصغر البدو كان يخاطب الملك عبد العزيز بقوله : يا عبد العزيز ، أو يا أبا تركى ، أو يا طويل العمر ، وإذا سأله عنه غيره يقول : الشيوخ أو الإمام - ولم يكن الملك عبد العزيز نفسه يعبأ بلقب الملك وغيره من ألقاب الملوك ، ولم تكن هذه الألقاب فى عهده تُعرف إلا فى الحواضر الكبرى مثل الحجاز ، لإلفهم لها قبل استيلاء الملك عبد العزيز على بلادهم .

وقد يقال إن الناس جميعا فى هذه الدولة سواء فيما عدا التفاضل فى الأنساب والإمارة ، فهم يكادون يتساوون فى جميع ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، لأنهم جميعا سواء فى نظر الشريعة الإسلامية التى يجرى الحكم عليها فى هذه البلاد ، فلا فضل هناك لشريف ولا لسيد ولا لحاكم على غيره ، بل كلهم سواء فى أحكام الشريعة الغرّاء ، وإذا تعدى أمير على رجل من الرعية أنصفه الحاكم الشرعى منه ، وردَّ إليه حقه الذى تعدَّى عليه .

وقد يؤيد ذلك بما ذكره الشيخ حافظ وهبه فى كتابه - جزيرة العرب فى القرن العشرين - أنه كان فى سنة (١٣٤٣ هـ = ١٩٢٥ م) زائرا للشريف خالد بن لؤى فى بيت الإمارة بمكة ، وكان أميرا لها ، فرأى أمام الشيخ ابن داود قاضى الخُرْمة وقاضى مكة فى أول عهد الاستيلاء النجدى رجلين يتخاصمان : أحدهما من الأشراف من سكان الطائف ، والآخر من صناع الساعات ، وكان هذا الشريف أعطى الساعاتى ناظورا لإصلاحه ، ولما أصلحه ادعى أنه لم يأت طبق الشرط ، وادَّعى الساعاتى أنه طبقه ، وطلب تحكيم رجل خبير بينهما ، فأراد الشريف أن يجلس بجوار الشريف خالد بن لؤى ، فنهره الشيخ ابن داود ، وأمره أن يجلس أمامه مع خصمه ، لأنهما سواء فى نظر الشرع ، ولما سمع الدعوى حكم على الشريف بما يقدِّره صانع خبير ، فقال الساعاتى : إن لم يقبل الشريف ذلك فأنا مستعد أن أرد إليه الناظور كما كان ، ولا أطالبه بشىء مطلقا . فقال الشيخ للشريف : وما تقول فى هذا ؟ فارتبك الشريف ، فالتفت إليه الساعاتى وقال : الحمد لله ، إن وقوفى معك جنبًا لجنب يساوى عندى الدنيا وما فيها ، لقد مضى وقت الظلم ، فقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجرة ، بل كانوا يضربوننا فى بعض الأحيان ، الحمد لله . وهنا أخذ الشريف خالد الناظور من الشريف ، وقال : لا نسلّمه لك حتى تسلم الأجرة التى يقدرها الخبير » .

وقد يقال إنه إذا كان الملك عبد العزيز لم يؤلف مجلسا نيابيا فإنه يكفيه عنه أنه عاش بين قوم هذا شأنهم ، إذ كان كل واحد منهم له أن يبدى رأيه فى حكومته ، وأن يفرض عليه رأيه فيها بالحق ، وقد عوّدهم على هذا مدة حكمه الطويل فلا حاجة بعده إلى مجلس نيابى .

قد يقال هذا كله ، ولكنه لا يغنى عن تأليف مجلس نيابى على النظام الحديث ، يجعل للشعب حقاً ثابتا فى مشاركة الحاكم فى كل ما فى الحكم من سلطة تنفيذية وتشريعية ، ويستقر به الحكم فى هذه البلاد التى عادت إلى فوضى الجاهلية ، وعادت إلى نظام القبيلة فيها ، لأنه لا شىء غير نظام الشورى الحديث يقضى على أثر ذلك الماضى كله .





عوائق التجديد الحديث

مضى نحو ثلاثة قرون على إدراك بعض ملوك المسلمين وأمرائهم وعلمائهم حاجة المسلمين إلى التجديد المناسب للعصر الحديث ، وعمل بعضهم فى ميدان التجديد العسكرى وبعضهم فى ميدان التجديد العلمى ، وبعضهم فى ميدان التجديد السياسى ، وبعضهم فى ميدان التجديد الاجتماعى ، وبعضهم فى ميدان التجديد الدينى ، ولكن المسلمين لم يصلوا إلى التجديد المطلوب فى هذه المدة الطويلة ، وها هم أولاء الآن لا يزالون متأخرين عن العالم الحديث فى أوربا وأمريكا بمراحل شاسعة ، بحيث يُعَدُّ ما وصلوا إليه فى التجديد الحديث شيئا تافها إذا قيس بما وصلت إليه أوربا وأمريكا ، ولهذا أسباب داخلية وأسباب خارجية نفصلها فيما يأتى :

(١) تمسك ملوك المسلمين وأمرائهم فى العصر الحديث بحكمهم الاستبدادى ، حتى إن من فكر منهم فى الإصلاح لم يتجاوز به الإصلاح العسكرى ، ولم يفكر فى إصلاح طريقة الحكم ، وقد كان الحكم الاستبدادى أسَّ الفساد فى المسلمين ، فلا يمكن أن ينجح إصلاح مع بقائه ، لأن الإصلاح يقوم مع بقائه على أساس فاسد ، ولا يمكن أنْ يَصلح البناء مع فساد الأساس ، فالحكم الاستبدادى يباعد بين الحاكم والرعية ، فلا يشعر الحاكم فى نفسه بعطف عليها ، ولا يقوم حكمه على أساس الإخلاص لها ، وبهذا لا يشعر بحقها فى النهوض ؛ لأنها إذا نهضت تشعر بما لها عليه من حقوق ، وتحاول أن تشاركه فى حكمها ، ليكون حكمًا دستوريا صالحا ، تراعَى فيه مصلحتها وحدها ، وهذا يأباه ما طُبِعَ عليه من الاستبداد ، وما جُبِلَ عليه من حبه لمصلحته وحده . وقد بادلت الرعية حُكامها المستبدِّين تنكرًا بتنكُّر ، فلم تخلص لحكمهم ، ولم تثق بأفعالهم ، وكان لهذا أثره فى إخفاق الإصلاح الذى فكر فيه بعض الملوك والأمراء وفى إخفاق الإصلاح الذى فكر فيه بعض الرعية ؛ لأن الملوك والأمراء المصلحين فى الحالة الأولى لم يجدوا من رعيتهم استجابة لإصلاحهم ، بل وجدوا إساءة ظن منها به ، وإيثارا للقديم الفاسد عليه ، ولأن من فكر فى الإصلاح من الرعية فى الحالة الثانية لم يجد من ملوكهم وأمرائهم استجابة له ، بل وجد اعتقادا بأنه محاولة للثورة عليهم ، ولولا ذلك لاتفقت كلمة الفريقين معا على الإصلاح ، وكان اتفاقهما أعظم وسيلة للنجاح .

(٢) أن الذين قاموا بالإصلاح فى تلك القرون لم يأتوا به كاملا ، بل أتوا ببعضه وتركوا بعضه ، فكان لما تركوه أثر فى عدم نجاح ما أتوا به ، لأن الشخص إذا أصيب

بأمراض لم ينفعه إلا أن يُداوَى منها كلها ، فإذا شفى مرض منها لم يصح الجسم بشفائه وحده ، بل أبطل فيه ما بقى منها أثر ما شفى منها ، وقد كان ملوك المسلمين وأمراؤهم أول من تنبه من تلك القرون إلى حاجتهم إلى الإصلاح ، ولكنهم لم يدركوا إلا أنه إصلاح عسكرى ، لأنهم شاهدوا دول أوربا تغلبهم بجيوشها الحديثة ، فلم يهمهم إلا إصلاح جيوشهم ، وإلا أخذها بالأنظمة الحديثة التى أخذت أوربا جيوشها بها ، ولم يعلموا أن أوربا لم تصل إلى تنظيم جيوشها إلا بعد أن تمت نهضتها العلمية والدينية والاجتماعية والسياسية ، فكان إصلاح جيوشها كالنتيجة لهذه النهضة ، فلما بدأ ملوكنا بالإصلاح العسكرى قبل أن يقوموا بمثل هذه النهضة فى بلادهم كانوا كمن يأخذ بالنتائج قبل المقدِّمات ، ويبدأ بالمسبِّبات قبل الأسباب ، فيبنى ما يأتى به من الإصلاح على غير أساس ، والبناء إذا قام على غير أساس لا يلبث أن ينهار ، ولا يكون له فائدة إلا ضياع الأموال .

(٣) أن جمهور علماء الدين مضوا على جمودهم فى تلك القرون ، فلم يتنبه منهم إلى الإصلاح إلا نفر يُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة ، وبقى جمهور العامة وراء هؤلاء العلماء الجامدين ، ولم يتبع المصلحين منهم عدد يمكنه أن ينهض بالإصلاح ، ويكون له قوة تضاهى قوة أصحاب الجمود ، أو تكون أشد من قوتهم ، فتقف وراء الإصلاح تحميه وتؤيده ، حتى يظهر أثره بين المسلمين ، ويدرك فضله من لا يدركه من الجامدين .

(٤) أن ملوك المسلمين وأمراءهم لم يؤيدوا الحركة الإصلاحية فى بلادهم ، بل نظروا إليها على أنها ثورة من القائمين بها عليهم ، وأخذوا يحاربونها بكل ما فى وسعهم ، فلقى المصلحون منهم ما لقوا من تعذيب وسجن وقتل ، وآثر بعضهم أن يحتمى بالدول الأجنبية على أن يستجيب لحركة الإصلاح ، فاستعدى بالطامعين فى بلاده على أهلها ، ومكَّن لهم من نفسه قبل أن يمكِّن لهم من رعيته .

٥) أن دول أوربا كانت تناوىء كل حركة إصلاحية بين المسلمين ، فإذا رأت أمة إسلامية أخذت فى الإصلاح شنت عليها حربا تشغلها عنه ، أو سلطت جواسيسها يسعون بالفساد بين طوائفها ، حتى تقوم فيها فتن داخلية تعترض أعمال الإصلاح ، ولا تمكِّن القائمين به من المضىِّ فيه ، كما حاربت انجلترا جمال الدين الأفغانى فى الهند وفى مصر ، ولم يكن ذنبه عندها إلا أنه يسعى فى إصلاح المسلمين ، وهى لا تريد هذا الإصلاح لهم ، لأنهم يصلون به إلى مناهضتها فى بلادهم ، ومزاحمتهـــا فى خيراتها التى تستأثر بها دونهم ، وهذا هو الاستعمار الجشع الذى يبغى الفساد فى الأرض ، ويعمل على القضاء

على من ابتُلى به ، كما حصل منه فى أهل أمريكا وأستراليا ، ثم يتبجح بأنه يعمل لنشر الحضارة بين الشعوب المتأخرة ، ليستر أعماله القبيحة ، ويخفى نواياه الخبيثة ·

وهذه هى أهم الأسباب التى كان لها أثرها فى عدم وصولنا إلى التجديد الحديث فى هذه القرون ، فإذا أردنا أن نسير بعد هذا فى التجديد عرفنا ما عاق منها عن نجاحه ، واتقينا فى المستقبل أخطاء الماضى ، لنسلك فى الإصلاح وسائله الصحيحة ، ونأخذ فى التجديد بالأسباب الموصلة إلى النجاح ، ولا يمكن هذا إلا إذا علم ملوكنا وأمراؤنا وأولياء الأمر فينا أنه لا بقاء لنا ولهم إلا بالتجديد والإصلاح ، وإلا إذا علم الجامدون منا أن المنادين بالتجديد مخلصون للدين مثلهم ، ولا يريدون إلا النهوض به بين الأمم ، فإذا علم هؤلاء وأولئك ذلك خلصت النيات ، وأمكن الاتفاق على الوسائل التى تؤدى بنا إلى ما لم نصل إليه من التجديد الحديث ·

* * *



الأمل فى التجديد الحديث

قد يظن بعض الناس أن التجديد فى الإسلام انتهى أمره ، وأنه كان فيه أمل حين كان للمسلمين دول مثل الدولة العثمانية التركية ، إذ كانت على ضعفها تحكم كثيرا من الأقطار الإسلامية ، وتُعنى بأمر الإسلام والمسلمين ، أما الآن فقد ذهبت هذه الدولة التى كانت البقية الباقية للإسلام ، وحلت محلها جمهورية صغيرة قصرت نفسها على العنصرية التركية ، ونفضت يدها من المسلمين بعد أن تألبوا على تلك الدولة مع أعداء الإسلام ، فتركتهم ما بين أمة قد استولى الأعداء على الحكم فيها ، وأمة مغلوبة على أمرها لهم ، وإن كان قد بقى شىء من مظاهر الحكم بيد أهلها ، وبهذا صارت سياسة المسلمين بيد هؤلاء الأعداء ، يصرِّفونها على ما تقتضيه مصلحتهم ، وهى تقتضى أن يبقى الإسلام جامدا ، لينتقل بين أهله فى جمودهم من سىء إلى أسوأ ، ولا يكون لأهله أمل فى ذلك الإصلاح والتجديد الذى يعيد لهم مجدهم ، ويخلِّصهم من يد أعدائهم .

ولا شك أن ذلك ظن خاطىء ، ولا يتوهمه إلا الذين يظنون أن الإســلام قام بالقوة ، وانتشر بين الناس بالسيف ، وهم أعداء الإسلام جميعا ، لأنهم يرون أنه دين باطل لم ينتصر على غيره لأنه حق ، وإنما انتصر بالقوة والسيف ، ويوجد قوم من المسلمين الجامدين يشاركون أولئك الأعداء فى هذا الظن الخاطىء ، ويرون بجهلهم أن من لا يذهب فى مذاهبهم يكون خارجا على الدين ، لأنه يحمل أهله على التواكل فى نصرة دينهم ، ويجعلهم يهملون فى الاستعداد بالقوة لأعدائهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ ﴾ (1) وهم فى هذا الظن الخاطىء كالصديق الجاهل ، يضرون الإسلام بجهلهم أكثر مما يضره أعداؤه ، لأن هؤلاء الأعداء إذا رأوا مثل هذا فى الإسلام لا يعد رأيهم حجة عليه ، ولكن هؤلاء الأصدقاء الجهــلاء يعدُّ رأيهم فى الإسلام حجة عليه عند هؤلاء الأعداء فيزيدونهم نفرة منه ، وقوة فى اعتقاد بطلانه ، مع أن ما وجب علينا من التبليغ يقتضى أن نكون مرغِّبين لا منفرين ، ومحببين لا مكرهين .

والحقيقة أن القوة آخر ما لجأ إليه الإسلام مع أعدائه ، وأنه لم يلجأ إليها فى سبيل الدعوة إليه ، ولا فى سبيل نشره بين الناس ، وإنما لجأ إليها فى دفع أذى هؤلاء الأعـداء ،

---

(1) الأنفال : الآية ٦٠ .

ولحماية أتباعه من أن يفتنهم أعداؤهم بالقوة عنه ، ليتمتع المسلمون بالحرية الدينية التى هى حق الإنسان ، ولا يتمتع غيرهم بها وحده ، وقد أقر الإسلام هذا الحق من حقوق الإنسان قبل أن يقره فلاسفة العصر الحديث ، فقال تعالي : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (١) وقال تعـالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٢)وإذا كان الإسلام قد سبق إلى إعلان هذا الحق من حقوق الإنسان - حق الحرية الدينية - فإنه يجب أن يتمتع أهله بهذا الحق كما يتمتع غيرهم به ، ويجب أن يكون لهم حق استعمال القوة فى الحصول عليه ، وأن يقاتلوا من يريد أن يحرمهم منه ، وقد قضى الإسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة يدعو بالسلم ، ولا يلجأ إلى شيء من القوة ، ونال أهله فيها ما نالهم من التعذيب والتشريد والقتل ، فلم يفكر فى مقابلة القوة بمثلها ، ولا فى الاعتداء على من اعتدى عليه ، ولا ننكر أنه كان ضعيفا فى مكة قبل الهجرة إلى المدينة ، ولكن أتباعه لم يكن يعجزهم أن يستعملوا القوة فى السر ، فيغتالوا من أعدائهم فى السر بمن قتل منهم ، وينشروا الإرهاب بين أولئك الطغاة الذين استضعفوهم ، كما يفعل غيرهم ممن يدخل فى دعوته استعمال القوة ، ويجعلها ركنا من أركان الدعوة ، وإنما صرفهم عن هذا أن الإسلام لم يكن فى تلك المدة يبيح استعمال القوة أصلا ، حتى فيما أباحه بعد الهجرة من الدفاع عن النفس ، لأن القوة لم تكن تدخل فى حسابه ، بل كان يرى أن يمضى فى هدوء ، ليدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيدخل فيه من يدخل عن إيمان ويقين ، ولا يزحزحه عنه ما يصيبه من تعذيب وتشريد وقتل ، ويعدُّ بهذا جيلا يكون الواحد فيه خيرًا من عشرة ، بل قد يكون خيرًا من ألف ، وقد يكون خيرا من أربعة آلاف .

فإذا كان المسلمون قد ذهبت القوة الآن من بينهم ؛ وإذا كان أعداؤهم قد بلغوا من القوة مبلغًا لم يكن يتصوره العقل ، وإذا كان الفرق فى القوة بيننا وبينهم قد عظم بقدر بلوغهم فى القوة هذا المبلغ ، وإذا كنا لا يمكننا الآن أن نصل إلى هذه القوة التى وصلوا إليها ، فإن عندنا من قوة الحق فى الإسلام ما لا تذكر معه قوتهم ، وهى القوة التى اكتسحت جزيرة العرب التى استعصت على الفاتحين قبله ، ثم اكتسحت دولتى الفُرْس والروم ، وقد كانوا أقوى جندًا وأكثر عددًا ، ولكن جند الحق أقوى من جند الباطل ، وقد كان العالم يئنُّ تحت الظلم والجبروت ، فوجد فى الإسلام دواء لما فيه من فساد سياسى ودينى واجتماعى ، لأنه يأخذ بيد الفقراء والضعفاء ، ويسـوى فى العدل بينهم وبين

---

(١) البقرة : آية ٢٥٦ .	(٢) الكهف : آية ٢٩ .

الأقوياء ، فاجتذب نفوس الناس إليه اجتذابا ، وأوهن من نفوس الأقوياء ما أوهن ، وإذا القوة فى سبيله ضعف ، وإذا الجبروت فى طريقه خضوع ، وإذا النصر له بقوة الحق لا بقوة الجند ..

وإنى أرى أن مشكلة الإسلام الآن ليست فى ضعف أهله ، وإنما هى فى جمودهم وجهلهم به ، وفى أن أعداءهم أقوى منهم علما وأخلاقا ، على ما فى علمهم وأخلاقهم من نقص فى التوجيه ، وانحراف عن الغاية التى تسمو بالعلم والأخلاق ، فإذا كنا الآن ضعفاء فقراء فإن ضعفنا وفقرنا لا عيب فيه علينا ، وإنما العيب فى جهلنا بديننا ، وفى ضعف أخلاقنا ، وفى أننا صرنا بهذا حجة على الإسلام بدل أن نكون حجة له ، حتى إنه ليمكن أن يعذر أعداؤه فى جهلهم به ولا نعذر نحن فى هذا الجهل ، وحتى إن الطمع فى وصولهم إلى الإسلام الصحيح أقوى من الطمع فى وصولنا إليه ، لأنهم يجهلون الإسلام جهلا بسيطا ، ونحن نجهله مركبا ، والجهل البسيط أقرب شفاء من الجهل المركب .

فلو كنا الآن على الإسلام الصحيح الذى كان عليه سلفنا الصالح ، ولو كنا الآن على الأخلاق القويمة التى كانوا عليها ، للفتنا نظر أولئك الأعداء إلى محاسن ديننا ، ولصرنا حجة له بدل أن صرنا حجة عليه ، وهنالك نكسب منهم على ضعفنا أكثر مما كسبوه منا ، لأنهم كسبوا بلادنا ولم يكسبوا نفوسنا ، ونحن نكسب بهذا نفوسهم ، ونفس الإنسان أعز عليه من بلده ، بل أعز عليه من ماله وولده .

والسبيل إلى هذا لا يزال ممكنا ، وإن كان أصعب مما كنا عليه فى عهد الدولة العثمانية التركية وما عاصرها من الدول الإسلامية ، وهو أن نفهم ديننا فهما صحيحا ، ونعود إلى العمل به بعد فهمه على حقيقته ؛ حتى يكون عملنا به على حقيقته حجة له على غيرنا ؛ ثم نترجم أصوله وفروعه الصحيحة إلى كل اللغات ؛ ونبلغه تبليغا صحيحا إلى كل الأمم ، وبهذا ترقى أولاً أعمالنا وأخلاقنا ؛ ولا يكون فيها ما يؤثر فى تبليغنا دعوة الإسلام إلى غيرنا ، فتقوم الدعوة على مقدمات صحيحة ، ومتى قامت الدعوة على هذه المقدمات أدت إلى نتائجها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، كما كانوا يدخلون عندما كانت الدعوة قائمة على هذه المقدمات ، ولم يكن هناك من الموانع ما يؤثر فى تأديتها إلى نتائجها ، ويشوه بين الناس محاسنها .

فإذا كسبنا للإسلام أمة من هذه الأمم القوية أعادت له مجده السالف ، وأخذت من الماضى عظة للمستقبل ، فأبقته دينا طاهرا نقيا ، وجعلت الدعوة إليه دعوة كريمة بريئة ، تجتذب النفوس بما فيها من نقاوة وقداسة ، وتستهويها بما فى نفوس أهلها من طهارة

وبراءة ، ولا تقع فيما وقعت فيه من أخذ الناس بالعنجهية والعجرفة ، ومعاملتهم بالغلظة والشدة ، وهنالك يتبع هـذه الأمة كثير من الأمم ، حتى يصير الإسلام أظهر دين فى العالم ، إن لم يصر هو الدين الذى تجتمع عليه كل الأمم .

ولا يصح أن يقع هذا منا موقع الاستغراب ، لأن العالم سيصير قريبًا إلى تحوُّل خطير ، فقد بدأ يثور الآن على الاستعمار الأوربى الجَشع ، بعد أن أوقعه فى تلك الحروب الشديدة المخرِّبة ، وصار يتنافس فى آلات الدمار والخراب إلى أن وصل إلى القنبلة الذرِّية والهيدروجينية ، ولا يدرى إلا الله ما يصل إليه بعد هذا مما يهدد بخراب العالَم .

فأخذت الشيوعية تغزو نفوس الأفراد والشعوب بشكل لم يكن متوقعا ، وإنما ذلك الاستعمار الجشع هو الذى يزينها للناس ، لعلها تقربهم من يوم الخلاص ، ولعل الشعوب تجتمع عليها بعد أن فرقتها الأديان ، فتبطل الحروب بها ويسود السلام ، ولا شك أن الشيوعية إذا لم تنقلب إلى استعمار كما هى الآن أخفُّ ضررًا من ذلك الاستعمار الجشع ، ولكنها لا تبلغ مبلغ الإسلام فى عمله لسعادة الدنيا والأخرة ، وفى إطلاقه للناس حرية العقيدة ، وفى جعله جميع الناس سواسية فى الدولة ، لا يفرق بينهم فيها دين ولا يميز بينهم فيها عقيدة ؛ لأنه يجد مجالا للتفرقة بينهم فى الآخرة ، إذ يثاب فيها المحسن ، ويعاقَب فيها المسيىء ، أما الشيوعية القائمة الآن فأنها لا تدين إلا بالدنيا ، ولهذا لا تجد مجالا للتفرقة بين الناس فى غيرها ، فتضيق بغير الشيوعية ولا تقبله فى دولتها ، وتفرق بهـــا فى الدنيا بين الناس ، فتثيب فى الدنيا من ينتحلها ، وتعاقب فيها من لا يتخذها عقيدة ، وهذا هو ظلم الاستعمـار الجشع بعينه ، ولا فرق بينه وبينها إلا أنه يقيم التفرقة بين الناس على أساس الاختلاف فى الجنسية ، وهى تقيمها على أساس الاختلاف فى العقيدة .

فالإسلام إذن أقرب إلى الطبيعة البشرية من هذه الشيوعية ، ولكنه لا يجد دولة قوية ترعاه كما تجد الشيوعية فى دولة روسيا ، ولو وجد دولة قوية ترعاه لأقبل الناس عليه دون هـــذه الشيوعية ، لأنه يسعها هى وغيرها من العقائد فى الدنيا ، وهى لا تتسع لعقيدة غيرها ، فهو أوسع منها أفقا ، وأسمى منها غرضا ، وأكمل منها عدالة ، وأرأف منها بالناس جميعا ، فإذا وجد دولة قوية ترعاه وتدعو إليه لم تقف أمامه هذه الشيوعية التى تستهوى الناس الآن ، ولم يقف غيرُها من كل دعوة لا تساميه فى صحة العقيدة ، ولا فى العمل لسعادة الدنيا والآخرة .

وقد يكون السبيل إلى نهضة الإسلام وتجديده ممكنا من ناحية أخرى ، لأنه إذا لم يجد من يقوم بالدعوة إليه فسيخلو الجوُّ للشيوعية الإلحادية وحدها ، وسينهزم أمامها ذلك

الاستعمار الأوربى الجشع ؛ لأن الشعوب التى ابتليت به تعمل بكل ما فى وسعها للتخلص منه ، فإذا يئست آثرت أن ترتمى فى أحضان الشيوعية على أن تبقى مستعبدة له ، وكذلك الشعوب التى استعبدت الناس به قد صارت منقسمة عليه ، وصار كثير من طوائفها يرى أنه قد صار نقمة عليها أيضا ، لأنه يجرُّها من حرب إلى حرب ، ويضيع عليها من النفوس والأموال أكثر مما تستفيدها منه ، فأخذ يتجه نحو الشيوعية ويناصرها على حكوماته ، ويعمل على قلب نظام الحكم فيها ليصير شيوعيا أيضا ، ولو جرى الحال على هذا المنوال فستعم الشيوعية العالم كله ، وسيفضِّلها الناس على ذلك الاستعمار الجشع الذى يؤدى إلى التنافس بين الشعوب ، ولا يمكن أن ينتهى بالعالم إلى عهد سلام ووئام ·

فإذا خلا الجو للشيوعية الإلحادية بهذا الشكل قضت على العصبيات الدينية والجنسية ، وانتهى بها ذلك التعصب الأعمى للدين والوطن ، فيمتد السبيل للنظر فى الإسلام بعين الإنصاف ، بعد أن يأخذ العالم حظه من الشيوعية الإلحادية ، ويتخلص من التأثر بسحرها ، ويتطلع إلى نظام يطمئن إليه فى حاضره ومستقبله ، ويكفل له السعادة فى دنياه وأخراه، ويرضى ما ركز فى نفسه من الإيمان بعالم وراء هذا العالم ، حتى يكون لعالمنا هذا غاية ، ولا يكون عبثاً لا غاية له ، وهنالك يقيض الله تعالى للإسلام أمة جديدة تنظر إليه بتلك العين البريئة ، ولا يَحول بينها وبين التجديد فى الإسلام ذلك الجمودُ الذى تتأثر به الأمم المسلمة القديمة ، ولا يكون هذا مصداق الحديث المعروف « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وقد يتم هذا بمجدد منتظر يقوم بين هذه الأمة الجديدة ، أو بين الأمم المسلمة القديمة ، ولله الغيب وحده ·

* * *



المجدد المنتظر

انتشرت بين المسلمين بعد انحراف الحكم فيهم عن طريق العدل فكرة المهدى المنتظر ، وهى غير ما نعنيه من فكرة المجدد المنتظر ، لأن فكرة المهدى المنتظر ظهرت أولا بين طائفة الشيعة من العلويين والعباسيين ، فالعلويون يزعمونه منهم ، والعباسيون يزعمونه منهم حين آل الأمر إليهم ، ولهم فيه أحاديث مروية عن النبى ﷺ ، وقد استوفى ابن خلدون فى مقدمته الكلام عليها ، وأثبت فيها ضعف أسانيدها ، ولكنها مع هذا اشتهرت بين جمهور العامة ، حتى تناقلوا فيما بينهم أنه لا بدَّ فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ، ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولى على الممالك الإسلامية ، ويسمًّى بالمهدى ، ويكون خروج الدجَّال وما بعده من أشراط الساعة على أثره ، ثم ينزل عيسى عليه السلام من بعده فيقتل الدجال ، وقيل إنه ينزل معه ويساعده على قتله ، ويأتمٌ به فى صلاته ، وذكروا أن اسمه يوافق اسم النبى ﷺ ، وأن اسم أبيه يوافق اسم أبيه .

وكان أبو جعفر المنصور ثانى ملوك العباسيين أول من أراد منهم أن يستغلَّ فكرة المهدى المنتظر ؛ لأنه كان يسمًّى عبد الله ، وكان له ابن يسمى محمدا ، فأراد أن يجعل منه المهدى المنتظر ، وكانت قد ظهرت تنبؤات لعلها وُضعت فى عصره أو قبله تفيد أن ذلك المهدى منهم ، ومنها ما روى عن ابن عباس عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : اللهم انصر العباس وولد العباس - قالها ثلاثا - ثم قال : « يا عم ، أما شعرت أن المهدى من ولدك موفقًا راضيًا مرضيًا ؟ » .

وكان أبو العباس السفاح أول ملوك العباسيين قد بايع من بعده لأخيه أبى جعفر المنصور ، ثم من بعده لابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما تولى أبو جعفر المنصور بعد أخيه أبى العباس السفاح أراد أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، ويجعلها لابنه محمد ، فلقَّبه بالمهدى ، وأشاع عنه تلك الأحاديث والتنبؤات التى تقصد إلى تقديسه ، وتشير إلى أنه حين يظهر يملأ الأرض عدلا ، ثم اجتهد فى ترغيب الناس فيه ، حتى التفوا حوله ، وانضم إليه وجوه الدولة ، ولما تم له ذلك أخذ يزعم أنه فِعلُ الله تعالى وحده ، وأنه هو الذى أشرب قلوب الناس مودته ، ووضع فى صدورهم محبته ، فصاروا لا يذكرون إلا فضله ، ولا ينوهون إلا به ، ولا يجرى على ألسنتهم إلا ذكره ، لمعرفتهم إياه بعلاماته واسمه .

ثم أقدم أبو جعفر المنصور بعد هذا على ما أراده من خلع عيسى بن موسى ، ليجعل

ولاية العهد لابنه المهدى دونه ، وزعم أن ما أقدم عليه تنفيذٌ لما أراده الله من ولايته ، لأنه أمر تولاه الله وصنعه ، ولم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذاكرة ، ولكن هذا لم ينطل على عيسى بن موسى ، فأَبَى أن يذعن لعمه أبى جعفر المنصور فيما أراده من خلعه من ولاية العهد ، فلم يزل يأخذه بوسائل القهر والإغراء ، حتى خضع لِما أراد وترك ولاية العهد لابن عمه المهدى ، فلما قام بعد أبيه أبى جعفر لم يزد أمره على من قبله من الملوك ، ولم يملأ الأرض عدلا كما زعمت تلك التنبؤات ، بل ظهر أنها لم تكن إلا حيلة لما أراده أبو جعفر المنصور من نقض العهد ، وقطع رحم ابن أخيه ، وإيثار ابنه عليه بالبغى والظلم .

ثم مضى كل من أتى بعد أبى جعفر المنصور وأراد أن يستغل فكرة المهدى المنتظر على هذه الوتيرة ، يسلك فى أمره سبيل الخداع ، ويزعم أنه لم يقم إلا بوحى من الله ، ثم لا يلبث حتى تظهر حقيقته ، ويتبين أنه ليس إلا طالب ملك ، وأنه لم يجد وسيلةً إليه إلا هذه الحيلة ، ؛ لأنه لا يملك وسيلة غيرها من عصبية أو نحوها .

ولو تتبعنا آثار فكرة المهدى المنتظر فى المسلمين لوجدنا أنها كانت دائما داعية تفريق بينهم ، لأن كل من ظهر بها كانت حيلته لا تنطلى إلا على قليل من الناس ،فيحدثون انقسامًا بين المسلمين ، ويثيرون حروبًا شديدة بينهم ، ثم لا يستفيدون من ذلك شيئاً إلا هذه التفرقة ؛ فلا إصلاح ولا تجديد ، ولا عدل ولا إنصاف ، لأنه لا يرجى مثل هذا ممن يحتال على الناس بهذه الفكرة ، ويخدعهم بأمانىَّ يُخفِى وراءها أمانيه الخاصة .

أما فكرة المجدد المنتظر فتدخل فى فكرة المجدد الذى يبعث على رأس كل مائة سنة ، لا يبغى صاحبها ملكًا بين الناس ، ولا يزعم أنه يقوم بوحى من الله ، وإنما يدعو إلى التجديد والإصلاح بطريق الاجتهاد ، ويؤيد دعوته بالدليل والبرهان ، لا بتلك التنبؤات الموضوعة ، ولا بدعوى الولاية والتأييد من الله تعالى ، لأن الله تعالى قد أغلق الدعوة بهذه الوسائل بعد النبى ﷺ ، وفتح باب الاجتهاد للناس ، ليصلوا إلى ما يلزمهم من التجديد والإصلاح فى كل عصر ، وتكون وسيلتهم إليه الإقناع بالدليل ، ليؤمنوا بالإصلاح عن علم ، ويأخذوا بالتجديد عن فهم .

وهذا إلى أن فكرة المجدد المنتظر تقوم بين المسلمين والدنيا مقبلة ، فينهض المجدد المنتظر بهم والدنيا لا يزال فيها أمل ، ويسترد ما ضاع من مجدهم ، ويعيد ما ذهب من دنياهم ، ويكون لهم فى ذلك أمل فسيح كالذى كان لهم فى أول أمرهم ، أما فكرة المهدى المنتظر فإنها تقوم بين المسلمين والدنيا مدبرة ، والآخرة مقبلة ، فلا يكون فيها أمل فسيح أمامهم ، ولا يستعيدون فيها مثل العصور التى كانت لهم ؛ وإنما هى صحوة كصحوة الموت ، وبرقٌ يلمع ثم ينطفىء فى لمح البصر .

ومما تمتاز به فكرة المجدد المنتظر على فكرة المهدى المنتظر أن دعوة الأولى خالصة

بريئة ، لا غش فيها ولا تصنُّع ، ولا خداع ولا احتيال ، ولا إكراه ولا قهر ؛ لأن صاحبها لا يتطلب منها إلا الإصلاح ، فلا يثير بها فتنة بين المسلمين ، ولا يحدث بها حروبا بينهم ، لأنه طالب إصلاح وتجديد لا غير ، وطالب الإصلاح والتجديد ليس إلا عالما من علماء المسلمين ، لا يملك من دنياه إلا علمه ، ولا يعتمد فى تأييد دعوته إلا على دليله وبرهانه ، فمن آمن بدعوته كان له أجر هدايته ، ومن لم يؤمن بها لم يحمل شيئا من وِزره ، ومع هذا لا يكون هناك ما يُضغِنُ قلبه ، حتى يثير بضغنه فتنة ، أو يقيم به حربا ، وإنما يهمه أن تنتصر دعوته بالسلم ، لترتفع أعلام الإصلاح ، وتظهر آثار التجديد ، وينهض المسلمون فى دينهم ودنياهم ، ويكون له بهذا فضل هدايتهم ، وشرف الجهاد فى الإصلاح والتجديد بينهم .

ثم إن دعوة المجدد المنتظر لخلوِّها من التلبيس الموجود فى دعوة المهدى المنتظر يمكن أن يتفق المسلمون عليها ، بل يمكن أن يقع الاتفاق عليها من الناس جميعا ، فينتقل بها المسلمون إلى عهد وئام وسلام ، ويمكن أن ينتقل بها الناس جميعا إلى هذا العهد ؛ لأنها تقوم على أساس الإقناع بالدليل ، فمن الممكن أن يقتنع المسلمون بها جميعا ، ومن الممكن أن يقتنع الناس بها جميعا ، بخلاف دعوة المهدى المنتظر ، فإن المسلمين لا يتفقون على تصديقها ، وإذا لم يتفق المسلمون على تصديقها لم يتفق عليه غيرهم من باب أولى ، لأنها تعتمد على أحاديث وتنبؤات لم يتفق على صحتها ، وترمى إلى أغراض سياسية يُقصد بها مصلحة الداعى إليها ، فإذا قامت لابَسها الاتهام من كل ناحية ، وأحاط بها الشك من كل جانب ، فلا تنجح فى التأثير على كل الناس ، بل تؤدى إلى اختلاف الناس عليها ، وإذا كان هذا شأنها كانت دعوة خلاف وخصام لا دعوة اتفاق وسلام .

ويكفى دعوة المجدد المنتظر أنها تشبه دعوة الأنبياء والرسل فى نبل الغرض ، وفى خلوِّها من الخداع والتلبيس ؛ لأن دعوتهم كانت بريئة خالصة من دعوة نوح إلى دعوة محمد عليهما السلام ، فيقول نوح لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) ويقول هود لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ويقول الله تعالى عن النبى ﷺ : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وإنه ليجب على المسلمين بعد هذا أن يزيلوا من نفوسهم فكرة المهدى المنتظر ، وأن يضعوا بدلها فكرة المجدِّد المنتظر ، لينهض بهم فى هذا الزمان ، ويصير بالناس إلى عهد السلام والوئام .

* * *

---

(١) يونس : آية ٧٢ . (٢) هود : آية ٥١ . (٣) يوسف : آية ١٠٤ .

فهرس الأعلام

(الخاء)

(الدال)

(الظاء)

(العين)

(النون)

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

* * *



كتب إسلامية للمؤلف :

(١) لماذا أنا مُسلم ؟ :

٢٠ مناظرة بين مسلم وقس مسيحى يتبين من نتيجتها أن للإسلام مزايا لا يشاركه فيها غيره من الأديان بأسلوب عصرى حديث .

(٢) النظم الفنى فى القرآن

يوضح مجمل معانى كل سورة على حدة حتى تصير وحدة منسقة ويبين الأطوار والأغراض التى نزلت السورةِ من أجلها .

(٣) القضَايا الكبرى فى الإسْلام

دراسة جديدة لأشهر القضايا الإسلامية جنائية ومدنية ، من عصر النبى محمد ﷺ إلى العصر الحاضر .

(٤) تَوْجِيهاتٌ نَبَويَّةٌ

أربعون حديثا نبويًا اختارها المؤلف من الأحاديث المشتملة على توجيهات جديدة للمسلمين فى حاضرهم ومستقبلهم ، وقد شرحها المؤلف شرحا وافيا يبين ما فيها من تلك التوجيهات .

رقم الإيداع	١٩٩٦/٥٦١٢
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977. 241.126.8